

مصر القديمة

في مدنية مصر وثقافتها
في الدولة القديمة والعهد الأهناسي

سليم حسن

مصر القديمة

تأليف

سليم حسن

الجزء الثاني

في مدنية مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الإهناسي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

مقدمة الجزء الثانى

بسم الله والحمد لله وبعد فأقـدم الجزء الثانى فى « مصر القديمة » وهو يبحث فى مدنيـة الدولة المصرية القديمة حتى الأسرة العاشرة ومـا يتصل بها من نظمها الأجتماعية والسياسية والثقافية وهو يعـد كسابقه يلم بجميع أطراف الموضوعات التى تعرّض لها ، وكثيراً ما كانت الرغبـة فى الاستيفاء والأجادة داعية إلى أن يتخطى فى بحوثه عصور الدولة القديمـة وأن يستنجد بما عداها فى تدعيم نظرية أو توضيح رأى أو تقرير بحث.

ولقد كانت مهمتى أن أفتح الطريق وأذلل صعابه وأنبه إلى مخاطره ومزالقه . وعلى زملائى وتلامذتى أن يكملوا ما بدأت ويحققوا مـا حاولت وأرجو أن يصلوا إلى خدمة الوطن والتاريخ من أقوم طريق والسلام ؟

سليم حسن

الحكومة فى عهد الدولة القديمة

(١) المملكة الطينية واداراتها

(٣٤٠٠ - ٢٩٨٠ ق م)

كانت الحكومة فى العهد الطينى حكومة ملكية مطلقة قوامها ملك مؤله، ولذلك يجب البدء بالملك عند درس المدنية المصرية فى هذا العهد. والذى نعرفه أن الملك فى هذا العصر كان يمثل الإله الأعظم للقطر، أى الإله «حور» وهذا هو السبب فى أن أول إسم ملكى هو الحورى. وكان يكتب فى داخل رسم قصر يعلوه صورة إله الصقر «حور». ولما تم اتحاد القطرين كانت هذه الحادثة تخلد ذكرها برمز دينى؛ فكان يوضع الملك تحت حماية إلهتين كانتا تقدسان فى عاصمتى البلاد القديمتين. وهما إلهة النسر التى كانت فى الكاب «نخبت» وإلهة الصل فى «بوتو» «وازيت» وبذلك أصبح له اسم آخر وهو «نبتى» كما سبق ذكره.

ألقاب الملك

وكذلك عندما نذكر اتحاد شطرى القطر القديمين نعيد إلى ذاكرتنا احتفال تتويج الملك. وهذا الاحتفال كان يمثل فى ثلاثة مناظر: (١) ظهور ملك الوجه القبلى، وملك الوجه البحرى. (٢) ثم اتحاد المملكة الثنائية. (٣) والطواف حول الجدار. وكانت هذه الاحتفالات تقام فى مصر طوال كل عصور التاريخ المصرى.

الاحتفال بتتويج الملك

أما الاحتفال بهذه المراسيم فكان كما يأتى: أولا كان يلبس الملك التاج الأبيض لمصر العليا ثم يصعد إلى رصيف وضع عليه تاج. وكان هذا المنظر يطلق عليه (طلعة ملك الوجه القبلى). ثم يلبس الملك التاج الأحمر للوجه البحرى ويصعد كذلك على الرصيف وهو لابس التاج الأحمر

وكان يطلق على هذا المنظر (طلعة ملك الوجه البحرى) واحتفال إتحاد المملكة الثنائية يتكون من دق وتد فى الأرض، وحوله يزرع نبات رمز الوجه القبلى ونبات رمز الوجه البحرى (البردى والبشنين) أما احتفال الطواف حول الجدار فتفسيره غامض بعض الشيء ولكن يظن أن من أهم الأمور التى قام بها ملوك طينة هو إقامة جدار بالقرب من المكان الذى أسست عليه منف، حماية للجنوب من هجمات أهل الدلتا ، ويقال إن الملك عند ما كان يلف حول هذا الجدار ، يحيى ذكرى الظروف التى بعثت على إقامته ، أى انتصار الجنوب على الشمال واتحاد البلاد . ومنذ ذلك العهد كانت المملكة المصرية تجدد جزءا عظيما من قوتها فى تذكر الماضى وما كانت عليه البلاد من التقاليد .

الطواف حول الجدار رمز لاتحاد البلاد

ومن المحتمل جدا أن يكون الاحتفال بعيد « سد » من التقاليد القديمة ؛ لأنه يظن أن السلطة الملكية كانت لا تعطى فى الأصل للفرعون إلا لمدة ثلاثين عاما ، يخلع عند نهايتها أو يقتل . ولذلك يعتقد أن العيد « سد » لم يكن إلا عادة وحشية بقيت لنا من تراث الأزمان القديمة ولكنها أخذت صبغة أكثر إنسانية مما كانت عليه من قبل . فبدلا من عزل الفرعون كان يظهر (بعد مضى الثلاثين سنة) كأنه ملك جديد للوجه القبلى والوجه البحرى وبهذا التجديد المصطنع كانت تنبعث فيه قوة جديدة ، بها يمكنه أن يبدأ عهدا جديدا . وهذا الاحتفال الذى كان فى الأصل يحدث كل ثلاثين عاما يظهر أنه كان يقام منذ العصر الطينى فى زمن أقل ولكن الاسم بقى كما كان قديما .

الاحتفال بعيد « سد » وسببه

ولما كان الملك له صبغة إلهية فإن الأعياد التى كانت تقام تعظيما

للآلهة أصبحت لها أهمية عظيمة جدا . فكانت سنتها تعتبر تاريخا ثابتا يؤرخ به ، كما يمكن مشاهدة ذلك على حجر « بلرم » . وأهم هذه الأعياد في بلاد يدعى الملك فيها أنه متقمص الإله « حور » هو العيد الذى كان يقام تعظيما لهذا الإله ، وكان يحتفل به كل عامين . وكذلك كان يحتفل في فترات غير منظمة بعيد الولادة للإله « سكر » إله سقارة والإله «مين» رب قفط «وأنوبيس» و«سد» (يحتمل أنه لقب للإله «وبوات») وهو يمثل على أية حال كهذا الإله الأخير في شكل ابن آوى مرفوعا على حامل . والإلهة « سشات » إلهة الكتابة ؛ وأخيرا يذكر لنا حجر بلرم عدة مرات عيدا يدعى « زت » وقد اختفى في العهد الطيني ولا نعرف عنه شيئاً.

عيد الإله «سكر»

وقد كانت المعابد تقام لهذه الآلهة المختلفة ، وعند بنائها ووضع أساسها كانت تعقد الاحتفالات ، وقد حفظت لنا واجهة باب عثر عليها في هيراكنبوليس منظرا لإحدى هذه الاحتفالات ولكنه لسوء الحظ وجد متآكلا ناقصا والمنظر ينقسم قسمين : ففي الجهة الشمالية يرى الملك قابضا بيده على عصا عظيمة وعلى صولجان ، وهو واقف أمام اثنى عشر رجلا من عظماء القوم ولكنهم رسموا بصورة مصغرة عنه . وهذه الشخصيات موزعة على ثلاثة صفوف في الرسم ومن المحتمل أنهم يمثلون الشعب أو رجال البلاط . وفي الجهة اليمنى تشاهد الإلهة « سشات » والملك وجها لوجه وهما يدقان بمطرقة وتدا في الأرض . وهذا المنظر أصبح متبعا في تأسيس المعابد إلى عهد البطالمة .

كيفية وضع أساس المعبد

وكان الفرعون يعيش هو وأسرته ورجال حاشيته في القصر الفرعوني وقد مثلت واجهة هذا القصر بكل عناية ودقة على لوحة الملك زت « ثعبان » ،

ويمكن الأنسان أن يأخذ فكرة عن هذا المبنى رغم أنه رسم رسما تخطيطيا والواقع أنه كان يتألف فى الأصل من بابين عظيمين وهما يذكران بالمملكة المصرية الثنائية القديمة ويحيط بهما أعمدة مرتفعة من الخشب . وكانت العادة المتبعة أن يقيم كل ملك لشخصه قصرا جديدا والظاهر أن ابتداء إقامة هذا المسكن الجديد كان فى السنة الرابعة من حكم الفرعون . وكان الملك يأمر بإقامة قصر جديد فى السنة الرابعة بعد عيد « سد » وتلك نتيجة منطقية وذلك لأن العيد « سد » كان فاتحة حكم جديد .

الملك يقيم لنفسه قصرا فى بداية حكمه

وكان الملك يحكم البلاد بموظفين مختلفى الدرجات وهذا كل ما يمكننا أن نجزم به فى العهد الطينى عن الإدارة . وليست لدينا معلومات عن هؤلاء الموظفين إلا ما وجد على الأختام التى كانوا ينقشون عليها أسماءهم وألقابهم واسم الملك الذى عاشوا فى عهده . ولحسن الحظ وجد معظم هذه الألقاب فيما بعد مضبوطا . وإذا اعتمدنا على هذه المعلومات التى حققناها فيما بعد عن هؤلاء الموظفين فإنه من الممكن بوساطتها أن نميز بين الإدارة الرئيسية والإدارة الإقليمية ؛ ولكن الواقع أننا لا نعرف لقب الموظف الذى كان يشرف على الإدارة الرئيسية العامة . ويظن بعض المؤرخين أن وظيفة الوزير كانت قائمة فى العهد الطينى ؛ ويعتمدون فى ذلك على الكتابة التى وجدت على لوحة « نعرمر » إذ يشاهد عليها شخصية صغيرة تتبع الفرعون مرتدية جلد فهد وهذه الكتابة تقرأ « تيت » وهى لفظة معناها وزير ولكن هذه مجرد نظرية لا يمكن الاعتماد عليها بصفة قاطعة ، فإن أول وزير عرف لقبه بالتحقيق على الآثار هو « كا نفر » الذى عاش فى بداية الأسرة الرابعة فى عهد الملك سنفرو .

أهمية الاختام فى العصر الطينى

الوزير فى العهد الطينى ؟

وإذا فرضنا أنه لم يكن فى هـذا العصر الذى نحن بصدده وزير، فإنه من المحتمـل جـدا أن يكون الملك نفسه على رأس الإدارة الرئيسية ولا نزاع فى أن جعل موظف كبير صلة بين مصالح الإدارة العامة المختلفة وبين الفرعون لا يمكن إلا أن تكون نتيجة وجود حكومة راقية تستدعى أعمالها المتشعبة وجود هؤلاء الموظفين الذين يقومون بجميع مرافقها .

ويجب علينا أن نعرف أن الملك كان يشرف على كل مختلف المصالح، أى على الوزارة والإدارة العـامة الرئيسية . وكان يعاونه حامـلا الخـاتم وهما حامل خاتم الإله (أى ملك الوجه القبلى) وحامل خاتم الوجه البحرى وكانا يشرفان على الخزينة الثنائيـة (مصر السفلى ومصر العليا) ومن ذلك نلاحظ أن الإدارة المزدوجة كانت لا تزال قائمة من حيث المبدأ وإن لم تكن فى الواقع، ونجد هذا النظام قائما فى الألقاب الفخرية للشخصيتين العظيمتين نائب الملك فى نخن (هيرا كليو بوليس) ونائب الملك فى ب (بوتو) على أن وجود الموظف نفسه حاملا هذين اللقبين برهان على أن هذه الحـكومة الثنائية فى المملـكة الطينية لم تتعـد العرف والتقليد فحسب . وكان يتبـع الإدارة الرئيسية مكاتب السجلات الملـكية، التى كان لا بد من وجودها لإيداع الوثائق وحفظها وإلا لمـا بقيت لدينا سجلات تاريخية مثـل حجر بلرم الغنى بالمعـلومات عن الأزمان السحيقة وهى التى دونت فيما بعـد فى عهد الأسرة الخامسة . أما اللوحات التى من العاج والتى يحتمل أن تكون بطاقات أو أوانى فإنها تدل على أن الملوك كانوا متعودين على أن يدونوا بالـكتابة سنة فسنة الحوادث الهامة فى عهد حكم كل منهم .

وظيفة حامل الخاتم

حفظ السجلات

والآن نتـكلم عن الإدارة فى الأقاليم أو المقاطعات فى هذا العصر

وإن كانت لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة على أن تقسيم البلاد إلى مقاطعات فى هذا العهد أمر مؤكد بل ويرجع إلى أقدم عهود التاريخ وإلى عهد ما قبل التاريخ . ففى بلاد مثل مصر حيث تكون الزراعة أهم ثروة للبلاد وحيث الحياة نفسها تتوقف على فيضان النيل ، فإنه من المستحيل ألا يتقدم نظام طرق الرى تقدما سريعا نحو الكمال . ومن أجل ذلك يرجح أنه فى هذه الفترة التى بدأ فيها العصر التاريخى فى البلاد قد انتشرت فيها الترع العدة التى كان يعتنى بصيانتها . ولا بد أنه كان فى كل مقاطعة موظف مكلف بالتفتيش على هذه الترع وتعهد صيانتها والعمل على رقيها . ومن المحتمل أن يكون هذا هو الأصل فى وجود وظيفة حاكم المقاطعة وقد اشتق اسمه من نوع عمله الهام فمنذ العصر الطينى ظهر أمامنا لقب « عز مر » ومعناه حرفيا (المشرف على حفر الترع) وهذا اللقب كان أهم ألقاب حاكم المقاطعة فى بداية الدولة القديمة . والظاهر أن لقب « عز مر » الذى نشاهده على آثار العهد الطينى كان يطلق على حاكم المقاطعة ، وكان عمله ينحصر فى الحصول من الأرض بالطرق المتبعة على كل ما يمكن الحصول عليه ليزيد من الثروة العامة وبخاصة الخزينة الملكية . وكذلك كان يقع على كاهل حاكم المقاطعة الإحصاء وقد شوهدت هذه العملية لأول مرة فى عهد الفرعون « عز إب » ومنذ بداية الأسرة الثانية قد اتبعت هذه العملية بانتظام فى كل عامين مرة ، بل وقد استعملت لعد سنى حكم الفرعون فيقال السنة س إحصاء أو السنة بعد س إحصاء .

تقدم نظام الرى

مهام حاكم المقاطعة

يضاف إلى ذلك أن ارتفاع النيل كان يدوّن سنويا وبسبب هذه العناية كان من السهل أن يعرف الإنسان مقدما على وجه التقريب ما

ستكون عليه ثروة البلاد حتى تتخذ الاحتياطات إذا حدث انخفاض فى النيل تجنبا لحدوث قحط أو مجاعة . وكان فى عاصمة كل مقاطعة مجلس يدعى « زازات » موكل إليه الأمور القضائية وذلك مما يوحى بوجود قانون مدنى لم يصل إلينا منه أى شىء بكل أسف .

الجيش

أما نظام الجيش فى هذا العهد فإنه سر غامض . وأنه يكاد يكون من الصعب أن يعرف الإنسان إذا كان فى البلاد جيش قائم أو أن الجنود كانت تجند وقت الحاجة فحسب . وكل ما يمكن أن نؤكده أن لقب قائد كان موجودا منذ نهاية الأسرة الأولى وسنتكلم عن الجيش بالتفصيل فى خلال الدولة القديمة .

(٢) الحكومة فى العهد المنفى (٢٩٨٠ - ٢٤٧٥ ق . م .)

كان نظام الحكومة المنفية نظاما ملكيا ثابت الأركان . فقد كان الملك هو القوة الرئيسية فى البلاد وكان القوم يعدونه إلها أكثر منه إنسانا ، ولذلك كان يطلق عليه اسم (الإله الطيب) وكان قصره يدعى (البيت العظيم) « برعا » وقد اشتق منها فيما بعد كلمة فرعون التى استعملت فى اللغات السامية ؛ وقد تكلمنا عن ألقابه فيما سبق .

وإنه لمن الأمور الصعبة جدا أن نعرف كيف كان الفرعون يدير شئون البلاد . حقا إن النقوش المصرية فى العهد المنفى كثيرة جدا غير أنها غامضة إذ يتألف معظمها من الألقاب والعلاقات التى يتمتع بها حامل هذه الألقاب عند الملك فنقرأ فى النقوش قول الموظفين : « إنهم قاموا بواجبهم حسب رغبة الملك ولهذا كوفئوا » . غير أنهم لم يعنوا قط بذكر عملهم ، ولذلك ليس

لدينا طريقة أو سند نتوكأ عليه فى إعطاء فكرة عن إدارة البلاد فى هذا العهد إلاّ « الألقاب » التى نقرؤها على جدران المقابر غير مشفوعة بتفسير ما .

والظاهر أنه كان فى يد الملك السلطة التنفيذية والسلطة القضائية فى عهد الأسرة الثالثة ، ولكن كان يساعده فى القيام بهما موظفون كثيرون ، ليسوا أشرافا ، والظاهر أنه لم يكن بين المصريين فى عهد الأسرة الثالثة (خلافا للفرعون) من يمكنه أن يتصرف فى أى سلطة سياسية بحق الوراثة ، وقد كانت الوظائف التى يمنحها الملك لموظفيه هى مصدر السلطة الوحيد . غير أنه لا يفوتنا أن نذكر هنا أن الملك رغم ما لديه من قوة ، لم يكن يعين فى هذه الوظائف بمحض رغبته ، بل كان خاضعا لنظام قائم ليس هناك من يستطيع التحوير فيه .

تحديد سلطة الملك

وكان الموظفون الذين ينتخبون من بين المتعلمين يعينون بمرسوم . وكان الواحد منهم يبتدىء بوظيفة كاتب ، ثم يتقلب فى عدة وظائف إدارية حددها القانون ، ثم بعد ذلك يعين الواحد منهم بمرسوم آخر ليقوم بعمل إدارى هام يرمز له بحمل العصا . ويطلق عليه (نائب الملك) أولا فى القرية ثم فى المدينة . وقد كان الموظف الذى يتقلب فى هاتين المرحلتين الإدارية والتنفيذية له الحق فيما بعد أن يشغل أعظم مناصب الحكومة ، فيكون إما حاكما لمنطقة ، أو مديرا لإحدى مصالح الحكومة الرئيسية أو أمينا للملك ألخ .

نظام التوظف

والواقع أن كثرة الألقاب التى كان يحملها الموظف الواحد قد أخذت تزداد تدريجا حتى أننا أصبحنا لعدم وجود تفسير لكل فى حيرة فى ترتيبها حسب أهميتها وتقسيمها حسب نوعها إذ نجد أحيانا الموظف الواحد يحمل معظم ألقاب الدولة الضخمة وقد كان عدد ألقاب الواحد منهم تصل

إلى أكثر من أربعين [1]. ولكن رغم ذلك يمكننا أن نقسم هذه الألقاب إلى مجاميع منفصلة أهمها ما يأتى :

أولا : ألقاب الشرف وهى ألقاب حقيقية بطل استعمالها فيما بعد . من ذلك نرى أن إقامة شعائر الملك الدينية قد جعلت بين الملك وكهنته علاقة وطيدة مما جعل لهم مقاما عاليا . وكذلك نشاهد أن أهم الشخصيات المكلفة بأقامة هذه الشعائر قد أغدق عليهم الملك أعظم الألقاب الفخرية فى الدولة . فكان يطلق مثلا لقب : رئيس المرتلين ، والكاتب الإلهى ، ورئيس كل الوظائف الإلهية ، على أولاد الملوك . ومنذ عهد الأسرة الثالثة كان كهنة الملك يمنحون اللقب الفخرى «رخ نيسوت» أى قريب الملك أو« المعروف لدى الملك » وفى عهد الأسرة الرابعة كان المرتلون الأول يلقب كل منهم « إرى بعت » أى أمير وقد كان هذا اللقب لا يطلق فى عهد الأسرة الثالثة إلا على الكاهن الأكبر للإله رع فحسب ، الذى كان يعد أكبر شخصية فى الدولة بعد الفرعون . ولكن الملك عندما أصبح يطلق عليه لقب الإله العظيم (أى أن رع تقمص فيه) ، منح بسبب ذلك مرتله الأعظم الذى كان ينتخب من بين أولاد الملك ، لقب « إرى بعت » ، الذى لم يكن يتمتع به إلى هذا العهد أحد غير كاهن « رع » الأعظم .

وكذلك نشاهد أن الإله « تحوت » إله العلم قد أخذ مكانة عالية حتى أن وظيفة إقامة شعائره قد منحت الوزير الذى كان دائما من أولاد الملك ، وقلده لقب « إرى بعت » أيضا .

---

(١) من المحتمل جدا أن الموظف كان يذكر كل الوظائف التى تقلب فيها مضافا إليها الالقاب الفخرية ولذلك يكثر عدد ألقابه كما سنشاهد ذلك فيما بعد .

وأخيرا نرى أن كاتب الملك الإلهى الخاص « سش نتر » قد أصبح كذلك مساويا للكاهن الأعظم للإله رع وللإله تحوت والملك ؛ لذلك لقب « إرى بعت » (أمير) . ومن ذلك يتضح أن لقب « إرى بعت » قد فقد صبغته القديمة وأصبح لقبا فخريا . وكذلك فى كثير من الألقاب كالسمير الوحيد ولقب « حاتى عا » (أمير)، ولقب « قريب الملك » وغيرها فقد كانت كلها قاصرة على أفراد معينين ثم أصبحت فيما بعد تمنح ألقاب فخرية لجم غفير من كبار رجال الدولة .

ثانيا : ألقاب خاصة بالملك وقصره من أهمها : مدير القصر ، وحارس التاج ، وحاكم القصر ، ومدير مالية القصر ، ومنذ الأسرة الخامسة كان يطلق على القصر لفظة « خنو » (أى الداخل) ويظهر أن هذا الاسم كان خاصا ببيت الملك الخاص وهو الذى كان يربى فيه مع أولاد الملك أولاد أمراء بعض المقاطعات ، وكانت له مالية خاصة وموظفون معينون . وكان للملك حامل نعل ، ومرجل شعر ، وطبيب خاص وغسّال ومنظف أظافر «منكير» إلخ .

موظفو القصر الملكى

ثالثا : ألقاب كهنوتية . كان القصر الملكى ، والهرم ومعبد الشمس ، هى الأماكن الرئيسية المقدسة التى كانت تقام فيها الشعائر الدينية بكل عظمة وفخامة . فكانت تقام فى القصر للملك الحاكم ، وفى الهرم للملك المتوفى ، وفى معبد الشمس للإله « رع » الذى كان يعتبر والد كل الفراعنة على أن توحيد الملك مع إله الشمس جعله مرتبطا ارتباطا وثيقا بالشعائر التى كانت تقام للتاسوع فى معبد عين شمس المشهور الذى يطلق عليه اسم « برسنوت » .

ولما كان الملك هو الوارث لفراعنة الوجهين القبلى والبحرى فقد استمر

تقديس الملك فى معبدى « نخب » و « بوتو »

خلافا لما ذكرنا يقدس فى الهيكلين العظيمين التاريخيين وهما معبد « نخب» (الكاب) ويسمى «بر ور » (المعبد العظيم)، ومعبد «بوتو» ويسمى «برنسر» (معبد النار) . وقد كان الفراعنة يفردونهما بعناية خاصة ويهبونهما الهدايا العدة والقرابين الكثيرة .

ثم أصبحت إقامة شعائر الفرعون أهم الشعائر ، ولم تكن يحتفل بها فقط فى الهياكل الملكية ، بل فى كل معابد آلهة البلاد حيث كانت تقام فيها مذابح وموائد قربان للإله رع والإلهة حتحور والملك ، يشيدها ملوك الأسرة الخامسة .

وقد كان من الضرورى لإقامة هذه الشعائر خدم كثيرون وعلى رأس هؤلاء كان يشرف عدد من أعظم كبار الدولة . وأقدمهم كهنة معبدى «نخب» و« بوتو » . وقد كان معبد«نخب» تحت إشراف رئيس كهنة«نخب» . ولم نجد فى عهد الأسرة الخامسة ذكر كهنة أرواح «نخن » الكوم الأحمر الحالية ، ولا كهنة أرواح «بوتو» وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الجنازية لملك الشمال والجنوب مع أننا وجدنا ذكرهم فى عهد الأسرة السادسة ، ولكن ربما يعثر فى المستقبل على آثار تدل على وجودهم فى الأسرة الخامسة أيضا .

أما الرئيس الأعظم لكهنة الملك فكان له مقام عظيم ربما كان أعظم من كهنة « نخب » و « بوتو »، وقد كان مثلهم رئيس « إقامة الشعائر» ويحمل لقب أمير ، أو لقب الذى فى القلب (أى قلب الملك) وفى عهد الأسرة الرابعة نلاحظ أن لقبى رئيس كهنة نخب ، ورئيس المرتلين ، لا يلقب بهما إلا أولاد الملك ، أما فى الأسرة الخامسة فلم نجدهما ، وسبب ذلك أنه قبل هذا العهد كانت شعائر الملك الدينية لها صبغتان ، صبغة

إلٰهية وصبغة جنازية ، وهذا من غير شك هو السبب الذى جعل كهنة الملك ينتخبون من بين أولاده ؛ لأن انتسابهم إليه جعل من الطبيعى أن يكونوا كهنته الجنازيين كما هو الحال فى أفراد الشعب ، وعلى العكس فى عهد الأسرة الخامسة لم تعد إقامة شعائر الملك أسريّة ، بل أصبحت عامة ورسمية . وذلك أن القوم كانوا يعتقدون أن روح الإلٰه « رع » تتقمص الملك فهو إذن إلٰه حى ، ولهذا أصبح كباقى الآلهة يجب أن يعبده الشعب ويقيم شعائره . يضاف إلى ذلك أن أمراء البيت المالك لم يصبحوا المحتكرين لوظيفة (المرتلين) وغيرها من الوظائف الدينية التى كانت وقفا عليهم فى الكهنوت الملكى . إذ أخذ يشغل هذه الوظائف عظماء رجال الدولة كالوزير وغيره . تأليه الملك

لقب « خر حب » وفى عهد الأسرة الخامسة ظهر بجانب الكهنة المرتلين « خر حب » طائفة أخرى من الكهنة تسمى « حنك نيسوت » وهم الذين كانوا يقومون بالقربان للملك وليس من بينهم من أولاد الملك من يحمل هذا اللقب ، ولا بد أنهم كانوا أقل من المرتلين .

والظاهر أن ظهور الكهنة « حنك نسوت » ، يدل على علاقة وثيقة بين إقامة شعائر الإلٰه « فتاح » وإقامة شعائر الملك ، وذلك أننا نجد كبار كهنة الإلٰهين « فتاح » و « سكر » يحملون لقب « حنك نيسوت »(١) وعلى ذلك كانوا يساهمون بصفتهم هذه فى إقامة شعائر الملك وقد كان هذا الصنف من الكهنة يؤلف طائفة خاصة على رأسها كبير كهنة «حنكو طائفة كهنة « حنك نيسوت »

(1) Excavations at Giza vol II p. 7.
حيث نجد شرحا وافيا لهذا اللقب الكهنوتى

نيسوت » . وهـؤلاء الـكهنة كانوا ينتخبـون جميعهم من بين الشخصيات العظيمة وبخاصة من كبار رجال القصر الملكى .

« الـكهنة المطهرون »(١). نجد فى الواقع هذا الصنف من الـكهنة فى كل المعابد ، وعملهم أنهم كانوا يحتفلون يوميا بإقامة الشعائر ، ويؤلفون فرعا مميزا من رجال الدين لهم إدارة خاصة منفصلة تسمى « وعبتى » (بيت التطهير المزدوج) الذى يلحق به هـؤلاء الـكهنـة وعلى رأسهم مدير بيت التطهير المزدوج ؛ وقد كان فى خـلال الأسرة الخامسة ينتخب من بين الوزراء . وهذه الإدارة كانت تمثل الوجهين القبـلى والبحرى ، وكان لهـا فروع يسمى كل منها « بيت » ، تحـت إدارة مديرين يسمى كل منهـم « إمـرا وعبت » . وكان كل فرع مكلفًا بضمان إقامة الشعائر فى هيكل بالقرب من هرم ، أو فى معابد الشمس الـكبيرة الملـكية ، وفيه موظفون مؤلفون من كتّاب . وكان الـكهنة المطهرون ورؤساؤهم ينتخبـون من بين رجال القصر وعظماء رجال الدين فى الأسرة الرابعة ؛ أما فى الأسرة الخامسة فكان ينتخب بعضهم من بين كبار الموظفين .

الكهنة المطهرون وكيفية انتخابهم

وأخيرا نجد نوعا من كهنة يسمى «حم كا» أى خدام الروح المادية وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الملـكية فى القصر وفى معابد الأهرام، وفى معابد الشمس ، وفى الهياكل العظيمة وكذلك فى المعابد المحلية حيث يوجد للملك مذابح .

كهنة الروح المادية ووظيفتهم

ومما سبق يتضح أن الـكهنة بوجه عام لم يـكونوا طائفة قائمة بذاتها بل كانوا يعينون بطرق مختلفة من بين كبار رجال الدولة ولذلك نجـد الألقاب الـكهنوتية مختلطة بالألقاب الأخرى الحـكومية .

الـكهنة ليسوا طبقة معينة

(١) أنظر الجزء الاول ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٣) الألقاب الادارية الرئيسية ، والقاب الادارة الاقطاعية

لقد كان أهم مظاهر التجديد فى الحكومة المصرية فى عهد الأسرة الرابعة هو إنشاء وظيفة « وزير » . وقد كان يشغلها دائما أحد أولاد الملك الذى كان فى الوقت نفسه كاهنا للإله « تحوت » وهو مع الإلهة « معات » إلهة العدل والإلهة « سشات » إلهة الإدارة ، الآلهة الرسميين الذين كان فى يدهم السلطة الحكومية . وقد كان أهمهم « تحوت » إله القانون ، فكان الوزير كاهنه ، وفى الوقت نفسه رئيس الحكومة . والوزراء المعروفون فى عهد الأسرة الرابعة هم « كا نفر » و « نفر معات » وهما ابن « سنفرو » وحفيده على التوالى . ثم «حميون»بن «نفر معات» ثم«نى كا و رع» بن «خفرع» ، الخ .

الحكومة فى أصل نظامها إلهية

وقد ظن البعض أن إمحوتب مهندس الفرعون « زوسر » كان يحمل لقب وزير ، ولكن يجب هنا أن نفرق بين اللقب والوظيفة ، فمن المحتمل جدا أن « إمحوتب » كان يقوم بأعمال الوزير ومهامه ، ومع ذلك فإننا لا نعرف أن هذا اللقب قد منح له الا من وثائق متأخرة ولذا يعد من الخطأ أن نعتبره أول وزير مصرى ، بل على ما نعرف حسب ما جاء على الآثار هو « كا نفر » ثم « نفر معات » الخ والواقع أن الوزير كان الرئيس الأعلى للإدارة المصرية ، وكان لا بد له أن يدرس كل الأعمال الهامة فى البلاد يساعده فى عمله رئيس البعوث ، وهو الذى كان يحمل أوامره ويضع أمامه كل التقارير الخاصة بمصالح المقاطعات ، وكذلك كان يشرف الوزير على السجلات الملكية التى كانت تحفظ فيها الأوراق الهامة كالمراسيم الملكية والعقود والوصايا .

« إمحوتب » لم يكن وزيرا للملك « زوسر »

ومن أعمال الوزير أنه كان رئيس القضاة ، ولذلك كان هو الرئيس لمحكمة الستة العليا كما سنشرح ذلك فيما بعد . ولما كان الوزير بحكم وظيفته يقوم بالأمور القضائية ، فإنه كان يجب أن ينسب إلى الإلهين الحاميين للعدالة ، فكان يلقب أحيانا أعظم الخمسة القائمين على بيت « تحوت » إله القانون ، وكذلك كان يدعى كاهن إلهة العدل « معات » ، وذلك منذ ختام الأسرة الخامسة وأخيرا كان فى يد الوزير إدارة مصلحتين من أهم مصالح الدولة وهما الخزانة ، ووزارة الزراعة اللتان سنتكلم عنهما فيما بعد . ويجب هنا أن نلاحظ أن من بين ألقاب الوزير الرسمية الكثيرة ، عددا عظيما لا يعتبر وظائف حقيقية يقوم بها ، ولكنها فى الواقع ألقاب شرف تدل على سلطانه العظيم فى طول البلاد وعرضها . فمنها أنه كان يلقب بمدير كل أعمال الملك ، ورئيس بيت الأسلحة ورئيس حجر زينة الملك الخ .

أعمال الوزير

ومن أهم الوظائف فى الدولة القديمة وظائف حاملى أختام الإله (أى ملك الوجه القبلى) وحاملى أختام ملك الوجه البحرى . وهذه الألقاب وجدت منذ عهد أواسط الأسرة الأولى وبقيت طوال الدولة القديمة ؛ ولكن اللقب الثانى يظهر أنه أصبح لقب شرف أما الأول فكان له شأن عظيم. والواقع أن هؤلاء الموظفين كانوا قبل كل شىء رؤساء بعثات . إذ كانوا ينظمون ويديرون البعثات فى المناجم والرحلات التجارية فى الخارج ولهذا السبب كان لديهم غالبًا جنود مسلحون أو أسطول تحت إدارتهم وكانوا يحملون أحيانًا لقب قائد الجيش أو أمير الأسطول يضاف إلى ذلك أنهم ربما كانوا يديرون الأوقاف الملكية .

حاملو الاختام وعملهم

(٤) طائفة الكتبة

وعلى أية حال فإن الإدارة فى العصر المنفى كانت مشتقة من إدارة العصر الطينى مع فارق هو حدوث تقدم محسوس فى عهد ملوك منف وذلك أمر طبعى تتطلبه سنة الرقى ، وبخاصة إذا علمنا أن مصر فى عهد الدولة القديمة أصبحت من أعظم ممالك الشرق تقدمًا ولذلك فإن نظام الإدارة البسيط الذى كان متبعًا فى عهد ملوك الأسرتين الأوليين أصبح غير متكافئ مع مملكة قوية متحدة مثل المملكة المنفية . وربما كان هذا هو السبب فى إنشاء وظيفة وزير . وزيادة عدد الموظفين ، فقد ذكرنا أنه كان بجانب مدير المصالح وكلاء وكتبة كثيرون . وكانت وظيفة الكاتب فى كل عصور تاريخ مصر وظيفة مرغوبا فيها ، ولذلك كانت المدرسة عندهم تسمى « بيت الحياة » وهذا الاسم الجميل كاف فى الدلالة على أهمية وظيفة الكاتب.

أهمية وظيفة الكاتب

المدرسة تسمى بيت الحياة

والواقع أن الكتّاب كانوا فخورين بمعلوماتهم وبخاصة أنهم كانوا بحكم عملهم واقفين على كل القرارات الهامة جدا فى مصالح الحكومة العظيمة . والظاهر أن أهمية الكتّاب ومقامهم فى إدارة حركة مصالح الحكومة حبتهم بألقاب خاصة ترفع من مكانتهم وتعظم من شأنهم . ولذلك نرى أن بعض الألقاب كانت تبتدئ بلقب رئيس الأسرار « حرى سشتا » وهذا اللقب يدل بطبيعة الحال على أن حامله عالم بالأسرار التى يرأسها ، ولكن مما يؤسف له أن اللقب فى بعض الأحيان لم تحدد وظيفته أو السر الذى هو مشترك فى كتمه . وقد وصلت إلينا من الدولة القديمة قائمة عظيمة بألقاب موظفين يبتدئ كل منها « رئيس أسرار » وسنعطى هنا بعض الأمثلة :

رئيس أسرار كل أوامر الملك ، رئيس أسرار كل القرارات القضائيـة (لمحكمة الستة العليا) ورئيس أسرار كل الأشياء التى يراها إنسان ، ورئيس أسرار الأشياء التى يسمعها رجل واحد ، ورئيس أسرار الملك فى كل مكان ورئيس أسرار الـكلام المقدس ، ورئيس أسرار محكمة العدل . وسنرى أن هذه الألقاب كانت لها معان خاصة فى وظائف الدولة ولا يبعد أن يكون هذا اللقب (رئيس الأسرار) فى الأصل نعتا يوصف به الـكتبة ثم بعد ذلك عمم وأصبح يستعمل لتأليف عدة ألقاب تتميز بها ألقاب الشرف ومقدار علاقة كل لقب بالملك أو كبار رجال البلاط والدولة كما سنوضح ذلك كله فى حينه .

إدارة مصالح الحكومة وتسييرها

(١) بيت الملك « برنيسوت »

وعلى الرغم من ارتباك هذه الألقاب والوظائف و إشتباك بعضها ببعض فإن الدرس الدقيق أثبت أنه كان للحكومة نظام قائم غاية فى الدقة وحسن التنسيق منـذ أقدم العهود . وقد كان الفضل الأول فى إبراز هذا النظام الدقيق من بين الالاف الالقاب والوظائف التى ورثناها عن الدولة القـديمة يرجع إلى الأستاذ « بيرن » القانونى البلجيكى و إلى بعض علماء الآثار المصرية ونخص بالذكر منهم الأستاذ جردنر والأستاذ زيته والمرحوم الأستاذ برستد .

والواقع أنه كان يوجد فى عاصمة البلاد مقر رئيسى لإدارة حكومة البلاد

يسمى « بيت الملك » وهو غير القصر الملكى . « بر عا » ويشمل أربع إدارات على جانب عظيم من الأهمية . وكان لكل إدارة منها فرع فى مختلف مقاطعات القطر وكان يطلق على كل منها لفظة بيت وهى :

أولا : بيت التحريرات الملكية « بر ع » أو إدارة القيودات ، وهى مكلفة بتوثيق الروابط بين الإدارات الحكومية وضمان توصيل حركة نقل الأوامر ، وكان على رأسها الوزير . وقد كان هناك موظفون يحمل الواحد منهم لقب «مدير كتاب التحريرات الملكية» كالوزير نفسه، مما يدل على أن الوزير كان رئيس شرف فحسب. وكان مديرها ينتخب من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم.

ثانياً : بيت المكاتبات أو إدارة المحفوظات . وتودع فيه العقود المسجلة والمكلفات فى سجلات الزمامات . وكان مديرها يحمل لقب مدير كتاب السجلات (أمرا سش ع) . ولا شك فى أن الوزير كان مديرها كما كان مديرا للمحفوظات . والظاهر أن وظيفة بيت المحفوظات الأصلية هى نسخ كل العقود التى تحررها إدارة العقود المختومة ؛ وكذلك ضمان حفظ كل الأوراق التى تحدد حالة كل شخص وحقوقه ، وعقار كل مواطن مصرى .

ثالثا : بيت العقود المختومة . (بر خر ختم) . وينقسم إلى إدارتين أحداهما للوجه القبلى والثانية للوجه البحرى ويديرها مدير إدارتى العقود المختومة وينتخب من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم فى عهد الأسرة الخامسة. وهذا البيت يقابل عندنا إدارة السجلات ووظيفته تسليم العقود ونقل التكليف ، والسندات ، والوصايا ، وإعطاؤها صبغة رسمية وجعلها تأخذ صورة شرط ملكى ، وذلك بطبع خاتم الحكومة عليها ، وكذلك كانت تحافظ على نسخها فى دفاتر السجلات الخاصة بالزمامات ، هذا إلى أنها كانت

مكلفة بتسليم العقود والأوامر التى كان يجب نسخها وتسجيلها فى الدفاتر إلى أصحابها.

رابعا : بيت رئيس الضرائب أو التوزيع (؟) « بر حرى وزب » وهو يكون مصلحة قائمة بذاتها من أهم مصالح الحكومة وأهم عمل لها جباية الضرائب وسنتكلم عنها فيما يلى :

مصلحة التوزيع أو الضرائب [١] « بر حرى وزب »

وهذه المصلحة كانت تعد من أعظم مصالح الحكومة فى عهد الدولة القديمة وكانت مقسمة فى عهد الأسرة الخامسة إلى إدارتين ، تحت سلطان موظف كبير يلقب مدير إدارتى التوزيع أو الضرائب . ومديرو هذه المصلحة كانوا دائما من أعضاء المجلس التشريعى الملكى ، ومن أعضاء مجلس العشرة العظيم . والمراسيم التى تصدر بتقرير مقدار الضرائب والقواعد التى يعمل بها يصدرها موظف كبير إلى « رئيس الضرائب » ليقوم بتنفيذها . وهذا الموظف الكبير ينتخب دائما من مجلس العشرة العظيم .

والواقع أن مصلحة التوزيع أو الضرائب تشمل إدارتين منفصلتين ، مهمة إحداهما جباية الأموال المستحقة على أهل المدن « رخيت » والثانية لجمع ما يستحق على الفلاح «مريت» . وقد كان هذا النظام قائما فى عهد الأسرة الخامسة مما يدل على أن سكان مصر كانوا ينقسمون إلى نوعين مميزين هما مدنيون وفلاحون .

والواقع أن الضرائب المصرية كانت لها صبغة مزدوجة ، فمن جهة كانت

---

(١) وقد فسر الاستاذ جردنر الأثرى الانجليزى العظيم لقب «حرى وزب» بأنه يدل على القائم بأعمال القرابين الملكية وتوزيعها . والظاهر أن هذا اللقب له علاقة وثيقة بالزراعة لانه عثر على نقوش للعظيم « حتى » ويحمل لقب مدير كتاب الضياع ومدير كتاب بيت رئيس التوزيع (وزب) ولا يبعد أن يكون هنا بيت التوزيع هو ما يخزن فيه من دخل الضرائب

Gardiner. J. E. A. 24 (1938), p. 86!!!!

تفرض على كل شخص نوعا من الضرائب يشبه جزية الرءوس ، وهى بعض أعمال سخرة يقوم بها الشخص ، كان يعفى منها الكهنة ومن يماثلهم فى عهد الأسرة الخامسة ، ومن جهة أخرى كانت هناك ضرائب تفرض على دخل التركة ، والجزية على حسب قيمة العقار .

أما مركز الممولين ، ومقدار ما يدفعونه فتقرره السلطات المحلية وهم مجلس السراة وذلك بمقتضى أمر . وهذا الأمر يجب أن يكون وفقا للقانون من كل الوجوه ، حتى يكون نافذ المفعول ؛ وهذا الأمر يعرض على حاكم الجنوب . الذى يعطيه صبغة رسمية لينفذ ، بعد أن يتحقق من قانونيته ؛ وذلك بوضع خاتمه عليه . على أن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد ، إذ بعد ذلك يسلم حاكم الجنوب هذا الأمر إلى « بيت الملك » حيث يسجله مدير العقود المختومة حسب نوعه فى سجلات المحفوظات . وبيت الملك يحدد لكل ممول مقدار العقار الذى يدفع عليه الضرائب . متخذا أساسا له فى ذلك دفاتر الحكومة ودفاتر الزمامات ، وذلك ليكون على تمام الأهبة إذا اقتضى الحال أى تحقيق مباشر .

كيفية وضع الضرائب

وبعد ذلك يوضع أمر لكل ممول ، ويسلم إليه بقلم الضرائب .

أما تحصيل الجزية والضرائب وأعمال السخرة فتقوم بها إدارة الضرائب التى تنقسم قسمين . الأولى إدارة التحصيل وهى التى تجمع الضرائب بالمعادن الثمينة ، او المحاصيل الطبيعية .

أنواع الضرائب

والثانية : مكان السخرة وهو المكلف بتنفيذ أعمال السخرة . وقد كان الوزير والحكام مكلفين بوضع الشرطة ، وإذا اقتضت الأحوال ، الجيش تحت تصرف الإدارة ليضمن تطبيق الأوامر ؛ ولضمان تحصيل الضرائب بنظام .

مصلحة الحقول (الضياع)

لقد عثرنا على اسم هذه المصلحة على أختام الأسرة الثانية(١) .

وكذلك فى عهد الأسرة الثالثة وجدنا لقب « مدير الحقول » . وفى عهد الأسرة الرابعة نجد أن مصلحة الحقول كان يديرها موظف يسمى مدير كتّاب الحقول . وفى عهد الأسرة الخامسة قسمت هذه المصلحة كباقى مصالح الحكومة قسمين ، وكان مديرها يلقب « بمدير كتّاب الحقول فى البيتين (الإدارتين) ، وكان مدير هذه المصلحة عضوا فى مجلس العشرة العظيم . وكان تحت إدارته عدد من كبار الموظفين منهم : مدير و ضياع الوجه القبلى والوجه البحرى ومدير و بيت زراع الوجهين القبلى والبحرى .

تقسيم مصلحة الحقول

ومصلحة الحقول تحتوى حينئذ على إدارتين عظيمتين ، إدارة الحقول وإدارة المستخدمين . وقد كانت كل ضيعة تحت إدارة بيت زراعة « بر سكا » المقسم إلى أربع إدارات : (١) بيت المحراث « بر شنو » وهو مكلف بإدارة الأراضى الزراعية (٢) بيت الراعى ومن اختصاصه المراعى (٣) بيت حيوانات الإنتاج (٤) بيت حيوانات التربية .

وكانت كل ضيعة مهما اتسعت مساحتها (وفى الغالب تكون صغيرة الحجم) توضع تحت إدارة مدير خاص . فمثلا نجد أن « بيبى الثانى » قد منح برسوم لمعبد « مين » فى قفط عقارا يبلغ نحو ثلاثة أرورا ؛ وقد أنشأ لإدارته « بيت زراعة » خاصا تحت إدارة مدير كهنة « مين » . ومما يسترعى النظر ،أن الحكومة أحيانا كانت تقسم جزءا من أراضيها إلى مساحات صغيرة مستقلة لتستثمرها

(1) Petrie, Scar. pl. VI. No 151

مباشرة ، ومن ذلك يتضح أنها كانت تستعمل نظام المزارع الصغيرة المساحة ،التى تستوجب مصاريف كثيرة ولكنها عظيمة الإنتاج ،وذلك ما يشعر بإدارة فنية مرنة . المزارع الصغيرة

وعلى حافة الصحراء كانت توجد مساحات من الأرض لا يغمرها الفيضان إلا نادرا ؛ وهذه الأراضى كانت تسمى «خنتو شى» وكان يديرها و يرعى مصالحها موظف يسمى خنتوشى أيضاً، يظهر أنه كانت له أهمية فى عهد الدولة القديمة . ويجب هنا أن نلاحظ وجود هذه الأراضى أحيانا فى وسط منطقة الأهرام الملكية ، ولذلك كانت تعفى من كل أنواع الضرائب . وهذه الأراضى (خنتو شى)(1) كانت تستعمل مراعى أو حدائق للبقول والخضر وكان لا يزرع فيها إلا محصولات قصيرة الأجل . وهذه المحصولات كانت تحتاج إلى عناية مستمرة من جهة الرى .

مصلحة الرى والواقع أنه كان لا بد من وجود مصلحة خاصة بأمور الرى غير أننا لم نعثر على ألقاب تدل على وجود هذه المصلحة اللهم إلا لقب « رئيس بيت الماء » الذى كان يحمله « رع ور » الذى عاش فى أوائل حكم الأسرة الخامسة(2) وكذلك كان يحمله القزم « سنب » فى عهد الملك « ددف رع » من الأسرة الرابعة(3) . يضاف إلى ذلك أن « كام نفرت » الذى كان مديراً للقصر الملكى فى أواسط الأسرة الخامسة ويحمل لقب رئيس تصريف المأكولات فى بيت الحياة كان كذلك يحمل لقب مدير الترع .

(٣) مصلحة المالية

كانت الخزانة تتألف فى بداية الأمر من البيت الأبيض (خزانة الوجه القبلى) ومن البيت الأحمر (خزانة الوجه البحرى) ولكنها اتحدت بسرعة

(1) Dykmans. Histoire Economique et Sociale de L'Ancienne Egypte, II, p. 108 - 112.

(2) Excavations at Giza Vol I P. 2

(3) Excavations at Giza Vol. II P. 105

وأصبحت واحدة وكان الاسم الذى أطلق عليها حينئذ البيت الأبيض المزدوج ؛ ومن ذلك نرى أن هذا الاسم حفظ لنا فى ثناياه تقسيم القطر قديما قسمين ، وأظهر لنا بصورة واضحة تغلب الوجه القبلى على الوجه البحرى ، وذلك لأن اسم الخزانة القديم للوجه القبلى تغلب وأصبح مستعملا لتكوين الأسم الجديد لهذه المصلحة . ومنذ الأسرة الخامسة كانت الخزانة كباقى مصالح الحكومة مقسمة قسمين . وكان المدير العام للمالية يحمل منذ ذلك العهد لقب « مدير البيت الأبيض المزدوج » ، وكان تحت إدارة الوزير مباشرة . وقد كان لهذه المصلحة فروع محلية يسمى كل منها « البيت الأبيض» يديره مدير ؛ وكان بعض الوزراء يحمل هذا اللقب مع لقب « مدير البيت الأبيض المزدوج» للدولة ؛ عامة وربما يرجع السبب فى ذلك ، إلى أن اللقب الأول كان يحمله الوزير عند ما كان موظفا صغيراً و بقى عالقًا به . كما حدث فى بعض الحالات .(١)

تقسيم مصلحة المالية قديما قسمين

وكان البيت الأبيض المزدوج هو المصلحة الرئيسية لإدارة المالية ويجب أن نعتبرها المصلحة المكلفة بحفظ المعادن الثمينة ، وكل المواد غير القابلة للعطب التى كانت تجبى بصفة ضرائب . وكذلك يظهر أنها كانت مركز خزانة المالية والمحاسبة . والواقع أن البيت الأبيض المزدوج كان مكلفا بدفع المرتبات التى كانت تدفعها الحكومة للموظفين « والمقربين » من الملك الذين كانوا يتمتعون بإقطاعات منظمة أو بإيراد هذه الإقطاعات . والواقع أن وصية «ثنتى» تعلن صراحة أن قرابين والدتى « بى » «المعروفة لدى الملك » وهى التى تحتوى على حبوب من « الشونة ، وملابس من البيت الأبيض ،

(1) Mariette. Mastaba . D. 70, PP 370 & 229

قد استخرجها الكاهن الدائم « كام نفرت » هنـاك لأجل والدتى ولأجـلى (١).

بيت الذهب « بر نوب » . وفى عهـد الأسرة الخامسة قد أكمل نظـام الخزينة وذلك بإنشاء (بيت الذهب) حيث كان يخزن احتيـاطى الذهب الحـكومى . ويلاحظ أن فى عهد الأسرة الرابعة كان هناك موظفون عظماء فى القصر الملكى يشغلون وظيفة بيت الذهب ومن ذلك يتضح أن « بيت الذهب » كان يؤلف جزءاً من مصلحة خاصة بالقصر . ولـكن من جهـة أخرى نلاحظ أنه فى عهد الأسرة الخامسة كان مدير البيت الأبيض المزدوج فى الوقت نفسه « مديراً لبيت الذهب » ، ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن « بيت الذهب المزدوج » كان ضمن مصالح المالية الرئيسية . ولا نزاع فى أن البيت الأبيض (المالية) كان له مصلحته كما كان للقصر مصلحته ؛ والظاهر أن الذهب كانت تزداد أهميته فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة فى تكوين مالية الحـكومة . ولا يبعد أن يكون وجود هذه المصلحة دليلا على ازدياد مقدار الذهب الذى كان يدفع للحكومة بصفة ضرائب ، أو أن هذا الذهب كانت الحـكومـة تجمعه إما باستثمار المناجم أو من الجزية التى كانت تدفعها البـلاد المشمـولة بحماية مصر . وقـد كان من جراء ذلك ازدياد ثـراء البلاد المنقول ، وذلك ما يبرهن على رخاء البلاد المطرد فى عهـد الأسرة الرابعة ، وأكبر دليل تجلى فيه هذا المظهر المبانى الفخمة التى أقيمت فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة ، ونمو المدن ، وبخاصة فى مصر الوسطى .

أهمية الذهب فى المالية المصرية

وهـذا الاحتياطى من الذهب على أى حال كان على ما يظهر من ألزم ما يكون للبـلاد لتحقيق الأعمال الضخمة التى كانت قائمة فى هـذا

(1) Moret, Une nouvelle disp. test. Ac. Insc. 1914 p. 538

العهد ، وهى التى كانت تحتاج إلى موارد عظيمة ، وكان لا يمكن أن يدفع أجرها بالمواد الطبيعية فحسب ؛ يضاف إلى ذلك أن مصر فى هذا العهد كان لها أسطول عظيم مصنوع من خشب الأرز الذى كان يجلب من جبيل (ببلوص) منذ الأسرة الثالثة بكميات وافرة فمن المحتمل جداً أن الذهب كان يستعمل لدفع ثمنه ؛ وعلى أية حال فإن الذهب كانت له مكانة عظيمة فى الحياة الاجتماعية فى عهد الأسرة الخامسة . إذ نشاهد فى نقوش معبد الملك « سحو رع » أنه كان يوزع أشياء من الذهب على موظفيه ، ولا بد من أن نرى فى منح المكافآت بهذه الطريقة نوعا جديدا من صرف المرتبات؛ وبخاصة أنه كان يطلق عليها لقب « توزيع الذهب » . وإذا كانت نقوش القبر الملكى تمثل الذهب وهو يوزع ، فإن هذا التوزيع كان يجرى من غير شك بطريقة منظمة قبل ذلك العهد .

توزيع الذهب على الموظفين

ادارة (الثونة) المزدوجة

وقد كان للحكومة كذلك إدارة (شون)مزدوجة مثل إدارة بيت الذهب والبيت الأبيض . وكانت خاصة بخزن مواد الجزية التى كانت تقدم من المحصولات الطبيعية ، ومن المحتمل أنها كانت كذلك لخزن محصولات أملاك الحكومة . وقد كانت وظيفة (الشونة) على الأخص تخزين الحبوب التى كانت تلعب دورا هاما فى حياة مصر الاقتصادية . وذلك أن الخبز كان أساس الغذاء فى مصر ، يضاف إلى ذلك أنه كان يؤلف جزءاً من مرتبات الموظفين وأجور العمال التى كانت تدفع حبوبا أو خبزا فى

عهد الدولة القديمة كما تشير إلى ذلك نقوش الموظف « متن » . ومن ذلك يلاحظ أن (الشون) كانت تحتل مكانة عظيمة فى إدارة مالية البلاد . دفع الاجور عينا

وقد كانت مصلحة (الشون) مزدوجة منذ عهد الأسرة الخامسة يديرها مدير مصلحة (الشونة) المزدوجة . وقد كانت الرئاسة العليا كما هو الحال فى الخزينة وبيت الذهب ، فى يد الوزير . وكذلك نجد بين مديرى (الشونة) المزدوجة أعضاء من مجلس العشرة العظيم ، وحكام الجنوب .

أما (شون) غلال الإدارة الحربية فكانت مستقلة . وقد كانت هناك (شون) أخرى لتموين القصر يديرها مديرو التشريفات الملكية وليس لها علاقة بالخزينة العامة .

وإدارة (الشون) تملك (شونا) عدة مقامة فى مختلف المقاطعات ، كل واحدة منها تحت إدارة مدير خاص ، يساعده عدد عظيم من الكتبة والعمال، والمثمنين كما يلاحظ ذلك من نقوش « متن » (١)

إدارة التموين

وتشتمل إدارة (الشون) على إدارة خاصة «إست زفا» تسمى إدارة التموين وهى تضمن المحافظة على المحاصيل القابلة للعطب التابعة للمالية العامة . وقد أصبحت مزدوجة فى عهد الأسرة الخامسة ويديرها مدير إدارة التموين المزدوجة . وقد كان لهذه الإدارة فروع تدير المخازن المحلية يطلق على رئيس كل منها « مدير محل التموين » أما القصر فكان له كذلك إدارة

---

(1) Sethe Urkunden I, P. 1 etc.

للتموين خاصة تابعة للقصر الملكى مباشرة .

على أن (الشون) ومخازن التموين لم تكن مقسمة إلى إدارات محلية فحسب بل كان يعين وظيفة كل منها إذ نجد منذ الأسر الأولى مخازن الشعير ومخازن القمح ، وموظفين مكلفين بالمحافظة على البلح ، والعسل والخضر . وفى مرسوم « بيبى الأول » يذكر لنا إدارة الخبز .

الجمارك والتجارة الخارجية

تدل شواهد الأحوال على أن المحصولات التى كانت تجلب إلى مصر كان يفرض عليها ضرائب أو على الأقل كانت تحت مراقبة شديدة . إذ نلاحظ منذ الأسر الأولى أن حامل الخاتم كان مديراً للقوافل ، وكان على ما يظن مكلفا بإدارة مرور القوافل التجارية ، فقد كان أهل الواحات بصفة خاصة يحملون محصولاتهم بالقوافل إلى وادى النيل (١) .

ولما كانت الضرائب تجبى على مقدار الدخل ، فمن المحتمل أن التجارة كان يفرض عليها جزية . وبخاصة اذا علمنا أن التجارة تلعب فى مصر دورا هاما أكثر مما يمكننا أن نعرفه من النقوش الجنازية ، فقد كان الملاك الاغنياء يصدرون الحبوب ، وكان فى الدلتا عدة مدن تعد مراكز هامة للتجارة ، واقعة عند ملتقى الطرق التى كانت تجارة الغلال تمر فيها وتربطها بالبلاد الأجنبية ، ولا أدل على ذلك من متن الملك « خيتى » أحد فراعنة الأسرة التاسعة ، إذ يذكر لنا صراحة ثراء بعض المدن فيقول : أن

أهمية التجارة فى دخل البلاد

(1) Jéquier, Le Nil et la Civil. Eg. p. 261....

« أتريب » (بنها الحالية) يرجع ثراؤها إلى تجارتها فى الغلال مع البلاد الأجنبية . ومع ذلك فإن البلاد فى هذا العهد كانت فى غاية الانحطاط[١] وقد كانت الأساطيل المصرية تبحر إلى ببلوص (جبيل) فى هذا العهد وكذلك كان يجلب إلى مصر الزيت من جزيرة كريت . على أن أهمية الملاحة كانت مؤكدة فى البلاد ، وذلك باستمرار بناء السفن منذ الأسر الأولى .

وإذا صدقنا الأستاذ « بترى » فإن كل الصادر والوارد من التجارة كان مراقبا ، ففى البر كان يراقبه سكرتاريون يدوّنون الوارد إلى موانى الشمال وموانى الجنوب[٢] . وكان فى الموانى كتّاب على جوانب السفن ، مكلفون بتسجيل كل ما يدخل وما يخرج ، غير أن رواية « بترى » هذه مشكوك فيها . ورغم ذلك فإنه يظهر أنّ بعض بعثات بحرية كانت تنظمها الحكومة ، مثل قافلة السفن العظيمة التى ذهبت إلى بلاد بنت ، وقد حفظت لنا النقوش ذكراها . فقد كان « بيبى نخت » مدير القوافل فى عهد « بيبى الثانى » يلقب رئيس حسابات سفن ببلوص (جبيل) التى تذهب حتى بلاد بنت . وهذا المتن يدل صراحة على أن البعثات البحرية كانت تحت مراقبة الدولة المالية .

البعوث التجارية الى آسيا

وهناك نقش آخر على جانب عظيم من الأهمية وهو «لخنوم حتب» الذى قد مثّل فى قبر سيده « خوى » ويقول : أنه أنا الذى ظهرت مع أسيادى ، الأمراء وحاملى الختم المقدس ، « تيتى وخوى » فى ببلوص[٣] و « بنت » إحدى عشرة مرة ، وقد عدت بهم فى سلام وهذا القبر يوجد فى أسوان . وتشير النقوش فيه بلا نزاع إلى أمراء الفنتين الذين كانوا مديرى القوافل ، وكان الفرعون يعتمد عليهم

1. J. Eg. Arc ; 1914. P 22-35.
2. Petrie. Scarabs Index. VI. Dyn. No. 1755.
3. Montet, Byblos p. 270.

أمراء الفنتين وأهميتهم فى التجارة الخارجية

فى عهد الأسرة السادسة للمحافظة على سلطانه فى البلاد التابعة له فى الجنوب ، ولأجل أن ينظموا البعوث إلى البلاد الأجنبية . وهذه المعلومات رغم ضآلتها ترسل بعض الضوء على العلاقات الأجنبية وبخاصة التجارة التى ربما كانت تحت أشراف مالية البلاد .

حسابات الخزينة . ولم تكن الإدارة المالية محصورة فى خزن المحاصيل بل كان لها دفاتر حسابات منظمة تنظيما دقيقا . فلدينا صفحة من دفتر حسابات منذ الأسرة الخامسة (١) ويحتوى على بيان ضرائب من أنواع مختلفة من الخبز ، والملح (الخ) يسلمها معبد ، وجرايات تعطى إلى موظفين مختلفين ، ولا شك أن مثل هذه العمليات كانت تعمل فى مخازن الحكومة وشونها .

وهذه الحسابات كانت قائمة على نظام معقول تماما . فنجد الجزء الأول منها كان خاصا بالتحصيل . وقد وضح ذلك فى أعمدة عمودية ومجموعة فى عمودين أفقيين ، واحد منهما يدل على مجموع المال الذى يجب أن يجبى والثانى على الخراج الذى أخذ وقد دوّن الحساب بالمداد الأسود ، فى كل ما يختص بتفاصيل الدفع أما المجاميع فقد دونت بالمداد الأسود .

وهناك جزء آخر يدل على المنصرف ، ونجد فيه أسماء المنتفعين وأهمية الجرايات التى تعطى . ويجوز أن الصحيفة بقيت لنا من دفتر حسابات إدارة ضياع أو من مصلحة المالية نفسها . ولا شك فى أنها قد سهلت علينا فهم مقدار الدقة فى مسك الدفاتر فى عهد الدولة القديمة ومنها نفهم أن كل فرد كان مفروضا عليه ضريبة معينة يدفعها للحكومة .

---

(1) Borchardt, Ein Rechnungesbuch. des Koniglicher Hofes aus dem alten Reiches. Ebers Festschrift Leipzig 1897.

مصلحة الاشغال العمومية

أن ما نشاهده من المبانى الضخمة ونقرؤه عن الأعمال العظيمة التى كانت تنفذ فى عهد الدولة القديمة ، يشعر بوجود مصلحة خاصة للقيام بهذه الأعمال . والواقع أنه كانت توجد مصلحة للأشغال ، لها مكانة ممتازة بين مصالح الحكومة المصرية منذ بداية التاريخ فى مصر، بل هناك ما يدل على أنها كانت قائمة منذ عصر ما قبل الأسرات، ولا أدل على ذلك من السور العظيم الذى أقيم فى نخن[١] (الكوم الأحمر) . وفى عهد الأسر الأولى نشاهد القلاع التى كانت تحيط بمصر والأسوار التى أقامها « زوسر » ، بين أسوان والفيلة ، لحماية الحدود[٢] الجنوبية ، والأسوار التى كانت تسد خليج السويس لتقف غزوات البدو الوافدين من الشرق ؛ وكذلك إقامة المعابد والقصور والبوابات العظيمة ، هذا إلى بناء أسطول عظيم يحتوى على عدة سفن يبلغ طول الواحدة منها نحو ٥٠ متراً ، مما يحتاج إلى إدارة منظمة ودراية بفنون المبانى وتنفيذ المشروعات العظيمة . مهمة مصلحة الاشغال

ومنذ الأسرة الرابعة أخذت أهمية الأشغال العامة تحتل مكانة أعظم مما كانت عليه من قبل ، إذ فى عهدها أقيمت الأهرام الضخمة وتوابعها من معابد ومدن كما أسلفنا الكلام عنه . وكذلك اتسعت مساحة العاصمة بسرعة اتساعاً عظيماً يدل على مقداره مساحة جبانتها المترامية الأطراف (هذه الجبانة تمتد من أهرام الجيزة إلى دهشور وما بعدها) .

(١) J. Eg. Arch. 1921, P. 54 etc...
(٢) Baillet. Régime Pharaonique P. 241 et 242

وفى عهد الأسرة الخامسة بدأ الملوك ينشئون معابد عظيمة للشمس « رع » ، كل ذلك كان يستلزم نموا مطردا فى مصلحة الأشغال العمومية .

مصلحة الأشغال ليست مزدوجة

ومن المدهش أن نظام الإدارة فى عهد الأسرة الخامسة لم يجعل هذه المصلحة مزدوجة كباقى مصالح الحكومة ، أى مصلحة أشغال للوجه القبلى ومصلحة أشغال للوجه البحرى ، بل جعلها مصلحة واحدة تحت إشراف الوزير الذى كان يحمل من بين ألقابه العدة لقب (مدير كل الأشغال الملكية) « إمراكات نبت ن نيسوت » ، كما كان يحمل فى الوقت نفسه لقب (مدير القيودات) « إمرا سش ع نيسوت » . ولكن الواقع أن مدير مصلحة الأشغال الفعلى كان أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم الذى كان بدوره تحت مراقبة الوزير . غير أن عضو مجلس العشرة العظيم للجنوب الذى كان يشغل وظيفة مدير مصلحة الأشغال لم يكن يدير إلا شئون مصلحة الأشغال المدنية ، وذلك لأنه كما سنذكر فيمايلى كان للجيش مصلحة للأشغال خاصة . وقد كان تحت إدارة مدير مصلحة الأشغال العمومية مديرون آخرون يقومون بإدارة مصالح خاصة أو فروع للمصلحة الرئيسية؛ وكان كل منهم يلقب مدير مصلحة الأشغال الملكية«إمراكات ن نيسوت».

وأهم هذه المصالح هى مصلحة المبانى التى كانت متصلة تمام الاتصال بالمبانى الجنازية للملك . ونشاهد فى الألقاب أن رئيس المعماريين الملكيين « مدح نيسوت » كان منذ الأسرة الثالثة ، من أهم شخصيات الحكومة المصرية ، إذ كان يحمل الوزير هذا اللقب غالبا ، وكذلك كان يحمله أولاد الملوك وأعضاء مجلس العشرة العظيم .

وعلى وجه عام كان مهندس المبانى الملكى فى الوقت نفسه

يحمل لقب « مدير كل أشغال الملك » ، ولا غرابة فى ذلك فإن وظيفته كانت فى ترتيب المناصب الحكومية أعظم من منصب مدير كل أشغال الملك ، إذ كان يحمل قانونا لقب الشرف (السمير الوحيد) ، وهذا اللقب لم يكن يلقب به « مدير كل الأشغال الملكية » قانونا .

بعوث مصلحة الاشغال إلى المحاجر والمناجم

على أن هناك عددا من كبار الموظفين يحمل لقب مهندس معمارى « مدح » وأهمهم مهندس القصر المعمارى « مدح ن بر عا » ومهندس السفن «مدح دبت». والظاهر أن الأول كان تابعا لإدارة القصر، والثانى لإدارة الجيش .

ومنذ الأسرة الأولى كانت الحكومة المصرية ، ترسل البعوث لمناجم سينا ؛ وقد عثر هناك على نقوش يرجع تاريخها إلى عهد الملك « سمرخت » من الأسرة الأولى ، و إلى الملك « زوسر » من الأسرة الثالثة ، و إلى الملكين « سنفرو » و « خوفو » من عهد الأسرة الرابعة ثم من عهد الملوك « سحورع » و « منكاوحور » و « زت كا إسيسى » وكلهم من الأسرة الخامسة ومن عهد « بيبى الأول » و « بيبى الثانى » من الأسرة السادسة .

وقد أرسلت حملات فى عهد « بيبى الأول » إلى محاجر حمامات ، كان الغرض منها البحث عن الأحجار الكريمة والدهنج (حجر التوتيا الذى يستخرج منه النحاس) وأحجار البناء .

وهذه البعوث كانت تديرها مصلحة الأشغال العمومية، ففى عهد الملك «بيبى» الأول قام مدير كل الأشغال الملكية بقيادة حملة إلى سينا، لإحضار منتجات مختلفة لتستعمل فى قربان الملك و إقامة شعائره ؛ وقد كان يصحبه موظفان عظيمان كل منهما يحمل لقب حامل الخاتم المقدس، وكذلك مدير بعوث لمصلحة القرابين الإلهية (١)

(١) (Br. A. R. (I), p.p. 298, 299 et 301)

تأليف أعضاء البعوث

وقد ذكرنا فيما سبق أن حاملى الأختام المقدسة كانوا يصحبون البعوث البحرية إلى جبيل (ببلوص) وإلى بلاد بنت لأحضار الخشب والمحاصيل الأخرى المختلفة[١] . وقد كان يصحب الحملة كتّاب من إدارة القيودات « سش ع نيسوت » وقضاة ، هذا إلى تجريدة عسكرية هامة كانت تستعمل جنودها فى قطع الأحجار وحراسة القافلة .

يضاف إلى ما سبق أنه كان من أعمال مصلحة الأشغال العامة ، استثمار المناجم والمحاجر ، فقد ذكرنا فيما سبق أن الملك « منكاورع » قد أهدى مقبرة إلى المقرّب « دبحن » ؛ وقد أصدر جلالته الأوامر إلى مدير مصلحة الأشغال ليقطع الأحجار اللازمة لبناء هذه المقبرة من محاجر طرة .

ولا بد أنه كان هناك عدد عظيم من العمال التابعين لهذه المصلحة . والواقع أن النقوش تدل على أن الجنود كانت تستعمل فى قطع الأحجار ومعهم عمال ؛ ولكن لا نعلم بالضبط إذا كان هؤلاء العمال الذين يقومون بالأشغال العامة ؛ هم عمال قد استخدمتهم الحكومة لهذا الغرض أو من أسرى الحروب ولكن تدل الأحوال على أن الأسرى كانوا يستعملون فى إقامة هذه المبانى الضخمة وإلا ماذا كان يفعل الفرعون بهم . فقد ذكرت لنا الآثار أن « سنفرو » أحضر معه من حملة واحدة أسرى يبلغ عددهم ٧٠٠٠[٢] .

ومن الجائز كذلك أن مديرى الأشغال العمومية كانوا يستعملون بعض العمال المصريين وبخاصة الذين كانوا يدفعون بدلا عن الضرائب أعمالا

(١) (Montet Byblos p. 270. Sethe Urk. (I) 134)
(٢) (Br. A. R. (I) n 146.)

أعمال السخرة

يؤدونها سخرة للحكومة ، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على مصلحة المالية .

حكومة المقاطعات

كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات منذ فجر التاريخ كما ذكرنا ، وكان تقسيم البلاد بهذه الكيفية الأساس فى إدارتها ، غير أن نظم الإدارة فيها كانت تتمشى بطبيعة الحال مع تطورات التقدم العمرانى الذى يحدث فى كل أمة ناشئة فتية تسير نحو الفلاح ؛ ولذلك نشاهد بعد انقضاء العهد الطينى حدوث تغير محسوس فى نظام الحكم . وأول شىء يلفت النظر فى المقاطعات هو ازدياد سلطان حاكم المقاطعة وذلك أمر طبعى ، إذ أعطى سلطة واسعة فى عهد الفراعنة الضعفاء ، ولهذا بدأ يعمل على استقلاله من التاج . وهذه المحاولات كانت سهلة كلما كانت المقاطعة بعيدة عن العاصمة ، لأن طرق المواصلات لم تكن تسمح للسلطة الرئيسية بأن تقوم بتحقيقات مستفيضة . وقد كانت الطريقة الوحيدة عند الفرعون لتجنب استقلال حكام المقاطعات أن يعتبرهم حكاما قابلين للنقل عدة مرات فى أثناء خدمتهم ، غير أن هذا الحق لم ينفذ فعلا . ومنذ ذلك العهد أصبح حاكم المقاطعة بمثابة موظف ثابت فى مقاطعته ، ولذلك كان من الطبعى أن ينفصل شيئا فشيئا عن التاج . وأول ظاهرة لذلك أن أخذ حاكم المقاطعة يقطع صلته بالبلاط الملكى فأصبح لا يكون جزءاً منه ، وبعد أن كان يدفن فى الجبانة الملكية بالقرب من العاصمة أصبح يقيم لنفسه مصطبة فى مقاطعته ليدفن فيها وحوله رجال بلاطه . ولقد كان من نتائج هذا التغير أن أصبحت

كيف استقل حكام المقاطعات

وراثة حكم المقاطعة أمرا طبعيا . فأخذ حاكم كل مقاطعة يطالب العرش بأن يكون ابنه الأكبر هو الوارث لوظيفته بعد مماته . والظاهر أن الملك لم يمانع فى ذلك بل سلم بسهولة . وهذا العطف أصبح فيما بعد عادة ، ثم بعد مدة أصبح حقا ، وبهذه الكيفية تكونت الأسرات الإقطاعية العظيمة . ويلاحظ أن ما ذكرناه لا ينطبق إلا على الصعيد إذ لا نكاد نعرف شيئًا عن النظام فى مقاطعات الدلتا . على أن الوثائق المنقوشة التى تركها لنا « متن » فى قبره الذى يرجع عهده إلى بداية الأسرة الرابعة ، نفهم منها أنه لم يكن هناك فى هذا العصر أى فرق بين الوجه القبلى والوجه البحرى ولكنه من الخطر أن نعتمد على وثيقة واحدة فى تقرير نظام الحكم فى الدلتا . وقد بقى حاكم المقاطعة يلقب « عزمر » (رئيس حفر الترع) كما كان الحال فى العهد الطينى ، ولكن لم يلبث أن أضيف له لقبان جديدان هما حاكم المقاطعة أو حاكم القصر « حكا حت » ومرشد الأرض « سشم تا » . ومن منطوق هذين اللقبين يمكن الإنسان أن يلاحظ اتجاه حاكم المقاطعة نحو الاستقلال . ولأجل أن نفهم الفرق بين ما لحاكم المقاطعة المعين وبين حاكم المقاطعة الوراثى ، سنورد هنا ما لكل من السلطة فى إدارة المقاطعة .

حكم المقاطعات أصبح وراثياً

ألقاب حاكم المقاطعة

كان حاكم المقاطعة فى عهد الأسرة الرابعة يعد موظفاً ويلقب «ساب عزمر»، وكان يعين بمرسوم ملكى وينتخب من بين « الكتّاب » الذين تقلبوا فى مختلف الوظائف ، وكان ذلك لزاما على كل كاتب يصل إلى مثل هذا المركز . ولم يكن حاكم المقاطعة ثابتا فى مقاطعة واحدة ، بل كان ينتقل فى مختلف مقاطعات القطر حسب الأحوال . وبعد وقت ما كان يأمل هذا الحاكم فى أن يرقى إلى إحدى وظائف الحكومة المركزية فى العاصمة ،

مركز حاكم المقاطعه المعين

وذلك بأن يعين مديرا لاحدى المصالح الحكومية الرئيسية ثم تتوق نفسه فى ختام حياته الحكومية إلى أن يكون عضوا فى مجلس محكمة الستة العليا أو مستشارا سريا ، أو نائب الفرعون فى «نخن» أو وزيرا .

سلطة حاكم المقاطعة الوراثية

أما الأمير « حاتى عا » حاكم المقاطعة فإنه لم يكن موظفا بل كان من علية القوم وأشرافهم ، وكان يتسلم بالوراثة حكومة مقاطعة معلومة هبة له ؛ وعلى ذلك كان أمير المقاطعة يرثها حقا مكتسبا ، وكان من الضرورى أن يكون من كبار رجال الملك حتى يتسلم إرث والده . وكان لا بد من أن يوافق الفرعون على هذا التعيين بمرسوم . وهذا المرسوم لا يشمل أمر تعيين فحسب ، بل كذلك يتضمن إطلاق يده فى ريع هذه المقاطعة . وكان يقام عند صدور هذا المرسوم احتفال ، (يدشن) فيه الحاكم الجديد فى حضرة أقرانه . ومنذ تلك اللحظة يصبح الحاكم الجديد مطلق التصرف فى كل أمور المقاطعة ويحكم كيف شاء .

وكان أمير المقاطعة يقسم منطقة نفوذه بين أفراد أسرته كحكام قلاع او نواب له على أن يكون الفرعون هو الذى يصدر أمر تعيينهم . وقد أصبحت هذه الوظيفة وراثية فى عهد الملك « دمزى با توى » من أواخر ملوك الدولة القديمة .

علاقة الفرعون بموظفيه

وفى عهد الدولة القديمة كانت علاقة الملك بموظفيه فى بادىء الأمر علاقة فرد يؤدى واجبه وفى مقابل ذلك كان الموظف يأخذ ما يقتات به ويحفظ كيان حياته . أما الموظفون أصحاب الكفايات فكانوا يوضعون فى مناصب تليق بهم حسب أهمية كل منهم . وكان ذلك كل مكافأتهم . ولكن بعد زمن قليل أخذت محبة الملك لهم وعطفه عليهم

يظهران بمظاهر أخرى ، وبخاصة فى منحهم مكافآت جنازية . وذلك أن المصرى لما كان يعتقد أن الحياة فى الآخرة مثل الحياة الدنيا مع الفارق فى كون الثانية أبدية ، فإنه كان فى كل الأزمنة يرغب فى أن يكون له قبر عظيم جميل مجهز بكل الأثاث المأتمى ؛ وكان الفرعون فى مثل هذه الأحوال يعطف على كبار موظفيه فيمنح الفرد منهم تابوتاً أو لوحة أو مائدة قربان . والواقع أنه كان من الصعب على موظف بسيط أن يقطع لنفسه من المحاجر النائية الكمية الكافية من الأحجار لبناء قبره ، وأن يتعهد نقلها من المحجر إلى الجبانة . فكان الملك يقوم بهذا العمل وقد كان ذلك أول عطف يظهره لخدامه . على أن الحصول على قبر جميل لم يكن كافياً بل كان من الضرورى أن يضمن صاحب المقبرة استمرار الترحم على قبره ، و اقامة الاحتفالات الخاصة به مما حتم أن يكون للقبر دخل ثابت ، جزء منه يوقف بوثيقة للمحافظة على الشعائر الدينية اللازمة لصاحب المقبرة ، والجزء الآخر كان يقسم بين الكهنة الذين يقومون بالصلاة و إقامة الشعائر الدينية اللازمة . وقد كان الملك كذلك فى هذه الناحية يعطى موظفيه « المقربين » أراضى كان القصد منها أن توقف للأغراض السابقة . وهذه المنح من الأرض كانت أحيانا عظيمة ؛ على أن الموظفين لم يكونوا هم الطائفة الوحيدة الذين كانوا يتمتعون بكرم الفرعون بل كان الكهنة كذلك يطلبون دخلا عظيما لمعابدهم . وكان من جراء ذلك أن الضياع الملكية أخذت فى النقصان شيئا فشيئا وبخاصة إذا علمنا أن معظم الأراضى التى كانت تمنح للمعابد بمراسيم كانت تعفى من كل أنواع الضرائب . وهذا الانتقاص فى أملاك الفرعون كان بداية انحلال

منح الملك لموظفيه

لقب « المقرب »

سبب انحلال الدولة القديمة

السلطة الرئيسية من يد الملك . وإذا لم تظهر بوادر هذا الانحلال بشكل خطر فى خلال الأسرة الخامسة فإن الحالة أصبحت تهدد بالخطر، وإذا أضفنا إلى ذلك استقلال حكام المقاطعات الذى كان فى ازدياد علمنا السبب الرئيسى الذى من أجله سقطت المملكة المنفية فى نهاية الأسرة السادسة .

السلطة القضائية

العدالة تمثل على شكل آلهة

لا نزاع فى أن فكرة العدالة والحق كانت موجودة بين سكان القطر المصرى منذ أقدم العهود ، وقد كانت إلهة العدل تحمى المحاكم ، ويقوم بأداء شعائرها القضاة ، فمن ذلك يتضح أن العدالة كانت تمثل على شكل إلهة تعبد ، يضاف إلى ذلك أن المصرى كان منذ القدم يخاف عقبى الآخرة ، ويجتهد أن يعمل فى دنياه ما يشعر بأنه ينتظر يوما يعاقب فيه على كل سيئة اقترفها أو ذنب ارتكبه . وقد عثرنا على وثيقة من عصر الملك « منكاورع » لأحد كبار موظفيه ورجال الدين ، نرى منها أن هذه الشخصية وقفت موقفا تبرىء فيه نفسها مما لا بد كان يرتكبه غيرها من الآثام وأنواع الظلم فى هذا العصر . وهذا العظيم هو « رمنوكا » كبير كهنة الملك « منكاورع » وكبير كهنة هرمه[1] . فهو من رجال الدين وممن يخافون الله . وقد ترك لنا عتبة باب علوية نقش عليها ما يأتى : « إن الذى يحب الملك والإله أنوبيس الذى على قمة جبله ، لا يأتى بأذى لمحتويات هذا القبر ، من القوم الذين سيصعدون إلى الغرب (مقر الآخرة) . أما من جهة هذا القبر الأبدى فإنى قد أقمته لأنى كنت « مقربا » لدى

(1) Sélim Hdssdn, Excavations at Giza vol II P. 173.

الناس والملك . ولم يحدث قط أنى اغتصبت أى شىء من أى إنسان لهذا القبر ، لأنى أذكر يوم الحساب فى الغرب (الآخرة) . وقد أقمت هذا القبر مقابل أجور من الخبز والجعة التى أعطيتها العمال الذين أقاموه . تأمل ! لا نزاع فى أنى أعطيتهم أجورا عظيمة من الكتان الذى كانوا يطلبونه ،وقد دعوا الله لى من أجل ذلك » . وليست هنالك وثيقة تدل على مقدار خوف المصرى من عقاب الدنيا وعقاب الآخرة مثل هـذه . فصاحبها يقرر بأنه لم يغتصب شيئًا من أى إنسان خوفا من حساب الآخرة ، وفى الوقت نفسه يشعر الأحياء بألا يتعدوا على قبره لأنه أقامه من ماله ودفع أجورا عالية للعمال الذين أقاموه .

أول وثيقة تشعر بوجود الوازع الخلق والدينى عند المصرى

ولكن من سخرية القدر أننا وجدنا هذا الحجر الذى عليه هذا النقش قد اغتصب من مقبرة صاحبه ، واستعمل ثانية مع أحجار أخرى لأقامة قبر حقير بجوار قبر « رمنوكا » العظيم . وقد تكلمنا على اغتصاب القبور فى الجزء الأول بإسهاب (انظر صفحة ٣٤٦) .

على أنه ليست لدينا معلومات مدونة عن كيفية سير العدالة فى عهد الدولة القديمة ، وكل ما نعلمه عن سير القضاء فى مصر مشتق من الألقاب القضائية التى كان يحملها رجال الدولة ، أو مستخلص من الوصايا والعقود ، والسندات وشروط الأوقاف . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من الألقاب القضائية فى عهد الأسرة الرابعة إلا عدد محدود ، لم نتمكن من أن نستخلص منه الشىء الكثير .

مصادر النظام القضائى

ففى عهد الأسرة الرابعة نلاحظ أن كل أمراء المقاطعات كانوا يحملون لقب « قاض » مضافا إلى وظيفة حاكم المقاطعة ، فكان الواحد منهم

يلقب « القاضى حاكم المقاطعة » . وقد كان ذلك سبب اختفاء لقب (حاكم القصر العظيم) « حكا حت عات » الذى كان يطلق على نائب الملك فى المقاطعة قبل ذلك العهد . والظاهر حينئذ أن السلطة التى كان يمثلها الأخير قد حل محلها لقب قاض فى اللقب الأول ؛ ومن المحتمل جدا أن « نائب القصر العظيم » كان يمثل السلطتين القضائية والتنفيذية . وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص أن « حاكم القصر العظيم » أو نائب الملك فى الأسرة الثالثة كان مثله كمثل حاكم القصر العظيم فى عهد الأسرة الخامسة يرأس محكمة المقاطعة ، وهذه النظرية لا غرابة فيها .

حاكم المقاطعة فى يده السلطة القضائية

أما مدن الوجه البحرى التى كان لا يحكمها أمراء ، والتى كانت حكومات مستقلة تتألف كل منها من عشرة رؤساء ، فلها نظام قضاء خاص . ومهما يكن من أمر فان إخضاع الملك « نعرمر (مينا ؟) » لهؤلاء الرؤساء وإدخال لقب (حاكم القصر العظيم) « حكا حت عات » فى نظام حكم الوجه البحرى (وقد كان يمثله نائب من قبل الملك) ، قد جعلهم تحت سلطة الملك التنفيذية والقضائية . وسنرى أن هذا الحاكم كان يعين رئيسا للمحاكم المحلية . وتدل النقوش أن « حاكم القصر العظيم » كان يحيط به موظفون من رجال السلك القضائى . فنجد من بين موظفى المقاطعة لقب (القاضى رئيس الشرطة) « ساب حرى سكر » والقاضى الجابى « ساب نخت خرو » . والواقع أن رئيس الشرطة كان رئيس قوة مسلحة ، وقد كان العظيم « متن[1] » حارس إقليم ، وحاكم مقاطعة الحدود الغربية ، يطلق عليه لقب رئيس الشرطة أى أنه رئيس الجنود فى هذه الحكومة . وعلى

نظام الحكم فى الوجه البحرى

(1) Sethe, (Meten) Urk. (I) 1-17

ذلك يكون (القاضى رئيس الشرطة) قاضيا له السلطة على قوة مسلحة وهذه القوة كانت فى خدمة العدالة و يتألف منها رجال الشرطة .

وبجانب حاكم المقاطعة كان يوجد « قاضى جباية » مكلف بالفصل فى المخاصمات التى تقوم بين جابى مخازن الغلال والممولين . وكما ذكرنا يحتمل جدا أن محكمة المقاطعة كان يرأسها حاكم القصر العظيم (أى حاكم المقاطعة) . وكانت تتألف من أشراف يطلق على كل منهم لقب « سر » . وكانوا يجلسون فى المحكمة بصفتهم قضاة . وقد جادت الصدف بوثيقة من أوائل الأسرة الرابعة . عرفنا من منطوقها اختصاصات هذه المحكمة وإجراءاتها[1] .

اختصاصات محكمة المقاطعة

وتتخلص هذه الوثيقة فى أن أحد رؤساء كهنة « نخب » (الكاب الحالية) وقف عينا على أغراض جنازية وجعل نظارتها إلى جماعة من الكهنة ، وقد نص فى صلب العقد على الشروط التى كانت واجبة على هؤلاء الكهنة بالنسبة لوقفه . فحدد أولا مدى الحقوق التى يجب أن تكون « للشخص المدنى » على العقار الذى سلمه إياه . ومن أجل ذلك اشترط الواقف أنه « فيما يختص بكل شىء قد تصرف فيه قبل عمل الهبة لهم (أى الكهنة) فإنه ستجرى محاكمة معهم فى المكان الذى يحاكم فيه الناس » والمكان الذى يحاكم فيه الناس هو محكمة « السراة » [2] كما يقول المتن . يضاف إلى ذلك أن الواقف قد أبعد اختصاص « محكمة السراة » فيما

1. Acte de Fondation d'un dignitaire de la Cour de Khefren Rec. Tr. XIX PP. à 75-91

(٢) استعملت لفظة سراة جمع سرى للدلالة على أعضاء مجلس المحكمة . وذلك لقرب اللفظة المصرية من اللفظة العربية شكلا ومعنى.

يختص بالمنازعات التى يمكن أن تحدث بين أعضاء طائفة الكهنة أى بين الشركاء أنفسهم . ولذلك يقول المتن : « كل كاهن أبدى يرفع **دعوى ضد** زميل له ، فلا بد للمدعى من أن يقدم ما يدل على أنه كاهن من الموقوف عليهم ، وإذا حدث أن نصيبه قد قيس ووجد أنه لا يتفق مع شكواه ، نزع من يده ، الأرض ، والناس ، وكل شىء قد أعطيته له ليقدم لى قربانا هنا . (وذلك بوساطة طائفة الكهنة التى ينتمى إليها هنا). وهذا يكون آخر إجراء له حتى لا نرفع دعوى أمام محكمة السراة فيما يتعلق بالأرض ، والناس ، وكل شىء قد خصصته للكهنة الأبديين ليقوموا لى بعمل القربان هنا فى القبر الأزلى » .

غير أن الواقف لا يمكنه أن يمنع خصما آخرا من رفع دعوى ضد الكهنة أمام محكمة السراة ولكنه مع ذلك كان يراعى عدم إلحاق أى ضرر بأوقافه . فيقول : كل كاهن يحضر أمام « السراة » لسبب آخر (فلا بد له أن يعلمهم بأنه قد حضر لسبب آخر . على أن نصيبه يكون حسب الطائفة التى ينتمى إليها . وأن تقدر الكهنة الأرض والناس ، وكل شىء أعطيتهم إياه لعمل القربان لى هنا فى القبر الذى فى جبانة « خفرع ور » ، وكل يخصه بصفة دخل له .

ومن هذه الوثيقة نرى أن محكمة السراة كانت المحكمة المختصة للفصل فى المسائل الخاصة بالعقار .

الاجراءات لرفع الدعوى

أما الإجراءات التى كانت تتبع لرفع الدعوى فكانت تنحصر فى أن يقدم المدعى عريضة « ع » يشرح فيها طلبه . وإذا كان الموضوع خاصا بعقار فإن المحكمة ترجع فى حكمها إلى الأوراق الخاصة بهذا العقار المستخرجة من مصلحة الزمامات . والواقع أننا كنا نرى الواقف يضع

أمام المحكمة قائمة بعقاره بطريقة واضحة تفصل بين أملاكه وأملاك الكهنة الذين يدخلون فى مقاضاة مدنية . ومن ذلك يتضح أن الإجراءات القضائية ترتكز على أساس مكتوب يحتوى على وثائق لها أصل محفوظ فى السجلات ، وقد كان من حق المتخاصمين أحيانا أن يتفاديا اختصاص محكمة السراة وذلك بعمل تحكيم إذا نص على ذلك فى صلب عقد الوقف كما جاء فى عقد وقف « رئيس كهنة نخب » السابق الذكر إذ يقول : أن كل المخاصمات التى يمكن أن تحدث بين أعضاء الوقف تعرض على لجنة تحكم من جماعة الكهنة الذين يمثلون هذا الوقف ؛ ويكون حكمها هو النهائى أى أنها تبعد فى هذه الحالة عن اختصاص المحاكم العادية . ومن ذلك يتضح أن القانون المصرى يجيز التحكيم ويعترف به بمثابة سلطة قضائية ، ولا نزاع فى أن الاجراءات التى شرحناها فى هذه الوثيقة كانت بطبيعة الحال تستدعى وجود مستخدمين وإدارة قضائية . ولا نذهب بعيدا فإن والد«متن» كان«موظفا قضائيا»، ونقرأ كذلك فى عهد الأسرة الرابعة فى النقوش الألقاب الآتية : قاض كاتب «ساب سش» وقاض كاتب أول «ساب سحز سش» وقاض مدير الكتبة «ساب امرا سش» ولا نزاع فى أن لقب كاتب ؛ وكاتب أول ومدير الكتّاب ، كلها تدل على درجات مختلفه يحملها موظفو الإدارة ، فنستخلص من ذلك أنه كان للعدالة مصلحة خاصة قائمة بذاتها بجانب المصالح الإدارية ويتميز موظفوها عن الأخيرة بلقب قاض قبل كل لقب إدارى كما ذكرنا.

السلطة القضائية فى عهد الأسرة الرابعة .

تدل النقوش فى عهد الأسرة الرابعة على أن لقب حاكم القصر العظيم « حكا حت عات » قد حل محله لقب إدارى آخر « مدير القصر الكبير » وسنرى عند درس الألقاب القضائية أن القصر الكبير « حت ورت »

هو المحكمة وإنه فى عهد الأسرة الخامسة كانت المحكمة العليا للدولة تسمى محكمة الستة العليا « حت ورت سو » ، وهى التى حلت محل المحكمة الكبيرة ، التى كانت تعد المحكمة العليا للدولة فى عهد الاسرة الرابعة ، ولم يكن الوزير رئيسها الأعلى فى هذا العهد . ولكن من جهة أخرى كان فى عهد الأسرة الخامسة يحمل لقب مدير محكمة الستة العليا « امرا حت ورت سو » والواقع أن الوزير رغم أنه لم يرأس أى جلسة ؛ فإنه كان القاضى الأعظم أى القاضى للباب الملكى . وهذا الباب يعلوه الصل

سلطة الوزير القضائية

(الثعبان) الذى يمثل به الوزير سلطته القضائية ، وهو فى الحقيقة تجديد فى عهد الأسرة الرابعة ، ويمكن تفسير ذلك بكل سهولة وذلك أننا نعرف أن اسم المحكمة « حت ورت » مؤلف من كلمة « حت » التى فى الأصل معنى قصر السيد « حكا » . وقد كانت السلطتان القضائية والتنفيذية مختلطتين بعضها ، قبل توحيد البلاد بين أيدى الأمراء المحليين . ولكن تجمع السلطة فى يد الملك تدريجا جعلت محل هؤلاء الحكام ، موظفين من قبل الملك ، وبقيت فى يدهم السلطة القضائية ، غير أنهم كانوا يستعملونها بصفتهم ممثلين للملك . ومن ذلك يتضح ان السلطة القضائية انتقلت من يد الأمراء الحكام إلى يد الملك . فكان حينئذ أعظم القضاة هو الذى يجلس فى قصر الملك نفسه . وهذا القاضى هو الوزير كما يبرهن على ذلك الباب الذى يعلوه الصل الملكى الذى مثل فى لقبه ويسميه « قاضى باب الصل » أى القاضى الملكى بكل مدلول العبارة . وتدل الألقاب التى فى متناولنا أن كلا من الوزير والمحكمة العليا « حت ورت » كان مستقلا عن الآخر فى السلطة . فكان الوزير ينتخبه الملك ليكون ممثله المباشر وفى يده السلطة

القضائية العليا التى كانت فوق كل المحاكم القضائية ، على أننا لايمكننا أن نحدد اختصاصاته . ولا بد من أن نرى فى هذا الاصلاح مظهراً لسياسة الملك الاستبدادية إذ الواقع إن فى تعيين الملك للوزير قاضيا أعلى ، قد ألقى فى يده إدارة القضاء فى البلاد مباشرة .

قاضى المدنيين « مدو خيت »

يدل الدرس الدقيق على أن هذا اللقب كان يطلق على الموظف الذى كان يقود هذه الطائفة من سكان القطر ، ويتكلم بلسانهم ، ويحاكمهم . و« الرخيت » هم فى الأصل سكان المدن فى الوجه البحرى ثم عمم فيما بعد وأصبح يطلق على سكان المدن فى البلاد كلها فى عهد الأسرة الخامسة كما سنشرحه .

وتدل الدراسات الدقيقة فى تتبع ظهور هذا اللقب على حادث من أهم حوادث سياسة تجمع السلطة فى أيدى الملوك . فنعلم أن الملك « نعرمر » قد أمر بقطع رقاب عشرة رجال من «متليس» ، غربى الدلتا (فوه ؟) . وكذلك منذ ذلك العهد قد عثرنا على أختام عرفنا منها أن المدن كان يحكمها حكام يطلق على كل منهم لقب « عز مر » . وفى عهد الأسرة الثالثة أصبحت مقاطعات الدلتا تحت سلطان حاكم يلقب (حاكم القصر العظيم) وحاكم الفلاحين « مريت » « حكا حت عات عز مر » .

وفى عهد الأسرة الرابعة أصبح حاكم المقاطعة « عز مر » يلقب « القاضى وحاكم المقاطعة » ، وبذلك أصبحت له سلطة قضائية على السكان الذين يحكمهم . وفى نفس العصر وكل الملك للوزير رياسة السلطة القضائية العليا ، وأول وزير أسندت إليه الوزارة هو « كانفر [1] » ؛ وكان يحمل لقب

(1) Journ. Egypt. Arch. 1918 P.P. 146 etc.

« مدو ـ رخيت » (أى قاضى المدنيين) ، وربما كان منحه هذا اللقب دليلا على أن اختصاصه القضائى قد امتد إلى سكان المدن « رخيت » .

وفى عهد الأسرة الخامسة كان مستشارو (محكمة الستة العليا) يلقب كل منهم « مدو رخيت » . وكذلك كان يمنح هذا اللقب كل حكام المقاطعات الذين كانوا رؤساء للمحاكم الإقطاعية . ومن ذلك يتضح أن السلطة القضائية التى كانت فى يد حكام المقاطعات ، وكذلك سلطة المحكمة العليا ، قد فرضت منذ ذلك العهد على سكان المدن « رخيت » ، ومنذ ذلك الوقت فقد سكان المدن امتيازاتهم القضائية التى كانوا يتمتعون بها . معنى كلمة « رخيت »

ولا أدل على ذلك من أنه فى عهد الأسرة الخامسة كان حكام الوجه القبلى يحملون لقب « مدو رخيت » . ويمكننا أن نستنتج أن الأسرة الخامسة قد أعادت تنظيم قانون التشريع الخاص بالسكان المدنيين الذين أصبحوا منذ ذلك العهد يلقبون فى الوجه القبلى والوجه البحرى على السواء بإسم « رخيت » . ومن المحتمل جدا أن هذا اللفظ فى معناه اللغوى الأصلى يدل على الأفراد الذين كانت تقيد أسماؤهم فى قوائم خاصة .

الاصلاح التشريعى ونظام العدالة فى عهد الاسرة الخامسة

وفى عهد الأسرة الخامسة حدث إصلاح بعيد المدى فى نظام العدالة وفى نظام السلطة التنفيذية ، إذ ظهرت محكمة جديدة تسمى محكمة الستة العليا يرأسها الوزير الذى كان وحده يلقب مدير محكمة الستة ، وبهذه الصفة كان هو القاضى الأعلى للبلاد ، ويحمل لقب « مدير كل المحاكمات »

أى أنه كان صاحب السلطان على كل محاكم البلاد ، وأعضاء هذه المحكمة كانوا يلقبون « رؤساء أسرار » ويقومون بدور المستشارين ، وكانوا يحملون لقب « رؤساء الكلام السرى الخاص بمحكمة الستة » ، وينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم . وكان هناك آخرون يطلق عليهم رؤساء أسرار المحاكمة فى محكمة الستة وكلهم كذلك يحملون لقب « أعضاء مجلس العشرة العظيم » أو لقب موظف ممتاز للإدارة القضائية « ساب سحز سش » . والظاهر أن من أهم شخصيات هذه المحكمة القاضى فم « نخن » وهذا الموظف كان يحمل لقبين آخريين يحددان بالضبط أعماله ، « فهو رئيس الأسرار الذى ينطق باحكام محكمة الستة » ، وكذلك يحمل لقب « رئيس الأسرار الذى يجلس وحده فى محكمة الستة[١] » وتفسر لنا نقوش « ونى » هذا اللقب فيقول « ونى » : « أن جلالته قد نصبنى قاضى فم « نخن » . وقد جلست وحدى مع القاضى الأعلى فى كل الأمور السرية أعمل باسم الملك . . . فى محكمة الستة[٢] العليا » . والواقع أن « ونى » بصفته « فم نخن » قد كلفه الملك أن يساعد الوزير وهو القاضى الأعلى فى التحقيق فى محضر مع زوجة الملك العظيمة « إمتس » فى عهد « بيبى الأول » . وقد قام بهذا التحقيق وحده مع قاضى فم « نخن » . والظاهر أن الأخير كان رئيس جلسة فى محكمة الستة .

وظيفة محكمة الستة العليا

والواقع أن محكمة الستة كانت المحكمة العليا للقطر ، وكانت تحت سلطة الوزير مباشرة وقد كان له وحده الحق فى رياستها . وقد

1. Mariette. Mast. D. 56, p. 329.
2. A. R. (1) p. 30.

كانت تحتوى على جلسات مختلفة تحت رياسة قضاة ، كل منهم يحمل لقب قاضى « فم نخن » ورؤساء الجلسات هؤلاء « سمسو هاييت » ، كان يحيط بهم مستشارون « حرى سشتا » ، فمنهم من يلقب « رئيس الأسرار للتحقيق الخفى » وهم مكلفون خاصة بالتحقيق فى القضايا ، ومنهم من يلقب « رئيس أسرار الأحكام » وهم مستشارون ، وظيفتهم تنحصر فى تحضير الأحكام التى ينطق بها الرئيس . والظاهر أن القضاة المحققين كانوا يؤلفون طبقة خاصة منفصلة تمام الانفصال عن قضاة الجلسة ، فالطبقة الأولى تحقق القضايا التى يقدمها لهم قلم كتّاب المحكمة ، وبعد انتهاء التحقيق تقدم القضية أمام أحدى جلسات المحكمة ، وبعد ذلك يقوم مستشارو المجلس الذى يرأسه القاضى فم « نخن » بمناقشة القضية وتحضير الحكم الذى ينطق به الرئيس .

وقد كان القاضى فم « نخن » بصفته رئيسا يجلس منفرداً فى عدة قضايا سميت فى متن « ونى » (أمور سرية) . ومن المحتمل أن هذه لم يكن فيها أى تحقيق . وكذلك تنبئنا نقوش « ونى » أنه فى بعض الأحيان كان يجلس الوزير نفسه على كرسى القضاء يساعده أحد رؤساء جلسات المحكمة . وهناك قضايا خاصة فى غاية الدقة يحقق فيها الوزير مباشرة ومعه القاضى فم«نخن» . والحكم الذى ينطق به الوزير أو رؤساء الجلسات كان يدون باسم الملك(١) كما جاء ذكر ذلك فى متن « ونى » وقد كانت محكمة الستة العليا تؤلف من بين أهم أعضاء عظماء الموظفين فى الدولة .

فكان الوزير الرئيس الأعلى ؛ أما رؤساء الجلسات فكان كل منهم

1. Br.A. R. (1) N. 307.

له ماض مجيد فى القضاء فمثلا نجد فى عهد الأسرة الخامسة أن كل ألقاب القاضى « فم نخن » كلها قضائية[1] . أما قضاة التحقيق فكانوا كلهم ينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم ، على حين أن قضاة الجلسة كانوا إما من مجلس العشرة العظيم أو قضاة خدموا فى السلك القضائى ويحملون ألقابا عظيمة مثل قاض ممتاز « ساب سحزسش » .

وقد عثرنا حديثا على نقش من الدولة القديمة لموظف يحمل لقب مدير محكمة العشرة العظيمة « حت ورت مز » ولا نعلم كنه هذه المحكمة بالضبط لأن الأمثلة لدينا تنحصر فى هذا المثل الوحيد ومن المحتمل أنه كانت هناك محكمة أخرى مؤلفة من عشرة أعضاء أو عشر دوائر . ولكن على أية حال فإنها لا بد كانت مؤلفة على نمط محكمة الستة العليا .

محاكم المقاطعات « حت ورت »

من دراسة ألقاب حكام المقاطعات فى عهد الأسرة الخامسة يمكننا أن نستنتج أن كل حكام المقاطعات فى الوجه القبلى ، أو الوجه البحرى ، كانوا يرأسون محكمة المقاطعات « حت ورت » ، وهذا الإصلاح على ما يظهر قد أحدث تجديدا قانونيا عظيم الشأن ، وذلك أن الحقوق التى كان يتمتع بها سكان مدن الوجه البحرى « رخيت » إلى هذا الوقت قد اكتسب مثلها سكان مدن الوجه القبلى . ولا أدل على ذلك من أن كل حكام المقاطعات فى القطر عامة فى عهد الأسرة الخامسة كانوا يحملون لقب « مدو رخيت » قاضى المدنيين . وهذا العمل قد تم

(1.) Mariette, Mastabas, D. 56. P. 329.

توحيد القانون فى كل بلاد الدولة .

ومن المحتمل جدا أن محكمة المقاطعة لم تكن إلا تغييراً شكلياً لمحكمة السراة القديمة التى كان يطلق عليها « المكان الذى يحاكم فيه الناس » . وقد تكلمنا عنها فى عهد الأسرة الرابعة . والواقع أن « السراة » كانوا قد حافظوا على حقهم حتى فى الأسرة السادسة على النطق بالأحكام ولكن اختصاصهم القضائى كان خاضعا لأحكام الوزير القاضى الأعلى لمحكمة الستة العليا . وحق مراقبة الوزير أو بعبارة أخرى استئناف الوزير لأحكام محاكم السراة قد ذكره الوزير « مرا » (١) صراحة إذ كان يلقب « رئيس الأسرار لأحكام السراة » . ويمكننا القول بأن محكمة المقاطعة « حت ورت » كانت على شكل محكمة يرأسها حاكم المقاطعة يساعده السراة بصفتهم مستشارين .

المجلس « هاييت »

أن لفظة « هاييت » لم نعثر عليها قط إلا فى الألقاب القضائية فمثلا نجد أن لقب « سمسو هاييت » أى كبير ال « هاييت » كان دائما يطلق على القاضى فم « نخن » رئيس الجلسة . وكذلك نجده فى لقب « الناطق بالحكم فى ال « هاييت » . ومن ذلك يمكننا نستخلص أن لفظة هاييت هى قاعة تجلس فيها المحكمة . وقد أخذت فى الألقاب القانونية معنى مجلس المحكمة . وعلى ذلك يجوز أن المحكمة « حت ورت » كانت تشمل عدة مجالس أى عدة دوائر .

1. Gunn, Cemetery of Teti pp. 133 etc.

وفى محكمة الستة كان لقب كبير المجلس « سمسو هايت » هو القاضى فم « نخن » . وفى محاكم المقاطعات كان رئيس المجلس قاضيا يلقب « كبير قضاة المجلس » .

الادارة القضائية « وسخت »

يلاحظ أن الوزير كان يلقب كثيرا « خرب وسخت » أى رئيس القاعة العظيمة أو « إمرا وسخت » أى مدير القاعة العظيمة . وقد لاحظنا من جهة أخرى فى مصالح الحكومة المختلفة أن لقب « إمرا » لمدير يدير الإدارة أما « خرب » فيطلق على رئيس الموظفين ، وربما ينطبق ذلك على الإدارة القضائية « وسخت » . والواقع أن « وسخت » متصلة اتصالا مباشرا بالعدالة . فنرى فى الحقيقة أن « عنخ إرس» [1] أحد عظماء الأسرة الخامسة كان يلقب ! مدير الأحكام فى القاعة العظيمة « وسخت » . فلا ندهش أذن إذا رأينا أن رئيس القاعة العظيمة « أى الإدارة القضائية » ، ومدير القاعة العظيمة كان إما الوزير وهو بطبيعة الحال رئيس محكمة الستة العليا أو حاكم مقاطعة أى رئيس محكمة المقاطعة . وعلى أية حال فلا يمكن توحيد محكمة الستة العليا مع القاعة العظيمة « وسخت » ، لأن كثيراً من الوزراء كانوا فى الوقت نفسه مديرين لمحكمة الستة العليا ورؤساء للقاعة العظيمة . وكذلك الحال مع حكام المقاطعات والظاهر من ذلك أن القاعة العظيمة كانت من ملحقات المحكمة وأعتقد أنها كانت مقر الإدارة القضائية بما فى ذلك الموظفون الذين كانوا يديرونها .

---

1. Murray, Mastabas Saqq. PL. XVIII

والواقع أن القاعة العظيمة أو الإدارة القضائية كانت تتألف من عدد عظيم من الموظفين منها رئيس كتبة الإدارة القضائية ، وكبار كتّاب . وعلى ذلك لا تكون القاعة العظيمة محكمة مؤلفة من رؤساء أسرار بل مصلحة إدارية أى مكتبا مؤلفا من كتّاب .

وقد شرحنا فيما سلف أن المجلس الذى يصدر الأحكام كان يسمى « هاييت » ، وعلى ذلك يجب أن نستنتج هنا أن المحكمة كانت تشمل المجلس « هاييت » والإدارة القضائية « وسخت » .

وكان القانون فى مصر يدون فى كتب ، وهذه الكتب كانت تودع المحكمة العليا[1] وبخاصة فى قاعة « حور » العظيمة « وسخت حر » أى « الإدارة القضائية » . ومن ذلك يمكن أن نستخلص أن قاعة « حور » العظيمة (الملك) التابعة للمحكمة العليا هى الإدارة المكلفة بتسجيل قوانين الدولة والمحافظة عليها . ولا شك فى أن قاعة « حور » العظيمة (أى الملك) كانت تابعة للمحكمة العليا . ولا نزاع أذن فى أن قاعة « حور » العظيمه كانت من أهم إدارات مصلحة الإدارة القضائية ، إذ كانت تودع فيها القوانين وتسهر على تنفيذ إدارة حور (أى الملك) ؛ ومن ذلك اشتق إسمها « قاعة حور العظيمة » أو بعبارة أخرى إدارة الملك القضائية . ومن كل ذلك يتضح أن الإدارة القضائية هى مجموع المصالح القضائية التى تؤلف ال « وسخت » ، وكان من أهم أعمالها المحافظة على القوانين والأحكام القضائية .

1. Admonitions d'un Vieux sage, dans Moret, Le Nil, p. 262

ادارة العرائض أو الشكاوى « سبر »

تشمل الإدارة القضائية إدارة قلم كتّاب المحكمة ؛ وقد كانت كل قضية تقدم للمحكمة بعريضة « سبر » والموظفون المكلفون بتسليم هذه العرائض يلقبون « المشرفين على العرائض » « إرى سبر » وكانوا تحت إدارة « رئيس الكتّاب ، والمشرف على العرائض » .

ويظهر أنه كان هو رئيس كتّاب المحكمة . وقد كان هذا الأخير تحت السلطة العليا لرئيس المحكمة ، الذى كان فى الوقت نفسه رئيسا للإدارة القضائية أى الوزير أو حاكم المقاطعة .

على أنه من المؤكد أن الوزير لم يكن هو الرئيس الفعلى للإدارة القضائية رغم أنه كان يحمل لقب رياستها اسما . وقد عثرنا على كثير من لقب « رئيس الإدارة القضائية » يحمله أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم ، والظاهر أن الوزير بصفته الرئيس الأعلى لمحكمة الستة العليا كان يساعده أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم فى إدارة قلم كتّاب المحكمة والإدارة القضائية . وكذلك كان الحال مع حاكم المقاطعة فقد كان بجانبه لتسيير أعمال الإدارة القضائية فى مقاطعته « موظف كبير » أو قاض مدير كتبة .

الادارة الرئيسية للعدل « حتى ورتى »

كانت مصلحة العدل كباقى مصالح الحكومة لها مركز رئيسى . فقد كان فى كل مقاطعة محكمة يرأسها حاكم المقاطعة ، ولكن كان يوجد فى مقر الإدارة الرئيسية مصلحة قائمة بذاتها مكلفة بإدارة العدالة فى البلاد

قاطبة على رأسها أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم . ولا أدل على ذلك من أن « وسركاف عنخ »(١) كان يحمل لقب « امرا مخا وت » وهو على ما يظهر يعنى « مدير العدل » . ومن جهة أخرى نرى أن « ورخو »(٢) الذى عاش فى عهد الملك وسركاف ، كان « رئيس كتّاب ومشرفا على الشكاوى » وكان يلقب بأنه « قاض وكاتب أول للمحكمة المزدوجة » . على أنه يلاحظ منذ الأسرة الخامسة أن كل مصلحة من مصالح الحكومة مزدوجة ، أى أن السلطة الإدارية كانت تمتد على الوجهين القبلى والبحرى ولا بد لذلك من أن تكون « حتى ورتى » المحكمة المزدوجة ، وهى المقر الرئيسى لإدارة كل محاكم مصر .

قلم قضايا العدل والادارة

ذكرنا أن « متن » فى أواخر الأسرة الثالثة الذى كان يشغل وظيفة حاكم المقاطعة كان فى الوقت نفسه ، رئيس الشرطة ، وكذلك رئيس المنازعات القضائية (٣) ؛ وقد كان من اختصاصه أن يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الإدارة والممولين فيما يختص بحججهم عن ممتلكاتهم وضرائبهم . ومنذ الأسرة الثالثة وجد هذا النظام القضائى فى مقر حكومات المقاطعات ؛ غير أنه فى الوقت نفسه كان يشمل موظفين قضائيين فى مقر الحكومة الرئيسى الذى كان يشرف عليه مجلس العشرة العظيم ، وذلك يشعر بأن الممولين كان لهم الحق فى استئناف قرارات القاضى

(1) Borchardt, Grabdenkmal des konigs Neussere. pp 113-114
(2) Sethe, Urk I., 47
(3) Sethe, Urk. P, I

حاكم المقاطعة » فى المنازعات ، أمام الحكومة الرئيسية . والواقع أن « ورخو » الذى كان يشغل وظيفة « رئيس كتبة » وكان مشرفا على الشكاوى فى المجلس العظيم ، كان فى الوقت نفسه قاضيا ممتازا للحجج والضرائب ، ولذلك كان يحمل لقب « قاض ممتاز فى الإدارة الرئيسية للعدل » . وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص أنه كان هناك قضاة ممتازون ، مقرهم مكاتب الإدارة الرئيسية ولهم الحكم الأخير فى المنازعات الخاصة بالضرائب أو للحجج التى يقدمها الممولون وكذلك نلاحظ أن القاضى حاكم المقاطعة ، كانت فى يده سلطة تأديبية ينفذها على الموظفين الذين تحت سلطته ، وقد كان ينفذ هذه العقوبات بوساطة « قاض مدير كتاب » .

ولدينا دليل مادى على ذلك فى مقبرة الوزير « مرا »[1] إذ نجد منظر موظفين يقودهم رئيس الإدارة التابعين لها . ليوقع عليهم العقاب أمام « قاض مدير كتبة » على ما اقترفوا من ذنوب .

النظام القضائى فى عهد الاسرة الخامسة

ومن كل ما سبق يمكن أن نضع هيكلا تقريبيا للنظام القضائى فى البلاد فى عهد الأسرة الخامسة ليمكن رجال العدل فى عهدنا قرنه بنظامنا القضائى الحالى .

كانت المحكمة العليا « حت ورت سو » أى محكمة الستة العليا ، يرأسها الوزير بصفته القاضى الأعلى فى البلاد وتدل النقوش على أنه من المحتمل

(1) Pirenne, Institutions, Vol. III P 515-19

جدا أنها كانت تنقسم إلى ستة مجالس «هاييت» كل منها يرأسه قاض «فم نخن» ، وكان يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارون « حرى سشتا » ، ومن بين هؤلاء المستشارين : « مستشارو التحقيق » وكانوا ينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم « مستشارو الجلسة » وينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم ومن بين القضاة كبيرى الكتّاب .

وكان فى كل مقاطعة محكمة يرأسها حاكم المقاطعة « ساب عز مر » ومن المحتمل أنها كانت تحتوى على عدة دوائر تحت رياسة « القاضى رئيس المجلس » « ساب سمسو هاييت » . أما « السراة » الذين كانوا يمثلون السلطات المحلية فكانوا يجلسون فيها بصفة مستشارين .

ومن المحتمل أن هذا هو السبب فى أن كلا كان يلقب رئيس أسرار المحكمة « حرى سشتا إن حت ورت » ، اللهم إلا إذا اعتبرنا رؤساء أسرار المحكمة بمثابة قضاة محترفين يساعدون « السراة » .

وكانت كل محكمة لها إدارة « وسخت » تحت أشراف مدير الإدارة القضائية « وسخت » ، وكذلك كان للإدارة رئيس « خرب وسخت » . وكان تحت يده كتّاب وكبيرو كتّاب، وقد كانت الإدارة القضائية « وسخت » تشمل مكتب الشكاوى [1] « سبر » وقلم كتّاب المحكمة . والأخير كان يشمل مستخدمين خصوصيين منهم المشرفون على الشكاوى « ارى سبر » ويديرهم موظف يلقب « رئيس الكتبة والمشرف على الشكاوى » .

---

(١) لعل مكتب الشكاوى هو ما يقابل الآن قلم المحضرين ولعل قلم كتاب المحكمة هو الاصطلاح المعمول به الآن وهو ما يطلق على القلم المدنى .

إدارة المحفوظات

وكذلك تحتوى الإدارة القضائية على محفوظات مودع فيها أوراق قضائية والسجلات « مزات » التى كانت فيها على ما يظهر تنسخ الأحكام؛ ويقوم بالمحافظة عليها موظفون لقب كل منهم « قاض مشرف على السجلات » ، « ساب ارى مزات » وقاض ممتاز مشرف على السجلات .

أما حاكم المقاطعة فكان كذلك رئيس الشرطة ، ورئيس قلم قضايا ورئيس الإدارة فى مقاطعته ، وكان ينيب عنه فى هذه الإدارة موظفا قضائيا . « ساب سش»

مصلحة العدل وتأليفها

وكانت الإدارة الرئيسية فى العاصمة تحتوى على مصلحة للعدل مهمتها إدارة محاكم كل القطر ، وهى التى يطلق عليها « حيتى ورتى »، وهذه المصلحة تشتمل على إدارة خاصة للشكاوى تحت سلطة « رئيس كتبة ومشرف على الشكاوى » وعلى قلم قضايا يتألف من « قضاة ممتازين للمنازعات الخاصة بالحجج » « ساب سحز سش ن وبت » ، ومن قضاة ممتازين للفصل فى الضرائب « ساب سحز سش حرى وزب » ، وكانت وظيفة هؤلاء بلا شك الفصل فى الأحكام التى قضى بها الموظفون القضائيون الذين يجلسون بجانب حاكم المقاطعة ، فيما يختص بالمنازعات القانونية .

الالقاب القضائية

ويلاحظ أن موظفى المحاكم وإدارة العدل يحملون الألقاب الآتية « ساب » قاض ، « ساب سحز » قاض ممتاز . « ساب سش»موظف قضائى . « ساب سحز سش » موظف قضائى ممتاز ؛ « ساب . إمرا . سش» مدير الإدارة القضائية .

الاجراءات القضائية

الظاهر أن الإجراءات التى كانت تتخذ أمام تلك المحاكم التى وصفنا نظامها فيما سبق كانت لا تختلف كثيرا عن الإجراءات التى شرحناها عند ما كان يفصل فى المنازعات بالتحكيم . فقد كان المدعى يرفع دعواه أمام محكمة السراة بتقديم عريضة مكتوبة « سبر » يشرح فيها بالضبط طلبه الذى كان يتخذ أساساً للمرافعة . وكانت المحكمة تحكم بمقتضى مستندات ، فإذا كان الموضوع مسألة حقوق عقارية أو أملاك فإنها ترجع إلى العقود الأصلية (وفى الموضوع الذى نحن بصدده هو عقد الأوقاف الذى يقرر حق كل من الطرفين) ؛ فإذا كان هذا العقد يظهر فى صالح المدعى فالمحكمة تحكم له ، أما إذا كان الأمر على العكس فالمحكمة ترفض طلبه . ويستنتج من هذا الإجراء أنه كانت ثمة دفاتر أو سجلات لقيد التصرفات العقارية .

كيفية رفع الدعوى

وهو نظام يقضى بإعطاء كل طرفى العقد نسخة من العقد الذى أبرم بينهما ، ومن ثم نفهم الدور الهام الذى يقوم به الكتّاب المشرفون على العرائض فى الإجراءات ، وقد استخلصنا كل ذلك من فحص الألقاب القضائية ، وقد أثبتنا كذلك عند تحليل عقد الأوقاف فى عهد «خفرع» أن الشخص المعنوى (٢) يمكنه أن يترافع أمام المحكمة كالشخص الحقيقى ، كما يمكن لشخص ثالث أن يدخل خصما فى دعوى لحفظ حقوقه ، وأخيرا وصلنا إلى أن الطرف الذى حكم لصالحه يمكنه أن يحجز على عقار الطرف المحكوم عليه .

---

(1) Person, Morales.

وبردية « بريس »(١) تثبت وجود عريضة افتتـاحية لرفع دعوى ، إذ نعلم منها ، أنه بعد تقديم عريضة الدعوى ، يسأل المدعى أمام قاضى تحقيق ، ولذلك يقول الوزير « فتاح حتب » : « إذا كنت أنت الذى يتسلم الشكوى فكن هادئا عندما تسمع كلام المدعى « سبرو » ولا تعامله بقسوة (أى دعه يتكلم) حتى يفرغ قلبه ، وحتى يمكنه أن يقول لماذا قد حضر . أن المدعى يحب الذى يسمع ظلاماته ، حتى ينتهى من سرد السبب الذى من أجله حضر . أن المجلس الباش يسر القلب » ، وعلى ذلك يجب أن يكون القاضى المحقق متحليا بكثير من الفضائل حتى يؤدى مهمته كما يجب ؛ وهذا بلا جدال هو السبب الذى من أجله كان القضاة يعتلون المكانة الأولى فى مصر قديما ، بين موظفى الحكومة ، وقد حفظت لنا الصدف محاكمة يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة وقد أجرى فيها تحقيق من نوع خاص قبل النطق بالحكم . وذلك بجعل أحد الطرفين يحلف اليمين ومعه كذلك ثلاثة أشخاص شهود .

صفات المحقق النزيه

والموضوع أن « سبك حتب »(٢) ادعى أن « وسر » قد أوصى له بحق الانتفاع بعقاراته ، وأنه قد نصّب بوصية ليكون صاحب حق ، وأن يكون مربيا لأطفاله.

قضية « سبك حتب »

ومن جهة أخرى كان « تاو » ابن « وسر » الأكبر ، ينكر انكارا باتا صدور هذه الوصية من والده ، وأن الوثيقة التى يقدمها « سبك حتب » مزورة . ولما لم يكن فى وسع المحكمة أن تحصل على الوثيقة الأصلية أصدرت الحكم الآتى : قدم « سبك حتب » عقـدا كتبه « المعروف لدى الملك » ،

---

(1) Pap. Prisse. The Lit. of the Ancient Eg. PP. 59 - 60
(2) Sethe, Ein Processurteil aus dem alten Reich Z. A. S. LXI (1926) P.72.

مدير القافلة « امرا ع » « وسر » . وقد وكل فيه أمر زوجته وأولاده ؛ وكل عقار بيته ، ليستخدمه فى حسن تربية أولاد « وسر » معاملا الكبير ، والصغير ، كل على حسب سنه ، أما « تاو » فيقول إن والده لم يكتب هذا العقد قط فى أى مكان وإذا أحضر « سبك حتب » ثلاثة شهود محترمين ، يمكن أن يوثق بهم على أن يحلفوا اليمين القانونى : لتكن قوتك ضده « تاو » يا الله ! لأن هذه الوثيقة حقيقية وقد عملت طبقا لما قاله « وسر » فى هذا الصدد ؛ أى أن العقار يبقى فى بيت « سبك حتب » ، بعد أن يكون قد قدم هؤلاء الشهود الذين قيلت فى حضرتهم هذه الأشياء ، وفى هذه الحالة لا يبقى عقار « وسر » معه ، بل يبقى مع ابنه (أى ابن وسر) « المعروف لدى الملك » ومدير القافلة « تاو » ونرى فى هذا أن الحكم هنا كان تمهيديا . إذ فى الواقع يلخص أولا طلبات الطرفين ، ثم قبل أن ينطق بالحكم أمر بعمل تحقيق .

الادوار التى تمر بالقضية

والواقع أن هذه الوثائق المختلفة تسهل لنا وصف إجراءات محكمة السراة ؛ وذلك أن المدعى الذى يرفع دعوى « شن » يحرر شكوى « سبر » ثم يودعها قلم كتّاب المحكمة حيث يتسلمها المشرف على العرائض « إرى سبر » . وبعد ذلك يسلم قلم الكتّاب الشكوى إلى قاض يجلس بصفة قاضى تحقيقات ، وهو الذى بدوره يطلب حضور الطرفين ويسألهما ويفحص المستندات ويسمع الشهود بعد حلف اليمين . وعلى أثر انتهاء التحقيق تعرض القضية على المحكمة ، وكل من الطرفين يقدم طلباته فى ملف يحتوى على نسخ العقود الأصلية التى تقرر أحقية هذه الطلبات . وإذا أمكن حكمت المحكمة حسب المستندات ، ولكن إذا لم يكن الموضوع واضحا بمقتضى المستندات

المودعة ، فيمكن للمحكمة أن تأمر بإجراء تحقيق جديد أو بسماع شهود . وأخيرا يصدر الحكم النهائى ويحتوى على ملخص أقوال الطرفين ، وأسباب الحكم ، ثم نص الحكم .

اختصاصات محكمة السراة

والواقع أن اختصاصات « محكمة السراة » تمتد إلى كل مسائل العقار ، وكذلك تشمل كافة المنازعات المدنية الأخرى والسندات ؛ فنعلم أن كل عقود انتقال الملكية من بيع وهبة ، ووصايا كانت مسجلة ، وكذلك نعلم أن كل المصريين كانت حالتهم المدنية مقيدة فى دفاتر ، وأن سندات العمل ، والإيجار كانت كذلك تدون . وكانت كل المنازعات الخاصة بهذه العقود ، وكل الأحوال التى تنجم عنها كانت من اختصاص محكمة السراة . وفى حالة عدم وجود عقد مثبت حق المدعى كانت المحكمة تقرر بطريق الأمر ، بمقتضى شكوى من المدعى ، الحالة المدنية للمدعى والخصم الثالث .

وقد كان كذلك من اختصاصها عند تقديم شكوى من طرف ، أن تقرر ما هى حقوق الارتفاق والالتزامات التى تقيد العقار ؛ وبهذه الكيفية نجد أن كاهن « نخب » الأعظم قد وقف ضيعة لشخص مدنى أى معنوى ليقوم بنفقات مؤسسته الجنازية . فيقول : أما فيما يختص بكل شيء قد حدث فيه تصرف قبل أن أعمل لهم الهبة فستجرى محاكمة معهم « الموهوب لهم » فى المكان الذى يحاكم فيه الناس (١) . والمكان الذى يحاكم فيه الناس هو محكمة السراة كما يشير إلى ذلك عقد الوقف بصراحة ، وكذلك كان فى يد محكمة السراة اختصاص رادع . ويثبت هذا متن من عهد الأسرة السادسة للوزير « بيبى عنخ » الذى أصبحت أسرته أمراء فى قوص فى عهد

(1) Br. A. R. (1) No. 200 & Urk (1) p p. 11-15

الملك ببي الأول [1] إذ يقول : « لم يقبض علىّ قط ، ولم أحبس قط ؛ ولقد برئت تماما من كل ما نسب إلىّ أمام محكمة السراة » ، كما أن التّهمة التي وجهت لي قد وقعت على عاتق من اتهمني ، إذ عند ماطلبت من أجل ذلك أمام السراة ، ظهر أن ما قاله متّهمي كان محض قذف . وقد كنت مقربا لدى الملك ولدى الآلهة . وقد بقيت كل الأشياء حسنة في يدي عند ما كنت كاهنا للإلهة « حتحور » سيدة قوص ، وحينئذ كنت أحافظ على الآلهة . ويدل المتن على أن « ببي عنخ » قد اتهم بلا شك في جريمة كان يعاقب عليها بالسجن ، لو ثبتت ضده ؛ إذ يفتخر بأنه لم يسجن ؛ ونرى هنا أن محكمة السراة قد دخلت بصفة هيئة قضائية تأديبية . وأهمية هذه الوثيقة لا تنحصر في شخص ارتكب جنحة ، بل أهميتها العظمى أن « ببي عنخ » كان موظفا كبيرا أصبح فيما بعد وزيرا وأميرا لمقاطعة قوص في آن واحد . ويفهم من تاريخ خدمته أنه خلف والده في كهنوت الإلهة حتحور في مقاطعته ، وأنه قد طلب أمام محكمة السراة للدفاع عن نفسه في التّهمة التي وجهت إليه . ومن ذلك نعلم أن محكمة السراة كان من اختصاصها محاكمة أكبر رجال الحكومة والكهنة أنفسهم ، وأصدار الأحكام ضدهم بمقتضى القانون العام . ويؤكد ما استنتجناه من هذا المتن ما جاء في نقوش تاريخ حياة « نزم إيب » [2] رئيس الأسرار الذي عاش في عهد الملك إسيسي إذ يقول : اني لم أضرب قط منذ ولادتي أمام سري (عضو من أعضاء المحكمة) .

---

(1) Blackman, The Rock Tombs of Meir, P. 25-26 Pl. IV, A,
(2) Br. A. R. (1) No 279.

وتدل النقوش على أن أحكام محكمة السراة كان يمكن استئنافها . ولا أدل على ذلك من لقب الوزير « مرا »: « رئيس الأسرار لمحاكمات السراة »[1] وذلك يقرر أن الوزير يتصرف بحكم استئنافى للحكم الذى حكمت به محكمة السراة . ومن ذلك يمكننا أن نعتبر أن المحاكمة التى كانت تجرى أمام محكمة السراة يمكن استئنافها أمام المحكمة العليا التى يرأسها الوزير .

استئناف حكم محكمة السراة

اجراءات محكمة الستة العليا . تدل الألقاب التى يحملها موظفو محكمة الستة العليا ومحكمة السراة على أن الأجراء فى كل كان واحدا . غير أن كل موظفى محكمة الستة العليا كانوا يتألفون كلهم من قضاة عظماء جدا قد حددت اختصاصاتهم على ما يظهر بكل وضوح كما أسلفنا من قبل. وعلى ذلك فإن كل طلب يقدم أمام محكمة الستة العليا كان يقدم بصفة وثيقة مكتوبة « سبر » بين يدى المشرف على الشكاوى أو فى قلم كتّاب المحكمة ، وبعد ذلك كان يوكل أمر التحقيق إلى مستشار محقق « حرى سشتا ن مدو شتاو » فيأخذ فى فحص القضية ثم يحيلها أمام إحدى جلسات « هاييت » المحكمة . ثم بعد ذلك يسمع الرئيس « ساب را نخن » القضية يساعده مستشاروه فى الجلسة . وفى النهاية ينطق رئيس الجلسة بالحكم باسم الملك « م ر ن ن نيسوت » . وفى بعض الأحوال كان يوكل التحقيق إلى رؤساء المجلس مباشرة عند ما يكون الموضوع دقيقا .

قانون العقوبات

أن ما لدينا من الوثائق الخاصة بقانون العقوبات فى عهد الدولة القديمة قليل جدا حتى الآن .

(1) Pirenne, Institutions p. 516

وقد استخلصنا من نقوش الوزير « مرا » ونقوش الأمير « بيبي عنخ » اللذين تكلمنا عنهما فيما سلف أنه كان هناك عقاب بالضرب والحبس ولدينا بعض صور في مقبرة الوزير «مرا» يظن أنها تدل على وجود المعاقبة بقطع الرقبة غير أن هذه النظرية قد عارض فى صحتها بعض علماء الآثار،[١] ولكن الظاهر أن هذا العقاب كان مقررا للجرائم السياسية . إذ في لوحة الملك « نعرمر »[٢] نشاهده ممثلا وهو يعيد سلطانه على إقليم «متليس» الثائرة فى غربى الدلتا وقد قطع رءوس رؤسائها العشرة طرحهم أرضا وأذرعتهم مكبلة ورءوسهم مقطوعة وموضوعة بين الفخذين . ومن جهة أخرى نشاهد على رأس دبوس الملك «عقربا» ممثلا سكان مدن الدلتا «رخيت» وهو يخضعهم وقد ظهروا مشنوقين فى رموز مقاطعاتهم المختلفة[٣] . ولكن خلافا لهذا الشنق السياسى لا نعرف أن عقاب القتل كان موجودا فى القانون العام . ولا يفوتنا أن نذكر ورقة «وستكار»[٤] التى تقص علينا أسطورة «خوفو» والسحرة ، وتشير فيها إلى مجرم قد حبس حتى ينفذ عليه حكم الإعدام بضرب رقبته ، وكان هـذا العقاب لا بد موجوداً فى مصر ولكن لا يمكننا أن نعرف فى أى وقت بالضبط كان يطبق ولا عن أى جريمة يحكم به . وكذلك نعلم من نفس الورقة أن المرأة الزانية كان يحكم عليها بالحرق حية . حقا إن العصر الذى تحدثنا عنه هذه الورقة هو عصر الدولة القديمة ولابد إذن من أن يكون هذا العقاب نافذا فى هذا العصر ولكن من جهة أخرى نعلم أن القصة من أولها إلى آخرها حديث خرافة ، هذا فضلا عن أن النسخة التى فى أيدينا قد كتبت

(1) Klebbs, Reliefs des alten Reiches, P. 24.

(٢) أنظر الجزء الاول ص(١٥٦)

(3) Pirenne, Institutions Vol. I. Annex. II Chap. II. & III

(4) Maspero, Conte de Cheops et des magiciens, P. 34.

محكمة المقربين[1] مقاضاة الاشراف .

لقد تكونت فى البلاد طبقة من المقربين لدى الملك وهم كهنة إقامة شعائره ، مما أوجد رابطة متبادلة بينهم وبين الملك ، وكانوا يلقبون « بالمقربين » له . وقد كان المقرب يأخذ على نفسه أن يقوم بالاحتفال بشعائر الملك وأن يكون له بمثابة الكاهن لإلهه . وقد كان الملك مقابل ذلك يسبغ عليه نعمة تكون إما « دخلا » أو أرضا ، ويعطيه امتياز دفن جثته فى الجبانة الملكية ، وهذا الإنعام الأخير كان يكسبه مشاطرة أبدية الفرعون فى مملكة الآلهة الأخيرة . وفى عهد الأسرة الخامسة أصبحت طائفة « المقربين » وراثية ، وكونوا طبقة اجتماعية جديدة قائمة بذاتها تمتع بأحكام قانونية خاصة بهم ، أخذت تنمو بعيدة عن القانون العام بامتيازاتها الخاصة . ومنذ حكم الملك « نفر إر كا رع » ثالث ملوك الأسرة الخامسة ، كانت هذه الطائفة الوراثية تمتع بمحكمة منفردة اختصاصها الحكم في المنازعات التى يمكن أن تنتج من وظيفة المقربين ، فمن ذلك أن خرق الالتزامات التى قد تعاقد عليها « مقرب » مع كهنة وقفه ، كانت تفصل فيه هذه المحكمة الخاصة . وكان يرأس هذه المحكمة الملك نفسه ، الإله العظيم « نتر عا » يحيط به مستشارون يلقبون « رؤساء أسرار التحقيق الإلهى » ، وهم مقربون عظام وكانت مأموريتهم تنحصر فى مساعدة الملك عند ما يحاكم أندادهم . والواقع أن هذه المحكمة وقد نشأت من إجراءات التحكيم كانت ، أحيانا توقع عقابات صارمة مستندة إلى القانون العام مما يزكى إنشاءها . إذ لا نزاع فى أنه كان من اختصاصها أن تنتزع من المقرب الخائن كل ما يربحه من وظيفه المقرب . .

(١) أنظر مصادر هذا الفصل

والواقع أنه بعد عهد الأسرة السادسة بقليل نجد مرسوم الملك « دمز با تا وى » يهدد الموظفين الذين يعتدون على الضياع التى كان يملكها ال « خنت شى » وهم أهم المقربين للملك ، بأن يحرمهم كل الامتيازات التى كان يتمتع بها المقرب ، او ينتزع منهم أبديا إمكان حصولهم على لقب مقرب لدى الملك ، ويمكن القول بأن عقوبات محكمة الإله العظيم التى كانت توقعها منذ البداية تشمل نزع ممتلكات الشخص بصفته مقربا ومنعه من الدفن فى الجبانة الملكية(1) .

على أن كل هذا النظام القضائى العظيم أخذ يتدهور شيئا فشيئا خلال عهد الأسرة السادسة حتى أصبح يكاد يكون منعدما ، ولم يبق أحد بجوار الملك فى يده السلطة المدنية متجمعة إلا الوزير الذى كانت تزداد قوته وتنمو، ولكن كل هذه كانت مظاهر اسمية إذ أن البلاد فى هذا العهد كانت مقسمة إلى ولايات مستقلة ليس للملك عليها سلطان إلا الاسم.



جزء من تمثال لقاضى يحمل قلادة وسطها رمز آلهة العدل « معات » وكان كبير القضاة فى مصر يلبس صورة من اللازورد تمثل الآلهة معات « آلهة العدل » وكان من عادته أن يدير رمز العدالة هذا نحو المحق عند النطق بالحكم . ويوجد ثلاثة تماثيل صغيرة من هذا النوع فى متحف برلين (2)

(1) Moret, C.R. Insc. 1914 p.p. 565...
(2) Z. A. S. Vol 56 p. 67. 68.

مصادر فصل نظام الحكم والقضاء

أن أول من بحث موضوع نظام الحكم فى عهد الدولة القديمة بحق هو الأستاذ « بيرن » فى كتابه المشهور :

J. Pirenne, Histoire des Institutions de l'ancienne Egypte 3 vol Bruxelles 1935.

وقد كتب قبله وبعده عدة علماء بعض مقالات متفرقة فى مجلات وكتب أهما ما يأتى :ـ

(1) Moret, L'administration locale sous l'ancien Empire. Compte-rendus de l'Académie des Inscriptions, Paris, 1916. P.P. 378 et suiv.

(2) Moret et Boulard. Donations et fondations en droit égyptien (Rec. Tr. XXIX pp. 57-95.)

Petrie (a) The palace titles. (Ancient Egypt. 1924, PP. 109-122).
(b) The royal officials. op. cit. 1925, pp. 11-18.
(c) Justice and revenue op. cit. 1925, pp. 45-54.
(d) The rulers op. cit. 1925, pp. 79-88.

(3) Revillout (E.) Cours de droit Egyptien, Paris, 1884.

(4) Revillout (L.) La propriété, ses demembrements, la possession et leurs transmissions en droit egyptien, comparé aux autres droits de l'antiquité Paris, 1897.

(5) Sethe (a) Ein prozessurteil aus dem alten Reiche (Z.A.S. LXI pp. 72 et suiv).
(b) Urkunden des alten Reichs 4 vol. 1932.
(c) Geschichte des Amtes im alten Reiche (Z. A. S. XXVIII pp. 43-49)

(6) Vinogradoff. (P.) Historical jurisprudence 1, Oxford 1920.

(7) Breasted. The Dawn of Conscience, New-York, 1934, (pp. 115-151).

(8) Jean Sainte Fare Garnot, L'Appel aux vivants.

وفى هذا الكتاب نجد بعض الاراء التى تخالف ما فى كتاب الاستاذ « جاك بيرن » فى موضوع محكمة المقربين إذ يعتقد بعض العلماء أنها خاصة بالآخرةمثل الاستاذ زيتة والاستاذ جردنر ، هذا الى أن « جردنر» مؤلف هذا الكتابقدكتب مقالاخاصا بحثفيه هذا الموطوع تحت عنوان :

Le tribunal du Grand Dieu sous L'ancien Empire Egyptien (Revue de l'histoire des Religions 1937).

ثروة مصر الطبيعية ومنتجاتها

لقد وهبت الطبيعة أرض مصر تربة خصبة ، وجواً صالحاً ، وجبالا زاخرة بالأحجار والمعادن ، ونهراً فياضاً يعم أرضها كل عام ، وحيوانا انتشر في أرجائها ، وطيورا اختلفت أنواعها . كل ذلك هيأ لأهل البلاد أن ينشئوا مدنية منذ أقدم العهود لم تضارعها مدنية في الشرق ، ولا في الغرب في تلك الأزمان السحيقة. وكان أول ما وجه إليه المصري همه زراعة الأرض ، وتربية الماشية، ثم إقامة المباني لسكنه، واستثمار الأحجار الصلبة ، والمعادن في صناعاته ، وحرفه المختلفة التي كانت نتيجة طبيعية لتدرجه نحو الحضارة والعيشة الهنيئة . وسنتكلم عن الزراعة أولا ، إذ هي في الواقع الأساس الأول لحياة سكان وادي النيل.

الزراعة

إن أهم ما يجب على الباحث في الزراعة عند قدماء المصريين ، أن يعرفه أولا أنواع الاشجار ، والنباتات التي كانت تنمو في تربة البلاد ، وكذلك النباتات والأشجار التي كان يجلبها المصري من الخارج وينتفع بها في بلاده .

الأشجار الكبيرة : كان المصري منذ أقدم العهود يستعمل خشب الأشجار العظيمة في إقامة مبانيه وفي صناعاته فكان منذ فجر التاريخ وما قبله يصنع سقف مقبرته من الخشب ، كما يشاهد ذلك في سقارة ، وفي نجع الدير (1) ، وكذلك كان يستعمله في بناء السفن ، وفي الأدوات المنزلية، غير أن مصر طوال تاريخها لم يكن لديها الخشب الكافي لسد حاجاتها ، لذلك لجأت منذ الأزمان السحيقة إلى جاب

(1) Reisner; The Early Dy. Cemeteries of Nage- el Deir Part I, t II P. 16, 19 & 22.

الأخشاب اللازمة لها من البلاد المجاورة وبخاصة من بلاد سوريا وما جاورها

وأكثر الأشجار التي وجدناها مرسومة على جدران المعابد المصرية ، والمقابر لم يتسن تعرفها وتمييزها بصفة قاطعة في كثير من الأحيان . وذلك لأنها كانت ترسم دائماً بصورة مختصرة . وأهم ما عرف منها على وجه التأكيد ما يأتي :

السنط (Acacia Nilotica Del)وقد عثر على أجزاء منه فيعصور ما قبل التاريخ ، وبخاصة في البداري،[1] وفي العصر التاريخي من عهد الأسرة الثالثة[2] والأسرة الخامسة ، ثم في الأسرة السادسة[3] ، وكان يجلبمن «حتنوب».وقدعثر على رسم شجرة سنط في عهد الأسرة الثانية عشرة في مقابر بني حسن .[4] وكان خشبه يستعمل في بناء السفن الحربية ، والقوارب ؛ كما يستعمل الآن في مصر لهذا الغرض، وكان يجلب كذلك من بلاد « وولت » بالنوبة . كما كان زهر السنط يدخل ضمن صناعة أكاليل الموتى ، وثماره المعروفة بالقرض كانت تستخدم في الطب ، وبعض الصناعات الأخرى كالدباغة .

النخيل Phoenix Dactliphere : عثر على بقايا من جذوع النخل في مصر منذ العصر الحجرى القديم العلوى في الواحة الخارجة[5] .

والواقع أنه كان يزرع في مصر منذ أقدم العهود ، وكانت تستعمل جذوعه في السقف ، وقد عثر على سقف مقبرة من فلوق النخل في سقارة ، يرجع عهدها إلى الأسرة الثانية ، أو الثالثة[6]، وكذلك عثر على سقف من الحجر مقلدة عليه جذوع

(1) Brunton., Badarian Civil. P. 95.
(2) Br. A. R., I, P. 336.
(3) Rec. Tr. XVIII. P. 85. & Br. A. R, I, 323 & 234
(4) Beni-Hassan IV Frontspiece.
(5) Caton Thomp. & Gard. Geog. of Kharga oasis in the Geog. Journ. IV P. 27
(6) Ex. Saq. (1912-1914) P. 21.

النخل فى حفائر الجامعة بمنطقة الأهرام بالجيزة فى مقبرة « رع ور » من الأسرة الخامسة ، وفى مقبرة من الأسرة الرابعة ، وفى مقبرة « فتاح حتب » بسقارة .

ونخيل الدوم (Hyphaene thebaica Nart)أول رسم عثر عليه لهذه النخلة وجد فى مقبرة العظيم « كا إم نفرت » فى عهد الدولة القديمة [1] . ولا شك أنها كانت موجودة فى مصر منذ عهد ما قبل الأسرات ، إذ عثر على بذورها فى مقابر البدارى[2] . وفضلا عن أكل ثمار النخل والدوم ، فإن خوص أشجارها كان يستعمل فى عمل السلال ، وليفها لعمل الحبال والشباك . ويلاحظ أن عمل حبال أسطول الفرعون « سحورع »[3] ، التى كان يبلغ طول الحبل منها نحو ٣٠٠ ذراعاً كانت تصنع من ليف النخيل ، وكان يصنع من خوص الدوم وفروعه السلال والحصير ، والأطباق ، والنعال والعصى والأقفاص .

الجميز (Ficus sycomorus) لا جدال فى أن شجرة الجميز كانت تزرع فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات إذ عثر على خشبها[4] فى مقابر نقادة وبلاص ، وعلى ثمارها فى عهد الأسرة الأولى[5] . ويوجد فى المتحف المصرى ستة نماذج لشجرة الجميز ، عثر عليها « ونلوك » فى نماذج حدائق من عهد الأسرة الحادية عشرة[6] وكذلك عثر على قطع من خشب الجميز يرجع عهدها إلى الأسرة الخامسة

وشجرة الجميز كانت تعتبر عند المصرى القديم من الأشجار المقدسة (أنظر الجزء الأول ص ١٩٧) هذا فضلا عن أنه كان يعتقد أن تابوت الإله أو زير نفسه

(1) Selim Hassan, Ex. Giza, Vol II P. 136.
(2) Brunton., Badarian Civil. P' 63.
(3) Borchardt, Grabdenkmal des Konigs Sahure Pl 12 & 13
(4) Flinders Petrie & Quibell, Nagada & Ballas, P. 54.
(5) Petrie. Royal Tombs of the Earliest Dy. II P. 36, 38.
(6) Winlack. Bull. Met. Museum of Art New York, II (1922) P. 26,

صنع من خشبها ؛ وكانت تظلله بفيئها من اليوم الرابع والعشرين من شهر كيهك[1] إلى نهايته ، وهذه المدة هى عيد الإله أوزير . وكان خشب الجميز يستعمل عادة لعمل تماثيل الإلهات ، ولصنع الأثاث والتوابيت والتماثيل على العموم . أما ثماره فكانت تؤكل وتقدم قرابين . وتستعمل المادة التى تتقاطر من لحاء هذه الشجرة عند قطعها بمدية فى الأدوية [2] ، وبخاصة للعين وأمراض الجلد (القوب) وكان يصنع منه نوع من الخمر يسمى[3] نبيذ التين .

ولما كان الجميز فى مصر لايتكاثر بنفسه فإن زراعته كانت تتوقف على نشاط الأنسان ، مما يدل على تعرف قدماء المصريين على طرق الإكثار الخضرى ، كما أنهم عرفوا طريقة التختين . وتوجد عينة من الجميز المختن ، وجدت بمخازن هرم «زوسر» المدرج بسقارة من عصر الأسرة الثالثة وهى محفوظة الآن بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

البرساء (اللبخ عند العرب) (Mimusops Schimperi Hochst) وكانت هذه الشجرة مقدسة للإله أوزير .

وقد عثر على فروع منها يرجع عهدها إلى الدولة الوسطى[4] وكان يصنع من خشبها الأثاث وتماثيل المجاوبين ، وتؤكل فاكهتها . وهى غير اللبخ المعروف فى مصر الآن . وكانت أوراقها تدخل فى صناعة معظم

---

(1) Fêtes d'Osiris au mois de Khoiak Chap. V Rec Tr. t III P. 66.

(2) Loret, la Flore, P. 47. & Von Bissing, Gemnikai.

(3) Newberry, Proc. Soc. Bib. arch. XXI P 304.

(4) Moret, Rois et Dieux d'Egypte, 2e Ed. P. 9.

الأكاليل الجنائزية . وعثر فى مقابر دير المدينة بالاقصر على طاقات كاملة من أفرع هذه الشجرة من الأسرة الثامنة عشر ووجدت ثمارها بمقبرة «توت عنخ آمون» . وقد انقرضت من مصر حوالى القرن السابع الهجرى .

شجرة النبق (Zizyphus Spina Christi) وقد عثر على فاكهتها فى قبور عصر ما قبل الأسرات[1] ويستعمل خشبها كثيرا فى التجارة المصرية حتى الآن .

شجرة الأثل (Tamarix nilotica) يوجد من هذه الشجرة أنواع عدة فى مصر ؛ وقد عثر على قطع متحجرة منها فى وادى قنا منذ العهد الحجرى القديم ، وكذلك عثر على خشبها منذ العصر الحجرى[2] الحديث وفى البدارى [3] ، وفى عهد ماقبل الأسرات ؛ وقد جاء ذكرها منذ عهد الأهرام [4]. وقد كانت مقدسة للإله أوزير. لذلك زرعوها على بعض القبور. ولا تزال تنمو بكثرة فى مصر وكان يصنع من خشبها كثير من أدوات الفلاحة .

شجرة الصفصاف (Salix safsaf Forsk) هذه الشجرة يرجع تاريخ وجودها فى مصر إلى عصر ما قبل الأسرات ، إذ عثر على يد سكين من خشبها[5] ، وعلى صندوق من الأسرة الثالثة وكانت أوراقها تستعمل

(1) Flinders Petrie, Prehistoric Egypt, 44.
(2) Sandford, The Pliocene & Pliostocene Deposits of Wadi Qena in Quart, J. G. S. LXXXV (1929) P. 503.
(3) Caton Th. The Neolethic Ind, of the N. Fayum Desert in Journ. Royal Anth. Inst. LVI (1926) P. 314 No. 2 & Brunton & Caton op. cit. 38 & 62.
(4) W. M. t III, P. 349.
(5) Mollers & Scharff, Das Vorgeschitliche Graberfeld Von Abusir El Meleq P 47.

فى عمل الأكاليل فى عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها . وهذه الشجرة كانت مقدسة فى دندرة ، وكان الملك يأتى فى أحد أعياد السنة المقدسة وينصب شجرة صفصاف أمام الإلهة حتحور (1) ويخاطبها .

شجر المخيط : Cordia Myxa وجدت فروعه فى مقابر الأسرة الثانية عشر بطيبة كما صنعت من ثماره بعض أنواع الخمور ، واستعمل ثمره فى صيد الطيور .

أشجار التين : Ficus Carica .توجد منقوشة على جدران المقابر ، وخصوصا فى بنى حسن والأقصر ، وقد تسلقها القردة لقطف ثمارها .

الهجليج أو تمر العرب :Balanites aegiptiaca وجدت ثماره فى كثير من المقابر وخصوصا منذ الأسرة ١٢ وكان يستخرج منه زيت يستعمل فى التطبيب ومحفوظة منه عينات بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

وتدل الأحوال على أن صناعة النجارة لم تتقدم تماما فى مصر إلا منذ كشف معدن النحاس . والآلات التى كانت تستعمل فى النجارة وجدت مرسومة على المقابر أو وجد منها نماذج صغيرة فى المقابر كالمجاميع التى عثر عليها فى سقارة فى مقبرة ابن « تى » وفى مقابر حفائر الهرم السليمة ، وهذه الآلات بعضها معروف استعماله ، وبعضها لم يعرف بعد ، وأهم ماعرف منها القدوم ، والبلطة ، والمخرز ، والإزميل أو المنقار ، والأجنة ، والمطرقة والمنشار . ونشاهد صناعة الأخشاب فى مقابر الدولة القديمة فى سقارة من عهد الأسرة الخامسة . (2)

ومن أهم الأمثلة التى تبرهن على مهارة المصرى فى صناعة الخشب

(1) Bull. I. Eg. 1882. 2e Serie t. III P 68.

(2) Das Grab des Ti (Steindorff) Pls 119, 120, 132, & 133.

تمثال شيخ البلد ، ونجارة الملكة « حتب حرس» من عهد الأسرة الرابعة في المتحف المصرى .

الاخشاب الاجنبية

ظلت مصر منذ أقدم العصور حتى الآن فى حاجة إلى جلب الأخشاب من البلاد المجاورة لها . وأهم البلاد التى كانت تجلب منها الأخشاب عدا الأبانوس ؛ بلاد آشور ، وأرض الإله « البنت » ، وبلاد الحيثيين ، ولبنان ، والنهرين ، وبلاد زاهى « سوريا » وفلسطين . وكل هذه البلاد ماعدا بلاد « بنت » التى كان يأتى منها خشب الأبانوس ، وبعض الأخشاب ذوات الروائح العطرية التى كانت تستعمل « بخورا » واقعة فى غرب آسيا .

وقد ذكرت لنا المتون المصرية أنواعا عدة من الأخشاب ، والأشجار لم يحقق منها إلا عدد يسير جدا .

وأهم الأخشاب التى جاء ذكرها فى نصوص الدولة القديمة ما يأتى : —

الأرز ، والسرو ، وشجر العرعر ، والبلوط والصنوبر .

وقد ذكر خشب الأرز فى المتون المصرية باسم « عش » . ولكن علماء الآثار اختلفوا فى بادىء الأمر فى ترجمة هذا الاسم . فمن قائل أنه السنط المصرى ، ومن قائل إنه اللبخ . ولكن الرأى الأخير أثبت أنه الأرز الذى يكثر فى جبال لبنان . وقد جاء اسمه فى متون الدولة القديمة وبخاصة فى متون الأهرام . وكانت هذه الشجرة مقدسة للإله « أوزير » إله الموتى الذى كان ينتحب مثل صوت شجرة الأرز ، والذى كان

مختبئا فى قلبها فى جبال ببلوص (1) « جبيــل » . ورغم كل ذلك فإن الأستاذ « لوريه » يقول إنها شجرة الصنوبر ، ويقال إن خشبها استعمل فى مصر منذ عهد ما قبل الأسرات . وكان خشب الأرز يستعمل فى عمل الأبواب وفى صنع أثاث المعابد ، والقصور وغيرها .

الأبانوس « هبنى » : وتدل النقوش على أنه كان يجلب من بلاد كوش وبلاد النوبة ، وبلاد بنت ، والممالك الجنوبيـة . والظاهر أنه كان لا ينمو فى كل هـذه الجهات ، ولـكنه كان يصل إلى مصر من الجنوب فقط ، وكان يستعمل منذ عهد الأسرة الأولى(2)، إذ عثر على لوحة منه ، وعلى خاتم أسطوانى الشكل منه أيضاً . ولـكن اسم الخشب ذكر أولا على ما نعلم فى عهـد الأسرة السادسـة(3) ، وكان يستعمل فى أغراض شتى كعمل الصـناديق ، والتوابيت وآلة الطرب (العود) ، والمحاريب الصغيرة ، والتماثيل والعصى ، ولـكنا لا نعرف إذا كانت هذه الأشياء صنعت فى مصر أو كانت تجلب إليهـا من الخارج . ويقول الأسـتاذ لوريه أن المصريين عرفوا الابانوس عن طريق الحبشة(4).

البخور والروائح العطرية : مما لا جدال فيه أن البخور كان يستعمل فى مصر فى المعابد ، والمقابر . وقد جاء ذكر اسـتعمال البخور فى مصر فى نقوش الأسرتين الخامسة والسادسة(5). وأهم ما كان يجلب منه إلى مصر «الـكندر»، وهو نوع من الصمغ « عنتى» لونه أبيض مائل إلى الصفرة أو أسمر ، وهو شفاف ، وأشجاره تنبت فى الصومال ، وجنوبى بلاد العرب .

(1) Sethe A. Z. t X L V P. 13 & L X L VIII P. 71
(2) Flinders Petrie, Royal Tombs of the First Dy. P P. 11, 22, 40.
(3) Br. A. R. I. P 336.
(4) Agr. A. E., Hart, P 34.
(5) Frankfurt, The Cemetries of Abydos, 1925-1926 in J. E. A., XVI 1930, P 217.

ومن أهم مواد البخور التى كانت تجلب إلى مصر المر ، واللبان الذكر . وكانت من أهم مستلزمات الطقوس الدينيـة كما كانت تستعمل الأصماغ والراتينجات من الأشجار الصنوبرية . وهناك نوع آخر يأتى من بلاد شرق السودان بالقرب من جلابات ، ومن البقاع المتاخمة لبلاد الحبشة . وقد ذكرت لنا المتون المصرية أنه كان يجلب من بلاد قبائل العبيد فى عهد الأسرة السادسة(1) ، ومن بلاد بنت . وقد ذكر الأستاذ «نيوبرى» أن اللادن كان يستعمل فى مصر منذ الأسرة الأولى (2) .

النباتات ذات الالياف

كان المصرى يستعمل النباتات ذات الألياف فى حاجاته اليوميـة . وأهمها الكتان وألياف النخيل والحلفاء التى كانت تستعمل فى عمل الحبال منذ أقدم العهود(3) .

الغاب أو البوص : كان يستعمل منذ الأزمان السحيقة ، وكان نباته يتخذ وهو مزهر شارة تدل على الوجه القبلى لكثرة نموه فيه . واستعمل فى بناء مساكن فقراء القوم ، وكانت أزهاره تعمل طاقات منذ عهد ما قبل الاسرات ، وكان كثير الانتشار فى مناقع الدلتا وعمل منه بعض الأثاث كالسلال ؛ وكذلك السهام ، وأنابيب للنفخ فى كور الصائغ ، واليراع المثقب ، والاقلام ، والحراب . هذا إلى أنه كانت تصنع منه قوارب صغيرة فى الأعياد والاحتفالات الدينية على طراز القوارب التى كانت تصنع من البردى(4)

(1) Br. A. R. t P 336, 369.
(2) J. E. A., XV, 1929, P 94.
(3) Loret. La Flore P 106.
(4) Agr. A. E. Hart, P 41.

السعد وحب العزيز : وهما من الفصيلة البردية ، وينموان فى أراضى الجزر الرملية والجهات الرطبة وهما على أنواع شتى ، ويعتقد الأستاذ شفينفورت أنه ينبت منهما فى مصر ثمانية عشر نوعاً (1). والنوع المسمى حب العزيز كان ولا يزال يؤكل ويتفكه به. والسعد نبات مثلث الشكل كالبردى له رائحة طيبة ، ولذلك كان يستعمل فى التحنيط ، وقد وجدت منه حبوب ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات .

البردى Cyperus papyrus : هو النبات الدال على الوجه البحرى ، وكان يستعمل فى أغراض شتى . فكان يصنع منه الورق كما سنذكر بعد ، ويؤكل ويعمل من سيقانه الحصر والسلال والغرابيل الخ .

البشنين Nymphaea وهو اللوتس وكان ينمو فى مصر بنوعيه الأزرق N. coerula ، والأبيض N. Lotus منذ أقدم العصور ، وكانت جذوره تؤكل على ما يظهر منذ عهد ما قبل التاريخ كما كان يصنع من بذوره نوع من الخبز . أما أزهاره فكانت تستعمل فى صنع الأكاليل ، والطاقات . كما كان لها المقام الأول فى الحفلات والزينات(2) .

أما البشنين Nelumbium spiciosum المعروف باسم «الفول المصرى» فهو من ألطف أنواع البشنين وقد أدخله الفرس فى مصر حوالى سنة ٥٢٥ ق . م. وقد ذكر « هردوت » (3) أن المصريين كانوا يتزينون به. ومما هو جدير بالذكر أن زهر اللوتس على الإطلاق اتخذ محوراً للزخرفة ورمز به إلى الجمال والرقة . ولا يزال إلى يومنا هذا يتحكم فى الفنون الجميلة .

النباتات الطبية : يظهر أن المصرى منذ أقدم العهود قد برع فى استعمال النباتات

(1) Illustration De la Flore d'Egypte N. 1079-1096.
(2) Agr. A. E. Hart., P 42.
(3) H. II, P 92 & W. m. t. III P 346.

للطب . ويمكن القول حسب رأى الأستاذ موريه أنه جاء فى الأوراق الطبية أكثر من ٥٠٠ نبات استخرجت منها مواد طبية(1).

الحبوب التى كانت تزرع فى مصر .

لما اهتدى الإنسان أول الأمر إلى النباتات الغذائية التى كانت تنبت بالطبيعة ، وعرف فائدتها ، أخذ فى زرعها وتعهدها بالرى والسماد وأهم هذه النباتات على ما نعلم هى الحنطة ـ وهى نبات يشبه الشعير ، ولكنه فى الواقع نوع من القمح . وقد بقى يزرع فى مصر طوال عهودها التاريخية ولعله انقرض من البلاد فى القرن الأول المسيحى ويعرف عند الفرنج باسم Emmer . وقد وجدت حبوبه فى مقابر « مرمدة » كما ذكرنا ذلك آنفا فى عهود ماقبل التاريخ . وكذلك عثر عليه فى مقابر عصر الأسر الأولى وما بعدها . ويعزى استعماله فى الأساطير إلى الإله « أوزير » الذى يقال إنه وجد الشعير ناميا بين النباتات البرية بطريق الصدفة فدرس طبائعه(2) ثم صنعت له أخته وزوجه إزيس منه الخبز ، ولذلك تعتبر سنابل القمح والشعير من الأشياء المقدسة التى يرمز بها لهذه الآلهة ؛ وقد وجد الشعير فى المقابر القديمة مع الحنطة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وكذلك عثر على سنابل شعير منذ عهد الأسرة الخامسة ولكن فى حالة تحلل وقد استعمله قدماء المصريين خبزا فى عهد بناة الأهرام ولعمل الجعة حسب رواية هردوت(3) .

(1) Moret, L'Egypte au temps des Pharaons, 1890, P 220
(2) Deodore II P. 8.
(3) Herodote II, 77.

ورغم كل ما ذكر فإن الرسوم التى وجدناها على مقابر الدولة القديمة لم تعطنا فكرة معينة عن أنواع الحبوب ، كما أن قوائم موائد القربان لم تترجم إلى الآن ترجمة تجعلنا فى مركز نحكم به على أنواع هذه الحبوب . وعلى أية حالة فاننا نعرف على وجه التقريب الحبوب الرئيسية من النماذج التى حفظت لنا فى المقابر المختلفة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وهى التى نسبها القوم كما ذكرنا للإله أوزير[1]

وقد كشف عن نوع من القمح منذ عصر نقادة ، وهو ما تسميه النقوش فى الدولة القديمة « بدت » [2] Triticum, Decoccum

وكذلك عثر على نوع من الشعير أطلق عليه المصرى فى النقوش اسم «أت»[2bis] وهذا النوع قد حققه العالم شفينفورت تحت اسم (Hordeum Hexastichum)

وقد ذكر «مونتيه» نوعاً آخر يسمى «بش»[3] نعرفه فى مقبرة « مرا » بسقارة وفى مصطبة ليدن. ويقول الأستاذ بترى أن القمح النشوى يرجع تاريخ وجوده فى مصر الى العصر الحجرى الحديث ولايزال يزرع للآن فى ممالك أوربا ، وعلى حسب قول المؤرخين كان يصنع منه الخبز المصرى المعتاد[4]، أما الحنطة أو الجاودار (Triticum Vulgare) فتعد أنها أقدم نوع من الحبوب بذل الإنسان فيه مجهوداً لتحسينه بعد أن كان نباتاً برياً . وقد عثر على حبوبه محفوظة فى الأوانى وفى الأقداح وهو ما يطلق عليه فى النقوش لفظة « سوت » [5]

أما الذرة (Sorghum Vulgare) فقد أنكر العالم شفينفورت وجود الذرة فى

(1) Breasted, The Place of the Near Orient in the career of man, PP. 174.

(2) Junker Giza I, pp. 178, 246.

(3) Montet, Scène de la vie Privée, P. 200.

(4) Petrie, Descriptive Sociology Col 211 n 2,

(5) Kees Aegypten P. 32 et n 2. & Junker Giza I, P. 178.

مصر ولكن «مسبرو» يظن أنه قد عبر عنها فى كلمة «ديراتى» أو دوراتى » وهى المذكورة فى ورقة بردى من عهد الاسرة التاسعة عشرة ، وشاركه فى رأيه «ولكنسون» و «إرمن» وغيرهما ممن ظنوا أنهم حققوا وجود هذا النبات على الآثار المصرية(1)

ومهما يكن من أمر فإن زراعة الذرة فى عهد الدولة القديمة لم تقم على دليل قاطع وهذا خلافاً للقمح فإن وجوده كان مميزاً فى كثير من المتون، فأحياناً يذكر المتن حبوباً بيضاء وأحياناً يذكر حبوباً حمراء وفى متون أخرى نجد ذكر شعير الوجه البحرى وشعير الوجه القبلى (2)

وقد تساءل الاستاذ « إرمن » عن سبب هذه التسمية دون أن يجاب(3) والواقع أن قمح الوجه البحرى له طابع خاص فى أيامنا هذه وقمح الوجه القبلى له ميزة خاصة (قمح بحيرى ، وقمح صعيدى) وربما كانت هذه التسمية جاءت عن طريق التسمية الثنائية للقطرين .

الخضر : كان المصرى منذ أقدم العهود يستعمل الخضر فى طعامه لفائدتها من جهة واقتصادا فى أكل اللحوم من جهة أخرى ، وكان يقدم كثيرا منها على موائد القربان التى منها تعرفنا على كثير من أنواع الخضر المصرية القديمة ، وأهمها الخس ، والبصل ، والفاقوس ، كما عرفوا الكرفس ، والحميض ، والفجل ، والكراث ، والثوم الخ .

الفول Faba Vugaris : وقد ذكر هردوت أن أكله كان محرما فى بعض الجهات . وقد عثر على حبوب منه ، ولكن من عهد الأسرة الثامنة عشرة(4)

---

(1) Schweinfurth. Bull Inst. Eg. t VII P 422.
Maspero, Histoire t I, P 66. (3) Wilkenson, Manners & Customs, t II, P 27.
Hartmann, Agriculture, P 53. (4) Kees, Aegypten, P 338 note 7.

(2) Kees, Aegypten, p p 31, 36, n 2,40-41, 207 th 294

(3) Erman-Ranke, Aegypten P 522.

(4) Loret, la Flore Phar. II P. 94

العدس Lens esculenta ذكر «هردوت» أنه كان يستعمل طعاماً لبناة الأهرام ، وقد عثر على إناء فيه عدس مطبوخ فى مقبرة فى دراع أبو النجا بالأقصر ، وهذا الإناء موجود الآن بمتحف القاهرة [1] .

الحمص : عرف بمصر منذ عهد الدولة القديمة . ويوجد نموذج منه من عصر الأسرة الثامنة عشرة محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى

البامية : لم يثبت وجودها فى العصر الفرعونى ، ولكنها وجدت فى العصر الإغريقى الرومانى .

الفاقوس : وجد كثيرا ممثلا على موائد القربان المصرية فى العهد الفرعونى [2]

البطيخ : Citrullus Colocynthoides Schwf. : ويقال إن رسم البطيخ شوهد على موائد القربان ، إلا أن البطيخ الذى عرف أيام الفراعنة ، يرجح أنه من النوع البرى الصغير الذى ينمو للآن فى بلاد النوبة ، وشرق السودان ، وربما كان هذا هو أصل الأنواع الكبيرة . وقد ذكره « أنجار » فى كتابه عن النباتات ، وكذلك « لبسيوس » ، وأعطى صورا منه منذ عهد الأسرة الخامسة[3] . وكان ورقه كذلك يوضع على تابوت المتوفى . وقد ذكر اسمه فى قصة البحار الغريق من عهد الدولة الوسطى .

الكراث : وهذا النبات الذى لا يزال يؤكل فى مصر إلى الآن كان يزرع فى مصر منذ الأسرة الخامسة على الأرجح ، إذ أن اسمه باللغة المصرية القديمة قد وجد فى تركيب اسم إحدى ضياع العظيم « تى »[4] ،

---

(1) Bull. I. Eg. 1884 P. 7, No. 18.
(2) Agr. A. E., Hart., P. 55.
(3) Lep. Denk. II, Pl. 69 Saqqara, V th, Dyn
(4) Loret, Rec. Tr. t. XVI, pp. 1, Sqq., t. XVII, p. 184.

الذى يرجع عهده إلى الأسرة الخامسة وقد وجد هذا الاسم ثانية فى عهد الدولة الوسطى[1] .

السكرفس : عثر على حبات من بذوره محفوظة فى متحف فلورنس ، وكانت أوراقه وزهوره تحلى بها المومياتِ . وتوجد فلادة منه من العصر الفرعونى محفوظة بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى ؛ وكان يستعمل كثيرا مادة طبية .

الخس : وهو من النباتات ذات الأنواع العدة ، وكان يزرع فى مصر منذ أقدم عهود الفراعنة . وقد مثل فى سلال القرابين بورقه الأخضر . وقد عثر على حبات من بذوره ، وهى محفوظة الآن بمتحف برلين ، وكذلك بمتحف فؤاد الأول الزراعى ، وهذا النبات هو الذى يرسم أمام المعبود «مين» إله التناسل ؛ لأنه يعد من النباتات التى فيها قوة حيوية .

وقد عثر على نباتات أخرى عدة بعضها على الموميات ، وبعضها ممثل على موائد القربان ، أو مذكور فى قوائمها ، وأهمها الحميض ، والفجل،[2] والشبث وقد ذكر «بترى» فى كتابه Descriptive Sociology من ١٤٥ ـ ١٤٦ جدولا لكل أسماء هذه النباتات والمصادر التى استقاها منها .

أما البصل فإنه رغم كثرة زراعته فى مصر فلم يظهر على موائد القربان إلا فى عهد الأسرة الخامسة [3] . ويظهر أن المصريين كانوا يأكلونه بكميات عظيمة إذا صدقنا ماذكره « هردوت » . [4] وقد كان يستعمل

---

(1) Sphinx, t. VIII, p. 145.
(2) Agr. A. E. Hart. P. 50 op. P 57.
(3) Sphinx, t. VIII. p. 144.
(4) H. 125.

فى الوصفات الطبية كثيرا لشفاء عدة أمراض . [1] ولا نزاع فى أن عادة أكل البصل ، وتعليقه فى عيد شم النسيم ترجع إلى عادة مصرية قديمة . وقد كان عند المصريين عيد خاص يسمى عيد « نتريت » يحلى فيه جيد النـاس بالبصل فى ليلة العيد وذلك فى ٢٥ كيهك . ويمشون وراء تمثال الإله فتاح « سكر » .

الثوم : وكان المصرى يستعمل الثوم كثيرا فى أكله كما هو الحال الآن ، وفى الوصفات الطبية وقد عثر على حباته منذ عهد ما قبل الأسرات[2] على شكل نماذج من الحجر والعاج ، وتوجد عينات منه طبيعية محفوظة بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

التوابل : وتدل الكشوف الأثرية على أن المصرى كان يستعمل كثيرا التوابل ، التى لم يستعملها الأوربيون ؛ إلا بعد الحروب الصليبية ، عند ما نقلوها معهم من الشرق . وأهم هذه النباتات هى الكزبرة[3] ، وقد وجدت ضمن مخلفات الملك « توت عنخ آمون » كما وجدت كذلك فى قوائم القربان منذ عهد الأسرة الخامسة مذكورة هى والكراويا .

وكذلك استعمـل المصرى الينسون ، والكمون الذى كان يستخـرج [4] منه الزيت .

أشجار الفاكهة : كانت أشجار الحـدائق ، والكروم تزرع فى مصر منذ أقدم العهود . ونخص بالذكر منها أولا . الكرم (العنب) وقد عثر

(1) Rec. Tr. XVI, p. 101. & Egyptian Religion, 1933, p. 52 etc.
(2) Petrie, Prehis. Egy. Pl. 46 No. 24 and Ayrton, & Loat, Predyn. cemetery at El Mahasna, 1911, p. 17.
(3) Louvre, Bas Relief, B. 49. V. Dyn.
(4) La Flore, p. 57 & 415.

على رسم عصارة نبيذ العنب من عهد الأسرة الأولى [1] . وكذلك عثر على أوانى نبيذ ترجع إلى هـذا العهـد ، ولـكن أول ما ذكر اسم العنب بالمصرية ، كان فى الأسرة الثـالثة [2] فى تاريخ حيـاة « مـتن » (ص ١١ الجزء الأول) وما كان له من الـكروم العظيمـة المساحـة ؛ وكان النبيـذ يستعمـل قربانا إلهيا ، فى قـرابين المساء ، وفى قـرابين الأعياد ؛ والقرابين المـأتمية ، كما كان يؤخذ شرابًا ويحصل ضريبة . ومناظر جمع العنب ودهسه بالأرجل ، أو عصره تشاهد على جدران مقابر عصور مصر المختلفـة منذ الأسر الرابعة والخـامسة [3] والسادسة [4] ، وقـد كانت عملية عصير العنب فى غاية من البساطة ، والظاهر أن لون النبيذ كان أحيانا أسود ، وأحيانا أبيض ، وربما كان ذلك هو السبب الذى دعا الأستاذ « إرمن » ؛ إلى أن يقول بوجود صنفين من النبيذ الأبيض ، والأسود [5] فى عهد الدولة القديمة .

ومن المرجح أنه كان يسود فى العصور الفرعونية ، العنب الأحمر القاتم لأن معظم الثمـار التى وجـدت كانت بيضية الشكل ، ذات لون أحمر قاتم . قريبة الشبه من الصنف الذى يزرع فى مصر العليا ، والفيوم الآن .

ويوجد نموذج من الزبيب (من النوع الأسود) محفوظ بقسم الزراعة القـديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى . يرجع عهده للأسرة الثامنة عشرة عثر عليه فى مقابر دير المدينة بالأقصر .

---

(1) Flinders Petrie, Social life, p. 102, 135.
(2) Br. A. R,, I, P. 173.
(3) Davies, Ptah hotep at Sakkara, I, P. XXIII.
(4) The Tomb of Meruka (Mera).
(5) Erman, Life in Anc. Egy. 1894, p. 196.

وبهذه المناسبة نذكر أنه كان يستخرج من نخيل البلح نوع من الخمر، ذكر منذ عهد الأسرة السادسة فى متون الأهرام.[1] ... يختلف عن النبيذ الذى كان يستخرج من البلح منذ الأسرة السادسه [2] أيضا، وهو المعروف الآن بالعرقى.

الرمان: وجد اسمه فى اللغة المصرية «رمن» غير أن أقدم رسم له كان فى عهد اخناتون [3]؛ وكانت منتجاته كثيرة. أما النبيذ الذى كان يستخرج منه فلم يذكر إلا فى العصور [4] المتأخرة.

زراعه نباتات الالياف

الكتان: هو النبات الوحيد، الذى استعملت أليافه فى صناعة النسيج، طوال عصور مصر الفرعونية؛ للاعتقاد السائد وقتئذ بأن «أوزير» كفن فى الكتان بعد موته. وتدل بقايا الأقمشة التى عثر عليها منذ عصر البدارى، على أن صناعة نسيج الكتان كانت منتشرة فى مصر منذ أقدم عهودها، وبخاصة عند ما نعلم أن الأستاذ «ينكر» عثر فى مقابر مرمدة (بنى سلامة) على قطع من غزل الكتان أقدم عمرا مما وجد فى البدارى [5] وكذلك عثر على أقمشة من العهد الحجرى الحديث فى الفيوم [6]. ولا

(1) F. F. Bruijning, The Tree of the Herakleopolite Nome in Anc. Eg. 1922, p. 1-8.
(2) Lucas, Ancient Egyptian Materials, p 22.
(3) Petrie, Tell-el Amarna, Pl. 32.
(4) Hunt. The Oxyrhynchus Pap. VIII, P. 241.
(5) Badarian Civil. Brunton, P. 46-7.
(6) Caton Thompson The Neolethic Ind. of the N. Fayum Desert, in Jour. Royal. anth. Inst. LVI, (1926) P 315.

نزاع إذن فى أن الغزل والنسيج كانا من أقدم الحرف فى مصر . ولكن تمثيل هذه الصناعات لم يعثر عليه منقوشاً إلا فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى مقابر بنى حسن ، حيث مثلت الأدوار التى تمر على النبات من تعطين ، ودق ، وتمشيط ، وغزل ، ونسيج . هذا إلى أنه كشف عن نماذج لنساء يشتغلن بالغزل والنسيج فى مقابر الأسرة الحادية عشرة فى طيبة وهذه النماذج محفوظة الآن فى متحف القاهرة [1]

وتدل البذور الكثيرة التى عثر عليها فى المقابر المصرية على أنه كان هناك نوع خاص من الكتان يختلف عن النوع الذى يزرع فى البلاد الآن[2]. وقد تكلم مؤرخو اليونان عن نسيج الكتان المصرى ودقة صنعه ، وخصوا نوعا منه دقيقا جداً حتى أنهم قالوا إنه نسج بالهواء ويطلق عليه اسم Byssus [3] ، ويعتقد الأستاذ « لوريه » أن هذه اللفظة تقابل فى اللغة المصرية القديمة كلمة « نيسوت » ، أى ملكى للدلالة على أفخر نوع من نسيج الكتان[4]

<u>زراعة القطن ، واستعماله فى مصر</u> [5] : لقد تضاربت الأقوال ؛ والآراء فى موضوع استعمال القطن فى مصر ؛ ومعرفة المصريين له ؛ فمن ذلك أن « روزلينى » يقول بوجود بذور هذا النبات فى مقابر المصريين القدماء[6] . وكذلك عثر على بعض أكفان فحصت ويقال إنها

(1) H. E. Winlock, The Egy. Exp. 1918-1920, In Bull. Met. Mus. of Art New-York, 1920, P. 22.
(2) Bull. I. Egy., 1884, P. 5.
(3) Décret de Canope, Ligne 17.
(4) Loret, L'Egypte au temps des Pharaons, P. 178.
(5) Griffith & Crowfoot. On the Early use of Cotton in the Nile Valley in J. E. A. XI, 1934, P. 5-12.
(6 Rosellini, Mon. Civ. t. I, P. 60. Monum. della Egizia P. 2.

مصنوعة من القطن ؛ بيد أنه لم نعثر على وثائق حتى عصر الرومان تدل على صناعة القطن فى مصر أو زرعه فيها . غير أن الأستاذ « ريزنر » اكتشف قطع نسيج قطنية من العهد الإغريقى الرومانى فى السودان فى بلدة « مرو » [1] وكذلك ذكر لنا « هردوت » الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد (٥٦٩ — ٥٢٥ . ق . م) أن « أحمس » أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أهدى قميصين من القطن [2] . وكذلك ذكر لنا « بلينى » الذى عاش فى العصر الأول بعد الميلاد ؛ أن الجزء العلوى من مصر المجاور لبلاد العرب كان يزرع نباتا يسمى Gossypium ؛ وأن أحسن ملابس يلبسها الكهنة كانت من فتائل هذا النبات[3] ؛ غير أن كلام « بلينى » لايعتمد عليه كثيراً . ويمكن القول بأن القطن لم يعرف فى مصر الفرعونية .

النباتات التى تستعمل فى الصباغة : أهم النباتات التى كانت تستخرج منها الأصباغ فى مصر هى النيلة ، والعصفر المستخرج من زهر القرطم وقد عثر على اسمه منذ عهد الملك « تيتى » فى الأسرة السادسة كما ذكر الأستاذ « لوريه » ؛ وكان يزرع [4] فى حقول القمح ؛ وكذلك الحناء [5]

شجرة الزيتون وزيتها : كان أول من عثر على اسم شجرة الزيتون فى المتون المصرية هو « نيوبرى » فى متون الأسرة الثالثة [6] . غير

---

(1) Loret, la Flore, P. 105.
(2) E. Massey, A note on the early history of cotton in Sudan. Notes and records, VI, (1923) P. 231-3.
(3) H., t. III, P. 47.
(4) Rec. Tr. t XVI, p. 1
(5) Agr. A. E Hart, p. 64
(6) Meidum, pl. 13, col. I.

أن اسم زيت الزيتون لم يعثر عليه إلا نادراً جداً فى عهد الدولة الحديثة (ويعتقد الأستاذ « نيوبرى »[1] أن الزيتون كان يزرع فى مصر منذ بداية العصر التاريخى غير أن ذلك مشكوك فيه) . وأول تمثيل عثر عليه لشجرة الزيتون يرجع عهده للأسرة الثامنة عشرة [2]. ويدعى « بليت »[3] أن شجرة الزيتون قد أحضرت إلى مصر فى عهد فتوحها العظيمة من آسيا ؛ وقد وافقه على ذلك « كيمر » ، إذ يقول : إن هذا النبات أحضر إلى مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة [4]، وقد عثر على بعض فروع صغيرة من الزيتون فى مقبرة « توت عنخ آمون » .

نبات البردى : كان البردى ينبت فى مناقع الدلتا ، ولكنه اختفى منها الآن . ويكثر نموه فى السودان . وكان المصرى القديم يستخدمه لأغراض شتى ، قد ذكر بعضها « هردوت » و « تيوفرستس » [5] و « بلينى »[6] . ولكن أهم استعمال له هو صناعة الورق منه الذى جاء على غراره الورق المعروف لنا الآن ؛ ويبلغ طول نبات البردى من سبعة إلى عشرة أقدام ؛ هذا عدا الزهرة ؛ والجذور ، ويبلغ عرض البردية نحو بوصة ونصف وقطاع الساق مثلث الشكل ؛ ويحتوى على : لحاء رفيع خشن ؛ ولب له أنسجة خلوية ؛ ومن هذا

(1) Ancient Egypt. t III, P.97 to 103.
(2) Nina de G. Davies, The Mural Painting of El-Amarna PL IXc.
(3) Bloemen en plante nit oud Egypte in het Meuseum te Leiden p. 13. Leiden, 1882.
(4) Bull. I.F.A O XXXI. 1931. p 133
(5) Bull I.F.A.O. XXXI. p. 133.
(6) Haward Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amon Vol II, p, 33.

اللب كان يصنع ورق البردى ؛ وقد وصف لنا « بلينى » كيفية صنع ورق البردى ، بأنه كان يقطع ساق النبات قطعاً رفيعة كانت توضع جنبا إلى جنب على لوح من الخشب ؛ وكان يوضع فوقها عدة قطع أخرى متقاطعة تكوّن مع الأولى زوايا قائمة ، ثم تبلل بماء النيل ؛ وبعد ذلك تضغط ؛ وتجفف فى الشمس . وأضاف بعد ذلك « بلينى » أن ماء النيل عند ما يكون معكراً يحتوى على مادة لزجة . ولكن طريقة « بلينى » هذه على مايظهر غامضة ؛ وخاطئة ، إذ لم يذكر لنا أن اللحاء الخارجى كان يزال قبل تقطيع اللب ، إلى أجزاء صغيرة ، وإن كان ظاهراً فى كلام له أتى بعد ذلك ؛ إذ يقول إن اللحاء كان يستعمل فقط لعمل الحبال . هذا إلى أن ماء النيل لم يكن فيه مادة لزجة عند ما يكون عكراً . وقد عملت تجارب لعمل ورق البردى كما كان يصنعه المصريون القدماء فلم تفلح إلى أن توصل الأستاذ « بتسكوم جن » إلى عمل ورق بردى مماثل لما كان يصنعه قدماء المصريين .

كيفية صناعة ورق البردى

والطريقة التى اتبعها أنه قطع النبات الأخضر من البردى إلى عدة قطع يمكن تناولها ثم أزال اللحاء الخارجى ، وبعد ذلك قطع اللب الداخلى قطعاً غليظة ووضع نسيجاً ماصا على لوحة من الخشب ؛ ثم رتب عددا من هذه القطع موازيا بعضها لبعض ، ومتماسة بعض الشئ . ثم وضع فوقها طائفة أخرى من هذه القطع متلاصقة ، ومكونة زوايا قائمة مع القطع التى تحتها ، ثم غطى الجميع بنسيج رفيع ماص ودقه لمدة ساعة أو ساعتين بمطرقة من الخشب ؛ وبعد ذلك وضع هذه المادة فى مكبس صغير عدة ساعات وعند الكشف عنها وجد أن القطع قد التأمت وكونت ورقة رفيعة متجانسة صالحة للكتابة ،

ثم صقلها بعض الشيء مما جعلها أكثر ملاسة ، وكان لون الورق الذى نتج من هذه العملية يكاد يكون أبيض . غير أنه كان فيه بعض عيوب أمكن إصلاحها قبل أن توضع المادة فى المكبس .

على أننا لا نعرف بالضبط التاريخ الذى بدأ فيه استعمال الورق وصناعته ، وأقدم ما عثر عليه قطع من وثائق البردى يرجع عهدها إلى الأسرة الخامسة والسادسة وهى محفوظة بالمتحف المصرى الآن (1) .

زراعة البساتين

لقد صورت النقوش والرسوم التى بقيت من عهد الدولة القديمة وغيرها صورة واضحة تفسر لنا بجلاء أن المصرى القديم ، كان مغرما بالأزهار وزراعة البساتين ، فكان يذكرها فى شعره ، و يتخذها رموزا وشارات ، ويجعلها تلعب فى حياته دورا هاما ؛ حتى أن أحد فلاسفة اليونان كان يتغنى بالعناية التى أظهرها المصريون فى تربية الأزهار . ولا غرابة فى ذلك فإنهم كانوا يزينون بها جدران قاعات أعيادهم ويحلون بها موائد قربانهم حتى أننا وجدنا مائدة قربان أمام صاحب المقبرة ، وليس عليها شئ سوى الزهور (2) . وكانت تحلى أوانى الخمر بتيجان من الزهر ؛ تشبه قلائد الأزهار التى كان يضعها الخدم حول نحور الضيوف . أما النساء فكن يضعن الزهور فى شعورهن وفى أيديهن . وقد ذكر المصرى القديم فى الوثائق التى تركها لنا أنه كان يتفيأ ظلال الأشجار اليانعة عند ما كان ينتظر حبيبته وهى آتية إليه وصدرها مكلل بالزهور ، وكان الفرعون نفسه يذهب إلى ساحة

---

(1) Cairo Museum, Nos. 49625, 5804, 58063, & 58064.

(٢) مقبرة « دواكا » بحفائر الجامعة المصرية بمنطقة الهرم .

القتال فى عربته ونحره مزين بأكاليل الزهر المختلف الأشكال والألوان . على أن فقراء القوم لم يهملوا التزين بالأزهار ؛ إذ نجد غالبا فى رسوم الدولة القديمة أن الفلاحين كانوا يعلقون الأزهار حول نحورهم ؛ وكذلك كانوا يزينون بها الحيوانات ، كما نجد الثيران العظيمة التى كانت تربى لتذبح قربانا تحلى رقابها بأكاليل الزهر وتلف حول نحورها زهور البشنين كما يشاهد ذلك فى مقبرة « تى » فى سقارة والأميرة « حمت رع » فى مقابر أهرام الجيزة .

وكانت المومياء توضع على أسرة من الزهور اليانعة وحول جباهها تيجان من الزهور مثبتة بدبابيس ؛ وفوق صدورها كانت توضع الأكاليل وطاقات الأزهار .

وكانت تصنع هذه الزهور أحيانًا من الخشب ؛ أو من الورق المقوى وتوضع بجانب المتوفى . وكانت توجد بجوار طاقات الزهور الطبيعية التى نسقتها يد الزهار . وكانت النائحات فى يوم الدفن يحملن الزهور أمام عربة المتوفى حتى يصلن إلى القبر ، ومن ثم كانت تأتى حاملات القرابين بالزهور كل يوم إلى المقبرة . كما يشاهد ذلك فى نقوش الدولة القديمة ؛ وكان أحب الزهور إلى المتوفى زهرتا البردى والبشنين (اللوتس) .

ومنذ أقدم العهود كانت تزرع البساتين وتقام فى وسطها البرك ؛ التى تحيط بها أحسن زهور المشاتل كالبشنين والعنبر والبقلة المباركة ؛ والأقحوان والنرجس ، والزنبق الأبيض ، وشجرة الغار الوردية اللون ، والخشخاش ، وكانت الزهور تقطف وتوضع فى زهريات من كل الأنواع وتنمق بطريقة تكسبها هيئة طاقة الزهر ، كما يشاهد ذلك فى مقبرة العظيم « تسن » بمنطقة

الأهرام ومقبرة » بتاح حتب » فى سقارة .

ومن كل ذلك يتضح لنا أن المصرى بحكم البيئة الزراعية التى كان يعيش فى وسطها عرف كيف ينشئ لنفسه زراعة وطنية قوية منقطعة القرين فى تلك العهود ، فلم يفلح فى الوصول إلى ذلك بتأثير الموارد الطبيعية التى هيأها له وادى النيل الخصب فحسب ، بل كان الفضل فى ذلك أيضا إلى جهوده التى لا تعرف الملل وإلى ذكائه الموروث ، وإلى حبه للبحث وراء التقدم والنمو فى هذه الناحية . ولا أدل على ذلك من بذله المجهود فى تحسين آلات زراعته ، وطرق استثمار أرضه ، مما جعل وادى النيل فى عهد الدولة القديمة البقعة التى ازدهرت فيها زراعة الحقول فى وقت كانت فيه كل بلاد العالم عامة (اللهم إلا وادى نهر دجلة والفرات) لا تزال فى طفولتها فى فن الزراعة . ولا شك فى أن تقدم مصر ونفوقها فى هذه الناحية أهم العناصر المادية التى جعلت مصر منبعا لمدنية العالم . ولا أدل على سرعة تقدم مصر فى الزراعة من اختفاء أنواع النباتات النجيلية فى مدة وجيزة ، تلك النباتات التى لاحظ وجودها العالمان « شفينفورت » « وانجار » فى قوالب اللبن التى بنى بها أهرام دهشور منذ الأسرة الرابعة وحل محلها أنواع الغلال . حتى أن الأستاذ « بترى » لم يجد فى خرائب « كاهون » فى عهد الأسرة الثانية عشرة أى أثر لهذه النباتات السالفة الذكر . وقد كان المصرى فى كل عصور تاريخه يعمل جهد طاقته لجلب الأشجار والنباتات من الأقاليم المجاورة ليستثمرها فى بلاده . ويبذل جهده ليجعلها صالحة للنمو فى أرضه الخصبة فلا تلبث أن تستقر فى مصر وتزدهر وتأتى أكلها ولا أدل على ذلك من جملة الأشجار والزهور والنباتات التى جلبها « تحتمس

الثالث » معه من آسيا وصورها على جدران قاعة الأعياد التى أقامها فى الكرنك والمعروفة بحجرة الزراعة . كما سنتكلم عن ذلك فى حينه .

آلات الفلاحة

جرت العادة بل وسنن الطبيعة على أن تكون الآلات التى يستعملها الأنسان فى حرفة من الحرف خاضعة فى تقدمها وتحسنها إلى درجة الرقى التى يبلغها الأنسان فى الطرق التى يتبعها فى إبراز منتجات حرفه وهذه القاعدة تنطبق بنوع خاص على الرقى الزراعى . فالآلات الزراعية فى الواقع تتقدم بتقدم الزراعة والصناعة والتجارة . على أن تقدم العلم نفسه الذى يؤثر بطريقة غير مباشرة فى طرق الزراعة لايؤثر على تقدم الآلات إلا من بعيد . فنجد أحياناً آلة جديدة تظهر مستعملة فى زراعة بلدما لكشف صناعة جديدة بها وأحيانا نجد أن هذه الصناعة الحديثة تستعمل مادة جديدة تمتاز بسرعتها أو خفتها أو سهولتها أو غير ذلك فتكون ذات فائدة محققة عن المادة التى كانت تستعمل من قبل ، فيؤثر الفلاح استعمالها على غيرها .

وأحيانا تجلب من البلاد الأجنبية آلات من مادة أرقى أو فى شكل أصلح مما يستعمل فى البلاد ، غير أن هذه الآلات الجديدة تحتاج إلى مران طويل حتى يمكن استعمالها ويتعود الأهلون عليها .

ومنذ عهد ما قبل الأسرات نجد فى مصر آلتين أصليتين خاصتين بالزراعة ، وهما الفأس لفلح الأرض والمنجل لقطع المحصول وضمه . أى أن الأولى تجهز للفلاح عمله ، والثانية تهىء له حصد محصوله ، وإذا فحصنا

كلا من هاتين الآلتين نجد أن الطبيعة قد ساعدت على اختراعهما ، فالفأس فى الواقع حلت محل اليد عند ما يراد نبش الأرض لزرعها ، وإذا تخيل الإنسان هذا المنظر فأن يده تمثل شكل الفأس عند حفر الأرض . أما المنجل فقد اخترع على غرار أسنان الحيوان وهو يأكل الحشائش . فأسنانه هى أسنان الحيوان . وقد نقل الإنسان هذا فى المادة وأصبح يستعمله فى كل أغراضه لضم محصوله .

وقد ظهرت الفأس للمرة الأولى فى التاريخ المصرى على طوابع الأختام الأسطوانية الشكل التى كانت تحلى سدادات الأوانى العظيمة التى عثر عليها فى نقادة .(1)

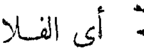
ومنذ الأسرة الأولى الفرعونية ، أصبحت الفأس شائعة الاستعمال فى الحقول وأعمال البناء وغيرها ، وقد استعملت الفأس من الخشب واستعين على تثبيت مشطها فى اليد بالحلفاء أو الليف ؛ إذ كان الخشب أقرب منالا للفلاح وأسهل صنعا . واستمرت الفأس تصنع من الخشب حتى العصور المتأخرة وهى لا تزال تصنع أحيانا من الخشب فى الواحات كما صنعت الفأس من النحاس فى عهد الأسرة الخامسة(2) وأخذت تتدرج فى التحسن شيئا فشيئا حتى أخذت أشكالا عدة .

ولست أدرى إذا كان لاسم رسم الفأس باللغة المصرية القديمة « مر » علاقة بالاسم الذى أطلق على كل مصر الزراعية وهو « تا مرى » أى أرض الفلاحة أو أرض الفأس ، وربما كان ذلك هو السبب فى نسبة

---

(1) De Morgan, Rech. t. II P. 151, 166.

(2) Petrie, Tools & weapons, 1917. pl. 19 No 3.

مصر كلها لاسم الآلة التى كانت أول شىء استعمل فى فلاحتها . ومن المحتمل جدا أن لفظة « دميرة » التى يطلقها فلاحو الوجه القبلى عند ما يكون الفلاح قد هيأ أرضه للزرع فى وقت بداية الفيضان فى النصف الأول من شهر مسرى ، يرجع أصلها إلى لفظة « تا مرى » أى أرض الزراعة أى الأرض التى هبئت للزراعة بالفأس . ومن ذلك يمكننا أن نفهم بسهولة معنى لفظة « مروت » التى تكتب بنفس الإشارة ويخصصها رجل وامرأة  أى الفلاحون وهنا يمكننا أن نفهم جيداً معنى المثل القائل « كل فلاح مصرى وليس كل مصرى فلاحا » .

المحراث : تقص الأساطير أن مصر مدينة بالمحراث للإله « أوزير » إله النبت والزرع . والواقع أن المحراث هو فأس مكبرة من اختراع المصرى عند ما أراد أن يقتصد فى الوقت فى شق أرضه . ويدل شكله على أنه كان يحرك بوساطة الأنسان لا بالحيوان فى بادىء الأمر ، وقد عثر فى الرسوم المصرية القديمة على ما يثبت ذلك .

وقد عثر على محراث فى شكله المعروف لأول مرة يجر بالثيران فى آثار ميدوم[1] فى عهد الأسرة الثالثة ، وكان يستعمل فى بادىء الأمر بسلاح واحد ثم استعمل بسلاحين .

المحشة (المنجل) : من الطبيعى أن الإنسان الأول سواء أكان صياداً فى البر أم فى البحر لم يهتم بأمر النباتات واستعمالها لأغراضه الخاصة إلا فى اليوم الذى أصبح فى يده آلة من الطران صالحة لقطع الحشائش البرية أو نشرها ليستفيد منها ، ومنذ أتقن المصرى صناعة المحشة أصبح

(1) Meidum, PL. 18.

يصنعها بكثرة فى معامل خاصة . وقد جمع الأستاذ « دى مرجان » فى بحثه عن الآلات بين المنجل والمنشار ، لأن وظيفتهما تكاد تكون واحدة وقد عرفنا شكل المنجل من الاشارات المصرية القديمة التى حفرت على مقابر الأسرات الأولى[1] والدولة القديمة . إذ نجد فى النقوش الملونة فى ميدوم رسما دقيقا للمنجل . فالمقبض والسلاح قد لونا باللون الأخضر على حين أن الظرّان الأبيض يظهر فى داخل المنجل ، وكذلك نجد هذه الأشارة محفورة بهذا الشكل فى عهد الأسرة الخامسة[2] ولكن الرسم لم يبين لنا من أى عهد بدأت صناعتها من النحاس

وتوجد آلات أخرى كانت تصنع من الظرّان كالبلطة التى يرجع عهد استعمالها إلى العصر الحجرى القديم . وقد بدأت تصنع من النحاس فى عهد الأسرة الثالثة ، كما يشاهد ذلك على آثار ميدوم[3] . إذ أن لونها الأصفر ، أو الرمادى الأخضر يبرهن بوضوح على أن سلاحها كان مصنوعا من هذا المعدن .

أما السكينة فكانت تصنع فى مصر ، وكذلك فى كل البلاد الأخرى من الظرّان ويهذب سلاحها حتى يصير قاطعا ، وقد وجدت السكاكين بين الإشارات الهيروغليفية وسلاحها من الظرّان ويدها من الخشب[4] . وقد وجدت نماذج منها من عهد الأسرة الخامسة[5] .

وهناك آلات أخرى كان يستعملها المصرى كالأمشاط التى كان

---

(1) Meidum, PL. 28 & Ptah-hotep t. I, p. 9 No. 210.
(2) Tombeau de Ti, Ed. Steindorff, PL. 47.
(3) Meidum, pl. 10, 13 & 14.
(4) Weill, Les Origines d'Egypte. Phar. p. 247.
(5) Petrie, Tools, pl. 24, No. 35.

يمشط بها ألياف الكتان والمطارق والمجارف والمكانس والمناخل والغرابيل وألواح التذرية . أما المذراة فقد اخترعها لفصل التبن عن القمح وأصابعها تبرهن على أن الإنسان قد أخذ شكلها من يده عند ما كان فى أول الأمر يستعملها لفصل القش عن القمح ، ثم اخترع المذراة على غرار اليد اقتصاداً فى الوقت والمجهود .

وقد وجدت فى بعض مقابر الدولة القديمة حديثا عدة مجاميع من نماذج الآلات النحاسية التى كان يستعملها الإنسان فى حياته اليومية . غير أن بحثها يحتاج إلى دراسات خاصة ، وقد عثر على مجاميع منها سليمة أهمها مجموعة حفيد الملك «منكاورع» فى حفائر الجامعة بالجيزة إذ تبلغ نحو ٩٠ قطعة ؛ ومعظمها لم يعرف بعد كيفية استعماله . وقد تعرفنا من بينها الأبر الدقيقة المثقوبة والموسى والمقطع .

طرق الزراعة

لا نزاع فى أن طرق الزراعة فى بلد ماتتوقف قبل كل شىء على مقدار مدنية أهلها . ثم تتدرج معها ، ولكن فى أقاليم محدودة نجد أن استثمار الأقاليم من حيث النبات أو الحيوان خاضع إلى البيئة وبخاصة الجو وصلاحيته لنمو أنواع خاصة من النبات أو تربية نوع خاص من الحيوان ولذلك فإن الطرق التى يجب أن يستعملها أهل بلد ما نراها مرتبطة بهذه الأحوال .

وقد استقينا معلوماتنا عن طرق الزراعة فى مصر فى عهد الدولة القديمة من مقابر عظماء القوم ، والنقوش التى وجدت على جدران الطرق

الجنازية لملوك الأسر الخامسة والسادسة ، وأهمها منطقة أهرام الجيزة وسقارة وميدوم وكذلك مقابر أمراء أسوان من الأسرتين الخامسة والسادسة .

وطرق الزراعة فى مصر فى عهد الدولة القديمة لا تختلف كثيرا عن باقى ممالك العالم ، وبخاصة فى بذر الأرض .

وكان المصرى حسب ملاحظاته الشخصية ، وما تقتضيه طبيعة كل نبات يقسم السنة الزراعية ثلاثة أقسام متساوية تقابل ثلاث مراحل مختلفة فى زراعة الأرض . فالفصل الأول وهو الشتاء عنده يبتدئ من أواسط أكتوبر إلى بداية فبراير وهو فصل بذر الأرض وزراعتها ويسمى بالمصرية « برت » (أى الخروج) أى ظهور الأرض من تحت ماء الفيضان ثم من فبراير إلى يونيو وهو فصل الحصاد ويسمى بالمصرية « شمو » (أى الصيف) ؛ ثم فصل الفيضان ويسمى بالمصرية « أخت » وذلك من منتصف يونيو إلى منتصف أكتوبر . والفلاح المصرى الحالى لايزال محافظا على حساب مواقيت زراعته بالأشهر المصرية القديمة التى كان يستعملها أحداده منذ أقدم العهود وهى المعروفة الآن بالأشهر القبطية ؛ ففى وقت الانقلاب الشتوى يبدأ زراعته الشتوية وهى الشعير والقمح ثم يحصد محصوله بعد ذلك فى شهرى مايو ويونيو ثم يزرع بعد ذلك الذرة ، وقبل حلول الانقلاب بشهر يزرع الصيفى (الذرة العويجة) .

وكان الفلاح يستعمل الفأس فى عزق أرضه ، والمحراث فى شقها والشادوف فى ريها . والظاهر أن الشادوف استعمل عند قدماء المصريين منذ عصر بداية التاريخ كما يدل على ذلك رسم فى مقبرة فى

هراكنبوليس[1] وكذلك عثر « ولكنسون »[2] على رسوم للشادوف فى الآثار المصرية القديمة . أما الساقية فلم يعثرلها على رسم ، ولكن من المحتمل أنها كانت تستعمل منذ العصر الأغريقى الرومانى ، ويظن العالم « دارسى » أنه رأى ساقية عندما كان ينظف بئرا فى الدير البحرى[3] .

أما النورج فلم يستعمله قدماء المصريين فى درس الغلال واستعاضوا عنه بأرجل الماشية كما هى الحال الآن فى النوبة وبعض جهات السودان ومصر والواحات .

أما كيفية زراعة الأرض بأنواع الأشجار والحبوب المختلفة فقد رسمها قدماء المصريين على مقابرهم منذ أقدم العهود ، وهى لا تختلف كثيرا عن زراعة الفلاح وحصده وتخزينه لمحصولاته فى أيامنا هذه . وليس هناك ما يلفت النظر إلا صناعة النبيذ من العنب وغيره فأنها قد اختفت فى عصرنا هذا . ومن المحتمل جدا أن يكون السبب فى ذلك هو دخول الدين الإسلامى فى البلاد وهو يحرم شرب الخمر بكل أنواعها .

يضاف إلى ذلك زراعة الكتان وطرق تحضير خيوطه ونسجها فأنه قد قل من البلاد بدرجة عظيمة وذلك لتغلب زراعة القطن وكثرة الواردات من منسوجاته من الخارج .

---

(1) Quibell and Green, Hierakonpolis, 1902. t. II pl. 74, 75.
(2) W. M. I, p. 281.
(3) Mem. Inst. Egypte 1915 t. VIII, Daressy, L'eau dans l'ancienne Egypte. p. 205.

صيد الحيوان وتربيته

كان المصري فى بادىء حياته يقتات من صيد حيوانات البر والبحر وقد اجتهد منذ القدم فى أن يستأنس من حيوانات البر النافع منها لأغراضه الحيوية ، ثم أخذ بعد ذلك يضيف إلى تلك الحيوانات التى أخضعها له ما كان يجلبه من الخارج من الحيوانات المفيدة .

وقبل أن نتكلم عن الحيوانات التى استأنسها المصرى القديم يجب أن نبحث أولا عن الحيوانات المتوحشة التى كان يعيش على لحومها أو يحاربها خوفاً من سطوتها ، إذ كان وادى النيل ، بما حبته الطبيعة من جبال ووديان يرويها هذا النهر ، يجلب إليه الحيوانات المتوحشة الكثيرة ، هذا إلى أن ماء النهر كان يحوى أسماكا متنوعة الأشكال ومن أجل ذلك كله كان المصرى مضطرا بطبعه إلى أن يتعلم طرق الصيد للتغلب على هذه الحيوانات التى كان يتألف منها غذاؤه الرئيسى .

لحوم الصيد

يلاحظ أن الإنسان قبل أن يتسلح لصد غارات الحشرات المؤذية والحيوانات الضارية التى كانت تعترضه فى حياته اليومية ويخشى فتكها به ، كان يجول بوازع الحاجة فى المستنقعات رغم ذلك ليحصل على الحيوانات التى تقيم أوده .

وأهم هذه الحيوانات الثور الوحشى وهو قصير القامة له سنام فى ظهره

وقرناه قصير وقد ظهر مرسوما على الآثار منذ الدولة القديمة (1) . أما الثور المستأنس فقرناه عظيمان وهو أجب(2) .

فصيلة الأيائل : Cervidae . وهذه الفصيلة هي حيوانات لبون مجترة مصمتة القرون ورسومها على الآثار المصرية قليلة جدا ، وقد شوهد الأيل Stag على لوحة في « اللوفر » ، وكذلك في رسوم « نقادة (3) وبلاص » فيما قبل الأسرات ، وفي مقبرة « مير » (4) ، ومما يمثله الفنان دائما هو « أيل آدم Cervus dama » الذي يصطاده الملك « سحورع » (5) نفسه كما هو ممثل على جدران معبده الجنازي . وبعد عصر الدولة الوسطى نجد أن هذا الحيوان بدأ يختفي من مصر .

عشيرة الظباء . Antilopinae . هذه الحيوانات تعيش معا في قطعان عدة ، وأنواعها مختلفة ، ولحومها مرغوب فيها جداً . وقد عثر على قرابين مطبوخة منها تدل على أنها من لحوم الظباء (6) . وفي عهد الدولة القديمة نشاهد مناظر لصيد الظباء من كل الأنواع (7) . وكانت تعد عند قدماء المصريين من بين اللحوم المختارة التي تقدم قربانا .

المها : Oryx . ويسمى في أيامنا « أبو عقص » أو « أبو سيف » . وقد وجد على الآثار المصرية نوعان منه الأول « مها بيسة Oryx Beisa » وهو نحيل القوام عظيم القرنين مستقيمها . وقد عثر عليه منذ عصر ما قبل

(1) Davies, Ptah hotep, t. II P. 21.
(2) Loret et Gaillard, La Faune momifiée. P. 43.
(3) Petrie, Nagada & Ballas, P. 29. Vase No 91.
(4) Blackman, Rock tombs of Meir, t. II, pl. 7.
(5) Sahourâ, t. II P. 15 see especially t. I P. 167,
(6) Recherches. t. II P. 97
(7) Ptah hotep, t. I pl, 22, & Meir, t. I pl. 6.

الأسرات ؛ والنوع الثانى «أبو خراب Oryx leucoryx » وهو عظيم الجسم قصير الشعر مائل إلى البياض ومعروف بقرنيه الطويلين الرشيقين المتوازيين وقد يكونان أحيانا مستقيمين أو منحنيين بعض الشىء ومدببين وفى أسفلهما حز فى الذكر وفى الأنثى ، وقد استعمل قرن البيسة أقواسا للرماية ، وذلك بوصل قرنين بقطعة خشب من قاعدة كل منهما . ومن أجل ذلك يكون القوس لينا سهل الاستعمال .

المؤذر أو الديشون أو المهاة الوضيحى : Addax وهو فى جملته يشبه المهاة وقرناه طويلان منفرجان بعض الشىء ، ومحززان إلى ثلثيهما ، وفى فصل الصيف يكون جلد هذا الحيوان مائلا إلى الصفرة ، وفى الشتاء يكون كل شعره رمادى اللون وهذا الفرق يمكن ملاحظته فى إقليم منف حيث يكون تغيير الجو محسوسا ، وقد رسم الفنان على آثار ميدوم [1] هذا الحيوان فى الفصلين .

التيتل : Bubalis buselaphus . وهو نوع من بقر الوحش عظيم الرأس قصير القرنين وفى معظم الأحيان يختلف القرنان بعضهما عن بعض ، وظهره منحدر ، وهو كالمهاة يغير لونه ففى وقت البرودة يكون فراؤه رماديا قاتما وفى الأوقات العادية يكون لونه أسمر مائلا إلى الصفرة ما عدا بطنه فإنه يكون أبيض ، وقطعانه تسير من خمسة إلى عشرة فى الأماكن الصحراوية [2] المعشبة . وقد شوهد شكل هذا الحيوان على أوانى عصر

---

(1) Meidum, pl. 14, 27 & 28.

(2) Schweinfurth, Au cœur de l'Afrique, t. I, p. 192.

ما قبل التاريخ (1) ويوجد له هيكل محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

غزال آدم : Gazella dorcas . وقد وصفه العرب فى كتب اللغة (الأدم من الظباء غبر الألوان تعلوهن جدد طوال القوائم والأعناق بيض البطون سمر الظهور) أما علماء الحيوان ، فقد وصفوه بأن له جسم الحيوان الذى يقفز ، وقائمتاه طويلتان رشيقتان ، ومتصلتان بصدره الضيق ، وهو خفيف . أما رجلاه الخلفيتان فأقصر ، ورقبته طويلة ، ورأسه تحلى بقرنين منحنيين إلى الأمام ؛ والأنثى تتميز عن الذكر بقرنيها الرقيقين ، وحزهما القليل ، وفراؤه قصير أسمر اللون أو أغبره ، وبطنه أبيض وفى أرجله بعض خطوط بيضاء ، وسوداء .

غزال - إزابل (2) (جسا) : قرناه منحنيان(3) أحدهما نحو الآخر عند طرفيهما . وكان منتشرا فى مصر العليا فى عهد الدولة القديمة . وكان رأسه يوضع على موائد القربان (4) . وقد عثر على موميات لغزال آدم ، وغزال إزابل فى كوم مير (5) بالقرب من إسنا من العصر المتأخر .

الوعل أو البدن أو تيس الجبل (6) : Niaou (Ibex) . وهو جنس من الماعز الجبلى ، وقرناه طويلان قويان منحنيان كسيفين أحدبين يلتقيان حول ذنبه من أعلاه ، وله لحية ، ولحومه كانت تقدم قربانا . وشكله يزين

(1) Petrie, Prehist. Eg. 1920, pl. 22. No. 47.
(2) Loret & Gaillard, La Faune momifiée p. 85.
(3) Mastaba of Ti, pl. 128.
(4) Deir el-Bahari t. III pl. 2.
(5) Loret, La Faune momifiée p. 81
(6) Meidum, pl. 9, 24.

كثيرامن أوانى عصر ما قبل التاريخ[1] ، ولا يزال يوجد بكثرة فى شبه جزيرة سينا .

الـكبش البرى (مفلون) Ammotragus tragelaphus : وللذكر والأنثى منه قرنان غليظان مدببان قويان يتجهان إلى أعلى متباعدين ثم ينحنيان فى اتجاه مضاد ؛ أما شعره فأشقر اللون خشن قصير ما عدا المعرفة ونهاية الذيل ، وقد عرف الكبش البرى مرسوماً على أوانى عصر ما قبل التاريخ [2] ، وقد عثر على عدد من هذا الحيوان محنطا فى « كوم مير » [3] ، ويوجد له هيكل عظمى بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

الماعز : Hircus mambrinus . وقد عثر الأستاذ « دى مرجان » على بقايا منه ترجع إلى عصر ماقبل التاريخ ، وكذلك يشاهد فى نقوش مقبرة « مرا » بسقارة ، وهو فى حجم المهاة . ولكن قرنيه على شكل حلزونى عمودى تقريبا ، ولكنهما ينفرجان عند ما ينحنيان إلى الخلف بصورة تكوّن شكل مثلث . أما أذناه فكبيرتان ، ومدلاتان . وقد عثر على رسمه منذ الأسرة الرابعة[4] .

العنز الأهلية: Hircus thebaicus وجسمها أقل من جسم الماعز السالف الذكر وتميز بأذنيها الطويلتين المتدليتين ، وبقرنيها الصغيرين اللذين لا يكونان إلا للذكر[5]

الزرافة : وقد عثر على رسمها فى عصور ما قبل التاريخ[6] ، وكانت تصاد لكى تستأنس ، وكان يظن أنها لم تعرف فى عهد الدولة القديمة ؛ ولكن عثر على

(1) Petrie, Prehist. Eg. pl. 18, No. 73.
(2) Petrie, Prehist. Eg. pl. 18 No. 73.
(3) Loret, La Faune momifée, p. 81
(4) Lepsius Denk. II, pl. 104 t. 31, Saqqara IV Dyn.
(5) Loret, La Faune momifiée, p. 78.
(6) X = Lieblein, Z. A. S. t, XXIII p. 130.

رسم لها فى الطريق الجنازى للملك «وناس» فى سقارة فى عام سنة ١٩٣٨[1].

التعلب : وقد وجد على الآثار المصرية فى ميدوم، وفى سقارة.[2]

الأرنب الجبلى : أذناه طويلتان، وجسمه أكبر من جسم الأرنب الأهلى وقد عثر على رسمه فى ميدوم وفى سقارة فى الطريق الجنازى للملك « وناس »[3]

الحيوانات التى تصاد لجلدها أو فرائها .

كان المصرى مغرما دائما بلبس الفراء الوثيرة، وبخاصة فراء الحيوانات التى كان يصطادها هو بنفسه من الصحراء، وكان يعرف جيدا كيفية تحضير الجلود، ودبغها ويلاحظ أنه فى عهد العصر الحجرى الحديث كان يستر عورته بكيس من الجلد[4] معلق بحبل مربوط حول وسطه. ثم استعمل بعد ذلك الجلد فى صناعة نعليه، وقميص عمله. ثم جدل منه سيورا دقيقة وعمل منه درعه، وكنانته، وقربة مائه.

الفهد[5] : وهو من بين الحيوانات المتوحشة التى عثر على رسمها فيما قبل الأسرات، وكذلك عثر عليه فى « ميدوم »[6]، وكان جلده يستعمل لصنع الأبسطة، وغطاء الكراسى؛ وأهم من كل ذلك أنه كان يستعمل لباسا للكهنة فى الشعائر الدينية منذ الدولة القديمة. فكان يلبسه الكهنة، ومن بينهم

(1) Ann. Ser. Ant. t. XXXVIII p. 520.
(2) Meidum, pl. 9 & Leps. Denk. II, pl. 46.
(3) Ann. Serv. Ant. t. XXXVIII pl. XCVII.
(4) Capart, Les débuts de l'art en Egypte,, PL. 37, 44.
(5) Rosellini, Mon. Civ. t. II, pl. 20.
(6) Meidum, pl. 17.

الكاهن الأعظم للإله « فتاح » فى منف . ولم يكتف المصريون بصيده من مصر . بل كان يجلب كذلك من الخارج ، كما فعل ذلك « حرخوف» فى رحلتـه الثالثة .

العسنت أو فرس النهر: وكان قدماء المصريين فى عهد ما قبل الأسرات يستعملون أسنانه فى صناعة مقابض الخناجر ، وسكينة جبل العرق مقبضها مصنوع من سن هذا الحيوان ، أما جلده السميك ، فكان يستعمل لصنع الدرق ، والزخمة وقد وجد مرسوما على الآثار المصرية، وكان يصاد فى الماء منذ الأسرة الخامسة

الذئب (ونش) : وجـد مرسوما على لوحة الشيست الموجودة فى متحف « اللوفر »[1] ذئبان من طائفة الحيوانات التى كانت تصاد . وكان يقدس فى أسيوط فى صورة الإله « وبوات » كما ذكرنا آنفا .

الفيل : كان الفيل الأفريقى يصاد فى مصر فى عصور ما قبل الأسرات ، وقد عرف فى الرسوم الساذجة ، وعلى مقابض السكاكين المصنوعة من العاج[2] . ومن المحتمل جدا أنه كان يصاد فى الوجه القبلى فى إقليم « إلفنتين » (أسوان) ، وربما اشتق اسم هذه الجهة من اسم الفيل الذى كان منتشراً هناك . على أننا لم نجده بين حيوانات الأسرة الثالثة فى مصر ؛ ولذلك كان المصريون يجلبون العاج من الخارج ، من بلاد النوبة فى عهد الدولة القديمة .

وحيد القرن أو الحريش : ويعتقد الأستاذ « دى مرجان » أنه كان يصاد فى مصر فى عصر ما قبل الأسرات ، ويظن أنه مثل على قطعة

(1) Gapart, Débuts de l'art en Egypte, 2e, éd. p. 222.
(2) J. E. A., 1916, p. 229.

من العاج من هذا العصر[1]. ولكننا لم نشاهده فى مصر بعد ذلك العهد . وقد عثر أخيراً فى معبد « منتو » بأرمنت على رسم وحيد القرن اصطاده « تحوتمس الثالث » من بلاد آسيا ، وقد وضح فى الرسم مقاسات هذا الحيوان ، وكيفية صيده وكان من أهم مفاخره فى براعة الصيد .

الحيوانات التى تصاد دفاعاً عن النفس أو للتسلية

الأسد ، واللبؤة : مثّل الأسد على آثار ما قبل الأسرات التى وجدت فى « نقادة وبلاص » ، وكذلك فى « هراكنبوليس »[2] ؛ وكان من بين الحيوانات التى تصاد فى الصحراء فى عهد الدولة القديمة ، وقد عثر على رسوم له فى الطريق الجنازى للملك « وناس » ، وكذلك فى مقابر « مير »[3] إذ كان يصاد بالسهام ، وسنرى أن صيده في عهد الأسرة الثامنة عشرة كان من مفاخر الملوك وكان المصرى يجتهد فى أن يستأنس الأسد فى عهد الدولة القديمة ، فكان يصطاده حيا ويضعه فى قفص للفرجة[4] ، وسنرى أيضًا أن الملوك كانوا يصطحبونه معهم فى ساحة القتال وذلك بعد استئناسه .

التمساح : كان هذا الحيوان يمثل إله الشر « ست » فى بعض جهات القطر ، ولذلك كان يطارد فيها ، وفى جهات أخرى كان يعبد بصفته الإله « سبك » إله الخير ، فكان يقدس كما كان الحال في الفيوم وفى « كوم امبو » كما سبق ذكره .

(1) Hierakonpolis, t. I, pl. 16, No. 4 2d, reg. from up to down.
(2) Nagada & Ballas, pl. 60 & Hierakonpolis t. II, pl. 28.
(3) Meir, Vol. I, pl. 6.
(4) Davies, Ptah.-hotep, t. I, p. 21. & 24.

الصل أو الثعبان : وهو ثعبان سام طوله نحو مترين ، وكان يعتبر حارسا للملك ومفيدا جدا للزراعة وكان يعبد بهذه الصفة باسم «رننوت» إلهة الحصاد ، وكان يترك فى وسط الحقول المزروعة دون أن يصاب بأى أذى ، يأكل الفيران الكثيرة التى كانت تهلك الحرث والزرع وتسبب القحط التام (1) وكان لكل مقاطعة كما كان لكل بيت ثعبان حارس .

كلمه عامة عن المراعى وتربية الحيوان

يجدر بنا أن نبرز هنا بنوع خاص ميل المولين المصريين إلى تربية قطعان الماشية المختلفة الأنواع وهذا الميل يمكننا أن نلمسه فيما نشاهده من الثروة الطائلة من رءوس الأنعام التى كانوا يصورونها على جدران مقابرهم موضحة بالأرقام الدالة على عدد ما كان يمتلكه صاحب المقبرة لينعم به فى آخرته . فمن ذلك نرى أن أحد الأشراف فى عهد الدولة القديمة كان يملك ٢٢٣٥ رأسا من الماعز و ٩٧٤ من الضأن و ٦٧٠ من الحمير (2) حقا أننا نشاهد أحيانا أن المصرى كان يبالغ فى ثروته أو فيما استحوذ عليه من بهيمة الأنعام فمثلا نجد فى نقوش الملك « سحورع » أنه عاد من غزوته فى بلاد لوبيا ومعه أكثر من ٧٠٠٠٠ رأس من الماعز والضأن والحمير وأكثر من ١٢٠٠٠٠ من الماشية الكبيرة (3)

(1) Loret et Gaillard, La Faune Momifiée p. 171.
(2) Lepsius Denkmaler, II, p. 9.
(3) Borchardt Grabdenkmal des konigs Sahure, t. II, p. 74.

يضاف إلى ذلك أننا وجدنا فى مقبرة العظيم سنب بالجيزة أنه كان يملك أكثر من ٢٠٠٠٠ ثورا ومثلها من الماعز وعددا عظيما من الحمير[1] ورغم ما فى هذه الأرقام الأخيرة من المبالغة فإنه يمكننا أن نعتبر الأرقام الأولى فى حد المعقول ؛ ومنها نستطيع أن نعرف على وجه التقريب أهمية أنواع البهائم التى كان يشارك فيها المولون الكبار الرعاة الذين اتخذوا الرعى حرفة لهم ولا نزاع فى أن الرعاة المصريين الحاليين يعدون فقراء إذا قيسوا بأجدادهم القدماء. وسبب ذلك يرجع إلى التطورات التى حدثت فى أراضى وادى النيل. وذلك أنه كان لا بد من وجود مراع شاسعة لتربية عدد عظيم من الماشية وكانت هذه بطبيعة الحال موجودة فى مصر فى العصور القديمة. أما فى أيامنا هذه فليس لها أثر، وتفسير ذلك أنه فى الأزمان القديمة كانت المراعى الخضراء تظهر بعد نزول الفيضان وتعم البلاد عدة شهور، وقد كان هذا يلاحظ بنوع خاص فى الدلتا التى كانت غنية فى مساحتها الشاسعة التى ينبت فيها كل أنواع الحشائش طبيعيا وبخاصة البردى، وفى هذه المراعى كان الرعاة يطلقون سراح قطعانهم العظيمة لتنمو وتتكاثر ولذلك يقول باران[2].

إن وادى النيل قبل تنظيمه الذى جاء تدريجيًا، كان مغطى جزئيا بالمستنقعات التى كان ينمو فيها البردى والبشنين بكثرة. وهذه النباتات كان فقراء المصريين يعيشون على لبابها وحبوبها فى عصور التاريخ المصرى؛ هذا

---

(1) Junker, Vorbericht Giza, p. 316.
(2) Ch. Parain, L'agriculture dans l'ancienne Egypte, Revue des études Juives, t. 97, 1934 VII Sqq.

إلى أنها كانت ترعاها البهائم ؛ ولا نزال نشاهد إلى يومنا هذا فى مستنقعات الدلتا السفلية لبلاد كلديه نوعاً من الحياة الفطرية إذ يعيش سكانها على تربية الماشية . فالسكان هناك يتجولون فى المستنقعات بجاموسهم ويأكلون ما تأكله أنعامهم وينحصر ذلك فى نبات الغاب والقصبات اللينة ، ويتخذون مأوى لهم أكواخاً من الغاب على الجزر أو أشباه الجزر ومن المحتمل أن المستنقعات التى بقيت زمناً طويلا فى الدلتا ، كانت تستعمل فى فصل الصيف مراعى للقطعان التى كانت تفد من المناطق الزراعية فى هذا الفصل ، ثم تعود ثانية عند حلول الفيضان . وكذلك كان الحال فى الوجه القبلى ، إذ كان شريط الأرض الذى يقع بين الأراضى المغمورة بالفيضان وبين الصحراء يتخذ مرعى لتربية الحيوان الصغير غير أنه تجب هنا ملاحظة أن انتقال القطعان إلى الدلتا لم يكن فى عهد الأسرة السادسة وهو عصر ازدياد سلطان الأشراف وانتشار ضياعهم واستثمار الأراضى الصالحة للزراعة بالرى الصناعى .

الحيوانات التى كانت تنتخب لترويضها وتربيتها

وهى التى كان يجتهد المصرى فى استئناسها لما تنتجه ، أو لمساعدته . فمنها الثور والبقرة ، والعجول . وكلها من النوع الأفريقى مختلفة القرون ، وعلى أثر حدوث طاعون الحيوان فى البلاد كان المصريون يجلبون أنواعا جديدة من إفريقية وآسيا . كما تدل على ذلك النقوش[1] . ولا أدل على ذلك من

(1) Loret et Gaillard, La Faune momifiée, p, 8,25 & 65.

الثيران التى أحضرها الفرعون « سحورع » عند غزوه بلاد لوبيا ، وكذلك ماذكره « بيبى ناخت » فى رحلته (انظر ص ٣٨٩ من الجزء الأول) .

ولا تكاد تخلو مقبرة من مقابر عظماء القوم فى الدولة القديمة من منظر ذبح الثيران ، أو سحبها للذبح ، سواء أكانت من الثيران ذات القرن الطويل ، أم الثيران التى لا قرن لها . ويجب أن نشير هنا إلى أن عملية ذبح الثور لأجل القربان كانت تجرى حسب قواعد وشعائر خاصة لابد من اتباعها بكل دقة .(1)

أما جلود الثيران فكانت تدبغ ، وتستعمل لصنع النعال ، وفى صناعة السفن ، وغير ذلك أما أنواع الغزلان والمها ، والظباء فإنها كانت تستأنس وتسمن للذبح . وتوجد فى مقبرة « مرروكا » أنواع للغزلان ، والمها مربوطة إلى المذاود فى شكل ينبئ باستئناسها وتسمينها للذبح . وقد شوهد على قطعة من الحجر رسم يبين كيفية ذبح مهاة فى ميدوم (2)

الخنزير : وجدت آثاره فى « كوم السبيل » من عصر ما قبل التاريخ . كما ذكرنا أنه عثر عليه فى « مرمدة » من عصر ما قبل التاريخ فيما سبق ، وكذلك فى « هراكنبوليس » (3) من عصر ما قبل الأسرات وفى عهد الدولة القديمة وجد اسم هذا الحيوان مقرونا باسم الملك « سنفرو » (4) ثلاث مرات . وكذلك رسم هذا الحيوان منذ الأسرة الثالثة فى الإشارات المصرية القديمة فى مقبرة « متن » .

---

(1) Hart., Agr. A. E. p. 198-199.
(2) Meidum, pl. 22.
(3) Hierakonpolis, II pl. 76.
(4) Proc. S. B. A. 1892 t. XIV th. Dyn.

الضبع : لقد اختلفت الآراء فى تجفير الضبع ، وذلك بملء بطنها بالأكل بوساطة اليد فى عهد الدولة القديمة ؛ فيظن العالم « جيار » أن هذا الحيوان كان يسمن بأكل الطيور واللحوم لإزالة الروائح الكريهة التى تتصاعد من فمه ، ولعدم التهام لحوم الصيد . وبذلك يمكن استعماله كالكلب للصيد . ولكن من جهة أخرى نشاهد فى قبور الدولة القديمة أنه كان ضمن الحيوانات التى تساق لتقدم قربانا ؛ كما يشاهد ذلك فى مقبرة الكاهن « دوا كا » بالجيزة . وقد جاء فى بعض النقوش (1) أنه كان يساق ليقدم قربانا .

الدواجن : تدل الرسوم القديمة فى عهد ما قبل الأسرات ، على أن المصرى قد اجتهد فى استئناس الطيور الكبيرة الحجم كالنعامة (2) ، والغرنوق (الكركى) . وقد عثر على بيض للنعام منذ عصر ما قبل التاريخ وفى عهد الأسرات الأولى كانت أفنية الدواجن تحتوى على أنواع عدة من الكراكى تعرف فى اللغة المصرية بالأسماء الآتية : « زات » ، « أو » ، « وز » ؛ ثم الأوز « سا » وكان على نوعين ويقدم طعاما للملوك ، والكهنة . وكانت توجد كذلك أنواع عدة من الأوز الصغير يشبه البط ، وقد عددت أسماؤه على مقابر الدولة القديمة . ونخص بالذكر منها ما يأتى . « را » ، « ترب » ، « خبت » ، « حز » ، « حاب » ، ومن البط الحقيقى وهو على أنواع منها : «سمن» ، «تست»، « سا »، «منوت» ، « سب » ، « سر » (3) .

---

(1) Leps. Denk. II, 15 b. Gizeh, VI th. Dyn.
(2) Capart, Les débuts de l'Art en Eypte fig. 144.
(3) Leps. Denk. II, pl. 69, 70, 74. Ti. p. 129. & Pth.hotep t. I, pl. 27.

على أن المصرى كان مغرما بصيد الطيور فى حقول البردى بعصاته المشهورة « البومرانج » وأهم هذه الطيور ما يأتى : الطائر « إيبس» (أبو منجل) ، أو اللقلق الأسود[١] ، ومالك الحزين وهو طائر من طيور الماء طويل العنق والرجلين ، وسمى بهذا الاسم لأنه على زعمهم يقعد بقرب المياه ، ومواقع نبعها من الأنهار فإذا جفت حزن على ذهابها ، ويبقى حزينا كئيبا ؛ ويعرف فى مصر كذلك بالبلشون[٢] . ثم أبو ملعقة أو الدواس ، والغرة ، والهدهد ، والغطاس ، والنكات ، والبجعة ، وفرخة البرك أو حمار الحجل وأبو مغازل ، والقاق ، والصرد أو الدقناس ، والحجل أو فرخ الغيط ، واليمامة ، والقنبرة ، والحمامة بأنواعها ، وعصفور الجنة ، والزقزاق ، والسمان ، والسلوى ، والبط ، والقطا .

الدجاج : والظاهر أن الدجاجة لم تكن معروفة فى مصر القديمة وليس لدينا أية صورة للدجاج إلا قطعة من الشيست (3) لطائر له عرف يشبه الديك ، ويظن « شمبليون » (4) أنه عثر على رسم دجاجتين ، فى مقابر « بنى حسن » . وقد جاء فى تاريخ « تحوتمس الثالث » عند ما كان يعدد المحاصيل التى حصل عليها بعد غزوته الثانية(5) طائران غير معروفين يبيضان كل يوم . والواقع أن الدجاجة والديك ، لم يظهرا على الآثار المصرية إلا فى العهد الإغريقى (6) وفى مقبرة « بتوزيريس » الواقعة

---

(١) معجم الحيوان ص ١٣٢

(٢) معجم الحيوان ص ١٢٥

(3) Capart, Débuts de l'Art en Egypte, p. 231.

(4) Champollion, Notices, II, p. 387.

(5) Sethe, Urk. IV, p. 700.

(6) Erman.Z. A. S. t. XXI, p. 97.

بالقرب من « تونا الجبل » نجد أن حاملة القرابين تحمل ديكا . (1)

البيض : كان يستعمل البيض للأكل منذ العهد الحجرى الحديث . (2) وقد شوهدت سلات البيض بين القرابين التى كانت تقدم للموتى (3) ، وقد عثر فى جبانة الجيزة فى حفائر الجامعة على أوان ، وجرار من الفخار مملوءة بالبيض المختلف االأشكال . وتدل أوانيه على أنه كان من عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن للان لم تحقق أنواع هذا البيض .

النحل وتربيته : تدل الآثار المكشوفة حديثا فى سقارة (4) فى طريق هرم الملك « وناس » ، على أن تربية النحل ، وقطف شهده . كانا من الأمور التى يعتنى بها وكانا يعدان من المحاصيل التى يعتمد عليها . إذ نشاهد فى هذا المنظر جمع الجميز وحصد الغلال وجنى النحل إلخ وقد عثر فى «زاوية الميتين» (5) على حجرة فيها خلية نحل ، وقد اجتهد المثال فى رسم هذا الإناء ليظهر دخول النحلة فيه لتضع شهدها ، وهذه العملية نشاهدها إلى الآن متبعة عند فلاحى الوجه البحرى إذ يتخذون من (القادوس) خلية يأوى إليها النحل ، وكان المصريون يأكلون الشهد كثيرا . إذ عثر على رسوم فى معبد الشمس ، تمثل رجلا منهمكا فى وضع الشهد فى أوان ثم يختمها (6) .

---

(1) Ann. S. A. vol. XX p. 105, pl 4.
(2) Loret, La faune momifiée p. 309.
(3) Mission du Caire, t. V, pl. 3, hors textes.
(4) Hamy, Les ruches en poterie dans la Haute Egypte, 1901.
(5) Ann. S. A. t. XXXVIII p. 520.
(6) Z. A. S. 1907, t. XXXIX p. 9; p. 78, In the temple of Neouserrà & Z. A. S. 1900, pl. 5,

الحيوانات التي كانت تربى لمنتجاتها الصناعية

أهم هذه الحيوانات النعام ، والخراف ، والتيوس ؛ إذ كان ريش النعام يستعمل حلية للرأس منذ عصر ما قبل الأسرات ؛ ومنذ العصر التاريخى ؛ نجد أن الإله « أوزيريس » كان يحلى لباس رأسه بريشتين جانبيتين ، وكذلك الاثنان والأربعون قاضيا الذين كانوا يجلسون فى قاعة المحاكمة ؛ وعلى رأس كل منهم ريشة من ريش النعام علامة على العدالة والحق . ومع كل فيظهر أن النعامة لم تشاهد فى الآثار المكشوفة للآن فى الدولة القديمة ؛ والظاهر أن ما كانت تحتاج إليه مصر من ريش النعام كان يجلب إليها من بلاد النوبة .

الغنم : تدل الآثار على أنه لم يكن يوجد فى مصر قديما إلا نوعان من الضأن يختلفان اختلافا بينا .

والنوع الأول هو Ovis longipes palaeoaegyptiacus وهو ما يعرف بالكبش الوثاب (الكبش منديس) . وهو نوع من الضأن المستأنس وقرناه يرمزان للقوة على رأس الملك . ويمتاز بقرنين عموديين على محور الجسم ملتويين التواء حلزونيا يكاد يكون خطا عموديا مستقيما . وهذا النوع من الخراف وجد فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات . ويمتاز بطول قدميه وذيله . والخراف من هذا النوع عفرة عظيمة تغطى مقدمة العنق . وأذناه متدليتان فى بعض الأحيان والأنثى من هذه الفصيلة ليس لها قرنان . وقد عثر على هذا النوع فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات . والظاهر أن شعره كان قصيرا ولذلك لم يكن صوفه يستعمل فى صناعة الملابس .

وتدل شواهد الأحوال على أن هذا النوع قد انقرض من مصر منذ الدولة الحديثة وحل محله نوع آخر ظهر فى مصر منذ الأسرة الثانية عشرة ، وقد تكاثر نتاجه تكاثرا عظيما حتى قضى على النوع الأول وهذا النوع الجديد يعرف باسم Platyra ægyptiaca ,15 ويوجد عدد عظيم من بقايا هذا النوع وبخاصة قرونه ، وهى محنطة تحنيطا متقنا . ويوجد فى متحف فؤاد الأول الزراعى مجموعة جميلة منها .

ويمتاز هذا النوع من الخراف بقامة اعتيادية ووجه مقوس وأذنين متدليتين متوسطة الطول . وله قرون غليظة القاعدة متجهة إلى الخلف ثم تنحنى إلى أسفل ثم إلى الأمام وله ذيل طويل ، ضخم (الألية) عريض وقد جلب هذا الحيوان على ما يظهر إلى مصر حوالى ٢٠٠٠ ق . م . ومن المحتمل أنه كان محببا للأهلين بسبب (ليته) العظيمة . والظاهر أن شعره كان كذلك قصيرا . ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن المصريين كانوا يأكلون لحم الضأن ولم يكونوا يعرفون الملابس الصوفية ؛ إذ كان ضأنهم لاينتج صوفا صالحا للغزل . والحقيقة أن كل الأقمشة القديمة التى عثر عليها للآن فى المقابر المصرية القديمة كانت مصنوعة من الكتان . ولم يعرف أن الملابس الصوفية استعملت فى مصر أحيانا إلا فى العهد الإغريقى . وكانت تلبس كثيرا فى العهدين الرومانى والقبطى . غير أننا لا نعلم إذا كانت قد صنعت فى مصر أم كانت تجلب من بلاد سوريا أو اليونان وغيرهما من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، إذ كان الصوف يوجد فيها بكثرة .

ولا يبعد أن يكون قد جلب إلى مصر صنف آخر منتج للصوف أو حسن نوع الشعر الذى كان يكسى به الجنس الجديد من الضأن حتى

أصبح صالحا لصناعة الملابس الصوفية .

ويقول « هردوت » أن المصريين كانوا يلبسون قباء من الكتان موشى بصور من الصوف الأبيض غير أنه فى الوقت نفسه يقول أن دخول المعابد بملابس صوفية غير مباح . وقد كان بعض علماء الآثار يظنون أن الشعر المستعار الذى وجد فى المقابر من الصوف ولكن البحث العلمى أثبت أنه لا توجد واحدة من بينها من الصوف .

وقد عثر على كمية من الصوف فى تل العمارنة يرجع عهدها إلى الأسرة الثامنة عشرة ، مما يدل على احتمال استعمال الصوف والملابس الصوفية فى مصر فى هذا العهد غير أنه من المحتمل جدا أن هذا الصوف قد جلب إلى مصر من آسيا وبخاصة فى هذه الفترة التى كانت فيها مصر هى المسيطرة على هذه البلاد من كل الوجوه .

الحمار : كان الحمار يستعمل فى مصر لحمل الأثقال منذ عهد الدولة القديمة . وقد عثر له على رسوم عدة ، أهمها فى مصطبة « ورخو » ، من عهد الأسرة الخامسة (1) بالجيزة إذ نشاهد حمارين يحملان محفة بينهما لجلوس موظف للتفتيش على أعمال الحقول . وقد كانت أهمية الحمار عظيمة فى القوافل التى كانت تعد عند قدماء المصريين أهم طرق الموصلات مع خارج البلاد .

ولا نزاع فى أن البعثات التى قام بها المصريون فى عهد الدولة القديمة إلى سينا ، وفى مصر العليا كانت بوساطة الحمير . وفى عهد الأسرة السادسة

(1) Leps. Denk. II, pl. 43,

عند ما قام « حرخوف » برحلته للبحث عن البخور ، والعاج من أعالى بلاد النوبة كان معه ٣٠٠ حمار . وقد عاد بها محملة بالنفائس من هذه الجهات (انظر ص ٣٨٢ وما بعدها من الجزء الأول) .

الثور : كانت التيران ذوات القرون الطويلة تقوم بكل الأعمال التى يتطلبها الفلاح . فكانت تستعمل فى حرث الأرض ، ودرس القمح ، وجر عربة الدفن ونقل الأحجار الثقيلة [1] من المحاجر إلى الأماكن التى كانت تبنى فيها ، كالمعابد ، والأهرام .

الحصان : لم يظهر الحصان إلا فى عهد الدولة الحديثة وسنتكلم عنه فى حينه .

الجمل : تدل الأحوال على أن المصرى لم يستعمل الجمل فى العهد التاريخى على الأقل [2] . ولكن عثر على تمثال صغير له من الفخار من عصر « نقادة » [3] . وكذلك عثر على تمثال صغير آخر من عهد الأسرة الثامنة عشرة [4] يمثل الجمل حاملا إناءين متدليين على جانبيه . وقد ذكر أحيانا فى متون الدولة الحديثة ، مما يدل على أنه كان مستأنسا « الجمل يسمع الكلام » كما جاء فى ورقة « بولونى » [5] . وقد قال عنه « فيدمان » أنه هو الحيوان الذى يمثل الإله « ست » .

ويظهر أن الجمل كان مكروها عند قدماء المصريين لصلته بالعرب (؟)

(1) Griffith, Pap. of Kahun, *pl.* 15, *1.* 14 ; *pl.* 31, 1. 25.
(2) Congrès des Orientalistes, 1907 Art. Lefebure, Le chameau en Egypte, et Wiedmann, Sphinx, t. XVIII. p. 174.
(3) Mariette, Abydos, t. II P. 40.
(4) Petrie, Giza, & Rifeh, 1907 pl. 27.
(5) Gr. pap. de Bologne, No. 1086

ولذلك لم يستعمل عندهم . أما فى العصر الإغريقى الرومانى فقد استخدم الجمل بكثرة .

الحيــوانـات التى تــربى لمسـاعــدة الانســان وحمايته

الـكلب : لقد استؤنس الـكلب فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات[1] ، ودفن بالقرب من صاحبه كما ذكرنا ؛ وكان الأول من بين حيوانات العالم التى استأنسها الإنسان . ولا شك فى أن الإنسان فى بادىء الأمر قد لاحظ فائدة هذا الحيوان فى مساعدته على اقتناص فريسته حتى أصبح إخلاص الـكلب ، وتفانيه فى حب صاحبـه دافعا له ليتخذ منه صديقا ، إذ كان حاميا له ، ومدافعا عن ماشيته عند إغارة الحيوانات المفترسة عليها . ومن ذلك ما وجدناه فى أحد مقابر « مير » [2] من عهد الدولة القديمة لرسم كلب جالس فى مؤخرة القارب بجوار الصياد . ويقص علينا « ديدور الصقلى » أن الـكلب قد ساعد « إزيس » فى العثور على جثة « أوزير » (ربما يقصد «أنوب») ؛ ولذلك تأتى الـكلاب فى احتفال عيد إحياء « أوزير » بعد الإلٰهة « إزيس » تخليـدا لذكرى مساعدتها لها ، وقـد كان نباح الـكلاب النـذير بالخطر فى الأرياف مما كان يؤكـد لرجال الشرطة القائمين بالحراسة فى المنطقة بقرب وقوع خطر كما ذكر لنا كاتب مـريض كان يستشفى فى الأرياف إذ يقول « كان على باب دارى مائتـا كلب

---

(1) De Morgan, Recherches, t. II p. 162, No 8.
(2) Meir, t. II, 4.

من الكلاب العظيمة ، وثلثمائة كلب سلوقى واقفة على باب بيتى طيلة اليوم . فيكون مجموعها خمسمائة ، وفى أثناء النهار لا تقول شيئا . ولكن أثناء الليل عند ما تقلق أثناء نومها فإنها تضايق المار وتقوم جماعات لترجمه من حيث أتى بنباحها ، وإذا أمكن نهشته بأنيابها »[1] .

وقد كان الكلب يستخدم كالأسد في ساحة القتال . فعند ما كان الفرعون يحصد رءوس الأعداء ، كان الكلب السلوقى [2] يمزق ثيابهم . وتوجد أنواع عدة من الكلاب المصرية قد جاءت عن طريق التناسل مع ابن آوى ، والذئب ، والضبع ، وكل فصيلة الكلب الأخرى المتوحشة ومنها الكلب السلوقى . وهو مشهور باقتفاء الأثر ؛ ومهاجمة الغزلان ؛ والثعالب وقد كان مشهوراً في الصيد فى الصحراء خلال عصر الدولة القديمة . [3] وتشاهد كلبة فى ضيعة العظيم « زاو » من هذا النوع ترضع جراءها [4] الثلاثة ورقبتها محلاة بطوق ، ويوجد نوع آخر يشبه الضبع ، وفيه كل صفاتها ولا يمتاز عنها إلا بعلو مؤخرته ، [5] ولم يرسم هذا الكلب قط جالساً . وفى وقت الصيد لا يهاجم بل يبقى بالقرب من سيده الذى لابد أنه كان يستعمله مثل الضبع لاقتفاء الأثر بشم رائحة الفريسة فيرشد سيده إلى مكانها .

---

(1) Pap. Anastasi, V, pl. 99 trad. Maspero, Notes au jour le jour, Bib. Egy. t XXXII p. 316.

(2 Rosellini, Mon. Civ. pl. 66. & Champ. mon. III pl. 63.

(3) Ann. S. A. E. t XXXVIII pl. XCVII.

(4) Deir el Gabrawi, t. II pl. II. & Ptah-hotep, I p. XXII.

(5) Lenormant, Comptes-rendus de L'Académie des Sciences. 1870 p 593, 632. Sur les Animaux employés par les Anciens Egyp. à la ehasse et à la guerre, & Virey, Rekhmara pl. 6,

أما الكلاب العادية فى مصر ذات اللون الأسود ، والاعضاء النحيلة والأذن المنتصبة . فيقال إنها هى التى تمثل الإله « أنوب » . ولكن ذلك مشكوك فيه جداً . وهناك أنواع أخرى من الكلاب رسمت على مقابر بنى حسن وبخاصة الكلب السلوقى ، الذى يشبه الثعلب ، ونوع الكلب الذئبى الذى ظهر فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد أصبحت كل هذه الأنواع من الكلاب رمز « الانتباه » ، وقد استعمل نباحها فى تسمية الشعرى النجم « سريوس » (نجم الكلب) الذى يظهر عند بداية الفيضان ، وينبه الزارع المصرى إلى حلول الفيضان[1].

وقد كانت هناك كلاب صغيرة للهو والتسلية ، تكون دائماً مرافقة لأصحابها ، وهذه الكلاب تلاحظ كثيراً على اللوحات المأتمية . وكان الكلب دائماً مع الأسرة لا يفارقها ، جالساً على مؤخرته . وقد كان أحياناً يؤدى دور الرجل فيتكلم عن نفسه مفتخراً بأمانته : « أنا الكلب الذى ينام فى الفراش ، كلب السرير الذى يحب سيدته »[2].

وكانت الكلاب الصغيرة تدفن فى توابيت ، ويوجد فى متحف « بروكسل » تابوت من هذا النوع[3]

القطة : كان قدماء المصريين يربون نوعين من القطط [4] : نوعا عظيم الحجم وهو الذى يمثل الإلهة « باست » ، ويقول « استرابون » :

---

(1) Loret & Gaillard, Faune mom. p. 3.
(2) Stèle du Caire, Grab und Denks Lang & Schäfer, No. 20,506 p. 96.
(3) Capart Z. A. S. t XLIV (1908, p. 13)
(4) Loret, la Faune mom. pl. 4 & 19.

أنه لذلك السبب كانت تقدس القطة فى كل مصر وتسمى (Felis Maniculatas) ونوعا آخر صغيرا يشبه القطة التى نراها بيننا الآن مستأنسة .

أخذت القطة تعتبر كالقرد حيوانا مدللا عند قدماء المصريين فى عهد الدولة الحديثة .[1]

وفى عهد الدولة الوسطى تشاهد القطة مستخدمة فى صيد الطيور ، وذلك للقبض على الطيور التى اصطادها سيدها ، أو لصيدها [2] بقفزة واحدة ؛ وأحيانا يرسم القط متحفزا للوثب على فأر[3] .

النمس المصرى . (أو فأر فرعون) : (معجم الحيوان ص ١٢٧) . وهو مضر للتمساح ، والحية ، والظاهر أنه كان مستأنسا فى مصر حسب قول بعض العلماء [4] منذ الدولة القديمة ، وهو يتقمص روح الإله « آتوم » الذى يمثل الشمس الغاربة عند قدماء المصريين . وذلك لأنه يظهر عند الغروب ، ويبتلع الثعبان[5] الذى كان يعتقد أنه يلتهم الشمس عند الغروب (أى الإلهة آتوم) .

القرد : تدل الآثار المكتشفة إلى الآن على أن المصرى كان يستأنس نوعين من القردة منذ الدولة القديمة [6] : نوعا منها لونه أخضر ، وهو كلبى الرأس ويسمى « ميمون » أو « قردوح » Papio hamadryas

---

(1) Mem. Miss. du Caire, t. V p. 552.
(2) W. M. t.II p. 108.
(3) Leps. Denk. II pl. 130.
(4) Lifeburc Bib. Egyp. t XXXIV. Le nom Egyptien d'Ichneumen p. 314
(5) Leps. Denk. II, pl. 12, 60 & 77.
(6) Meidum, pl. 17. Mefermaat pl. 24 & Rock tombs of Sheikh Saïd Urana, pl. 4.

وهو عظيم الخلق قبيح المنظر ؛ أما الثانى فيرسم بلون أصفر ، وهو أصغر من الأول بكثير ، ويلاحظ فى رسوم « ميدوم » (1) أن قردين يلعبان مع طائر من فصيلة أبى مغازل ، وقزم ، وذلك لتسلية الميت فى قبره ، كما كان يتسلى به فى دنياه . ومن الطريف أن الأقزام كانت موكلة فى العادة بحراسة القردة (2) . وفى رسوم أخرى يشاهد القرد مربوطا فى كرسى سيده بطوق أحمر حول وسطه (3) . وقد لوحظ فى مقبرة « تسن » من الأسرة الخامسة أن القرد كان يصحب سيده مع الكلاب للصيد ، والقنص (على الجدار الشرقى من مصطبة « تسن » بحفائر الجامعة المصرية) .

الرفق بالحيوان والعناية بتربيته

إن أظهر دليل على رقى أى شعب من الشعوب ، أو أى فرد فطرى ، هو معاملته للحيوان الذى يستخدمه فى عمله ، وفى غذائه ، وفى تسليته . وسنعرف الآن كيف كان المصرى يعامل الحيوانات التى يربيها ، وكيف كان يعمل جل ما فى طاقته لقضاء كل ما تحتاج إليه فى رفق ورحمة .

كان الفلاح منذ استأنس الحيوانات يقودها إلى الحقل ، والمراعى فى أغلب الأحيان حرة طليقة ، وأحيانا كان يربطها بحبل ، ويقودها . أما الجامحة فكانت توكل إلى خدم معينين . وعند ما يدعو الأمر الراعى

---

(1) Meidum, pl. 24.
(2) Deir el Gabrawi, t. 3, pl. 17, Sheikh Saïd, pl. 4 & 6.
(3) Mem. Miss. Arch. 1889, t. I, p. 3. Tomb d'Amenhotep.

إلى عبر قناة كان لزاما عليه أن يستخدم قاربين لنقل البهائم من شاطئ إلى شاطئ [1] . وذلك عند ما تكون القناة عميقة . لكن عند ما يكون الماء ضحضاحا . فإن الراعى يخوض الماء بجانب قطيعه حاملا العجل الصغير على كتفيه خوفا عليه ، وليجعل البقرة تتبعه شفقة على رضيعها ، وكان الفلاح دائما يخاف عبر القناة العميقة . ولذلك كان يقرأ تعويذة لحفظ ما شيته من شر التماسيح التى كانت تسبح فى الماء [2] .

أما رعى البهائم فكان لا يختلف كثيرا عن عصرنا هذا . إذ كان الراعى يترك قطيعه فى المراعى الخضراء ، ويتفيأ ظلال الأشجار ، ولكن الحيوانات السريعة العدو مثل الوعول ، والظباء والغزلان ، كانت لا تترك حرة للرعى . بل كانت تبقى فى الحظائر وتأكل فى أوقات معينة بوساطة راعيها فى مذاود خاصة . وفى الغالب يطعمها الراعى بنفسه [3] . وأما الطيور [4] مثل أنواع الكراكى ، وغيرهما . والأوز والبط ، وأنواع الحمام فإن حوصلتها كانت تملأ بالحبوب بيد راعيها (الجفر) .

الحظائر : كانت البهائم تعود كل ليلة لتنام فى حظائرها كما يقول المصرى نفسه ، ولكن فى وقت الحصاد كانت تبقى فى الحقول ويقيم لها الفلاح حظائر من غصون الأشجار وذلك للمحافظة عليها من الحيوانات الضارية . وكانت الحيوانات تربط فى أوتاد مغروسة فى الأرض وأمام كل حيوان مذوده الذى يأكل فيه ، وكذلك الطيور كانت لها أبراج خاصة

---

(1) Ti. p. 188.
(2) Agr. A. E. Hart. p. 250 Fig 65 & fig 65 P. 251.
(3) Agr. A. E. Hart. p. 255 fig. 67.
(4) Ti pl. 122.

فسيحة الأرجاء كما يشاهد ذلك فى مقبرة « تى » و « بتاح حتب »[1] بسقارة .

العناية بأجسام الحيوان : لم نشاهد على الآثار قط جزّ وبر الحيوانات أو تطميرها ، ولكن « ديودور »[2] يقول أن الغنم كانت تجز ثلاث مرات فى العام وإذا حكمنا بالظواهر فإنا نعتقد أن الحيوانات لابد أنها كانت تنظف دائما ، يضاف إلى ذلك أننا نعلم أنه وقت تضحية الحيوان كانت حوافره تنظف بفرجون كان يصنع فى عهد الدولة القديمة من ليف النخل[3] ، كما هو الحال فى عصرنا الآن ، إذ يستعمل ليف النخل فى غسل الحيوان والأنسان فى الأرياف . وقد ذكر لنا « مسبرو »[4] أن الثيران كانت تغسل مرة كل يوم على أقل تقدير عند الظهيرة .

وكان الراعى يخصى ثيرانه ليسمنها وكذلك ليجعلها صالحة للعمل ؛ وربما كانت هذه العملية تجرى فى مكان خاص يسمى « مكان الخصى »[5]

ويتساءل « جيار » هل المصرى كان يخصى الثور لأجل أن يشب بدون قرن ليقدمه هدية لصاحب الضيعة العظيم وبذلك يتفادى كىّ الحيوان مرات عدة وهو صغير حتى لا يكون له قرنان كبيران ؛ وهذه الطريقة الأخيرة هى التى يستعملها أهالى أوساط أفريقيا حتى الآن ، فإذا كانت هذه النظرية صحيحة فأنها تدل على مقدار عناية الرعاة المصريين بالحيوانات

---

(1) Agr. A. E. Hart. 260.
(2) Diodore t. I, 36.
(3) Loret, La Flore. 2 édit. p. 35.
(4) Maspero, Etudes Egyptiennes, t. II p. 40,
(5) Pyr. Pepi, t. I, 605.

التى يميلون إليهـا ورفقهم بها ؛ على أن الرعاة كانوا دائمـا كثيرى الاهتمام بحيواناتهم وما عسى أن ينـالها من البرد بعـد أى عمـل شاق ؛ ففى « ميدوم » (1) نشاهد ثورين مغطيين بغطاء مربع مزين بخطوط سوداء وحمراء يخيـل للإنسان أنه حصير من القش ؛ وكان هذا الغطاء يوضع دائما على العجول الصغار .(2) وكانت حيوانات الحمل لا يوضع على ظهورها شىء إلاّ إذا غطّت ظهرهـا بردعـة مربوطة على وسط الحيوان وكان معظم الحمير يزود بالبرادع (3) عند ما كانت تحمل المحصول من الحقل .

وكان كل من الراعى وحارس الثيران يفتخر بالزينة التى كان يحلى بهـا حيواناته ؛ فكان الواحد منهم يتفنن فى تأنيق قلائدها (4) التى كانت أحيانا قطع زينة حقيقية تستعمل تعـاويذ لمنع الحسد (العين المؤذية) ، وعندما كانت الحيوانات تذهب إلى المراعى كان سائقهـا يضـع زهرة من البشنين فى قلادة الحيوان (5) زينة له .

أما حراس الحيوانات المدللة التى كان يعتز بها سيد البيت فكان جلّ همهم أن يتفانوا فى تجميل لباسها وتزيينها . ففى مقبرة فى « زاوية الميتين » (6) نشاهـد قردا مقيدا ومغطى بلبـاس على شكل (البرنس) محـكم رشيق المنظر .

وكان المصرى يعتني بتنمية نتاج ماشيته وقد رسم لنا عدة منـاظر لهذه

---

(1) Meidum, pl. 28.
(2) Miss Murray, Mastaba Saqqara, pl. 23.
(3) Beni Hassan, I, p. 29.
(4) Leps. Denk. II, pl. 102
(5) Ti, pl. 129
(6) Leps. Denk. II pl. 107.

العملية واجتهد فى تحسينها بالطرق المتبعة الآن ؛ فنشاهد مثلا فى مناظر إحدى مقابر « دشاشة » [1] ثورا بقرنين على شكل هلالين يلقح بقرة ذات قرنين ربابى الشكل (أى ملتويين) وفى مقابر « دير الجبراوى » نشاهد بقرة ذات قرنين جميلين يلقحها ثور بدون قرنين ؛ وفى مقابر « بنى حسن نشاهد قطعانا من الماعز والحمير [2] تلقح . والواقع أن المصرى كان يفرح فرحا عظيما عند ما كانت ماشيته تلقح وتنتج نتاجا حسنا ؛ وكانت الماشية تضع حملها فى الحقول وفى المراعى ، وقد رسم المصرى كل ذلك منذ الدولة القديمة ؛ كما يشاهد فى مناظر طريق الملك وناس »

وقد كان المصرى أول من اخترع التفريخ الصناعى كما ذكر ذلك لنا « ديدور » [3] وغيره وكان المصرى يتبع فى حلب البقرة طريقة فنية إذ كان لا يحلب حلمة حلمة بل كان يحلب حلمتين أو ثلاثا أو أربعا [4] دفعة واحدة ويجتهد فى ألا يترك حلمة واحدة دون أن يبتز لبنها لأنه كان فى ذلك شل للعضو الذى لايحلب و تقليل من إنتاج اللبن بشلّ الثدى الذى يهمل ولعمرى فإن الأنسان فى عصرنا هذا يجتهد فى تلافى هذا الخطر وكان المصرى يخلط لبن البقرة بالشهد ويقدم للمتوفى قربانا مرطبا [5]

أمراض الحيوانات : تدل كل الظواهر على أن المصرى كان يعتنى بتربية

---

(1) Leps. Denk. t. II, pl. 132.
(2) Ann. S. A. E. t. XXXVIII pl. XCVII.
(3) Diodore, t.I. 74. Pline, X 54. & Bull. I. Eg. 5 Séries, t. V, 1911, p. 177.
(4) Deir el Gabrawi, Tomb of "Aba" pl. 11, - 187.
(5) Pap Ebers, pl. V, 1, 1.

حيواناته إذ فى الواقع كانت لها الأهمية الكبرى فى حياته حتى أن الفرعون كان يعد سنى حكمه حسب التعداد الذى كان يعمل للحيوانات كل عامين وقد عثر على ورقة لطب الحيوان من عهد الأسرة الثانية عشرة[1] وهى فريدة فى نوعها؛ غير أنها لسوء الحظ ممزقة ولكن من البقية الباقية منها يمكننا أن نحكم بأن كل فلاح كان يهتم بحيوانه والأمراض التى تنتابه وطرق علاجه . ففى مقبرة « تى » لاحظ الراعى أن أحد العجول لم يكن فى نشاطه المعتاد فى شد حبله ولذلك كتب الفنان أن الراعى يفحص ما الذى حدث لهذا العجل [2] . والظاهر أن فن معالجة الحيوان قد بلغ شأوا عظيما عند الأطباء البيطريين إذ قد لاحظ « كيفية » Cuvier [3] عندما فحص بعض عظام مكسورة فى الحيوانات التى تعيش فى وادى النيل أن هذه العظام قد ضمت إلى بعضها بطريقة فى منتهى ما يكون من الحذق والمهارة تدل على نبوغ المصرى فى جبر العظام المكسورة بطريقة عملية ليسهل للحيوان استعمال العضو الذى حدث فيه الكسر.

معاملة الحيوان برفق : لم نر فى النقوش المصرية أن المصرى كان يعامل حيواناته معاملة سيئة اللهم إلا الحمار الذى كان يضرب لعصيانه وجموحه ، أما باقى الحيوانات فكانت تعامل على وجه عام برفق وحنان إذ الواقع أن العصا أو السوط (الفرقلة) كانت تستعمل للارهاب فحسب . أما صغار الحيوان فكانت موضع عناية وحنان إذ كانت تحمل على

(1) Griffith, Hieratic Papyri from Kahum, p. 12, Vol 3.
(2) Maspero, Etudes égyptiennes, t. II p. 105.
(3) Cuvier, Mémoires sur l'Ibis des Anciens Egyptiens dans les annales du Musée, 1804, p. 116 etc.

الأعناق أو فى حضن حاملة القرابين كما يلاحظ ذلك فى رسوم مقابر الدولة القديمة إذ نرى الغزال الصغير أو العجل محمولا بين ذراعى حامل القرابين [1] كما نشاهد أميرات يلاطفن بأيديهن عصافير صغيرة قد سقطت من أوكارها . وأطفالا يداعبونها كذلك [2]

وقد كان الراعى يقود ماشيته إلى الحقل وهو ينشد لها الأغانى بحداء خاص . وقد كتب الفنان بعض هذه الأغانى التقليدية ، والظاهر أن هذه الأغانى كان لها تأثير على البقرات وقت حلبها مما يزيد فى مقدار اللبن الذى كانت تعطيه يوميا ، إذ عملت تجارب لذلك فى أمريكا فوجد أن البقرة تعطى ١٥ ٪ من اللبن زيادة على انتاجها الطبيعى عند ما تحلب والراعى يحدو لها بغناء يهدىء من أعصابها [3] ويدخل عليها السرور . وكان الفلاح وهو يرعى ماشيته لا يكتفى بملاحظتها بل كان ينعت كلا منها بصفة تغلب عليها فكان يسمى « الذهبية » و « الجيلات » و « اللامعة » [4] إلخ .

وعند اشتداد الخطوب فى البلاد بسبب الثورات مما يسبب أهمال الحيوان وعدم العناية به يصف الكاتب هذه الحالة بقوله : « الحيوان يشكو مر الشكوى فقلبه يبكى أو ينتحب بسبب حالة البلاد » [5] .

وعند ما يتناطح ثوران أو تشتبك قرونهما معا كان الراعى يتدخل فى

(1) Ptah-hotep, pl 15, 25. (2) Mémoires, Inst. Egypte, t. III p. 528, 532 & 555 (3) Journal du Paysan, Mars 1921.
(4) Lefebure, Recueil Champollion, 1922, Tombeau de Petosiris p. 83. (5) Admonitions, pl. III, I, Ed. Gardiner; et Maspero, Causeries d'Egypte, p. 267.

الحـال بينهما برفق [1] .

ولمـا كان المصرى يخاف ضياع حيوانه بين الحيوانات عند ورود الماء كما يخاف عليها من السرقة فإنه كان يعلمها بعلامة خاصة ، بكيّها فى الغالب على الكتف أو على القرن وتوجد قرون كباش من نوع Ovis platyra مختومة على قرونها وهى محفوظة بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى . وقد عثر على منـاظر لهذه العملية [2] كما عثر على حيوانات تحمل علامات خاصة .

ومنذ الدولة القـديمة نجـد أن الكهنة كانوا يختمون الحيوان ، ومن المحتمل جدا أن هؤلاء الكهنة كانوا ينتخبون من بين الحيوانات ما يصلح للمعابد وما هو صالح للذبح . ويجب أن تكون هذه الحيوانات خالية من كل مرض أو تشويه مما يدنس لحمها . ويقول « هردوت » أنه على أثر موت أى عجل « أبيس » ترسل المعابد مفتشين عند مربى الحيوانات فيفحصون كل حيوان فى حالتى وقوفه ورقاده على ظهره ثم يسحبون لسانه ويرون إذا كان سليما وخاليا من العلامات التى ذكرتها الكتب المقدسة . . . . . . فإذا لم يجدوا فى جسم الحيوان شعرة واحدة سوداء مما يجعله مقبولا فى أعين الآلهة فإن الكهنة تعلّمه بوضع حبل حول قرنيـه مصنوع من ألياف نبات البردى ويضعون عليه طينة ويختمون عليها بخاتم خاص .

تعداد الحيوان : ذكر على حجر « بلرم » الذى يرجع عهـده إلى الأسرة الخامسة أن الحيوانات كانت تحصى فى عهد الدولة القديمة كل عامين

(1) Deshasha, Tomb of Shedu, pl. 28. (2) Rosellini, Mon. Civ. t. II, pl. 42 & Wilkenson, Manners t. II, p. 84.

مرة وذلك أمام ممثلين للإدارة الملكية ، كانوا يرسلون إلى الأرياف لعد الحيوان حتى تقدر الضرائب بمقتضى ذلك ، ولكن منذ عهد الدولة الوسطى كان التعداد يعمل كل عام[1]. فكان يقدم كل فلاح الحيوانات التى فى حراسته ، وهى التى يرعاها لحساب صاحب المقبرة حيث قد رسم المنظر ؛ ، الذى يمثل ذلك آثارهم وأحسن مثال لدينا عن تعداد الحيوانات وأهميته. ، عثر عليه فى « البرشة » من عهد الدولة الوسطى فى مقبرة أحد أمراء مقاطعة «هرمو بوليس» ، وهو « تحوت حتب »[2] . وفى مناظر هذه المقبرة نجد تعداد كل أنواع الحيوان والطيور ، وحتى البيض .

أسماك النيل والبحيرات

تدل مناظر صيد الأسماك العدة التى نشاهدها على الآثار المصرية منذ أقدم العهود على أن النيل كان يحتوى على أنواع أسماك مختلفة استعملها المصرى طعاما له . وقد كان صيد الأسماك من الأشياء المحببة للمصرى منذ عصر ما قبل الأسرات ، وقد رسمت الأسماك التى كانت تصاد فى النيل بالشبكة أو بالشص بكل دقة ومهارة كل نوع بتفاصيله وخواصه ؛ وقد استعمل المصرى منذ فجر التاريخ عشرة أنواع من سمك النيل إشارات فى اللغة المصرية القديمة لكل مميزاتها ؛ ولذلك عرفنا اسم كل سمكة

---

(1) Hieratic Papiri Kahun. 1898.
(2) El Bersha, Part, I, Plates XVII — XIX.

بلغة القوم [1] وقد رسم « روزلينى » كل أنواع السمك المصرى النيلى بألوان الطبيعة وسنسرد هنا أسماءها بالعربية واللاتينية والمصرية حسب ما وصلت اليه البحوث العلمية حتى الآن .

(١) « عحا » : Lates niloticus وهذا النوع يطلق عليه اسم « لاطس » أو « القشر » أو « الفرخ » أو « حمار البحر » وأول ما عثر على رسمها فى « ميدوم » [2] وهذه السمكة يبلغ طولها أحيانا نحو ١٨٥ سنتيمتراً : وقد كانت هذه السمكة تقدس فى بلدة « لاتو بوليس » (إسنا) وكانت تحنط هى وصغارها [3]

(٢) Tilapia nilotica : وهو السمك « البلطى » أو « المشط » وله زعانف طويلة على الظهر . وأقدم رسم عثر عليه فى « ميدوم » [4] وكذلك فى مصطبة « بتاح حتب » [5] بسقارة .

(٣) « عز » Mugil cephalus : وهذا النوع يعرف فى مصر باسم « البورى » ويمكن تمييزه بزعانفه الأربعة التى تشاهد كل اثنتين على جانب . وقد رسم أولا على آثار « ميدوم » [6] ورسمت كثيرا فى كل مناظر صيد الأسماك (ويقول عنها « جاردنر » أنها البورى) .

(٤) « خا » Mormyrus Kannume Oxyrinque: وهى سمكة تعرف فى مصر باسم « قنومة » وهى طويلة ، لينة الزعانف ، صغيرة الفم لها خطم

---

(1) Montet, Bull Inst. ɪ ranc. d'Arch. 1913 t. XI p. 39. & Resellini, Mon Civ. t. II, pl. 25 : (كل أنواع سمك النيل ملونة .)

(2) Petrie, Meidum, pl. 12 & Von Bissing, Gem-ni-Kai, T. .pl. 26, fig 39. (3) Loret. La Faune Mom. p. 5 (4) Meidum, pl. 11

(5) Ptah-hotep I, pl. 9 (6) Meidum pl. 9. pl 26, fig 44-

طويل دقيق ويحكى أنها مزقت الإله « أوزير » . ونشاهدها مرسومة فى مقبرة « تى » وفى مقبرة « جمنى كاى » بسقارة .

(٥) «نعر» Clarias anguillaris : وهو المعروف فى مصر باسم « القرموط » (فى اللغة العربية) « الجرى » و « السلوّر » .

(٦) Synodontis schall. : وهو المعروف عندنا باسم « الشال » وهو سمك سلوى من أسماك النيل .

وقد عثر على رسم هذه السمكة فى مقبرة « تى » وكذلك فى مصطبة « ليدن » وأيضا فى مقبرة « جمنى كاى » بسقارة .[1]

(٧) «بوت» Schilbe mystus ذكره « الدميرى » فى باب السمك وسماه « شلبا » وصاحب « المحيط » سماه « شلبة » (معجم الحيوان صفحة ٢١٨) والظاهر أن هذا السمك كان له رسمان ، وقد وجد رسم هذه السمكة على جدران مقبرة « جمنى كاى » [2] بسقارة .

(٨) « شبت » Tedreodon. Fahaka وتسمى عند الصيادين « الفقاقة » . ويطلق عليها كذلك إسم « فهكة » ، و « فهقة » [٣] .

(٩) « بس » بنى (جردنر ٤٦٧) Barbus bynni

وقد شوهد مرسوما على جدران مقبرة « مرا » بسقارة وعلى آثار الأسرة الثانية عشرة من عهد « سنوسرت الأول » [4] .

---

(1) Gem-ni-Kai, I, pl. 26, fig 45. (2) Gem - ni - Kai, I, pl. 26, fig 48.

(٣) معجم الحيوان ص ٢٤٦ .

(4) Bull. I. Eg. t. XI p. 41 fig 3.

وكذلك توجد أنواع أخرى كانت تصاد من الماء الملح والعذب على السواء وبخاصة الفرخ Perca ويسمى « فرخ نيلى » .

وكانت هذه الأسماك التى ذكرناها يتكون منها الطعام الأساسى لسكان وادى النيل فى عهد العصر الحجرى الحديث كما تدل على ذلك بقايا المطابخ التى درسها العالم « دى مرجان » (1)

والظاهر أن السمك كان من الأطعمة الأساسية عند المصريين فى العصور التى تلت حسب قول « هردوت »(2) إذ يقول : إنه كان يوزع على العمال جراية من السمك يبلغ وزنها نحو ٩١ جراما وفى بعض الأحوال كان يحرم أكل السمك إذ كان يعد نجسا.(3) وفى تتيجة « سلييه » أو تتيجة الأسرات كان يحرم أكل السمك عامة فى أيام مخصوصة من السنة ولعلهم أرادوا بذلك إفساح المجال لإكثار السمك فى النيل لأنه فى هذا الوقت تقل الأسماك لقلة المياه . مثال ذلك فى ٢٢ تحوت (توت) : « لا تأكل السمك فى هذا اليوم إذ فيه الكفرة يصيرون سمكا فى الماء » (4) وكذلك فى ٢٨ كيهك و ٢٥ برموده وفى ٢٩ كيهك ينصح بطرد العامة

---

(1) Recherches t. I, p. 99.

وقد عثر كذلك على تعاويذ كثيرة العدد وعلى أوان فى شكل أسماك من عصر ما قبل الاسرات أنظرص. ٨٤ الجزء الاول .

Diospolis Parva, pl. 3, pl 116. Nagada & Ballas pl. 12, No. 82 pl 27, No. 68 a. b. c. pl. 48 & Hierakonpolis, t. II pl. 64, Abydos, t. II pl 39. (2) H., II 72 & Strabon XVII 812 & 72.

(3) William Radcliffe, Fishing from the Earliest times, London 1921. p 319 to 326.

فى هذا الكتاب لخص المؤلف طرق صيد الاسماك فى مصر وعند كل الامم .

(4) Calendrier Sallier, p. 1 & 2.-Chabas, Le calendrier des jours fastes et néfastes de l'année, Paris.

الذين أكلوا سمكا . أما فى المقاطعات التى تكون تحت حماية أى نوع من هذه الأسماك فإن القوم كانوا يمتنعون عن أكله فمثلا فى « إسنا » كان يحرم أكل « اللوطس » (1) الذى يقدس فى هذه الجهة.

وقد جاء فى « بلوتارك » (2) أن فى مقاطعة « القنومة » « أكسرنك البهنسا » لا يأكل القوم أى نوع من السمك وكذلك يقول متفقا (3) مع « هردوت » (4) أن الكهنة كان محرما عليهم أكل السمك الذى كان يعد لحمه نجسا ، (5) يضاف إلى ذلك أن فصل التعاويذ السرية من كتاب الموتى (6) لايمكن أن يتلوه إلا رجل طاهر مطهر لم يكن قد أكل لحما ولا سمكا . وقد كان الكهنة يحرمونه أمام بابهم فى اليوم التاسع من الشهر الأول من السنة على حين أن كل مصرى كان يأكل على عتبة بابه سمكة مشوية . (7)

وكان يجفف السمك ويحفظ وكذلك كانت البطارخ تستخرج منه كما يشاهد ذلك فى رسوم مقبرة « نب كاووحر » فى سقارة .

(1) William Radcliffe Sacred fishes. p. 327 - 332 (2) Isis & Osiris p. 18. (3) Isis & Osiris p 7. (4) H. II p. 37.
(5) La Stèle de Piankhi I, 151, & Lacau, Z. A. S. t. XI 42.
(6) Todtenbuch, Facsimilies of Papyri, 1889 pl. 26 The Chapter of Coming 1898 p. 145, 146. (7) H. II. 37

طرق الصيد وأنواعها

صيد الأسماك : كان لصيد الأسماك عند قدماء المصريين طرق عدة : وهى الصيد بالشص ، والصيد بالشبكة ، والصيد بالسلال ، والصيد بالخطاف ، والصيد بالنشالة ، وكان صيد الأسماك محببا عند القوم لدرجة كبيرة كرياضة وتسلية كما أنهم قدسوا بعض الأنواع كالأنوم والبياض والبنى لورودها ضمن أقاصيصهم الدينية المتوارثة ، وكانوا يتجنبون صيدها فى أيام انخفاض الماء فى النيل محافظة عليها ، وقد تقدموا فى حفظ الأسماك وتمليحها كما يظهر ذلك على الأخص فى مقبرة « تى » بسقارة من الأسرة الخامسة .

أدوات صيد الطيور

عصا الرماية « البومرانج » : هذه الآلة كانت تستعمل لصيد الطيور منذ عصر ما قبل التاريخ وهى تتكون من قطعة من الخشب رقيقة نوعاً ومنحنية عند ثلثها الأخير تقريبا فى شكل زاوية منفرجة ، وكانت تستعمل لصيد الطيور فى المستنقعات حيث يرى الصياد عادة واقفا على قارب من البردى وسط النباتات المائية متحفزا لرمى العصا أو لاستعمالها وهو قابض عليها لضرب الطيور القريبة منه ثم القبض عليها بعد إصابتها . وهذه الآلة تشبه آلة البومرانج التى لا تزال تستعمل فى استراليا للصيد .

شباك صيد الطيور : تتكون هذه الشباك فى مصر القديمة من الجريد أو الخشب ونسيج الكتان وحبال الليف أو قشر جريد النخيل

ا ـ الشباك السداسية الشكل التى نراها ممثلة بكثرة على جدران الآثار المصرية القديمة قريبة الشبه بالشباك التى كانت إلى عهد قريب جدا ، ولا تزال فى بعض الجهات المصرية مستعملة خصوصا فى بلدة « المطرية » « وأبو رواش » . وتتلخص طريقة استعمالها فى تثبيتها فى الأرض بأوتاد وتركها مفتوحة بوساطة مضارب من الجريد تتحرك عند أغلاقها بوساطة الحبل المعد للسحب بعد ما تدخل الطيور مغرورة بالحب الملقى فيها ، وتتحرك المضارب بعد إغلاقها ويبقى العمال يشدون الشباك حتى يلقى القبض على الطيور وتعبأ فى الأقفاص كما هو موضح على جدران المعابد والمقابر القديمة فى « سقارة وأهرام الجيزة وبنى حسن .

ب ـ صيد السمان بشبك الحقول :

الطريقة التى كانت متبعة عند قدماء المصريين لصيد السمان تتلخص فى أن يسحب الرجال شباكا مربعة تقريبا بنظام : اثنان من الأمام واثنان من الخلف وبين هؤلاء رجلان أو أكثر . والمعروف عادة أن السمان يأوى إلى الزرع ليلا فعند ما يشعر بحركة الشباك والصيادين فى أثناء سيرهم يهم طائرا فيعوقه الشبك ويسرع الرجال الأواسط إلى التقاط ما يحجزه الشبك ؛ وهذه الطريقة واضحة فى مقابر « سقارة » من عصر الدولة القديمة حوالى (٢٥٠٠ ق . م .)

فخاخ الصيد :

كان قدماء المصريين مولعين بصيد الطيور بالفخاخ المختلفة

وكانت فى جملتها تتكون من الخشب أو الجريد ونسيج الكتان أو الليف والبوص ، وأهم هـذه الفخاخ هو الفخ ذو الطارتين الذى يرى ممثلا على الأخص فى مقابر « بنى حسن » التى يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الوسطى حوالى (٢٠٠٠ ـ ق ٠ م)

ادوات صيد الحيوانات البرية

القوس والنشاب : استعمل القوس والنشاب منذ عصر ما قبل التاريخ وقد صنع من الخشب والجلد والكتان (أو الليف) . أما النشاب **فكان** يصنع من البوص أو الخشب ورأسه من الصوان ثم البرنز فيما بعـد ، وفى بعض الأحيـان كانوا يصنعونهـا من عظام الحيـوانات أو من سن الفيل إذ كانت تثبت القطعة بعد تشذيبها فى عود رفيع من البوص تربط فيه بخيط أو بقطعة من الجلد .

ولقد كان القوس والنشاب من أهم أدوات الصيد ويستعملها هواة الصيد والرماية الذين يرغبون فى أظهار مهارتهم .

فخاخ صيد الغزلان والتياتل :

تتكون هذه الفخاخ من حلقة من الجريد يخرج منها شوك النخيل من المحيط إلى المركز حيث تجتمع الأطراف المدببة وتكوّن بؤرة ويتصل بالحلقة حبل ذو عروة (خية) حول البؤرة ينتهى بقطعة من الخشب أو الجريد . وطريقة استعمالها هى أن يلقى عدد منها فى طريق الحيوانات وعند ما تطؤها بأقدامها ينزلق ظلف الحيوان فى البؤرة فتنحبس على التجويف الواقع أعلى الظلف فيضغط

الشوك على رجل الحيوان وتطبق الخية عليه ، وتعاكسه قطعة الخشب والحبل فتعوق جريه ، وفى هذه الحالة يسرع الصياد إلى القبض عليه .

الخيـة : استعمل قـدماء المصريين ضمن أدوات الصيد الحبال ذات الخية وهى تحتاج إلى مهارة فى الرمى لإحكام تطويق الحيوان بها . وهذه الطريقة كانت تستعمل غالبا فى حالة ما إذا أريد اقتنـاص الحيـوان حيا دون إصابته بضرر ما . وكان الصياد فى هذه الحالة يختبئ وراء الـكثبان أو الشجيرات ويأخذ الحيوان على غرة . وهذه الطريقة تشبه ما هو متبع الآن فى جنوب إفريقية ، والفارق بينهما أنهم فى الأخيرة يستعملون الحبال ذات الخية وهم على ظهور الخيل .

ولأجل أن نربط الماضى بالحاضر نذكر هنا على وجه الأجمال الحيوانات والطيـور التى لا تزال باقيـة فى صحـارى مصر وما جاورها من البـلدان ويصطادها غواة الصيـد والقنص حتى الآن . وسنرى أن بعض الحيـوان والطيور قد انقرض أو تقهقر إلى الشمال بسبب قلة المـرعى والجفـاف وغـير ذلك من الأسباب . .

وأهم أنواع الظباء التى لاتزال تصاد فى مصر حتى الآن هى العفر والآرام والأولى سمراء الظهر بيضاء البطن تعلوها حمرة وتعيش فى الصحراء الغربية بعيدة عن الساحل الشمالى بعشرين كيلومـترا فى الصيف وأربعين فى الشتاء . أما الرئم فهو الغزال الأبيض الذى يسميه عرب الصحراء الغربية « الآريل » ، والمعروف عنـه أنه يسكن الرمال ويوجد فقط فى منخفض القطارة الجنوبية حتى الواحات البحرية . ويرى كثيرا فى الـكثبان الرملية بين تبغبغ والعرج وفى رمال خميسة بواحـة سيوة وفى أم عشاق حتى القبقب .

والآريل أكبر من الفعر جسما وأقل منه عدوا . ويصطاد الآن العرب هذه الغزلان بالبنادق ، وكانوا من قبل يطلقون فى صيدها الكلاب والعقاب والفهود . ومنهم من كان يصطادها بإيقاد النار ليغشى بصرها فينقضون عليها . وتكثر الغزلان كذلك فى سهول البحر الأحمر بالصحراء الشرقية حيث يصيدها العبابدة والبشاريون بالشراك ويأكلون لحومها .

ويوجد فى جبال العوينات الخراف البرية المعروفة بالودّان وكذلك الماعز البرى أو البدن فى جبال سيناء والصحراء الشرقية وبخاصة فى وادى الرشراش القريب من حلوان .

أما الحمر الوحشية فتوجد فى الصحراء الشرقية الجنوبية فى منطقة جبال العلبة ويمتاز هذا النوع من الحيوان بأنه ينصّب على القطيع واحداً منها يحرسها وهى نائمة فإذا اشتم رائحة الخطر أعطى إشارة تنبىء بذلك ومن حيوانات الصحراء الشرقية الارنب البرى المسمى بالوبر ويكثر فى وادى أبرق وجبال العلبة وجنوبى سيناء وقد ورد ذكره فى التوراة وكان محرما أكله على بنى اسرائيل .

أما المها فهو معروف فى الصحراء الغربية وكان يصطاد بوساطة الخيل والكلاب .

ويوجد النمر فى الجبال العالية ويندر ظهوره لأن من طباعه الانفراد والعزلة وهو يخاف الانسان إلا إذا هاجمه ومما يذكر عنه أن يحب افتراس ، مايلقاه من غنم وغزلان ويحب لحوم الحمير ، ولذلك يصيده بها العرب فى جنوب سيناء . والفهد يعيش فى جهة تبغبغ بمنخفض القطارة وكذلك يوجد أحيانا بالصحراء الغربية بالقرب من منطقة أهرام الجيزة . وكذلك يوجد القط البرى فى كل الصحراء وبخاصة بالصحراء الغربية وفى الواحات ووديان

الواحات الشرقية . اما الثعالب فتوجد فى الصحارى المصرية كلها على ألوان شتى منهـا الأبيض والأسود وهى تعيش على الفيران الصحراوية . والذئب يوجد فى الواحات والوديان المتاخمة لوادى النيل وأحيانا تكون قريبة من المساكن .

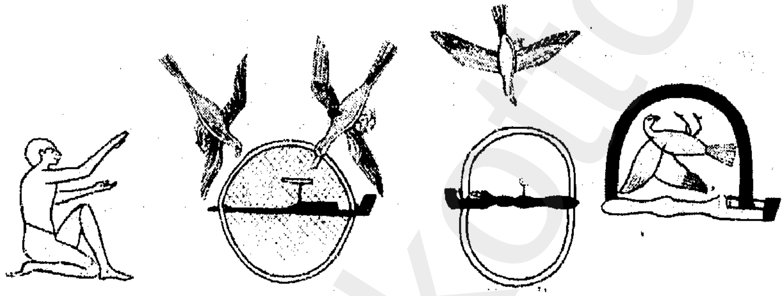
والضبع يوجد فى الصحراء الغربية ويقل فى الصحراء الشرقية ؛ ويعد الضبع عدواً لدوداً للحمير والأغنام فى الصحراء الغربية ويكمن العرب له ليرموه بالرصاص ويأكلون لحمه لاعتقادهم أنه دواء للكبد وربما كان ذلك من الأسباب التى دعت قدماء المصريين لاستئناسه .

أما الطيور التى تعيش فى الصحارى المصرية فمنها السمان. ويكثر فى الساحل الشمالى من مصر ويصاد بأنواع مختلفة من الشباك . ومن عادته أنه ينزح إلى الواحات الجنوبية والبحرية وسيوه ويصاد بنوع من الفخاخ يسمى « المردخ » .

وأما جوارح الطير فتوجد فى مصر منذ أقدم عصورها ولا تزال إلى الآن ، وأهمها العقاب والنسر والصقر ، والشاهين ؛ وكذلك يوجد الكركى والبط البري واللغلغ والحبرج ، والغرنوق ، والكروان ، والقمرى ، وأنواع من القطا والقطقاط ، والجلم ، وأبو حوام ، والهدهد ، وأبو صفير وأبو حواح وأبو قطقاط وأبو رقيص . ويوجد فى وادى النطرون الخضارى والبلبول ، والفرفور ، والشرشير ، والغر ، والكركى والعنز والبشرورش ، وأبو قردان والنسر والصقر والشاهين والباقة، والبومة والعصافير على اختلاف أنواعها.

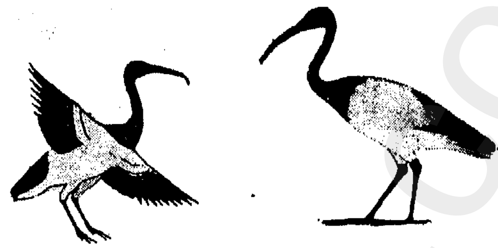
ومن المدهش أن سكان الصحارى لا يأكلون لحم الطير الحر أى الصقور لما يكنونه له فى صدورهم من الأجلال والتعظيم فنراهم يدفنونها

كما تدفن (١) موتاهم لأن الصقر فى عرفهم طير كريم حر وفىّ لصاحبه وقد يكون لهذا الاحترام علاقة بعبادة هذا الحيوان عند قدماء المصريين منذ أقدم العهود .

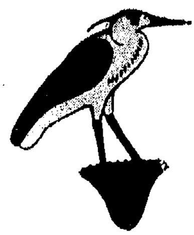


منظر يبين طريقة من طرق صيد الطيور بالفخاخ

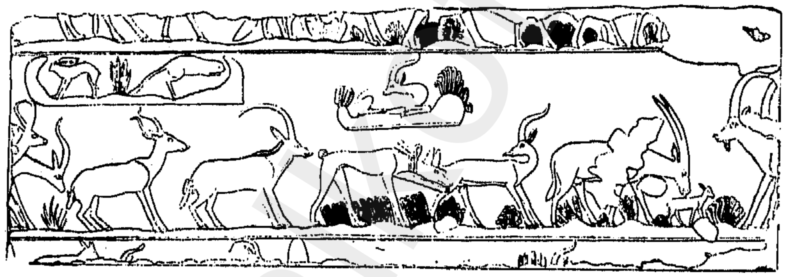
(١) عن محاضرة ألقاها حسين بك عنان فى نادى الصيد ومقال كتبه الدكتور مأمون عبد السلام فى جريدة الاهرام .



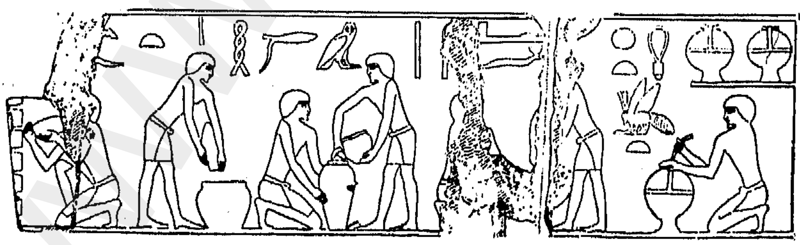
الطائر «أبو منجل»



الطائر «مالك الحزين»



منظر وجد فى سقارة منقوشاً فى طريق هرم «وناس» ويمثل مجموعة من ظباء الصيد وهى من اليمين : الوعل ، ومهاة بيسه ، وغزال آدم ، ومهاة أبو حراب ، والتيتل ، وغزال إزابل .



منظر يمثل جنى عسل النحل

أنواع الأحجار التى استعملت فى مصر قديماً

حبت الطبيعة أرض مصر أنواعا عدة من الأحجار الجميلة منها ماهو لين ومنها ماهو صلب ، مما جعل مصر منبت صناعة الأحجار واستعمالها فى كل العالم . ولا غرابة إذن ، إذا وجدنا مصر أعظم أمم العالم إتقانا وحذقا لفن البناء . وقد ضربت بسهم صائب فى هذا المضمار منذ أقدم العهود وبخاصة أنها قد توصلت إلى استعمال الآلات النحاسية لقطعها منذ عصر ما قبل التاريخ . وقد جاء على أثر ذلك استعمال الأحجار فى البناء منذ عهد الأسرة الأولى كما ذكرنا ذلك عند الكلام على الفن وسنتكلم هنا أولا عن الأحجار التى استعملها المصرى فى البناء ثم نتبع ذلك الكلام عن الأحجار التى استعملها لصنع الأوانى ، والتماثيل والأثاث . ثم نفرد فصلا خاصا للأحجار التى كان يعدها المصرى ثمينة ، أو شبه ثمينة وهى التى لايعد بعضها فى نظرنا اليوم كذلك .

وأهم أحجار البناء مايأتى : —

الحجر الجيرى الأبيض ، ويكثر وجوده فى التلال التى تحف وادى النيل من القاهرة إلى ما بعد مدينة إسنا بقليل ، وكذلك يوجد فى نقط مختلفة مابين إسنا وقرب أسوان . فمثلا يوجد على شاطىء النهر فى « فرس » بجوار السلسلة ، وبالقرب من كوم امبو . أما فى الوجه البحرى فيوجد بالقرب من الاسكندرية عند المكس وفى جوار السويس وقد ظل المصريون يستعملون هذا النوع من الحجر ، حتى منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة ، إذ أخذ وقتئذ يحل محله بكثرة الحجر الرملى ، غير أن

استعماله لم يهمل دفعة واحدة ، إذ استعمله « سيتى الأول » فى بناء معظم معبده بالعرابـة المدفونة ، وفى بعض أجزاء معبد « رعمسيس الثانى » فى هذه البقعة أيضا ، يضـاف إلى ذلك أن بعض المقـابر من كل العصور كانت تنحت فى صخور هذا الحجر ، كما يشاهد ذلك فى الجيزة ؛ وسقـارة وطيبة ، وغيرها .

وأحسن أنواع هذا الحجر كانت لها محاجر خاصة تقطع منها كمحاجر طرة والمعصرة [1] ؛ والجبلين ؛ وهى التى يمكن مشاهدة آثارها القديمة إلى يومنا هذا . وقد عثر فى محاجر طرة على نقوش يرجع عهدها إلى الأسرة الثانيـة عشرة وتمتد إلى الأسرة الثلاثين [2] . غير أنه لدينا وثائق ونقوش ، تدل على أن قطع الأحجار من طرة يرجع عهده إلى الأسرة الرابعة [3] ، ولـكن مما لا شك فيه ، أن أحجار هذه الجهة كانت تستعمل فى بناء آثار سقارة منذ الأسرة الثالثة ، بل ومن المؤكد منذ الأسرة الأولى ، إذ وجدت بعض أحجار من طرة داخلة فى مبانى هذه الفترة .

أما محاجر المعصرة ، فالنقوش التى عليها ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة [4]

(1) Br. A. R. V, pp. 101, 154. & pp. 87, 73, 78.

(2) op. Cit 1, 7 39, & II p. 799, 875, & Flinders Petrie, A History of Egypt, t. I, (1923) p. 192, & II (1924) p 36 & III (1918) pp 166, 375, 385. & S. Birch, Tables found in the Quaries at Turah. & H. Vyse, Maasara in the pyramid of Giza III pp 93-103, & G. Daressy, Inscriptions des Carrières de Tourah et Maasarah dans Annales du Serv. XI (1911) pp. 257-68.). & Spiegelberg Dic. Demotischen Inschriften der steinbruche Von Tourah & Maasara dans Annal. du Serv. VI (1905) p. 219-33.).

(3) Br. A. R. II p. 26. (4) Flinders Pretrie, op. cit, III p. 375

حتى عصر البطالسة . وفى محاجر الجبلين نجد نقوشا من الأسرة التاسعة عشرة حتى العصر الرومانى .

وهناك محاجر أخرى عليها نقوش فرعونية ، فنجد فى البرشا مثلا محجرا عليه خرطوش من عهد الأسرة الثلاثين [1] ، و بالقرب من العرابة عثر على محاجر قديمة ، وفى قاو الكبير [2] توجد محاجر عليها نقوش ديموطيقية وفى بنى حسن توجد محاجر تمتد أكثر من ثلاثة أميال على حافة التلال .

وقد كسيت أهرام الجيزة بأحجار من طرة . أما البناء الأصلى فكما ذكرنا قد قطعت أحجاره من محاجر محلية ، عثر عليها حديثا حول الأهرام نفسها أما قول الأستاذ « بترى » بأن أحجار الهرم قطعت من طرة فلا صحة له [3] . كما أثبتنا ذلك فيما سبق . وربما كان لكتاب الأغريق والرومان العذر فى قولهم أن أحجار الأهرام قطعت من طرة ، وذلك لأن الأهرام فى عصرهم كانت لاتزال مكسوة بأحجار طرة ، ولذلك حكموا بأن كل الأهرام قد بنيت من هذا الحجر .

والظاهر أن أحجار طرة كانت أجود أصناف الأحجار الجيرية ، ولذلك لا يبعد أن يكون الملوك قد استعملوها فى بناء معابدهم ، حتى بعد نقل العاصمة إلى طيبة التى لم يكن بجوارها صنف ممتاز لبناء معبد كمعبد « امنحتب الأول » الذى تشبه أحجاره كثيرا أحجار طرة .

على أن الحجر الجيرى لم يقتصر استعماله على البناء فحسب بل كان

---

(1) Fraser, in E. Newberry El Bersheh, P. II p. 56. (2) Somers Clarke & Engelbach, Ancient masonary, p. 15. (3) Flinders Petrie, The pyramids & temples of Giza, p. 209.

يستعمل فى أغراض أخرى كنحت التماثيـل ، وذلك لسهولة العمل فيه .
وقد تجلى فن إتقان التمـاثيل فى هذا النوع من الحجر فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة فى الجيزة وسقارة ، وكذلك كانت تصنع منه الأبواب الوهمية وموائد القربان ، وغير ذلك من الأثاث المأتمى .

الحجر الرملى : وهو مركب من كوارتس رمل ناتج من تحلل صخور قديمة ومتماسك بعضه مع بعض بكميات قليلة من الطين والجير والحديد ، وتتألف منه التـلال الممتدة من إسنـا على حافتى النيل حتى أسوان ، ثم من « كلبشا » إلى وادى حلفا . على أن المصريين لم يستعملوا الحجر الرملى مادة للبناء إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة . ولـكن رغم ذلك وجدت منه بعض كتل مستعملة فى المبـانى يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات ، وكذلك استعمل فى عهد الأسرة الحادية عشرة فى الأساس ، وفى رصف الأرضية وفى العمد ، وفى أحجار السقف ، وفى حجرة العمد فى معبد « منتوحتب » فى الدير البحرى .

على أن انتشار استعمال هـذا الحجر لم يبدأ إلا فى منتصف الأسرة الثامنـة عشرة إذ الواقع أن بناء معظم معابد الملوك منذ هذه الفترة حتى العصر الرومانى كان من هـذا الحجر ؛ وأهم هـذه المعابد ما يأتى : معبد الأقصر ، والـكرنك والقرنة ، والرمسيوم ، ومدينة هابو ، ودير المدينـة ، ودندرة ، و إسنا ، وأدفو ، وكوم امبو ؛ والفيلة ، وكذلك المعابد التى فى بلاد النوبة مابين أسوان ووادى حلفا ، يضاف إلى ذلك معابد الواحات الواقعة فى الصحراء الغربيـة . على أن هناك معابد قد بنى بعضها بالحجر الجيرى الأبيض و بعضها بالحجر الرملى ، ونخص بالذكر منهـا معبد « تحوتمس الرابع »

ومعبد « منفتاح » أما معبد « حتشبسوت » بالدير البحري فقد بنى كله بالحجر الجيرى الأبيض.

وأهم محجر رملى يقع عند السلسلة على النيل على مسافة ٤٠ كيلو مترا شمالى أسوان بين أدفو ، وكوم امبو ، و يوجد عليه نقوش منذ الأسرة الثامنة عشرة حتى العصر الرومانى (1) ، وكذلك توجد محاجر سراج على مسافة ٢٠ ميلا جنوبى اسوان ؛ وفى بلاد النوبة فى قرطاس على بعد ٣٥ ميلا جنوبى أسوان أيضا ، وهذه المحاجر الأخيرة كانت مستعملة حوالى الأسرة الثلاثين حتى العصر الرومانى ، وبخاصة لقطع الأحجار التى بنى بها معبد قرطاس ، ومعبد الفيلة (2) . أما الأحجار التى بنيت بها معابد بلاد النوبة فكانت تقطع من محاجر بالقرب من تلك المعابد نفسها ، كما يشاهد ذلك فى المحاجر الصغيرة القريبة من دابور ، وتافا ، و بيت الوالى .

حجر الجرانيت : تطلق لفظة جرانيت على فصيلة كبيرة من الأحجار المتبلورة البركانية الأصل ، وهى ليست منسجمة فى تركيبها كالحجر الجيرى ، أو الحجر الرملى بل فى الواقع تتركب من عدة عناصر مختلفة أهمها الكوارتس والفلسبار ، والميكا ، غير أن السليكون هو المادة السائدة فى تكوين هذا الحجر.

وقد استعمل الجرانيت مادة للبناء ، منذ بداية عصر الأسرات ، وقد

(1) Weigall, A guide to the Antiq. of Upper Egypt, 1913 p. 358-360., & Br. A. R. II, 348, 932, ; III, 205, 552, 627. ; IV, 18, 702. & Flinders Petrie, A Hist of Eg. III, 1918 pp 8, 119, 143, 144.

(2) Borchardt, Travels in Nubia, pp 113-116 & Weigall., op. cit. pp. 496-497.

ذكرنا فيما سبق استعماله فى البناء ، وفى كسوة الهرم الثالث وفى بناء معبد الهرم الثانى لخفرع ، وفى داخل الأهرام . والجرانيت الذى كان يستعمل فى أقدم العهود ، هو الجرانيت المحبب المستخرج من أسوان وكان الجرانيت الرمادى يستعمل كذلك ، ولكن بقلة .

ولا نزاع فى أن الجرانيت السيينى التى ذكره « بلينى » نسبة إلى قطعه من« سيينى » [1] (أى أسوان) هو الحجر الجرانيتى الأحمر . غير أن لفظة « سيينى » الآن تستعمل للدلالة على الصخور الجرانيتيـة ذات اللون الرمادى القاتم .

ويوجد الجرانيت منتشراً فى أماكن عدة فى جهات القطر ، ولكنه يكثر فى أسوان، وفى الصحراء الشرقية ، وفى سيناء ، وبكميات قليلة فى الصحراء الغربية .

وأهم محاجره فى أسوان اثنان أحدهما على مسافة كيلو مترجنوبى المدينة والثانى يقع على الجانب الشرقى من الهضبة . على أنه توجد محاجر صغيرة فى جزيرتى الفنتين وسهيل ، وكذلك فى أماكن أخرى قليلة ، وقد ذكرت محاجر أسوان والفنتين والمحاجر التى عند الشلال الأول فى الوثائق القديمة منذ الأسرة السادسة [2] ، يضاف إلى ذلك محجر فى مكان يدعى « إبهت » لم يعين مكانه بالضبط بعد ، غير أنه من المحقق أنه يوجد بجوار الفنتين .

ولا نعرف محاجر للجرانيت استغلها قدماء المصريين خلافا لمحاجر أسوان وماجاورها ، إلا محجر الجرانيت الأحمر فى وادى الفواخير [3] ، وهو

(1) Pliny. XXXVI p. 17. (2) Breasted, op cit. 1, 42, & I, 322, 324, 321. (3) Barron & Hume, The Topog. & Geol of the Eastern Desert of Egypt, Central Portion, pp. 49, 118, 119, 265.

جزء من وادى حمامات بين قنا والقصير . ولا نعرف تاريخ بداية العمل فيه ولكن من المحتمل أنه فتح فى عهد الرومان .

وقد كان الجرانيت يستعمل بقلة منذ عهد ماقبل الأسرات لأغراض أخرى غير البناء ، وبخاصة فى صنع الأوانى [1] ، والأطباق ؛ وفى بداية عصر الأسرات كثر استعماله ، وذلك لكثرة استعمال الآلات النحاسية . وكان كذلك يستعمل لعمل التوابيت ثم لنحت التماثيل والمسلات ، واللوحات ، وأشياء أخرى .

حجر المرمر : يعرف اسم المرمر عادة بكلسيوم السلفات (الجبس) . ولكن المرمر المصرى يختلف عنه تماما إذ يتركب من كربونات الكلسيوم . والمرمر المصرى هو حجر مكون من كربونات الكلسيوم المتبلور . المضغوط ، ويكون لونه أبيض ، أو أبيض مائلا إلى الصفرة وقطاعاته الرقيقة تكون شفافة بعض الشيء ذات عروق فى غالب الأحيان ، وقد كان المرمر يستعمل فى رصف الممرات وكسوة الحجر ، وفى عمل المحاريب ، وبدىء استعماله منذ الأسرات الأولى إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة ؛ فمثلا استعمل فى حجرة فى هرم سقارة المدرج [2] (الأسرة الثالثة) وفى حجرة فى معبد الوادى للملك « خفرع » ، وفى هرم « وناس » بسقارة (الأسرة الخامسة) . وكذلك فى عهد ملوك الأسرة السادسة [3] فى رصف الجزء الأوسط من معبد هرم « تيتى » وفى الأسرة الثانية

(1) Lucas, Egyptian predynastic, stone vessels. in J. E. A. t, XVI 1930 p. 202. (2) Firth, Annales du Ser. t. XXV, 1925 pp. 153-154. (3) Quibell, Excav. at Saqqara. 1907-8 p. 19.

عشرة في محراب معبد الملك « سنوسرت الأول » (1) في الكرنك الخ .

ويوجد المرمر في سينا ، وفي أماكن أخرى مختلفة في الصحراء على الشاطئ الشرقي للنيل . فنجد منه محاجر في وادي جراوي القرب من حلوان يرجع عهدها إلى الدولة القديمة(2) ، وفي الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفي مغاغة ، حيث قطعت منه الأحجار في عهد محمد علي(3) وفي الأقليم الواقع مابين المنيا وجنوبي أسيوط ، وفي هذا الأقليم تقع أهم المحاجر القديمة لهذا الحجر ، وأهمها محجر «حتنوب» الواقع على بعد ١٥ ميلا شرقي العمارنة ، وفيه نقوش يرجع عهدها إلى الأسرة الثالثة ، حتى الأسرة العشرين (4) وهناك محجر آخر في الجنوب واقع في وادي أسيوط استعمل في أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، ثم استعمل ثانية في عهد محمد علي وقد ذكره الكتاب الأغريق منذ القرن الرابع قبل الميلاد .

والواقع أن هذا النوع من الحجر كان محببا لدى المصريين القدماء وذلك لأنه كان جميل المنظر بعد الصقل هذا إلى أنه كان لينا يسهل العمل فيه . وفوق استعماله للبناء فإنه كان يتخذ لأغراض أخرى فقد عثر على أدوات منه في عهد ماقبل الأسرات (5) إلى أواخر العهد الفرعوني وما بعده ؛ فكانت تصنع منه الأواني العدة ، ورءوس الدبابيس الجميلة الأشكال

---

(1) Chevrier, Annal. S. A. XXVIII p. 120. (2) Flinders Petrie, & Mackay. Heliopolis, Kafr Ammar & Shurafa pp. 39-40.

(3) Dr, Hassan Sadek Bey. Controller, Mines & Quarries Dep. Egypt & Hume, Notes to the Geological Map. of Eg. p 46.

(4) Breasted, op. cit. I, 7, 305 690. & Fraser. Hatnub. in proc. Bib Arch. XVI (1893-4) p. 73-82. (5) Lucas, Egyptian predynastic stone vessels in, J. E. A. XVI p. 201.

وتنحت منه التوابيت منذ عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كتابوت الملكة « حتب حرس » وتابوت الفرعون « سيتى الأول » ؛ يضاف إلى ذلك أن الأوانى التى كانت توضع فيها أحشاء المتوفى وموائد القربان ، والأطباق والجرار ، والتماثيل كانت تصنع منه أحيانا ، وبخاصة فى عصر الدولة القديمة إذ وجدت كميات ضخمة من الأوانى فى هرم « زوسر » مصنوعة من هذا الحجر .

حجر البازلت : هذا الحجر لونه أسود ثقيل الوزن متماسك الذرات تظهر حباته فى أغلب الأحيان بريقا ، وهو على نوعين ، النوع الأول حباته دقيقة جدا لايمكن تمييزها إلا بآلة الميكروسكوب وهو البازلت الحقيقى أما النوع الثانى فيمكن تمييز حباته بالعين العادية ، وهو مايسمى « الديوريت » ، ونوع البازلت الذى يستعمل فى مصر هو فى الواقع ديوريت ذو حبات دقيقة ، وكان يستعمل فى عهد الدولة القديمة لرصف بعض أجزاء من المعابد كما يشاهد ذلك فى رقعة هرم «خوفو » التى لايزال جزء منها باقيا إلى الآن ؛ ومن هذا الحجر كذلك رصفت بعض أجزاء من معابد ملوك الأسرة الخامسة فى سقارة كالردهات والطرق الجنازية ، وبعض الحجرات وكذلك بعض أجزاء معابد الشمس فى «أبو صير» الواقعة بين الجيزة وسقارة (1) .

ويوجد حجر البازلت فى جهات عدة من القطر كمحاجر «أبو زعبل» والمحاجر الواقعة فى الشمال الغربى من أهرام الجيزة فى منطقة أبو رواش وفى الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفى الفيوم ، وعلى مسافة قريبة من الجنوب الشرقى من

(1) Firth, Annal du Serv. XXIX p. 65, 68.

سمالوط ، وفى أسوان ، وفى واحة البحرية ، وفى الصحراء الشرقية وسيناء [1]

والظاهر أن البازلت الذى كان يستعمل فى عهد الدولة القديمة فى الجبانة الممتدة من الجيزة إلى سقارة قد جلب من الفيوم . إذ ليس هناك أى دليل على أن البازلت الذى كان يستعمل فى هده الجبانة قد جلب من « أبو زعبل » ، وبخاصة إذا علمنا أن نوع البازلت الذى استعمل فيها يقرب من النوع الذى فى الفيوم ؛ وقد ذكر الدكتور حسن بك صادق فى خطاب له سنة ١٩٣٣ بأنه ليس هناك أدلة على أن محاجر بازلت أبو رواش قد استعملت قديما ، هذا رغم أن نوع البازلت الذى فيها من صنف ردىء متحلل .

وقبل أن يستعمل حجر البازلت فى البناء كان يستعمل رغم صلابته فى عمل الأوانى التى يرجع بعضها إلى العصر الحجرى الحديث ، وعصر البدارى وعصر ما قبل الأسرات . يضاف إلى ذلك أنه عثر على رءوس بلطات منه من العصر الحجرى الحديث ، وقد استعمل البازلت أحيانا فى عمل التوابيت ، ومن المحتمل أن تابوت الملك « منكاورع » الذى غرق فى البحر كان من هذا الحجر ، غير أن هناك عدة توابيت ظن أنها من البازلت ؛ ولكنها فى الواقع من الشيست الرمادى الأزرق الخفيف [2] .

وكان البازلت يستعمل كذلك فى عمل التماثيل ، والناس أحيانا يخلطون بين الجرانيت الرمادى ، والجرانيت الأسود ، والشيست ، وبين البازلت . ومن أجل ذلك كانت تعرف أشياء بأنها بازلت ، والواقع أنها ليست ببازلت .

---

(1) Lucas, in J. E. A. t. XVI p. 202
(2) Lucas, Ancient Egyptian materials & Industries p. 357.

حجر الكوارتسيت : وهو أحد أنواع الحجر الرملى المتماسك الحبات وقد تكون من الحجر الرملى العادى متماسك بالسليكا المتداخلة باختلاط كوارتس متبلور بين حبات الرمل ، وتختلف ألوانه ونسجه فيكون أبيض أو مائلا إلى الصفرة أو أحمر كما وتكون حباته دقيقة أو غليظة ، ويوجد فى الجبل الاحمر [1] القريب من القاهرة ، وفى الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفى مغارة على طريق بير حمام [2] وفى منخفض وادى النطرون وكذلك على قمم تلال الأحجار الرملية فى النوبة فى شرق النيل [3] حتى شمال أسوان ، وفى سيناء [4].

ولم يستعمل فى المبانى بكثرة ، ومعظم ما نعرفه أنه صنع منه بعض أعتاب أبواب لهرم الملك « تيتى » فى سقارة وفى كسوة حجرة الدفن فى هرم هوارة . (الأسرة الثانية عشرة) . وكذلك فى الهرم الشمالى والهرم الجنوبى فى مزغونة (الأسرة الثانية عشرة) . ومحاجر الجبل الأحمر لا تزال مستعملة وقد كان على صخورها نقوش ، ولكنها اختفت الآن ، وهذا المحجر والأحجار التى كانت تقطع منه قد جاء ذكرها مرات عدة فى الوثائق القديمة [5] .

وكان يستعمل هذا النوع من الحجر خلافا للمبانى فى عمل التوابيت والتماثيل كالتابوت الذى فى هرم هوارة من (الأسرة الثانيه عشرة) ، وتابوت « تحوتمس الثالث » ، و « حتشبسوت » ، و « توت عنخ آمون »

---

(1) Barron, Topog. & Geol. of district between Cairo & Suez p. 56.
(2) op. cit. p. 61, 62, 103, 104. (3) Lucas op. cit. p. 61.
(4) Barron. Topog. & Geol of Peninsula of Sinaï. Western portion, pp. 163, 199. (5) Breasted, op. cit. V p. 78, 130.

وكلها من الأسرة الثامنة عشرة ، وكرأس الملك « ددف رع » من الأسرة الرابعة ، وتمثال الملك « سنوسرت الثالث » من الأسرة الثانية عشرة ، و « تحوتمس الرابع » ، و « سنموت » (الأسرة ١٨) وتمثال الإله « فتاح » (الأسرة ١٩) . وهناك شك فى أن تمثالى « ممنون » (امنحوتب الثالث) مصنوعان من هذا النوع من الحجر .

الاحجار التى استعملها المصرى فى غير البناء

وهناك أحجار أخرى استعملها المصرى غير ما ذكرنا فى صنع التوابيت والتماثيل ، والأشياء الصغيرة كالكئوس والأوانى ، والآلات والأسلحة . وأقدم شىء بقى لنا فى مصر إلى الآن هو ما صنع من حجر الظران .

والواقع أن أنواع الأحجار التى استعملت فى مصر وتمييز بعضها عن بعض من أعقد الأشياء التى تعترض عالم الآثار فى بحوثه ؛ وسنكتفى هنا بذكر هذه الأحجار واستعمالها على أبسط وجه ، غير متدخلين فى التفاصيل الفنية .

حجر البرشيا : هو حجر مركب من قطع ذات زوايا حادة ، وتوجد منه أنواع مختلفة فى مصر فمنها الأحمر المائل إلى البياض ، والنوع الأخضر وهو صخر مختلط بأم من مادة أخرى ، أما البرشيا الحمراء والبيضاء فتتألف من قطع بيضاء مختلطة بأم حمراء ويوجد بكثرة على الشاطىء الغربى للنيل فى مواطن عدة . فيوجد فى شمال المنيا ، وبالقرب من أسيوط [1] ،

(1) Hume, Explan. notes to Geol. Map. of Egypt. p. 46.

وفى طيبة ، وبالقرب من أسنا ، وكذلك فى الصحراء الشرقية [1] ، وهذا الحجر كان يستعمل على وجه خاص فى عهد الأسرات الأولى فى صناعة الأوانى [2] ، ثم اختفى بعد ذلك حتى العهد الرومانى إذ كان يصدر وقتئذ إلى إيطاليا.

أما البرشيا الخضراء فتحتوى على قطع من صخور ذات أوصاف مختلفة جدا مدفونة فى أم مختلفة اللون . واللون الأخضر هو السائد غير أنه ليس بالبرشيا الأصلية .

وتوجد البرشيا الخضراء فى مواطن عدة ، وأحسن المعروف منها فى وادى حمامات ، غير أن هذا المكان لم يستعمل إلا فى العصور المتأخرة وتوجد البرشيا كذلك عند فم وادى دبك ، وفى المنطقة الواقعة غربى جبل دارا ، وجبل منفول ؛ فى سلسلة العرف ، وفى جبل حمادة [3] . وكل هذه الأماكن واقعة فى الصحراء الشرقية ، وكذلك يوجد فى سيناء [4] .

حجر الديوريت ، أو حجر جبل النار : ويطلق على فصيلة من الحجر المتبلور ذى الحبوب ، ويتألف من الفلسبار الأبيض والهرنبلند الأسود وتكون حباته دقيقة أو غليظة ؛ ويوجد فى مصر بكثرة فى مواطن عدة وبخاصة فى أسوان وفى الصحراء الشرقية والغربية وفى سيناء [5] ، ويرجع استعمال الديوريت إلى العصر الحجرى الحديث . إذ عثر منه على قطع

---

(1) Barron. & Hume, The Topog. & Geol. of the Eastern Desert. of Eg. Cent. Portion, p. 171. (2) Lucas. J. E. A. t. XVI p. 201.
(3) Ball. The Geog. & Geol. of South-Eastern Egypt, p. 351.
(4) Hume, Explan. notes to Geol. Map. of Eg. p. 49.
(5) Lucas, op. cit. p. 202.

من لوحات وعلى رأس بلطة [1] والديوريت الذى كان مستعملا فى مصر قديما على أنواع عدة مختلفة. ؛ فواحد منها حباته غليظة ، ولونه أسود أبيض ، وكان يستعمل فى عصر ما قبل الأسرات ، وفى الأسرات الأولى لعمل رءوس الدبابيس والكئوس والأوانى [2] ، وأحيانا لعمل اللوحات الصغيرة . وهذا النوع الخاص كان يجلب من أسوان ، وكذلك كان يجلب نوع مشابه لذلك من الصحراء الشرقية من التلال الواقعة بين قنا والقصير فى وادى سمنة . وقد استغل الأخير فى العهد الرومانى ، وهناك نوع آخر سماه علماء الآثار ديوريت ، وهو الذى نحت منه تمثال الملك « خفرع » المشهور بالمتحف المصرى ، وقد استعمل هذا النوع فى عهد الدولة القديمة ، وهو ذو بقع بيضاء وسوداء ، ويختلف كثيرا فى ظاهره حتى فى القطعة الواحدة ، ولكن فى معظم الأحيان يكون رماديا قاتما ، أو رماديا فاتحا ، أو أبيض معرقا بالأسود والنوع الأخير كان يستمل كثيرا فى صناعة الأوانى والكئوس . أما الأنواع الأخرى فكانت تستعمل فى عمل التماثيل وبخاصة فى عهد الأسرة الرابعة .

وقد عثر حديثا على المكان الذى كان يستخرج منه هذا النوع من الحجر في الصحراء الغربية على مسافة ٤٠ ميلا فى الشمال الغربى من أبو سنبل بلاد النوبة . [3]

وهناك نوع آخر من الديوريت البروفيرى ، يتركب من أم لونها

---

(1) Caton-Thompson, Journal Royal Anthrop. Inst. LVI pp. 313 pl. XXXV, 3 (2) Lucas op. cit. p. 202. (3) Ann. S. A. t. XXXIII p.p. 65-74.

أسود فيه بلورات كاملة التكوين كبيرة فى وسط أم سوداء فيهـا قطـع بيضاء ناصعة

حجر الديوريت : وهو نوع من البازلت الخشن ، وليس بينهما فوارق محدودة ؛ ويوجد فى الصحراء الشرقية بالقرب من القصير [1] ، وبالقرب من جبل الدخان وفى سيناء . ومن أهم استعماله صنع المدقات التى كانت تستعمل فى صناعة الأحجار الصلبة ، ويمكن رؤية كرات كبيرة منه ملقاة فى محاجر الجرانيت القديمة فى أسوان ، وفى محاجر الكوارتسيت بالجبل الأحمر القريبـة من القاهرة . وقد بقيت هذه الآلات منذ عهد قدماء المصريين دليلا قاطعا على استعمالها آلات صالحة لصناعة هذه الأحجار .

حجر الدولميت : (Dolomite) وهو كما عرفه « فلندرز بترى » حجر صلب غير شفاف لونه أبيض يتخلله عروق تكون أحيانا ناصعـة البياض ، ولكن فى معظم الأحيان تكون رمادية ، وأحيانا تكون سوداء ويقول الكيمائى « لوكاس » أن كل الأنواع التى فحصها بيضاء يتخللها عروق أو بقع رمادية قاتمة ، ويوجد فى الصحراء الشرقية فى عدة أماكن ؛ وكان يستعمل فى عصور الأسرات الأولى لعمـل الكئوس والأوانى ؛ ثم أستعمل فيما بعد فى أشياء أخرى وقد ذكر « بترى » أنه عثر على أربعة وأربعين [2] إناء ممـا يسميه هـو بالمرمر الدولميتى من عهـد الأسرة الأولى .

---

(1) Barron & Hume, op. cit. p.p. 52, 263.

(2) Flinders Petrie, The Royal Tombs of the Easliest Dynasties II, p. 41, pls. IX (2-10) LI (c, d, e). & Flinders Petrie, Abydos I p. 7; pl. IX (5, 6, 7, 10).

حجر الظران أو الصوان : وهو أول حجر استعمل فى مصر وفى باقى أمم العالم قبل معرفة النحاس . وقد صنع إنسان العصر الحجرى أسلحته وأدواته من هذا الحجر حتى بعد كشف النحاس ، ولكن بكميات قليلة ، وقد استمر استعماله فى عمل أدوات الزينة التى كانت لمجرد اتباع التقاليد المحضة ؛ ويشتمل الظران على نوع متماسك جدا من السليكا وهو رمادى قاتم؛ أو أسود اللون ، وينكسر على شكل شظايا ؛ ويكون حده قاطعا ، ويوجد بكثرة فى أماكن مختلفة فى مصر على هيئة عقد صغيرة وطبقات فى صخور الحجر الجيرى وكذلك يوجد مبعثرا على سطح الصحراء ، وذلك بعد أن تخلص من الصخور الجيرية بفعل التعرية .

الجبس : هو المادة التى كان يستعملها قدماء المصريين بدلا من الجير لبياض الجدران حتى عرف استعمال الجير فى عهد البطالسة ؛ وهو مادة طبيعية تختلف كثيرا فى اللون والتركيب ، فقد يكون لونها أبيض أو رماديا متنوع الألوان ، أو أسمر خفيف السمرة وأحيانا يكون ورديا خفيفا وهو يوجد فى الطبيعة على شكل قطع بلورية مبعثرة غير صالحة للحفر عليها كما يوجد على هيئة صخور متماسكة التركيب . كالتى توجد فى منطقة مريوط غربى الأسكندرية ، وبين الإسماعيلية والسويس ، وفى الفيوم كما توجد بكثرة زائدة قرب ساحل البحر الأحمر .

ويشبه الجبس فى شكله المرمر ، ولذلك يسمى أحيانا مرمرا . وفضلا عن استعماله ملاطا فإنه كان يستعمل بقلة فى مصر القديمة فى عمل الأوانى والأطباق ، كما أشارت إلى ذلك « مس كيتن تومسن »

فى عهد الأسرة الثالثة [1] ، وكذلك عثر الأستاذ بترى على أوان عدة من عهد الأسرتين الثانية والثالثة من مصنع الفيوم وكذلك عثر على أشياء من محتويات قبر « توت عنخ آمون » مصنوعة من هذه المادة ، وعثر بترى على طبق من [2] عصر ما قبل التاريخ من الجبس.

ويمتاز الجبس عن المرمر بأنه أكثر نعومة ، ويمكن التأثير فيه بالظفر فى حين أن المرمر لايمكن التأثير فيه بأى شىء أقل متانة من الصلب .

الأبسديان Obsidian وهو حجر السبج أو حجر البحيرة : وهومادة زجاجية الشكل (الزجاج الأسود) وعند ما تكسر تكون قطعها غير منتظمة كالزجاج ، وهوفى الواقع زجاج طبيعى بركانى الأصل لونه فى العادة أسود ، ولكن قد يكون أسمر قاتما ، أو رماديا قاتما ، أو أخضر داكنا ، وعند ما يكسر على شكل قطع يكون شفافا بعض الشىء ، و إلى الآن لم يوجد طبيعيا فى مصر ، ولكنه يوجد فى بلاد العرب والحبشة [3] فى الوديان ، وفى شبه جزيرة عدن وفى أماكن أخرى فى بلاد العرب [4] ، وفى أرمينيا ، وفى جهات مختلفة من جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان يستعمل بقلة منذ عصر ماقبل الأسرات آلات وأسلحة مثل رءوس الحراب ، ثم استعمل تعاويذ وجعارين وأوانى صغيرة وأعينا للتماثيل . ومن أهم الأمثلة التى بين أيدينا رأس « أمنمحيت الثالث » (الأسرة الثانية عشرة) [5] إلخ

---

(1) G. Caton Thompson, Recent. Excav. in the Fayum in Man. XXVIII p. 80. (2) Petrie, Prehist. Eg. p. 36. (3) H. Salt., A voyage into Abyssinia p.p. 190-194 (4) R. F. Burton, The Land of Midian I, p. 282 (5) J. E. A. IV (1917) p.p. 71-73

وقد فحص موضوع مصدر الأبسديان فقال أحد علماء الآثار **إنه يجلب** إلى مصر من أرمينيا (1) . ولكن المرجح أنه كان يجلب إليها من **الحبشة** وبلاد العرب لقربهما .

الصخر البورفيرى : ولفظة بورفير معناها فى الأصل أرجوانى وكان يطلق فى الأصل على نوع من الصخر له هذا اللون (البورفير الأمبراطورى) . ولكن اسم بورفير فى الجيولوجيا يطلق على أى صخر بركانى فيه بلورات ظاهرة منتشرة فى أجزائه فى أم من مادة منسجمة اللون . والصخور البورفيرية تختلف كثيرا من حيث طبيعة بلوراتها الظاهرة وحجمها ، وكذلك فى لونها ؛ ويوجد منتشرا فى أنحاء القطر بالقرب من أسوان وفى الصحراء الشرقية (2) وفى سيناء .

وكان يستعمل البورفير فى عصر ما قبل الأسرات ، وفى عهد الأسرات الأولى لصنع الأوانى ، وكان اللون المختار لذلك هو الأسود والأبيض أى بلورات بيضاء فى أم سوداء . وليست لدينا معلومات تنبئنا عن المصدر الذى كان يأخذ منه قدماء المصريين ما يلزم لهم من هذا الحجر ، وكل ما يمكن الإشارة إليه فى هذا الصدد أن الدكتور «هيوم» يقول إن صخورا من هذا الحجر تشبه التى صنع منها المصريون أوانيهم توجد فى الصحراء الشرقية .

وأحسن نوع من الصخر البورفيرى قطع فى الأزمان القديمة هو بلا شك البورفير ذو الحبات الدقيقة الأرجوانى اللون الذى يطلق عليه عادة

---

(1) G. A. Wainwright, Obsedian in ancient Egypt, 1927. p.p. 77-93. (2) Lucas, J. E. A. XVI p. 202.

البورفير الأمــبراطورى ، وهو الذى كان يستخرجه الرومان ويستعملونه بكثرة فى إيطاليـا أحجاراً للزينة ، وهـذا النـوع من الحجر يوجد فى ثلاثة أماكن فى الصحراء الشرقية ، وهى جبل الدخان ، وجبل عش [1] وبالقرب من ساحل البحر الأحمر عند العرف بالقرب من وادى ديب . وقد كان الرومان يأخذون ما يحتاجون إليه من هذا الحجر من جبل الدخان [2].

وليس لدينا ما يثبت أن المصريين كانوا يستعملون البورفير الأمبراطورى إلا قطعة من كأس قيثارى الشكل ، وجـدت فى بلاص فى مصر العليا ، وربما يرجع عهدها إلى الدولة القديمة . وهـذا لا يعنى أن المصريين كانوا يستعملون هذه المحاجر فى عصور تاريخهم القديم .

حجر الشيست والأردواز :—

الشيست نوع من الصخر مركب فى طبقات ، وهـو قابل للتشقق ، وليس لأسمه عـلاقة بتركيبه الصخرى ، والشيست الخـاص الذى استعمل فى مصر القديمة هو صخر حباته دقيقة متماسكة صلبة متبلورة ، يشبه كثيرا الإردواز فى الشكل ، وتختلف ألوانه من الرمـادى الخفيف إلى الرمادى القاتم تعلوه أحيانًا خضرة . ويوجد الشيست ، والإردواز فى مواطن عدة فى الصحراء الشرقية . وكان الشيست يستخرج فقـط من وادى حمامات حيث وجد أكثر من ٢٥٠ نقشا من الأسرة الأولى إلى الأسرة الثلاثين [3] ؛

(1) T. Barron & W. F. Hume, Topog. & Geol of the Eastern Desert. of Eg. p. 118, 238, 241, 622. (2) Hume, Geol of Egypt. II, part I, p. 273-282

(3) Weigall, Travels in the Upper Egyptian Desert p. 39, & Gouyat et Montet, Les Inscriptions hierog. & hierat. du Ouadi Hammamat. dans Mem. de l'Inst. d'Arch, Orientale du Çaire XXXIV p. 122-3 & Breasted op. cit. I, 7, 10, 295-301, 286-9, 427-56, 466-8, 674-5, 707- 9., & IV, 457-68.

وهذه المحاجر قد ذكرت كثيرا فى الوثائق القديمة . وقد اعتقد علماء الآثار إلى عهد قريب أن الشيست الرمادى المستخرج من وادى حمامات هو حجر « بخن » القديم كما ذكر على ناووس الملك « نقطانب الثانى » المتخذ من هذا الحجر، أنه من حجر « بخن » . ولكن البحوث العلمية أظهرت أن لفظة « بخن » تطلق على أحجار أخرى مثل ناووس الملك « أحمس الثاني » المصنوع من حجر الجرانيت الرمادى الدقيق الحبات إلخ . وكان الشيست يستعمل فى عصر ماقبل الأسرات ، وعصر الأسرات الأولى فى صناعة الكئوس ، والأوانى ، والألواح ؛ ثم فيما بعد فى التوابيت والمحاريب ، والتماثيل .

أما الإردواز فهو من فصيلة الشيست فى التركيب ، ويكون فى العادة صلبا ، وكان يستعمل فى العصور الأولى لعمل الألواح الإردوازية .

حجر الثعبان ، وحجر استاتيت (الطلق) : وهما يتشابهان فى معظم التركيب غير أنهما ليسا من نوع واحد . ويوجدان مع بعضهما فى الصخور . وحجر الثعبان صخر قاتم ليس بشفاف ، وهو فى لون جلد الثعبان بقعه ويكون غالبا أخضر قاتما إلى حد السواد ، وهو لين بعض الشىء إلا أنه أصلب من حجر استاتيت ؛ ويمكن قطعه أو خدشه بسهولة . ويوجد فى الصحراء الشرقية ، وأهم مراكز له هى منطقة براميا (؟) ودونجاش [1] فى وادى شايت ، وبالقرب من جبل درارا ، وفى التلال الواقعة شمال سكيت ، وجبل سكيت ، وفى منطقة مقسم ، وفى أقاصى الصحراء الشرقية حيث تشغل مساحة نحو ٤٠٠ ميل من رأس بنارس جنوبا إلى رأس علبة [2] .

(1) Hume, A prelim. Report on the Geol. of the East. Desert. p. 34.
(2) Hume, Geology of Egypt. II, part I, p.p. 144-159 .

ويوجد نوع من حجر الثعبان أخضر فى وادى أم ديسى الواقعة بين قنا والبحر الأحمر ، وعند سفح جبل الربشى ، ونوع أسود فى وادى «صدمن»(1) ، وهما فى الشمال الغربى من القصير ؛ وكان حجر الثعبان يستعمل فى عمل الأوانى (2) ، وأشياء أخرى (3) منذ عصر ما قبل الأسرات وقد عثر « لأمنحيت الثالث » (4) على رأس من هذا الحجر .

أما حجر استايتيت فهو نوع من الطلق ، وهو أبيض اللون عادة أو رمادى وأحيانا يكون أسود دخانيا ، وهذا النوع الأخير طبيعى لا صناعى كما يظن البعض ، وملمسه كالصابون ، وكان يستعمل منذ عصر ما قبل الأسرات وما بعده لعمل الخرز ، والأشياء الأخرى الصغيرة (5) التى كانت تطلى بطبقة زجاجية ، والجزء الأعظم من الجعارين المعروفة فى العالم هى من الأستايتيت المطلى ، ويوجد هذا الحجر بالقرب من أسوان (6) فى همر ، وفى جبل الفطيرة (7) التى على خط عرض طحطا بالقرب من النيل وفى وادى غولان شمال رأس بنارس ، وهى تستغل الآن (8) .

قطع الأحجار

كان من الطبيعى ألا تنتشر صناعة قطع الأحجار إلا بعد معرفة المعادن وصناعة الآلات ، التى بواسطتها يسهل قطع الأحجار الصلبة .

---

(1) Barron & Hume, op. cit. p. 265.
(2) Lucas. J. E. A. t. XVI 201.
(3) Petrie, Prehist. Eg. p. 44.
(4) J. E. A. t. IV, p. 211-212.
(5) Petrie, op. cit. p. 44.
(6) Hume, Geol. of Eg. II, part I p.p. 131-2, 164-5.
(7) Mines & Quarries Department, op. cit. p. 37.
(8) Lucas, Ancient Eg. Materials & Indust. p. 375.

ومن أجل ذلك لم يستعمل المصرى فى بادىء الأمر الأحجار للمبانى بل كان يستعمل اللبن . أما الأحجار التى كانت تستعمل فى عصر ما قبل الأسرات لعمل الأوانى ؛ فإنها كانت قطع من الصخور التى فصلتها الطبيعة بمؤثرات العوامل الجوية ، وبفعل تآكل المياه ، ولا تزال قطع من الجرانيت فى أسوان مفصولة عن الصخرة الأصلية تشهد بذلك . أما طريقة قطع الأحجار بالآلات التى كان يستعملها الإنسان فيمكن استنباطها من أماكن التحجير القديمة التى لا تزال باقية إلى الآن فى منطقة أسوان .

كان قطع الأحجار السهلة اللينة كالمرمر والحجر الجيرى ، والحجر الرملى يتم بفصل الكتلة المرغوب فى قطعها من جهاتها الأربع عن الصخر الأصلى ، وذلك بخوابير من الخشب ، وعروق مبللة بالماء . والآلات التى كانت تستعمل فى ذلك من المعدن هى أزاميل أو مناقير من النحاس حتى الدولة الوسطى ؛ إذ حلت محلها وقتئذ آلات من البرنز ؛ ومن ثم كان الاثنان يستعملان جنبا لجنب ، وكذلك كانت تستعمل مدقات من الخشب ومطارق من الحجر (1) .

أما قطع الأحجار الصلبة فلم يبدأ فيه إلا فى عهد الدولة الوسطى عند ما أخذ المصريون فى قطع الكتل الضخمة الطويلة لصنع المسلات والتماثيل الهائلة . أما قبل ذلك فإنهم كانوا يسدون حاجاتهم من القطع التى فصلتها الطبيعة لهم ، وهى التى لا تزال باقية إلى الآن فى منطقة أسوان ، وقد أخذ منها بعض الأحجار اللازمة لبناء خزان أسوان . وقد درس بعض المهندسين المعماريين طريقة تحجير الجرانيت والكوارتسيت ، ويقال أن

(1) Ancient Egyptian Masonary, p.p. 12-22.

الجرانيت كان يفصل بالدق بكرات من الديوريت ، وباستعمال الخوابير التى كانت تجهز بواسطة آلات من المعدن ، وكذلك كان يستعمل الدق ، والخوابير فى قطع الكوارتسيت مع استعمال آلة أخرى ربما كانت معولا .

كيفية صناعة الأحجار

يمكن استنباط طريقة صناعة الأحجار بعد قطعها من المحاجر من الآثار التى تركتها الآلات على القطعة المصنوعة ؛ وبخاصة التماثيل التى وجد منها عدد عظيم لم يتم صنعه بعد ، ومن الإيضاحات التى وجدت مرسومة على بعض المقابر ، وقد درس هذا الموضوع طائفة من علماء الآثار نخص بالذكر منهم « بترى » (1) و « ريزنر » (2) .

والواقع أن التماثيل المصنوعة من الحجر ، وبخاصة المنحوت منها فى الأحجار الصلبة كالديوريت والجرانيت ، والكوارتسيت ، والشيست . كانت مثار إعجاب الكل لدقة صنعها . ولا يزال العالم متأثرا بجمال تلك القطع الفنية ، غارقا فى عالم التخيلات والظنون فى كنه الآلات التى استعملت لإبرازها فى ذلك الثوب البهيج حتى أن بعضهم ذهب به الخيال إلى أن معدن الصلب كان يستعمل فى صنعها ، وأعجب من ذلك أن بعضهم ظن أن آلات النحاس أو البرنز التى كانت تستعمل فى صنعها كان

(1) Petrie, On the mechanical methods of the Ancient Egyptians in Journ. Anthrop. Inst. XIII, 1883 ; Arts and Crafts of Ancient Egypt p.p. 69-82. (2) Reisner, Mycerinus, p.p. 69, 232, 236.

يركب فيها قطع من الماس أو غيره من الأحجار الصلبة لصناعتها ؛ ولكن ثبت أن الأمر أسهل من كل ذلك إذ لخص لنا الأستاذ « ريزنر » (1) العمليات الهامة التى كانت تتخذ لإبراز التمثال او غيره من القطع الفنية حتى مرحلته الأخيرة .

أولا : الدق بالحجر ، ومن المحتمل أن ذلك وجد ممثلا فى مقبرة « تى » فى سقارة .

ثانيا : الحك بوساطة حجر فى اليد ومعه مسحوق مفتت . وقد كان يظن احتمال وجود المسحوق المفتت ؛ غير أنه قد وجدت صورة ناطقة تثبت وجود هذا المسحوق ، وهو الرمل فى حفائر الجامعة بمنطقة الأهرام فى مقبرة صهر الملك ومدير قصره (2) « وب إم نفرت » إذ نشاهد فى مناظر الحرف والصناعات صانعين يصقلان تابوتا وفى يد واحد منهما حجر يحك به غطاء التابوت ، وفوق الصورة كتب ما يأتى : صقل التابوت ، ثم كتب بعد ذلك . « صب الماء وضع الرمل » . ونشاهد بعد ذلك الصانع يحك سطح غطاء التابوت بوساطة هاتين المادتين الماء والرمل . وإذا علمنا أن الرمل يحتوى على ١٥ ٪ من مادة السنفرة سهل علينا فهم النقوش . وهناك منظر آخر من هذا القبيل عثر عليه فى حفائر سقارة فى طريق هرم الملك « وناس » .

ثالثا : النشر بوساطة سلاح من النحاس ومعه مسحوق مفتت ، ولم يعثر على صور لذلك .

---

(1) Reisner, op. cit 117-18.
(2) Selim Hassan, Excavations at Giza, vol II, p. 195.

رابعـا : الثقب بمثقب أنبوبى الشكل ، ومعه مسحوق مفتت ، وهـذا المثقب أنبوبة جوفاء من النحاس تستعمل بإدارتها بين اليدين أو بوتر ، أو قبضة متحركة ؛ وهنالك أنواع أخرى من المثاقب تدار بطرق خاصة عثر عليها فى سقارة من الأسرة الخامسة ، ومن عهد الأسرة الثانية عشرة فى دير الجبراوى (1) ، وكان المثقب يستعمل فى تفريغ الأوانى المصنوعة من الحجر ، وبخاصة الأوانى الأسطوانية الشكل التى كانت تتخذ من الأحجار الصلبة كالبازلت والديوريت .

خامسا : الثقب بالنحاس ، أو حجر مدبب معه مسحوق مفتت ، وقد شوهد فى ثلاثة مقابر من عصر الأسرة الثامنة عشرة فى طيبة (2) مثاقيب تدار بوساطة أوتار لثقب خرز ، وفى مقبرة رابعة لثقب شىء مجهول .

سادسا : الحك بآلة نحاسية معها مسحوق مفتت ، ولكن ذلك مشكوك فيه .

غير أن الذين يعتقدون باستعمال آلات من الصلب لهذه الأغراض يمكن أن يحتج عليهم بأن الصلب مهما طرق لتزيد متانته فإنه لا يمكن أن يقطع به أحجار صلبة مثل الديوريت والجرانيت ، والشيست . هذا فضلا عن أنه لا يمكن استعمال مثل هذه الآلات ، ومعها مسحوق مفتت كالسنفرة ، وهذا الرأى لا غبار عليه . يضاف إلى ذلك أن القواديم

---

(1) The Rock Tombs of Deir el Gabrawi I, pl. XIII

(2) Newberry, The life of Rekhmara pl. XIII ; Davies, The tomb of two sculptors at Thebes pl. XI ; Davies, The tomb of two officials of Tuthmosis the Fourth pl. X ; Davies, The tombs of Menkheper-Rasonb & another p. 25, pl. XXX.

المصنوعة من النحاس كانت لا تستعمل إلا فى الأحجار اللينة فحسب ؛ أما من جهة استعمال المناشير والمثاقب بما فيها ما كان على شكل أنبوبى ، فإن هناك براهين واضحة على الأحجار المشغولة تدل على أنها استعملت لهذا الغرض فمثلا نجد علامات للمناشير فى رقعة معبد « خوفو »[1] المصنوعة من البازلت ، وعلى تابوته المصنوع من الجرانيت الوردى ، وكذلك على تابوت « خفرع » .

أما آثار المثقب الأنبوبى الشكل فنشاهدها على تمثالين للملك « منكاورع » أحدهما من المرمر كامل النحت والثانى لم يتم نحته بعد ، وكذلك نشاهد أثر المنشار فى تمثال الملك « خفرع » المشهور المصنوع من الديوريت[2].

الأحجار الكريمة وشبه الكريمة

كان قدماء المصريين كغيرهم من أمم العالم مغرمين بالزينة ، ولذلك كانوا يبحثون وراء الحقول على الأدوات التى يتبرجون بها منذ ما قبل التاريخ ، وقد عثرنا فى مقابرهم على أنواع شتى من الأحجار الكريمة ونصف الكريمة مما لم تسبقهم إليها أمة فى العالم حسب معلوماتنا إلى الآن . وهذه الأحجار لا يزال بعضها إلى الآن يعتبر فى نظرنا كريما ، والبعض الآخر لا يعتبر إلا حجرا عاديا لا قيمة له من الوجهة المادية ؛ وكان يستعملها المصرى لعمل التعاويذ ، والخرز ، والمجوهرات ، والجعارين ؛ وكذلك فى تطعيم

(1) Petrie, The Pyramids and Temples of Giza p.p. 46, 84, 106.
(2) Petrie, op. cit. p.p. 46, 84, 166.

وترصيع صناديقه ، وتوابيته ، وأثاثه بما يشعر بحسن الذوق والأناقة .

وأهم هذه الأحجار ما يأتى : ـ

العقيق Agate ، والجمشت Amethyst ، والزمرد المصرى Beyrl وحجر الدم Carnelian ، والخلكيدونى أو العقيق الأبيض Chalcedony ، والمرجان Coral ، العقيق أو حجر سيلان Garnet ، وحجر الدم Haematite ، واليشم Jade ، والسرد أو العقيق الأحمر Sard واللازورد Lapis lazuli ، والدهنج Malachite ، وحجر الزبرجد Olivine ، والجزع (حجر الظفر) Onyx ، واللؤلؤ Pearl ، والبلورات الصخرية Rock crystal وجزع عقيق Sardonyx ؛ ثم الفيروز Turquoise.

ويلاحظ أن المصرى لم يكن يعرف الماس أو حجر الأوبال أو الياقوت الأحمر أو الأزرق . وقد جاء ذكر الأحجار التى ذكرناها فى الوثائق القديمة المصرية بأنها كانت تستعمل لأغراض خاصة للحلى والزينة ، أو أنها وردت للبلاد جزية ، أو أخذت ضمن الغنائم الحربية .

ورغم أن هذه الأحجار قد سميت بأسمائها فى النقوش المصرية كل على حدة ، إلا أن ترجمة بعضها لا يزال مشكوكا فيه ، وقد ذكر لنا « بلينى » نحو ثلاثين اسما من الأحجار الكريمة التى كانت ترد من مصر وبلاد الحبشة ، إلا أنه لم يحقق إلا عددا قليلا منها . وسنتكلم على كل من هذه الأحجار وماهيته فى الحلى المصرية وفى الصناعة بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا .

العقيق ، والجزع ، وجزع العقيق ، وكلها أنواع من الخلكيدونى المجزع أو المعرق . وكل هذه الأحجار منسوب بعضها إلى بعض ، ويطلق

عليها غالبا اسم عقيق فحسب ، وكلها تحتوى على السليكا ، وليس بينها فرق غير لون العروق أو التجزيع . ففي العقيق نجد أن هذه العروق غير منتظمة ، وفى العادة تكون بيضاء وسمراء يخالطها بعض الزرقة ، أما فى الجزع وجزع العقيق فنجد أن العروق مستقيمة ، ومنتظمة على وجه التقريب ، ويكون لون الجزع لبنيا متبادلا مع الأسود ؛ وفى جزع العقيق يكون الأبيض متبادلا مع الأسمر المائل الى الحمرة . ويوجد العقيق بكثرة فى مصر ؛ وبخاصة فى شكل حصوات ، وكذلك وجد بكميات صغيرة مختلطا باليشب ، والخلكيدونى فى وادى أبو جريدة فى الصحراء [1] الشرقية . ومن المحتمل أن الجزع وجزع العقيق موجودان فى مصر طبيعيا ، غير أنهما لم يذكرا فى تقارير مصلحة الجيولوجيا .

وقد وجدت حصوات العقيق وخرزه فى قبور ماقبل الأسرات [2] ، وكذلك وجدت فى هذا العصر خرزات من الجزع ، وأقدم تاريخ معروف لاستعمال جزع العقيق هو عهد الأسرة الثانية والعشرين ، ويجوز من الأسرة التاسعة عشرة . وقد عثر حديثا على آنية من العقيق ربما يرجع عهدها إلى العصر الرومانى فى قفط ، ستة منها فى المتحف المصرى ، وإناءان عظيمان اشتريا حديثا .

حجر الجمشت (أمتست) : ويتركب من الكوارتس الشفاف الملون بآثار من مركب الماغنزيوم . وكان يستعمل قديما على وجه خاص لعمل القلائد ، وكذلك للأساور ، وأحيانا تعمل منه الجعارين ، ويرجع

(1) Barron & Hume, The Topog. & Geol. of the Eastern Desert of Egypt, Central portion, p. 266. (2) Petrie, Prehistoric Egypt. p. 44.

تاريخ استعماله إلى عهد ماقبل الأسرات [1] وقد وجد منذ عصر الأسرة الثانية عشرة وفى عهد الدولة الحديثة . فمثلا وجد فى مقبرة « توت عنخ آمون » جعرانان من هذا الحجر ، وكان يستخرج قديما من جبل أبو دياية ومنطقة [2] سفاجة فى الصحراء الشرقية ، وكذلك عثر على مناجم له فى الجنوب الشرقى من أسوان [3] ، وأخرى من عهد الدولة القديمة على مسافة ٤٠ كيلو مترا من الشمال الغربى لأبو سنبل.

الزمرد المصرى : هذا الحجر الكريم يكون لونه أخضر أو أزرق باهتا أو أصفر أو أبيض . غير أننا لا نعرف منه إلا الأخضر الذى كان يستعمل فى مصر قديما ، ويوجد الزمرد فى منطقة سقاية زبارة فى تلال البحر الأحمر [4] حيث توجد مناجم عظيمة له ربما كانت من عهد الأغريق الرومانى . ومن المحتمل أن أنواعا جميلة من هذا الحجر قد وجدت قديما ولم يمكن العثور عليها الآن . والزمرد يكون دائما شفافا ، ولا يكون قط مظلما ، وكان المصرى يستعمله دائما فى قطعه الطبيعية السداسية الشكل ، وذلك لأنه أصلب من حجر الكوارتس فكان يصعب عليه قطعه بطريقة منظمة .

والظاهر أن الزمرد المصرى لم يستعمل قط فى مصر القديمة قبل عصر

(1) Petrie, op cit. p. 44. (2) Mines & Quarries Department, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 pp. 37-9.
(3) Nassim, Minerals of Economic Interest in the Deserts of Egypt, in Congrés Int. de Géog, Le Caire, Avril 1925, III 1926 p. 167. (4) Mines & Quarries, Report on the Mineral Industry of Egyp,t 1922 p.p. 37-9 ; Murry, in J. E. A. t. XI 1925 p.p. 144-145.

البطالسة ولذلك فإن الأحجار الكريمة التى وجدت فى مجوهرات دهشور[1] وكان يقال عنها أنها من الزمرد عند ما فحصت لأول مرة كانت فى الواقع من الفلسبار الأخضر، وكذلك كل الأحجار التى أطلق عليها اسم زمرد «أوز برجد» قبل عصر البطالسة فإنها ليست منها بل من أحجار أخرى ، وذلك بعد أن فحصها العالم الكيمائى «لوكاس» فحصا فنيا .

حجر الدم ، والعقيق الأحمر Carnelian and Sard

حجر الدم هو خلكيدونى أحمر شفاف بعض الشىء ، وترجع حمرته إلى وجود مقدار قليل من أوكسيد الحديد فيه ، وهو يوجد بكثرة على شكل حصوات فى الصحراء الشرقية ، وقد استعمل كثيرا منذ عصر ما قبل الأسرات [2] .

أولا : لعمل الخرز والتعاويذ ، وثانيا لتطعيم الأثاث والمجوهرات ، والتوابيت . وقد قلد فى عهد الدولة الحديثة ، كما يشاهد ذلك فى تابوتين من أثاث « يويا » ، وفى تابوت « سمنخ كارع » ، وكذلك فى كثير من الأشياء التى وجدت فى مقبرة « توت عنخ آمون » .

أما حجر السرد فهو نوع من حجر الدم غامق اللون ، وبعض أنواعه تقرب فى لونها إلى السواد وكان يستعمل قليلا منذ عصر ما قبل الأسرات [3] وما بعده؛ ويقول «بلينى» [4] أن السرد كان يوجد فى مصر .

الخلكيدونى أو العقيق الأبيض : وهو نوع من السليكا الشفاف

(1) J. De Morgan, Fouilles à Dahchour en 1894-1895 p.p. 51, 53, 58-65 (2) Petrie, op. cit. p. 44. (3) Petrie, & Wainwright & Mackay, The Labyrinth of Gerzeh & Mazghouneh. p. 22.
(4) Pliny, XXXVII, 31. Barron & Hume op. cit. p. 266.

بعض الشيء شمعى اللون ، وعنـد ما يوجد نقيـا يكون لونه أبيض ، أو أبيض رماديا فيه بعض الزرقة . على أن هـذا الحجـر قد يكون بألوان متعددة ، ولـكل لون اسم خاص . ويوجد فى مصر فى وادى صاغه ،(1) وفى وادى أبو حريدة فى الصحراء الشرقية ؛ وفى الواحة البحرية فى الصحراء الغربية . وكذلك على مسافة ٤٠ ميلا من الشمال الغربى من أبو سنبل ، وفى الفيوم . وكان يستعمل أحيانا فى مصر القديمة لعمل الخرز والجعارين ، والدلايات ؛ ويرجع تاريخ استعماله إلى عصر ماقبل الأسرات (1) .

المرجان : وهو عبـارة عن هيا كل صابة لمخلوقات بحرية ولونه يكون أبيض أو أحمر فى ألوان شتى ، أو أسود ، والمشهـور منها هـو الأبيض والأحمـر . ولم يعـثر على المرجان الأبيض فى الآثار المصرية إلا مرة واحدة فى أدفينا (2) ، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد . وقد عثر «بترى» على كمية كبيرة منه فى شكل فروع طبيعية . والمرجان الثمين يستخرج من الجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط ، وكل ما عثر عليه فى مصر من المرجان يرجع عهده إلى عصر البطالسة ، وما بعده . أما المرجان الأنبوبي الشكل فقد عثر عليه منذ عصر البداري (3) ، وعصر ما قبل الأسرات . وكذلك عثر على هذا النوع فى مقابر بلاد النوبة ، التى يرجع عهدها إلى عصر الدولة القديمة (4) .

حجر الأمزون أو الفلسبار الأخضر.

هو حجر غـير شفاف أخضر باهت ، وليس منسجما فى لونه ؛ وقد

(1) Petrie & Wainwright, op. cit p. 22.
(2) Petrie, Nebesheh & Defenneh p. 75.
(3) Brunton & Caton Thompson, The Badarian Civil. p.p. 38, 56.
(4) Reisner, Arch. Survey of Nubia, Report for 190s-1907 p. 42.

وجد بكميات قليلة فى جبل مجيف فى الصحراء الشرقية [1] ، وكان يستعمل لعمل الخرز منذ العصر الحجرى الحديث [2] ، وكان يستعمل كثيرا فى عهد الأسرة الثانية عشرة . كما يشاهد ذلك فى مصوغات دهشور واللاهون . وقد كان يظن أنه هو الزمرد فى هــذه المجوهرات ، وكثيرا ما يختلط هذا الحجر بأنواع الأحجار الأخرى الخضراء ، حتى أنه يسمى أحيانا أم الزمرد .

حجر سيلان : والنوع الذى استعمل فى مصر منه لونه أحمر قاتم أو أسمر مائل إلى الحمرة شفاف بعض الشيء ، ويوجد بكثرة فى جهة أسوان فى الصحراء الشرقية ، وفى سيناء ، وأحجاره صغيرة جدا للاستعمال ؛ وبخاصة ما عثر منها فى أسوان . أما الكبيرة فوجدت فى غرب سيناء ، وقد استعمل حجر السيلان لعمل الخرز منذ عصر ما قبل الأسرات .

حجر الهمتيت : (حجر الدم) وهو أكسيد الحــديد ، ويوجد فى الطبيعة بألوان مختلفة . فيكون أسـود ، وأحمر ، ، وأسمر ، أو ذا صفائح رقيقة تكوّن طبقات لامعة بعضها فوق بعض ، والنوع الخاص الذى يستعمل فى مصر من الهمتيت لصنع الخرز ، والتعاويذ ، والمكاحل وأدوات الزينة الصغيرة ، هو الأسود القـاتم ذو اللمعة المعدنية . وقد استعمل منذ عصر ما قبل الأسرات [3] . ورغم أن الهمتيت يوجد بكثرة فى مصر فى الصحراء الشرقية لاستخراج الحديد منه [4] إلا أننا لا نعرف من أين جلب المقدار

(1) J. Ball. The Geog. & Geol. of South-Eastern Egypt, p. 272.
(2) Caton-Thompson. The Neolithic Industry of the Northern Fayum Desert, in Journ. Royal Arthrop. Inst. LVI 1926 p. 313 Petrie, op. cit. p. 43. (3) Petrie, op. cit p. 43. (4) Hume. The, Distribution. of iron (ores) in Egypt, p. 8.

الذى استعمل فى صنع تلك الأشياء .

اليشم أو حجر الجاد Jade ويطلق هذا الاسم على نوعين متميزين من المعدن ، أحدهما اسمه « نفريت » ، أو اليشم الحقيق . والثانى شبه اليشم ، وهو فى مظهره مثل اليشم الحقيق ؛ ولا يمكن تمييزه عنه إلا بالتحليل الكيمائى ، وكلاهما لونه أبيض ، أو رمادى ، أو أخضر على ألوان شتى . وهو شفاف شمعى اللمعة . وقد عثر منه على رأس بلطتين يرجع عهدهما إلى ما قبل الأسرات ، [1] ، واحدة منهما فى المتحف المصرى ، والأخرى فى متحف لندن . وقد عثر الأستاذ « ينكر » حديثاً فى مرمدة بنى سلامة[2] على رأس بلطة يرجع عهدها إلى العصر الحجرى الحديث وكذلك وجد فى مقبرة « توت عنخ آمون » خاتم من هذا الحجر .

حجر اليشب : Jasper وهو نوع من السليكا الكثيفة غير النقية ، ويكون لونه أحمر أو أخضر ، أو بنيا ، أو أسود ، واللون الأحمر هو الذى كان يستعمل فى مصر قديما لصناعة الخرز والتعاويذ ، وأحيانا لتطعيم المصوغات وعمل الجعارين . وقد عثر على قطعتين من إناء مفرطح من اليشب الأحمر يرجع عهدهما إلى الأسرة الأولى [3] . أما اليشب الأسمر ، والأسود فقد عثر على أشياء مصنوعة منهما من عهد الدولة الوسطى [4] ، وقد عثر على جعارين كذلك من ذلك العهد . أما اليشب الأخضر فعثر منه على أشياء ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة [5] .

---

(1) Quibell, Archaic objects, p. 235-6. (2) Junker, Merimde Benisalame, Von 7 Februar bis 8 April 1936, p. 80 pl. VII.
(3) Qiubell, Excav at Saqqara (1912-1914) p.p. 16, 17, pl. XII.
(4) Petrie, Scarabs and Cylinders with names, p. 8. (5) Brunton, Qua & Badari II, p. 20.

ويوجد اليشب الأحمر فى بعض الصخور ، على شكل عروق فى الصحراء الشرقية . مثال ذلك تلال الحضربية [1] ، وبالقرب من وادى صاغة Saga ، وفى وادى أبو حريدة . أما اليشب الأخضر المبقع بالأحمر فقد عثر عليه فى طريق قنا والقصير [2] .

اللازورد Lapis-lazuli وهو حجر مظلم ذو لون أزرق قاتم يتخلله أحيانا بقع أو عروق بيضاء ، وأحيانا تكون فيه نقط صفراء دقيقة ، تظهر كأنها ذرات من الذهب ، والظاهر أن هذا الحجر لم يعثر عليه فى مصر. غير أن الأدريسى قد ذكر أنه يوجد منه منجم فى الواحة الخارجة . وأهم منبع له هى بلاد الأفغانستان فى بلدة بدخشان Badakshan [3] ، والظاهر أن هذا هو المنبع الأصلى لهذا المعدن . وكان يستعمل اللازورد فى مصر منذ عصر ماقبل الأسرات [4] ، وما بعده لصنع الخرز والتعاويذ ، والجعارين ، والأشياء الأخرى الصغيرة . وكذلك لتطعيم المجوهرات ، وبخاصة فى عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد ذكر هذا الحجر فى النقوش المصرية منذ الأسرة الثانية عشرة وما بعدها [5] . فى عدة جهات مختلفة

حجر الدهنج (التوتية) : Malachite وهو النحاس الغفل ولونه أخضر جميل ولم نعثر عليه فى المقابر المصرية ، إلا على هيئة مسحوق يستعمل

---

(1) Barron & Hume, op. cit. p.p. 52, 22, 228, 266. (2) J. Bruce, Travels to discover the sources of the Nile II, 2nd Ed. 1805, p. 85. (3) The Travels of Marco Polo the Venetian, p. 84 (Everyman's Library). (4) Petrie, Prehistoric Egypt, p. 44.
(5) Br. A. R. (I) 534, 663, & op. cit. II, p.p. 446, 493, 447, 484, 509, 518, 536; III, p.p. 116, 434, 448; IV, p. 30.

للتكحل به ، وقد عثر عليه منذ عهد البدارى وعهد ما قبل الأسرات حتى الأسرة التاسعة عشرة [1] . وقد كان يستعمل أحيانا لصنع الخرز منذ عصر ما قبل الأسرات ، وفى عهد الأسرة الأولى [2] ، وقد اتخذ منه تعاويذ ، وجعارين من عصر الأسرة التاسعة عشرة . وقد فات على بعض العلماء التمييز بين هذا الحجر ، وحجر الزبرجد ، والزمرد الأخضر ، وحجر الفلسبار الأخضر كما حدث فى القلادة المستخرجة من دهشور فى الأسرة الثانية عشرة ، والسوارين اللذين وجدا فى هذا العهد أيضا . واتضح أن السوارين أحدهما من الفلسبار الأخضر ، والثانى من الفيروز ، ويوجد الدهنج فى سيناء وفى الصحراء الشرقية [3] ، وقد استعملت مناجمه فى العصور القديمة لاستخراج التوتية أولا ، وثانيا لاستخراج النحاس .

وقد كان النحاس يستخرج من وادى مغارة ، وسرابة الخادم ، ومن هذين المكانين كان يستخرج الفيروز قديما . ومن هنا جاءت الصعوبة فى التمييز بين الدهنج والفيروز ؛ وبخاصة أنهما كانا يستخرجان من مكان واحد ، ولا يتميزان عن بعضهما فى اللون . ومن هنا جاء أيضا الخطأ فى أن بعض العلماء ترجم كلمة « مفكات » ، وهى اسم الفيروز باللغة المصرية القديمة بلفظة دهنج .

اللؤلؤ Pearl : ويستخرج من شواطىء البحر الأحمر ، وكذلك الخليج الفارسى ، وعلى مسافة من سواحل سيلان ، وأماكن أخرى .

ورغم أن الأصداف قد استعملت فى مصر منذ عصر ما قبل التاريخ

---

(1) J. E. A. XVI 1930 p.p. 41-4. (2) Petrie, Royal tombs II, p. 37 pl. XXXV. (3) J. E. A. XIII, 1927, p.p. 162-7.

فإن اللؤلؤ نفسه لم يستعمل حتى عهد البطالسة ؛ اللهم إلا أزرار قلادة الملكة « أعح حتب » أم الملك « أحمس الأول »[1]، وهى ليست بلؤلؤ حقيقى .

حجر الكوارتس والبلور الصخرى Rock crystal : والكوارتس نوع من السليكا البلورية ، ولا لون له عند ما يكون نقيا ، وقد يكون شفافا بعض الشىء أو مظلما ، ويطلق على النوع الأول اسم البلور الصخرى ، وعلى الثانى الكوارتس اللبنى . وأحيانا يكون لون الكوارتس أسمر حتى السواد ، وفى هذه الحالة يسمى الكوارتس الدخانى اللون ، وهذا النوع يوجد فى منجم ذهب قديم فى «روميت » Romit فى الصحراء الشرقية [2]. ويوجد الكوارتس بكثرة على هيئة عروق فى الصخور البركانية فى الصحراء الشرقية ، وبالقرب من أسوان [3] . وكان يستعمل بكمية قليلة فى عهد ما قبل الأسرات [4] ، وما بعده ، إذ كان يصنع منه الخرز وأشياء أخرى ، كالأوانى الصغيرة ، وقرنات العيون التى كانت تصنع للتماثيل وكذلك كانت توضع فى أعين التوابيت ، التى كانت على شكل آدمى ؛ وكل أنواع الكوارتس أصلب من الزجاج ، وكذلك أكثر مقاومة من الصلب ، ولذلك لا يمكن أن يؤثر فيها هذا المعدن .

الفيروز أو الفيروزج Turquoise : ولونه أزرق سماوى ، وبعضه يكون أزرق مائلا إلى الخضرة ، وبعضه أخضر ، وهو يوجد على هيئة عروق فى أم الصخر . ومناجم الفيروز هى وادى مغارة وسرابة الخادم فى شبه جزيرة

---

(1) The Necklace of Queen Aah-hetep, in, Annales. Sev. A. XXVII (1927) p. 69-71. (2) J. Ball. The Geog & Geol of south eastern Egypt. p. 353. (3) J. Ball. The Aswan cataract, p. 84.
(4) Petrie, Prehistoric Egypt. p. 44.

سيناء [1] . و يوجد على هيئة طبقات فى صخور الحجر الرملى . وقد استعمل فى مصر منذ عهد البدارى [2] ، وما قبل التاريخ ، وكان يستعمل فى صياغة الأساور منذ الأسرة الأولى ، وكذلك للحجال فى الأسرة الرابعة ، إذ عثر على أحجار منه فى مقبرة الملكة « حتب حرس » من عهد الأسرة الرابعة فى الجيزة [3] ، وقد ظن البعض أولا أنه دهنج . ووجد بكثرة فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى مجوهرات دهشور . وقد ظن البعض أنه فيروز صناعى ، وذلك لجمال لونه . وكذلك وجدت بعض قطع منه فى مقبرة « توت عنخ آمون » منها جعران لونه أزرق جميل ، وقطع زرقاء مائلة للخضرة رصعت فى صداريتين .

المعادن

تدل الآثار المكشوفة فى مصر على أن سكان وادى النيل كانوا يستعملون منذ القدم معادن مختلفة الأنواع بعضها موجود طبيعيا فى تربة البلاد ، و بعضها جلب إليها من البلاد الأجنبية التى كانت تربطها بها روابط التجارة أو الاستعمار ؛ وأهم هذه المعادن النحاس ، والذهب ، والحديد ، والقصدير ، والفضة ، والرصاص . يضاف إلى ذلك استعمال البرنز ، وهو فى الواقع خليط من النحاس والقصدير ، والألكتروم ، وهو خليط من الذهب والفضة

(1) Mines & Quarries Department Report on the Mineral Industry of Egypt. 1922 p. 38. & J. Ball. The Geog & Geol of West-Central Sinaï, p.p. 11, 163. (2) Brunton & Caton Thompson op. cit. p.p. 27, 41, 56, & Petrie, Prehistoric Egypt, p. 44. (3) Lucas, Anc. Egyp. Materials, p. 204, note 7.

وفى العهود المتأخرة جدا استعمل النحاس الأصفر ، وهو خليط من النحاس الأحمر والزنك . وهناك خامات أخرى استعملها المصريون ، وسنتكلم عن كل فيما يلى .

النحاس : هذا المعدن لا يوجد عادة فى الطبيعة بشكل معدنى بل يستخرج من خامات مختلفة ، و يعد من أقدم المعادن التى عرفها الإنسان ، وقد استعمل فى مصر قبل الذهب . و يرجع تاريخ وجوده فى مصر إلى عهد البدارى ، ثم عهد ماقبل الأسرات . وأقدم أدوات نحاسية عثر عليها هى الخرز ، والمثاقب ، والدبابيس من عصر البدارى [1] ، وقد استمر استعمالها إلى عهد ما قبل الأسرات الذى عثر فيه كذلك على أساور ، ومعاول صغيرة ، وخواتم ، ورءوس خطاطيف ، وإبر ، وملاقط ، وغير ذلك من الآلات الصغيرة ، وفى نهاية عصر ما قبل الأسرات أصبح فى متناول المصرى أسلحة من النحاس ليدافع بها عن نفسه ، ولم يأت عصر الأسرات الأولى حتى استعمل المصرى رءوس بلط ضخمة ، وقواديم ومعاول ، وسكاكين ، وخناجر ، وحراب ، وحلى ، وأدوات منزلية كالطست والإبريق وكل هذه كانت من النحاس بكميات وافرة ، ولم يوجد النحاس طبيعيا قط فى أرض مصر بل كان يستخرج من خامات . أهمها الدهنج الذى كان يستعمل منذ أقدم العصور لتكحيل العين ، ولذلك كان من السهل أن يكشف عن هذا المعدن بسهولة بعد صهر هذه المادة .

وتوجد خامات النحاس فى داخل حدود القطر المصرى فى شبه

---

(1) Brunton & Caton Thompson, The Bad. Civil. p.p. 7, 27, 33, 41, 56, 60, 71, & Flinders Petrie, Prehist. Egypt p. 25, 26, 47.

جزيرة سيناء ، وفى الصحراء الشرقية . ففى شبه جزيرة سيناء عشر على مناجم يظن أنها كانت لاستخراج النحاس ، أو لاستخراج الفيروزج فى وادى مغارة وفى سرابة الخادم . وهما يقعان فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ، وبينهما نحو اثنى عشر ميلا (1) .

وتدل الأحوال على أن خام النحاس كان يعدن قديما ، فى وادى مغارة ؛ إذ وجدت بقايا مستعمرات للتنجيم يرجع عهدها بخاصة إلى الدولة القديمة ، وكذلك الدولة الوسطى . إذ وجدت كميات عظيمة من الرواسب ، وبقايا الصهر من مخلفات الدولة القديمة ، وكذلك وجدت قطع من خام النحاس ، وعدة أوان للصهر وجزء من قالب لسبك النحاس .

أما من عهد الدولة الوسطى فقد وجدت كميات من رواسب النحاس ، وقطع مصهورة ، وقطع من أوانى الصهر ، وكذلك وجد جزء من آنية صهر لا يزال فيها مسحوق الخام . هذا إلى وجود قالب لسبك نصال أسلحة . أما فى سرابة الخادم ، فإن آثار التعدين فيها أقل ، وذلك لأن هذا المكان لم يفحص بعد .

وأهم خام كان يعدن فى سرابة الخادم ، وفى مغارة هو الدهنج الأخضر اللون ، ومعه قليل من الأزوريت الأزرق اللون .

وقد كانت البعثات ترسل للبحث عن هذا المعدن وغيره . فى وادى مغارة ، وفى الوادى والمناجم القريبة من سرابة الخادم منذ الأسرة الأولى ،

(1) Maples, The Copper Axe in Ancient Egypt, 1929, p. 97; Petrie, Researches in Sinaï, p.p 18, 19, 27, 46-53, 154-62 & Mines and Quarries Department of Egypt, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 p.p. 36, 38.

وقد عثر فى وادى مغارة على ٤٥ وثيقة منها ٣٦ نقشا على الصخر ، وثمانية جرافيتى ، ولوحة . وأقدمها يرجع للأسرة الأولى حتى الأسرة التاسعة عشرة .

أما فى الوادى والمناجم القريبة من سرابة الخادم ، فكان يوجد فيها خمس عشرة وثيقة ، معظمها من الأسرة الثانية عشرة وبعضها من الدولة الحديثة . أما فى المعبد المقام فى هذه البقعة وما حوله ، فقد عثر على ٢٨٨ نقشا (1) معظمها على كتل من الحجر ، وتماثيل صغيرة ولوحات ، ومن بين هذه النقوش واحد باسم الملك « سنفرو » ؛ غير أنه يظهر من نقوشه أنه كتب فى عصر بعد عصر هذا الملك . ومعظم هذه النقوش يرجع إلى عهد الدولة الوسطى ، والدولة الحديثة . ويلاحظ أن تعدين الفيروزج قد ذكر كثيرا فى هذه الوثائق ولم يذكر تعدين النحاس إلا مرة واحدة ، وفى الغالب نجد أن البعثات الأولى التى كانت ترسل إلى هذه الجهات لم يترك رؤساؤها فى نقوشهم إلا اسم الملك ، وألقابه ؛ وبعد ذلك أضيفت أسماء رؤساء الحملة وضباطها . وقد بدأ ذلك منذ عهد الأسرة الخامسة . وبعد ذلك نجد أن الغرض من البعثة كان ينقش على الصخور . ولذلك يصعب علينا فى بادىء الأمر معرفة الأغراض التى من أجلها أرسلت الحملة من النقوش نفسها ، أكانت لاستخراج الفيروزج ، أم لاستخراج النحاس أم لتأديب العصاة فحسب ؟ .

على أن تعدين النحاس لم يكن فى وادى مغارة وسرابة الخادم فحسب بل

---

(1) Gardiner & E. Peet, The Inscription of Sinaï I, p.p. 7-16.

كان يمتد إلى الجهات المجاورة للجهة الأخيرة مثل جبل أم رنة ، ووادى ملحة ، ووادى خارج . وكذلك فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة كانت توجد مناجم للنحاس ، حيث وجدت خامات ورواسب منه فى عدة أماكن أهمها بالقرب من سهل سند ، وفى التلال الواقعة غربى سهل نبق شرم ، وفى وادى رمانى أحد روافد وادى نسب . وتوجد خامات النحاس ، فى عدة أماكن فى الصحراء الشرقية أهمها وادى عربة وفى جبل عطوى ، وفى جبل دارا ، وفى مناجم ذهب دونجاش Dungash ، وفى التلال الواقعة جنوب وادى جمال Gemâl ، وفى أبو سيال Absciel ، وغيره .

ويختلف مقدار كمية النحاس التى تستخرج من الخامات حسب الأماكن التى يعدن فيها . فمثلا فى الأماكن التى فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة سيناء وجد أنه يستخرج من الخام من ٥ إلى ١٨ ٪ أما فى الصحراء الشرقية فوجد أن مقدار ما يستخرج من الخام ما بين ٣٦ و ٤٩ ٪ ووجد فى أبو سيال أن النسبة ٣ ٪ وفى أماكن منه وجد أن النسبة ارتفعت حتى ٢٠ ٪ (1) .

ولا بد أن النحاس الذى كان يستخرج فى مصر من مناجمها حتى الأسرة الثامنة عشرة عند ما بدأ يجلب إليها هذا المعدن من الخارج كان كافيا لسد حاجاتها لأن البقايا التى وجدت فى مناجم النحاس ، وامتداد مساحاتها يشعران بأن الكميات التى كانت تستخرج عظيمة ، وإذا اتخذنا رواسب مناجم وادى نسب مقياسا لما يستخرج من النحاس فإن أقل

1 J. Wells, Report of the Dep. of Mines, 1906 p. 34.

مقدار من هذا المعدن استخرجه معدنو سيناء حتى تاريخ رواسب هذا الكوم أى الأسرة الثانية عشرة فإنه لا يقل عن ٥٥٠٠ طن بل أكثر . يضاف إلى ذلك ما كان يستخرج من مغارة وغيرها .

وأقدم وثيقة لدينا تشير إلى جلب النحاس من الخارج يرجع عهدها إلى الأسرة الثامنة عشرة ، ثم التاسعة عشرة (1) . إذ نعرف أنه كان يأتى إلى مصر من « رتنو » و « زاهى » وكلاهما فى سوريا ، ومن جهة «أرابختيس» ، وهو مكان غير معروف فى آسيا ، ومن أرض « الإله » ، وهو اسم استعمل ليدل على أماكن مختلفة تشمل جهات فى غربى آسيا ، والصحراء الشرقية من مصر ، وبلاد بنت ، ومن « إيسى » وربما كان يقصد بها قبرص .

وخامات النحاس فى مصر هى : الآزوريت ، وخام الكرسوكولا والدهنج ، والكبريتور .

أما الآزوريت فهو خام أزرق غاسق جميل ، من القاعدية النحاسية ويوجد فى رواسب النحاس ، ويكثر وجوده فى سيناء والصحراء الشرقية ويكون دائما على سطح الأرض أو بالقرب من السطح ولذلك يسهل استخراجه ؛ ولا يوجد بكثرة كالدهنج الذى يكون معه فى العادة وكان الآزوريت يستعمل فى مصر القديمة لاستخراج النحاس وللأصباغ ثم استغنى عنه المصرى عندما اخترع صبغة زرقاء (2) صناعية .

الكرسوكولا : أو البورق أو ملح الصاغة : وهو خام أزرق أو

---

(1) Br. A. R. II, 447, 471, 491, 509, 790, 459, 462, 490.
(2) Anc. Egypt. Materials, p. 283.

أخضر مائل إلى الزرقة ، وهو يحتوى كيمائيا على سليكات ، ويوجد فى سيناء ، وفى الصحراء الشرقية ، وقد استعمل مادة للكحل ، ولم يعثر منه إلا على تمثال صغير لطفل يرجع عهده إلى ماقبل الأسرات [1]

الدهنج : وهو قاعدة خضراء من كربونات النحاس ، وهو أول خام استخرج منه النحاس ، ويوجد على سطح الأرض فى سيناء وفى الصحراء الشرقية . ويرجع تاريخ استعماله إلى عصر البدارى إذ ؛ منذ ذلك العهد كان يؤخذ منه مادة الكحل [2] حتى الأسرة التاسعة عشرة وكذلك كان يستعمل لتلوين الجدران [3] والقاشانى والزجاج . يضاف إلى ذلك أنه كان يعمل منه أحيانا الخرز والتعاويذ ، وأشياء أخرى صغيرة ، ولكن فى الواقع كان أهم استعمال له فى مصر استخراج مادة النحاس إذ يحتوى على مقدار كبير منها.

البرنز (الشبه) : يعرف البرنز عند المصريين بأنه خليط من النحاس والقصدير ، ولكنه فيما بعد كان يحتوى فضلا عن ذلك على كمية من الرصاص . على أن هذا الخليط لم يكن يطلق على البرنز فى عصرنا على ٩ ٪ أو ١٠ ٪ من القصدير ؛ أما البرنز القديم فكانت النسبة فيه متغيرة اذ يكون القصدير فيه من ٢ الى ١٦ ٪ ولكن اذا قلت نسبة القصدير عن ذلك فلا يطلق عليه لفظة برنز بل تكون هذه الكمية موجودة فى المعدن طبيعيا .

ويمتاز البرنز على النحاس بأنه اذا أضيف للأخير مقدار ٤ ٪ من القصدير زادت صلابته ومقاومته وبخاصة عندما يطرق ، على أن رفع هذه

(1) Quibell & Green Hierakonpolis, II p. 38.
(2) Lucas, Ancient Materials, p. 79. (3) op. cit. p. 287.

النسبة إلى ٥ ./. تجعل النحاس سهل الكسر عند طرقه ، هذا إلى أن الإكثار من نسبة القصدير تقلل من مقدار ذوبان النحاس ، وتزيد فى سيلانه وبذلك يسهل تشكيله فى القالب . والواقع أن هذه هى أهم فائدة فى تحويل النحاس إلى البرنز ، إذ الواقع أن النحاس معدن ردىء الصب ، لأنه ينكمش عند مايبرد وكذلك لأنه يمتص الغازات وبذلك يصبح ذا مسام ولكن وجود القصدير يمنع امتصاص الأكسجين والغازات الأخرى .

وتاريخ البرنز غامض فى مصر ، إذ أنه لم يكشف فى مصر ، وذلك لأنه فضلا عن عدم معرفة خامات القصدير فى مصر قديما فإنه كان مستعملا فى آسيا قبل أن يعرف فى مصر بزمن طويل ، فقد عرف استعماله فى « اور » منذ ٣٥٠٠ ق.م. ، ولا بد اذن أن يكون المصريون قد عرفوه عن طريق آسيا .

ولا يزال عصر الانتقال من استعمال النحاس إلى استعمال البرنز مجهولا إلى الآن ، والواقع أن البرنز لم ينتشر استعماله فى مصر إلا منذ الأسرة الثانية عشرة ، غير أنه توجد أشياء يرجع تاريخها إلى عهد الدولة القديمة مصنوعة من البرنز فقد عثر على قطعة من عهد الملك « سنفرو » (1) أى منذ بداية الأسرة الرابعة ، وكذلك عثر السير « روبرت موند » (2) على موسى يقال أنها من عهد الأسرة الرابعة . وقد وجد أن كمية القصدير فيها نحو ٨٫٥ ./. .

(1) Petrie, Meidum, p. 36. (2) Report of British Association 1933, Abstraction Nature 132 (1933) p. 448.

والواقع أنه منذ عهد الدولة الوسطى [1] وجدت قطع تاريخها ثابت ولذلك يمكن تسمية هذا العصر عهد بداية استعمال البرنز . ومنذ الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها عملت تماثيل صغيرة من هذا المعدن غير أن استعماله لم يعترض استعمال النحاس بل كانا يستعملان جنبا لجنب .

صناعة البرنز : كان البرنز مثل النحاس يشكل بالطرق ، أو بالسبك فى قوالب ، ويمكن معرفة ما لهذا المعدن من الميزة إذا علمنا أن مقدار صلابته بعد الطرق يزداد ازديادا عظيما . فمثلا وجد أن قطعة من البرنز فيها كمية القصدير ٣٤ و ١٠ ٪ كان مقدار صلابتها قبل الطرق ١٧١ ؛ وأصبحت بعد الطرق ٢٧٥ . وقد كان البرنز يستعمل فى العصور المتأخرة فى مصر لعمل التماثيل الصغيرة ، وهى التى كانت تسبك صماء ، أو مفرغة ؛ وكانت التماثيل الصغيرة فى العادة تصب صماء ، أما التماثيل الكبيرة فكانت تسبك جوفاء .

وطريقة السبك هى المعروفة بطريقة الشمع المفقود . وذلك أن يعمل نموذج من شمع النحل من الشكل الذى يراد سبكه ثم يغطى هذا الشكل بمادة تأخذ شكل القالب . ومن المحتمل أن هذه المادة كانت تصنع من الطين ، أو من الطين المخلوط بمواد أخرى . ثم يدفن الشكل فى الرمل ، أو فى الأرض ؛ التى تقوم مقام حامل للقالب . ثم يحمى الشكل بدرجة تذيب الشمع ، أو تحرقه ، ويخرج من الثقوب التى كانت تعمل خصيصا ليصب فيها المعدن المصهور من البرنز . وبعد ذلك ، يصبح القالب صلبا جامدا معدا للاستعمال ، فيصب فيه المعدن المصهور من

(1) Lucas, Ancient Materials, p. 426.

البرنز ، ثم يترك ليبرد . وبعد ذلك يفتت القالب ، وينكشف عن الشكل المطلوب فتعمل فيه التصليحات النهائيـة بآلة خاصة . وقد رسمت مناظر تمثـل سبك البرنز فى مقـابر الأسرة الثامنة عشرة (1) ، وتوجد قوالب السباك فى المتحف المصرى وبخاصة لصب أشكال الطيور ولا نعرف إذا كانت لسباك الذهب ، أو البرنز ، أو هى قوالب لعمل القاشانى ، والزجاج .

النحاس الأصفر : وهو خليط من النحاس ، والزنك ، وقد وجدت خامات فى مصر تحتوى على المعدنين ، وكان يصدر هذا المعدن إلى مصوع فى القرن الأول بعد الميلاد . وقد عثر على خواتم منه وأقراط فى مقابر بلاد النوبة (2) من العصر المتأخـر .

الذهب : يوجد الذهب فى الطبيعة منتشرا بكثرة على هيئة معدن ، ولم يوجد قط فى حالة نقية . بل يكون دائما محتويا على كميات من الفضه أو النحـاس ، وأحيانا نجد فيه آثار حديد ، ومعـادن أخرى . ويوجد الذهب فى الطبيعـة عادة فى شكلين ، إما فى عروق غـير منتظمة ؛ فى ثنايا صخور الـكوارتس ، أو فى الرمال الغريانية ، والحصا . وهذا ناتج من تفتت صخور تحتوى على مادة الذهب ، قد حملها تيار ماء جف فيما بعد .

وقد عثر على الذهب فى هاتين الحالتين . ولما كان من السهل معرفة الذهب بلونه الأصفر البراق ، وكذلك بسهولة استخراجه فقد عرفه المصرى واستعمله منذ عصور سحيقة ترجع إلى ماقبل الأسرات .

---

(1) Newberry, The Life of R[illegible]mara, p. 37 pl. XVIII (2) Firth, Arch. Survey of Nubia, Report for 1910-11 p.p. 115, 157, 159, 165.

والذهب يوجد فى مناطق شاسعة فى مصر بين وادى النيل والبحر الأحمر ؛ وبخاصة فى الصحراء الشرقية جنوبا من طريق قنا والقصير إلى حدود السودان . يضاف إلى ذلك أنه قد وجدت مناجم ذهب شمالى خط عرض قنا حتى دنقلة فى السودان تقريبا ومعظم هذه المناطق تقع فى بلاد النوبة ، وهى اثيوبيا القديمة التى ذكرها الكتّاب الأقدمون ، والجزء المصرى الحالى منها هو بلاد النوبة السفلى ، أى من أسوان [1] إلى وادى حلفا . أما القسم السودانى فهو بلاد النوبة العليا ، أى من حلفا إلى مرو . ولم يعثر إلى الآن على ذهب فى شبه جزيرة سيناء .

وقد وجد أن عدد المناجم التى شغلت قديمًا فى الكوارتس لاستخراج الذهب يبلغ عددها نحو المائة ، والواقع أن المصريين كانوا من أمهر البحاثين عن هذا المعدن ، إذ لم يوجد مكان يشعر بوجود الذهب فيه ، إلا وجدنا المصريين قد سبقوا إليه ، وقتلوه فحصا وتنقيبا . وقد أحييت صناعة تعدين الذهب منذ مدة وجيزة ، ولكنها أهملت ثانية لأسباب اقتصادية .

وقد ظن الأستاذ « بترى » [2] أن الذهب كان يجلب إلى مصر منذ الأسرة الأولى ، وعزا ذلك لوجوده مخلوطا بالفضة . غير أنه نسى أن الذهب المصرى كان يحتوى أحيانا على مقدار عظيم من الفضة طبيعيا ، وكذلك ذكر الأستاذ بترى أن الذهب يحتوى على مقدار من الاثمد منذ عهد الأسرة الثانية ، وبذلك استنتج أنه لا بد أن جلب إلى مصر من ترنسلفانيا موطن الإثمد ، [3] ولكن ذلك محض خطأ .

(1) Stanley C. Dunn, On th Mineral deposits of the Anglo-Egyptian Sudan p. 13. (2) Petrie, The Arts & Crafts of Ancient Egypt. (1910) p. 83. (3) Petrie, Descriptive Sociology Anc. Egypt. p. 57.

والواقع أن الوثائق المصرية القديمة تخبرنا أن الذهب كان يجلب إلى مصر من أقاليم الجنوب فى عهد الأسرة الثانية عشرة . على حين أنه ليس لدينا وثائق ، تدلنا على أنه كان يجلب إلى مصر من الشمال قبل الأسرة التاسعة عشرة .

وقد كان يؤتى بهذا المعدن إلى مصر فى الأسرة الثانية عشرة من قفط ، وبلاد النوبة ، وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة من الأراضى العليا ، وكاروى ، وقفط ، وكوش ، وبنت ، والأقاليم الجنوبية . وفى الأسرة التاسعة عشرة من أكيتا ، وأرض « الإله » ، وكاروى وبنت ؛ وفى الأسرة العشرين من إدفو ، وإيمو ، وقفط ، وبلاد الدهنج ، وأراضى العبيد ، وأميو ، ومن الشمال فى عهد الأسرة التاسعة عشرة من لوبيا ، وفى الأسرة العشرين من آسيا ، وفى الأسرة الثانية والعشرين من « خنت نفر » (1) . وأقدم خريطة فى العالم هى الموجودة الآن فى متحف تورين ، رسمت على ورق بردى . وقد ظهر عليها مواقع مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية ، ويرجع تاريخها إلى عصر الملك « سيتى الأول » من الأسرة التاسعة عشرة . ولا نزاع فى أن المصرى منذ الدولة القديمة كان فى متناوله مقدار عظيم من الذهب كما تدل على ذلك مخلفات الملكة « حتب حرس » ، وبخاصة قبتها الذهبية وكذلك ما وجد فى بعض مقابر عظماء القوم وقد زاد مقدار الذهب فى عهد الدولة الحديثة كما يشاهد فى مقبرة « توت عنخ آمون »

(1) Br. A. R. (I) 520, 521. & op. cit. II 263, 373, 502, 514, 522, 526, 774, 889,. op. cit. III, 37, 116, 274, 285 286,. op. cit. IV, 30, 33, 34, 228, 409, 26, 770.

إذ نجد أن وزن تابوته فقط ما يقرب من ٥ر١١٠ كيلوجرام من الذهب الخالص . وكان الذهب يصاغ بالطرق والسبك . وكذلك كانت تنقش صفائحه بالبارز والغائر ، وتحلى صفائحه الرقيقة الآثاث ، والتوابيت الخشبية ، وغير ذلك من أدوات الزينة ، وكذلك كان يذهب النحاس. هذا إلى أنه كان يصنع من الذهب سلوكًا رفيعة لنظم العقود .

ولوحظ أن الذهب كان يطرق إلى أوراق رقيقة ، واستعملت للتذهيب وكذلك كان يلون الذهب ويلحم ، وبالاختصار فإن معظم الصناعات الحديثة لصياغة الذهب كانت مستعملة عند قدماء المصريين ، وقد شرح كل من « ويليمز وفرنييه » [1] تفاصيل طرق صناعة المجوهرات وكذلك قاس الكيمائى «لوكاس» صفائح من الذهب يختلف سمكها ما بين ١٧ر٠، ٥٤ر٠ من المليمتر ، ٠٩ر٠ من المليمتر وذكر « بترى » أن سمك الورقة كان غالبًا $\frac{١}{٥٠٠٠}$ من البوصة أو ١٢٧ر٠ من المليمتر.

وعند ما كان يراد استعمال ورق الذهب فى تزيين الشكل البارز فى الخشب كانت توضع الصفائح مباشرة على الخشب المشغول ثم تثبت فيه بمسامير صغيرة من الذهب ، ولكن عند ما كانت توضع أوراق رقيقة جدا على الخشب ، كان يغطى الخشب أولا بطبقة رقيقة من جبس خاص كان يلصق عليه الذهب بمادة مثبتة ربما كانت الغراء . وعند ماكان يراد استعمال ورق أرق مما سبق ، كانت توضع كذلك طبقة من الجص غير أن

(1) C. R. Williams, Gold and Silver Jewelry and Related Objects.; Vernier (a) Bijoux et orfèvreries dans Cat. Gen. du Musee du Caire ; (b) La bijouterie et la foaillerie Egyptienne dans Bull. de L'Inst. Franc. d'Arch. Orient. du Caire, II, 1907.

نوع المـادة المثبتة التى كانت توضع فوقهـا لم تعرف بعد بالضبط وقد قال الأستاذ « لورى » (1) إنه لاحظ فى حالة من تلك الحالات ، أن المادة كانت بياض بيضة وكان كل من معدنى النحاس والفضة يجليان أحيانا بقشرة من الذهب ، وكانت هذه القشرة توضـع على النحـاس بإحدى طريقتين ، الأولى بطرق ورقة رقيقـة من الذهب على النحاس ، والثانية تثبيت ورقة الذهب على النحاس بمادة لاصقة ، ربما كانت الغراء وقد عثر على أمثلة من النوع الأول ، وهى أزرار استعملت كأختـام من عهـد الأسرة السادسة تقريبا ؛ وكذلك عثر على تعويذة تمثـل الإله « تحوت » أما تذهيب الفضة فقد عثر على أمثلة منه فى عهد الأسرة الثانية والعشرين . (2)

وقد لوحظ فى الآثار التى عثر عليها من الذهب القديم أنها تكون على ألوان شتى فنجد من بينها الأصفر الفاقع ، والأصفر القاتم ، والأحمر المختلف الألوان كاللون اللبنى المائل إلى الحمـرة ، والطـوبى الخفيف ، والدمـوى ، والأرجوانى القاتم ، ثم الأحمر القرنفلى . وكل هذه الألوان عرضية ما عـدا الأخير إذ قد نتج من مزج الذهب الخالص بكمية بسيطة من الحـديد . كما يقول بعض علماء الـكيمياء . أما الذهب الأصفر الفاقع فهو نضار خالص أما الأصفر القاتم المبقع فيحتوى على نسب من معـادن أخرى كالفضة والنحاس . أما الذهب الرمادى فيحتوى على نسبة كبيرة من الفضة تغـير لون مسطحه الخارجى .

الألـكتروم : وهو مزيج من الذهب ، والفضة ، وقد يكون طبيعياً .

(1) Laurie, Methods of testery minute quantities of material from pictures & Works of Art, in the Analyst, LVIII (1933) p. 468.
(2) Vernier, op. cit. p. 240-1, 378-9 pl. LVIII-IV, LXXVII

أو صناعياً ، والنوع الذى استعمل فى مصر القديمة يحتمل أنه كان دائماً من صنع الطبيعة . وقد تحتوى سبيكة هذا المعدن على أى نسبة من الذهب والفضة ، غير أنه عند ما تكون نسبة الذهب عالية فيه يكون لونه كلون الذهب الطبيعى . وعند ما تكون نسبة الفضة عالية يكون لون المعدن أبيض فضياً . ويمكن فى هذه الحالة أن يعتبر المعدن أنه فضة : وفى كلتا الحالتين لا يمكن أن يسمى الكتروم لأن هذا الاسم قد وضع ليدل على المعدن ذى اللون الأصفر الباهت ، وهو ما أطلق عليه الأغريق الكترون ، وسماه الرومان الكتروم . ويقال إنه سمى بهذا الاسم لمشابهته بلون الكهرمان . وهو الاسم الذى أطلقه عليه كل من « هومر » ، « وهزيود » (الكترون).

وقد ذكر فى الوثائق القديمة أن الألكتروم كان يجلب إلى مصر من بلاد بنت [1] ، « وآمو » ، والأراضى العالية ، والممالك الجنوبية ، ومن المناجم الواقعة شرقى رادسية ، ومن الجبال وكلها أماكن واقعة فى جنوب مصر ، وليس هناك ما يدل على أنه كان يجلب من الشمال ، أو من « بكتولس » كما ذكر الأستاذ « بترى » .

والواقع أنه ليس هناك فاصل حقيقى بين الذهب والألكتروم بل هو محض اصطلاح . فعند ما تكون السبيكة محتوية على أقل من ٢٠٪ من الفضة فإنه يطلق عليها كلمة ذهب وعند ما تكون النسبة ٢٠ أو أكثر فإن لونها يكون أصفر ، وبهذا يطلق على المعدن لفظة الكتروم . وهذا التعريف يتفق مع ما قاله « بلينى » .

ولا نزاع فى أن الألكتروم كان موجوداً فى مصر طبيعياً وأن المقادير

---

(1) Br. A. R. (I), & II 272, 298, 387, 374, 377.

التى استخرجت منه كافية لسد حاجة البلاد ؛ وقد كان المصرى يفضل عمل مجوهراته منه أكثر من الذهب ، وذلك لصلابته ، وربما كان ذلك هو السبب الذى جعله كثير الاستعمال فى مصر القديمة . وكان يستعمل فى نفس الأغراض التى كان يستعمل فيها الذهب ، أى فى صنع المجوهرات ، وتذهيب الخشب ، والتوابيت الخشبية والأثاث ؛ ويرجع بداية استعماله إلى الأسرات الأولى .

الحديد : لا نزاع فى أن مركبات الحديد توجد بكثرة عظيمة فى الطبيعة ، على حين أن معدن الحديد الخالص لا يوجد إلا بكميات قليلة . والحديد على نوعين مختلفين أولهما يوجد على شكل بلورات معينة من أكسيد الحديد فى بعض الصخور البركانية ، ويندر وجوده فى شكل قطع كبيرة . والنوع الثانى هو ما يسمى بالحديد السماوى وهو تراب أو قطع من شهب تحتوى على حديد ، ويمتاز هذا النوع الأخير بأنه يحتوى على كمية من معدن النيكل تتراوح بين ٥ و ٢٦ ٪ على حين أن الحديد الأرضى أى الذى يوجد فى الصخور البركانية لا يحتوى على هذا المعدن إلا فى الصخور فوق القاعدية نادرا و بكمية قليلة جدا .

والمعادن التى تحتوى على مادة الحديد كثيرة فى مصر ، وأهمها خام الهماتيت ، وقد تكلمنا عنه فيما سبق ، وكذلك توجد بعض مركبات الحديد فى المغرة الحمراء والصفراء ، ويستعملان للتلوين وهذه الخامات توجد على الأخص فى الصحراء الشرقية وفى سيناء (1) وفى المغرة القريبة من أسوان ،

(1) Hume, The Distribution of iron ores in Egypt. & Nasssim, Minerals of Economic Interest in the Deserts of Egypt, in Report of Congrés Inter; de Geol. Le Caire, 1925, III, 1926 p.p. 164-5.

وفى واحات الصحراء الغربية .

والواقع أنه لا يوجد موضوع كثر فيه النقاش ، والتضارب أكثر من تحديد العصر الذى بدأ فيه استعمال الحديد بصفة عامة ويزعم بعض العلماء أن الحديد كان حتما مستعملا فى مصر منذ أقدم العصور لقطع الأحجار الصلبة وحفرها ، إذ لم يعرف للآن أية وسيلة أخرى استخدمت للوصول إلى قطع هذه الأحجار وصنعها إلا إذا كان الحديد أو الصلب قد استعمل لهذا الغرض ويعتمد الذين يميلون لهذا الرأى ، على وجود بعض قطع من الحديد يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات ، وأن عدم وجود كميات عظيمة من هذا المعدن إلى يومنا هذا فى الآثار المكشوفة يرجع إلى أن الحديد يغمره الصدأ ويتآكل وتختفى معالمه . وقد عثر على قطعة من الحديد بالقرب من الهرم الأكبر ، والظاهر أنها ليست قديمة بل قد تركها الذين كانوا يعملون فى تكسير أحجار هذا الهرم حديثًا لاستعمالها فى مبانيهم .

وأهم القطع التى عثر عليها منذ عصر ما قبل الأسرات هى بضع خرزات [1] ولكنها عند ما حللت وجد أنها من الحديد السماوى أى من بقايا الشهب المتساقطة ، وكذلك عثر «مسبرو» على عدة قطع[2] من بلطة فى أبو صير ذكر أنها يجوز أن تكون من عهد الأسرة السادسة ، ولكنه لم يجزم بشىء قاطع فى تحديد تاريخها .

بعد ذلك عثر « بترى » على كمية من الحديد الذى يعلوه الصدأ ومعها

(1) Wainwright, The Labyrinth, of Gerzeh and Mazghuneh p.15-16. (2) Guide au musée de Boulaq, 1883. p. 296

معاول من النحاس يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة (1) فى أساس معبد فى العرابة المدفونة . ومن المحتمل أن الحديد الذى وجد هنا لم يكن على شكل آلة للاستعمال لأن كيفية صهر الحديد لم تكن قد عرفت بعد .

يلى ذلك العثور على رأس حربة من الحديد فى بلاد النوبة يقال إنها من عصر الأسرة الثانية عشرة (2) . غير أن هذا التاريخ ليس مؤكدا . وكذلك عثر على جزء من معول د وجزء من فأس يقال إنهما من عهد الأسرة السابعة عشرة ، ولكن ذاك لم يؤكد بعد .

وفى مقبرة «توت عنخ آمون» (3) أى فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة عثر على عدد من قطع الحديد ، وهو خنجر ونموذج مخدة وتعويذة للعين مرصعة فى سوار من الذهب ، وست عشرة آلة لها مقابض من الخشب ، وأسلحتها صغيرة جدا رقيقة وكلها من الحديد ، ووزن كل هذه الأسلحة لا يزيد على أربعة جرامات ، وهذه كانت بلا نزاع تستعمل آلات سحرية لفتح فم مومياء « توت عنخ آمون » غير أننا لا نعرف إذا كانت هذه من حديد الشهب أو من حديد الأرض .

ومنذ عهد « توت عنخ آمون » أخذ عدد قطع الحديد يزداد وجوده حتى الأسرة الخامسة والعشرين (4) ، وفى هذا العهد عثر على كمية من الآلات مصنوعة من هذا المعدن ؛ ومن ثم أصبح الحديد كثير الاستعمال إذ لوحظ فى آثار بلدة نقراش وبلدة إدفينا فى عهد الأسرة السادسة

(1) Petrie, The Arts & Crafts of Anc. Egypt. p. 104. (2) Randall-Mac-Iver & Woolley, Ruben p.p. 193, 211, pl. 88. (3) Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen, II, p.p. 109, 122, 135, pls LXXVII, LXXXII, LXXXVII; III, p.p. 89-90, pl. XXVII.

(4) Petrie, Six Temples at Thebes p.p. 18-19.

والعشرين أن الحديد كان مستعملا كالنحاس بل أكثر ، وكان يصهر في البلاد ، وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد عثر على آلات من الحديد في المحاجر .

ومن كل ما سبق يتضح أنه وجد في مصر في العهود الأولى مقدار صغير جدا من الحديد المتخلف من الشهب صنع منه خرز ، ولكن لم يكن يعرف الحديد بمعناه الحقيقي ، أو كيف يستخرج من خاماته . ولكن مما لا شك فيه أن لفظة معدن السماء كانت موجودة عند قدماء المصريين . وخلافا لذلك فإن كل القطع التي عثر عليها من الحديد تاريخها مشكوك فيه حتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة ، عند ما عثر على قطع حقيقية من الحديد في « مقبرة توت عنخ آمون » ، ولا نزاع في أنها كانت قد أهديت له من ملوك غرب آسيا موطن صناعة الحديد .

ولا بد أن الحديد نفسه كان كشفا جديدا في سوريا وفلسطين في عهد أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، إذ لم نعثر على اسم الحديد من بين الهدايا التي كان يقدمها ملوك هذه الجهات . وأقدم تاريخ عثرنا عليه لصناعة الحديد في مصر يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك عند ما كشف « بترى » معملا لصهر الحديد في نقراش[1] الواقعة في الشمال الغربي من الدلتا . غير أننا لا نعرف من أين أتى بخاماته .

ومن جهة أخرى نعرف أن خامات الحديد قد استخرجت قديما من الصحراء الشرقية ، وبالقرب من أسوان ، ويحتمل أن المكان الأول

(1) Petrie, Naukratis p. 39.

قد استعمل فى عهد الرومان ، وأهم سبب فى تعرف الإنسان على النحاس قبل الحديد رغم كثرة خامات الحديد عن خامات النحاس ، أن الأخير يمكن طرقه باردا أما الحديد فلا يمكن طرقه إلا بعد أن يحمى بدرجة عظيمة .

الرصاص : وجد هذا المعدن فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات والسبب فى ذلك يرجع إلى أن خامات هذا المعدن توجد فى مصر منها الجلينة (فلز الرصاص) ، وتظهر بشكل معدنى يسترعى النظر هذا إلى أن هذا المعدن يمكن الحصول عليه بسهولة من خاماته .

وأهم الأماكن التى توجد فيها خامات الرصاص هى جبل الرصاص[1] الواقع على مسافة سبعين ميلا جنوب القصير . على أنه توجد رواسب منه فى أماكن أخرى مثل رنجا على ساحل البحر الأحمر ، ومنطقة سفاجا بالقرب من البحر الأحمر ، وكذلك يوجد بالقرب من أسوان [2] .

وأهم خامات للرصاص هى الجلينة التى كانت تستعمل فى مصر قديما لتكحيل العين منذ عصر ماقبل الأسرات حتى العهد القبطى ، وكان الرصاص يستعمل لأغراض شتى فصنعت منه تماثيل صغيرة للأنسان ، والحيوان [3] ومثقلات لشباك صيد السمك ، وخواتم ، وحلى ، ونماذج أطباق ، وصوان وسدادات . وأحيانا كان يستعمل لعمل الأوانى وغير ذلك . ولا نزاع فى أن معظم الرصاص الذى كان يستعمل فى مصر حتى عهد الأسرة

---

(1) Mines & Quarries Dep, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 p. 24. (2) Hume, Explan. notes to the Geol. Map. of Egypt. p. 38-9. (3) Petrie, Prehist. Egypt. p. 27 & Petrie, Objects of daily use, p. 49.

الثامنة عشرة كان يستخرج من مصر وليس هناك مايدل على أنه كان يجلب من سوريا حتى عهد الفتوح المصرية فى آسيا ، إذ تدل الوثائق على أنه كان يجلب من « زاهى » ، و « رتنو » ، و « إيسى »[1] ، ويظهر أن الأخيرة ليست قبرص بل هى إقليم واقع فى شمال سواحل سوريا ، وذلك لأن خامات الرصاص لا وجود لها فى قبرص .

الفضة : كانت الفضة نادرة فى مصر منذ أقدم العصور وكل ما عثر عليه هو بعض نماذج يرجع عهدها إلى عصر مدينة نقادة من عهد ماقبل التاريخ ، فقد كشف عن غطاء إناء صغير وملعقة صغيرة بمقبض مجدول[2] وكذلك عثر على آثار من الفضة فى مقبرة الملك « سمرخت ». وفى مقبرة الملكة « حتب حرس »[3] نجد أن الأدوات المصنوعة من الفضة كانت نادرة جدا بالنسبة للأدوات التى صيغت من الذهب ولذلك كانت تعد أنفس منها وأغلى قيمة ، إذ نشاهد أن الذهب كان يستعمل بسخاء لتذهيب الأثاث ، ولعمل أطباق صغيرة وأقداح للشرب وسكاكين وأمواس ، على حين أنه لم يصنع من الفضة إلا ٢٥ حجالا مرصعة بالفيروز واللازورد والعقيق . وترى فى ظاهرها كأنها قطع صماء ولكنها فى الواقع مفرغة . يضاف إلى ذلك أنه حتى فى مقبرة « توت عنخ آمون » أى بعد عصر «حتب حرس» بنحو ١٥٠٠ سنة نجد أن الذهب لم يستعمل فى أثاثه إلا بمقدار طفيف . فمن ذلك نرى أن الفضة كانت مادة نادرة حتى عهد

(1) Br. A. R. II, 460, 462, 471, 491, 509, 494. 521.
(2) Petrie, Metals in Egypt. p. 16, Prehistoric Egypt, p.p. 27 & 43.
(3) G. A. Reisner, Tomb of Queen Hetep-Heres in Bull. Mus. Arts, Boston, 1917, XXV.

الأسرة الثامنة عشرة ولكن يظهر بعد ذلك أنها استعملت بعض الشيء وبخاصة أن الكشوف الحديثة من عهد الأسرة الثانية والعشرين برهنت على أن بعض الفراعنة كانوا يصنعون توابيتهم من هذا المعدن . ولكن كثر استعماله فى عهد البطالسة .

ولم يعثر على معدن الفضة فى مصر حتى الآن لا فى حالته الطبيعية ولا فى حالته المعدنية . والفضة الطبيعية تكون تقريبا نقية ، وتوجد بكميات صغيرة فى حالة متبلورة كالأبر والخيوط ، وكذلك توجد نادرا على شكل شذور وألواح رقيقة ، وتوجد الفضة فى كل نوع من الذهب وتكون أحيانا بكمية عظيمة . وأهم خامات الفضة هى كبريتات الفضة ، وتوجد وحدها أو مختلطة بكبريتات الإثمد أو الزرنيخ وكلورور الفضة . ومن هذه الخامات يستخرج نحو $\frac{1}{3}$ من محصول فضة العالم . أما الثلثان الباقيان فيحصل عليهما من خامات الرصاص ، والزنك ، والنحاس وهى تحتوى على نسبة قليلة جدا من الفضة .

والذهب المصرى يحتوى فى العادة على نسبة كبيرة من الفضة بين ١٠ ٪ و ٢٣ ٪ وهذه النسبة هى التى وجدت فى الذهب المصرى المستخرج حديثا ، وكذلك وجدت نسبة عظيمة من الفضة فى الذهب الذى عثر عليه فى الكشوف الأثرية .

ويقول الأستاذ بترى (1) إن الفضة التى استعملت فى مصر منذ عهد ما قبل الأسرات يحتمل أنها جلبت من سوريا وهذا هو السبب فى

(1) Petrie, Metals in Egypt, p. 16 & Prehistoric Egypt, p. 27.

ندورة استعمالها ويعزز هذا الرأى الوثائق التى وصلتنا من الأسرة الثامنة عشرة وهى عصر الفتوح العظيمة فى آسيا . فلا يبعد إذن أن السفن التى كانت تمخر عباب البحر قاصدة سواحل فنيقية فى العهد المنفى لتحضر الخشب اللبنانى كانت تحمل معها أيضاً الفضة . غير أن « لوكاس »(1) يقول إن هذا المعدن مستخرج من مصر نفسها حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة وهذا هو السر فى أننا نجد الوثائق القديمة صامتة عن أصل مصدر الفضة حتى هذا العهد ، ومن ثم ذكرت لنا أنها كانت تجلب إلى مصر من آشور وبلاد الخيتا والنهرين وبلاد « الرتنو » ، و «زاهى»(سوريا) وكل هذه الأقاليم فى آسيا . وفى عهد الأسرة ١٩ كانت الفضة تجلب من أرض الإله (بنت) وبلاد الخيتا والنهرين وكذلك من لوبيا الواقعة فى الشمال الغربى لمصر . وفى اعتقاد « لوكاس » أنه لا شك فى أنه كان يوجد فى مصر وفى آسيا سبائك من الذهب والفضة تشبه فى طبيعتها معدن الالكتروم وهذه السبائك كانت كمية الفضة فيها عظيمة مما أكسبها لون الفضة الأبيض ، وأن هذه السبائك كانت هى الفضة القديمة وقد سماها المصريون « الذهب الأبيض » . والظاهر أن هذا القول يقرب من الحقيقة ، إذ نجد أن كل الفضة التى عثر عليها فى مصر قديماً تحتوى على نسبة عظيمة من الذهب تبلغ أحياناً ١ ر ٣٨ ٪

وقد عرف المصريون تفضيض النحاس بورق من الفضة إذ عثر « برنتن » على إبريق من النحاس عليه طبقة رقيقة من الفضة يرجع تاريخه

---

(1) Lucas, Ancient Eg. Materials p. 204 sq.

إلى عهد الأسرة الثانية (1)

وأهم إستعمال للفضة قديماً كان لصنع الخرز ، والجوهرات ، والأقداح والأوانى . وكانت تطرق كالذهب الى ورق رفيع وتستعمل لتغطية الخشب كما يشاهد فى أحد توابيت « يويا » من الأسرة الثامنة عشرة وقد عثر على مثال واحد لاستعمال الفضة للحام النحاس (2) .

القصدير : إن تاريخ كشف القصدير فى مصر غامض جدا وكذلك لا نعرف على وجه التحقيق أى المعدنين استعمل أولا : البرنز أم القصدير ولكن المحتمل جدا أن البرنز قد استعمل قبل اعتبار القصدير معدنا منفردا وهو فى ذلك كالنحاس الأصفر (مزيج من النحاس الأحمر والزنك) الذى كان معروفا قبل الزنك . وعلى أية حال فإن أهم استعمال للقصدير فى مصر كان لعمل البرنز .

ورغم أن خام القصدير لا يوجد فى مصر ، فإن أقدم استعمال لهذا المعدن كان فى وادى النيل . فأول شىء معروف فى العالم صنع من القصدير على ما نعلم خاتم (3) وزمزمية ماء عثر عليهما فى المقابر المصرية من عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ـ ١٣٥٠ ق . م) .

وقد كان القصدير يستعمل فى مصر بمقدار قليل منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها لتبييض الزجاج (4) . وقد عثر على هذا المعدن

---

(1) Brunton, Qua & Badari, I, 67 pl. XVIII (10)
(2) Lucaș, Ancient Eg. Materials, p. 173. (3) Flinders Petrie, The Arts & Crafts of Ancient Egypt. 1910 p. 104. (4) E. R. Ayrton C. T. Curelly & A. E. P. Weigall, Abydos 14, p. 50. Neumann and G. Katyga Z. für Angew Chem. 1925 p.p. 776-80, 857-64. & H. D. Parodi, La Verrerie en Egypte p.p. 34, 45.

فى مقبرة «توت عنخ آمون»[1]. وأقدم آشارة لمعدن القصدير فىالنقوش المصرية جاءت فىورقة هرس التى يرجع عهدها إلى الأسرة العشرين[2]. غير أن معنى الكلمة التى ترجمت بالقصدير مشكوك فيه.

وقد اختلف العلماء فى مصدر القصدير الذى كان يستعمل فى مصر فطائفة تقول إن مصدره أوربا وأخرى تقول إفريقية وطائفة ثالثة تجعل مصدره آسيا . ولكن البحوث التى عملت تدل حتى الآن على أن كلا من معدنى القصدير والبرنز كان يجلب من غربى آسيا وأنهما كانا يستخرجان من الشمال الشرقى من بلاد الفرس حيث يوجدان بكثرة [3]. وقد كتب « وينرايت » مقالا دلل فيه على أن مصدر القصدير المصرى من مكان بالقرب من الشمال الغربى من بلدة بيروت الحالية [4] .

الشب : إن أول آشارة إلى وجود الشب فى مصر قد جاءت على لسان «هردوت » عند ما ذكر أن الملك أمازيس [5] (٥٦٩ — ٥٢٦ ق . م) قد أرسل كمية منها لبلاد اليونان عند إعادة بناء معبد دلفى وسماه مادة قابضة (الشب) وكذلك ذكر هذا المعدن الكاتب الرومانى « بلينى » فى القرن الأول المسيحى . فقال إن من أهم مصادر الشب مصر[6] . ويوجد الشب فى الواحة الداخلة والواحة الخارجة .

وقد جاء ذكر استخراج الشب فى كتب المحدثين كالمقريزى [7]

(1) Lucas, Appendix II Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen III p.p. 176-7. (2) Br. A. R. IV, p.p. 245, 302, 385, 929.
(3) Lucas, Notes on the Early History of tin & bronze, in J. E. A. XIV 1928 p.p. 100-101. (4) Wainwright, in J. E. A. XX 1934, p.p. 29-32. (5) H. II, 180. (6) Pliny, XXXV, 32.
(7) Meqrisi, Descrip. topog. II et Hist. de l'Egypte dans Mem. Mission Arch. au Caire, 1900, p.p. 17, 691, 697, 698.

الذى يقول أنه كان يرسل إلى مصر من الواحات نحو ١٠٠٠ قنطار من الشب ، وكذلك يوجد على مسافة من الجنوب الغربى من الشلالات على مسيره عشرة أيام فى الصحراء ، وكانت الكمية المستخرجة تكوّن جزءاً من دخل البلاد كما ذكر ذلك « هملتون » فى سنة ١٨٠٩ [1] . وأهم استعمال لها الآن هو تثبيت الألوان .

النطرون : توجد هذه المادة الآن فى ثلاث جهات من القطر المصرى وهى وادى النطرون ومديرية البحيرة وجهة الكاب فى الوجه القبلى . وقد ذكر القلقشندى الكاتب المصرى الذى عاش فى القرن الخامس عشر مكانين آخرين يستخرج منهما النطرون أحدهما بالقرب من البهنسا فى الوجه القبلى وكان يستغل فى عهد احمد بن طولون (٨٣٥ ـ ٨٨٤)م والثانى فى مركز فاقوس . على أن أهم مكان كان يستعمله قدماء المصريين هو وادى النطرون وماجاوره من مديرية البحيرة وبخاصة بالقرب من دمنهور . وقد كان النطرون يستعمل فى مصر قديما فى احتفالات التطهير [2] وبخاصة لتطهير الفم [3] ولعمل البخور ، ولصناعة الزجاج ، والطلاء ، وفى الطهو [4] ، إذ يقول « بلينى » أن المصريين كانوا يستعملون النطرون فى طبخ الفجل ، وكذلك كان يستعمل فى الطب وفى التحنيط [5] .

---

(1) W. Hamilton, Ægyptiaca, Remarks on several parts of Turkey, Part I, p. 428.

(2) Br. A. R. IV, 865. A. M. Blackman, Some notes on the Ancient Egyptian Practice of Washing the Dead, in J. E. A. X, 1918 p.p. 118-20. (3) Blackman, The House of Morning in J. E. A. V (1918) p. 156-7, 159, 161-3.

(4) Pliny, XXXI. (5) Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus I, p.p. 412, 491.

الشئون الاجتماعية

نظام العمل وقانون العمال فى عهد الدولة القديمة

الاعمال الحكومية .

يمكن تقسيم العمل فى عهد الدولة القديمة إلى ثلاثة أنواع . وهى الأعمال الحكومية أو الأعمال الحرة كالحرف والصناعات ، ثم أعمال أصحاب الضياع العظيمة . وسنتكلم عن كل منها حسب ما لدينا من المعلومات .

كانت الأعمال العظيمة التى تتطلب مجهودا كبيرا ومصاريف باهظة تقوم بها الحكومة بل أصبحت تحتكرها .

وأهم هذه الأعمال استغلال مناجم النحاس ، والذهب . وكانت الحكومة وحدها هى التى تشرف على هذه المناجم وتصريف الأعمال فيها على أكمل وجه . فكانت تجهز طوائف من العمال المختصين تحت إشراف رؤساء عمال ومفتشين ، وتعد الأساطيل والقوافل لنقل العمال وما يلزمهم من آلات ومهام . وقد كان لها إدارة خاصة لتزويد العمال ، وحامية من الجنود لحماية الطرق والمناجم من هجمات القبائل التى كانت تغير على بقاع المناجم فى الصحراء .

وكذلك كانت الحكومة منفردة باستغلال المحاجر التى كانت تستوجب بطبيعة الحال انخراط عدد عظيم من الأيدى العاملة فيها ، واستعمال مهمات عظيمة من كل الأنواع . وذلك لأنها كما نعلم كانت الأساس الأول لأقامة المبانى الضخمة التى بدأت تظهر بشكل جلى فى عهد الملك « زوسر » .

فأقيمت الأهرام الملكية ومقابر المقربين ، ومعابد الآلهة ، ومعابد الشمس مما كان يستلزم استخراج الأحجار من كل الأنواع ، ويتعذر على عظماء البلاد القيام به .

وتدل كل النقوش من أقدم العهود والتواريخ الملكية وكل الوثائق المكتوبة على أن الملك كان المحتكر لاستخراج المعادن والأحجار .

وقد كان لإقامة المبانى بالأحجار شأن عظيم منذ بداية الأسرة الثالثة ، ولا أدل على ذلك من أن المهندس المعمارى الملكى (مدح نيسوت) كانت له أهمية ممتازة فى إدارة البلاد . فقد كان « إمحوتب » مستشار الملك « زوسر » يحمل لقب مهندس معمارى (1) ملكى وكذلك كان كل المهندسين المعماريين الملكيين الذين خلفوا « إمحوتب » من كبار الشخصيات ففى عهد الأسرة الثالثة نجد « نزم عنخ » وكان يحمل لقب نائب الملك فى « نخن » (2) ، « وحسى » ويحمل لقب (أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم) (3) ، وفى عهد الأسرة الرابعة كان يحمل هذا اللقب « حميون » وهو أحد أحفاد الملك (4) . وفى عهد الأسرة الخامسة حمل نفس اللقب « سنزم إيب » وكان فى الوقت نفسه وزيرا (5) .

وهذا المهندس المعمارى كان رئيسا لجيش من قاطعى الأحجار والمعماريين والحفارين ، والمثالين ، وكان كل ذلك يحتاج إلى إدارة تستوجب وجود

(1) Inscribed Statue of King Zoser, in Ann. Ser. A. 1926 p.p. 192 sq. (2) Garstang, Mahasna, pl. XXVI, 7. (3) Weill, Origines, p. 233. (4) Junker, Giza I, p. 150.
(5) Pirenne, Institutions, t.II, Index No. 37.

عدد عظيم من الكتبة وإدارة منظمة ذات أقلام ومصالح [1] ؛ ولا أدل على ذلك من الألقاب التى يحملها الموظفون أو الكاتب المعمارى الملكى والمشرف على الوثائق . ونجد البنائين خاضعين لأوامر مديرين (إمرا كدو) عليهم ويساعدهم فى ذلك رؤساء بنائين (سحز كدو) [2] . وقد ترك لنا الذين أقاموا المبانى العظيمة فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة علامات تدل على قطع الأحجار فى طرة وتكشف لنا بعض الشىء عن نظام العمل فى عهد « خفرع » [3] ومنكاورع وسحورع ونوسرع . وقد كان العمال يقسمون إلى فرق « عبرو » ثم الى زمر (سا) وقد كانت القطع التى تفصل من الصخر تحمل طابع المعمل الذى قطعها فى المحجر [4].

وقد عثر فى منطقة الأهرام نفسها على مساكن للعمال الذين كانوا يقومون بالبناء . وهى قاعات ضيقة طويلة ، أو بعبارة أخرى دهاليز يبلغ عددها نحو المائة كل منها يأوى نحو خمسين عاملا [5] .

ومن ذلك يتضح أن الأعمال فى مشاريع الحكومة كانت منظمة على طريقة حربية والواقع أن لفظة « عبرو » ولفظة « سا » من الكلمات الحربية .

وقد ذكر لنا « هردوت » أن بناء هرم « خوفو » استلزم جيوشا من عمال المحاجر لقطع الأحجار من جبال صحراء العرب ، ثم جرها الى النيل ،

(1) Weill, Origines, p.p. 232, 235. (2) Junker, Giza I, p. 150.
(3) Reisner, Mycérinus, app. E. p. 273-277; Chronique d'Egypte, No. 16, 1933 p. 240-2; Petrie, Meidum and Memphis, III,.p. 9; Borchardt, Sahure, t. I, p.p. 85 sq.; Neferirkare, p.p. 45 sq.; Neuserre, p. 146. (4) Chronique d'Egypt, p.p. 45 sq.; Neuserre, p. 146. (5) Holscher, Das Grabdenkmal des Konigs Chephren, p.p. 36, 70; Junker, Giza I, p. 124-125.

ووضعها فى سفن لعبور النهر ، ثم نقلها الى قمة هضبة الجيزة . وفى هذه الجهة كان يشتغل ١٠٠٫٠٠٠ عامل يعملون بالتناوب كل ثلاثة أشهر وقد استمر العمل عدة أعوام فى بناء الطريق المأتى من معبد الوادى إلى الجنازى وعشرين سنة لبناء الهرم نفسه (1)

ويظن المؤرخ الأغريقى أن هذا البناء الضخم قام على أساس الاستبداد الفرعونى وأثرة « خوفو » التى بلغت مبلغا عظيما . والقسوة المنقطعة النظير التى استعملها الفراعنة فى استعباد الشعب لأقامة مدفن لهم هائل .

والواقع أنه إذا كانت المقابر العظيمة التى أقامها الفراعنة تمثل المجهودات التى بذلتها آلاف النفوس البشرية ، واذا كان كل ملك أعاد هذا المجهود الجبار ؛ وإذا كنا لم نر أية معارضة ملموسة للآلام التى لاحد لها التى قاساها العمال ؛ فإن ذلك برهان كاف على أن الأهرام ليست بأية حال من الأحوال رمزا للعبودية « والقسوة » بل رمزا للطاعة الإلهية يعمله الفرد وهو يشعر بأنه يؤدى واجبا مقدسا لإلهه الفرعون على الأرض (2)

ويجب هنا ألا نحكم بأفكارنا الحالية إذ الواقع أن بناء هرم أو معبد للشمس عمل من أعمال الحكومة ، ومشروع من المشروعات الأصلية الهامة فى حياة الدولة . ولأجل أن نفهم كنه هذا العمل لابد أن نعرف معتقدات القوم الدينية فى العهد المنفى ، وكذلك مهارتهم فى البناء واعتقادهم فى طبيعة الفرعون الإلهية ومقدار مهارتهم فى تنظيم العمل .

والواقع أن صبغة الفرعون الاستبدادية كانت مؤسسة على طبيعته

(1) Herodote, II, p. 124-125. (2) Jéquier, Hist. Civ. Eg. p. 163.; Meyer, Histoire de l'Ant. t. II, p. 221.

الإلهية وقد برزت هذه الظاهرة فى قوته السياسية والإدارية . وذلك أن الأسرار الأوزيرية وديانة عين شمس كانتا الأساس الذى ينبنى عليه معتقدات القوم ، ومنهما نشأت نسبة الملك إلى أصل إلهى وأبديته حسب عمله الدنيوى ، ، فلم يكتف الملك بأن تكون له شعائر دينية تقام له فى مدة حياته ، بل كان يعمل كذلك لحفظ جثمانه المادى بإقامة مقبرة على غرار الآلهة . فكان الفرعون يعتقد أن جسمه الذى لا يبلى سيبقى ساهرا على أقدار مصر من أعماق هرمه فكانت إقامة شعائره لا تنقطع وكانت تحبس الأوقاف لتكون ضمانا أبديا لاستمرار تقديم القربان له .

المصانع الحكومية . وخلافا للمناجم والمحاجر الحكومية ، كان للملك عدة مصانع تصنع فيها محاصيل الضياع ، والضرائب التى كانت تورد خامات . فمنذ العصر الطينى نرى على الآثار أن الذهب والنحاس كانا يصنعان بوساطة صياغ يعملون برقابة رؤساء قد ذكرت وظائفهم على جدران كثير من المقابر مثال ذلك رئيس صياغ البيت الملكى « خرب نبو برعا » وقد عثر على هذا اللقب فى مقابر الملوك « دن » ، و « مربابن » ، و « قع » ، و « حتب سخموى » و « نبرع » (1) .

وقد كان هؤلاء الصياغ والجوهريون ، يصنعون مجوهرات الأسرة المالكة وكذلك يصنعون عدة أشياء من الكماليات ، كان يقدمها الفرعون إلى المقربين له ورجال قصره . هذا إلى أنواع النبيذ المختارة ، والمنسوجات

(1) Weill, Origines, p.p. 154, 157-159.

الـكتانية الدقيقة ، وورق المحفـوظات والأثاث المرصـع والمطعم ، وأنواع الزيوت والعطور ، والأوانى الفاخرة المصنوعة من الأحجار الصلبة الجميلة ، والأوانى الخزفية المطلية ، كل هذه الأشياء وغيرها كانت تخرجها الأيدى الماهرة التى كانت تعمل فى المصانع الملـكية . وتدلنا الألقاب التى نجدها على مختلف الآثار على وجود نظام وإدارة مرتبة لحسن سـير هـذه الأعمال . مثال ذلك أننـا نجـد من الأسر الأولى ألقابا هامة كرئيس إدارة العمال « خرب حمت إس » (1) ورئيس الخبازين ، « خرب رتح » ورئيس صناع الحلوى « خرب بنر » ومدير مصنع الطحن (2) « إمرا بر إنز » ومدير صناع احتفال (3) الملك ومدير المرطبات (4) . والمشرف على الفطور « إرى خت ان سنتى » (5) . وكبير صياغ القصر « إمى خت اموى بر عا » (6) .

قانون العمال الملكيين

تدل النقوش على انه كان للعمال نظام غاية فى الدقة قائم فى البلاد منذ فجر التاريخ ولدينـا من الألقاب ما يشعر بقيام هذا النظـام ، وأن هؤلاء العمال كانت تدون اسماؤهم فى سجلات خاصة فقد ذكرنا « بترى » أنه كان للعمال المدونة اسماؤهم مراقب خاص (7)

---

(1) Weill, Origines, p.p. 238 sq. (2) Pirenne, Institutions t. I, Index III No. 42; Maspero, Carrière administrative dans Journ. Asia. t. XV, 1890 p.p. 405 sq. (3) Mariette, Mastabas, p.100.
(4) Borchardt, Sahure, p.p. 89. (5) Mariette, Mastabas, p. 322.
(6) Pirenne, t. III, & Index No. 66.
(7) Ancient Egypt, 1926, p. 74.

وقد كان هؤلاء العمال مقسمين إلى فرق صغيرة ، أو جماعات كبيرة ، أو هيئات صناعية والظاهر أن أسرى الحرب كانوا يخصصون لأشق الأعمال فى المناجم أو فى ضياع الحكومة أو المصانع الملكية . وهؤلاء بلا نزاع لم يكن لهم أية حقوق بل كان سيدهم له الحق فى التصرف فيهم كيف شاء ويقومون له بأى عمل يريده ، على أنهم فى مقابل ذلك لا يأخذون إلا مايسد رمقهم . وعلى أية حال فإن ما قام به أسرى الحروب من الأعمال لم يكن إلا ثانويا . وعند الحاجة كان يطلب الجنود للأعمال الهامة وبخاصة إذا علمنا أن الحروب فى هذه الأوقات كانت قليلة ولذلك كانت تستخدم الجنود فى الأعمال الحكومية وقد ذكرنا فيما سبق أن الجنود كانوا يرافقون البعوث التى كانت ترسل إلى مناجم سيناء . وقد عثرنا على بردية من عهد الأسرة السادسة علمنا منها أن الجنود كانوا يشتغلون فى قطع الأحجار من طرة (١)

ورغم كل ذلك فإنه لم يكن فى استطاعة الجيش والأسرى العبيد أن يكونوا النواة الحقيقية لطائفة الصناع الذين كانوا يشتغلون فى المصانع والمعامل الحكومية ، وبخاصة فى الأعمال التى كانت تحتاج إلى مران ومهارة فنية ؛ ولا بد إذن من أن نبحث عن هؤلاء الصناع والعمال فى الطبقة التى تعلمت الحرف والصناعات الدقيقة وكانوا يقومون بهذه الأعمال سخرة ، لأنهم كانوا عبيدا تابعين لأعاظم القوم ، أو بأجر لأنهم كانوا أحرارا يشتغلون بعقود تكتب بينهم و بين صاحب العمل . وربما كان الرأى الأخير هو الذى يمكننا

(1) Gunn, A sixth dynasty letter from Saqqara, in An. Serv. A. t. XXV, 1925, p.p. 242.

أن نسلم به وبخاصة إذا علمنا أن فى مراسيم دهشور وقفط ما يوجب على الأهالى تأدية التزامين للحكومة وهما الضرائب وأعمال السخرة .

والواقع أن حياة البلاد الزراعية كانت تتطلب تنظيم المياه والجسور وكذلك كان على الفلاحين أن يدخلوا المحاصيل فى مخازن الحكومة ، فكانت كل هذه الأعمال تسخر فيها السكان . على أننا من جهة أخرى لم تصادفنا أية وثيقة للآن فيها أن أى عمل صناعى كان مفروضا على صناع معمل ما . هذا إلى أن نظام التأجير لم يدخل فى هذا الباب ، وذلك فضلا عن أنه ليس لدينا أية أشارة تنبىء بذلك ، ولكنه من الصعب أن يتصور الإنسان أن العامل يرضى بأن يكون (تمليا) كالفلاح الذى كان منذ الأسرة الثالثة بل وقبلها يتمتع بالحرية الشخصية ، فكان فى قدرته أن يتعاقد مع التاج أو مع أصحاب الضياع لاستثمار الأراضى . والواقع أن المدن كانت تحوى بين جدرانها طبقة من العمال اليدويين لهم حقوقهم الخاصة ، وكان يجند من بينهم العمال الملكيون . ولدينا ثلاث وثائق تثبت أن هذه الطبقة من العمال كان أفرادها أحرارا وليسوا عبيدا . الوثيقة الأولى يرجع عهدها إلى عهد الملك « خفرع » وهى عقد بيع عقار يظهر فيه أن شخصا يدعى « محى » وصناعته عامل فى الجبانة ، كان من حقه أن يوقع شاهدا مع كهنته على عقد البيع (1) .

مما يدل على أنه كان متمتعا بكل حقوقه المدنية . وحوالى هذه الفترة أمر الملك « منكاورع » بناء قبر للمقرب « دبحن » وقد خصص

(1) Sottas, Etude critique sur un acte de vente immobilière du temps des Pyramides, Paris 1913, p.p. 5-21.

لهذا العمل خمسين رجلا وأمر جلالته بألا يسخر واحد منهم بل يشتغل فيه برضائه . أما الوثيقة الثالثة فيرجع عهدها إلى عصر الملك « نوسررع » : وهى وصية العظيم « وب إم نفرت » رئيس القصر الملكى لابنه الأكبر « إبى » ليشرف على وقف مقبرته . وقد جاء فى ذيل هذه الوصية رسم خمسة عشرة شاهدا كل باسمه وصناعته . فنجد من بينهم رئيس البنائين ، والصانع ، والحفار والنقاش (1) .

وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن أصحاب الحرف والصناعات كانوا طوائف أحرارا ليسوا تابعين لفرد معين ولا للحكومة . على أن هناك من علماء الآثار من يعتقد بأن سكان الضياع الملكية كانوا يقدمون للمصانع الملكية أصحاب الحرف الذين كانوا يعملون فى هذه المصانع هذا فضلا عن الأيدى التى كانت تشتغل فى الزراعة . وهذا لا يتفق مع الواقع كما ذكرنا (2) . والحقيقة أن أصحاب الحرف كانوا شرعا رجالا أحرارا وكان فى مقدورهم أن يتعاقدوا مع أى رئيس عمل ، اى يعملون لحسابهم الخاص مستقلين . والنقوش التى تظهر لنا كل يوم من جوف أرض مصر تؤكد لنا هذه النظرية ففى مقبرة « رمنوكا » كاهن الملك « منكاورع » تقول لنا النقوش : لقد أقمت عدا القبر مقابل الخبز والجعة التى أعطيتها كل الصناع الذين أقاموا هذا القبر . تأمل حقا لقد أعطيتهم أجورا عالية من الكتان الذى طلبوه وشكروا الله على ذلك ،(3)

وفى عهد الملك « نوسررع » نجد فى نقوش « اخت حرى حتب »

---

(1) Excavotions at Giza, Vol. II, p. 191. (2) Moret, Histoire de l'Orient, p. 218. (3) Excavations at Giza, II, p. 169.

أحد رجال القضاء وكاهن معبد الملك ما يثبت ما ذكرناه إذ يقول على نقوش قبره : إن كل الذين عملوا فى مقبرته . صنعوا ذلك فى مقابل الخبز والجعة والمنسوجات والزيوت والجبن بكمية عظيمة . (1)

وكذلك ترك لنا « إنتى » أمير المقاطعة فى دشاشة نقوشا قال فيها : إن كل رجل عمل فى هذا « القبر » لى لم يكن غير راض ، اما من جهة العمال وفعلة الجبانة ، فانى قد أرضيتهم (2) .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ماقاله الكاهن الملكى فى مقبرته بالجيزة « لقد جعلت المثال ينحت هذا التمثال ، على شرط أنى جعلته مرتاحا للأجر الذى أعطيته مقابل عمله (3) .

وفى هذا برهان واضح على أن الأغنياء كانوا يكلفون أصحاب الحرف بالقيام لهم بأعمال خاصة يؤجرونهم عليها . على أن نفس دفاع صاحب العمل عن نفسه سواء أكان بحق أم بغير حق ، بأنه لم يسخر أحدا القيام له بعمل ، فيه ما يشعر بكل وضوح بأن العامل كان له حقوق من جهة عمله يتمتع بها وتحفظه من ظلم ينزل به .

ومما يؤسف له جد الأسف أنه لم تصل إلينا وثيقة حتى الآن نفهم منها أن أحد الصناع كان له مصنع خاص يعمل لحسابه ، ولا نزاع فى أن مثل هؤلاء كانوا موجودين فى المدن العظيمة ، ولكن لم يصلنا شىء عنهم وربما كان أهم سبب لذلك أنهم لم يكونوا من طبقة (المقربين) فيمنحون مقابر وينقشون عليها كل مفاخرهم وأعمالهم بل كانوا يدفنون

(1) Seth, Urk. t. I, p. 49.

(2) Sethe, Urk. I, p. 70; Pirenne Institutions, vol. I, p. 322.

(3) Kees, Ægypten, p. 104

فى مقابر حقيرة ، وهكذا توارت عنا صفحة مجيدة عن حياة القوم الاجتماعية من طبقة أصحاب الحرف والصنائع فى عهد الدولة القديمة . ومع ذلك فإن ذلك لا يمنعنا من أن نعتقد أن اصحاب الحرف كانوا يعملون لحسابهم الخاص ما دمنا قد وصلنا إلى أنهم كانوا رجالا أحرارا يتمتعون بحقوقهم اللهم إلا إذا فرضنا أن الحكومة كانت تحتكر كل هذه الأعمال ، ولكن ليس لدينا من الأدلة ما يعزز هذا الفرض يضاف إلى ذلك أن مدن عصر ماقبل الأسرات فى الوجه البحرى كانت مدنا حرة تجارية وكان يطلق على سكانها اسم « رخيت » (سكان المدن) ويحكم كلا منها جماعة من العظماء عددهم عشرة وقد كان الملك يقوم بإخضاع ثوراتهم من حين الى آخر . وليس لدينا من الوثائق مايشير إلى أن مدن الدلتا الصناعة كانت فى يوم من الأيام محرومة حقوقها الإقتصادية بل على العكس نقرأ فى معبد الشمس للملك « سحورع » أن أحد الآلهة يقول للملك : لقد جمعت لك قلوب « الرخيت » (سكان المدن) (1) .

وكذلك نرى فى متون الأهرام أن « ببى الثانى » يقول إنه « أرضى الرخيت » (2).

والظاهر كما ذكرنا أن تقدير قيمة الضرائب بالذهب كان منتشرا فى عهد الدولة القديمة إذ نرى فى تاريخ حجر بلرم أن قيد الحسابات الموسمية كان يعمل على أساس الذهب ومنتجات الحقول منذ العصر الطينى. وهذا الإجراء كان بلا نزاع موجودا بوجه خاص فى المدن ، ولم يكن قاصرا على

---

(1) Borchardt, Grabdenkmal des Koings Sahure, p. 80. (2) Pyramiden textes, 1068.

الموظفين بل كان يجبى على أكثر الإنتاج الصناعى والتجارى فى البلاد الصناعية والتجارية . ويقول « ادوارد مير » عند كلامه على العهد الطينى أن هذا النظام كان يوجد فى المدن التى فيها صناع وتجار أحرار وهم الذين كانت ثروتهم خاضعة لجباية الضرائب بالدفع ذهبا (1) .

وقد جاء فى تعاليم « فتاح حتب » ما يأتى : كان الفقير والغنى فى المدن على قدم المساواة فى الحقوق ، فإن الفقير كان فى إمكانه أن يصبح غنيا بنفسه ، ولا يمكن أن ينسب ذلك طبعا إلى أعمال الفلاحة (2) .

ومن كل هذه المعلومات المختلفة يمكننا أن نستنتج أنه كان يوجد فى البلاد طبقة من صغار العمال والصناع الأحرار يشتغلون للحكومة ، وللمعابد ولكبار الملاك ، وكذلك كان يوجد معهم رؤساء صناع وحرف ، يعملون بكل حرية واستقلال فى مصانعهم الخاصة وحوانيتهم ومعاملهم فى المدن ويعزز هذا الرأى أنه فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كانت الملكيات الصغيرة ونظام الفردية منتشرين فى البلاد ، ولم تكن طبقة الأشراف التى ابتلعت ثروة البلاد واستحوذت عليها قد تم تكوينها .

ومنذ بداية الأسرة الخامسة أخذ ينتشر فى البلاد نظام اقتصادى جديد وأعني بذلك صناعات الضياع التى نشأت فى البلاد . وقد كان سبب ظهور هذا النظام تكوين طبقة كبيرة فى البلاد تسيطر على ضياع شاسعة فى مختلف الجهات . وقد تكلمنا فيما سبق عن كيفية ظهور طبقة الأشراف الممولين فى البلاد . فنى العصر الذى كانت فيه

(1) E. Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p. 173.

(2) Jéquier, Le pap. Prisse et ses variantes, Paris, (Geuthner), 1911.

تقسم الأملاك العقارية بدون انقطاع وتنتقل من يد لأخرى بسرعة بالبيع أو بالقسمة ، أو بتنفيذ وصية ، لم يكن هناك مجال لوجود صناعات ريفية ذات أهمية . فلم يكن للصناعات نصيب خارج المدن التى نشأت وترعرعت فيها لأن سكانها يشترون معظم منتجاتها . على أن نفس الحالة لم تتغير منذ أخذ نظام الأسرة يتغير وأصبح عقارها متجمعا فى يد الابن الأكبر بصفته المشرف العام على أفراد الأسرة كلها . وقد أصبح كل مالك فى ضيعته سيدا مطلق التصرف ، وقد كان حوله أقاربه وأصدقاؤه ومحاسبيه ، وكتابه ، وخدامه وزراعه وهؤلاء جميعا بدءوا يفقدون شيئًا من حريتهم . حقا أن ما تنتجه الضياع كان يغذى هذا المجتمع ، ولكن من جهة أخرى كان لا بد من وجود أيد عاملة باستمرار مكلفة بصناعة المواد الأولية التى كانت حتى هذا الوقت تقوم بصناعتها على وجه عام مصانع المدن . وقد بدأ منذ ذلك العهد الجديد يلتف الصناع تدريجا حول قصور العظماء أصحاب الضياع ، فى المصانع التى كانوا يقيمونها لهم . ولذلك نجد علية القوم يصورون على مقابرهم مناظر هذه الحرف كل على حسب قدرته وثروته . فنجد فيها . الصياغ والمثالين والجوهريين والنحاسين ، وصناع الأبنوس ، والنجارين ، والدباغين ، وصناع الأحذية ، والنساجين ، وصناع الفخار ، والجعة والخبازين ، والصاقلين ، وصناعًا آخرين من كل أنواع الحرف وكل هؤلاء قد استوطنوا هذه الضياع الشاسعة الغنية .

فبدلا من عمل عقود مع هؤلاء الصناع للقيام بإتمام العمل يظهر أنهم كانوا يأخذون مرتبا طوال مدة حياتهم ، وتدل النقوش على أن كل صناعة

كان يرثها الابن عن الأب وبذلك تكونت فى البلاد طائفة صناعية وراثية يظهر أنه كان لها حقوق شرعيــة تحدد بعقد مدى الحيــاة وكان يجدد باستمرار . وقد كان صاحبه يعتبر كأنه شبه (تملى) فى الضيعة ومن بعده يخلفه ابنه . وقـد نتج عن ذلك تطور يشبه التطور الذى ربط قانون الفلاح الذى يشتغل فى أراضى الضيعة ، وهذا القانون جعـل كل فلاح خاضعا للتشريع الخاص الذى يسنه صاحب الملك ، وبذلك خرجت طائفة العمال من النظام القديم الخاص بالحقوق العامـة مما أرخى العنان للموجة التى كانت ترتفع نحو عصر الإقطاع ونظامه .

وهذا النظـام الصناعى قد تجلى لنـا بأكمل مظاهره فى مصاطب الأسرتين الخامسة والسادسة . ولا غرابة فى ذلك فإن كل معلوماتنا عن الحرف والصناعات فى عهد الدولة القديمة قد استخلصت من المناظر التى عثر عليهـا فى مقابر الجيزة وسقارة وغيرها فى هذا العصر . إذ نرى فى كثير من هذه المصاطب صاحب الضيعة واقفا أو جالسا وهو يشرف على كل مايدور فى ضيعته من مختلف الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية ويدل الدرس الدقيق لهذه المناظر والنقوش فى مقابر الدولة القديمة والدولة الوسطى على أن المتوفى كان يأمل فى أن يحتفظ فى حياته الآخرة بما كان يملكه فى دنياه ، ولذلك كان ينقش اسماء زوجه وأولاده وألقـابهم كما كان ينقش بالضبط اسمه والقابه هو ، وكذلك كانت الحال مع اهم موظفى بيته . . .

هذا إلى أن الفلاحين الذين كانوا رمز الضيعة كان يكتب اسم كل منهم وليس هناك مايحملنا على الظن بأن هذه الأسماء كانت خيالية ولذلك لانكون مغالين إذا قلنا إن مارسمه المتوفى فى قبره كان يمثل الواقع مدة حياته ولذلك

كان يريد ان ينقل معه كل شيء إلى الآخرة ، فكان يرسم معه نفس خدام الحياة الدنيا دون زيادة واحد أو نقصان آخر ؛ وكذلك كانت ثروته تحدد حسب ماكان له فى الحياة الدنيا (1)

على أن حالة الصانع فى هذا العصر لم تنحط عما كانت عليه من قبل ، بل كانت أعماله تدون فى دفاتر منظمة ويأخذ أجرا محددا فى مقابل إنجازها ولكن على وجه عام كان حظه محددا فى أن يشتغل بالوراثة الابن بعد الأب لمالك الضيعة صاحب السلطان والنفوذ . وقد كان حظه مرتبطا بحظ الضيعة التى يعمل فيها . ولما كان العامل مقيدا مع صاحب الضيعة بشرط وراثى كان عليه أن يطيعه وينتقل معه اذا أقتضت الأحوال الادارية ذلك .

طرق المواصلات

طبيعة وادى النيل تحتم ان تكون الحركة العامة للمواصلات بوساطة نهر النيل صعودا وهبوطا لحمل الانسان والبضائع . والواقع أن النيل كان فى الأزمان القديمة أحسن وسيلة للمواصلات لأنه كان فى متناول كل إنسان فى كل وقت ولذلك كانت تغطى مياهه طوال العام القوارب العدة والسفن المشحونة التى كانت تقل البضائع والحيوان والمحاصيل ، ومواد المبانى والصناعات هذا فى الوجه القبلى أما فى الوجه البحرى فكان النهر مقسما الى افرع وترع مزدحمة تحفها المستنقعات ؛ يضاف إلى ذلك أن الأقليم الساحلى كان يحتوى على بحيرات وبرك ، وفى هذه الحالة كانت الملاحة تسهل التجارة وتجبر الاهالى على استعمالها .

(1) Montet, Scènes de la vie privée, p.p. 406-407.

على أن تنظيم طريق للمواصلات فى هذا العصر كان يعد مجهودا ضائعا فى بلاد تغطى بالفيضان معظم السنة ولذلك يقول « هردوت » (1) :

« عندما يفيض النيل على البـلاد ، لا تظهر إلا المـدن فقط من وسط الماء ويكون مثلها كمثل الجزر الصغيرة فى بحر « إيجة » وباقى مصر يصير بحرا وعندما يحـدث ذلك ، فإن القوارب لاتمشى فى مجرى النهر الطبيعى بل تسير في طول السهل وعرضـه فالمسافر من نقراش متجهـا نحو منف يمر بالضبط بالقرب من الأهرام » .

أما فى انتقالات الأهلين اليومية والذهاب إلى الأسواق فكان الراجلة وراكبو الحمير يستعملون الجسور التى تربط بين القرى والبلاد وكان الحمار يلعب دورا هاما فى المواصلات وذلك لأن الحصان والجمل لم يستعملا إلا فيما بعد وكان الحمار هو دابة الحمل العادية لصبره وتحمله وشجاعته وقد استعمل منذ أقدم العصور فى القوافل والبعوث التى كان يرسلها الملوك إلى الجهات النائية . وكذلك كانت تستعمل الثيران لجر الأحمال الثقيلة وبخاصة الأحجار الضخمة التى كانت تحمل على جرارات . على أن المصرى نفسه كان يستعمل للقيام بهذه العملية ولدينا مناظر نشاهـد فيها صاحب الضيعة محمولا فى محفة على الأعناق متجولا فى حقوله (2) .

ولـكن على العموم كانت الطرق النيلية هى أهم وسيلة فى التجارة المصرية حتى أن القوم أصبحوا يعبرون عن سياحاتهم فى النهر شمالا وجنوبا بالنزول من النيل والصعود فيه . وقد تغلب هذا التعبير حتى أصبح يستعمل للطرق البرية (3).

---

(1) Herodote, II, p. 97. (2) Excavations at Giza, vol. II, p. 220, fig.240.
(3) Erman-Ranke, Ægypten und Ægyptische Leben, p. 571.

وقد كان للملاحة أثر فعال فى معتقدات القوم الدينية وفى شعائرهم [1] .

فكان فى نظرهم الإله « رع » يسير فى الفجر فى سفينة الصباح وعند الغروب يسبح فى سفينة الليل أما النجوم فكانت تسبح فى قواربها الخاصة وكان للموتى قوارب لخدمتهم وكانت توضع نماذج منها فى مقابرهم.

وهذه القوارب كما يقول «جوتيه» كانت تستعمل منذ الاحتفال بالجناز لنقل رفات المتوفين فى توابيتهم وكذلك لنقل تماثيلهم وأقاربهم وأصدقائهم وخدمهم والكهنة والبكائين . والطعام اللازم للولائم الجنازية ، والصناديق التى تحتوى على الأثاث المأتمى الذى كان لا بد منه لضمان بقاء المتوفى فى عالم الآخرة ولحمل الموسيقيين والمغنين والرقاصين الذين كانت مهمتهم إدخال السرور على أقارب المتوفى الذين كانوا يشاركونه آخر وجبة[2] .

والواقع أن أقدم الآثار تدل على أن النيل كان له تأثير أدبى ومادى فى الحياة المصرية : وسنرى فيما يلى أن المصرى من العصور القديمة جدا كان بحارا ماهرا مجدا . وقد ذكر لنا « شارل بوريه » فى كتابه عن الملاحة المصرية « أن الملاحة لعبت فى مصر فى كل عصور التاريخ دورا هاما جدا ، حتى أن عددا عظيما من المسائل السياسية والاجتماعية والدينية التى كانت تظهر كل لحظة حسن سير الإدارة فى هذه البلاد الغريبة التى خلقها نهر النيل ، كانت لابد يتوقف فلاحها من قرب أو من بعد على القارب والسفينة [3] .

---

(1) Kees, Ægypten, p. 108.

(2) Gauthier, Les transports dans l'Anc. Egypte, dans "Egypte Contemporaine" No. 139 Janvier 1933, p. 232. (3) Etudes de Nautique Egyptienne, t. I, 1925, cf. Préface, p.p. VI-VII.

طرق النقل بالقوارب وصناعتها

منذ عصر ما قبل التاريخ كان المصرى يصنع زوارقه بطريقة ساذجة وذلك بربط حزم من سيقان البردى ببعضها ، وكان يصنع نماذج طين من هذه الزوارق فى المقابر حتى يتمكن المتوفى من أن يسبح بها فى عالم الآخرة حسب اعتقاده ، كما كان يعمل فى مدة حياته فى مياه المستنقعات (1) . وهذه الزوارق الخفيفة كانت شائعة الاستعمال فى عهد الدولة القديمة . وقد كانت صغيرة الحجم لا تسع أكثر من شخصين ، وقد عثر على أشكال زوارق أخرى أدق صنعا يحمل الواحد منها ثورا (2) . وهذه الزوارق كانت تسير بالمدرة والمجداف ، وكانت صالحة للنقل فى المياه الهادئة ، إذ كان يستعملها صيادو الطيور فى المستنقعات ، وصيادو الأسماك ، وكذلك لنقل الأبقار يوميا (3) .

أما فى مياه النيل التى غالبا ما تكون سريعة وشديدة الأمواج فإن هذه الزوارق البردية كانت لا تستعمل إلا نادرا . وكذلك لم تستعمل لنقل المسافرين ، أو الحيوان ، أو البضائع الثقيلة الوزن ، إذ كان يلزم لذلك سفن من الخشب الصلب ، ونحن نعلم أنه منذ عصر ما قبل الأسرات كانت تصنع فى مصر مثل هذه السفن ، ولا أدل على ذلك من الرسوم التى وجدناها مع الأوانى الفخارية التى يرجع عهدها إلى عصر

(1) Capart, Débuts de l'Art, fig 141; The Earliest Boats on the Nile in J. E. A. 1917 p. 174 (2) Petrie, Meidum pl. 23; Egyptian shipping ap. Anc. Eg. 1933 pl. 12 (3) Boreux, Etudes de Nautique Egypticnne, p.p. 175 sqq.

نقادة [1] على أننا نصادف أحيانا فى مقابر عهد الدولة القديمة مصانع للسفن تعمل بكل نشاط ، فنشاهد مثلا على الجدران عددا لا بأس به من النجارين يشتغلون حول قفص السفينة الذى قد تم بناء جانبيه ، وكذلك نرى تجميع الألواح ، ونشاهد الثقوب التى تقرت لتلبس فيها القطع الثانوية ، وكذلك تنسيق حواف السفينة ومؤخرتها ليركب فيها المجاديف والسكان . والواقع أن ألواح قفص السفينة لم تكن مثبتة على هيكل بل كانت موضوعة بعضها فوق بعض كلبن الجدران ثم تضم على هيئة عاشق ومعشوق [2] . وقد كانت السفن المصرية فى عهد « هردوت » تصنع من الخشب المصرى فيقول : « كانت سفن نقلهم تصنع من خشب السنط المصرى الذى كان يشبه الجلجان السيرينى (برقة الحالية) ، الذى يستخرج منه الصمغ . فكان يقطع السنط ألواحا يبلغ طول الواحد منها ذراعين ويصفها كما يصف اللبن . وها هى الكيفية التى كانت تركب بها السفن : توضع عوارض طويلة متقاربة ويركب فيها ألواح طول الواحد منها ذراعان ، وبعد أن يتم صنع قفص السفينة بهذه الكيفية ، كانت تربط حافتا السفينة بلوح يركب فوق العوارض . وكانوا لا يسندون جانبى السفينة بقطعة خشب ذات فرعين ، بل كانوا يقلفطون بمتانة اللحامات التى فى داخل السفينة بالبردى . وكانوا يصنعون دفة واحدة تثبت فى سهم قاعدة السفينة . أما السارية فكانت تصنع من خشب السنط والشراع من البردى . وهذه السفن كان عددها عظيما وبعضها وكان يزن ما حمولته آلافا من التلنت

---

(1) Boreux, Etudès de Nautique Eg. p.p. 7 sqq. (2) Montet, Scènes de la vie Privée p.p. 334 sqq. Boreux, Etudes de Nautique p.p. 236 sqq.

(نصف قنطار) [1] » .

ونشاهد فى مقبرة « تى » القارب الذى قد تم صنعه يسير على النيل فيرى الشراع منتشراً ومعلقا فى عارضة السارية كأنه قب الميزان . ونشاهد كذلك جماعة المجدفين فى وضع منتظم ، وكان لا بـد من ثلاثة رجال على الأقل فى مؤخر السفينة لإدارة السكان [2] .

والسفن النيلية التى كانت تصنع بهذه الكيفية كان فى مقدورها أن تحمل شحنة عظيمة وتسير فى مياه أمواجها هائجة وقد ذكرلنا « ونى » فى تاريخ حياته أنه أحضر مائدة قربان ضخمة محمولة على سفينة مصنوعة من خشب السنط طولها ٦٠ ذراعا وعرضها ٣٠ ذراعا وقد تم صنعها فى سبعة عشر يوما فقط (انظر ص ٣٧٩ جزء أول) ولا شك فى أن هذا يعد مثلا رائعا فى سرعة بناء السفن ؛ وليس لدينا أى مجال للريبة فى ذلك عند ما نفحص تركيب السفن النيلية الجميلة الممثلة فى مناظر مقابر الدولة القديمة [3] . وهذه الشواهد تدل رغم فقر مصر فى الأخشاب ، على أن المصريين لم يكونوا قط فى حاجـة لخشب البـلاد الأجنبية ليقومـوا بأعمال الملاحـة ، وإن كان إحضـار الأخشـاب السورية يسمح لهم بتنمية بنـاء السفن ويسهل لهم تجهيز أساطيـل عظيمة للقيام بتجارة بحـرية خارج بلادهم فى عرض البحار .

(1) Hérodote II, 96. (2) Montet scènes de la vie Privée p.p. 347 Fig. 45. (3) Erman Ranke, Aegypten und Aegyptisches Leben, Fig. 242 - 245; & Gauthier Transport dans l'ancienne Egypte, p. 232.

الملاحة

تدل النقوش حتى الآن على أن أول أسطول بحرى عرف فى تاريخ البشر يرجع عهده إلى الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة إذ يخبرنا حجر « بلرم » أنه فى عصر هذا الملك قد جاد من بلاد سوريا أربعون سفينة محملة بخشب «عش» (الأرز) . وفى مدى عامين — كما جاء على هذا الحجر نفسه — قد صنعت عدة سفن يبلغ طول كل منها نحو ١٠٠ ذراع من خشب الأرز ومن خشب « مر » الذى كان يجلب من لبنان ، هذا عدا ٦٠ سفينة أقل حجما (1).

وهذه السفن التى كانت تجرى فى البحر الأبيض المتوسط ، نراها ممثلة على جدران معبد الملك « سحورع » والملك « وناس » من عهد الأسرة الخامسة . وقد كانت هذه السفن تشحن بالبحارة ومعهم فصيلة من الجنود لحماية البعثة من هجمات أهالى سورية ، أو لتكون مظهرا من مظاهر سلطة الفرعون ، وهذه السفن كانت تبنى على نموذج السفن النيلية غير أنها كانت أكبر حجما وأثقل وزنا ، حتى يمكنها أن تقاوم هياج البحر من جهة وكذلك لتتحمل شحنة عظيمة من السلع من جهة أخرى (2) .

ومن كل ما سبق يتضح جليا بطلان النظرية القديمة القائلة بأن الفينيقيين هم أول قوم مخروا عباب البحار وأن المصريين لم يجرءوا على الملاحة إلا بعد الفينيقيين بزمن بعيد جدا . وينسبون ذلك إلى موقع فينيقية الجغرافى من جهة وإلى ثروة بلادها فى الأخشاب الصالحة لبناء السفن

(1) Br. A. R. t. I, 146-147. (2) Boreux, Etudes de Nautique Eg. p. 465.

من جهة أخرى مما جعلها سيدة التجارة على شواطىء البحر الأبيض [1]
ومن يقرأ الكتب القديمة يعرف مقدار انتشار هذا الرأى الذى أثبتت الكشوف الحديثة بطلانه . ومما قيل فى هذا الصدد وثبت أنه خرافة :

« أن هناك أسبابا تدعو المصرى لعدم التوغل فى البحر والتجارة مع بلاد الشاطىء ، منها : تكوين مصر الطبيعى ، والخوف من أهوال البحر ولصوصه».
وتورط كذلك بعض المؤرخين فى القرن السالف فقال :

« لا بد أن الملاحة كانت تعتبر فى حيز العدم فى عهد الفترة الأولى من تاريخ مصر ، وذلك لأن عزلة أهلها عن باقى العالم قد منعتهم عن المغامرة فى عرض البحار ، وأنهم لم يقوموا بالملاحة إلا فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة » ثم قال : « والسبب الذى منع المصريين أن يكونوا ملاحين عظاما هو السبب الذى حال دون عظمتهم التجارية . وفى الوقت الذى كان فيه الفينيقيون يقومون بكل أعمالهم التجارية بطريق البحر مع جميع الدول كانت تجارة مصر محصورة فى بلادها وجعلتهم تحت رحمة الأجانب الذين كانوا يقومون بالأعمال التجارية الخارجية لهم [2] .

وقد فات قائل ذلك أن سكان وادى النيل منذ أقدم العهود قد وجدوا فى نهرهم المنقطع القرين مدرسا عظيما يتعلمون على يديه أول دوس فى الملاحة عرف فى تاريخ البشر ، فقد كانوا يعيشون طوال العام على شاطئيه الخصيبين ، وكان فيضانه السنوى يجبرهم على خوض الماء فى

(1) Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr des Oestlichen mittelmeeres im 3 und 2 Jahrtausend vor Chr. (Beihefte) zum Alten Orient, Heft I, 1924 cf. p.p. 1 sqq.
(2) Henry, L'Egypte pharaonique, ou histoire des Egyptiens sous leurs Rois nationaux t. II, p.p. 443-444 et 467.

كل وقت ، ولا على أن الملاحة فى النيل كانت دائما سهلة لا يعتورها أى خطر . بل كانت فى مدة الفيضان وهبوب الرياح تحفها مخاطر جمة . ولم يكن المصرى بالشخص الذى يخاف هذه المخاطر ويحجم عن اقتحامها إذ كان النيل أهم طريق المواصلات ، وقد كان لديه العدة لاقتحام أهوال هذا النهر بما صنعه من السفن المتينة التى أخذ فى تحسينها على مر الزمن حتى جعلها صالحة لتمخر عباب البحر نفسه . على أن الملاحة فى البحار كانت ساحلية على وجه عام يقوم بها الملاحون فى أحسن فصول السنة الملائمة عند ما يكون الجو هادئا والرياح رخاء بالقرب من الشاطىء كما سنتكلم عن ذلك فى حينه (1) .

وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يوجد فى مصر موان زاهرة غنية على شاطىء الدلتا منذ عصر ما قبل الأسرات كمدينة متليس (فوة) التى رمز لها بالخطاف والقارب على لوحة «نعرمر» ، وكانت أساطيل هذه المدن تقوم برحلات تجارية مع السواحل السورية (2) .

على أننا من جهة أخرى لا ننكر أن الفينيقيين كانوا يتجرون مع جزر البحر الأبيض المتوسط قبل ذلك العهد ولكنا ننكر أنهم أساتذة المصريين فى تعلم فن الملاحة الذى تفوق هؤلاء فيه ، ولدينا براهين ساطعة تدل على أسبقيتهم الأمم الأخرى بعدة قرون . منها أن المدن المذكورة وجدت قبل أن يكون للفينيقيين شأن فى عالم الملاحة البحرية .

---

(1) Cf. Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr p.p. 10 sqq.
(2) Koster, op. cit. p. 19.

إذ الواقع أنهم لم يظهروا فى هذا الأفق إلا فى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد ، هذا إلى أن سفنهم قد بنيت على الطراز المصرى [1] .

وعلى ذلك تكون النظرية القائلة بأن سفن « سنفرو » و « سحورع » كانت فينيقية لا أساس لها من الصحة [2] . يضاف إلى ذلك أن تمثيل السفن البحرية فى معبد « سحورع » الجنازى يشعر بأصل مصرى . وقد لاحظ البعض أن اسم السفينة « كبنت » نسبة إلى « كبن » (بيلوص بالمصرية) ؛ ورأوا فى هذا أن أصل صنع السفينة كانت فى هذه الجهة ، ولكن لا يلزمنا أن نستنتج من هذا أن أهالى النيل قد تعلموا فن بناء سفنهم والملاحة من بيلوص . إذ الواقع أن لفظة « كبنت » تفسر بوضوح أن أول سفن بحافة عالية كانت تلك التى سافرت إلى بيلوص أو أن هذه السفن قد صنعت من خشب لبنان الذى كان يشحن من شاطىء بيلوص ومما يعزز ذلك أن السفن التى كانت تمخر عباب البحر الأحمر إلى (بنت) فى عهد « بيبى الثانى » وما بعده كانت تسمى كذلك كبنت [3] .

وعلى أية حال فهناك حقيقة لا مراء فيها وهى أن المصريين منذ فجر تاريخهم بل منذ عصر ما قبل التاريخ كانوا يسبحون فى البحر . وأن البعوث التى كانوا يقومون بها فى عهد الدولة القديمة ما هى إلا استمرار لتجاراتهم الخارجية التى كانوا يقومون بها من موانى النيل فى عصر ما قبل التاريخ ، يضاف إلى ذلك أن نشاطهم البحرى هذا كان نتيجة التجارب التى كانوا يقومون بها فى نيلهم وما قاموا به من بناء السفن مما جعلهم

(1) Koster, zur Seefahrt den Alten Aegypter ap. Z. E. S. t. 58, 1923, p. 131. (2) Sethe, Z. E. S. t. 45 p. 7 sqq.
(3) Kees, Aegypten p. 22.

ليسوا فى حاجة إلى أن يتعلموا من الخارج فن الملاحة .

التجاره الداخلية والعملة .

لقد بقى سر طرق المعاملة مجهولا فى مصر القديمة وبخاصة فى عصورها الأولى حتى الآن ، وقد بذلت محاولات عظيمة للوصول إلى حل هذا اللغز ، ولكن كل ما وصل إليه العلماء لا يزال مبهما وذلك لقلة المصادر وغموض ما لدينا منها ، والرأى السائد أن المصريين كانوا يتعاملون بالمبادلة ، تلك الطريقة الساذجة التى يتبعها سكان مجاهل إفريقية حتى الآن ، ولكن كل ما وصلت إليه مصر من الحضارة فى مختلف نواحيها لا يجعلنا نصدق أن طريقة المبادلة كانت طريقة المعاملة الوحيدة فى عهد الدولة القديمة ولذلك يقول « بيرن » [1] : « يظهر لى أنه من الأمور الصعبة أن أعترف بأن مدنية متقدمة من الوجهة التشريعية مثل المدنية المصرية فى عهد الدولة القديمة لا تعرف إلا نظام المبادلات بالمواد الطبيعية دون مقياس متفق عليه يحدد قيمتها مع أنها كانت تعرف بيع النسيئة ، ومع أن لها نظام ضرائب ناضجاً ، غاية فى الإتقان . على أن نظام المبادلة بلا نزاع لا يتفق فى سذاجته مع كل الدقة التى نلاحظها فى نظام الوراثة ، والبيع والوصايا ، والقضايا التى كانت تنجم عن ذلك عندهم » .

والواقع أن كل ما لدينا من النقوش عن سير المعاملات ينحصر

(1) Pirenne, Institutions, t. II p. 344.

ظاهرا فى المبادلات . ففى كل مدينـة وفى كل قرية كان يقام سوق فى المحال العمومية وكان المدنيون والفلاحون يتقابلون هنـاك فى أوقات معينة ويتبادلون سلعهم المتنوعة ؛ فكان القوم يأتون من كل حـدب وصوب راجلين ، أو على ظهور حميرهم أو فى زوارقهم النيليـة ، كل منهم يحمل منتجاته الزراعية أو الصناعية فكان الفلاح يحمل مكتل خضره . والصياد يحمل سلة سمكه ، والصانع الصغير الحر يحمل النعال التى صنعها أو أوانى الفخار ، أو قطع النجارة والزيت والعطور ، والحلى من الخزف ، وعصى الخيزران والمراوح ، والشص ، ومئات من الأشياء الأخـرى التى كانت تستعمل فى الحياة اليومية العادية . ولدينا مقابر عدة من عهد الدولة القديمة قد رسم عليها منـاظر الأسواق فى نشاطها كما نشاهـدها الآن هذه كما ذكرنا هى المصدر الوحيد لدينا عن المعاملات المصرية (1) .

والظاهر أن كل المنـاظر المعـروفة من هـذا القبيل كانت كلها خاصة بالضياع المـأتمية التى كانت تتبادل فيها سكان هذه الجهات سلعهم ولـكن لا بد من أنه كان للمدن العظيمة أسواقها وسنشرح ذلك فى حينه .

ونشاهد فى هذه الأسواق أن الذين كانوا يحملون سلعا ثقيلة الوزن كانوا يجلسون القرفصاء خلف سلالهم وقفافهم وفى منظر واحـد شاهدنا

---

(1) Leps-Denk. II, 96; Capart Rue De Tombeaux à Saqqara, pl. 32 p.p. 31.; Steindorff, Das Grab des Ti, pl. 133.; Klebs, Relief I, 116.; Von Bissing, Gem ni-Kai I, 23.; S. Hassan dans Ann. Ser. A. t. XXXVIII p. 52 pl. XXVI.; Etudes de Myth. et Arch. Eg. t. IV p.p. 253-257; Montet, Scènes de la vie privée p.p. 319-326; Erman, Reden, Rufe und Leider auf Graberbilden des Alten Reiches p.p. 48 sqq.

البائع جالسا على مقعد مرتفع وأمامه سلعته ويأتى إليهم المشترون لشراء حاجاتهم أما من خفت أحمالهم فيسيرون فى أنحاء السوق ويتبادلون فيه سلعهم، ويمكننا أن نتصور منظر هذه الأسواق فى أسواقنا الحالية بكل ما فيها من محاولات ، ومكر ودهاء وتحيات وإغراء ، ومشاغبات .

ولكنا نتساءل هنا هل يدل تمثيل كل هذه الأشياء على الجدران حقيقة على أن كل شار فى الوقت نفسه بائع أو بعبارة أخرى أن النقود كانت على ما يظهر مجهولة ، وأن الأسواق المصرية كانت تنحصر فى مبادلات دون قوانين ودون تقاليد تجرى على مقتضاها ؟ إذا نظرنا إلى السوق المصرية وجدنا صاحب مكتل من البصل يقابله شخص آخر يريد أن يتخلص من مروحة ، أو من قلادة وبائع قيثارات ، أو أدوات للصيد يريد أن يبدل بها مأكولات وصانعا يعطى قلادة بدلا من نعلين ، وامرأة تقدم لمخاطبها قارورة من الروائح العطرية من صنع يدها . وبائع عصى من الخيزران وقد فرغ صبره أمام مشتر متردد ، وبائع السمك ناشراً سلعته أمام امرأة معها صندوق . وبائع مرايا يفخر بسلعته وبائع قرد يسوقه أمامه وبيده حبله الذى يقوده به ، وبائع بصل يتأهب لمبادلة حزمة منه برغيف من الخبز المصنوع من الدقيق الجيد ، (ولكن لا نعرف إذا كان المبادل يريد حقيقة بصلا أو لا) . والظاهر أن النعال كانت سوقها رائجة وعلى أية حال نشاهد فى رسوم سقارة أن فلاحا كان يبادل إسكافاً بكيل من الحبوب زوجا من النعال ، وقد كان كل منهما ينتظر صاحبه أو يبحث عنه وقد انتهى الأمر بإتمام الصفقة .

وفى الجملة كانت السوق العامة للأفـراد رقيقى الحال المكان المختار لقيام المبادلات بينهم فيما يحتاجون إليه من المأكولات والمصنوعات وقد كان سكان المدن يدخرون ما يكفيهم طيلة الأسبوع من الخضر كما كان الفلاح يبيع ما عنده ويعود حاملا معه قلادة جميلة ، أو قارورة من العطر ، أو حذاء ينتعله فى الأعياد ، ففى هذه الأحوال لم تكن الحاجة ماسة للمعاملة بالنقد ، وتدل التجارب على أن محاصيل الحقل كانت تجد من يبادل بها من أصحاب الحرف والصناعات وأن هؤلاء الآخرين كانوا متأكدين من أن يجدوا معامليهم من الصيادين والفلاحين . والواقع أن مثل هذه المعاملات لم يكن فيها ما يدعو للارتباك عند ما تكون صغيرة القيمة أو قليلة العدد ، حيث تكون الحاجة لها نطاق ضيق ، وأنه يكفى لصنعها بعض المختصين لعدد محدود من الناس .

وعلى هذا يمكننا أن نجيب بأن المبادلات كانت موجودة فى مصر ولا تختلف فيها عن البلاد الأخرى الفطرية قبل أن يدخل فيها التعامل بالنقود . ولا بد أن القوم كانوا قد وضعوا فيما بينهم بحكم العادة بعض قواعد للمبادلة اللهم إلا فى بعض سلع لم يجر عليها التعامل من قبل كانت تحتاج لأخذ ورد ، ومناقشة ومساومة .

<u>التجارة الداخلية</u> : والواقع أن الأمور كانت تجرى فى سيرها الطبيعى عندما تكون المبادلة من الأشياء العادية ذات القيمة الضئيلة .

ولكن يتساءل الأنسان ماذا تكون الحال عند ما يكون موضوع المبادلة ، شيئا عظيم القيمة كمنزل أو ثور أو قطعة أرض ، إذ لا يمكننا أن نتصور ما يصنعه فلاح يريد أن يبيع ثورا ليشترى بثمنه مقداراً

من الحبوب ، وبعض آلات للفلاحة معينة وأشياء أخرى ، فهل كان فى قدرته أن يجد مبادلا عنده كل هذه الأشياء فى مقابل ثوره ؟ وماذا تقول فى رجل يريد أن يبيع عقارا حتى ولو كان الشارى حاضرا ومتلهفا على إتمام الصفقة فإنه لابد أن يكون فى حيازته المقدار والنوع من البدل الذى يرغب فيه المستبدل ويجب ألا نخفى هنا أن التجارة بمعناها الحقيقى ـ شراء سلعة مقابل أخرى أغلى ثمناً ـ قد أصبحت فى هذه الأحوال مرتبكة لدرجة لا يمكن معها أن ينمو رأس مال التاجر بعض الشىء . فيمكننا أن نتصور مثلا أصحاب حرف أحرار يعملون فى مصنعهم فى أحد أحياء (منف) ، ويعيشون مما يمكن أن يجلبه لهم معاملوهم الدائمون أو مايأتى إليهم به المترددون على الأسواق ، ولكن لا يمكننا أن نتصورهم بسهولة يشترون سلعهم ويتممون مصنوعاتهم حتى يمكنهم أن ينتجوا محصولا من النعال أو من المراهم تؤهلهم لشراء بهائم ، أو بعض أفدنة حتى يكون لهم فى النهاية منزلة كبيرة بين أقرانهم . وكذلك لا يمكن لثرى بيده رأس مال من أى صنف كان ، أن يشرع فى المبادلة به فى مقابل شىء آخر يبادل به كرة أخرى وهكذا حتى يجد فى النهاية أن رأس ماله الأصلى قد ازداد ، ثم يستمر على هذا المنوال . وتلك هى صفات التاجر الحقيقى الذى يدب فى نفسه حب الكسب ؛ ولكن لا نزاع فى أن المبادلة ليست هى الطريقة التى تشبع أغراض مثل هذا التاجر بصفة دائمة مرضية .

وليس معنى ذلك أنه لم تكن توجد تجارة داخلية فى عهد الدولة القديمة ، وأن النظام الاقتصادى فى هذا العصر لم يكن فى مقدوره أن ينتج

نظام الاتجار ، الذى يمكن به أن يصبح التاجر غنيا بفضل حركة التعامل بالنقد . والظاهر أن حركة التعامل بالمبادلة فى هذا العصر لم تلعب إلا دورا محدودا جدا إذ كانت محصورة فى أصناف معينة وهى التى كان يصنعها أصحاب الحرف الحرة الذين لهم مصانع صغيرة فى منازلهم أو فى الأسواق العامة . وتوجد اعتبارات عامة اجتماعية تعزز هذه الاستنتاجات .

إذ فى الواقع كان يوجد فى عهد الدولة القديمة طوائف اجتماعية تتلخص فيما يأتى : أولا : طائفة الأشراف ، أو كبار الموظفين الذين يملكون ضياعا وبخاصة فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة ، وقد كانوا منتشرين فى الوجه القبلى أكثر من الوجه البحرى . ثانيا : طبقة الكتّاب من درجات مختلفة . ثالثا : طبقة الفلاحين . رابعا : طبقة الصناع .

فطائفة الأشراف لم تكن فى حاجة لأى شىء خارج ضياعهم إذ كان ، محصول الأرض يمدهم بأكثر مما يحتاجون . وكان كل مايريدون صنعه يعمل فى مصانعهم الملحقة بقصورهم . أما طائفة الكتبة فكانوا يشرفون على ميزانية الحكومة فى كل الأماكن التى يؤدون فيها وظيفتهم ، أى أنهم يعاونون فى تصريف جزء ضخم من العقار الذى يدفع عنه جزية أما الفلاحون وأصحاب الحرف فكانوا تابعين للضياع التى كانت تتعهد بمعيشتهم أو كانوا يعيشون أحراراً من كسبهم الخاص ففى الحالة الأخيرة كان الفلاح يستثمر أرضه ، ويهتم بأحواله الاقتصادية . ويذهب إلى السوق ليبيع ما يزيد عن حاجته من منتجات أرضه أما الصانع الصغير فكان من جهته يبادل فى حانوته أو فى السوق كل منتجات صناعته بما يقتات به أو مايحتاج إليه من المصنوعات الأخرى . وهكذا كان سير الحياة فى نطاق

ضيق في الضياع أو المدن الصغيرة ، مما يدل على أنهم ربما كانوا يجهلون حركة التجارة بالمعنى الحقيقي التي كان لابد من استعمال العملة فيها . ومع كل ما ذكر فلا يمكن أن نعتقد بوقوف المصري عند هذا الحد في معاملاته إذ لا يعقل أن شعبا قد شاد مدنية مثل التي قامت في « منف » لم يكن في مقدوره تحسين حالة المبادلة التي تدل على منتهى السذاجة والتأخر ولا بد أن الواقع كان على نقيض ذلك ، إذ كان يوجد منذ العهد الطيني كمية لابأس بها من المعدن الذي يحبه كل القوم ، وأعني بذلك الذهب فكان المصري في مقدروه أن يجزئه أو يحوله إلى سبائك دون أن يفقد شيئا كثيرا في هذه العملية ، وكذلك كان يمكنه ادخاره دون أن يصيبه عطب ما وتأثيره كان واحدا على كل فرد في أي وقت كان . على أن المشاريع التي كانت تقوم لاستخراج هذا المعدن ، والهبات من الذهب التي كان يهديها الملك للمقربين له ، وقطع المصوغات التي كانت تصاغ للزينة ، أو تكون علامة على الثراء ، كل هذه الأشياء تؤكد لنا أن الأصفر الرنان لم يكن موضع احتقار أي شخص ، وأنه كان يمكن المبادلة به مقابل أي شيء في كل الأحوال ويعزز ذلك أن حجر « بلرم » قد ذكر لنا أن ثروات الأفراد المنقولة كانت تشتمل على معادن ثمينة كانت تحصى في أوقات معينة .

فكيف والحالة هذه لا يمكن أن نعتبر الذهب عاملا ثالثا في المبادلات.

ولا يبعد أن تجود لنا تربة مصر بنقش أوبردية تكشف لنا الغطاء عن التعامل بالذهب في التجارة وتحل لنا كل مسائل المبادلة التي لاتزال معقدة . على أنه مما يؤسف له جد الأسف أنه لم يعثر على تمثيل ظاهر واضح في مناظر الأسواق القديمة التي عثرنا عليها حتى الآن على المبادلة

بالذهب ، ولكن هذا لا يعنى شيئا كبيرا إذا علمنا أن كل ماوصل إلينا من تمثيل الأسواق المصرية مصدره مناظر المقابر أو المعابد ، وهذه بالطبع لم يقصد منها قط أن تمثل لنا كل حياة البلاد الاقتصادية فى كل تفاصيلها وكل مالدينا عن الحياة الاقتصادية قد عرفناه من المناظر التى تركها لنا علية القوم . وليس من حقنا أن ننكر وجود كل شىء لم يتركه لنا عظماء القوم فى مناظر مقابرهم . وقد يكون من الدهشة بمكان أن تجود الصدف بالعثور على مقبرة أحد أغنياء التجار الذين نجهل وجودهم حتى الساعة ، بل والذين يعتقد البعض عدم وجودهم كلية ، وبذلك يهدم لنا النظرية القائلة بأن بناء المقابر فى الجبانة الملكية كان وقفا على المقربين .

النقود

لقد ذكرنا فيما سبق أن المصريين فى العهد المنفى لم يجهلوا استعمال المعادن الثمينة مقياساً لتقدير قيمة الأشياء غير أنه لم يقم دليل قاطع مادى على كيفية استعمالها فى عهد الدولة القديمة وقد أشار إلى استعمال النحاس والذهب أساساً للمبادلات فى ذلك العهد الأستاذ « برستد » إذ يقول (1) :

« يحتمل فى بعض الأعمال التجارية وبخاصة التى كانت قيمتها عظيمة ، أن كان النحاس والذهب يستعملان على هيئة خواتم لكل وزن معين كعملة . »

أما الأستاذ « بترى » فعلى العكس إذ يقول إنه لم يحدث ذكر

(1) Breasted, History of Egypt, p. 97.

أى معيار متفق عليه للتعامل . . . وأن هـذا المعيار المشترك من النحاس لم يظهر إلا فى عهـدٌ الدولة الوسطى عنـد ما كانت السلع والماشية تقدر بقيمة مساوية لثمنها من النحاس [1].

وقد كتب الأستاذ « مسبرو » مقالا ممتعا عن وصف منظر فى سوق لاحظ فيه أن المتبادلين يحملون صنـاديق صغيرة تحتـوى على سلع مجهولة ويعتقد أن هـذه الصناديق فيها قطع من المعدن كانت تستعمـل عمـلة للمبادلة ، إذ يقـول بعـد أن فحص المنـاظر بدقة : « وبالاختصار أظن الصندوق يحتوى على معدن ، مشغول على هيئة مجـوهرات صغـيرة ، أو على شكل سبائك معروف وزنها ؛ وهذه هى الوسيلة الوحيدة لتفسير وجود هذا الصندوق فى ثلاثة مناظر من مناظر السوق التى تشمل على عشرة مناظر ، وكذلك أكـد هـذه النظرية عدم وجود أى شىء للمبادلة فى أيدى الذين يحملون مثل هذا الصندوق مضافا إلى ذلك صغر حجمه [2] » .

وهناك من الأدلة ما يعزز هذا الرأى ؛ فقد كشف الأستاذ « شتيندورف » لوحة صغيرة فى عام ١٩١٠ ، فى جبانة الجيزة عليها نقوش غامضة خاصة بموضوعنا هذا غير أنها لم تفش أسرارها تماما رغم المحاولات التى بذلهـا علماء الآثار .

فترجمها الأستاذ « زيته » [3] ؛ ثم أدخـل « سـوتاس » [4] بعض

(1) Social life in ancient Egypt, p. 154. (2) Gazette Archéologique, 1880 p. 97-100; Mythe et Arch t. IV p. 257.

(3) Das Grabdenkmal des Konigs Chephren, Leipzig, Heinrich 1912 p.p. III sq. (4) Sottas, Etude critique sur un acte de vente immobilière du temps des Pyramides, Paris 1913, p.p. 5-21.

تحسينات على ترجمته وكذلك تناولها بالبحث « فون بسنج » [1] ويرجع الفضل أخيرا إلى الإصلاحات والتعليقات التى كتبها كل من العالمين « شاسيناه »[2] و « فايل » Weill [3] مما جعل هذه الوثيقة مفهومة . فأنارت لنا الطريق فى موضوع استعمال العملة فى عهد الدولة القديمة وسنرى فى هذا الموضوع آراء الأستاذ « فون بسنج » [4] الحديثة وكذلك رأى الأستاذ « بيرن »[5] .

وموضوع هذه الوثيقة ، على أحسن وجه ، أنها خاصة بعقد بيع عمل فى عهد الملك « خوفو » بين الكاتب « تنتى » الذى كان يبيع بيتا ، وبين الكاهن « كابو » الشارى . ولأجل أن نقرب للقارىء فهم هذا العقد سنضع ترجمته الحرفية فى لغة سهلة . يقول « كابو » : لقد اشتريت هذا البيت فى مقابل مكافأة للكاتب « تنتى » ، وقد أعطيته عشرة « شعت » ، وهى كما يأتى : قطعة أثاث (؟) من خشب « أنى » قيمته ثلاثة شعت وسرير من خشب الأرز من أجود صنف قيمته أربعة شعت وقطعة أثاث من خشب الجميز قيمتها ثلاثة شعب [6] ثم يقول « تنتى » (يعيش الملك) ، سأعطى ما هو حق لأنك قمت بالدفع بطريق التحويل ، وستكون

---

(1) Von Bissing, Ein Hauskauf im IV Jahrtausend Von Chr. Sitz. der Bayer. Akad. der Wiss. zu München Phil. Hist. Kl. 1920 Abh. 14 p.p. 1 sqq. (2) Chassinat, Un type d'étalon monétaire sous l'ancien Empire dans Rec. Trav. t. XXXIX, 1920 p.p. 79-88. (3) R. Weill, L'unité de valeur, « Shat » et le papyrus de Boulaq n. II, Revue de l'Egypte ancienne t. I. 1925 p.p. 45-87. (4) Von Bissing, Das aelteste Geld (Chronique d'Egypte) No. 9 1930 p.p. 102-105.

(5) Pirenne, Institutions, t. II p. 293-296, 349-344.

(٦) فى الطبعة الاخيرة من كتاب Urkunden للدولة القديمة يظهر أن الاشياء الثلاثة التى أعطيت ثمنا للبيت هى قطعة أثاث وقطعتان من القماش كما ذكر ذلك الاستاذ زيته .

مرتاحا من البيت ثم ختم فى إدارة بلدة « خبوت خوفو » أمام شهاد تابعين لإدارة « تنتى » ولطائفة كهنة « كابو » الشهاد . «محى » عامل بالجبانة ، « سبنى » ، « إنى » ، « ونى عنخ حور » كهنة جنازيون .

ولأول نظرة سطحية يخيل للإنسان أن هذا البيع لا يتخطى المبادلة وهى عبارة عن ثلاث قطع من الأثاث والنسيج فى مقابل بيت ولكن الواقع ليس كذلك . إذ لو جعلنا البائع وهو « تنتى » شاريا ، والشارى وهو « كابو » بائعا لما رضى كل منهما بإتمام الصفقة فالتفسير المعقول لعقدهما أنهما قد تفاهما على أن ينفذا فى عقد واحد إجراء عمليتى بيع كان يمكن عمل كل منهما على حدة . وهذا التفسير يمكن إدعامه بحجتين . أولا : لو كان الموضوع هو عقد مبادلة فحسب لما كان هناك داع لذكر لفظة « شعت » التى لا بد قد قيلت عن قصد ، واكتفى المتعاقدان بذكر الأثاث فى مقابل البيت فقط . وثانيا : يعترف لنا « تنتى » أن « كابو » قد جعل الدفع بالتحويل « وزب » وهذا الترتيب يحمل فى ثناياه طريقة أخرى ممكنة غير التحويل ، وليس هناك إلا دفع عشرة الشعت . والنتيجة أن ال « شعت » كان بلا جدال معيارا لتقدير قيمة بيت ، أو أثاث ونسيج ، أو أى عقار مهما كان نوعه .

ولانزاع إذا ، فى أن أهل عهد الدولة القديمة كانوا يعرفون النقود وكان يمكن لكل أن يكون له رأس مال من ال « شعت » ويشترون سلعا ليبيعوها ويكسبون فائدة منها تقدر بال « شعت » وخلافا للاحتكار الذى كانت تفرضه الحكومة ، وهذا ما لا نعلمه بالضبط ، كانت حرفة التجارة تجرى حسب طرقها الأولية فكانت تنمو فى الحدود

التى تسمح بها أحوال الضياع الاقتصادية والمبادلات الأهليـة التى كانت تجرى فى الأسواق العامة . وبقى علينـا الآن أن نعرف ال « شعت » فقال عنه « زيته » أنه (مكيال للفطائر) . وهذا تفسير غريب فى بابه ، وقـد أراد كل من « سوتاس » و « فون بسنج » أن يعزز رأى « زيته » ولـكنهما لم يوفقـا ، وبقى الحال كذلك حتى جاء العـالم « شسيناه » وتجاهل كل ما كتبه من سبق وأثبت فى بحثه أن « شعت » هو معيار قيمى يمثل وزنا معينا من المعدن الثمين ، ولذلك لا نشك الآن فى النظرية التى أشار اليها « مسبرو » وهى الخاصة بأولئك الذين كانوا يذهبون إلى السوق بدون أية بضاعـة معهم إلا صندوق صغير يحتوى عـلى معـدن ومن بين التفسيرات التى كتبت على المنـاظر فى السوق ما يلفت النظر فى موضوعنا ونصه هو : هاك « لأجلك « شعت » حسن جـدا وهـو ما تستحقه » تلك الكلمات قد فاه بهـا مشتر لبائع خضر . ولا نزاع فى أن المشترى عند ماقدم « شعت » واحـدا ثمنـا للسلعة كان يدفع الثمن نقدا .(1)

العملة الحقيقية والعملة الحسابية

والآن لدينا مسألة عويصة يجب حلها بقدر مالدينا من المعلومات وهذه المسألة هى هل كان ال « شعت » نقدا حقيقيا أو معيارا فقط للمعاملات ، وهل ال « شعت » كان يتبادل بين جميع الطبقات فى شكل من المعدن أو سبيكة صغيرة ذات وزن معين ، أو كان مجرد معيار متفق عليه لتقدير

(1) Pirenne, Institutions t, II 343.

كل عقار ؟ ويلاحظ أننا فى بحثنا فى عقد « تنتى » عرفنا أن « الشعت » كان نقدا ماديا ، إذ كان عشرة منه تساوى ثمن بيت وثلاثة منه تساوى قيمة أثاث . وقد وضح لنا ذلك الأستاذ « شسيناه » فى بحثه لهذا الموضوع إذ يرى أن « الشعت » معيار من المعدن ويشاطره هذا الرأى الأستاذ « بيرن » (1) غير أن الأستاذ « فايل » Weill يعتقد العكس إذ يقول : « أن المصريين كان لديهم طريقة لتقدير قيمة الأشياء بمعيار حسابى ويدخل فى ذلك كل الأشياء على كافة أنواعها ومنها المعادن وغيرها ». وقد جاء « فون بسنج » معززا رأى الأستاذ « فايل » قائلا : إن الـ « شعت » هو وحدة حسابية ولا يدل على مادة حقيقية كما يشير إلى ذلك مخصص الكلمة المصرية الذى هو عبارة عن ملف بردى (وهذه الأشارة تخصص الأشياء المعنوية فقط) .

ولكن كل ذلك لا يمنعنا من أن نفحص الموضوع من بعض نواحيه لنتبين مقدار ما فى قول هذين العالمين من الصحة .

لقد شاهدنا فى السوق مشتريا يقول لبائع : « ها هو حقك « شعت » واحد حسن » . وهذا طبعا يشعر فى الحال بأن الذى يقدمه المشترى للبائع ليس بالشىء المعنوى بل شىء مادى محسوس من النقود ، وكذلك عند ما كان الكاهن « كابو » يشترى بيته بالتحويل ، فإن ذلك يشعر أنه كان يمكنه أن يشتريه بطريقة أخرى ، وبالتحقيق لم يدخل فى ذلك طريقة حسابية معنوية فحسب . ولا أظن بعد هذا أن هناك من يقول بأن المصريين فى عهد الدولة القديمة كانوا يتعاملون بمعيار حسابى يسمى

(1) Pirenne, Institutions t. II p.p. 296 et 343.

« شعت » بل الواقع أن هذا المعيار كان مقدارا معينا من المعدن يستعمل وحدة هامة فى تصريف أمور التجارة فى مصر فى عهد الدولة القديمة .

وإذا سلمنا أن الـ « شعت » قد استعمل فى بداية الأمر على شكل ما (حلقة أو سبيكة) فمن المشكوك فيه جدا أن قيمته الأصلية قد ضبطت بسكة لها طابع خاص على وجهيه ، وإذا فرضنا جدلا حسب رأى « فون بسنج » ، أنه كان يوجد على هذه العملة علامة خاصة تميزها فإن هذه العلامة لم تكن قد عملت بطريقة تضمن عدم الغش ، إذ أن ذلك فى الواقع كان يسبب حدوث غش مما كان يدعو من وقت لآخر ، أن يزن البائع هذه العملة . وهذا هو السبب الذى جعل لنظرية الأستاذ فايل Weill بعض الاعتبار ، إذ كانت الضرورة لوزن هذا المعيار قد جعلت حياته قصيرة ، وذلك لأن شكل الشعت الخاص لم يكن له وزن متفق عليه . وهذا هو السبب الذى كان يجعل النقود الفطرية بعد مدة قصيرة ينقص استعمالها فى المجتمع فمثلا توريد دفعة قدرها ثلاثة « شعت » لم تكن تعمل بدفع ثلاث وحدات من الشعت معروفة مسكوكة ، ولكن بدفع قطعة أو عدة قطع من المعدن وزنها قدر وزن « شعت » ثلاث مرات أو بدفع بضائع من أى نوع كانت تقدر قيمتها بثلاثة « شعت » . ومن ذلك يتضح أن النقود الأصلية لم تكن حافظة لكيانها ، ومن هنا جاءت الفكرة أن الشعت كان معيارا حسابيا . والظاهر أن الشعت كان يستعمل لزاما فى الحسابات القانونية ، وفى العقود وفى كل أمور الإدارة الخاصة بالعقار ، وقد لاحظ ذلك الأستاذ « شسناه » عندما قال : ليس من المؤكد أن الأموال الأميرية كانت كلها تجبى من المحاصيل

الطبيعية ،وكذلك لم تدفع الإدارة المرتبات لموظفيها بالمحاصيل ، بل كانت العمليتان من غير شك تسيران جنبا لجنب على حسب الأحوال . ومن أجل ذلك قداضطر الكاتب القائم بالحسابات أن يعمل الخصم من قيمة كل الأشياء التى يمكن أن تدخل الخزينة بصفة ضرائب أو تخرج منها بصفة مرتبات على هذا النمط . (وتدل لوحة) الجيزة ووثائق أخرى عدة من عصور أحدث منها ، على أن مصر كانت لها منذ زمن بعيد أو على الأقل منذ الأسرة الرابعة نظام نقود رسمى ، وكان لا يتغير إلا عند ما تتدخل الإدارة فيه لعملية ما خاصة بها ، وذلك إما لفائدتها أو لإعطائها صبغة قانونية . فمثلا كانت المالية تفرض الضرائب على الممولين بجعلهم يدفعون قيمة تقدر بوزن خاص من المعدن . وكان الممول يدفعها حسب ما في يده . من قمح ونبيذ وزيت وحيوان أما الصانع فكان يدفع ذلك من منتجات صناعاته .

وقد كان المحصل يقيد الكل حاسبا كل مادة بالتعريفة التى وضعت لها . وهكذا كان الحال فى المعاملات الشخصية عند ما كان الأمر يقتضى إجراءات قضائية ، فكانت المواد تقدر حسب القواعد المتبعة فى الحكومة غير أن قيمة الدفع ومقداره كان يترك لاختيار المتعاقدين ولكن قيمة الشىء نفسه الذى كان يدفع ثمنه كان يقدر على قاعدة معيار من المعدن يعتبر وحدة .

والعيار الرسمى « شعت » كان حينئذ يعد القيمة الحقيقية لوزن خاص من الذهب . وهذا الوزن قد وصل إلينا من مسأله حسابية فى ورقة « رند » التى يرجع تاريخها إلى نهاية الدولة الوسطى . وقد بقى مدة طويلة غير

مفهوم [1] . إذ يقول فيها : أن « الدبن » من الذهب يساوى ١٢ « شعت » . ونحن نعلم أن « الدبن » يزن ٩٠ جراما وعلى ذلك يكون « شعت » وزنه ٥ر٧ جراما . ونعلم فوق ذلك أن « الدبن » من الفضة يساوى ٦ « شعت » . ومن الرصاص يساوى ثلاثة « شعت » .

وعلى ذلك كان الرصاص يساوى ثمنه نصف ثمن الفضة فى الوزن ، وكذلك كانت الفضة تساوى نصف ثمن الذهب . وهذا طبعا لا يدهشنا إذا علمنا أن كلا من الفضة والرصاص كان نادر الوجود فى هذا العهد .

ومن جهة أخرى نعرف أن منذ بداية العهد الفرعونى كان نظام معيار الوزن يستعمل حلقة وزنها عشرة جرامات [2] .

والظاهر أن الشعت قد اتخذ وحدة تمثل نصف هذا المعيار من الذهب . ولا بد أنه كان يعتبر بلا شك ذا قيمة عظيمة لتحديد أصناف كثيرة من السلع . وبعد عهد الدولة القديمة أدخل على معايير الوزن نوع جديد يسمى « كيت » ويزن تسعة جرامات ، وهو ما يساوى $\frac{1}{10}$ من «الدبن».

وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت « الكيت » شائعة الاستعمال على حين أن الحلقة القديمة التى تزن ١٥ جراما كانت تحتضر؛ وكذلك اختفى استعمال « الشعت » وأصبح القوم لا يستعملون فى تقدير متاجرهم إلا « الكيت » من الذهب .

ولا نزاع فى أن المصرى من كل ما سبق كان أول من فكر فى

---

(1) Eisenlohr, Ein Mathematisches. Handbuch der Alten Aegypter, Leipzig 1877 p.p. 151-152 et No 62 pl. XX. (2) The Rhind Mathematical papyrus, Liverpool, 1923.; Weill, La "Kite" d'or de Byblos dans Rev. Egypt. t. II fasc. 3-4. 1924, p.p. 21-37.

العالم فى إيجاد وحدة لها وزن معين للتعامل فى كل أمور الدولة . أما القول بأن هذا المعيار كان حسابيا فحسب فمثله كمثل الذى بنى نظرية على حقائق معكوسة وسننتظر لعل تربة مصر قد تخرج من بطنها ما يوضح لنا الطريق فى هذا الموضوع الذى يريد علماء الآثار المصرية أن يعقدوه رغم وضوحه .

تجاره مصر الخارجية وعلاقتها بالأقاليم المتاخمة .

العلاقات بين مصر وآسيا .

تدل التطورات التى حدثت فى الدلتا فى عصر ماقبل الأسرات على أنه قد نشأت مدن عظيمة عند مصبات فروع النيل قديما ، بالقرب من البحر الأبيض المتوسط . وقد كان رخاء هذه البلاد وثراؤها مثل « متليس » (فوة) وصا الحجر وأبو صير وغيرها يرجع بلا نزاع إلى تبادل سلعها مع مدن سواحل سوريا فى الخارج ، ومع مقاطعات الوجه القبلى فى داخل البلاد . وقد كان من نتائج تبادل التجارة الداخلية اختلاط سكان الوجه القبلى الذين تنسب ثقافتهم إلى مدنية نقاده القديمة ، بسكان مدن الشمال التجارية الذين كانوا أكثر منهم تحضرا واعرق مدنية وأرقى ثقافة . وقد جاء مؤكدا لهذه الاستنتاجات التى ترتكز على وثائق قديمة وبحوث أثرية حديثة ، ما أسفرت عنه حفائر بيلوص (جبيل)[1] إذ وجد مودعا فى أساس معبد هذه البلدة ، بلط من الحجر المصقول ، وسكاكين من

---

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 272 ; Montet, Les Egyptiens à Byblos, p. 243.

الطران ، ولوحات ، وخرز من الذهب ، والبلور الصخرى ، ومن العقيق ومن المرمر هذا إلى صور أشياء أخرى مختلفة ، وبالاختصار عثر على عدة أشياء وجد مايماثلها بين التى كشف عنها فى عصر ماقبل الأسرات ومحفوظة الآن بالمتحف المصرى .

وسنتكلم فيما يلى عن العلاقات التى كانت قائمة بين مصر وسوريا فى عهد الدولة القديمة ، وذلك حسب الآثار والشواهد التى عثرنا عليها فى خلال تاريخ هذا العصر .

والظاهر أنه بعد انتصار أمراء « نخن » (الكوم الأحمر) على مدن الدلتا لم تتوان هذه المدن فى إعادة علاقاتها التجارية الخارجية ولكن تحت سيطرة ملوك طينة الأول . إذ الواقع أنه عثر فى مقابر جبيل (ببلوص) على بعض آثار من طراز صناعة عصر ما قبل الأسرات فى مصر . وقد استمر استعمالها فى وادى النيل بعد عهد الملك « مينا » ، وبخاصة إذا علمنا أنه عثر على اسم الملك « خع سخموى » (1) منقوشا على قطعة أثرية أى إنها ترجع إلى عهد الأسرة الثانية . يضاف إلى ذلك أن حجر « بلرم » قد ذكر لنا وجود علاقات بين مصر وآسيا فى عهد الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة . إذ قص لنا عودة اسطول مؤلف من أربعين سفينة محملة بأخشاب لبناء السفن البحرية ولأتمام إقامة القصر الملكى . هذا فضلا عن أنه عثر فى أساس معبد ببلوص على قطع أثرية متنوعة عليها أسماء ملوك من الأسرة الرابعة؛ منها إناء من حجر الديوريت ،

---

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 271; Br. A. R. t. I, p.p. 55, 146-147.

وقطع نقش عليها خرطوش الملك « خوفو »[1] وكذلك عثر على قدح من البلور الصخرى مهشم حفر عليه بإتقان فائق اسم الملك « منكاورع » ، وقطعة من المرمر عليها ألقاب الملكة « مريت اتس » زوج « سنفرو » ، ثم زوج « خوفو » من بعده [2] . وقد عثر كذلك فى نفس المكان على إناء آخر من المرمر نقش عليه ملك الوجهين القبلى والبحرى « وناس » عاش أبديا . [3] وهذا يتفق مع صور السفن البحرية التى عثر عليها فى طريق معبد « وناس » الجنازى فى حفائر سقارة [4] وكذلك يتفق مع ما عثر عليه من الرسوم فى معبد الملك « سحورع » [5] إذ نشاهد تمثيل الأسطول المصرى عائدا إلى مصر يحمل الأسيويين من رجال ونساء وأطفال ودبتين مقيدتين فى أغلال من غابات لبنان . أما فى عهد الاسرة السادسة والآثار التى عثر عليها يرجع تاريخها إلى عهد « تيتى » و « بيبى الأول » ثم « بيبى الثانى » وكلها على وجه عام أوان وتماثيل صغيرة نقش عليها اسم الفرعون [6] .

ويوجد فى متحف بيروت نقش غائر من عهد الدولة القديمة له أهمية خاصة . وهو مقسم إلى منظرين مثل فيهما الملك « بيبى الأول » أو الملك « بيبى الثانى » يقدم قربانا إلى إله ثم إلى إلهة وقد نقش عليه ما يأتى : « محبوب حتحور سيدة بيلوص » ، هذا إلى قطعة أخرى محفورة

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 73 No. 58. (2) Op. Cit. p. 69, No. 46; Les Egyptiens à Byblos p. 255. (3) Ann. Serv. A. t. XXXVIII, p. 520.

(٤) أنظر الجزء الاول صفحة ٣٥٢ وما بعدها .

(5) Borchardt, Das Grabdenkmal des Konigs Sahure, t. II, p.p. 25-28, 86 et pl. XI, XII (6) Montet, Byblos et l'Egypte p.p. 70 No. 47-63.

حفرا غائرا قد أحضرها معه الكاتب الشهير « رينان » الفرنسى وهى الآن فى متحف اللوفر (1).

وقد مثل عليها فرعون يقدم تضحية إلى إلهة لابسة ملابس مصرية . ولا يتردد الأثرى عند رؤية هذا النقش فى نسبته إلى عصر الدولة القديمة وليس هناك مجال للشك فى أن كل هذه الأشياء تدل دلالة واضحة على مقدار تأثير الحضارة المصرية فى بلاد سواحل سوريا فى عهد الدولة القديمة . على أننا من جهة أخرى نجد فى نقوش عظماء المصريين فى عهد الأسرة السادسة ما يضع أمامنا تفاصيل غاية فى الأهمية عن العلاقات بين القطرين ، ولا أدل على ذلك من متون « ونى » التى تكلمنا عنها بإسهاب فى الجزء الأول (انظر ص ٣٧٩ وما بعدها) ، وكذلك فى عهد الأسرة الخامسة شاهدنا حاكم المقاطعة « إنتا » قد مثل فى مقبرته بدشاشة كيفية الاستيلاء على مدينة (نديا) وحصنها من أعمال سوريا (جزء أول ص ٣٣٦ — ٣٣٧) .

وتدل كل ظواهر الأمور على أن فراعنة مصر كانوا يراقبون عن كثب كل حركات الأقوام والقبائل التى كانت تهدد البلاد من حين إلى حين وتكون سببا فى قطع العلاقات التجارية الخارجية وما ينجم عنها من نضوب موارد الدولة . فكانوا يقضون على كل حركة عدائية من هذا النوع كما كانت الحال فى سيناء التى كانت منبعا فياضا لاستخراج النحاس والفيروز . وذلك يفسر لنا مناظر نزول الجنود المصرية الممثلة فى معبد « سحورع » مقلعة إلى بيلوص . ولا شك فى أن الجنود فى هذا العصر كانوا أهم عامل فى تسيير التجارة ؛ اذ كان كل بحار فى الوقت نفسه

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 35 pl. 24, 27; p. 38, pl. 28.

جنديا يستولى على كل المحاصيل التى لم يسلمها الأهلون طائعين وقد كانت هذه نفس الطريقة التى تستعمل فى البعوث التى ترسل إلى شواطىء البحر الأحمر وبلاد النوبة والسودان (1) .

والظاهر أن نفوذ المصريين وسلطانهم لم يكن عظيما فى بباوص كما كان فى فلسطين ، ولكن على الرغم من ذلك لاحظنا أن نفوذهم كان ناميا فى بباوص لدرجة أنهم قد أقاموا هناك بعض آثار مصرية ، ولا يبعد أنه قد أسست هناك مستعمرة صغيرة لربط العلاقات التجارية بين البلدين وبخاصة لتحضير البضائع وشحنها فى السفن إلى مصر ، وكانت فى الغالب تحتوى على الأخشاب السورية التى لا نظير لها فى مصر كخشب الأرز والصنوبر وخشب الوشح والبان والسرو وغيرها من الأخشاب التى كان يحتاج إليها النجارون وصانعو السفن ، والمهندسون المعماريون للقصر الملكى ، ومطعمو العاج الذين كانوا يصنعون الأثاث الفاخر هذا إلى الأخشاب ذات الروائح العطرية والصموغ التى كانت لها أهمية عظيمة فى تحنيط الأجسام وفى الشعائر الدينية والقرابين الجنازية . والواقع أن الأخشاب وأنواع الصموغ كانت تجلب من منحدرات جبال لبنان التابعة لإقليم « جبيل » وهى بباوص القديمة . وقد سميت قديما بلاد « نجا » (2) .

وإله هذه الجهة المحلى كان يسمى « خاى تاو » وقد توحد معه الملك « ببى » فى متون الأهرام : « أن ببى هو «خاى تاو» وساكن بلاد نجا » (3) .

---

(1) Boreux, Etudes de Nautique Egyptienne, p. 469.

(2) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 268. sq. (3) Sethe, Pyr. 518 d.

وكذلك يقول أحد أمراء بنى حسن فى عهد الدولة الوسطى : لقد صنعت بابا ذرعه سبعة أذرع من خشب (الأرز) « عش نجا » لمدخل مقبرتى الأول .

وقد كان وقوع أى حادث يكون من جرائه شل حركة تجارة ببلوص يظهر تأثيره المباشر فى نظام مصر الاقتصادى ، والاجتماعى ، فيلاحظ أن فى عهد التدهور الذى أعقب سقوط آخر ملوك الأسرة السادسة كان المصرى يتحسر على تبدد شمل التجارة البحرية : « والآن وقد أصبح ولا أحد يمكنه أن يبحر إلى ببلوص ، فكيف يمكننا أن نجلب لمومياتنا خشب الأرز الذى كنا نصنع منه توابيت الكهنة ، والذى كان يستعمل صمغه لتحنيط العظماء ؟ (1) . »

ومن هنا نفهم السر فى حرص المصريين على المحافظة على حسن سير نظام البعوث البحرية ، وفى اهتمامهم بذكر الشحن التجارية فى نقوشهم .

على أن المصرى لم يجلب إلى بلاده من سوريا الأخشاب والعطور المستخرجة منها فحسب ، بل كان يستورد زيت الزيتون ، والنبيذ الذى كانت تنتجه هذه البلاد بكثرة ، والواقع أن كروم فلسطين قد ذكرها « ونى » فى نقوشه (صفحة ٣٧٢ جزء أول) . ورغم أن النبيذ المصرى كان من مختلف الأنواع الجيدة جدا فى الغالب ، فإن النبيذ الأسيوى كان يجلب إلى مصر . أما زيت الزيتون فقد كان ضمن المحاصيل التى شحن بها أسطول الملك « سحورع » (2).

(1) Gardiner, Admonitions, p. 32. (2) Borchardt, op. cit. t. I, fig. 13.

ويلاحظ فى نقوش هذا الملك أن الأوانى الأجنبية كانت تحتوى على سوائل مختلفة الأنواع جيء بها من بلاد سواحل سوريا . ومن المدهش أنه عثر فى مقابر العصر الطيني على أوان تدل أشكالها حسب فحص المختصين على أنها غير مصرية (1) .

وعلى أية حال فإن المصريين كانوا يجلبون سلعا أخرى لم تكن معروفة أو متداولة فى مصر إلا قليلا ، ولم يصل إلينا منها شىء قط اللهم إلا الدب الذى أحضر من جبال لبنان ليوضع فى حديقة حيوان الملك « سحورع » . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن اللازورد الذى كان معدوما فى جبال مصر قد استعملت منذ عصر ماقبل الأسرات ، ولابد أنه كان يستورد من آسيا ،ولا غرابة فى ذلك إذ سنجده ضمن النفائس التى كانت تقدم جزية للفراعنة فى عهد الدولة الحديثة .

ولا بد أن البحار المصرى كان ينتخب الوقت المناسب للإبحار إلى هذه الجهات . وأحسن الأوقات الصالحة كانت فى شهرى مايو ويونية ، إذ فى تلك الآونة كان يقلع البحارة بسفنهم عندما كانت تهب رياح جنوبية وجنوبية غربية فتملأ قلاع سفنهم وتزج بها فى البحر نحو سوريا ويصل المسافرون إلى ببلوص فى مدى أربعة أيام ، ويبلغ طول هذه الرحلة نحو ٥٥٠ كيلو مترا . وكان البحار المصرى فى خلالها يتوخى محازاة الشاطىء غير مجازف بالتوغل فى البحر . وقد كان أكبر خطر يخافه البحارة هو هبوب ريح غربية أو شمالية غربية إذ كانت تجنح بالسفن إلى الشاطىء ولكن ذلك لحسن الحظ كان نادرا جدا ، اللهم إلا فى شهرى يناير

(1) Petrie, Royal tombs, t. I, p. 8.

وفبراير . وقد كانت « جبيل » مجهزة بمرفأ ترسو فيه السفن لتشحن . أما عند العودة فكانت السياحة متعبة شاقة ، إذ كان لا بد للسفن من أن تمخر عباب البحر فى تيار معاكس وريح غير ملائمة ، ولذلك كانت تجهز السفن بمجدفين أشداء وتستغرق السياحة مدة لا تقل عن ضعف مدة الذهاب ، وفى أغلب الأحيان كانت تنقضى هذه المدة دون حدوث أى عائق (1) .

ومن كل ما سبق يمكننا أن نستخلص بحق أن العلاقات التجارية بين مصر وسوريا كانت من الحقائق التاريخية التى لا تقبل الجدل أو الشك ، وكان لها أثر فعال فى نمو مصر وتقدمها فى عهد الدولة القديمة ، وهذه العلاقات لم تكن بحرا فحسب بل كانت كذلك بالطرق البرية أيضا ، وبخاصة إذا علمنا أن هناك ما يحملنا على الظن بأن بلاد فلسطين الجنوبية كانت تابعة للفراعنة بعض الشىء ولا سيما فى خلال النصف الأخير من عهد الدولة القديمة .

علاقة مصر بجزر البحر الأبيض المتوسط .

تدل الكشوف الأثرية على احتمال وجود بعض علاقات تجارية معينة بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط ولا سيما بين مصر وجزيرة كريت منذ عهد ما قبل الأسرات . غير أن الآراء متضاربة فى هذا الصدد بين علماء الآثار فبعضهم يرجح وجود هذه العلاقات (2) ، وبعضهم ينكرها إنكارا باتا (3) .

(1) Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr, p. 14.
(2) Hall, The relation of Aegean with Egyptian Art, in J. E. A. 1914, p p. 110-118.
(3) Herman Kees, Ægypten, p.p. 109-110.

ولكن من جهة أخرى تعوزنا النقوش والوثائق المدونة عن العصرين الطيني والمنفي معا لإثبات وجود علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وكل ما لدينا من المعلومات ينحصر فى المواد الأثرية فقط . وقد غالى بعض علماء الآثار فى أهمية هذه الآثار وبنوا عليها نظريات هائلة فى علاقات مصر مع جزر البحر الأبيض المتوسط ، على حين أن البعض الآخر كان على العكس إذ نظر إلى هذه الكشوف نظرة سطحية دون أن يعيرها أى اهتمام جدى . وسنعرض نحن للموضوع دون التحيز لأحد الطرفين .

يقول المؤرخ الألمانى « كوستر » (1):

« أن الأسباب التى حدت بالمصريين إلى التوغل فى البحر حتى جزيرة قبرص هى نفس الأسباب التى حدت بهم إلى شق عباب اليم حتى سواحل سوريا . ولا نزاع فى أن السياحة إلى هذه الجهة كانت أكثر خطرا ولذلك كانت قليلة ، ولكن وجود معدن النحاس فى هذه الجزيرة كان من الأشياء التى تستحق المجازفة بمثل هذه الرحلة . والواقع أن قبرص كانت تورد النحاس لفراعنة مصر ، فى عهد الدولة الحديثة عندما كانت مصر صاحبة فتوح عظيمة وسلطان ضخم وتجارة نامية فى آسيا وجزر البحر الأبيض وغيرها ، غير أنه لا يمكننا أن نقول مثل هذا القول عن مصر فى عهد الدولة القديمة ، إذ كان النحاس الذى يستعمل فى ذلك العهد يستخرج من مناجم سيناء كما شرحنا ذلك

(1) Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr p. 23; Seefahrten der Ægypter, p. 17.

فى مكانه ، بل إنه ليس لدينا أى دليل فى مصر ولا فى قبرص على ما ظنه العالم « كوستر » ولذلك نعتبر كل ما قاله غير مقطوع من هذه الناحية ، وعلى أية حال فلا يمكن المؤرخ أن يطبق ما وجد فى عصر من عصور التاريخ على عصر آخر وبخاصة إذا كان أقدم منه بعدة قرون . وعلى الرغم من كل ذلك فإنه توجد بعض علاقات بين مصر وكريت ولكن يجب ألا نبالغ فى أهميتها .

وذلك أن الأستاذ « بترى » قد كشف فى مقابر العهد الطينى بالعرابة المدفونة بعض أنواع من الفخار يعتقد هو من أشكالها وطراز صنعها أن موطنها الأصلى جزر بحر إيجة (كنوسوس)[1].

غير أن هذا الرأى لم يشاطره فيه معظم العلماء المتخصصين فقال « ا.ك. بيت » : إن الفخار الذى عثر عليه الأستاذ « بترى » لا ينتمى إلى أية صناعة إيجية [2] ولكن من جهة أخرى يوجد بالمتحف البريطانى آنية صغيرة من الفخار الأسمر اللون المحزز كشف عنها فى انتباروس Antiparos يدل نموذج صناعتها على أنها مصرية بدون شك ، ويرجع عهد صناعتها إلى مابين الأسرتين الثالثة أو الرابعة [3]

هذا إلى أنه عثر على أوان فى مصر وجد لها مثيل فيما كشف عنه فى حفائر سهل مسارا (Messàra) وفى كنوسوس . ففى الأخيرة ...

---

(1) Petrie, Royal tombs, t. II, pl. 54, p. 46.; Abydos, t. I, pl. 8, p. 6; t. II, p. 42, 28; Social life in Ancient Egypt, p. 164-5.

(2) E. Peet, Early Egyptian Influence in the Medit. (Ann. of the British school of Athens,) XVII (1910-1911) p. 253-254.

(3) Hall, Relations of Aegean with Egyptian Art in J. E. A. 191., p. 114 pl. XVII, Fig. 2.

السير « ارثر ايفانز » على قطع ذات أهمية أثرية بعضها أجزاء آنية من الديوريت ، بينها وبين الأوانى التى عثر عليها فى عهد الملك « سنفرو » شبه عظيم . وقد عثر على أوان أخرى من نموذج نفس العصر ولكنها مصنوعة من الطلق الأيوليثى (فى آسيا الصغرى) .(1)

وأنه لمن الصعب جدا أن تنسب القطعة الأولى لمصدر غير مصر ، إذ الواقع أن المادة التى صنعت منها والشكل الذى ركبت به عليها الطابع المنفى ، أما الثانية فإنه من المحتمل جدا أن نقلها الصانع الكريتى عن نموذج مصرى كان لديه . ورغم ذلك فإن الأستاذ « بيت » قد عارض فى ذلك أيضا ، ولكن حجته ضعيفة (2).

وأهم من كل ماسبق أنه ، قد عثر على أختام على شكل أزرار فى مصر فى عهد الدولة القديمة وكشف عن مثيلاتها فى « كريت » (3)

ولكن ذلك لا يهم فى موضوع بحثنا ، إذ الحقيقة التى وصلنا إليها والتى لا تقبل الشك هى استعمال هذه الأختام فى البلدين وفى عصر واحد وهذا مايؤكد الرأى القائل بوجود علاقات بين مصر وكريت فى عهد الدولة القديمة ، يضاف إلى ذلك ، أنه عثر على بعض آثار مصنوعة من حجر الأبسديان (الزجاج البركانى) فى المقابر المصرية منذ عصر ماقبل الأسرات ، وهذه المادة لاتوجد فى جبال مصر قط ، ولكنها من جهة

(1) Evans, Palace of Minos, t. I, (Oxford 1921) p.p. 85 sq. 54-55; Early Nilotic, Lybian and Egyp. Relations with Minoan Crete p.p. 11 sq.; Peet, Early Egyp. Influence p. 255.

(2) Peet, Early Egypt. Influence p. 255.

(3) Fimmen und Reisinger, Die Kretisch Mykenische Kultur, p. 154; Evans, Scripta Minoa, p. 121; Newberry, Scarabs, p.p.56 sq.

أخرى توجد فى جزر بحر إيجة بكثرة فى (ميلو) ولذلك ظن بعض العلماء أنها قد جلبت من هذه الجزر ، وهذا الرأى يعارضه طائفة أخرى من العلماء إذ يقولون إن هذا الحجر يوجد فى بلاد الحبشة وفى أرمينيا ويجوز جدا أن مصر كانت تستورده منها . يضاف إلى ماذكرنا أنه عثر على بعض أشياء مصنوعة من مادة الصنفرة فى مقابر عصر ماقبل الأسرات ، ولا يمكن أن يكون أصلها إلامن جزر الأرخبيل وبخاصة جزيرة (نكسوس) أو آسيا الصغرى (1) .

ومما سبق يجوز لنا أن نستخلص وجود رابطة بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط وبخاصة مع (كريت) فى عهد الدولة القديمة ، غير أنه لا يمكننا بحال ما أن نؤكد أهمية هذه العلاقات أو استمرارها أو صبغها بصبغة تجارية أو ودية ولكن كان المصريون على أية حال يعرفون جزر « البحر الأخضر جدا » (البحر الابيض المتوسط) ، إذ ذكر فى ورقة بردى محفوظة الآن فى برلين ويرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، أن هذه الجزر كانت معروفة سماعا لدى عصر الدولة القديمة . وقد جاء ذكر سكان هذه الجزر « حاو نبو » فى متون الأهرام حتى أن « مسبرو » قال عنهم : « إن وجود هؤلاء القوم كان معروفا منذ أمد بعيد قبل تدوين متون الأهرام (2).

وليس بعيدا أن البحارة المصريين بما لهم من الجرأة فى اقتحام البحار

---

(1) Petrie, Nagada and Ballas, p.p. 29, 44, 45, 48; Petrie, Prehist. Egyp p. 41. (2) Maspero, Histoire Ancienne, t. I, p. 391 No. 3.

قبل أية أمة فى التاريخ كانوا يخاطرون أحيانا فى عرض البحار عند ما تسمح الأحوال الجوية لهم بخوض غمارها . والواقع أنه توجد ريح شمالية فى البحر الأبيض عند ما تهب بشدة تقود السفن من جزر « سيكلاد » Cyclades إلى (كريت) ، ومن ثم إلى مصر[1].

أما الأستاذ « برستد » فيقول أن الثلثمائة والأربعين ميلا البحرية التى تفصل مصبات النيل عن سهل (مسارا) يمكن قطعها فى مدة ثلاثة أيام أو أربعة . وفى هذه الأحوال لا نظن أن البحارة المصريين كانوا يحجمون عن القيام بمثل هذه الرحلات وبخاصة إذا كانت تعود عليهم بالفائدة ولا سيما أنهم قد شقوا غمار البحار من قبل الى بيلوص وسواحل فينيقية عامة . على أن مثل هذه السياحات لم تكن وقفا على المصريين بل لا بد كان يقوم بمثلها أهالى كريت ، إذ كانوا متعودين الملاحة بين جزر بحر إيجة فكان من الجائز أن يندفعوا فى سياحاتهم نحو الجنوب حتى الدلتا أو يتقابلون مع السفن المصرية على الساحل السورى . كل هذه النظريات والفروض ممكنة فى ظاهرها ، ولكن ليس هناك ما يلزمنا على أن نقرر هنا مع السير « ايفانز » إن الكريتيين كان لهم الشرف الأول فى شق عباب اليم حتى السواحل المصرية والسورية[2].

علاقة مصر بالبحر الأحمر وبلاد بنت فى عهد الدولة القديمة

إن أقدم وثائق فى متناولنا عن ملاحة المصريين فى البحر الأحمر يرجع تاريخها إلى الملك « سحورع » أحد ملوك الأسرة الخامسة . وتدل

(1) G. Glotz, La Civilisation Egéenne, p. 5.
(2) Evans, Early Nilotic Relations, p. 6 sq.

الأحوال على أن البحر الأحمر لم يركب المصريون متنه فى سياحاتهم إلا نادرا ، إذ كان معظم ملاحيهم فى البحر الأبيض المتوسط ، وذلك أنه منذ العهد الطينى وربما قبله ، كان يجلب النحاس من شبه جزيرة سيناء بالسفن ، ولكن بعد شحنها عند سواحل سيناء كانت تسلك أحد طريقين فى العودة إلى مصر ، إما طريق الشمال حتى خليج السويس ، وإما طريق الجنوب حتى القصير . وفى الحالة الأولى كانت الشحنة تنقل إلى البر مارة بالبحيرات المرة ووادى طميلات حتى مدن الدلتا أو مقر الملك « منف » . أما الذين يتبعون الطريق الثانى فكان لزاما عليهم أن يقطعوا صحراء العرب من القصير حتى النيل عن طريق وادى حمامات ، ومن ثم يركبون النيل ، ولا يبعد أن يكون هذا الطريق الأخير هو الذى كان متبعا فى عهد ملوك العصر الطينى ، لأن العاصمة كانت فى الوجه القبلى ، إلا إذا كانوا يفضلون الطريق الطويل عن وادى طميلات لأنها كانت أقل متاعب وعناء وخطراً وقد لاحظنا فيما سبق أن هذه السياحات البحرية كانت تستلزم عدة وعتادا وجما غفيرا من الموظفين على اختلاف أنواعهم ، كالبحارة والضباط ، وعمال المناجم ورؤساء الأعمال ، والحمارة ، ورؤساء القوافل والجنود وضباطهم ، هذا عدا رجال الإدارة الذين كانوا يرافقون البعثة . وكانت هذه البعوث بطبيعة الحال حكومية ، أما أهميتها أو كثرتها فكانت تتوقف على حاجيات العصر الذى أرسلت فيه ، وعلى أمان الطرق التى كانت تهددها القبائل المتمردة ، ثم على مقدار نفوذ الفرعون وقوة بطشه . ويلاحظ أن التجارة البحرية مع هذه السواحل القاحلة المتاخمة لخليج السويس لم يكن لها أهمية تذكر إذا

استثنينا جلب النحاس من شبه جزيرة سيناء ولكن منذ أن خاطر البحارة المصريون الشجعان متجهين فى سياحتهم نحو الجنوب ، باحثين عن بلاد الآلهة الخرافية ، التى وصلوا إليها وأحضروا منها بعض محاصيل كانت إلى ذلك العهد مجهولة فى مصر ، والملاحة فى البحر الاحمر بدأت تأخذ شكلا جديدا وأهمية خاصة . وعلى أية حال فلا نعرف بالضبط الوقت الذى بدأ المصرى يمخر فيه عباب البحر قاصدا بلاد (بنت) ، وكل ما نعرفه أن أول رحلة دونت هى التى أرسلت فى عهد الفرعون « سحورع » وقد دون فيها أن قد أحضر إلى مصر منها المر ، ومعدن الالكتروم ، والأخشاب الأجنبية بكميات وافرة (1)

وقد كان المصريون يتخيلون بلاد (بنت) ذات أشكال غامضة سرية كما كان القوم يتخيلون بلاد الهند وغيرها من البلاد النائية فى الأزمان السالفة ولم يكونوا لأنفسهم عن كنهها رأيا قاطعا .

والحقيقة أن موقع بلاد (بنت) كان موضوع بحوث عدة عند علماء الآثار . فقد تكلم عنها « بروكش » ، و « مريت » و « لبلين » و « كرال » ، و « مسبرو » وغيرهم (2) .

---

(1) Br. A. R. t. I, p. 5, 161.

(2) (a) Lieblein, Handel und Schiffahrt auf dem Rothen Meere, p.p. 52-75. (b) Krall, Studien zur Geschichte des Alten Aegypten, IV, Das Land Pounit, Litz des Kais Akad. der Wiss in Wien Phil. Hist. Kl. Band CXXI Abh II, 1890. (c) Maspero, Le pays de Pouanit, Etudes de Myth. & Arch. Eg. t. VI p.p. 38-41; De Quelques Navigations des Egyptiens sur les Côtes de la mer Erythrée, Même Ouvr. t. IV. p.p. 75-118. (d) Paul-Wissowa Article Saba.

فبعضهم يقول إنها بلاد العرب وبعضهم يقول إنها بلاد الصومال أو الاثنتان معا . والظاهر أن بلاد (بنت) كانت عند المصريين أنفسهم غير محدودة المعالم ، بل كانوا يعدونها البلاد العجيبة التى يصل إليها الإنسان عند ما يسيح فى البحر الأحمر متجها نحو الجنوب ، وهذه البلاد كان يجلب منها البخور والروائح العطرية والصموغ المقدسة التى كانت تفتقر إليها مصر ، وكما ذكرنا فإن هذه البلاد لا بد كانت فى نظر المصرى كما كانت بلاد الهند والشرق فى نظرنا حتى عهد قريب ؛ إذ كانت هذه الجهات ليس لها معنى جغرافى معين ومن أجل ذلك لا يجدر بنا أن نشحذ القريحة فى تعيين موقع بلاد (بنت) عند المصريين أنفسهم إذ لم يعنوا هم أنفسهم بضبط موقعها ، لأنها كانت عندهم من الأماكن التى يحيط بها الغموض والخيال والرهبة ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانوا يعتقدون فيها أنها الأماكن المقدسة التى نشأت فيها آلهتهم .

وكل ما يهمنا عمليا فى هذا البحث أن بلاد (بنت) كانت تقع فى المنطقة التى تشمل بلاد الإرترية ، والصومال من جهة ، وشواطىء بلاد العرب السعيدة من جهة أخرى . والآن بقى علينا أن نعرف الأماكن التى كانت تشحن منها السفن المصرية على ساحل البحر الأحمر ، وتدل الأحوال على أن المر والبخور كانا يشحنان من اليمن ، والأقاليم الإفريقية الواقعة على البحر الأحمر . أما الذهب والأبنوس فكانا على العكس يجلبان من القارة السوداء (إفريقية) . ولا بد أن المصريين كانوا فى عهد الدولة القديمة يتبعون فى سياحاتهم إلى هذه البلاد طريق وادى طميلات حتى خليج السويس [1] .

(1) Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p.p. 256, 265.

وذلك لأن عاصمة البلاد كانت فى هذا الوقت « منف » . والواقع أن «بيبى نخت» فى ترجمة حياته (جزء أول ص٣٩١) يقص علينا أن « بيبى الثانى » قد أرسله إلى بلاد « العامو » لإحضار جثة «عنخت نينى» . وقد كان الأخير ضابطا بحريا لسفينة ومعه جنود وبحارة ، وكلف ببناء سفينة للإبحار بها إلى بلاد بنت . ومما يؤسف له أن الحملة قد داهمها سكان الرمال « حريوشع » وقتلوا رجالها . ومن ذلك يتضح أن الملاحة إلى بلاد بنت كانت تبتدىء من ساحل خليج السويس ، لأننا نعلم أن « العامو » و « الحريوشع » هم القبائل السامية الرحل الذين كانوا يسكنون فى هذه الجهات . على أن كل البعوث التى كانت ترسل إلى (بنت) لم تتخذ هذا الطريق ، اللهم إلا إذا كانت كل البعوث تجهز فى عاصمة البلاد القريبة من خليج السويس ، إذ كان حكام مقاطعة (الفنتين) العظماء مشهورين بالقيام بمثل هذه الرحلات كحرخوف وغيره . وكان السفر من المقاطعات الجنوبية فى الوجه القبلى حتى خليج السويس يضيع على البعثة وقتا طويلا فى النيل حتى منف ، ومن أجل ذلك كانوا يتخيرون طريق وادى حمامات الذى يؤدى من قفط على النيل إلى أقليم « ساو » (القصير) على البحر الأحمر وهذه كانت الطريق التى سلكها ملوك الأسرة الحادية عشرة ومن جاء بعدهم . وقد ترك لنا رجال بعوثها بعض تفاصيل عن هذه الطريق (1)

ولا نزاع فى أن هناك طرقا أخرى جنوبى قفط تصل بين النيل وشاطىء البحر الأحمر ، ولكننا نجهل تماما ما إذا كان المصرى قد استعملها ولكن المؤكد لدينا هو أن طريق الصحراء الذى يمر بوادى حمامات كان

(1) Erman Ranke, Ægypten und Ægytisches Leben, p. 600 sq.

مستعملا منذ عهد الفراعنة حتى يومنا هذا .

والظاهر أن السفر إلى بلاد (بنت) لم يكن بالشيء المعتاد ، إذ كانت القوافل تقطع المسافة فى مدة أربعة أيام من قفط إلى البحر الأحمر سالكة طريقا وعرا لاماء فيه ، شمسه محرقة ، وفى النهاية يصل الأنسان إلى ساحل قاحل لاسكان فيه ولا حياة ، ومن أجل ذلك كان أول هم للبعثة أن تحمل معها كل المعدات لبناء السفينة أو السفن التى كانت تقلع إلى بلاد (بنت) ، إذ لم يكن هناك مرفأ للسفن مهيئا كما كان الحال عند مصبات النيل على البحر الأبيض المتوسط حيث المدن العظيمة ، ولذلك كانت كل بعثة تريد الابحار إلى بلاد بنت تبتدىء بتجهيز المعدات من جديد فكانت تحضر معها المواد الغذائية ، والماء بمقادير عظيمة كما كانت تحضر سلعا للتبادل ورجال من كل نوع ، كالبحارين والجند ، والحمارة الخ .. ولا بد أن نتصور كل المشاق التى يجب أن يتحملها رجال البعثة قبل بدايتها ؛ والواقع أنه حتى فى أيامنا نجد الملاحة فى البحر الأحمر مشهورة بصعوبتها ، إذ الجو فى مياه هذا البحر الواقع بين شاطئين قاحلين حار جدا ، هذا إلى وجود جزر صغيرة قاحلة ، وعقبات من المرجان وغيرها مما يجعل الملاحة محفوفة بالمخاطر . ولا شك فى أن بحارة الدولة القديمة كانوا يتخيرون الأوقات المناسبة للسفر فى هذا البحر حتى لا يتعرضوا إلى مخاطره ، وذلك حسب هبوب الرياح . فمن شهر يونية إلى شهر أغسطس تهب رياح شمالية غربية على البحر الأحمر ، وفى سبتمبر جنوبى خط عرض ١٦ شمالا ، تكون الرياح نادرة ، ومن اكتوبر إلى إبريل كانت الرياح تهب من الشرق إلى الشمال الشرقى فى خليج عدن ، ومن الجنوب الشرقى فى بوغاز

« باب المندب » ثم يتجه نحو الشمال فى الجهة الشمالية من البحر الأحمر(1).

وفى هذه الأحوال كانت البعوث تبحر من القصير فى شهر يونية و بذلك يمكنها أن تقطع ٢٠٠٠ كيلو متر فى ثلاثين يوما أو أربعين يوما وهى المسافة التى تفصل القصير عن باب المندب . وفى منتصف شهر يولية كان فى مقدور البعثة أن تستمر فى سيرها نحو الشرق حتى رأس جردفوى . ولكن كان لابد من العودة حوالى أكتوبر بعد انتهاء عمليات التبادل التى كانت تحتاج إلى زمن . وإذا سار الإنسان بسرعة مع ريح رخاء فقد يصل فى نهاية ديسمبر عند خط عرض ٢٠ شمالا ، وعندئذ لا تبقى إلا مسافة ٥٠٠ كيلومتر تقطع بالمجاديف فى رياح مضادة وإذا كانت الأحوال الجوية حسنة تصل البعثة أخيرا إلى القصير فى شهر يناير أو فبراير أى إلى النقطة التى أبحرت منها بعد غياب عام بأكمله .

ومما سبق يتضح أنه كانت هناك سلسلة عقبات للوصول إلى هذه البلاد وذلك على فرض أن البحارين يعرفون أوقات هبوب الرياح الملائمة للسياحة والمعاكسة لها طوال العام ، وأنه يمكنهم أن يوجدوا علاقات حسنة مع أهالى (بنت) يضمنون بها شحن البضائع اللازمة لهم فى مدى بضعة أسابيع ، وألا يجدوا فى طريقهم بحرا ، أية عقبة من العقبات الخطرة وعلى أية حال فإنه يوجد شك كبير فى أن معظم البعوث التى أرسلت إلى بلاد بنت فى عهد الدولة القديمة قد تعدت تجارتها بلاد « الأرترية » أو بلاد العرب السعيدة . هذا إلى أن الوصول إلى هناك كان يعد من

---

(1) Koster, Seefahrten der Alten Ægypter, p. 26.

الأعمال العظيمة فى نظر سكان وادى النيل وما لدينا من المعلومات يحملنا على الظن بأن الملاحة إلى هذه الجهات الخيالية لم يبدأ المصريون القيام بها إلا بعد أن عرفوا بلاد سوريا ووصلوا إليهما ويدل على ذلك أن السفن التى كانت تمخر عباب البحر الأحمر كانت تسمى « كبنت » وهو اسم بلدة جبيل (بيلوص) ، إذ يبرهن ذلك على تتابع تاريخى[1] .

وعلى أية حال فقد ذكرنا أن أقدم بعثة معروفة لنا إلى هذه البلاد قامت من مصر فى عهد الملك « سحورع » كما جاء ذكر ذلك فى حجر « بلرم » ، ولا نزاع فى أنها لم تكن أول شىء من نوعه إذ نشاهد رسم أحد سكان (بنت) مع أحد أولاد « خوفو » الذى كان أميرا للبحر فى هذا العهد . وهذا الرسم يشبه أسرى بلاد بنت الذين أحضرهم « سحورع » من هذه الجهة . ولا بد إذن أن يرجع عهد هذه الرحلات إلى زمن بعيد ، ورغم ذلك فليست لدينا معلومات تدل على أن مثل هذه البعوث كانت ترسل إلى هذه الجهات قبل العهد المنفى . ومن آخر بعثة ذكرناها إلى هذه الجهات لم نعثر على وثائق تمكننا من أن نتحقق منها بصفة قاطعة على قيام بعثات معينة ، ففى نقوش مقبرة بأسوان من عهد « بيبى الثانى » نقرأ أن « خنوم حتب » يفتخر قائلا : « لقد رافقت سيدى خوى » إحدى عشرة مرة إلى بلاد بنت[2].

على أننا لا نعرف إذا كان « خوى » هذا مخلصا فى قوله أو أن هذه الرحلات لو سلمنا أنها تمت فعلا قد نفذت عن طريق البحر ، إذ يجب أن

(1) Kees, Ægypter, p. 122.
(2) Br. A. R. t. I, p. 361; Sethe, Urk. I, p.p. 140-141.

نلاحظ هنا أن فى الامكان الحصول على منتجات بنت عن طريق بلاد النوبة والسودان . وسنرى عند الكلام على هذه الجهات أن المصرى قد توغل نحو الجنوب والجنوب الشرقى من الفنتين منذ زمن بعيد . وقد كان أمراء هذه الجهات لهم شهرة عظيمة بصفتهم رؤساء القوافل . وقد كان منهم « حرخوف » الذى عاش فى عهد « بيبى الثانى » ، وقد قص علينا فى تاريخ حياته رحلته إلى أعالى النيل وفى خلالها أحضر قزما مماثلا للذى أحضره « باوردد » من بلاد بنت فى عهد إسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة (جزء أول ص٣٤٨) . وكذلك أحضر البخور ومعدن الالكتروم ، والخشب الأجنبى الذى ذكر فى تاريخ « سحورع » أنه أحضر من بلاد (بنت) ، وذكر كذلك بين قوائم المحصولات السودانية التى جلبتها القوافل التى أعدت فى « الفنتين » . ومما سبق يحتمل جدا ألا تكون البعوث البحرية إلا مكملة للتجارة البرية . وقد كانت هذه تعد لجلب كميات عظيمة من الصمغ والعطور ، لسد النقص الذى كان عساه يحدث من تأخر المبادلات التى تقوم بها القوافل . على أن هذه البعوث ربما كانت أحيانا ترسل على سبيل التقليد بمثابة إعلان لبداية حكم الملك الذى أرسلها .

العلاقات التجارية مع البلاد المتاخمه

لم تكن تجارة مصر مع البلاد المجاورة لها ذات أهمية تذكر ؛ إذا استثنينا بلاد النوبة ، إذ كانت تجارتها مع فلسطين وبلاد سوريا تجرى معظمها بطريق البحر . على أن هذا لم يكن عائقا لقيام التجارة بينها

و بين مصر بالقوافل عن طريق الصحراء مارا بالقنطرة وشرقى بحيرة المنزلة . وعلى أية حال فإن المصرى كان فى كل عهود تاريخه يعمل كل ما فى وسعه ليتحصن ضد أية غارة تأتى له من جهة البلاد المتاخمة ، ولذلك كان يقيم الحصون والقلاع .

ولما أصبحت حدود الأرضين قوية الحصون ، أخذت منطقة نفوذ البلاد تمتد تدريجا حتى ضمت شبه جزيرة سيناء وسهول فلسطين الواقعة بين البحر الميت وساحل يافا وعسقلان وغزا ، بل لقد سار « ونى » الشهير بجنوده حتى سفح جبال الكرمل . وقد كانت المحاصيل المصرية ترد إلى هذه الجهات ويؤخذ بدلا منها النبيذ وزيت الزيتون وهما من أهم محاصيل هذه الأقطار . وقد كان يجتمع فى هذه التخوم رجال القوافل السورية الذين كانوا يوثقون الروابط التجارية مع بلاد نهر الأرنت (العاصى) بسهل (سارون) . ومن المحتمل جدا أن انتشرت بوساطتهم بعض السلع أو الصناعات الفنية بين مصر وبلاد دجلة والفرات منذ عصر ما قبل الأسرات (1) .

أما من جهة بلاد لوبيا وهضبة برقة فقد كان فيها قبائل رعاة تثور أحيانا ، مما كان يحمل الفرعون على السهر على حماية تخوم الدلتا الغربية وقد كان يجلب منها الزيت الذى يطلق عليه الزيت اللوبى ، وكان يستعمل حسب التقاليد لدلك الأجسام (2) .

وقد كانت هجمات هؤلاء اللوبيين تدعو الفرعون للقيام بحملات ضدهم

---

(1) Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p. 182. (2) Newberry, Ta Tehenou, Oliveland in Anc. Eg. (1915) p. 97-102.

فينكل بهم ثم يعود إلى مصر ولا يلبث أن يقوم بهجمة أخرى فينقض عليهم كرة ثانية وهكذا . وقد ترك لنا الفرعون « سحورع » ، نقشا غائرا يمثل انتصاره على اللوبيين وفيه نرى جماعة المهزومين من قبيلتى « باقت » و « باسن » ومعهم قطعانهم من البقر والماعز والحمير تعد بالآلاف . (1)

وقد كان سكان الواحات وهم من الجنس اللوبى أيضا خاضعين لسلطان الفراعنة . وكانت صناعتهم رعى بعض الحيوان وجنى ثمار نخيلهم هذا إلى أنهم كانوا يزرعون الكروم التى كانت لها شهرة خاصة (2) وكان الفرعون كذلك يخضد من شوكتهم إذا قاموا بأى عصيان .

أما سكان « ايونتيو » وهم سكان الكهوف فى صحراء العرب فلم يكن لهم أية شوكة أو سطوة لأنهم كانوا قوما جياعا وأهم ميزة لهم أنهم كانوا قواد قوافل مجيدين عند ما كانوا يفضلون هذه المهنة على القيام بغارات على بلاد النيل المجاورة وكان الفرعون فى هذه الحالة يرسل عليهم صواعق من جنوده فيرتدون إلى كهوفهم مدحورين .

وفى الجملة كانت العلاقات التجارية تجرى بدون عناء كبير بين لوبيا والواحات وشبه جزيرة سيناء وبدو صحراء العرب على أنه فى الواقع كانت الأقاليم الخارجة عن وادى النيل والمتاخمة له تعتبر أنها جزء من الدولة المصرية ولكنها فى الوقت نفسه كانت تتطلب يقظة مستديمة من قبل الفرعون وغالبا ما كان يقوم بهذه المهمة رجال من بين رجال هذه القبائل نفسها مقابل أجر يدفعه الفرعون لهم .

---

(1) Borchardt, Das Grabdenkmal des Konigs Sahure, t. II, pl. I, p. 72 sq. (2) Kees, Aegypten p. 50.

العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة والسودان .

كان إقليم أسوان منذ أقدم العهود المصرية يعتبر الجهة التى تتجمع فيها تجارة سكان القطر المصرى وبلاد النوبة السفلى . ولا غرابة فى ذلك فإنه كانت بين البلدين روابط جنسية وثقافية إذ نجد أن نمو البلدين وثقافتهما العامه من الشلال الأول قد بقيت واحدة بشكل ظاهر ، ولكن الوحدة الثقافية التى كانت بين البلدين انفصم عراها حوالى العصر الذى بدأ فيه ملوك « نخن » (الكوم الأحمر) يتولون عرش البلاد المصرية . ومنذ العهد الطينى أخذت بلاد النوبة السفلى بما هو معروف عن أهلها من بطء الحركة تتباعد عن الصعيد وتنحاز إلى السودان فغلب عليهم فى ذلك عوامل الدم .

وعلى أية حال فإن مقاطعة « الفنتين » المتاخمة لحدود بلاد النوبة رغم أنها كانت تابعة لمصر سياسيا ، فقد بقى سكانها من الجنس النوبى حتى هضبة السلسلة وكان هذا الإقليم يطلق عليه اسم (أرض ستت) « تا ستت » أى نوبية أو مقاطعة النوبيين . وقد بقيت صبغة إقليم أسوان كما هى حتى يومنا هذا ، وذلك لأن موقعها الجغرافى قد جعل منها إقليم انتقال بين البلدين من الوجهة الجنسية ، وكذلك من الوجهة التجارية ويدل على ما كان بين مصر وبلاد النوبة من النشاط التجارى نفس كلمة « آب » (الفنتين) ومعناها العاج . وكذلك « سونت » أى أسوان الحالية ومعناها التجارة (1)

(1) Erman Ranke, Ægypten und Ægyptisches Leben, p. 592.; Kees, Ægypten p.p. 107, 339. sq.; Meyer, Hist. de l'Ant. t. II, p. 44.

والواقع أن أقليم بلاد النوبة السفلى كانت أهميته تنحصر فى أنه الطريق الموصل إلى الصحراء التى كانت تحتوى على مناجم الذهب الواقعة فى الشرق وكذلك نحـو الأقاليم اليـانعة الواقعة فى أعالى النيل . وقد كان سكان قبائل هذه المقاطعة يعيشون على تربية الماشية ومن تسهيل سبل المبـادلة بين القطرين . ولما كانوا بطبعهم يجنحون إلى العصيان كما هو الحـال مع كل الأقوام المتاخمة لمصر ، فإن الفرعون كان يرسل عليهم حمـلات شديدة لكبح جماحهم ، على أنهم كانوا دائما على استعـداد للقيام للهيئة الحاكمة بقيادة القوافل أو الانخراط فى سلك الجيش بصفتهم جنوداً مرتزقة (1) .

وقد كان ملوك الدولة القـديمة يرسلون الحمـلات المسلحة إلى هـذه الجهات لتأمين الطرق التى تؤدى إلى السـودان ، أو لإخضـاع أهالى النوبة المغيرين على بلاد القطر . وقد كانت هذه الحملات تأتى بفوائد من كل جهة إذ كانت أحيانا تستولى على ما لديهم من العاج والأبنـوس . فتدلنا الآثار على أن الملك « خع سخموى » أحـد ملوك الأسرة الثـانية وبعده الملك « زوسر » ، قد توغلا فى بلاد النوبة وقد أخضع الأخـير منها لسلطانه ما يقرب من اثنى عشر فرسخا من أسوان إلى المحرقة ؛ وهذا الإقليم أطلق عليه اليونان اسم « دوديكاشين Dodecashene » .

وجاء فى تواريخ حجر « بـلرم » أن الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة ذهب لإخضاع هذه الجهات وقد رجع ومعه ٧٠٠٠ أسير و ٢٠٠,٠٠٠ رأس ، من الحيوانات الكبيرة والصغيرة (2)

(1) Moret, Des clans aux empires, p. 196; Meyer, Hist. de l'Ant. t. II, p. 46.; Cf. Meyer, op. cit. t, II, p.p. 155, 185 et 233.
(2) Br. A. R, t. I, p. 146.

وفى عهد الملك « بيبى الأول » نجد فى النقوش بعض أسماء القبائل النوبية التى جند منها « ونى » جيشه لإخضاع الأسيويين . منها قبائل : «إرتت » و«مجا » ، و« أمام » و « واوات » و«كاوو » . وقد ذكر « مسبرو » أن قبائل «واوات » ، و «المجا» كانوا فى شرق النيل ، أما البقيـة فكانت عـلى الضفة الغربية (1).

ومن المحتمل جدا أن هذه القبائل لم تمتد قط نحو الجنوب ، ولم تصل الفتوح المصرية إلى الشلال الثانى . أما الأقاليم السودانية التى كانت تقع فى الشرق فانها لم تـكن معروفة إلا عن طريق روايات النوبيين ، من الخدم والجنود الذين قاموا برحـلات متوغلين فى داخل هذه البـلاد مع عظماء الفنتين .

وفى عهد الملك « مرنرع » خلف « بيبى الأول » ، كلف « ونى » بحفر خمس ترع عند شلال أسوان لتسهيل مرور السفن والقوارب ، وقد صنعت هذه القوارب من خشب السنط من بلاد « واوات » . وقد قدمه له رؤساء هذه الجهة . وفى السنة الخامسة من حكمه ذهب الملك « مرنرع » بنفسه ليتقبل خضوع رؤساء « المجا » و « إرتت » و « واوات » . وقد وجد ذكرى هذا الحادث ممثلا فى نقش غائر على صخور الشلال وهو فى كنف الإله « خنوم »إله الشلال (2) .

وكذلك فى عهد حكومة الملك « مرنرع » قام « حرخوف » برحلاته الأولى نحو الجنوب كما سبق ذكر ذلك (الجزء الأول ص٣٨٢).

---

(1) Msspero, Etudes de Myth. et d'Arch. Eg. t. VI, p. 36.
(2) Lepsius Denkmaler, t. II, p. 116 b.

ومن منطوق نقوش سياحات « حرخوف » ، يمكن الوصول إلى بلاد « بنت » بالتوغل من الفنتين نحو الجنوب الشرقى . على أن العقبة الوحيدة فى عدم إمكاننا تتبع « حرخوف » فى مخاطراته والبعوث التى قام بها هى عدم معرفتنا بالضبط المواقع الجغرافية التى ذكرها لنا أى أننا لم نوفق للآن إلى تحديد أقصى نقطة وصل إليها فى حوض نهر النيل الأعلى .

وعلى أية حال فإن حفائر الأستاذ « ريزنر » فى السودان قد اظهرت أن الأسرة السادسة قد بلغت فى توغلها حتى (كرمه) عند الشلال الثالث(1) إذ أقيم هناك متجر .

ولا نزاع فى أن وعثاء الطريق ومخاطرها كانت عظيمة جدا ، ولذلك كان يعد التوغل فى هذه الجهات من أعظم الأعمال الجليلة بالنسبة لهذا العصر . ولذلك يقول « مسبرو » كان الطريق البرى متعبا ولا نهاية له ولم يكن لدى القوم غير الحمير من حيوانات الحمل ، ولم يكن فى مقدورها غير قطع مسافات قصيرة ، فكان الأنسان يقضى الأشهر تلو الأشهر فى السير فى أقاليم ، كانت قوافل الجمال تقطعها فى بضعة أسابيع . أما الطرق التى كان المسافرون يقتحمونها فهى التى كان قد حفر فيها آبار للماء على مسافات متقاربة وقد كانت الحاجة لإرواء ظمأ الحمير كبيرة ، واستحالة نقل المياه معهم بكميات وفيرة من الأسباب التى أجبرت المسافر على أن يسلك طرقا ملتوية مرتبكة . وقد كانوا ينتخبون لأجل التبادل ما خف حمله

---

(1) Reisner, Excav. at Kerma (Harvard African studies) t. V-VI (1923); Kees, Ægypten, p. 346.

وغلا ثمنه فكان المصرى يحمل معه من بلاده الخرز المختلف الأنواع ، والجوهرات والسكاكين الخشنة الصنع ، والروائح الشديدة الشذى ، ولفافات النسيج البيضاء أو الملونة التى لا تزال تروق فى أعين هذه الجهات الإفريقية حتى الآن . أما أهالى النوبة والسودانيون فكانوا يدفعون ثمنا لهذه الذخائر التى لا تقدر بثمن فى نظرهم ، الذهب على هيئة تبر أو قطع ، أو ريش النعام ، أو جلود الأسود أو الفهود ، أو العاج ، والودع ، وقطع خشب الأبنوس ، أو البخور ، أوالصمغ العربى . وكذلك كان يهتم المصريون بأخذ القردة والسنانيس التى كان الملوك والأمراء يتسلون بها ويعرضونها موثوقة فى قوائم كراسيهم فى أيام المقابلات الرسمية ؛ أما القزم الذى كان من السلع النادرة (دنج) فكان دائما يطلب ولكن دون الحصول عليه قط .

وقد أصبح أمراء « الفنتين » من أهل اليسار وذلك إما بالنهب أو بالتجارة وصاروا يعدون من عظماء أشراف الصعيد [1] .

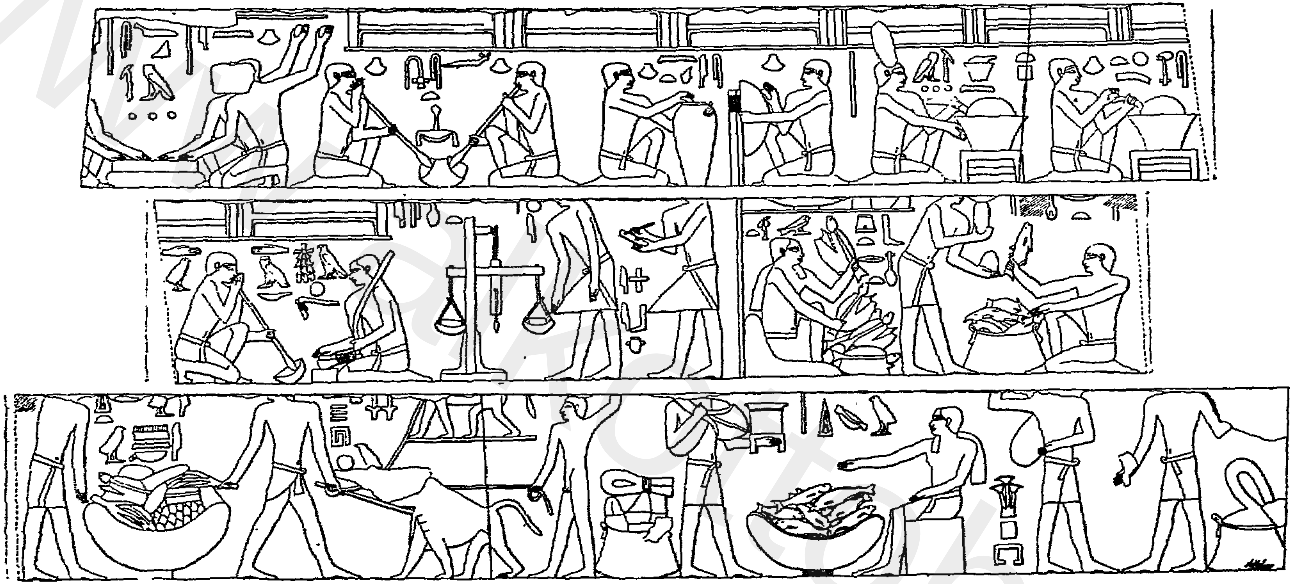
وكذلك يقص علينا « بيبى نخت » أمير « الفنتين » أعماله العظيمة فى بلاد النوبة (انظر جزء أول ص ٣٨٩ الخ) إذ يقول إنه بناء على أمر الملك « بيبى الثانى » قام بمهاجمة بلاد « واوات » ، و«إرتت» الثائرة وذبح من أهلها خلقا كثيرين وقد أحضر معه رؤساءهم رهينة ، وعددا عظيما من الأسرى والماشية وقد قام بعده بفترة « سبنى » بحملة لإحضار جثة والده (انظر جزء أول ص ٣٩١) « مخو » الذى مات فى بلاد « واوات » ليحنطه ويدفنه فى بلده الأصلى .

---

(1) Maspero, Hist. Anc. des Peuples de l'Orient, t. I, p.p. 426; Pirenne, Hist. des Inst t III, p.p. 127 sq

وقد انتهز هذه الفرصة وحمّل مائة حمار من محاصيل هذه البلاد الأجنبية وهذا آخر عمل من نوعه نعرفه .فى عهد الدولة القديمة وربما ما خفى كان أعظم .

وهكذا نرى أنه منذ العصر الطينى حتى نهاية الدولة القديمة كان ثراء البلاد الاستوائية يجذب المصريين إلى بلاد النوبة والسودان ويحملهم على القيام ببعثات بالقوافل محفوفة بالمخاطر . ويلاحظ فى خلال تلك الفترة أن الرسل الذين كان يرسلهم الفرعون وأمراء أسوان كانوا يتبعون بلا هوادة سياسة حكيمة قبلتها توسيع نفوذ الفرعون فى هذه الجهات ، وقد كان هذا يتطلب من وقت لآخر إرسال حملات تأديبية لإخضاع الثوار كما كان الحال فى سيناء وسوريا وفلسطين .



مناظر صناع مصريين يؤدون عملهم وسوق مصرية تجرى فيها المبادلات

الفن

الفنون والحرف الدقيقة فى العصر الطينى وما بعده .

تكلمنا فى عصر ماقبل الآسرات عن بداية ظهور الفن عند المصريين وقد تمثل ذلك فى بعض الصور المنحوتة فى العاج أو على الأحجار الصلبة كحجر البازلت وغيره ، وكذلك فى صنع بعض أوان من الفخار والأحجار الصلبة وغيرها كالديوريت والشيست والمرمر مما يدل على ذوق سليم ، ولكن أمارات الفن الصحيح بدأت تظهر فى أوائل عصر الأسرات وأخذت فى التدرج والرقى بخطوات واسعة ، حتى بلغت أوجها فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة .

هور أمارات الحقيق

ويجب أن يراعى عند الكلام على الفن فى القطر المصرى فى هذه الفترة البحث فى جميع نواحيه ، إذ فى الواقع لم يكن يجرى على نظام معين فى التقدم والرقى ، بل كان خاضعا لمؤثرات عدة ، أهمها المكان أو البيئة التى نشأ منها ، والمعتقدات الدينية التى تحيط بهذه البيئة ، وكذلك الفرعون الذى كان يسيطر على البلاد فى ذلك الوقت . ومقدار تشجيعه للفنون والحرف والصناعات الدقيقة المختلفة . فقد يحدث أن تكون الفنون مثلا فى عهد أحد الملوك نامية زاهرة لتشجيعه لها ، ثم يأتى بعده عدة ملوك آخرين ينحط فى أيامهم الفن ، ولا أدل على ذلك مما نشاهده فى عهد الملك « زت » (ثعبان) . إذا حكمنا على عصره بمقدار ما وجدناه من الذوق الفنى فى لوحته ، إذ كانت الفنون فى عهده زاهرة ، ثم جاء من بعده خلف انحطت فى عهدهم الفنون الجميلة حسب ما وصل إلينا من الآثار التى كشفت ، كما سيأتى شرح ذلك .

ع رقى الفن ؤثرات

فن العمار

لم يبق لنا الدهر من مبانى هذا العصر الدنيوية شيئا يذكر ، ولذلك تنحصر كل معلوماتنا عن المبانى فيما بقى لنا من مبانيهم الجنائزية من قبور ومعابد وهيا كل الخ . ولحسن حظ التاريخ أقام المصريون هذه المبانى على حافة الصحراء بعيدة عن مياه الفيضان ، ولذلك بقيت لنا محفوظة حتى عصرنا هذا فى الوجه القبلى مما لم توفق اليه أمة أخرى فى العالم .

سبب حفظ المبانى الجنازية

أما مبانيهم الدنيوية فكانت على العكس تقام فى وسط المزارع من اللبن ، ولذلك كان اختفاؤها محتما ، لعدم صلابة المادة التى تبنى منها أولا ، ولتعاقب المدنيات ثانيا ، وكان ظهور أول مميزات واضحة فى فن المعمار المصرى فى خلال الأسرتين الأولى والثانية ، انتشار استعمال اللبن فى إقامة الجدران وصنع الأبواب والعمد والسقف من الخشب وهما المادتان اللتان كانتا فى متناول المصرى فى ذلك العصر ، ولا غرابة فى ذلك فطمى النيل الذى كان يخلط ببعض مواد أخرى وخاصة التبن كان صالحا لعمل قوالب من اللبن صلبة ، قاومت عدة الآف من السنين كما يشاهد ذلك فى مدن الأهرام المكشوفة حديثا ؛ إذ نجد أن القالب منها يبلغ طوله أحيانا نحو ٤٥ سنتيمترا فى عرض ٢٥ سنتيمتراً ولا يزال باقيا على حالته ، وقد بقيت أقامة المعابد باللبن تقليدا متبعا فى كل عصور التاريخ المصرى وذلك لأن المصرى كان بطبعه محافظا . يضاف إلى ذلك أن طبيعة البناء باللبن فى جو حار كجو البلاد المصرية لايمتص الحرارة بسهولة كالأحجار الصلبة ، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التى جعلت المصرى العادى بل الملك أيضا يحافظ على إقامة مبانيه

انتشار المبانى باللبن ومتانتها

الدنيوية باللبن ، وقد لاحظ المصرى هذه النظرية أى أن اللبن موصل ردىء للحرارة فى أمور طبقها هو بنفسه ، وذلك أننا شاهدنا فى مقبرة العظيم «رع ور» أنه قطع لنفسه مائدة قربان عظيمة من المرمر ووضعها فى مقبرته ، ولكنه لاحظ أن تعرضها لحرارة الشمس يجعل حجرها يتفتت ، فأحاطها بقوالب من اللبن فبقيت محفوظة لنا للآن ، أما الجزء الذى تداعى من حوله اللبن فقد وجد مفتتا .

سبب إقامة المبانى باللبن

ومن ثم نقل المهندس المعمارى المصرى شكل المبانى التى كانت باللبن إلى تلك التى شيدها بالحجر الجيرى عندما اهتدى إلى كيفية استعماله (1).

بداية استعمال الحجر فى المبانى

ولا غرابة فى ذلك فإن المصرى كان دائما يريد أن يمثل مايقع تحت حسه فى حقله ومزارعه ، فى بيته وفى معبده وفى قبره ، وهذا أمر طبيعى وقد لازمته هذه التقاليد طوال تاريخه العظيم رغم التقلبات والرقى والفتوح والمؤثرات الخارجية التى تناولت حياته .

ويرجع الفضل فى ذلك إلى مهندس المعمار العظيم « إمحوتب » إذ قد استعملها فى بناية معبدى الهرم المدرج وملحقاته وكذلك فى إقامة قبر « زوسر » نفسه أول ملوك الأسرة الثالثة . وقد استعمل « إمحوتب » على وجه عام قطعا صغيرة من الحجر الجيرى الأبيض فى مبانيه الجميلة الصغيرة الحجم ، أما فى المبانى الضخمة فكان يستعمل فى بنائها قطعا صغيرة كذلك من الحجر المحلى كما يشاهد ذلك فى هرم سقارة المدرج . وبعد حوالى قرن من الزمان من حكم « زوسر » ؛ جاء كل من الملكين « سنفرو »

« إمحوتب » المهندس المصرى وبناء هرم سقارة المدرج

---

(1) Maspero, Ars Una p. 41.
(وقد بقى محافظا على تمثيل الخشب فى الاحجار حتى أنه كان يمثل جذوع النخل فى أحجار السقف والاعمدة .)

و « خوفو » فى بداية الأسرة الرابعة ، واستعملا قطعا ضخمة من الحجر فى بناء الهرم وفى كسوته وفى بناء جدران المعابد ، وقد شوهد أن بعض القطع الفردية يبلغ طول الواحدة منها أربعة عشر مترا فى ارتفاع سبعة أمتار (كما يشاهد ذلك فى معبد الوادى والمعبد الجنازى لهرم « خفرع ») ويرجع الفضل فى ذلك إلى كثره استعمال النحاس لتسهيل قطع الأحجار فى البلاد كما سنفصله فيما بعد .

استعمال الاحجار المختلفة فى المبانى فى عهد الاسرتين الرابعة والخامسة

وفى عهد « خوفو » بدأ المهندسون المعماريون يستعملون حجر الجرانيت الذى كان يجلب من أسوان وحجر البازلت بدلا من الحجر الجيرى فى أقامة الجدران وفى كسوتها ، وهذا التقدم فى فن المعمار قد استمر فى عهد ملوك الأسرة الرابعة الذين خلفوا « خوفو » ، وكان من نتائج استعمال هذه الأحجار الصلبة القطع أن أقام منها الملك « خفرع » معبد الوادى الساذج التصميم ، البسيط المنظر ، وعمده المربعة الشكل ، المصقولة صقلا بديعا ورصف رقعة مدخله بالمرمر (1) .

وفى عهد الأسرة الخامسة ازداد استعمال الجرانيت ، وتفنن المصرى فى صنع الأعمدة منه ، كما يظهر ذلك فى معبد « سحورع » حيث صنعت عمده على شكل سيقان النخيل وغيرها من الأشكال النباتية ، مما يشعر بمحافظة المصرى على استعمال الأشكال القديمة التى كانت مألوفة لديه قبل معرفته الأحجار الصلبة .

أما كثافة الجدران ــ وتلك كانت من المميزات الضرورية فى أشكال المبانى المقامة من اللبن ــ فأنها بقيت على حالها فى المبانى الحجرية التى

---

(١) كان يستخرج من محاجر قريبة من حلوان .

سادت فى عهد الأسرة الرابعة ، وكذلك صنعت من الحجر فى أواخر الدولة القديمة الأجزاء التى كانت تصنع من الخشب فى المبانى كالسقف والعمد ، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المصرى كان يمثل الأبواب المصنوعة من الخشب فى الحجر كما يشاهد ذلك فى معبد الملك « زوسر » فأن أبوابه كانت مصنوعة من الحجر و إن كانت لا تستعمل ، وذلك محافظة على القديم من جهة ، ورغبة فى طول بقائها من جهة أخرى .

تقليد الحجر للاجزاء الخشبية

وقد استعمل « شبسكاف » ابن الملك « منكورع » المبانى الضخمة المميزة للأسرة الرابعة بإقامة مصطبته الغريبة الشكل فى دهشور « مصطبة الفرعون » (انظر جزء أول ص٣١٣) ورغم أن الأهرام فى عهد الأسرة الخامسة أصبحت أقل حجما وصلابة فى تركيبها ، فإن استعمال الأحجار الصلبة كان سائرا نحو الرقى ، وبخاصة فى إقامة العمد وتنوع أشكالها ، ونقوشها ، ونحتها وليس هناك أى مجال للشك فى أنه كان يوجد فى أسوان ، وفى محاجرها مصانع ، ومدارس لإتقان فن النحت وقطع الأحجار وتوريدها لمعابد الملوك فى ذلك العصر ، ولا أدل على ذلك من السفن التى كانت تشق عباب النيل محملة من أسوان بالأعمدة ، والشرفات ، والأفاريز المجهزة لتقام فى الأماكن التى أعدت لها (أنظر جزء أول ص ٣٥٤) .

المصانع المصرية فى أسوان لقطع الاحجار وتجهيزها

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن المصرى فى ذلك الوقت قد توصل إلى اختراع البكرات التى تستعمل لرفع الأحجار الضخمة ، وقد عثر حديثا فى منطقة الأهرام على بكرة كاملة مصنوعة من حجر الجرانيت تدار بوساطة ثلاثة حبال ، وقد وجدت فى إحدى منازل مدينة الهرم الرابع ، وكذلك عثر على جزء كبير من بكرة أخرى في معبد الهرم الثانى الجنازى كما ذكرنا

استعمال البكرات

آنفا (انظر جزء أول ص٢٨٨) وبهذا الكشف هدم كثير من النظريات التى كان ينسجها خيال المهندسين فى كيفية رفع الأحجار إلى ارتفاع شاهق

جبانات هذا العصر ومقابره

كانت الجبانات تقام فى هذا العصر كما ذكرنا عند حافة الصحراء ، ولم يختلف القبر فى بداية العهد الطينى عن قبر ماقبل الأسرات ، إلا فى إدخال بعض التحسينات ، فمثلا نجد أن فى عهد الأسرة الأولى أخذ القوم يقيمون قبورهم على شكل حجرات مستطيلة عظيمة الحجم بالنسبة لقبور ماقبل الأسرات ، وقد زادوا فى تنميقها وتجميلها ، فكسوها من الخارج باللبن ، وأحيانا كانت تكسى بكساء ثان من الخشب . وكان يتوصل إلى حجرة الدفن من أعلى أو بواسطة سلم مبنى فى صلب المقبرة . وهذا الشكل المستطيل للمقبرة قد أطلق عليه العلماء لفظة « مصطبة » فيما بعد ، وذلك لوجه الشبه بينها وبين المصطبة التى تبنى أمام بيوت الفلاحين فى عصرنا هذا ، والمتأمل فى الجدران التى تحيط بهذه المصطبة يجد أنها مائلة بعض الشيء . ويلاحظ أنه من أول الأسرة الأولى إلى الأسرة الثالثة كانت جدران المصطبة من كل نواحيها محلاة بكوى على هيئة أبواب أطلق عليها علماء الآثار « الأبواب الوهمية » أو « الأبواب الكاذبة » . وكانت هذه الأبواب تحذف فى المصاطب الصغيرة من الجهة المقابلة للصحراء ، أى من الجهة الغربية . وأحيانا كانت تحذف من كل الجهات إلا جهة الوادى ، وقد انحصر وضعها فى الجهة الشرقية فقط منذ الأسرة الرابعة بدون أى استثناء .

تركيب المقبرة فى العهد الطينى

المصطبة وشكلها

موضع الباب الوهمى

أما القرابين التى كانت توضع حول جثة المتوفى فى حجرة دفنه فى عصر ماقبل الأسرات ، فقد أصبحت الآن توضع فى حجرات صغيرة ؛ أقيمت حول حجرة الدفن فى مقابر عظماء القوم . وكان القبر يغطى بسقف مصنوع من ألواح خشبية ، ترتكز على كتل عظيمة من الخشب كذلك ، وفوق هذا السقف كان يقام مبنى من الحصى والرمل مغطى بكساء من اللبن ، وقد كشف عن مقابر عدة من هذا النوع فى سقارة فى السنين الأخيرة ، وحولها بعض مبان إضافية . على أن هذا لايعنى أن المصرى فى هذا العهد لم يكن يستعمل الأحجار ، فقد وجد فى سقارة أن الحجر كان يستعمل فى بناء أجزاء من هذه المقابر ، كالعتب ، واللوحة المأتمية وقد عثر على مقبرة من عهد الأسرة الأولى كسيت جدران إحدى حجراتها بالحجر الجيرى وكذلك سقفها .

موضع القربان فى القبر

استعمال الحجر فى بعض أجزاء مقابر هذا العصر

وأول بناء شوهد من الحجر الصلب كان فى عهد الملك « ودمو » رابع ملوك الأسرة الأولى ، إذ وجد أن رقعة مقبرته مرصوفة بالجرانيت . وفى نهاية الأسره الثانية وجدنا قبر الملك « خع سخموى » مكسوا بأكمله بالحجر الجيرى الأبيض . ويلاحظ فى هذا العهد أن باب القبر كان يوضع فى الجهة الشرقية ، وكان يدل على موقعه لوحتان جنازيتان. وربما كان وجود الباب فى هذه الجهة دليلا على انتشار عبادة الشمس ، إذ يستقبلها المتوفى عند شروقها فى الصباح .

أول استعمال للحجر بصفة ظاهرة

وقد كشف حديثا فى سقارة عن مقبرة رئيس وزراء الملك « ودمو » ويدعى « حم كا » ، وهى تحتوى على مبنى علوى مؤلف من ٤٢ حجرة خاصة بكل الأدوات المأتمية من مأكولات ، وأسلحة وأوان ، وكل

مايحتاج إليه المتوفى فى حياته حسب اعتقاد المصريين فى ذلك العهد .
وكانت جدران القبر الخارجية ، مزينة بأبواب وهمية ، أو كما يعبر عنها بعض علماء الآثار بواجهة أبواب القصر الملكى . والظاهر أن المصرى كان يعتقد أن لكل من محتويات هذه الحجرات قرينا ؛ أو روحا مادية يتقمصه كما يتقمص القرين جسم المتوفى فى حياته الثانية ، وإلا فليس لوجود هذه الأبواب فى واجهة كل حجرة أى تفسير آخر ، إذ هى فى الواقع المرشد للقرين عن مكان الجسم الذى لابد من أن يتقمصه ليحيا حياة ثانية .

الغرض من الباب الوهمى

أما مقابر ملوك هذا العصر فتنقسم إلى نوعين الأول مبنى باللبن على شكل مصاطب ضخمة تتألف من عدة حجرات ، وقد عثر عليها فى جهة العرابة و نقادة . وهى لملوك الأسرة الأولى (انظر جزء أول ص ٢٦٩ الخ) ، و بعض ملوك الأسرة الثانية . والثانى عثر عليه فى « سقارة » بجوار أهرام الملك « وناس » وهى جبانة نحتت فى الصخر تحت الأرض ، وتبلغ مساحتها المكشوفة إلى الآن عدة أفدنة ، ويرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الثانية ، إذ عثر فيها على عدة أوان من الفخار مقفلة بسدادات عليها خاتم الملك « نترمو » أحد ملوك الأسرة الثانية ومن المحتمل أن المعبد الذى أشير إليه فى حجر « بلرم » ، والذى بناه هذا الملك من الحجر ، كان مقاماً فوق هذه الجبانة ثم اختفى على مر الأيام ، وهذه النظرية تنطبق على قبره المنحوت تحت الأرض وفيه بقايا آثار من عهده .

أنواع المقابر فى هذا العصر

كشف جبانة شاسعة منحوتة فى الصخر فى سقارة

وكذلك عثر على بقايا أوان من المرمر ، وحجر الشيست ، والديوريت ؛ عليها نقوش من عهد ذلك الفرعون . وعلى قطعة منها ألقاب إحدى نسائه ،

وهـذه القطع الصغيرة من الجرانيت ، والبورفير ، والمرمر تشبـه في صنعها ما عثر عليه في الهرم المدرج .

محتويات هذه الجبانة

ولكن مما يؤسف له جـد الأسف أن هـذه الجبانة قد استعملت في العصور المتأخرة مرة ثانية وعلى الأرجح في العصر الفارسي ، إذ وجدت فيها آلاف من الجثث المكدسة بعضها فوق بعض ومعظمها محروق . ومن جهة أخرى أوقف البحث فجأة في العام الماضي فلم يتم فحصها وستبقى محتوياتها غامضـة إلى أن يتم بحثها بحثا علميا . غير أنه مما لا شك فيه أنها كانت للملوك والعظماء ، وكانت تعتبر بقعة مقـدسة حتى أن ملوك الأسرات التي تلت ، وعظماءها أقاموا فوقها وحولها المقابر ، والمعابد ، وبخاصة في عهـد الأسرتين الخامسة ، والسادسة .

شكل البيوت في هذا العصر

أما مساكن الأحياء التي كان لا بد من أن توجد بالقرب من مقابرهم فلم يعـثر على شيء منها قط ، للأسباب التي ذكرناها آنفا . ولقد عوضنا عن ضياع هذه المدن ما وجدناه من تخطيط بيوتها على اللوحات التي عثر عليها في مقابرهم . فقد عبر عنها المصري بسور ذي شرفات ، ومن المحتمـل جـدا أن المدن كانت مقامة داخل سور من اللبن ذي شرفات . ولا يبعد أن قلعة « هرا كنبوليس » (الكوم الأحمر الحالي) التي يرجع تاريخها إلى ذلك العهد كانت محوطة بجدار مزدوج ، الداخلي منها أعلى من الخارجي . وليس لدينا أية فكرة عن بيوت تلك الفترة ، وكل ما نعلمه أننا عثرنا على قطعة من العاج من عهد الملك « عحا » قد مثل عليها كوخ من القصب مسقوف بجريد نخل . وكذلك نشاهد أكواخا أخرى من هذا النوع تقريبا منقوشة على رأس دبوس من عصر الملك « نعرمر » . ولا شك في أن أشكال هذه

البيوت كانت موجودة فى ذلك العصر ثم درجت نحو الرقى كما هو الحال فى المقابر .

وفى عهد الأسرة الثالثة نجد أن فن بناء المقابر قد تطور تطورا عظيما جدا وخاصة عند الملوك وعلية القوم، وافراد الشعب .

ففى أوائل عصر الأسرة الثالثة نجد أنه قد حل محل القبر الذى يعلوه بناء آخر من اللبن فى عهد الأسرتين الأوليين بناء آخر من اللبن على شكل مستطيل عظيم الحجم فى غالب الأحيان ، ويطلق عليه العامة لفظة مصطبة . ويختلف شكل المصطبة فى هذا العهد عنها من قبل فقد أصبح بناء المصطبة مستطيلا وجدرانه من الحجر الجيرى المهذب الذى أخذ ينتشر . أما داخل هذا المستطيل فكان يملأ بالحصى وبقايا المبانى وكان أحيانا يبنى فى هذا المستطيل بعض مبان باللبن لتمنع شدة الضغط على السور الخارجى الذى يحيط بالمصطبة .

المصطبة وشكلها

ومنذ ذلك العهد كان لايقام الباب الوهمى إلا فى الجهة الشرقيه ، وقد تحتوى المصطبة على أكثر من باب واحد . وذلك حسب عدد من دفن فيها ، فإذا كانت زوجة المتوفى مدفونة معه فى مصطبته أقيم فيها بابان وهميان ؛ وكان فى العادة باب الزوجة أصغر حجما من باب الرجل ، وقد جرت العادة أن يكون باب الزوحة فى الجهه اليسرى من المصطبة وكان الباب الوهمى يصنع من قطعة ، أو قطعتين فأكثر من الحجر الجيرى المجلوب من طرة أو من الحجر المحلى حسب ثراء المتوفى ومركزه فى البلاط الملكى ، وكان يثبت فى أصل الجدار الشرقى من المصطبة كما ذكرنا وقد كان الغرض منه إرشاد القرين أوالروح المادية « كا » إلى المكان

محتويات المصطبة

الذى وضعت فيه الجثة أى حجرة الدفن لتنضم إليها بعد الموت ، إذ بها كان المتوفى يحيا ثانية فى القبر .

نقوش الباب الوهمى

وكان الباب الوهمى فى بادىء الأمر خاليا من كل نقش ثم كتب عليه اسم المتوفى ، وبعد ذلك نقشت عليه صلوات دينية ، وتضرعات للمتوفى ؛ وبعد ذلك تدرج فرسم عليه المتوفى ، وزوجته وبعض أفراد أسرته ، وبخاصة الابن الأكبر ، الذى أخذ يلعب دورا هاما فى تقديم القرابين لوالده منذ الأسرة الرابعة . وفى النهاية كان يرسم فى الجزء الأعلى من الباب الوهمى المتوفى وحده ، أو هو وزوجته ، وأمامه مائدة قربان صور عليها كل مالذ وطاب من أنواع المأكولات ، والشراب .

مكان حجرة الدفن ومحتوياتها

وخلف هذا الباب الوهمى كان يوجد البئر الذى كان يؤدى إلى حجرة الدفن ، وكان يصل عمقه أحيانا ، إلى نحو أربعين مترا ؛ وهذه الآبار كان الجزء العلوى منها مبنيا بالأحجار إلى أن يصل إلى الصخر فينحت فيه إلى العمق المطلوب ؛ ثم تنحت فى النهاية حجرة الدفن فى إحدى جوانب البئر . وكانت مساحتها تختلف حسب مقدرة المتوفى . فكانت تبلغ أحيانا ٧ فى ٦ مترا ، وكان يدفن المتوفى إما على رقعة الحجرة مباشرة ، أو فى تابوت من الحجر الجيرى ، أو الجرانيت حسب الأحوال . وكان يوضع حول هذا التابوت كل الأثاث المأتمى الذى كان يظن المتوفى أنه فى حاجة إليه فى آخرته . وأحيانا كانت توجد حجرة الدفن سليمة لم يمسها إنسان من قبل ، ومع ذلك لم نجد مع المتوفى أى أثاث مأتمى . مع أنه كما نستنتج من ألقابه ودقة صنع مقبرته من علية القوم . وليس هناك أى شك بعد ذلك فى أن موضوع

كوضع الأثاث المأتمى فى حجرة الدفن ، ان يتوقف على الاعتقادات الدينية لصاحب المقبرة نفسه .

الطرق المؤدية إلى حجرة الدفن وأنواعها

وليس من الضوورى أن يكون عدد آبار الدفن التى كانت تقام فى المقبرة بقدر عدد الأبواب الوهمية النى كانت مثبتة فى الجدار الشرقى منها ؛ وقد يحدث أن يقيم صاحب المقبرة لنفسه بابين وهميين ، ويكتب على كل منهما اسمه وألقابه . ففى هذه الحالة تكون حجرة الدفن موضوعة بينهما فى أعماق الصخر . وأحيانا كان يستعاض عن حفر بئر عمودى فى قلب المصطبة بحفر منزلق فى إحدى جوانب المصطبة يؤدى فى النهاية إلى حجرة الدفن التى كان موقعها دائما خلف الباب الوهمى . وكان هذا المنزلق يصنع لسببين ، أولهما لتسهيل إدخال التابوت فى حجرة الدفن ، وثانيهما لتضليل اللصوص ، وفى كلا الحالين سواء أكان البئر ، أو المنزلق مؤديا إلى حجرة الدفن ، فإن اللصوص كانوا يعانون المشاق المظيمة فى الوصول إلى مكان حجرة المتوفى ، وذلك لأن البئر كان يملأ بعد الدفن بالبقايا المتخلفة من نحته

علامات حجرة الدفن التى لم تمس

ويظهر أن ذلك كان من الطقوس الدينيـة ، إذ لم نجـد قط بئرا قد ملئت فوهته بغير المخلفات التى نتجت من نحته فى الصخر . وهذه من الوسائل التى تساعد الحفار على معرفة عما إذا كان البئر سليما أو سطا عليه عليه اللصوص من قبل . فإذا وجد أن الأحجار الصغيرة والحصى التى تملأ فوهة البئر مكونة كلها من مخلفات النحت لم يخالطها شىء آخر عرف أن حجرة الدفن سليمة . وقد ثبتت هذه النظرية فى الآبار التى وجدت على هذه الحالة . أما الآبار التى نهبت فنجد فى فوهها أجساما غريبة ؛

وهـذا دليل على أنها نهبت من قبل . هـذا إلى أن حجر الدفن كان يسد بابها بأحجار ضخمـة : أما المنزلق فكان يقفل من أوله إلى آخره بأحجار ضخمة من الحجر ؛ الواحدة تلو الأخرى مما يجعل انتزاعها من المنزلق صعبا .

البئر الـكاذب وسبب حفره

ومن المدهش أن الحفائر التى عملت فى منطقة الأهرام حديثا كشفت لنا عن ظاهرة جـديدة : فقد وجـد بجوار البئر التى تؤدى إلى حجرة الدفن بئر أخرى لا تؤدى إلى حجرة دفن ، وتعم هـذه الظاهرة فى أكثر من مائة وخمسين مصطبة ؛ أى أنه يوجد بجوار البئر الحقيقية بئر أخرى لا تؤدى إلى حجرة دفن ، ولا يعرف السبب الذى من أجله حفرت ، وقد ظن البعض أنها بئر قد ابتدىء فيها ولـكن لم يكمل حفرها غير أن تـكرار هـذه الظاهرة يدحض هذا الزعم . وفى اعتقادنا أنها بئر وهمية للمصطبـة كما أن لها بابا وهميا ، وكما أنه كان للمصطبة باب وهمى تدخل منه القرينة (الروح الجسميـة) لتحل فى الجسم وتغذيه حتى لايموت أبديا ، كذلك كان للجسم ظـل « خو » كما يعبر عنه المصريون ، مقره البئر الوهمية يصل منها إلى الجسم الحقيقى ، ويحل محله إذا أتلفه الدهر ، وبذلك كان المصرى يحتاط لنفسه من كل الوجوه . وإلا فليس هناك أى تفسير آخر لهذه البئر الوهمية ، على أن وجود هذه البئر كان شائعا فى الدولة القديمة ، وبخاصة عند علية القوم . تدل على ذلك مقابر أهرام الجيزة ، ومنطقة سقارة .

السبب فى تقـدم بنـاء المصـاطب وتعـدد حجراتها .

كان أقارب المتوفى يجلسون أمام الباب الوهمى عند زيارتهم له فى أيام

الأعياد والمواسم ؛ ومعهم القرابين التى كانوا يضعونها على مائدة قربان مصنوعة من الحجر ، وبتقدم العمران والمدنية أخذ القوم يفكرون فى الاعتناء بمقابرهم عناية تتفق مع مكانتهم فى الهيئة الأجتماعية . فبدلا من الجلوس أمام الباب الوهمى بنوا حجرة للجلوس ولتقديم القربان فى صلب المصطبة ، وجعلوا الأبواب الوهمية فى جدارها الغربى . أما باب هذه الحجرة فكان فى العادة فى الجهة الشرقية ، أو البحرية وأحيانا يكون فى الجهة القبلية ولكن لم نعثر على باب للحجرة فى الجهة الغربية لمقبرة ، إلا فى واحدة بجبانة الأهرام ، وهذا كان لضرورة ملحة وهى ضيق المكان . أما الباب الوهمى فمكانه لم يتغير قط ، إذ كان دائما يتجه إلى الشرق ليواجه الشمس عند الشروق ، وتسطع عليه عندما تطلع ولذلك كانت تصنع فى القبور المسقوفة فتحة فى الجهة الشرقية قبالة الباب الوهمى . بطريقة تجعل أشعة الشمس تنفذ منها فى الصباح ، وترسل خيوطها على الباب الوهمى

الزيادات التى أدخلت فى مبانى المصطبة

وهذه الحجرة كانت على ما يظهر فى بادئ الأمر لجلوس أقارب الميت ، وللقرابين وبعد ذلك نشاهد أن مدخلها أخذ ينقش عليه صلوات دينية ، واسم المتوفى وألقابه على العتب العلوى ثم تدرج بعد ذلك فنقش جانباه الخارجيان برسم المتوفى ثم بأقاربه ، وبعد ذلك نقش جانباه الداخليان بما يشبه ذلك . ولما كان المصرى يعتقد أنه سيحيا حياة أخرى فى القبر مماثلة لحياته الدنيوية ، أراد أن يمثل كل ما كان يتمتع به فى الدنيا على جدران هذه الحجرة التى كانت فى الأصل لوضع القرابين ، وجلوس أقاربه ، فأخذ يعتنى أولا ببناء هذه الحجرة ، وكان أحيانا يشيدها من الحجر الجيرى الأبيض أو ينحت مصطبة فى الصخر محتوية

الرسوم التى نقشت على جدران المصطبة

على حجرة جميلة ، ثم أخذ ينقش على جدرانها كل مناظر الحياة اليومية ، وما كان ينعم به من بذخ وترف . ولما كانت الحجرة الواحدة لا تكفى لذلك أخذ يضيف اليها حجرات أخرى ، وممرات حتى إن واحدا من علية القوم كانت مقبرته تحتوى على أكثر من ثلاثين حجرة . وخص كلا منها برسوم معينة ، إذ كان يعتقد أنه بقوة السحر يمكن أن يتمتع بما تمثله هذه الرسوم . ويرجع الفضل فى معرفتنا حياة المصرى القديم الاجتماعية والدينية من كل الوجوه لهذه النقوش ، فنشاهد على جدران هذه المقابر أنواع القرابين التى كانت تقدم للمتوفى ، وما كان يلهو به من صيد البر ، والبحر ، ومعيشته المنزلية وحقوله وما فيها من زرع مختلف ألوانه ، ونوعه وكذلك الرياضة البدنية ؛ وغير ذلك مما سنتكلم عنه عند الكلام على فن النحت . وفى الواقع أصبحت هذه المقابر بمثابة بيوت للأموات تؤلف مدينة بشوارعها ، وأزقتها كما يشاهد ذلك فى جبانات الجيزة ، وسقارة ، وكانت هذه المدينة فى عهد الدولة القديمة تقام حول قبر الملك (الهرم) ، وذلك لأن عظماء القوم كانوا يريدون أن يلتفوا حول مليكهم فى آخرتهم كما كانوا يلتفون حوله فى دنياهم .

مقابر الملوك

أما مقابر الملوك فى هذا العصر . فكانت فى أول الأمر تبنى على هيئة مصطبة ، ومعظمها عثر عليه فى (العرابة المدفونة) ، و (نقادة) ؛ وقد عثر على أول قبر بنى للملك « زوسر » فى (بيت خلاف) القريبة من العرابة وقد وجد فيه حجرة مبنية بالحجر الجيرى ؛ وهو على شكل

مصطبة حقيقية . غير أنه على ما يظهر لم يرض بأن تكون مقره الأخير ويحتمل أن « إمحوتب » مهندسه المعمارى العظيم ، وجه نظره إلى منطقة سقارة المقدسة التى كانت تعتبر من هذا العصر مهبط العبادة ، والمقر الأخير لبعض الملوك كما أثبتت ذلك الكشوف الحديثة . هذا إلى أنها كانت على مقربة من محاجر طرة حيث كان من السهل قطع الأحجار الجميلة لبناء القبور والمعابد ، وكذلك كانت قريبة من مقر حكمه .

كيفية بناء الهرم المدرج وسببها

وتدل الظواهر على أنه أقام لنفسه مصطبة من الحجر الجيرى المحلى المهذب ؛ ثم بنى فوقها ثانية أصغر مساحة ، ثم ثالثة أقل مساحة من الثانية وهكذا ، حتى بلغ عدد المصاطب سبعاً بعضها فوق بعض ، غير أن تعاقب الدهور قد أغار على السابقة منها فمحاها من الوجود ، ولم يبق منها إلا ما يدل على أثرها . وقد أطلق على هذا المبنى خطأ اسم (الهرم المدرج) إذ أن شكله لا ينطبق تماما على مدلول الهرم الحقيقى . ولا غرابة فى أن « زوسر » رفع بنيان قبره إلى هذا الحد ، لأن فى ذلك معنى عميقا ، إذ كان يريد علوا فى الممات كما كان فى الحياة . فكان غرضه أن يشرف قبره على قبور رجال بلاطه ، وعظماء دولته ، التى كانت حول قبره ؛ ويكون أول بناء ترسل الشمس أشعتها عليه من كل جوانبه عند ما تشرق فى الصباح ، وبخاصة إذا علمنا أن الإله الأعظم لهذه المنطقة فى هذا العصر هو الإله « آتوم » الذى أصبح فيما بعد إله الشمس بكل معانيها .

وقد أسفرت البحوث الأثرية التى قام بها علماء الآثار فى الجزء الأسفل الذى تحت الهرم المدرج ، وماحوله عن معلومات ، وثروة أثرية لاتقدر بقيمة . فقد عثر فى جوف الصخر الذى تحت مسطح الهرم ، على

حجرة الدفن العظيمة المكسوة بالجرانيت ، وعلى حجرتين مرصعتين بألواح صغيرة من القاشانى الازرق ، وقد كانتا معروفتين منذ زمن بعيد . وتعد الطريقة الفنية الحاذقة التى نسقت بها هذه الألواح فى الملاط بالغة حد الأعجاب والدهشة ودالة على ما وصل إليه القوم من المهارة الفنية فى هذا العصر ، وهذه الألواح كان سطحها الخارجى مقوسا بعض الشىء ، وكان فى ظهر كل منها ثقبان صغيران ، يوضع فيهما خيط من القنب يلصق بالملاط . وقد أمكن بالألقاب الرسمية التى وجدت منقوشة على إطارى باب الحجرتين ، أن نحدد بالضبط تاريخهما ؛ ولكن أحد علماء الآثار قد شك فى أن لون القاشانى الأزرق ، والمهارة العظيمة التى رصعت بها هذه الألواح ، وكذلك كتابة اسم الملك « زوسر الحورى » « نب معات » يرجع عهدها إلى عصر هذا الملك . وفى اعتقاده أن هذه ترميمات ، وإصلاحات عملت فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ، أى فى عهد النهضة المصرية الأخيرة . غير أن هذا الرأى قد دحض نهائيا بالكشوف الحديثة ، ولم يأخذ به أحد من العلماء . وذلك لأنه فى عام سنة ١٩٢٧ عثر فى الجهة الجنوبية من الهرم فى جوف الأرض ، على مقبرة أخرى تحتوى على حجرة دفن من الجرانيت ، وعلى عدد عظيم من الممرات ، والحجر المستطيلة الشكل معظمها مزين بألواح من القاشانى مشابهة لما وجد فى المقبرة الأولى ، ووجد منقوشا على إطارات الأبواب « نتر خت » ، وهو لقب الملك « زوسر » ، ووجد فى إحدى الحجر ثلاث لوحات كل منها على شكل الباب الوهمى ؛ وعلى كل مثل الملك « زوسر » . ولا نزاع إذن فى أن هذا القبر هو لمؤسس الأسرة الثالثة .

وصف الحجرتان اللتان تحت هرم زوسر

العثور على حجرة دفن تحت الهرم المدرج

وفى عام سنة ١٩٣٧ اكتشف فى رقعة إحدى هـذه الحجرات ثقب لصوص يؤدى إلى ردهات أكثر عمقا ، يظهر أن جدرانها كانت مكسوة بالخشب . وقد عثر على تابوتين من المرمر ، يحتوى أحدهما على صندوق من الخشب مغشى بورقة من الذهب مثبتة بمسامير صغيرة ، رءوسها من الذهب لا يبعد الواحد منها عن الآخر سوى بضعة ملليمترات . ولكن مما يوسف له أن هذه الورقة كانت قد انتزعها اللصوص ؛ غير أنه لحسن الحظ بقى منها جزء يمكن به معرفة كيفية تركيبها كما كانت فى الأصل . وتدل البقايا الآدمية التى بقيت فى التابوت على أنها لطفلة صغيرة السن ، ويحتمل أنها بنت الملك « زوسر » .

محتويات الردهات التى كشف عنها فى الهرم المدرج

وعند ما كان البحث مستمرا فى عام سنة ١٩٣٤ لتتبع الممرات المختلفة التى تحت الهرم المدرج ، لاحظ بعض العمال وجود قطع عدة من أوان من المرمر وغيره من الأحجار لاصقة فى جدران إحدى الردهات ؛ فحول العمل إلى هذه الجهة ، وفعلا عثر على ردهة مكدسة بأكوام من الأوانى المصنوعة من المرمر ، والإردواز ، والديوريت ، والبورفير ، وأحجار أخرى صلبة . ثم على ردهتين أخريين مشابهتين للأولى . وقد استخرج من هذه الردهات الثلاث ما يربو على الثلاثين ألف إناء ، ولكن مما يؤسف له أن سقف هذه الردهات قد خر على الأوانى ، فلم يترك منها إلا عدداً صئيلا سليما . وقد نقلت هذه القطع المهشمة حسب موضعها بكل عناية حتى يمكن تركيب عدد عظيم منها وإعادته إلى حالته الأصلية .

الاوانى المصنوعه من المرمر وغيره التى عثر عليها فى جوف الهرم

ولا نزاع فى أن الأشكال المختلفة التى وجدت بين هذه الأوانى ، وتعدد أنواع الأحجار التى صنعت منها ، والنقوش الهيراطيقية التى وجدت

على مقابض الكثير منها دالة على أسماء بعض الملوك ، وعظماء القوم فى هذا العصر وألقابهم ، كل هذا يجعل لهذه الأوانى أهمية عظمى ، وبخاصة عند ماتدرس درسا علميا مستفيضا ، وهذا طبعا يحتاج إلى بحث طويل ، وعمل شاق بضع سنوات ولكن على الرغم من ذلك فإن أصلح منها يدل على أن صناعة هذا العصر قد بلغت مبلغا عظيما فى سلامة الذوق ، والحذق فى تقليد صناعة الفخار للحفر فى المرمر ، وأعجب هذه الأمثلة أوانى المرمر التى كان يصنعها حفار هذا العصر لتحاكى آنية الفخار ممثلا فيها الحبال التى كانت تربط بها لتعلق منها . هذا إلى أن الحفار قد تفنن فى صنع أشكال جديدة خلابة المنظر لم تكن معروفة من قبل ، وهذه الأوانى كانت تصنع بأحجام مختلفة . تبلغ الواحدة منها أحيانا مايقرب من متر فى عرض أربعين سنتيمترا . ولسنا نبالغ إذا قررنا حسب رأى أحد الفنانين الحاليين أن الأناء الواحد كان يحتاج إلى عمل نحات طول العام ، هذا إذا كان الفنان يشتغل بآلات ساذجة كالتى سنذكرها ، أما إذا كانت لديه آلات أخرى تفضل هذه الآلات ، كانت سرعته فى إنجاز صنع الإناء أقل مما ذكرنا .

أهمية هذه الاوانى

ولم نعثر للآن على أهرام للملوك الذين خلفوا « زوسر » مباشرة على عرش الملك . والظاهر أن الهرم الذى ينسب إلى الملك « حونى » فى « دهشور » آخر ملوك الأسرة لم يثبت بصفة قاطعة للآن أنه هو المشيد له أما هرم ميدوم الذى بناء الملك « سنفرو » فيشبه هرم « حونى » فى الشكل ، أى أنه لا يمكن أن يسمى أحدهما هرما بالمعنى الحقيقى ، وربما سمى هرم « سنفرو » (الهرم الكذاب) .

هرما « سنفرو »

ويعتقد « ماسبرو » أنه بنى هذا الهرم ليكون مأوى له بصفته ملك الوجه القبلى ، ولكن وجدنا أن هذا الملك قد أقام لنفسه هرما ثانيا فى « دهشور » تنطبق عليه كل صفات الهرم الحقيقى ، فقاعدته مربعة الشكل ، وكل وجه من وجوهه الأربعة على شكل مثلث ، وهو مبنى بالحجر الجيرى المهذب ، ومكسو بالحجر الجيرى الأملس . وظاهر هذا الهرم يجمع بين الفخامة والبساطة فى آن واحد ، ومن ثم بنى خلفاؤه كثيرا على منوال هرمه هذا ، ولا تختلف عنه إلا فى الحجم وفى قطع الأحجار التى كانت تستعمل للبناء وقد شيد بعده « خوفو » و « خفرع » و « منكورع » أهرامهم على هضبة الجيزة . وقد تكلمنا عنها وعما يتبعها من الملحقات فى حينه .

هرم « دد فرع »

أما الملك « دد فرع » الذى يعتبره بعض المؤرخين أنه جاء بعد « خوفو » (وهناك قول أنه جاء بعد « منكورع ») فقد بنى هرمه فى « أبو رواش » لأسباب داخلية (انظر جزء أول ص ٢٩٥) .

معابد الأهرام : لم يكن القبر الملكى يشمل الهرم وحده بل كان لكل هرم معبدان ، وقد تكلمنا عن المعابد وماهية كل منها فى عهد الأسرة الرابعة وكذلك عن معبد الشمس خلال الأسرة الخامسة (انظر جزء أول ص ٣٢٩ الخ) .

فنا النقش والنحت فى عهد الدولة القديمة

بدأ الفنان المصرى منذ عصر ما قبل الأسرات يظهر مهارة وحذقا فى حفر الصور ، والأشكال المختلفة على الأحجار الصلبة والهشة وعلى

العاج ، ولا أدل على ذلك من النقوش التى على لوحة الملك « نعرمر » التى أظهر فيها تفوقا عظيما بالنسبة للعصر الذى صنعت فيه ، وقد استمر الفنان يعمل فى هذا المضمار بشىء من الدقة عند انبثاق فجر التاريخ فى الألواح الجنائزية ، وفى صفائح العاج التى بقى منها بعض ما يدل على مبلغ ما وصل اليه من الإتقان فى هذا الفن .

لوحة الملك « زت »

وأدق قطعة جمعت بين الرشاقة والانسجام هى لوحة الملك « زت » (الثعبان) المحفوظة الآن بمتحف اللوفر ، وهى لوحة من الحجر الجيرى الأبيض ، مستطيلة الشكل ، مقوسة من أعلاها ، وقد نقش على رقعتها صورة الإله « حور » واقفا على بناء مستطيل يمثل واجهة القصر الملكى يحيط به سور ، وفى وسط هذا السور نقش اسم الملك بعلامة الثعبان وهذا الرسم وهذه الكتابة يرمزان للحماية التى يقوم بها الإله للملك والدولة المصرية ولا شك فى أن عين الفنان تجد فى مجموعة رسوم هذه اللوحة الرشاقة فى التفاصيل وكذلك البساطة ، والحذق والانسجام ، مما يشعر بالعظمة ويبعث فى النفس الإعجاب ، ويملأ النظر سرورا وراحة .

اللوحات المأتمية فى العصر الطينى

على أننا من جهة أخرى نشاهد من هذا العصر لوحات أخرى ليس فيها شىء من الجمال يثير الإعجاب فى النفس رغم أنها ملكية . من ذلك لوحة الملكة « مرنيت » المأتمية ، ولوحة الملك « بر إيب سن »

أما لوحات الأمراء فكانت فى مجموعها خشنة الصنع وليس عليها إلا صورة المتوفى ، وأهم مثل من هذا النوع لوحة « سا إف » الذى عاش فى عهد الملك « قع » ومن المدهش أن هذه الألواح لم تكن وقفا على بنى البشر ، بل كانت كذلك تقام على قبور الكلاب ، وكانت هذه

الحيوانات تدفن فى معظم الأحيـان بجوار قبور أسـيادها ، وقد عثر على أمثلة من هذا النوع فى حفائر شمال سقارة من عهد الأسرة الأولى والثانية ، وقد استمر تصوير الكلاب على اللوحات طوال عهد الدولة القديمة وفى عهد الدولة الوسطى أيضا ، وذلك أن كبار موظفى هذا العصر كانوا يمثلون كلابهم على لوحاتهم الجنائزية لاعتقادهم أنهم سيتمتعون بها فى حياتهم الآخرة كما كانوا يتمتعون بها فى دنياهم . يضاف إلى ذلك أن لوحات الأقزام العدة التى كشف عنها تدل على أن هـذه المخلوقات العجيبة كانت تتمتع بحظوة كبيرة فى القصر الملكى وقد أظهر الفنـان مهارة فائقة فى تصوير هؤلاء الأقزام المشوهى الجسم بكل دقة ، وأمانة ، وحذق يفوق ما كان ينتظر منه فى ذلك العصر السحيق فى القـدم ، ولا غرابة فى ذلك فإن هؤلاء الأقزام كانوا أعظم أداة للسمر والسرور والترويح عن النفس عنـد الملوك فى ذلك العصر [1] (انظر جزء أول ص ٣٨٦ الخ).

لوحات مأتمية للكلاب والاقزام

أما لوحات العاج الصغيرة التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، فلهـا قيمة تاريخية عظيمة جدا ففيها حاول الفنان أن يتخلص من قيـود العصر السابق ، ويظهر فى الأشكال التى يحفرها الحركة والحياة وإن كان لم يوفق ويمكننا على وجه عام أن نحكم على فن النقش فى ذلك العصر بأنه قد انحط عما كان عليه فى عصر ما قبل الأسرات ؛ ولذلك لا يمكننا أن نقارن لوحة منقوشة من هذا العصر الطينى بلوحة من عصر ما قبل الأسرات الحديث مثل لوحـة «نعرمر» ، ورءوس الدبابيس ، وسكين جبل العرق فـكل هذه تنم عن جمال فى الفن، وحسن فى الذوق مما لم يصل إليه فنان العصر الطينى (جزء أول ص١٠٧)

قيمة الالواح الفنية فى هذا العصر

(1) Devies, Rock Tombs, of Sheikh Saïd, p. 12.

والواقع أن هذا الانحطاط الفنى لم يأت بسبب عدم ذكاء الفنان ، بل جاء نتيجة ميله لحب الاختراع ، والتجديد ، والخروج عن القيود القديمة ، إذ كان يحاول أن يرسم مناظر معقدة تحتاج إلى مران فنى كبير ، حتى تبرز فى عالم الفن قطعا فنية جميلة . وفى الحق يمتاز هذا العصر الطينى بتركه الصور التقليدية المقيدة بالموضوعات الخاصة ، التى كانت شائعة الاستعمال فى عصر ما قبل الأسرات ، وأخذ يبحث عن فن جديد قوى راق ، ولا شك فى أنه ليس هناك ما هو أدعى إلى الإعجاب والسرور من عصور التكوين الفنى التى نرى فيها الفنان يتلمس طريقه فى مجاهل الفن المتشعبة ليهتدى فى النهاية إلى السبيل القويم ، بعد أن يضل مرات عدة فى تجارب تنتهى بالفوز أخيرا .

سبب انحطاط الفن فى هذا العصر

على أن الكتابة المصرية القديمة نفسها كانت أكبر ساعد للمصرى لينبغ فى فن الرسم والنقش ، لأن طرق كتابتها ، وتعدد رموزها يحتاج لمهارة عظيمة قوامها الفنان السابقان ، إذ كان المصرى عند تدوينها على الأحجار يرسمها أولا ؛ وبعد ذلك ينقشها ، وهذه الكتابة كلما كانت إشاراتها أقرب محاكاة للطبيعة ، كان جمالها أبهى ، وأعظم ، ولذلك كانت تعد من الفنون الجميلة . ورغم أن الكتابة فى ذلك العصر لا تزال فى طفولتها فإن تصوير الملك (ثعبان) ، وهو يمثل بحرف زاى فى اللغة المصرية القديمة قد نقش على لوحته بإتقان مدهش بالنسبة للكتابة فى العصر الذى نحن بصدده ويمكننا أن نتتبع الخطوات التى خطتها الكتابة المصرية القديمة تدريجا نحو الرقى مما نشاهده على أختام الموظفين فى ذلك العصر ، واستمرارها فى طريق الإتقان حتى بلغت القمة فى عهد الأسرتين الرابعة ، والخامسة ،

الكتابة المصرية عامل من عوامل تقدم الفن

إذ كانت تظهر الحروف منقوشة على الأحجار فى مقابر بعض عظماء الدولة وكان كل حرف منها بمثابة قطعة فنية فريدة فى بابها ، إذ كان ديدن الفنان فى ذلك أن يحاكى الطبيعة فى الطيور ، والأشكال المختلفة التى كانت تتألف منها الأشارات المصرية القديمة .

الابداع الفنى الذى ظهر فى النقوش التى على جدران المقابر

ولا شك فى أن أكبر مجال أظهر فيه الفنان المصرى براعته ، فى النقش والتصوير . هى المناظر التى مثلها على جدران مصاطب الدولة القديمة ، وفى معابد ملوكها . وكانت بداية هذه النقوش ما كان يكتب على اللوحة التى كانت توضع أمام باب قبر المتوفى إذ كان يقتصر فيها أولا على اسم صاحب القبر ، ثم أخذت تتدرج شيئا فشيئا بتطور نظام الأسرة الاجتماعى (كما سيأتى بعد) ، حتى أصبحت تنقش كلها برسوم ، ومناظر تمثل صاحب القبر ، وزوجته ، وأسرته . ولما نمت الإعتقادات الدينية ، وازدادت ثروة البلاد الداخلية ، وأصبح القبر مؤلفا من عدة حجرات ، نقش على جدرانها رسوم ، ومناظر تمثل مواضيع مختلفة عن الحياة . وهذه الرسوم كانت فى بادىء الأمر يقصد منها تأدية وظيفة نفعية محضة ، ولكن بقدر ما كان يظهره الفنان من المهارة والدقة فى تصوير الأشياء على حقيقتها كانت المنفعة أكثر وأهم ، ولأجل أن نصل إلى كنه هذه المنفعة يجب أن نشرح الاعتقاد الدينى الذى من أجله كانت تنقش هذه المناظر على الجدران .

وتفسير ذلك أن المصرى كان يعتقد أنه سيحيا حياة ثانية فى قبره ؛ وكان يعتقد أن الإنسان مركب من عناصر مختلفة نذكر منها الجسم المادى « زت » ثم القرينة ، وهى الروح المادية ، وكانت تنضم إليه فى قبره بعد مماته ، وبها كان يمكنه أن يعيش فى قبره ويخرج منه نهارا ، ويعود

إليـه ليـلا ثم الروح النورانيـة ، وكانت تصعد إلى السماء وتنضم إلى عالم الأرواح ، الذى كان يمثل بالنجوم بالقرب من الإله « رع » إله السماء وقد جاء فى متون الأهرام مايثبت ذلك .

وكان هم المصرى طوال حيـاته أن يعمل لما فيه راحة قرينه فى قبره ، وذلك كان يتطلب أشياء عـدة ، فـكان لزاما على المصرى أن يحافظ على جسمه بعد الموت من التلف أو العطب ؛ لأنه إذا حدث فيه تشويه ، أو تمزيق ، لا يمكن للقرين أن يتعرف عليه ، ولذلك كان يصنع لنفسه قبرا فى أعماق الصخر ، ويضع جسمه فى تابوت ضخم عظيم الغطاء محكم الإغلاق بعـد أن يحنطه ، ويكفنه فى لفائف عـدة ، ومعـه كل حليـه . وأثاثه الذى كان يتمتع به فى الحيـاة الدنيا ، أو الذى صنع خاصا بقـبره ، وزيادة فى الحيطة كان يوضع بجانب تابوت المتوفى رأس من الحجر الجيرى الأبيض ، أو الجرانيت تحاكى رأس المتوفى بكل دقة ممكنة . فإذا ما جاء القرين إلى القبر لينضم إلى المتوفى كانت هذه الرأس المرشد له فى القبر . ولـكن القرين لم يكن يكفيه ذلك بل كان يتطلب ما يعيش عليه ، وينقل منه للمتوفى . من أجل ذلك كان المصرى يحبس الأوقاف ويعـين الـكهنة للإشراف عليها ، وليـكونوا فى خـدمة الروح المادية « كا » ، (أى القرينة) ويعدون لها الطعام كل يوم عند الباب الوهمى للقبر الذى كانت تخرج وتدخل منه كل يوم لتأخذ الطعام من مائدة القربان التى كانت توضع أمامه . وهؤلاء الـكهنة كان يطلق على كل منهم « حم كا » (أى خادم القرين) . وبدون هذه القرابين كانت القرين لا تنضم إلى المتوفى فى قبره وبذلك يفنى فناء أبديا ، وكان المصرى يحتاط

الاحتياطات التى كانت تتخذ للمحافظة على الروح المادية

لنفسه من جهة أخرى لتبقى حياته دائمة فى القبر ، وذلك أنه خوفا من أن يبلى جسمه أو يزق فتضيع معالمه ، وتضل القرين الطريق للوصول إلى معرفته ، كان يصنع لنفسه تمثالا يعتنى فيه بدقة تصوير ملامح الوجه لتحل فيه القرين بدلا من الجسم الحقيق ، وسنتكلم عن ذلك فيما بعد .

ورغم كل هذا كان المصرى لا يهدأ له بال لما عساه أن يحل به فى قبره بعد موته إذا أهمل خدام القرين تقديم القربان له ، أو اغتصبت الأوقاف التى حبسها ليقدم منها القربان كل يوم للقرين ، فكان يلجأ إلى فنون السحر وقوتها ، إذ كان يعتقد أن كل ما يرسم على قبره من مأكل ومشرب ، ومن مناظر مما كان يتمتع به فى حياته ، وكتابة قوائم الطعام الذى كانت تتوق إليه نفسه ، كل ذلك يمكن أن ينقلب إلى صور حقيقية يتمتع بها فى آخرته . وذلك هو السر فى نقش هذه المناظر على جدران القبور فلم يكن يرسمها لحبه الفن أو سروره بالمناظر الجميلة ، بل لحبه التمتع بحقائقها بالطرق السحرية . ولعمرى لست أدرى من أين جاء الزعم بأن المصريين كانوا يعملون لآخرتهم طوال حياتهم ؛ وأنهم كانوا يفضلون الحياة الأخرى على الحياة الدنيا . فالأمر بالعكس إذ أن مجرد اعتقاد المصرى بأن الحياة الأخرى صورة مطابقة للحياة الدنيا ، ورسمه فى قبره كل ما كان ينعم به فى دنياه ، وحمله كل ما كان يتمتع به من أثاث وحلى مدة حياته ليكون إلى جانبه فى القبر ، لأكبر دليل على تعلقه بالحياة الدنيا ومتاعها وعدم قدرته على تصور الآخرة بصورة أخرى . ذلك أن أعظم ما كان يتمناه المصرى فى حياته عمراً طويلا ومن كل ما تقدم يمكننا أن نحكم بأن المصرى قد خصص كل جهوده

الاعتقاد فى قوة التعاويذ السحرية

المصرى كان متعلقا بالحياة الدنيا أكثر من الآخرة

لخدمة القرين ، فنتج عن ذلك أنه توصل بطريق غير مباشر إلى النبوغ فى فنى النحت والرسم وفن المعمار . فأقام المقابر الضخمة للمحافظة على جسمه لتعود إليه القرين ، وصنع التماثيل الجميلة لتحل فيها القرين ، وبنى المبانى العظيمة لخدام القرين . ويوجد برهان مادى يثبت لنا تمسك المصرى القديم بأمر روحه المادية « الكا » واعتقاده أنه بدونها لا يحيا حياته الثانية ، وأن الجم الغفير من أفراد الشعب فى عهد الدولة القديمة كانوا يدخلون لفظة « كا » أى (الروح المادية) فى تركيب أسمائهم مما لم نشاهده فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى بعد . فمثلا نجد اسم « سخم كا » (روحى قوية) و « جنى كاى » (وجدت روحى) وهكذا .

وظيفة الكا أوالروح المادية

وربما كان السبب فى ذلك أن المصرى فى هذا العهد كان لا يزال قريبا من المادة ، ولم ترتق فكرته إلى الأمور الروحانية التى تخرج عن دائرة المادة ، ولذلك فأنى أظن أن المصرى كان فى الأصل يعتقد فى أن الروح مادية ثم تدرج فى الرقى واعتقد أن هناك أخرى روحانية وهى « با » ؛ فسار على تقاليده وحافظ على اللفظين وهما « الكا » وهى الروح التى تدل على طفولة عقله ، والثانية « البا » التى تبرهن على نضوج فكره ، وربما كان هذا سببا فى أننا نجد اندماج لفظة « با » فى أسماء الأعلام المصرية فى الدولة القديمة قليلا ، على حين أن اندماج لفظة « كا » فى الأعلام فى هذا الوقت كان كثيرا جدا كما ذكرنا . يضاف إلى ذلك أن الملوك فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة كانوا يعطون عناية خاصة للروح المادية « كا » أكثر مما كانوا يعطونه للروح النورانية « با » ولا أدل على ذلك من ذكر كلمة « كا » فى متون الاهرام

الفرق بين الروح المادية والروح النورانية

أكثر من ضعف ذكر كلمة « با » إذ الواقع أن الأولى ذكرت نحو ١٠٤ مرة أما الثانية فقد جاء ذكرها نحو ٤٧ مرة .

ولم يظهر على النقوش المصرية رسم القرين لا لأفراد الشعب ولا للأمراء ، ولكن وجدنا رسم قرين الملك عند ولادته ، وهى صورة طبق الأصل منه وهى لا ترى فى الحياة الدنيا ولكنها تكون مع المتوفى فى قبره ، وتعيش على المادة ولذلك سميتها الروح المادية . وكثيرا ما نشاهد القرين فى شكل تمثال منحوت في أصل الباب الوهمى يخطو إلى الأمام خارجا من القبر ليأخذ الطعام من المائدة التى أمامه لغذاء المتوفى .

على أن بعض علماء الآثار يعتقد أن كل هذه المناظر قد مثلها صاحب المقبرة إرضاءً لمزاجه الخاص ، ولما تبعثه من السرور فى النفس من الناحية الفنية ، وهذا طبعا لا يتفق مع المعتقدات المصرية سواء أكانت دينية أم سحرية ، ولا يكون هناك أى معنى لتمثيل المتوفى على الباب الوهمى جالسا على كرسيه وأمامه مائدة القربان عليها كل مالذ وطاب لغرض اللذة الفنية فحسب ، ونرى تحت هذه المائدة نقشا يمثل ألفا من الخبز وألفا من الأوز ، وألفا من النبيذ ، وألفا من الجعة ، وألفا من الثيران ، ويطلب صاحب المقبرة إلى زائر قبره والمارين به أن يقرءوا هذه القرابين . أليس ذلك لاعتقاده بأنها متى تليت أمكن أن يتمتع بحقائقها ؛ وذلك عن عقيدة ثابتة راسخة فى أعماق نفسه ؟ ! . ولماذا كتبت قوائم أنواع الطعام وألوانه بما كان يبلغ أحيانا أكثر من ثمانين صنفا فوق صورته ، وقد بالغ بعضهم فجعلها تصل إلى مائة صنف ؟ ! ولماذا رسمت حاملات القرابين وحاملوا المأكولات من ضياع المتوفى وأوقافه الخاصة وكلهم متجهون فى سيرهم نحو

المقبرة قاصدين الباب ؟ ! كل هذه الرسوم والنقوش لا يمكن أن يكون القصد منها مجرد الزينة فحسب بل كان هناك سر أعمق من ذلك وغرض نفعي أكثر مما نتصوره ، وذلك هو الاعتقاد بالحياة مرة أخرى ، وأن التعاويذ السحرية كان لها القدح المعلى فى تحويل هذه الرسوم إلى حقائق يتمتع بها المتوفى .

النقوش التى على جدران المقابر ليست للزينة

ومما يؤكد أن المصرى لم ينقش هذه الرسوم فى حجرات مقبرته لمجرد الزينة أننا وجدنا فى إحدى مقابر عظماء القوم فى جبانة أهرام الجيزة واسمه « حتبى » ويلقب بمدير الوثائق الملكية ورئيس كتّاب الضياع الملكية ، أن صاحب المقبرة لم يشيد لنفسه حجرة للقرابين بل اكتفى بالباب الوهمى ، ولكنه من جهة أخرى صنع لنفسه تابوتا من الحجر الجيرى الأبيض وزينه بالنقوش والأبواب الوهمية ، وكتب على حافته اسمه وألقابه ، ثم كتب على جدار تابوته الغربى من الداخل بالمداد الأسود قائمة بالمأكولات التى كانت تكتب عادة فى حجرة القرابين فوق الباب الوهمى . يضاف الى ذلك أننا عثرنا على بعض مقابر فى جبانتى أهرام الجيزة وسقارة قد نقشت على حجر دفنها كل ما يحتاج إليه من أوان ، وأثاث ، ومناظر أخرى ولم ينقش شىء من ذلك على حجرات القربان ، وأعتقد أن فى كل ما ذكرنا ما يدحض القول بأن هذه المناظر كانت تعمل للزينة والفن فحسب ، لأنها فى الحالات الأخيرة عملت فى أعماق حجرة الدفن فلا يمكن لأحد أن يتمتع بجمال فنها قط إلا نابشو القبور للبحث عن الكنوز أو الحقائق التاريخية .

يضاف إلى ذلك أن حرص المصرى على الاستفادة من هذه المناظر فى

حياته الأخرى جعله يفكر فى صنع مجموعة عظيمة من الآلات النحاسية على شكل نماذج يبلغ عددها أحيانا أكثر من مائة قطعة كالتى عثر عليها حديثا في مقبرة ابن « تى » ، أو المجموعة التى عثر عليها للأمير « خنوم با إن » ابن « خفرع » ، أو لحفيد الملك « منكورع » فى منطقة حفائر الجامعة بالأهرام ، فقد كانت هذه المجموعات الأولى من نوعها إذ عثر عليها فى مقابر لم تمس بعد .

سبب وضع النماذج النحاسية وغيرها مع المتوفى فى القبر

ومن ذلك يمكننا أن نستخلص أن المتوفى كان يحملها معه فى قبره ليستعملها هو لنفسه أو ليستعملها أصحاب الحرف والصناعات عند الحاجة إليها فى الآخرة كما كان يحتاج إليها فى الدنيا ، والا فليس لوجود هذه الآلات مع المتوفى فى القبر أى تفسير آخر .

على أن فكرة البعث هذه ثانية وقدرة السحر على قلب الصور إلى حقائق لم تكن وليدة أفكار عامة الشعب ، بل نبتت أولا عند الملوك ، ثم أصبح القوم فيما بعد على دين ملوكهم ، ولذلك نجد أن أقدم تعاويذ سحرية يرجع عهدها إلى ما وجد على جدران أهرام ملوك الأسرة الخامسة ، والمطلع عليها يجد أنها ترجع إلى عصور بعيدة فى القدم ، وكذلك كان يظن بعض علماء الآثار أن المناظر لمتعددة التى نجدها على مصاطب الدولة القديمة كانت خاصة برجال البلاط وعامة الشعب ، وأنها لا توجد على الأهرام ومبانيها . ولكن الكشوف الحديثة أثبتت أن كل هذه المناظر قد نقلت من معابد الملوك ومقابرهم ، إذ عثرنا أولا فى المعبد الجنائزى للملكة « خنت كاوس » كما عثرنا فى هرم « خوفو » على بعض نقوش جنائزية ، ومناظر لبعض الأعياد والاحتفالات ، ولكن أعظم مجموعة

المناظر التى على جدران المقابر منقولة عن مناظر معابد الاهرام

من هذا النوع عثر عليها فى الطريق المؤدى من المعبد الجنائزى إلى معبد الوادى للملك « وناس » وذلك أنه وجد على جدران هذا الطريق المسقوف مناظر تمثل كل الحياة الاجتماعية بأبهى مناظرها (انظر جزء اول ص ٣٥٣).

والآن بقى علينا أن نذكر كلمة عن المهارة الفنية فى نحت هذه المناظر وتنسيقها .

تدل الأحوال على أن الفنانين فى هذا العصر كانوا ينكرون ذاتهم رغم ميل المصرى إلى حب الظهور والفخر بأعماله العظيمة ونقشها على قبره . ومن الأمثلة النادرة التى نجد فيها الفنان يضع أمضاءه على أعماله ، الفنان الملكى « بتاح خو » وهو الذى نحت المناظر التى على مقبرة أمير مقاطعة الأشمونين « ورإيرمن » الذى نحت لنفسه مقبرة فى جهة (الشيخ سعيد) ويشاهد أن الفنان (1) قد رسم نفسه بين موظفى قصر هذا الأمير وكان من بين الذين جلسوا على مائدته .

الفنان المصرى فى ذلك العهد وندورة ذكر اسمه على أعماله

ولا يبعد أن يكون مجبرا على عمل ذلك ، ولقد وجدنا أحد الفنانين الذين نقشوا المناظر على طريق « وناس » قد كتب اسمه تحت أحد المناظر والفنان الذى أبدع نقوش الأمير « نب إم آخت » ابن الملك « خفرع » قد ذكر اسمه على هذه المقبرة . وكذلك عثرنا على مقبرة فى جبانة الجيزة ذكر لنا فى نقوشها ذلك الفنان أنه هو الذى نحت مناظر كل مقبرة الأمير ، والواقع أن مناظرها آية فى الإبداع ودقة الفن .

وكان الفنان فى هذا العصر يتبع إحدى طريقتين فى إبراز صوره : الطريقة الأولى — كان يجهز سطح الحجر الجيرى ، ثم يرسم عليه المنظر بالمداد

(1) Davies, Rock Tombs, p. 18, pl. IV.

الأحمر أو الأسود بعد أن يقسمه حسب قانون الرسم ، وبعد ذلك ينحت المنظر بارزا أو غائرا حسبما يتطلب صاحب المقبرة ؛ ثم يأخذ فى وضع التفاصيل التى يبرز بعدها المنظر فى صورته الأخيرة .

الطريقة الثانية : كان يتبع فيها وضع طبقة من الجص على الجدار الذى يريد تصوير المنظر عليه ، وكان يضطر إلى ذلك عند ما يكون الجدار من اللبن أو من الحجر المحلى الهش الأصفر اللون ، وبعد ذلك يرسم مناظره بالألوان المختلفة . وقد عثر على مقبرتين من هذا النوع فى جبانة الجيزة ولم نستطيع حفظهما لأن الملاط الأبيض الرقيق سقط واختفت معه الرسوم ، غير أننا تمكنا من نقله ، ولا يزال بعض هذا (الفرسكو) موجودا للآن يشهد بدقة رجال الفن ومهارتهم فى مقبرة الأميرة « حمت رع » التى تنتسب إلى بيت « خفرع » والتى أبدع الفنان فى تصويرها فى ثوبها الجميل ذى الألوان الزاهية التى تمثل عدة أنواع من الخرز المختلف الألوان ، مما يجعل الإنسان يقف مدهوشا أمام ما وصل إليه الفنان فى ذلك العصر البعيد . هذا إلى أن الطيور التى رسمت فى هذه المقبرة محاكية ألوانها الطبيعية لشاهد عدل على ما وصل إليه من تذوقه للفن وحبه لمحاكاة الطبيعة فى أجمل صورها .

طرق رسم المناظر على الجدران

وقد أظهر الفنان فى المناظر والصور التى نقشها على الحجر الجيرى الأبيض كل الأوضاع التى نشاهدها فى الطبيعة للنبات ، والحيوان ، والإنسان ، ولم يستعص عليه إلا رسم الإنسان على الجدران من الوجه فإنه لم يفلح فيه قط كما سيأتى ذكر ذلك ، وكان دائما يرسمه بصورة جانبيه حتى انقضاء العصر الفرعونى . ويجب هنا أن نشير إلى كثرة هذه المناظر وتعددها فى مصاطب علية القوم ، وكبار رجال الدولة مما يشعر

بتحسن حالتهم الاجتماعية ، وازدياد ثروتهم مما يتفق مع الهبات الملكية التى كان يمنحهم إياها الفرعون بمثابة وقف من أراضى التاج لما قاموا به من الخدمات لجلالته ولذلك نرى أن كل واحد منهم ، بعد أن أصبح ذا ثروة طائلة يقيم لنفسه مقبرة عظيمة ، ويحبس عليها الأوقاف الجمة ويباهى بذلك فى النقوش التى يحفرها على جدران حجرات مقبرته . وقد بلغ فن النقش الغائر والبارز قمته فى أواسط الأسرة الخامسة ، إذ نشاهد الحذق فى رسم تفاصيل أجزاء الطيور ، والحيوان والنبات ، وانسجام الألوان مع الذوق الفائق فى توزيعها مما يسبغ على هذه المناظر حياة وروحا ، يبعثان فى النفس سرورا يفوق ما يشعر به الانسان أمام المناظر الطبيعية الحقيقية .

تعدد المناظر واتقانها فى هذا العصر يشعر بثروة أصحابها

تمثال القرين « كا » أو الروح المادية والتماثيل الاخرى التى توجد فى قبر المتوفى

فى العهد الذى وصلت فيه حجرات القربان إلى قمتها من الكمال فى النقش والرسم ، قضت المعتقدات الدينية أن يصنع المصرى لنفسه قبل مماته تمثالا أو تماثيل توضع معه فى القبر كما كانت توضع أحيانا لأفراد أسرته ، تعرف بتمثال أو تماثيل القرين وذلك لأجل أن تحل فيه روحه المادية إذا حدث لجثته تلف أو عطب ، أو اختفت لأى سبب ما حتى يحيا منعما فى قبره . والظاهر أن هذه التماثيل أخذ عددها فى الزيادة تبعا لثراء صاحب المقبرة لأنه كان يخاف أن يتلف بعضها فلا تجد القرين لها مأوى فكان يصنع عددا عظيما منها بصفة احتياطية حتى أننا وجدنا أحد عظماء

القوم قد صنع لنفسه أكثر من مائه تمثال فكان فى ذلك يحاكى الملوك كما ظهر منذ عهد الأسرة الرابعة أن علية القوم أخذوا يحتاطون لأنفسهم احتياطا آخر ، وذلك أنهم زيادة على رسم أصحاب الحرف والصناعات على جدران مقابرهم لخدمتهم فى الآخرة . أخذوا ينحتونها من الحجر الجيرى الأبيض ، ويصنعونها من الخشب ، فنجد بجانب المتوفى تماثيل عجانته ، وصانع فخاره وصانع جعته ، وخبازته ، وطاهيته ، وطحانه . كل هذه التماثيل كانت تصنع بشكل خشن مما يمكن الفنان الحديث أن يلمس فيها صدق التعبير ، إذ لم تكن خشونتها لانتسابها إلى حثالة القوم ، بل لتمثيل شكلهم وزيهم الحقيقى وتقاطيعهم الغليظة ، وهنا نجد أن الفنان كان يرخى لنفسه العنان ، فكان يمثل كل صانع بجلسته الخاصة وأمامه المادة التى يصنعها ممثلة معه فى الحجر . وقد كانت مستلزمات الفن تفرض عليه أحيانا أن يخرج عن حد المألوف فى وضع التمثال ، ولا أدل على ذلك من الوضع الذى وجدنا عليه تمثالا جالسا أمام موقد وقد لفت رأسه تفاديا من الدخان الذى كان ينبعث من الموقد ، وهذا من عجائب الفن المصرى من جهة الخروج عن الاوضاع المألوفة . وكانت كل هذه التماثيل توضع فى أماكن خاصة عرفت فيما بعد بالسراديب أو بيت « الكا » (الروح المادية) ، وكانت توضع فى بادىء الأمر — كما يشاهد فى ميدوم — فى الكوة الكبيرة التى توضع فيها القرابين ، وكانت هذه على شكل باب وهمى وتعتبر بأنها مقصورة ليحفظ فيها تمثال المتوفى ، وربما نقل الأفراد ذلك عن الملوك الذين يصنعون لأنفسهم تماثيل للقرين .

سبب صناعة تماثيل القرين وغيرها مما كان يوجد مع المتوفى

أنواع السراديب وأوضاعها المختلفة ووظيفتها

أما فى مقابر الجيزة التى من عهد بناة الأهرام فكانت توضع التماثيل فى حجرات بنيت خصيصا لها وراء الباب الوهمى . وفى مقبرة الكاهن المرتل «كاعبر» المعروف (بشيخ البلد) ، وضع تمثاله وتمثال زوجته فى كوة عريضة فى الجدار الجنوبى لحجرة خارجية ربما كانت مقصورة . وفى عهد العظيم « حسى » كانت التماثيل توضع فى نهاية حجرة القربان ، وفيما بعد أصبحت للتماثيل حجرة خاصة منفردة فى قلب المصطبة بالقرب من حجرة القربان . والواقع أنه فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة كانت حجرات التماثيل توضع فى أى جهة من جهات القبر ، كما يستدل على ذلك من السراديب التى عثر عليها فى حفائر الجامعة المصرية بأهرام الجيزة ، إذ نجد سراديب فى الجهات القبلية والشرقية والبحرية والغربية ، غير أنها جميعا كانت بالقرب من الباب الوهمى أو حجرة الدفن . وقد عثر للكاهن الأعظم « رع ور » على أكثر من خمسين سردابا ومقصورة ، بعضها مكشوف ، وبعضها مغطى ، وبعضها فى واجهة المصطبة نفسها . والسرداب بالمعنى الحقيقى المعروف لنا هو حجرة مشيدة من جهاتها الأربع ومسقوفة وليس فيها أى منفذ غير ثقب صغير يمكن لزائر المصطبة أن يرى التمثال منه وهذا الثقب يوضع فى الجدار الخارجى للسرداب ويختلف ارتفاعه من سطح أرض الحجرة باختلاف حجم التمثال ، فإذا كان التمثال صغيرا عمل فى أسفل الجدار ، وإذا كان مرتفعا عمل فى أعلى الجدار بحيث يمكن أن يراه الناظر كله ، وأحيانا يكون فى السرداب عدة تماثيل فى صف واحد فيكون عدد الثقوب بقدر عدد التماثيل وهكذا . يضاف الى ذلك أن هذا الثقب كان من وظائفه أن يوصل البخور لتمثال المتوفى .

تاريخ فن صناعة التماثيل منذ أقدم العصور إلى نهاية الدولة القديمة

لم نعثر على تماثيل ذات قيمة فنية بالمعنى الحقيقى فى عصور ماقبل التاريخ للآن ، وقبل أن نتكلم عن تماثيل عصر الدولة القديمة ، يجدر بنا أن نبحث عن القواعد التى كان لزاما على كل فنان أن يتبعها فى صناعة تماثيله ، ثم الخطوات التى كان يقفوها لإخراج تمثاله كاملا .

والظاهر أن صناعتها لم تكن منتشرة فى هذا العهد ، وكذلك فى العهد الطينى لم تكن كثيرة . ويدل ما كشف منها حتى الآن على أن الفنان فى هذا الوقت كان يقصر همه على صنع تماثيل صغيرة من العاج لم تحفظ لنا الأيام منها إلا أمثلة قليلة العد ، وهى فى جملتها على جانب عظيم من الإتقان والرشاقة ، ولا أدل على ذلك من دمى المرأة العارية المحفوظة الآن فى متحف اللوفر ، وأقدم تماثيل بالمعنى الحقيقى يرجع تاريخها إلى نهاية الأسرة الثانية والواقع أن البحوث الفنية تدل على أن المصرى كان لابد له أن يسير حسب قوانين وقواعد معينة عند تصوير التماثيل الإنسانية فى الحجر . وكان أول من أشار إلى وجود قانون النسب فى نحت التماثيل الآدمية المصرية هو العالم « لبسيوس » (1) وقد حقق نظريته ماعثر عليه من الرسوم التى لم تكن قد تمت بعد على الجدران ، والتى لم تزل خطوط النسب الحمراء ظاهرة عليها ، وهذه الجدران يرجع عهدها إلى الدولة القديمة . وقد وجدت مثل هذه الرسوم كذلك على جدران مقابر (بنى حسن) المنحوتة فى الصخر ، ويرجع عهدها إلى

(1) Lepsius, Denk. Erg. t. I, p. 234.

أمراء المقاطعات فى عهد الدولة الوسطى . فيلاحظ فى مصاطب الدولة القديمة أن النسب كانت تقاس برسم خط عمودى فى محور الصورة الآدمية المنحوتة على الجدار وذلك بنقط وخطوط متقاطعة ؟ أما المقاييس الجانبية فكانت تعلم بنقط على خطوط متقاطعة حمراء ، وهذه الخطوط الحمراء تدل على أن ارتفاع الشكل البشرى الواقف من أخمص القدم إلى منبت الشعر أو الشعر المستعار الذى على الجبهة كان مقسما إلى ست وحدات ، وكان طول القدم الأيسر الذى كان يرسم وهو يخطو دائما إلى الأمام فى التماثيل والصور يقدر بأكثر من وحدة بقليل أما طول القدم الأيمن فكان يقدر بوحدة فقط ، أما ارتفاع الجسم إلى الركبة فيقدر بوحدتين ، وإلى منبت الرقبة بخمس وحدات . أما التمثال الجالس فكان طوله خمس وحدات من أخمص القدمين إلى منبت شعر الرأس .

وفى عهد الدولة الوسطى شوهد أن الصور الإنسانية التى لم يتم نحتها كان مرسوما عليها شبكة مستطيلة الشكل من الخطوط الحمراء ، وحدتها تكاد تكون على وجه التقريب ثلث الوحدة القديمة ، وعلى ذلك كان يعتبر ارتفاع الشكل الآدمى الواقف ١٨ وحدة ، والشكل الجالس ١٥ وحدة . ولما كان الشكل يخطط على هذه الشبكة ، فقد سبب ذلك اختفاء المقاييس الجانبية التى كانت ترسم على الشكل فى الدولة القديمة . ومن المحتمل أن شبكة الخطوط المستطيلة كانت تستعمل فى الدولة القديمة للمناظر المعقدة ؛ وقد بقيت مستعملة حتى نهاية التاريخ المصرى . وقد تغير عدد الوحدات كرة أخرى فى عهد عصر النهضة أى فى الأسرة السادسة والعشرين ، فكان ارتفاع الشكل الواقف مقسما إلى ٢١ وحدة إلى منبت الشعر ، و٢١ و ١/٤

إلى قمة الرأس .

وعلى أية حال فإن عين الفنان كانت تستعمل فى تخطيط الأشكال سواء أكان ذلك فى الطريقة التى كانت متبعة فى عهد الدولة القديمة ، أو فى الطريقة التى كان يستعمل فيها نظام شبكة الخطوط فيما بعد ، و توجد لدينا أمثلة عدة لإعادة الرسم كرة أخرى عند ما كانت عين الفنان لاترتاح لمحاولته الأولى . وكذلك كانت ترسم تفاصيل الوجه والملابس بخطوط حمراء وسوداء ، ولكنها كانت تختفى أثناء المسح فى هذه التفاصيل . وكانت التحسينات الأخيرة تتوقف على مهارة الفنان ، أما درجات حسن نقش الصورة ، ونحتها فكانت ناشئة من دقة عين الفنان ؛ وتعود يده مساعدة عينه له فى انسجام الشكل . ومن أجل ذلك نجد اختلافات فى مقاييس الأشكال المنقوشة ، ، وبخاصة فى التفاصيل مما يخرج بها عن تلك النسب الأصلية التى اتخذت فى الأصل أساسا .

قانون رسم الاشكال الآدمية فى مختلف العصور

وتمكن مشاهدة ذلك عند فحص النقوش والصور التى لم تتم بعد على الجدران وغيرها . ويجب أن نلاحظ هنا بنوع خاص أن قانون النسب لم يكن عائقا فى سبيل رسم الأجسام الخارجة عن حد المألوف ، أو الأجسام التى لم تكن فى هيئة طبيعية معتادة كالأقزام ، وبانى السفينة المسن ، والراعى النحيل الجسم الذى وجد مرسوما فى مقابر (مير) ، أو الأشخاص الذين يحاربون البهائم ، أو الذين ينحنون ليحملوا أثقالا على ظهورهم أو البحارة الذين يحارب بعضهم بعضا فى سفنهم ، أو العجانة ، أو الراقصة أو أصحاب الحرف ، والصناعات .

ويظهر أن تماثيل العصر الصاوى ، وما بعده حتى العصور الرومانية

فى مصر ، التى لم يكن قد تم صنعها بعد ، كانت تتبع نظام المقاييس الذى كان شائعا فى عهد الدولة القديمة ، وبخاصة إذا طبقناه على تماثيل الملك « منكاورع » . وذلك على رغم أن الامثلة التى لدينا من هذه العصور قليلة ؛ ونماذج النحت فى هذا العصر المتأخر نشاهد فيها — رغم اتباعها نظام الدولة القديمة — بعض أمثلة استعمل فيها نظام شبكة الخطوط المقسمة إلى ٢١ وحدة ، وقد وجدت محفورة أو مرسومة على ظهر التمثال ، ومعها كذلك علامات خاصة لتفسير تفاصيل معينة ؛ ولا شك فى أن القانون كان المقصود منه أن يستعمل فى التماثيل ، والنقوش على حد سواء .

الطرق الفنية فى صناعة التماثيل

رأينا فيما سلف أن الفنان المصرى كان يتبع قواعد فنية منظمة عند ما يريد تصوير الأشكال البشرية ، أو نحتها على الجدران ، أو التماثيل ؛ ولذلك كان لزاما عليه أولا أن يحفظ قانون النسب كما ذكرنا آنفا ؛ ثم يتبع خطوات معينة ، الواحدة تلو الأخرى فى نحت تمثاله حتى يبرز فى صورته النهائية ، كاملا من كل الوجوه . ولا شك فى أن هذه الخطوات كانت تختلف باختلاف المادة التى يصنع منها المثال تمثاله . وباختلاف درجة مهارته ، وما لديه من العدد والآلات .

المواد التى يصنع منها التمثال

وكانت تماثيل القرين تنحت فى قطع من الأحجار ، أو فى جدران حجرة القربان المقطوعة من الصخر أو من الخشب . ولحسن الحظ قد عثرنا على تماثيل كثيرة لم يتم صنعها ، وكذلك على تماثيل قد بدأ الفنان

فى حفرها إلى درجة محدودة ثم أوقف العمل فيها فجاة فلم يتم صنعها ، يضاف إلى ذلك أننا عثرنا على تماثيل أخذ الفنان ينحتها فى جدار مقبرة منحوتة فى الصخر للكاهن « زدا » من عصر الملك خفرع فى جبانة الجيزة ، وهذه التماثيل تمثل لنا الخطوات التى كان يتدرج فيها الفنان لإبراز تمثاله كاملا[1]

الخطوات التى كانت تتبع فى نحت التمثال

فنجد فى لوحة رقم ١ فى المرجع المذكور أن المثال حفر أولا فى الصخر هيكل التمثال دون أن يبين فيه أى تفصيل ، وفى اللوحة رقم ٢ نجد أنه أخذ يظهر أعضاء الجسم بشكل مختصر دون أن يعطى لكل منها ما يميزها بالتفصيل ، وفى لوحة أخرى نجد أن المثال أخذ يظهر أولا ملامح الوجه بكل دقة ، وذلك لأنه كان يعتبر أهم جزء فى التمثال ، أما الجزء الأسفل منه فلم يتم صنعه . وفى نفس اللوحة رقم ٢ نجد أن الفنان أظهر تفاصيل كل الجسم بكل وضوح ودقة ، ولا تزال الخطوط الحمراء التى كانت ترشده ، باقية إلى الآن فى التماثيل التى لم يتم صنعها .

ومن ذلك يتضح لنا أن النحات كان يضع التصميم أولا برسم الهيكل البشرى مختصرا ، ثم يأخذ فى إظهار التفاصيل مبتدئا بالرأس فالصدر ، ثم الأطراف . وهذه المصطبة تكاد تكون الوحيدة من نوعها من مصاطب الدولة القديمة ، التى يمكننا بواسطتها دراسة الخطوات التى كان يضعها الفنان لنحت التماثيل فى أصل الجدران الصخرية ، ومن المحتمل أن هناك طرقا أخرى لا نعلمها .

أما فى تماثيل الملوك فقد كشف الأستاذ « ريزنر » فى معبد الملك « منكاورع » عن عدد عظيم من التماثيل التى لم يتم صنعها بعد بدرجات

(1) Excavations at Giza, Vol. I, p. 86, pls. LIII, LIV.

مختلفة ، وسبب ذلك أن هذا الملك كما ذكرنا آنفا توفى قبل أن يتم بناء هرمه ؛ ومن التماثيل التى وجدت فى معبده غير كاملة يمكننا أن نتتبع الخطوات التى قام بها الفنان لإخراج تمثاله كاملا . وقد دل الفحص على أن الأشكال أو الحالات التى وجد عليها التمثال أثناء صنعه من البداية إلى النهاية ثمانية ، سنذكرها هنا لعلها تكون ذات فائدة لفنانى عصرنا .

الحالة الأولى : تمثل لنا قطع الحجر بمقاييسه المطلوبة ، فإذا كان المطلوب تمثالا جالسا ، يظهر من الحجر شكل غير واضح للكرسى أو القطعة التى تمثل مقعد التمثال ، ولا يظهر هنا فى الحجر أى تمييز للوجه أو الذراعين ، أو الساقين . وبعد ذلك ينقر سطح تلك الكتلة الحجرية كأنها دقت بحجر صلب ، ثم تسوى بعض هذه الثغرات أو الثقوب المتخلفة عن الدق ، وفى أماكن كانت تملأ بعجينة تشبه مسحوقا معجونا بالماء . وتسوية سطح هذه الكتلة بهذه الكيفية كان بطبيعة الحال يعمل بواسطة حجر خاص لذلك . ويلاحظ فى هذه الحالة كذلك أن على الكتلة الحجرية خطوطا يبلغ طولها بين اثنين وخمسة ملليمترات فى العرض رسمت باللون الأحمر ، وهى تحدد الرسم المختصر للذراع الأيمن . ولا شك فى أن كبير الفنانين فى المصنع كان يرسم كل خطوة فى نحت التمثال ويترك الأعمال السهلة التى لا تحتاج إلى مهارة ليقوم بها تلاميذه كما هى القاعدة المتبعة فى الصناعات المصرية فى كل العصور .

الخطوات التى اتبعها المثال فى حفر التماثيل الملكية

الحالة الثانية : فى هذه الخطوة كان يتقدم المثال فى تشكيل تمثاله خطوة جديدة إلى الأمام فيرسم الوجه ، والذراع الأيمن ، والمقعد الذى يرتكز عليه التمثال بهيئة مختصرة . غير أن سطح الحجر كان لا يزال ظاهرا

فيه أثر العلامات والتسوية التى كانت فى الحالة الأولى ، وكذلك الخطوط الحمراء التى تحدد الوجه ، والذراع الأيمن وجزءا من الذراع الأيسر .

الحالة الثالثة : فى هذه الحالة ينحت الفنان الذراع الأيمن باليد مقفلة والوجه بلحيته ، والشعر المستعار بشكل واضح يمكن تمييزها به ؛ على حين أن الذراع الأيسر باليد مفتوحة يظهر هنا واضحا بعض الشىء ، وكذلك تظهر بنوع خاص الخطوط الحمراء التى ترشد الحفار إلى الحافة العليا للساعد الأيمن الذى لم يكن قد تم تدويره بعد ، وكذلك إلى مقدمة الحافة اليمنى لقاعدة التمثال .

الحالة الرابعة : فى هذه الحالة نشاهد تقدما محسوسا فى إظهار مميزات أجزاء الرأس . فيلاحظ أولا أن الكتلة الحجرية التى سيشكل منها الصل الملكى أخذت تبرز ؛ وكذلك يلاحظ أن الجزء الأوسط من الوجه قد مهد إلى أربعة أسطح مستوية لتتألف منها الجبهة . ونهاية الأنف ، والسطح الذى من طرف الأنف إلى طرف الذقن ، وآخر من الذقن إلى نهاية اللحية ، وكذلك جانبا الوجه فإنهما عولجا بنفس الكيفية غير أن انحدارهما لم يظهرهما كبيرين أو مميزين . أما الخط الذى يفصل الساقين فقد نحت وميز بخطوط طويلة بوساطة حجر معد لذلك ، حافته منحنية بعض الشىء ، ويلاحظ هنا وجود بقايا خط أحمر على الذراع الأيمن .

الحالة الخامسة : فى هذه المرحلة يلاحظ أن ملامح صاحب التمثال أخذت تظهر وتميزه عن غيره . وهنا يلاحظ أن الثغرات ، والتكاسير البسيطة لا تزال ظاهرة على سطح التمثال ، ولكن بحالة أقل مما كانت عليه من قبل ، والظاهر أن الضربات التى كانت توجه للسطح فى هذه الحالة

لجعله مستويا كانت تضرب برفق حتى لا يكسر الأنف أو اللحية أو غيرهما من أجزاء التمثال البارزة ، التى كانت عرضة للتهشيم بسرعة . أما عملية المسح الخفيف ، وتسوية سطح التمثال فلا بد من أنها كانت تستعمل بوجه خاص لهذه الحالة وما بعدها ، ولم يشاهد هنا أى أثر للخطوط الحمراء .

الحالة السادسة : هذه الحالة هى التى تمثل الهيئة الخشنة التى يظهر فيها التمثال قبل أن يصقل فلا يظهر على سطحه الكسور البسيطة ، وعلامات المسح والتسوية التى كانت فى الحالة الخامسة . وهنا يظهر التمثال صورة ناطقة لصاحبه ؛ غير أن أصابع القدمين ، واليدين لم تكن قد شكلت بعد بهيئة واضحة ، وكذلك الخطوط التى حول العينين كانت لا تزال مبهمة . وهذه التفاصيل الدقيقة كانت تعمل على ما يظهر خلال الصقل النهائى للتمثال .

الحالة السابعة : وهى التى يمكن أن يطلق عليها حالة بروز التمثال فى هيئته التامة ، وهنا نشاهد أن التمثال أخذ يصقل بعض الشىء وذلك بإزالة كل آثار التنقير الخفيف ، ثم ظهور التفاصيل نوعا ما ؛ ولكن من الواضح أن عملية تجميل التمثال يمكن أن تستمر حسب نوع جودة الصنعة التى يرغب فى أن يكون عليها التمثال فى حالته النهائية ؛ ولا نزاع فى أن هذه المرحلة هى التى يجب أن يصل فيها التمثال إلى درجة الإتقان الفنى ؛ ولكن جمال مجموعه كان يتوقف على مقدار الوقت والعمل اللذين كانا يصرفان للوصول إلى هذه الغاية .

الحالة الثامنة : وهى خاصة بالتماثيل التى كان ينقش عليها اسم صاحبها وألقابه بعد صقلها صقلا بديعا ، والظاهر أن عملية الصقل الأخيرة كانت تتم باستعمال مادة جافة من المؤكد أنها مادة السنفرة التى نستعملها الآن فى صقل الأشياء .

وقد كان من أعظم مايهتم به الفنان بعد الفراغ من عمل تمثاله أن يلونه بالألوان التى كان مصطلحا عليها فى عهد الدولة القديمة . وذلك أن البشرة عند النساء كانت تلون باللون الأصفر (من المدهش أننا وجدنا تمثال الملك « زوسر » ملونا باللون الأصفر ، والسبب فى ذلك مجهول) ، أما الرجال فكانت بشرتهم تلون باللون الأحمر القاتم . والشعر المستعار كان لونه أسود فاحم ، والملابس لونت فى معظم الأحيان باللون الأبيض ، أما المجوهرات التى كان يتحلى بها الرجال والنساء على السواء كالقلائد ، والأساور ، والحجول ، فكانت تلون بألوان مختلفة أهمها الأزرق المائل للخضرة لتحاكى لون الفيروز ، واللون الأحمر الباهت ليمثل لون الكرنلين ، والحزام الذى كان يلبسه التمثال كانت ألوانه مختلفة تدل على حسن ذوق وانسجام فى تركيب الألوان . وأحسن أمثلة لدينا فى تلوين التماثيل يحتمل أن يكونا تمثالا « رع حتب » وزوجته « نفرت » المحفوظان بمتحف القاهرة . وقد كان من الصعب جدا تمييز نوع الحجر الذى عمل منه التمثال عند مايكون التلوين متقنا . على أن الدقة فى نحت التمثال المصنوع من الحجر الجيرى الأبيض كان يغطى عليها أحيانا بالتلوين .

ويرى فنانو عصرنا فى تلوين التماثيل القديمة أن المصرى كان لايتذوق فنه ، ولا يقدره ، ولا نزاع فى أن المثال المصرى فى ذلك العصر لم يكن يحسب حساب التقدير الفنى لتمثاله ، وذلك لأنه رجل حقائق ، جل همه أن يبرز قطعته الفنية حسب أفكار ذاك العصر ، أى أن كل غرضه أن يحصل للرجل الذى يمثله على صورة حياة مستقبلة هنيئة فكان لزاما عليه أن يجعل صورته طبقا للشخص لتحل فيه

روحه المادية بعد الموت ؛ ومن أجل ذلك كان تلوين التمثال ضروريا ، فإذا وضع اللون فى ذلك الوقت بذوق يخالف ذوق عصرنا فى استعمال الألوان فإنه كان على أية حال يقوم بأداء ماتطلبه عين الرجل المصرى ، وعقله حتى يصير تمثال الرجل أو المرأة صورة كاملة . على أنه رغم ذلك لم يكن يوضع إلا النزر اليسير من هذه التماثيل فى حجر المقبرة أو المعبد المكشوفة ، بل بالعكس معظم هذه التماثيل فى الدولة لقديمة كانت توضع فى السراديب فلا يراها أحد بعد ذلك .

تكوين التماثيل وضرورتها

ومن المدهش أن بعض التماثيل التى كانت تصنع من الجرانيت ، والشيست ، والاردواز ، قد لوحظ فيها بعض الألوان ، وبخاصة حول العينين وفى تخطيط الشارب أى أن التلوين وصل إلى هذه التماثيل أيضا .

يضاف إلى ذلك أن ملابس المتوفى كان يراعى فيها كل الدقة . فكان كل شخص لابد أن يرتدى ملابسه التى كان يتقمصها مدة حياته وإلا ضلت فى معرفته الروح المادية . وقد كان من جراء اتباع الدقة فى إلباس كل تمثال لباسه الأصلى أن عرفنا شيئا كثيرا عن ملابس القوم فى هذا العهد مما لم يكن فى مقدورنا معرفته بدون ما وصل إلينا من التفاصيل التى وجدناها على التماثيل مرسومة بكل دقة وأمانة . ولم نجد من التماثيل العارية ، إلا قطعة من تمثال لامرأة من عهد الأسرة الرابعة فى حفائر الجيزة ، وكانت من حظيات أحد ملوك الأسرة الرابعة . على أننا وجدنا كثيرا من صور الأطفال المنحوتة على جدران المقابر ترسم عارية . وقد عثر كذلك على بعض تماثيل الرجال قد نحتت كذلك عارية.

تمثيل ملابس التمثال

تماثيل الخشب

كان الفنان المصرى مرتبطا فى عمل تمثاله على وجه خاص ، بالمادة التى كان يصنع منها التمثال . ولذلك نجده دائمًا يهتم بتلك المادة ويتخذ لها الشكل الذى يمكن أن تظهر فيه جميلة أنيقة فمثلا نجد أن الخشب والعاج والمعادن بين الأشياء التى لم يلق مقاومة فى تمثيلها بخلاف ما كان يعانيه مع الأحجار الصلبة ، لأن مادتها كانت سهلة التشكيل حتى أنه كان فى صنعها يتحرر من القيود ، والمصاعب التى كانت تعترضه فى نحت التماثيل من الأحجار الصلبة . غير أنه رغم ذلك كان مقيدا فى صنعها بقيود أخرى . فمثلا لم يستطع أن يصنع من العاج إلا تماثيل صغيرة الحجم كتمثال « خوفو » الذى عثر عليه « بترى » فى (العرابة) فرغم أن صناعته معتنى بها إلا أنه من الوجهة الفنية ليست له قيمة عظيمة .

سهولة نحت التمثال تتوقف على المادة التى يصنع منها

وكانت مصر فى ذلك العهد — كما هى الحال فى كل عهودها — لا تنبت أشجارا صالحة لعمل التماثيل ؛ أما ما كانت تشتريه من الشام من الأخشاب كالصنوبر والأرز والسرو ، فكان يصل إليها قطعا صغيرة ، أو كتلا لا يمكن عمل تمثال كبير من قطعة واحدة منها . ولذلك كان يصنع الجذع والرأس ، وأحيانا الفخذان من كتلة واحدة ، أما الذراعان فكانا يصنعان على حدة ويلصقان بالتمثال ، وكانت الحال كذلك فى الفخذين فى بعض الأحيان ، وكانت أجزاء التمثال تربط بوساطة (خوابير) دقيقة من الخشب مستطيلة الشكل ؛ ثم يغطى كل هذا بملاط خفيف يأتى فوقه اللون الذى

كيفية صناعة تماثيل الخشب

يلون به التمثال ، وبذلك تختفى كل المعالم التى تشعر بأن التمثال مركب من أجزاء منفصلة عن بعضها . وذلك هو السر فى أننا نجد التماثيل الخشب يدها اليسرى ممدودة إلى الأمام قابضة على عصا يتوكأ عليها . على حين أن هذا الوضع لا نجده فى التماثيل المصنوعة من الحجر بل نجد دائما أن ذراعى التمثال ملصقتين بجسمه مما يشعر بأن المثّال لم يكن حرا فى تشكيل التماثيل الحجرية كما يريد لأن المادة كانت تقيده .

كيفية صناعة التماثيل من المعدن

أما فى المعادن كالذهب والنحاس والبرنز ، فكان يمكن صنع قطعة عظيمة واحدة منها إذ كانت صناعة صب المعادن متقدمة فى هذا العصر ، والظاهر أن الصانع وقتذاك لم يجسر إلا على صب قطع صغيرة ، وربما كان من السهل عليه صب التماثيل الصغيرة ، وأشكال التعاويذ . أما التماثيل الكبيرة فكانت أجزاء منها تصنع بطرق المعدن . والأجزاء التى كانت تحتاج إلى عناية ودقة فى الصنع كالوجه واليدين والرجلين ، تعمل لها قوالب خاصة تصب فيها . أما الجذع والذراعان ، والفخذان فكانت تصنع بالطرق ثم تركب فوق قالب على الشكل المطلوب ، وتربط بمسامير وبهذه الطريقة صنع تمثالا « بيبى الأول » الموجودان بمتحف القاهرة . فرباط التمثال كان مصنوعا من الخشب أما منطقته فكانت مصنوعة من الذهب ، ولباس رأسه من اللازورد ، وقد اختفى بطبيعة الحال الحزام ولباس الرأس لأن قيمتهما المادية أغرت اللصوص على انتزاعهما ورغم سذاجة الطريقة التى اتبعت فى صنع هذين التمثالين والتمزيق الذى أصابهما فإنهما يعدان من أهم القطع الفنية التى يمكن وضعهما فى مرتبة تمثال « خفرع » المنحوت من الديوريت .

الفرق بين صناعة تمثال من الخشب وآخر من الحجر

ولا يفوتنا أن نلفت النظر هنا إلى أن المصرى نفسه كان يشعر ويعلم تمام العلم أن صناعة التماثيل من الخشب هى أسهل بكثير من صناعة التماثيل الحجرية ، ولا أدل على ذلك من المنظر الذى عثر عليه فى مقبرة العظيم « وب إم نفرت » وهو يمثل الحرف والصناعات ، وفيه فنانان أحدهما يصنع تمثالا من الخشب والآخر يصنع تمثالا من الحجر ، فالنحات الذى فى الجهة اليسرى من المنظر يقول لرفيقه : « لقد انقضى شهر منذ الوقت الذى بدأت فيه العمل فى التمثال الذى فى يدى » فاجابه المثال الثانى الذى على يمينه قائلا : « إنك رجل أحمق فى حسابك . أما كان الأجدر بك أن تقول هل الخشب مثل الحجر (؟) » يقصد بذلك أن صناعة الخشب لاتحتاج إلى العناء والوقت اللذين يتطلبهما النحت فى الحجر [1] . كنا قد تكلمنا فيما سبق عن الأدوار التى كان يمر بها التمثال المنحوت قبل أن يصبح كاملا ؛ ولنا أن نتساءل الآن عن الآلات التى كان يستعملها النحات المصرى لإخراج تمثاله .

فمنذ نهاية عصر الأسرات كانت الآلات النحاسية معروفة فى مصر ، وكانت تصب فى قوالب بسيطة مفتوحة ، ثم بعد ذلك كانت تشكل بالطرق ، وهى باردة بمطارق من الحجر المصقول وهذه الآلات كانت قليلة العدد فى ذلك العهد السحيق ، وأهمها المقص الذى لا مقبض له ، وكان يرهف أحيانا من طرفيه ، أما طوله وسمكه فكانا يختلفان حسب الأحوال ، ومنها السكين المسطح العريض الذى ظهر منذ بداية العصر التاريخى ، ثم القدوم الذى كان يستعمل فى صنع الأخشاب .

ولما كشف المصريون البرنز الذى هو خليط من النحاس ، والقصدير

(1) Excav. at Giza II, p. 194-195.

انتشرت الآلات المعدنية بكثرة وأدخل عليها تحسينات كثيرة ، فظهر خلافا للآلات القديمة ؛ الآلة المدببة التى كانت تستعمل لقطع كتل الحجر العظيمة من الصخر ، والمناشير ذات الأحجام المختلفة ، والمثقاب الذى كان يدار بالوتر . وهذا الأخير كان يستعمل فى التماثيل التى تصنع من الخشب ، غير أنه لم يكن آلة مجدية فى الحجر ، وبخاصة أحجار الجرانيت والديوريت التى كان يستعملها المصريون بكثرة فى صنع تماثيلهم وأوانيهم .

الآلات التى كانت تستعمل لنحت التماثيل

ومن المدهش أن المصريين لم يهتموا – أو على الأقل لم يظهروا اهتمامهم – بالحاجة إلى اختراع آلات صالحة للحفر فى الحجر أحسن مما كان لديهم ؛ وقد بقيت الحال كذلك إلى أن اختلطوا باليونان فاستعملوا الآلات التى تستعمل الآن .

وعلى ذلك فالمصريون لم يدخلوا تحسينات فى الآلات المعدنية للحفر فى الحجر ، وذلك يعنى أنهم لم يكونوا فى حاجة إلى ذلك ، وأنه كان لديهم آلات متقنة لهذا العمل .

والحقيقة أن سكان وادى النيل قبل معرفة النحاس كانوا ينحتون الأحجار الصلبة جدا ويصنعون منها أوانى . ففى ظهور المدنية الأولى فى عصر ما قبل التاريخ ، كان يستعمل البازلت ، والحجر السنيتى (نسبة إلى أسوان) ، وحجر البورفير ، وحجر الحية ، ثم الديوريت ، وقد بقيت الأحجار المختارة حتى عصر الأهرام . وفى العصر الثانى مما قبل التاريخ كانت الأوانى لها مقابض تثقب فى الحجر لتعلق منه ، ولكن منذ بداية الأسرة الأولى ، عند ما أصبحت الآلات النحاسية شائعة ، لاحظنا أن

استعمال الأحجار الصلبة يقل على حين أن حجر الشيست والمرمر أصبحا كثيرى الاستعمال ؛ وذلك لأن الأوانى كانت تصنع بطريقة ميكانيكية بواسطة المثقاب والوتر ، ولكنها أقل جودة من صناعة ما قبل الأسرات . ولدينا أمثلة من المهارة التى تفوق الوصف التى كان يظهرها مصرى ما قبل الأسرات فى صناعة الظرّان ، ولم يفقه فيها أحد فى المدنيات الحجرية من كل الوجوه ، وعند ما كان يريد الصانع المصرى أن يحفر الأوانى من الحجر الصلب كان يستعمل سحاقات من الحجر تستعمل فوق السنفرة (حجر مسن) . أما الأوانى التى كانت تصنع من الحجر اللين فكان يستعمل لتفريغها المثقاب المصنوع من الظرّان الذى كان على شكل هلال . وعلى ذلك كان السنباذج (السنفرة) معروفا منذ أقدم العصور مع أن موطنه الأصلى (كنوسوس) أحد جزر أرخبيل اليونان ، وهو أحدّ حجر بعد الماس ؛ ولذلك عند ما يدبب طرف هذا الحجر ، كان يثقب أصلب الأحجار . وعند ما كان يستعمل مسحوقا كان يأكل الحجر عند ما كان يفرك أو يحك به ، وكان حك الأحجار وصقلها بوساطة أحجار مختلفة فى الحجم والشكل . وهذا الاستعمال الفني قد بلغ من الكمال ما يفوق حد المألوف منذ أقدم العصور ؛ من ذلك أن الأستاذ « فلندرز بترى » عثر فى « هرا كنبوليس » على إناء من الحجر السنيتى الأبيض والأسود عظيم الحجم ، يبلغ قطره نحو ٦٠ سنم فى ارتفاع ١٥ سم ، ويزن نحو ٢٠٠ ك.ج. وهو أصم . قد أفرغ بالحك ، وجدرانه بعد تفريغه أصبحت رقيقة جدا ، حتى أن الإنسان يمكنه أن يرفعه بأصبع واحدة . ولا نزاع فى أن هذه المهارة اليدوية ، وتلك الدقة المدهشة ، والحذق فى الحفر ، والصبر

طريقة صنع الاوانى الحجرية

الذى لا حد له . كانت كلها من العوامل التى تغلبت على الصعوبات التى اعترضت الفنان المصرى فى تلك الأحجار الصلبة .

على أن آلات البرنز لم تتمكن يوما ما من أن تحل محل حجر المسن (السنباذج) ، أو حجر البلور الصخرى وذلك لأن كلا من البرنز ، أو النحاس كان لينا لا يأخذ فى الأحجار الصلبة . وأحيانا نجد أن النوعين كانا يستعملان معا ، ولذلك نرى القوم منذ الأسرة الأولى يصنعون المناشير من النحاس المركب فيه أسنان من السنفرة ، وكذلك نجد أسنان المثاقيب من نفس الحجر .

ولما قضت الاعتقادات الدينية بعمل التماثيل ، كان لزاما على المختصين فى صناعة الأحجار الصلبة أن يوجهوا حذقهم الفنى طبعا إلى الشكل الجديد وكانوا يتبعون فى صناعتهم الخطوات التى ذكرناها سالفا .

ثقافة الفنان المصرى

ولا يتسرب إلى الذهن أن الفنان وبخاصة ناحت التماثيل كان عاملا بسيطا ؛ بل كان لابد له من أن يسيطر على أصول فنه حتى يمكنه أن يتبع خطوة لخطوة تعاليم رئيس الفنانين ولأجل أن يصل إلى ذلك كان لابد من أن يتعلم أشياء أخرى غير الرسم ، كفن الكتابة ، إذ كان التمثال عند الانتهاء من نحته فى غالب الأحيان ينقش عليه اسم صاحبه وألقابه .

والآن نتساءل عن النموذج الذى كان يستخدمه الحفار المصرى لأبراز تمثاله ، والظاهر أنه كان هناك ثلاثة طرق ، وهى أولا : أن ينقل المثّال الصورة التى ينحتها من الطبيعة مباشرة . ثانيا : أن يحاكى نموذجا متفقا عليه من قبل .

ثالثا : أن يصنع تمثاله من الطبيعة بوساطة صورة مطبوعة من الأصل .

وقد ذكرنا آنفا أن التمثال كان يصنع فى الأصل لضرورة دينية (أى لتحل فيه الروح المادية إذا اختفى الجسم الأصلى) . وذلك فى عهد الدولة القديمة ، ولكن فيما بعد نشاهد أن التمثال أصبح لايوضع فى سرداب بل كان يوضع فى معبد الإله . والظاهر أن هذه الفكرة نتجت من أن المتوفى كان يتلمس حماية الإله . إذ تقول النصوص أن التمثال « كان يجلس فى ظل البيت المقدس ، ويستمع إلى الأدعية والصلوات فى الصباح من فم الكهنة » .

السبب فى صناعة التماثيل

ولا نزاع فى أن موضع التمثال سواء أكان فى السرداب أم فى المعبد لا يتطلب أن يرسم بأوضاع مختلفة ، كما تنحت التماثيل التى توضع فى الميادين العامة ، على أن التمثال المصرى كان فى معظم الأحيان يصنع ليرى من الوجه . ولذلك كان لايعتنى بنحت تفاصيل الأجزاء الخلفية ، كما أن الصورة التى كانت ترسم على جدران المقابر كانت ترسم جانبية . وذلك لأنه فى الحالة الأولى كان التمثال يصنع لتعرفه الروح المادية عند ما تدخل فى القبر أو تخرج منه . أما الصورة الجانبية للأشخاص وغيرها فكانت ترسم جانبية لأنها كانت دائما تمثل سائرة أو تنظر إلى شىء أمامها ، أو تسير نحوه مرسوما كذلك بشكل جانبى فكان المتوفى يرسم وهو ينظر إلى مائدة طعامه ، أو سائرا نحو بابه الوهمى ، أو داخلا قبره . وهكذا كان حاملو القرابين وغيرهم يرسمون ذاهبين نحو الباب الوهمى .

سبب رسم الصور المصرية بوضع جانبى

وكان من جراء ذلك وجوب تمثيل المتوفى على الشكل المتقدم ، مع مراعاة أن وجه التمثال كان ينحت بوضع واحد دون إظهار أية

حركة فيها تغيير ملامحه . ولذلك كان من السهل جدا أن يرسم للشخص عدة تماثيل ؛ ولم يكن المثال فى حاجة إلى أن ينقل ملامح الوجه كل مرة من صاحب التمثال بل كان يكتفى بنقلها مرة واحدة . ولما كان التمثال يصنع لتحل فيه الروح المادية أبديا كان ينتخب للمتوفى صورته وهو فى ريعان شبابه وعنفوان قوته .

أما طريقة نحت التمثال عن صورة مطبوعة من الأصل بالجبس ، فالظاهر أنها قد استعملت فى عهد الدولة الحديثة فى تل العمارنة ، وإن كان لدينا بعض نماذج من قوالب الوجه المطبوعة عن الأصل من الدولة القديمة . عثر عليها الأستاذ « ينكر » فى حفائره بالأهرام وسنتكلم عنها فى حينها .

تدرج فن النحت البارز فى الأسرة الأولى

يمثل فن النحت فى عصر الأسر الأولى بعض نقوش نحتت على ألواح من حجر الشيست ، ورءوس الدبابيس ، وأوان من الحجر المختلف الأنواع ؛ وأشياء أخرى متنوعة من العاج ، وكذلك أشكال رجال وحيوانات حفرت فى العاج ، والأحجار والقاشانى . نذكر منها هنا أهم ما عثر عليه : عدد من الأشكال المصنوعة من العاج تمثل رجالا ونساء عثر عليها فى « هرا كنبوليس » ، والعرابة المدفونة . وكذلك عثر على ثلاثة تماثيل للإله « مين » فى بلدة قفط وعلى تمثالين راكعين من الحجر الجيرى لرجل فى هرا كنبوليس ، وتمثال لرجل واقف فى نفس المكان .

ثم تمثال صغير لرجل متربع فى « هراكنبوليس » أيضا . ولكن مما يؤسف له أن معظم هذه التماثيل قد وجدت فى حالة تفكك وتحلل شديدة . على أننا نشاهد مما بقى منها تقدما فى المهارة الفنية عن عصر ما قبل الأسرات ، وبخاصة فى عمل التماثيل الصغيرة ، وكذلك النقوش التى كانت تعمل بحجم صغير . فمثلا نجد أن رأس التمثال الصغير المتربع جيدة فى صنعها مثل الصورة المحفورة على العاج ، وكذلك نشاهد مثل هذه المهارة والإتقان فى أحد التمثالين الراكعين . أما تماثيل الإله « مين » الثلاثة فقد وجدت للأسف فى حالة لا تمكننا من أن نحكم عليها بحق . ولكن يظهر على وجه عام أنها كانت لا تقل مهارة عما ذكرنا . وعلى الرغم من أن هذه التماثيل الكبير منها والصغير قد نحت من مادة لينة ، فإن صناعتها بعيدة عن جودة تماثيل الأسرة الرابعة . حقا إن الفنان فى هذا العصر قد وصل إلى إتقان ملامح الوجه الإنسانى ، وتقاطيعه إلى درجة أصبح من السهل معها تمييز جنس صاحب الوجه فى بعض الأحيان . ولكن من جهة أخرى كان نحت التمثال على وجه عام لا يزال يحتاج إلى إتقان . يضاف إلى ذلك أن الأشكال كانت لا تزال عليها مسحة من الجمود مما يجعلنا نحكم بأن الفن كان فى هذا الوقت قريبا من عهد الطفولة ..

تدرج رقى صناعة التماثيل

أما فى النقش على الجدران فإن مثّالى هذا العصر كانوا لا يزالون يعالجون صعوبة تمثيل الوجه الإنسانى فى وضع جانبى كما سنرى فى عهد الدولة القديمة . وعند ما كان ممكننا تمثيل الذراع الأقرب للناظر خلف الجسم كان يمثل الصدر كأنه يواجه الإنسان . على حين أن باقى الجسم كان يمثل جانبيا ، وعند ما تكون اليدان قابضتين على شىء أمام الجسم كان يبدو

ظهر الكتف قبيحا كما حدث مثل ذلك فى الأزمان التى تلت هذا العصر وكان جانب القدم الداخلى يظهر ممثلا ، فيرى لكل تمثال قدمان يسريان ، أو قدمان يمنيان . ولكن اليدين كانتا ترسمان فى العادة رسما صحيحا ، يدا يمنى ، ويدا يسرى ، لكل شخص . ومن المحتمل جدا أن إخفاق بعض النحاتين الذين أتوا فيما بعد فى النقش على الجدران وغيرها . راجع إلى أن الفنانين فى العصر الذى نحن بصدده قد وضعوا تقاليد فى رسم الأشكال فى وقت لم تكن فيه مهارة الفنان قد بلغت مبلغا عظيما من الرقى والإتقان .

الاغلاط التى شاعت فى صناعة التماثيل

وقد كانت الأوضاع والحالات المختلفة ، التى ترسم بها الأشكال فى هذا الوقت متداولة فى نحت الدولة القديمة . ولكن ملابس الملك وأفراد الشعب كانت تختلف فى أمور معينة إذ نجد أن التماثيل ، والأشكال كانت تمثل فى هيئات وملابس خاصة ؛ كتمثال الإله « مين » والتماثيل الراكعة ، والدمى ، والأشكال المصنوعة من العاج لرجل مرتد عباءة ، وكل هذه لها نظائرها فى الأزمان التى أتت بعد هذا العصر . وكانت التماثيل والأشكال الواقفة أذرعتها فى معظم الأحيان مدلاة على الجانبين . أما راحة اليد فكانت تمثل مفتوحة أو مقفلة فى أوضاع مختلفة . وكذلك كانت تمثل القدم اليسرى تخطو إلى الأمام عند الرجال أما فى النساء فكانت القدمان ترسمان أو تمثلان منضمة إحداهما إلى الاخرى فى معظم الأحيان كما هو الحال فيما بعد .

الاوضاع المختلفة للتماثيل

وأهم ما يلفت النظر فى أوضاع تماثيل العصر الأول من الأسرات هو وضع اليد اليمنى والساعد فى بعض الأحيان على الصدر فى تماثيل

الذكور ، وعلى الثدى عند النساء ، وهذا الوضع يشاهد فى تمثال هراكنبوليس وكذلك فى دمى العاج للأناث والذكور ، التى عثر عليها فى نفس المكان .

وأقدم تماثيل جميلة عثر عليها ويرجع عهدها إلى أواخر الأسرة الثانية وأوائل الأسرة الثالثة هى تمثال الملك « خع سخموى » (أواخر الأسرة الثانية) ، وتمثال الملك « زوسر » فاتحة ملوك الأسرة الثالثة ، والأخير مصنوع من الحجر الجيرى الأبيض ، عثر عليه فى سقارة ، وكذلك عثر له على قطعة من تمثال من المرمر ، ورأس من الجرانيت . وهذه التماثيل تعد أقدم تماثيل مؤرخة .

تماثيل الملك «زوسر»

وقد عثر على تمثال الملك « زوسر » المذكور فى سردابه الذى أقيم له بجوار الهرم المدرج وقد عمل خاصة لروحه المادية ، ومثّل مرتديا عباءته وعلى رأسه لباس مقدس يعلوه النمس الملكى (غطاء للرأس يشبه الكوفية) ومثّلت يده اليمنى مقفلة على صدره وهى قابضة على طرف عباءته . أما يده اليسرى فمفتوحة ، وراحتها على ركبته اليسرى . أما تمثالا

تمثالا الملك « خع سخموى »

الملك « خع سخموى » فيوجد واحد منهما فى متحف القاهرة ، والثانى فى متحف أكسفورد وقد عثر عليهما « كويبل » فى هراكنبوليس أحدهما من الجير الأبيض وجد مهشما تهشيما شديدا ؛ والثانى من الحجر الشيست ، ويكاد يكون سليما ، ويمثل الملك لابسا التاج الأبيض جالسا على أريكة مكعبة الشكل فى هيئة تشعر بالجلال والهيبة اللتين نشاهدهما غالبا فى نماذج فن هذا العصر ، ويلاحظ أن اليد اليسرى موضوعة على صدره ، واليد اليمنى على ركبته . وقد توشح بعباءة لها كمان ، وقد لفته

كله ولم يظهر من جسمه إلا اليدان والقدمان .

ولا نزاع فى أن صناعة هـذه القطع تدل على أنها ملكية ، ويظهر فيها تدرج الفن فى الرقى عن سابقتها ، وبخاصة فى نحت الفم وتشكيله أما سطح التمثال وصقله فكان لا يزال ينقصه شىء كثير من الدقة كما كان الحال عليه من قبل .

صناعة تماثيل علية القوم

ويقرب من صنع هـذه التماثيل تمثالان للأميرة « رد زيت » واحد منها من الجرانيت موجود الآن فى متحف « تورين » والثانى من الحجر الجيرى الأبيض بمتحف « بروكسل » ،

أما تماثيل الأشراف فى هذا العصر فلدينا منها بعض أمثلة نخص بالذكر منها تمثالى « سبا » وزوجه « نسا » وهما من طرائف متحف اللوفر . وكان « سبا » هـذا من كبار موظفى رجال الدولة فى عهد الأسرة الثالثة .

الفرق بين تماثيل الملوك والاشخاص

على أن هناك تماثيل أخرى من صناعة خشنة لهذا العصر وبواسطتها يمكن التمييز بين الصناعة الملكية ، والصناعة الشعبية . وأهمها تمثال جالس من الجرانيت لشخص يدعى « نزم عنخ » بمتحف اللوفر ، وآخر له من الجرانيت الأسود بمتحف ليدن ؛ ولا نزاع فى أن هذين التمثالين يمثلان صناعة الفن الحر ، فى الأحجار الصلبة خلال الأسرة الثالثة . على حين أن قطعتى المرمر والجرانيت اللتين تنسبان للملك « زوسر» وكذلك تمثال الأميرة « رد زيت » من حجر الديوريت ، كلها تمثل الصناعة الملكية فى نفس العصر فى الأحجار الصلبة . وهناك تماثيل أخرى كثيرة تشبه تمثال الأميرة « رد زيت » يحتمل

جدا أنها من هذا العصر ، ولـكنها غير مؤرخة .

تماثيل العصر الأول من الأسره الرابعة

تماثيل الملك «خوفو»

يعتبر تمثال الملك « خوفو » الصغير المصنوع من العاج أقدم تمثال عثر عليه إلى الآن فى عهد الأسرة الرابعة ، وقد كشف عنه الأستاذ « فلندرز بترى » فى معبد العرابة . وكذلك عثر على قطع صغيرة من صوره المنحوتة على الأحجار فى حفائر الأهرام، وعلى صورة له كاملة على قطعة من الحجر الجيرى الصلب ، وقد مثل فيها وهو لابس تاج الوجه البحرى وتعد فريدة فى بابها .

أجمل تماثيل فى الدولة القديمة مصنوعة من الحجر الجيرى

وعثر لغير الملوك فى هذه الفترة على ثلاثة تماثيل تنسب إلى عهد « سنفرو » ، أو عهد « خوفو » ، وهى تمثال صغير لموظف كبير يدعى « متن » عثر عليه « لبسيوس » الأثرى الألمانى فى سرداب مقبرة هذا الموظف الواقعة بين أبو صير ، و سقارة ثم تمثال الأمير « رع حتب » ، وقد عثر عليه فى سرداب مقبرته فى ميدوم ؛ ومعه تمثال زوجته « نفرت » ، ولا يفوتنا أن نذكر هنا تمثالا آخر لسيدة يحتمل جدا أنها أم « خفرع » وهذا التمثال يرتدى ثوبا غريبا فى زيه ، وقد عثر عليه فى منطقة اهرام الجيزة .

ولا نزاع فى أن أهم هذه التماثيل من الوجهة الفنية هما تمثالا « رع حتب » ، و« نفرت » ويرجع تاريخهما إلى عصر الملك « خوفو » ، وربما ركبا معا بعد عهد هذا الملك ويرجع حسن صنعهما وجمالهما إلى

سهولة النحت فى الحجر الذى صنعا منه ، وكان ذلك بشيرا بتحسن الصناعة فى الأحجار الصلبــة فى عهدى الملــكين « خفرع » و « منكاورع » ويلاحظ أن أهم ما تمتاز بها هذه التماثيل فى وضعها ، أننا نجد اليد اليمنى موضوعة على الصدر أما اليسرى فموضوعة على الركبة مفتوحة . وأول مثال لهذا الوضع تمثال الملك « زوسر » من الأسرة الثالثة ، وتدل الأمثلة التى لدينا على مايظهر أن هذا الوضع كان المتبع عادة فى تماثيل الرجال الجالسين فى أوائل الأسرة الرابعة .

أوضاع التماثيل الصغيرة والكبيرة فى عهد الدولة القديمة

دلت الأبحـاث الأثرية التى عملت إلى الآن على أن أكثر عدد من التماثيل وجد سليما هو للملك « منكاورع » . وقد وجدت على أوضاع مختلفة . ويمكننا أن نتخذها أساسا للمقارنة بتماثيل الملوك فى عهد الدولة القديمـة . والواقع أننـا لم نجد إلى الآن أوضاعا أخرى جديدة للتماثيل الملكية غير التى وجدناها لهذا الملك . وقد كشف الأستاذ « ريزنر » عن تمثالين واقفين ، وواحد وعشرين تمثالا جالسا للملك « منكاورع » وتمثال واقف للملكة ، وتمثالين للملك والملــكة واقفين ، وخمسة ثالوثات يمثل كل منها الملك ، والإلهة « حتحور » ، وإلهة مقاطعة من مقاطعات القطر . ويشاهد فى تمثال الملك الواقف المنحوت من حجر البورفير وتمثاله المصنوع من العاج وكذلك فى مجاميع الثالوثات أن القدم اليسرى للملك تخطو إلى الأمام ، والذراعين متدليان على الفخذين ، واليد مقفلة . ومن الغريب أننا نلاحظ خلافا للقاعدة المتبعة أن الملــكة فى تمثيلها مع الثالوثات

تخطو بقدمها اليسرى إلى الأمام قليلا ، إذ القاعدة فى كل تماثيل السيدات بوجه عام أن القدمين ملتصقتان . (ومن الشواذ تمثال الأميرة تدعى « مرسى عنخ » [1] من عهد الأسرة الخامسة ويلاحظ فيه أن القدم اليسرى تخطو إلى الامام) ، ويشاهد فى تماثيل الملك الجالسة أن الذراعين منثنيان عند المرفق ، واليد اليسرى مقفلة ومتكئة على الفخذ الايمن ، والإبهام فيها إلى أعلى ، وممسكة بمنديل أما تمثالا الملك ، والملكة فيشاهد فيهما أن الملكة تطوق الملك بذراعها الأيمن ويدها اليسرى على ذراعه الأيسر. وأما تماثيل مجاميع المقاطعات (الثالوث) فيظهر فيها خمسة أوضاع مختلفة على الأقل

ونذكر هنا بعض التماثيل الأخرى الملكية التى عثر عليها فى عهد هذه الأسرة وأهمها (١) تمثال الملك « خوفو » الذى وجد فى العرابة (٢) سبعة تماثيل جالسة للملك « خفرع » خمسة منها من حجر الديوريت ، وواحد من الشيست ، وواحد من المرمر ؛ وقد عثر على ستة منها فى بئر معبد الوادى « لخفرع » فى الحجرة التى كانت منصوبة فيها ، وواحد فى معبد « فتاح » بميت رهينة . (٣) عثر على بقايا أكثر من مائتى تمثال فى حفائر الأهرام كلها مهشمة . ومن الأجزاء الباقية يستدل على أنها كانت آية فى الإتقان الفنى ومن الأحجار الصلبة المختلفة الأنواع (٤) تمثالان للملك « خفرع » ، والإلهة « باست » من حجر الديوريت لم يتم صنعهما ، عثر عليهما فى معبد « خفرع » أيضا . (٥) تمثال جالس للملك « منكاورع » من الديوريت بمعبد الإله « فتاح » بميت رهينة . (٦) سبعة تماثيل من الحجر الجيرى مهمشة عثر عليها فى حفائر الكونت «جلارزا»

---

(1) Excav. at Giza, vol. II, pl. LXVI.

التماثيل التى عثر عليها لملوك الاسر الرابعة والخامسة والسادسة فى مختلف جهات القطر

في منطقة الأهرام وكلها لأمراء من أسرة « خفرع » (٧) تمثال جالس للملك غير معروف اسمه يحتمل أنه « ددف رع » عثر عليه فى معبد « فتاح » بميت رهينة ، وهو مصنوع من المرمر . (٨) رأس جميل بلحية مصنوع من الحجر الجيرى الأبيض لأمير فى حفائر الجامعة بمنطقة الهرم ، ويمتاز بابتسامة على وجهه . (٩) رأس ضخم من الجرانيت الأسود للأمير « نب إم آخت » عثر عليه فى حفائر الجامعة بمنطقة الهرم أيضا (١٠) تمثال صغير للملك من الحجر الجرانيت الأسود لم يعرف اسمه وجد فى معبد الملكة « خنت كاوس » ، ويحتمل أنه للملك « منكاورع » والدها . (١١) تمثال جالس من الجرانيت للملك « نوسر رع » من ملوك الأسرة الخامسة ، وجد فى معبد « فتاح » بميت رهينة (١٢) الجزء الأسفل من تمثال الملك « نوسر رع » يده اليمنى مقفلة على فخذه عثر عليه فى بحيرة الكرنك . (١٣) تمثال جالس من المرمر للملك « منكاو حور » من الأسرة الخامسة متشح بملابس عيد « حب سد » عثر عليه بمعبد « فتاح » بميت رهينة . (١٤) قاعدة تمثال جالس للملك « ببى » من الأسرة السادسة عثر عليه فى الكوم الأحمر ، ومصنوع من الجرانيت . (١٥) تمثال واقف من النحاس وآخر صغير من النحاس أيضا للملك « ببى الأول » عثر عليهما فى هراكنبوليس ، والتمثال الكبير يفوق الحجم الطبيعى بقليل ويده اليمنى مقفلة ، ومدلاة على فخذه الأيمن ، ويده اليسرى ممدودة قابضة على عصا أما التمثال الصغير فيداه مقفلتان

ويلاحظ أن أوضاع كل هذه التماثيل تحاكى تماثيل الملك « منكاورع »

اللهم إلا تمثال الملك « منكاو حور » ، وتمثالى الملك « بيبى الأول » المصنوعين من النحاس . على أن التغيير فى تمثيل « منكاو حور » يرجع إلى أنه ممثل بملابس عيد « حب سد » أما فى تمثالى « بيبى الأول » فلأنه يرجع إلى تقليد صناعة التماثيل الخشبية للنحاس .

أوضاع التماثيل الخشبية فى الأسرتين الخامسة والسادسة

كانت التماثيل التى تصنع جالسة ، أو واقفة مألوفة فى التماثيل التى من الحجر صغيرها ، وكبيرها ، وذلك فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة . وأهم تغيير حدث ، فى وضع التماثيل الجالسة كان ينحصر فى تصوير اليد المقفلة مقلوبة ، بحيث يكون ظهرها ، وعقل الأصابع فى أعلى ، ففى كتاب « بورخرت » عن التماثيل فى الدولة القديمة ، نجد أن ٦١ تمثالا تتبع التقاليد القديمة على حين أن ٣٦ تمثالا نجد فيها التجديد الذى ذكرناه الآن .

وكان وضع التمثال واقفا هو السائد فى التماثيل المصنوعة من الحجر فنجد فى كتاب « بورخرت » ٣٤ تمثالا منفردة ، وعشر مجاميع كلها واقفة . أما التماثيل الخشبية التى على نمط تمثال « بيبى الأول » النحاسى فنجد منها تسعة تماثيل ؛ وكذلك عثر أخيرا فى سقارة على تمثالين من الخشب واقفين على أننا نجد فى مجاميع تماثيل الدولة القديمة ، أوضاعا مختلفة اختلافا عظيما . وعلى أية حال فإننا نلاحظ أن أوضاع تماثيل الملكين « خفرع » ، و « منكاورع » كانت السائدة فى الدولة القديمة .

سواء أكانت لأكابر رجال الدولة أم للموك والأمراء .

الترتيب التاريخى لاوضاع التماثيل التى كان يستعملها الفنان المصرى

يظهر مما تقدم أن أوضاع اليدين والذراعين فى كل التماثيل كانت على ثلاثة أنواع فى ثلاثة عصور مختلفة (١) وضع اليد اليسرى أمام الجسم ، وتلك كانت من مميزات عهد الأسرة الثالثة ، وربما امتد ذلك إلى عهد الملك « سنفرو » . والواقع أن ذلك كان أحد الأوضاع للتماثيل الصغيرة المصنوعة من العاج التى نسبت إلى عهد فجر الأسرات ، وهو ما يسمى بالعهد العتيق . (٢) وضع اليد اليمنى أمام الجسم ، وكان خاصا بتماثيل « خوفو » ومن المحتمل أن ذلك كان التقليد فى عهده . (وتمثال «زوسر» على هذا الوضع ولو أنه من الأسرة الثالثة) (٣) وضع اليد مقفلة على الركبة اليمنى فى التماثيل الجالسة ، واليد اليسرى مفتوحة . وقد ظهر أولا هذا الوضع فى تماثيل « خفرع » . أما التمثال الواقف لنفس هذا العصر فكانت ذراعاه مبسوطتين على الفخدين ، ويداه مقفلتين والابهام ظاهرا . (٤) وهناك فوق ما ذكرنا ملاحظة خاصة بتماثيل الدولة القديمة المصنوعة من الحجر ، وهى أن كل تماثيل هذا العصر مقفلة اليدين ، أو واحدة مقفلة ، والثانية مبسوطة ، ولم يحدث قط إلى الآن أننا وجدنا تمثالا من هذا العصر فيه اليدان مفتوحتان . أما تماثيل الأسرتين الخامسة ، والسادسة المصنوعة من الخشب فكانت تصنع حسب التقاليد المتبعة فى التماثيل الواقفة ، والقاعدة . والوضع الخاص بالتماثيل الخشبية الواقفة يمثل شيخ البلد.

ويوجد على أقل تقدير عشرة أمثلة من هذا الوضع فى متحف القاهرة ويوجد كثير غيرها فى متاحف أوربا وأمريكا . أما التماثيل الخشبية للأطفال ، والسيدات فلا تختلف فى وضعها عن التماثيل الحجرية .

تأثير تماثيل « خفرع » و « منكاورع » فى صناعة تماثيل الأفراد فى الاسرتين الخامسة والسادسة

يوجد فى المتحف المصرى أكثر من مائة تمثال جالس من عهد الدولة القديمة ، ويشمل ذلك العدد المجاميع من التماثيل ، وقد لوحظ أن ستين تمثالا منها قد نحتت حسب التقاليد المتبعة فى تماثيل الملك « خفرع » من حيث الوضع ، ومنها نحو ٣٦ قد انحرفت عنه بتغيير بسيط ، وذلك فى كيفية وضع اليد اليمنى المقفلة . فمثلا نلاحظ فى هذة التماثيل أن راحة اليد تكون مقلوبة إلى أسفل بدلا من جعل الأبهام إلى أعلى . وقد عثر على ٣١ تمثالا من الستة والثلاثين فى سقارة ويرجع تاريخها إلى الأسرة الخامسة ، والظاهر أن هذه التماثيل قد أخرجتها مدرسة واحدة على رأسها فنان واحد ، وتلاميذه الذين عاشوا معه فى منف ، وابتدعوا هذا التجديد الذى يختلف بشىء بسيط عن إنتاج فنانى الجيزة ، وتقاليدهم . ويغلب على الظن أن تقاليد الجيزة هى التقاليد الرسمية ، إذ وجدنا التمثال الوحيد الملكى الذى عثر عليه من الأسرة الخامسة ، وهو للملك « نوسررع » قد وضع على هيئة وضع تمثال الملك « خفرع » .

الفرق بين تماثيل الجيزة وسقارة

على أننا إذا استبعدنا هاتين المجموعتين أى الستين تمثالا التى نحتت

فى مدرسة الجيزة والـ ٣٦ تمثالا التى نحتت فى مدرسة سقارة لم يبق لدينا إلا بضعة تماثيل قد ظهر فيها بعض تغيير مخالف لكل ما سبق ، ففى اثنين منها نجد أن اليد اليسرى مقفلة وموضوعة على الركبة . وفى اثنين آخرين نجد أن اليدين مقفلتان . أما تماثيل الرجال الواقفة ، وتماثيل السيدات الجالسات فليس فيها اختلافات تقريبا ، ومن بين تماثيل السيدات الواقفة ثلاثة نجد فى كل القدم اليسرى تخطو إلى الأمام قليلا ، ونجد ذلك الوضع فى تمثال الملكة زوجة « منكاورع » ، وتمثال « مرسى عنخ » هذا إلى تمثال سيدة مع رجل واقفين فنجد يديها مقفلتين ومتدليتين على فخذيها كالرجل .

ومن كل ماتقدم يمكننا أن نستخلص بعض حقائق عن تماثيل الدولة القديمة تكاد تنطبق على كل ماعثر عليه حتى الآن . فمثلا نجد أن قطعتين مؤرختين ، وهما تمثال الأميرة « نزم رعنخ » والملك « خع سخموى » لكل منهما كرسى خشبى . وأن الذراع الأيسر موضوع أمام الجسم . غير أن الصناعة فى كل منها مختلفة جدا ، وكذلك تمثال الملك « زوسر » له كرسى خشبى ، وذراعه الأيمن أمام جسمه ويلاحظ أن صناعة تمثالى « خع سخموى » ، و « زوسر » يظهر فيهما الصناعة الملكية التى سارت فى عهد الأسرة الثالثة . أما صناعة تمثال « نزم عنخ » فيظهر فيها الصناعة الشعبية لهذه الفترة .

وهنا يجب أن نلفت النظر إلى أنه لافائدة من تأريخ التماثيل التى عثر عليها قبل هذا العهد . إذ من المحتمل جدا أن فكرة صناعة التماثيل للملوك وللأفراد من الحجر لم تظهر قبل أواخر الأسرة الثانية ، والسند الوحيد

الذى ترتكز عليه فى ذلك هو اننا لم نعثر للآن على تماثيل من هذا النوع وربما تطالعنا الكشوف فيما بعد بمالم يكن فى الحسبان . وتنم صناعة تماثيل الملكين « زوسر » ، و « خع سخموى » على أن بعض الفنانين الملكيين قد وصلوا إلى درجة لابأس بها جعلتهم يمثلون صورا حية تقرب من الحقيقة . ومن المحتمل جدا أنهم صنعوا تماثيل لكل ملوك هذه الأسرة .

صناعة تماثيل الافراد فى عهد الاسرة الثالثة وما قبلها

أما تماثيل الموظفين فلا بد أنه قد صنعتها طائفة من الفنانين أقل مهارة من مثّالى الملك . وقد اتخذوا الجرانيت مادة محببة لهم ليظهروا فيها براعتهم الفنية . ولكن النتائج جاءت خشنة ساذجة ، وبخاصة عند ما أرادوا أن يقلدوا التماثيل الملكية . على أنهم كانوا يصنعون بعض التماثيل من الحجر الجيرى مثل تمثالى الاميرة « ردزيت » و « سبا » ، وعلى ذلك يحتمل أنهما من نهاية الأسرة الثالثة ، أو من عهد الملك « سنفرو » وذلك عند ما أخذ استعمال هذا النوع من الحجر ينتشر فى عهد الأسرة الرابعة ، ثم أصبح المادة السائدة لصناعة التماثيل فى عهد الأسرة الخامسة .

نجد بعد ذلك أمامنا تمثال الأمير « رع حتب » ، وزوجته « نفرت » وهما من أسرة الملك « سنفرو » . ومن المحتمل أنهما عاشا إلى عهد الملك « خوفو » الذى ظهر فى عهده كثير من الصفات العالية فى فن النحت المصرى إذ بلغ قمته من الإتقان ، وحسن الذوق .

وتدل التماثيل التى كشفت من عهد « خوفو » وماقبله بقليل ، على أن الفنانين قد ألبسوا تماثيلهم الجالسة ثوبا جديدا من الروعة والتجديد . مما يدل على أنهم لم يكونوا مرتبطين بالعهود التى سبقت إذ نجد فى الواقع على حسب ماوصلت إليه معلوماتنا أن الفنان أو جماعة الفنانين الذين صنعوا

تمثال الملك « خفرع » ، ثم تماثيل الملك « منكاورع » قد ابتدعوا شكلا مقبولا للتماثيل فى البلاط المصرى فى ذلك العصر يحمل فى ثناياه الروعة الملكيـة ، وأبهة الملك الحقيقية . فنجد للملك « خفرع » الذى كان (حسب معلوماتنا إلى الآن) أول من صنع له فنان المدرسـة الجديـدة أكثر من أربعة وعشرين تمثالا فى معبده فى الوادى فقط لا تزال آثار أماكنها ظاهرة إلى الآن حول جدار ردهة المعبد العظيمة بالحجم الطبيعى ، ومن المؤكد أنه صنع له أكثر من هذا العدد فى المعبد الجنائزى إذ أثبتت الكشوف الحديثة أنه وجد له بقايا أكثر من ثلمائة تمثال صغيرة ، وكبيرة من الأحجار الصلبة المختلفة الأنواع . ومن المحتمل أن الملك « منكاورع » قد صنع لنفسه مـا يقرب من هذا العدد ، ولا أدل على ذلك من أنه قد صنع ثالوثا لكل مقاطعة من الاثنتين والاربعين مقاطعة التى يتألف منها القطر المصرى . وقد عثر على بعضها الأستاذ « ريزنر » .

تماثيل الملوك فى عهد الاسرة الرابعة

ويمكننا أن نقرر هنا أنه قد صنع على وجه التقريب فى عصرى هذين الملكين « خفرع و منكاورع » ما يربو على خمسمائة تمثال معظمها من الديوريت والمرمر ، والشيست وغيرها من الأحجـار الصلبة على يد جيل واحـد من الفنـانين . ولا نزاع فى أن أساتذة من هذا العصر كان لهم تلاميذ قد خلفوهم ، وبخاصة فى مثل هـذه الأعمـال الفنية العظيمة التى كان يتطلبها البيت المالك فى تلك الفترة ؛ ولذلك لايستغرب أن تكون الأسرة الخامسة قد بدأت أعمالها العظيمة بطائفة من الفنانين المدربين الذين تلقوا دروسهم فى معامل « خفرع و منكاورع » . ولا نزاع فى أن هذه المعامل كانت تقام بجوار المعابد نفسها ، بل ربما كانت فيها ؛ كما يدل على

ازدهار صناعة التماثيل الملكية فى الاحجار الصلبة وعددها

ذلك القطع الكبيرة التى وجدناها لم تتم بعد فى المعابد . وفى الوقت نفسه كان لتقدم فن المعمار أثر عظيم فى عهد بناء أهرام الأسرة الرابعة أدى إلى استثمار المحاجر فى مختلف جهات القطر ، وبخاصة حجر طرة الأبيض ، وأنتج طرقا فنية فى قطع الأحجار ، وتهذيبها ، ومن ثم نشأت طائفة عظيمة من مهرة الحجارين . والواقع أن مصانع الأهرام كانت مدرسة عملية لكل الصناعات والحرف ، وهى التى وضعت الأساس لإنماء فن النحت والعمارة فى العصور التى تلت .

مصانع قطع الاحجار

وكان لتكوين طائفة عظيمة من النحاتين ومدهم بأحجار طرة البيضاء السهلة النحت أثر عظيم فى تخفيض تكاليف عمل التماثيل ، وسهلت الأمور لانتشار فن النحت فى عهد الاسرتين الخامسة و السادسة انتشارا عظيما . لذلك نرى أن كل موظف كبير ، أو متوسط الحال ينحت لنفسه تمثالا يطابقه تماما ليوضع معه فى سردابه الذى أقامه فى قبره كما يشاهد ذلك فى جبانتى الجيزة وسقارة .

سبب كثرة تماثيل الافراد فى عهد الاسرتين الخامسة والسادسة

ولم يقتصر هؤلاء العظماء على عمل تماثيل لأنفسهم فحسب ، بل كانوا يصنعون تماثيل لأفراد أسرتهم ، وخدمهم مما يسهل علينا معرفة نسبة أفراد الأسرة بعضهم إلى بعض . ولم يقتصر عمل التماثيل على الجبانات الملكية ، ورجال بلاطها ؛ بل كذلك وجدنا تماثيل فى جهات أخرى بعيدة عن مقر الملك . ولا نكون مبالغين إذا قررنا أنه لم يصنع فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى عدد من التماثيل يضارع ما عمل فى عهد الدولة القديمة . والواقع أن الفرصة لم تسنح ثانية قط لمتوسطى الحال فى مصر أن يصنعوا لأنفسهم تماثيل كما أتيحت لهم فى هذا العصر .

وكان الفنانون بطبيعة الحال يقلدون تماثيل أساتذتهم الذين نحتوا تماثيل « خفرع » ، و « منكاورع » وهم الذين أصبحت أشكال تماثيلهم وأوضاعها ، تقليدا فى مصر فى خلال الدولة القديمة . هذا إذا استثنينا الأوضاع البسيطة التى أدخلت على التماثيل التى نحتت فى سقارة . وأغرب شىء يلفت النظر فى تماثيل هذا العصر قلة ما وجدناه منها لملوك الأسرة الخامسة ؛ ولا نزاع فى أن سراديب معابد أهرام (أبو صير) كانت تحتوى على عدد عظيم منها غير انه مما يؤسف له جد الأسف أن الحفائر التى قامت فى هذه الجهة لم يعثر فيها إلا على قطعة صغيرة من تمثال ، وهو فم بالحجم الطبيعى من المرمر صنع صناعة دقيقة ؛ وقد وجد فى معبد الشمس للملك « وسركاف » . هذا رغم أنه كشف عن خمسة سراديب ، فى كل معبد من معابد هذه الأهرام ، وكذلك عثر فيها على مخازن عظيمة ذات حجم كبير ، وهذه المعابد قد خرّبت تخريبا ذريعا من الداخل كالأهرام الكبيرة . ولا بد أن التماثيل التى كانت فيها قد عرضت للتلف مدة آلاف السنين وبخاصة بعد سقوط الدولة القديمة عند ما قامت الثورة الاجتماعية وحطمت كل آثار المعابد. (انظر جزء أول ص ٣٩٨ الخ) فلم يبق منها شىء ؛ ولا غرابة إذا كانت التماثيل التى عثر عليها لهؤلاء الملوك قد كشف عنها فى جهة أخرى .

سبب قلة تماثيل الملوك فى عهد الاسرتين الخامسة والسادسة

وبعد الدولة القديمة بقى وضع التماثيل واقفة تقليدا سائدا إلى أواخر التاريخ المصرى . أما التماثيل الجالسة فى عهد الدولتين الوسطى ، والحديثة فقد اتخذت شكل الوضع الذى كان متبعا فى سقارة مع بعض التجديد بأن تكون اليد اليمنى مقلوبة إلى أسفل ، وكذلك ظهر لأول مرة وضع

ليدين مفتوحتين على فخذى التمثال الجالس فى الدولة الوسطى ، وهناك أوضاع أخرى يمكن مشاهدتها فى مجموعة تماثيل الدولة القديمة .

الصناعات الدقيقة

ذكرنا فى عهد ما قبل الأسرات أنه وجد فى بعض المقابر ، قطع فنية تدل على نبوغ المصرى منذ ذلك العهد السحيق فى صنع حليه ، وأدواته المأتمية . ولا بد أنه كان بطبيعة الحال يستعمل مثلها فى حياته الدنيوية ، ولذلك نعتبر أنه ضرب من السخافة والغلو ، ما يقال عن المصرى من أنه كان يصنع هذه الأشياء ، لغرض دينى محض . إذ الواقع أن المصرى كان يعتقد أن الحياة الآخرة هى صورة مطابقة للحياة الدنيا ؛ وأن ما كان يستعمل فى دنياه يمكن أن يستعمله فى آخرته ، ولذلك نجد كثيرا من الأدوات المنزلية المستعملة ، قد وضعت مع المتوفى فى القبر ؛ وما ذلك إلا ليستمر فى استعمالها فى الآخرة . ولا نكون مغالين إذا قلنا إن المصرى كان يتذوق الفن لأجل الفن من هذه الناحية ، ويتقنه لحبه للإتقان لا لأجل أن يستعمله فى قبره فحسب . لذلك إذا تكلمنا عن أثاث المتوفى فى قبره فإنما نتكلم عن أثاثه فى بيته ، إذ كان الأول صورة من الثانى .

الاثاث الدنيوى كان يستعمل أثاثا جنازيا

وقد ظهرت بعض صناعات دقيقة ، بلغت من الكمال حداً بعيداً ، فى عهد الدولة الطينية ، ولا ادل على ذلك من قطع الأثاث ، والألواح المرصعة بالعاج والمعادن التى كشف عنها فى سقارة ، والعرابة المدفونة .

مما ينبىء عن مهارة وحسن ذوق فى الزخـرفة يسترعيان النظـر . يضاف إلى ذلك المجوهرات التى وجـدت فى قبر الملك «زر» ، إذ نجـد فى نظمها ورشاقة تأليف مجاميعها من خرز ، وتعاويذ ذات ألوان مختلفة ما يجذب النظر ويستوقفه إعجابا ودهشة .

بعض بدائع حلى العصر الطينى

ويجب أن نذكر هنا على وجه خاص سوار كل ما فيـه من زخرف هو إفريز وجهات القصر الملكى يعلوه صور الإله « حور » . وأهم ما يلفت النظر فى هذه الفنون الجميلة ؛ أنه ليس فيها ما يمله النظر . ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدم استعمال مادة واحدة ؛ إذ كان وقتئذ الذهب والفيروز يستعملان . وتدل الأشكال المصنوعة من الأول فى هذا الحين على أن صناعته كانت قد تقدمت أكثر من صناعة الثـانى ، مما يدل على أن صيـاغ هذا العصر ، كانوا قد تقدموا فى صناعتهم فى زمن قصير جدا .

تقدم الصناعة فى هذا العصر

وتدل الآثار المكشوفة فى مقبرة « حمكا » على أن المدنية المصرية قد بلغت شأوا بعيـدا فى أواسط الأسرة الأولى ؛ إذ تعتبر المجموعـة التى وجدت فيها من الأسلحة ، والأدوات المختلفة التى صنعت بإتقان ، فريدة فى بابها . يضاف إلى ذلك مجموعة ثمينة من الأقراص رصعت من مواد مختلفة (الحجر ، والنحاس ، والخشب ، والعاج) وقد ثقب كل منها فى وسطه بثقب ينفذ منه عصا ، ولم يعرف إلى الآن استعمال هذه الأقراص . وقد زينت رقعة بعضها بمناظر صيد برية ، وبحرية ، أو بأشكال هندسية تنم عن رشاقة خلابة ترجع إلى المهارة التى استعملها الفنان فى ترصيعها بالألوان المختلفة وإلى انسجام تأليف المناظر وتوزيعهـا حول العصا التى فى رقعـة القرص ؛ وإلى الإتقان الفنى الذى أظهره الفنان فى كل هذه الأشكال المرصعة

القطع الفنية التى عثر عليها فى مقبرة « حمكا »

ولا يفوتنا أن نذكر هنا قطعة من الحجر الجيرى الأبيض عثر عليها فى هذه المقبرة وقد رسم عليها ثور بالألوان ولا يبعد أن يكون هذا أول رسم ظهر فى التاريخ للعجل «أبيس» إذ نجد فى شكله كل ماينطق على صفات هذا العجل التى عرفناها فيما بعد.

أما فى عهد الأسرات التى تلت فلدينا بعض أمثلة تدل على أن الفن فى هذه الفترة كان سائرا فى طريقه نحو الرقى ، وبخاصة فى عهد الأسرة الرابعة . إذ نجد صناعة المعادن ، وصناعة الأوانى من الحجر والفخار ، وصناعة الأخشاب ، وكل الصناعات الأخرى الدقيقة ، قد برع فيها الصانع الفنان وضرب فيها بسهم صائب فى الرونق والجمال والرشاقة بما قد يكون بلغه فنان عهد الأسرة الثالثة . ولكن لم يفقها بعد صناعة فى العصور التى تلت . وأعظم نموذج لصناعة هذا العصر ، الكنز الذى عثر عليه فى مقبرة الملكة «حتب حرس» والدة الملك «خوفو» ، إذ نشاهد من بين طرائفه المحفة ذات الشكل الأنيق والزخرف البسيط مما يشهد بمقدار ماوصل إليه الصانع فى هذا العصر من الذوق الفنى الراقى . أما الخلاخيل المصنوعة من الفضة ، والمحلاة برسوم على شكل ذباب ضخم والمرصعة بالفيروز ؛ واللازورد فتعد من النفائس التى يفخر بها فنان أى عصر من عصور التاريخ هذا إلى أن الألواح المطعمة بالقاشانى والذهب قد صنع بعضها وفق أشكال معروفة ، وبعضها وفق أشكال لم تكن فى الحسبان ، وكذلك الأشارات الهيروغليفية المصنوعة من الذهب على إطار المحفة وأدوات الغسل والزينة المصنوعة من الذهب أو النحاس ، وثلاثة الأوانى التى من الذهب النضار ويفوق كل ذلك النقوش العجيبة التى على جانبى باب الكوة التى تضم

ازدهار صناعة المجوهرات فى عهد «خوفو»

كنز «حتب حرس»

سرير الملكة . كل ذلك يضع أمامنا صورة ناطقة لقوة الاختراع ، والمهارة ، والذوق السليم فى عهد أسرة « حتب حرس » . وتدل شواهد الأحوال ، وظروف كشف هذا الكنز على أن معظم هذه الأدوات قد نقلت من قصرها الخاص لتكون معها فى مقرها الأخير . ولا غرابة فى هذا فإن « حتب حرس » هى أم الأسرة الرابعة ونسلها هم الذين بلغ فى عصرهم فن المعمار والنحت مبلغا لم تفقه أسرة من الأسر التى تلت .

على أن هذه المهارة فى الحرف الدقيقة لم تكن وقفا على فنانى الملوك وصناعهم بل وجدنا كذلك مايثبت أن علية القوم ومتوسطى الحال منهم كانوا يصنعون لأنفسهم جواهر ومصوغات تعد من فرائد الفن المصرى حتى الآن . وقد جادت الصدف بالعثور على حجرة دفن لم تمس لسيدة يدل قبرها على أنها من أصحاب اليسار وإن لم تكن من علية القوم (1) . ومن هذه المقبرة يمكننا أن نعرف على وجه التقريب مقدار تذوقهم للفن ، وللصناعات الدقيقة . وقد عثر على نفائس هذا القبر داخل التابوت الحجرى الذى فيه السيدة ، وكان أول مالفت النظر عند رفع غطاء التابوت ، التاج المصنوع من الذهب الوهاج الذى كان يحيط برأس تلك السيدة ويتألف من شريط طوله ٣٨ س م ، وعرضه ٢٥ س م محلى بثلاثة أقراص من الذهب كل منها مرصع بفص من الكرنلين (حجر يشبه العقيق) . وهذا الشريط المصنوع من الذهب الخاص مثقوب فى وسطه وعلى مسافتين متساويتين من الثقب الأوسط يوجد ثقبان آخران ، وذلك ليثبت فيه ثلاثة الأقراص الذهب بأربطة أسطوانية الشكل ؛ وقد نقش

---

(1) S. Hassan, Excav. at Giza, Vol. II, p, 149 pls. L, LI, LII, etc.

القرص الذى يتوسط التاج برسم أربع من أزهار البشنين . أما الرسم الذى على كل من القرصين الجانبيين فيحتوى على زهرتين مفتحتين من أزهار البردى يتقابلان عند فص مستدير مرصع فى القرص ؛ وعلى كل من الزهرتين قد حط طائر يعرف باللغة المصرية القديمة « أخو » ينقر بمنقاره نهاية الزهرة . وكان يحمى هذا التاج آخر من النحاس الموشى بورقه رقيقة جدا من الذهب ، كأنها الهباء لتستر لون النحاس الذى يقبل الصدأ بسرعة وكان هذا الشريط كذلك مثقوبا مثل الشريط الذهبى فى ثلاثة مواضع فى كل ثقب مسمار من النحاس . قد استعملا لحمل التاج الذهبى خوفا من تثنيه . وقد عثر الأستاذ « أشتايندورف » على تاج مثله من النحاس فى منطقة الأهرام سنة ١٩٠٣ . ومن المحتمل جدا أن صانعهما واحد ، وقد قال الأستاذ « شيفر » العالم الأثرى الألمانى أن الطائر الذى ينقر الزهر هو « الغرموق » (مالك الحزين) ولكنه فى الواقع الطائر الذى يسمى الكركى « إيبس » ؛ وهذا التاج يعد من فرائد الفن التى أخرجتها يد الصانع فى هذا العهد . وعثر حول رقبة هذه السيدة على قلادة جميلة الصنع من الذهب تحتوى على خمسين قطعة كل منها يمثل خنفساء ، وقد نظمت كلها فى خيط من الذهب يمر فى وسط كل منها ، ومن المحتمل جدا أن كلا من هذه القطع كان يعد تعويذة يرمز بها للإلهة « نيت » وأن السيدة التى نظمت هذا العقد بهذه الكيفية كانت ترغب فى حماية هذه الإلهة ولا يمكننا أن نعرف للآن لماذا كانت هذه الحشرة رمزاً للإلهة « نيت » ، ومن المحتمل جدا أنها الحشرة « عنخ » (الحياة) التى ذكرت فى متون الأهرام[1]

كنز عثر عليه فى مقبرة بجفائر الجامعة بمنطقة الهرم من عهد الاسرة الرا

(1) Pyr. 1301, C, etc.

ويظن بعض العلماء أنها الحشرة المقدسة التى سبقت « الجعل » (الجعران) وكانت الأولى تقدس منذ قبل الأسرات إلى الدولة القديمة والثانية كان تقديسها شائعا فى العصور التى تلت إلى نهاية التاريخ المصرى . وعثر على قلادة أخرى حول رقبة هذه السيدة يستدل من نظمها على أناقة الجنس اللطيف فى هذا العصر ، وتتألف من محبسين من الذهب بينهما حبات من الذهب والخرز وقد وجد مع هذه القلادة ست قطع من البرنز الموشى بالذهب كل منها على شكل حرف النون بالمصرية أى كموج الماء وهذه كانت تنظم على مسافات متساوية فى وسط القلادة لتعطيها صلابة ومتانة .

أما جثة هذه السيدة فوجدت مغطاة بثوب مصنوع من الخرز ، وفى أطرافه قطع من النحاس مخروطية الشكل كانت توضع كأهداب لتجعله مسدلا على الجسم بدون حركة كثيرة . وقد عثر على قطع متماسكة تدلنا على كيفية نظم الخرز على هذا الثوب.

وكذلك عثر فى مقبرة الأميرة « حمتْ رع » فى حفائر الأهرام ، على رسم ثوب محلى بالخرز بألوانه الزاهية . أما أعجب ما كشف فى هذه المقبرة فعقد قد انفرط نظمه ، وهو يتألف من حبات من الفيروز بلغ من دقتها وصغر حجمها أنه لا يمكن أن يلتقطها الإنسان بطرفى أصبعيه ، ومما يزيد العجب والدهشة أنها مثقوبة ولا يمكن لأى خياط أن ينفذ منها مهما كان دقيقا ، وهذه الحبة نفسها كانت مركبة داخل أخرى من الذهب مثقوبة أيضا ؛ وقد عثر على آلاف من هذه الحبات ، ولم يمكن نظمها للآن . وليس لدينا أى تعليق على كيفية صنعها غير أننا نتساءل عن تلك الآلات المتناهية فى الدقة التى استعملت فى ذلك العهد السحيق

دقة قطع الخرز وصنعه

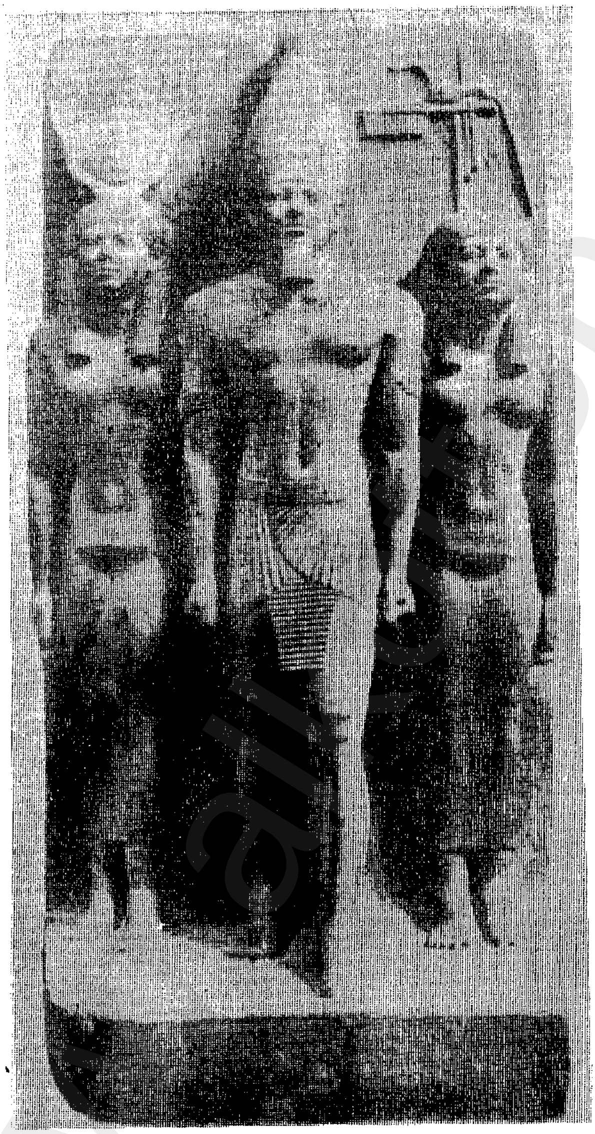
عهد الأسرة الرابعة أى منذ خمسة آلاف سنة تقريبا لصنع هذه الحبات . وأظن أن الجواب على ذلك سيبقى من المعضلات وينضم إلى المعضلات المصرية الأخرى التى لم يهتد لحلها بعد .

وقبل أن نختم كلامنا فى هذا الفصل الموجز عن الفن عند قدماء المصريين نقول أن كل فن فى أية بقعة من بقاع العالم لا بد أن يمر بأطوار ثلاثة . النشوء ، والارتقاء ، ثم الانحطاط . وأنه لم ينشأ فن فى بلد ما لأجل الفن بل كان دائما بداية نشأته المنفعة قبل كل شىء ففن الرسم والتصوير والنحت فى كل التاريخ القديم كان الغرض منه السحر والدين ، وقد استمرت هذه البواعث هى المقصودة ولكن على مر الأيام تربى الذوق الفنى وأصبح الفنان يتذوق فنه فبرع فيه حتى بلغ القمة ، وبعد ذلك يأخذ الفن فى الانحطاط لأسباب عدة منها ما هو دينى ومنها ما هو اقتصادى ولكن الروح القديمة التى حافظت عليها التقاليد تنبعث من وقت لآخر فى وسط هذا الانحطاط فتبرز لنا بعض قطع ممتازة تظهر لنا جمال الفن المصرى كما كان فى عهد عنفوانه فى وسط التدهور الذى حاق به .

الادوار التى يمر بها الفن



الملك «خفرع» ويعد أجمل قطعة حفرت فى حجر الديوريت



الملك «منكاورع» ممثل بين إلهتين ، عثر عليه في معبد الوادي لهرمه بالجيزة.

مصادر فصل الفن

إن معظم ما كتب عن الفن المصرى لايمكن فصله عن المعتقدات الدينية، إذ كان كل منها يؤثر فى الآخر لأن العقائد الدينية كان لها القدح المعلى فى تسيير الفن وتطوراته ولذلك نجد أحيانا مظاهر فى الفن لاتتفق مع ذوقنا الحديث ولكن كان لابد من وجودها خضوعا للمؤثرات الدينية والجنازية واهم المصادر التى استقينا منها هذا الفصل مايأتى:

(1) Capart, Les Débuts de l'Art en Egypte, Bruxelles, 1931.

ويبحث عن بداية الفن فى مصر بدقة وعناية.

(2) H. Schäfer, Von Ægyptischen Kunst, 3rd Ed. Leipzig 1930.

يعد هذا المؤلف أكبر عمدة في تاريخ الفن المصرى

(3) Schäfer, und Andrae. Die Kunst des Alten Orient, Berlin, 1925.

هذا الكتاب يبحث عن تاريخ الفن فى الشرق القديم وبه فصل ممتع عن مصر بقلم الأستاذ شيفر.

(4) Bissing, Ægyptische Kunstgeschichte, Berlin, 1934-35.

يشمل هذا الكتاب تاريخ الفن المصرى منذ البداية حتى الفتح العربى والمؤلف له آراء خاصة فى الفن المصرى.

(5) Klebs, Die Reliefs des alten Reiches .

هذا المؤلف يشمل كل مناظر الحياة والصناعات والحرف فى عهد الدولة القديمة فى صور متقنة متبوعة بالشرح.

(6) Maspero, Histoire générale de l'art en Egypte,Paris 1911 (Ars Una)

يعتبر مؤلف الأستاذ مسبرو هذا من امتع الكتب عن الفن. ورغم قدم ارائه فإنه لايزال يعتمد عليه فى كثير من البحوث.

(7) Petrie, The arts and crafts of Ancient Egypt, London, 1923.

هـذا الـكتاب مختصر بسيط عن الفنون والحرف فى مصر فى كل عصورها وقد ترجم للفرنسية .

(8) Perrot et Chipiez, Histoire de l'art, dans l'antiquité t. I. : L'Egypte, Paris, 1882.

رغم قدم هـذا الكتاب فإنه يعد من الكتب الهامة فى تاريخ الفن المصرى المقارن .

(9) Boreux, L'art Egyptien, Paris, 1926.

هذا الكتاب مختصر صغير عن الفن ويمتاز بصوره المتقنة .

(10) Capart. Documents pour servir à l'Etude de l'art égyptien 2 Vol. Paris 1927-31

صور هذا المؤلف غزيرة ومفيدة فى دراسة تدرج الفن .

(11) Steindorff. Die Kunst der Aeypter, Leipzig, 1928.

يتناول هـذا الكتاب فن البناء والتمـاثيل والصناعات الدقيقة بطريقة سهلة .

(12) H. Ranke. The Art of Ancient Egypt. Vienna - London

وأهم بحوثه فن البناء والنحت والرسم بالألوان والفن التطبيقى .

(13) Borchardt, Statuen und Statuetten Von Konigen und privatleuten, 5 vol. 1911-1836.

فى هذا المؤلف أكبر مجموعة عن التماثيل فى الدولة القديمة ومنها عملت كل المقارنات التى تكلمنا عنها فى فصل الفن .

(14) Reisner, Mycerinus, Cambridge, Massachusetts, U. S. A. 1930.

كتب الأستاذ ريزنر فى هـذا المؤلف فصلا هاما عن التماثيل من (١٠٨ إلى ١٣١) فى عهد الدولة القديمة وخاصـة فى عهد الأسرة الرابعة .

العلوم المصرية

يعزو المصرى كل ما وصل إليه من علوم ومعارف إلى الإله تحوت (إله القمر) ، وبخاصة علوم الفلك والحساب والطب ، ولا غرابة فى ذلك فإن الكهنة كما يقال كانوا هم الطائفة المتعلمة فى البلاد منذ فجر التاريخ ، وقد بقوا كذلك طوال مدة التاريخ المصرى . فكانوا ينسبون كل ماهو مشرف وكل ما هو عظيم لآلهتهم ، ولكن كل ذلك كان من نسج خيال هؤلاء الطائفة رغم تبحرهم فى العلوم . والواقع أن الحاجة وسنة الرقى والبيئة كانت الدافع الأكبر للتطور الذى نجده سائرا نحو الكمال فى الحياة المصرية العلمية والعملية على السواء فنشاهد أن ما كانت تحتاج إليه البلاد من أعمال الرى العظيمة وإقامة المبانى الضخمة كالأهرام والمسلات والمعابد وقطع التماثيل الهائلة ، كل هذا كان يتطلب تعمقا فى المسائل الميكانيكية العلمية ، والهندسة التطبيقية ، مما كان لازما لنقل الأثقال وإقامتها فى أماكنها المخصصة لها . هذا إلى أن التفنن فى صناعة المعادن ، وعمل الفخار ، والزجاج الملون ، والقاشانى قد كشف للمصرى عن خواص الأشياء الطبيعية والكيمائية مما جعله ينفرد عن باقى العالم بالنبوغ فى العلم الذى اشتق اسمه من كلمة « كمى » المصرية ولذلك كان المصرى أول من حنط الأجسام وعرف تشريحها .

تحوت إله العلم

الحاجة أم الاختراع

وتدل الأبحاث العلمية على أن المصرى كان ماهرا فى العلوم التطبيقية وفى المسائل الفنية ، ولكنه لم يكن موهوبا فى البحوث النظرية المحضة ولذلك يقول « هردوت » ، أن علم الهندسة كان وليد الحاجة عند

تفوق المصرى فى العلوم التطبيقية

المصرى وذلك عندما اراد أن يقسم الأراضى الزراعية إلى **قطع منتظمة** .
وعلى أية حال نرى الحالة الاجتماعية فى وادى النيـل **قد حتمت** نشوء
نظـام ثابت عام للمقاييس . وقد استعمل المصرى فى المقاييس السطحيـة
الذراع والشبر والقبضة والأصبع والقيراط وكان الذراع العادى يساوى ٤٥٠ ر٠
من المتر والذراع الملكى ٥٢٥ ر من المتر وهـذان المقياسان كانا
يستعملان فى المبانى العادية . أما فى حساب المساحات الكبيرة [1] فكان
يستعمل مقيـاس يسمى « إنترو » وهو « سونيوس » الأغريق و يساوى
تقريبا نحو ٥٠٠٠ ذراعا . وكان المساحون الملكيون يقيسون الأرض بوحدة
تسمى « ستـا » وتساوى نحو ٢٧٥٦ مترا مربعا وكانت وحدة المكاييل
تسمى « هنو » ويساوى ٤٥ سنتيمترا أما معيار الوزن فكان « الدبن »
ويساوى نحو ٩٢ جراما . واستعمل المصرى الميزان لوزن الأشياء العادية
وبخاصة التى كانت تحتاج إلى دقة .

سبب اختراع علم الهندسة

ولم تكن النقود بالمعنى المتعارف بيننا معروفة عند المصريين حتى العصر
الفارسى ، ولكن كان يوجد لديهم معيار لتقدير قيمة الأشياء يسمى « شعت »
للدفع به أو للمبادلة بما يساوى قيمته كما شرحنا ذلك .

علم الرياضيات

تدل الوثائق التى فى متناولنا على أن المصرى كان يستعمل الأرقام
فى الحساب منذ فجر التاريخ بل قبل عهد الأسرات بقليل ، ولكن لم تصل
إلينا وثائق مكتوبة عن الرياضيات إلا منذ زمن الأسرة الثانية عشرة .

---

(1) Griffith, Proc. S. B. A. 1892 p. 403.

ويمكننا أن نؤكد أنه منذ عهد الملك « نعرمر » كان يوجد فى مصر نظام الأرقام بكل علاماته حتى العلامة التى تدل على ألف يضاف إلى ذلك أن نقوش حياة « متن » قد كشفت لنا عن وجود مقاييس للأراضى ، وقد حصل عليها بنفس الطريقة التى كانت متبعة فى ورقة (رند) التى يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الوسطى . وقد أعطى فيها مساحة سطح المستطيل مضبوطة . وكان المصرى قد اتخذ وحدة للمقاييس السطحية الكبيرة « الحكات » وقد جاء ذكر ذلك فى أوراق بردية ترجع إلى الأسرة السادسة (1) ومن المحتمل أنه كانت توجد وحدات للموازين أيضا .

ظهور الارقام منذ فجر ما قبل التاريخ

وخلافا لما ذكرنا لانجد لدينا ما يسمح بتتبع تاريخ بداية علم الرياضيات فى مصر حتى الأسرة الثانية عشرة . وهى الفترة التى نجد فيها وثائق عظيمة ذات اصطلاحات ثابتة . وهذه الوثائق هى ورقة مسكو وورقة كاهون وبرلين . وكذلك يعزى إلى هذا العصر ورقه رند (2) وإن كانت النسخة التى وصلت الينا كتبت فى عهد الهكسوس . ومن هذه الوثائق يمكننا أن نأخذ فكرة عن علم الرياضيات المصرى قبل أن يتأثر بالرياضيات الإغريقية .

الاوراق الرياضية التى وصلت إلينا

وسنترك أوراق الدولة الوسطى جانبا الآن ونقتصر فى كلامنا على ورقة (رند) التى يعتقد بعض المؤرخون أنها كورقة « ادون سميث الطبية » ترجع إلى عصور قديمة جدا قبل الدولة الوسطى .

وقد اشترى رند هذه الورقة عام ١٨٥٢ من أحد المبانى الأثرية

(1) Z. A. S. 48, p. 100. (2) Peet, The Rhind Mathematical Papyrus p. 9.

الواقعة بجوار معبد الرمسيوم بالأقصر وكان معها ورقة « ادون سميث » الطبية التى نتكلم عنها فيما بعد . وقد ذكر كاتب الورقة أنها كتبت فى السنة الثالثة والثلاثين من حكم الملك « أبو فيس » وهذه النسخة منقولة عن أصل من عهد الدولة الوسطى .

وقد قسم الأستاذ « بيت » محتويات هذه الورقة إلى أربعة أقسام : الأول : المقدمة : وتحتوى على جداول لحل الكسور التى بسطها اثنان . والباقى ثلاثة كتب : الأول عن الحساب ، والثانى عن المقاييس ، والثالث عن مسائل حسابية والكتاب الثانى قسم إلى ثلاثة أقسام هى : كتاب الأحجام والاحجام المكعبة ، وكتاب المسطحات ، وكتاب زوايا الميل الهندسية . ورقة رند ومحتوياتها

وقد عرض المؤلف بعض مسائل حسابية عن الدخل والخرج فى مصالح خزينة الدولة وعن المبادلات .

وقد استعمل فى العمليات الحسابية الجمع والطرح والضرب والقسمة ، غير أنه كان يستعمل فى الضرب والقسمة طريقة الجمع فمثلا لإيجاد حاصل ضرب ٨ x ٨ كانت المسألة تحل بالكيفية الآتية :

مسألة ضرب

١	٨		٨	(مرة واحدة)	يساوى	٨
٢	١٦		٨	(مرتين)	«	١٦
٤	٣٢		٨	(أربع مرات)	«	٣٢
٨	٦٤		٨	(ثمانى مرات)	«	٦٤

أما فى عملية القسمة فلنأخذ مثلا رقم ٧٧ مقسوما على ٧ فتكون نتيجة ترتيبه كالآتى :-

١	٧	فاستعمل نفس الطريقة الأولى فى الضرب وجعل
٢	١٤	يأخذ من جهة اليسار الأرقام التى يكون مجموعها ٧٧
٤	٢٨	فكانت ٧ و ١٤ و ٥٦ ثم أخذ ما يقابل هذه الارقام
٨	٥٦	من جهة اليمين فكانت ١ و ٢ و ٨ أى مجموعها رقم ١١.

مسألة قسمة

حساب الكسور

أما حساب الكسور فكان ساذجاً إذ كان المصرى يستعمل فى العادة البسط ١ فاذا أراد مثلا ان يكتب الكسر $\frac{٥}{٦}$ كتبها كذلك $\frac{١}{٦}$ $\frac{١}{٦}$ $\frac{١}{٦}$ $\frac{١}{٦}$ $\frac{١}{٦}$ ومع ذلك نجد مستعملا فى كسورهم $\frac{٢}{٣}$ و $\frac{٣}{٤}$ وأحيانا كان الكاتب يريد أن يتلهى بهذه الاصطلاحات الكسرية فيعبر عن الرابع والعشرين من الشهر بالكيفية الآتية : $\frac{٢}{٣}$ $\frac{١}{١٠}$ $\frac{١}{٣٠}$ يوماً فعلينا أن ناخذ $\frac{٢}{٣}$ من الشهر أى ٢٠ يوما ثم $\frac{١}{١٠}$ من الشهر أى ٣ أيام وأخيراً $\frac{١}{٣٠}$ من الشهر أى يوماً واحداً فيكون مجموع الايام التى يقصد التعبير عنها ٢٠ + ٣ + ١=٢٤ يوما وسنكتفى هنا بهذا القدر عن الرياضيات فى عهد الدولة القديمة على أن نعود للموضوع بإسهاب عند الكلام عن الرياضة فى عهد الدولة الوسطى والحديثة .

علم الفلك عند قدماء المصريين

إن معلومات المصريين العامة عن علم الفلك لا تختلف كثيرا عن المعلومات الكلدية الأشورية فيما يختص بالأجرام السماوية ؛ وتدل المصادر الوثيقة على أنه كان هناك علاقات متصلة بين القطرين منذ حوالى ٢٤٠٠ق م وهو العهد الذى نزحت فيه أقوام كلدية وأشورية إلى أراضى الدلتا(1) .

ولا بد أنه كانت توجد بين البلدين علاقات قبل هذا الوقت ولكنها كانت ضئيلة .

وتنحصر مميزات الفلك المصرى على وجه خاص باختراع النتيجة المصرية التى تكلمنا عنها فى (الجزء الأول ص ١٥٢) . على أن بعض علماء الفلك عارض أخيرا فى البحوث التى قام بها العلماء فى موضوع النتيجة المصرية قائلا إنها لا ترتكز على أساس علمى .

والواقع أن المصرى القديم كان يمتاز عن باقى أمم العالم بقوة ملاحظاته وميله إلى الأشياء العملية وبعده عن الفلسفة ونظرياتها كما نرى ذلك فى بحوثه فى علم الرياضة والطب والهندسة وغيرها . رصد الشمس

ولا أدل على ذلك من أنه كان فى (عين شمس) كاهن كان خاص لمراقبة سير الشمس يسمى الرائى العظيم ، وكذلك كان فى المعابد جماعات كهنة لمراقبة سير النجوم . على أن تقسيم السنة إلى أشهر قمرية كل منها ثلاثون يوماً ، أكبر دليل على معرفة تامة بمنازل القمر .

اما النجوم فتذكر لنا متون الأهرام من عهد الدولة القديمة أنها كانت

(1) Moret, Des Clans aux Empires, p. 246.

تنقسم إلى نوعين : النجوم التى لا تفنى « إخموسك » أى التى تكون دائما ظاهرة فى السماء . ثم النجوم التى لاتتعب وهى النجوم السيارة « إخموورز » وقد عرف المصرى من الأخيرة الخمسة التى ترى بالعين العارية وهى المشترى وزحل ، وعطارد ، والمريخ ، والزهراء . وقد شوهدت منذ الدولة القديمة على الأقل . أما النوع الثانى فينحصر فى ٣٦ نجما (1) قد خصصها المصريون لمعرفة الوقت . وكان كل منها فى نظرهم يعتبر إلها لعشرة أيام من الثلثمائة والستين يوما التى تتألف منها السنة البسيطة ويخرج من ذلك أيام النسىء الخمسة . وأقدم قائمة بأسماء هذه الآلهة وجدت على غطاء تابوت من الدولة الوسطى فى طيبة وقد عثر على قوائم أخرى لهؤلاء الآلهة فى مقابر الملوك « سيتى الأول ورعمسيس الرابع » وكذلك وجدت مرسومة فى سقف معبد الرمسيوم وفى معابد البطالسة . أما البروج الاثنا عشر فلم تظهر إلا فى العصور المتأخرة جدا وقد استعيرت أسماؤها من أسماء البروج اليونانية التى نقلتها بدورها عن الكلدية فهى ليست مصرية وهذه البروج هى : الحمل والثور ، والقوس ، والعقرب ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة والميزان ، والدلو ، والحوت ، والجدى والجوزاء .

أنواع الاجرام السماوية عند المصرى

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن أسماء الشهور التى تعزى إلى مصر قديمًا قد نشأت فى العهد الإغريقى القبطى ، غير أن أسماءها قد أخذت من أسماء أعياد قديمة كانت تقام للآلهة الذين سموا بها وهى خمسة أيام النسىء ثم توت وبابه وهاتور وكيهك ويتألف منها فصل الفيضان ، ثم طوبة

أسماء الشهور ظهرت فى العصر المتأخر

(1) Ann. du Serv. Ant. t. I, p. 79. ; Spiegelberg Z. A. S. t. XLVII p. 146 ; XLIX p. 67. ; LVI p. 202.

وأمشير وبرمهات وبرمودة ويتألف منها فصل طلوع النبت ، ثم بشنس ، وبئونة وأبيب ومسرى ويتألف منها فصل الصيف . وكان اليوم فى نظرهم ينقسم إلى اثنتى عشرة ساعة نهاراً واثنتى عشرة ساعة ليلا مهما كانت فصول السنة وقد كانت تقاس أوقات اليوم بساعات على أنواع مختلفة منها الساعات الشمسية أو المزولة وهى آلة تعرف ساعات النهار بوساطة الظل ولا يزال الفلاح المصرى يستعملها حتى الآن (1) ، وساعة مائية وهى اناء ذو حجم معين مقسم إلى أقسام كل منها يفرغ فى زمن محدد وقد عثر على واحدة منها (2) أما خلال الليل فكانت كذلك تعرف الساعات بمراقبة النجوم ورصدها .

رصد النجوم

وقد عثر فى مقابر الملوك من عهد الأسرة العشرين على قوائم نجوم بعضها خاص بالنصف الأول من الشهر وبعضها خاص بالنصف الثانى منه ، وقد عمل هذا الرصد بالنسبة لبعض أجزاء الجسم (على الرأس أو على ارتفاع العين أو الكتف) لرجل جالس أمام الراصد وهذا الراصد كان يرصد النجوم بآلة معلق بها خيط فيه ثقل . ويلاحظ أن الراصدين كانا فى الجهة الجنوبية (3) .

وقد كان يوجد بجانب علم الفلك الحقيقى علم التنجيم وكان يعتقد فيه المصريون كثيرا . إذ كان لكل شهر ولكل يوم ولكل ساعة إله حارس يتدخل فى أقدار الناس وحظوظهم سعيدة كانت أو شقية . وقد

(١) ويلاحظ أنه فى احدى مواقع تحتمس الثالث فى ممر (ألوانا) و(مجدو) فى جبال الكرمل نقرأ أن الجيش كان يسير فى وقت الظهيرة « فى الساعة التى رجع فيها الظل »
Moret, Le Nil, p. 315.
(2) Erman-Ranke, Ægypten, p. 400. (3) Z. A. S. t. XII p. 222.

وقعت بعض حوادث الآلهة في تواريخ معينة فكان منها ماهو سعد وما هو بؤس . وكان من فائدة بنى البشر أن يعرفوا هذه الأوقات ولذلك ألّف الكهنة والسحرة كتبا في هذا الموضوع وأقدمها يرجع إلى عهد الدولة الوسطى وقد عدد فيها أيام الشهر ونعت بعضها بكلمة (خير) أو بكلمة (شر) أو (خير وشر) معا حسب الوقت فنجد في الشهر تسعة أيام شرا وثلاثة أيام خيرا وشرا معًا وما بقى خيرا .

علم التنجيم

ولدينا ثلاث ورقات من عهد الدولة القديمة تشمل كل منها أيام السنة وتمتاز بأنها عرفتنا السبب الخرافي للسعد أو النحس ، والخير أو الشر ، وقد كان الأخير يكتب بالمداد الأحمر لون الإله « ست » رب الشر .

وقد طبع العالم شاباس إحدى هذه الأوراق باسم نتيجة السنة للأيام السعيدة وأيام النحس (1) . فمثلا يقول أن يوم ٢٦ توت يجب ألا يعمل فيه شيء قط لأنه اليوم الذى تحارب فيمه « حور » مع « ست » فهو مثلث شر ، على حين أن اليوم السابع والعشرين من شهر هاتور هو يوم الصلح بين « حور » و« ست » فهو مثلث سعد . الخ

وكانت هذه الأوراق تلف بعناية وتستعمل تعاويذ تقى حاملها الشر وتمنحه الخير .

وقبل أن نترك موضوع الفلك عند المصريين ذكر العالم « ابل رى » أن الفلك المصرى لا يختلف عن الفلك الكلدى والصينى فى عامته إلا فى نقطتين (2) : الأولى أننا لا نجد فى الفلك المصرى أية إشارة إلى خسوف

(1) Le Nil p. 531.
(2) Abel Rey, La Science Orientale avant les Grecs, p. 301.

القمر وقد يعزى هذا إلى قلة المصادر لدينا مع أنه قد وجد على الآثار المصرية إشارات فلكية عدة لم يأت فيها ذكر خسوف القمر ورسمه بهذه الحالة قط خلافا للآثار الكلدية والصينية ، هذا رغم أن « أرسطو » قد ذكر لنا أن المصريين كانوا يرصدون سير الفلك من زمن بعيد جدا والظاهر أن هذا الموضوع كان فى نظر المصرى ثانويا .

النقطة الثانية ولها علاقة بالأولى : هى أن القمر لم يلعب إلا دورا ضئيلا جدا بالنسبة لأهميته فى كلديا والصين . إذ لا نجد له (خلافا لتعداد الأشهر بوساطته) أى دور هام فى علاقته بالشمس كما هو الحال فى كلديا فمن ذلك نلاحظ أن القمر لم يلفت نظر المصريين كالشمس أو النجوم . والواقع أن أساس الفلك المصرى يرتكز فى معظمه على النجوم مما يدل على روح قوة الملاحظة العملية التى كانت تميز المصرى فى كل أعماله . ولكن كشف حديثا فى منطقة أبو يس بالشرقية عن غطاء تابوت للعجل « با كا ور » معبود هربيط منقوش عليه منازل القمر فى بروجه المختلفة أثناء الشهر والسنة كلها وعددها ٣٦ منزلا (1)

الطب

ذكرنا عند الكلام على الطقوس الدينية للدفن فى عصر ما قبل الأسرات أن المصريين كانوا أحيانا يشرّحون الأجسام الآدمية وينتزعون ما عليها من لحم ثم يلفون العظام بكل دقة وعناية ويضعونها فى المقابر (أنظر جزء أول ص٧٧) وفى هذا دليل على أن المصرى كان منذ الأزمان المتوغلة فى القدم

(١) وقد كتب عن ذلك العالم «بورخارت» ضمن مذكراته الخاصة وأرسل لمدير حفائر أبو يس خطابا يشرح فيه هذا الكشف والمذكرات الخاصة بالكشف المذكور لم تظهر إلى عالم الوجود بعد.

يعرف تشريح الجسم وفصل أجزائه المختلفة بعضها عن بعض.

وفى العصر الطينى رأينا المصرى يحنط الجسم منذ الأسرة الثانية وهذا دليل آخر نعلم منه أن المصرى كان يعرف تشريح الجسم ومعالجته ظاهرا وباطنا وإن كان بعض العلماء يعتقد أن المحنطين كانوا طبقة خاصة غير طبقة الأطباء كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

علم التشريح منذ عصرما قبل الاسرات

وعلى أية حال فإن المصرى منذ فجر التاريخ كانت عنده فكرة واضحة عن الأمراض وأسبابها وطبائعها.

ولا شك فى أن علم الطب قد اكتسب فى مصر أولا بالتجارب والملاحظات ثم تلا هذا الدور تعليم فن الطب الحقيقى فى مدارس خاصة ولا غرابة فى ذلك فقد كان الإغريق يشيدون بذكر الأطباء المصريين ويتناقلون كتب طبهم ويحفظونها ليهتدوا بهديها [1].

مهنة الطب فى عهد الدولة القديمة

وتدل النقوش المصرية من عهد الدولة القديمة على أنه كان فى مصر أطباء من كل نوع فى درجات مختلفة، فقد كشف حديثا عن مقابر أطباء فى منطقة الجيزة بحفائر الأستاذ ينكر وحفائر الجامعة المصرية نخص بالذكر من بينهم طبيب القصر الملكى «إرى» [2] ولم يكن «إرى» هذا طبيب القصر الملكى فحسب بل كان رئيس أطباء البلاط، يضاف إلى ذلك أنه كان متخصصا فى مرض العين والأمراض الباطنة ولذلك كان يحمل لقب (الذى يفهم السوائل الداخلية وحارس الدبر) مما يدل دلالة واضحة على أنه كان مختصا بالطب الباطنى وعالمًا بالأمراض الخاصة بأعضاء الهضم. وهذا الاختصاص فى عهد الدولة القديمة يعززه وجود أطباء أسنان للقصر

(1) Moret, Le Nil, p. 523. (2) Z. A. S. t. 63 p.p. 53-70.

الملكى . والواقع أنه عثر فى عهد الأسرة الرابعة على حالة تدل على تقدم جراحة طب الأسنان فى ذلك العهد أى منذ ٢٨٠٠ سنة ق . م . إذ وجد فك فى مقبرة من هذا العهد أجريت فيه عملية فى النتوات السنخية وذلك بثقبها لأجل إخراج المادة القيحية من دمل تحت الضرس الأول[1] كل ذلك يدل على معلومات قيمة مفصلة تشعر بالتخصص فى فروع الطب.

التخصيص بين الاطباء

وتدل النقوش على أن وظيفة الطبيب كان يتناقلها الابن عن الأب كباقى صناعات مصر فى ذلك العهد .

وكلمة طبيب بالمصرية « سنو » ربما كان معناها المصلح او الشافى . والظاهر أن هذه الوظيفة كانت فى بدايتها دينية إذ نجد غالبا أن صاحبها الذى يحمل لقب طبيب كان فى الوقت نفسه كاهنا لإلهة مثل الإلهة « سلكت » أو الإلهة « نيت » .

نشأة الطب فى الوجه البحرى

وتدل الأحوال على أن نشأة الطب كانت فى الوجه البحرى وأن أهم مراكزه كانت المعابد وبخاصة معبد عين شمس ومعبد الإلهة « نيت » فى صا الحجر ومعبد الإله « أنوب » فى بلدة (ليتوبوليس) ومعبد الإلهة « باست » (القطة) فى تل بسطة وكان كاهن تلك الجهة يحمل لقب كبير الأطباء .[2]

وتدل النقوش التى وصلت إلينا على أن أقدم كتاب فى الطب يرجع تاريخه إلى عصر الملك « أوسافيس » (دن) من الأسرة الأولى كما جاء ذكر ذلك فى فاتحة ورقة « إيبرس » (أول كتاب خاص بشفاء الأمراض هو الذى وجد بالكتابة القديمة فى صندوق من عهد

(1) Hooton, Oral Surgery in Egypt during the Old Empire (Harvard African Studies, I) (2) Urkunden, t. I, 42.

الملك « أوسافيس ») ولدينا من جهة أخرى وثيقة من الدولة القديمة (انظر الجزء الأول ص ٣٤٢) تدل دلالة واضحة على أن الملك « نفر إركارع » قد أحضر المخطوطات الطبية من مكانها الخاص لإسعاف مهندسه العظيم الذى كان يحتضر ، وعلى ذلك يمكننا القول بأنه كانت توجد كتب طبية منذ بداية الأسرة الخامسة (منذ ٢٨٠٠ ق . م .) ولكن لم يصلنا منها شىء بخط هذا العهد .

الوثائق الطبية منذ الاسرة الاولى

وكل مالدينا من الأوراق الطبية قد وصلنا من عصور متأخرة عن الدولة القديمة وإن كان بعضها يرجع إلى ذلك العهد وأهمها ما يأتى : (١) ورقة برلين ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (٢) ورقة إيبرس الموجودة الآن فى متحف ليبزج ويحتمل أنها كتبت فى القرن السابع عشر ق . م (٣) ورقة هرست وهى الآن فى جامعة كاليفورنيا (٤) ورقة لندن وربما يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد (٥) وأهم من كل هذه الأوراق بردية ايدون سميث وقد ثبت من الفحص اللغوى أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة رغم أن النسخة التى عثر عليها يرجع تاريخها إلى عصر الهكسوس أو على وجه التقريب فى عهد تحتمس الأول . والواقع أن محتوياتها قد فتحت لنا دنيا جديدة فى عالم الطب الجراحى فى مصر فقد ثبت لنا بالبراهين الناصعة أن الطب المصرى لم يكن يرتكز على مجرد تعاويذ سحرية فى معظم الأحوال كما كان الأمر قبل درس محتويات هذه الورقة وكذلك أكدت لنا أن الطب كان متقدما فى مصر منذ عهد الدولة القديمة وأنه كان قائما على أسس علمية محضة لا تختلف عن الطب الحديث فى شىء ويرجع الفضل فى إظهار كل هذا إلى الدرس

الاوراق الطبيه التى وصلت إلينا

الدقيق الذى قام به الاستاذ برستد [1] لهذه الورقة وبخاصة بعد أن ثبت أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة .

وتنقسم مواد هذه البردية إلى ثلاثة أقسام ظاهرة كل منها مأخوذ من منبع مختلف عن الآخر : القسم الأول يحتوى على سبعة عشر عموداً مكتوبة على وجه الورقة وتنحصر أهمية هذه الورقة المنقطعة القرين من الوجهة العلمية فى محتويات هذه الأعمدة وهى بحث فى الجراحة وطب الجراحة ومعالجة الأمراض الظاهرة والتشريح ، والقسم الثانى يشتمل على تعويذة لإبعاد الهواء فى سنة الطاعون

ورقة ادون سمس ومحتوياتها

والقسم الثالث تعويذة لإرجاع الشيخ إلى صباه . فنرى أن القسمين الأخيرين هما تعويذتان سحريتان تشبهان فى نوعهما الوثائق الطبية التى بقيت لنا من الطب المصرى القديم ، ولكن القسم الأول من الورقة هو كما ذكرنا وثيقة فريدة فى بابها قد قلبت كل الآراء التى كانت معروفة حتى الآن عن الطب المصرى رأسا على عقب إذ تحتوى على معلومات مرتبة ترتيبا علميا منطقيا فقد فحص مؤلفها الجسم الإنسانى من الرأس إلى القدمين ورتب مادتها بطريقة دقيقة وهى أوصاف طبية وبحوث عن حالات خاصة بجراحة العظام والعلاج الظاهرى وهذا يذكرنا بدقة المشاهدات التى نجدها فى الطب الحديث .

ونرى أن مؤلف هذه الورقة قد دوّن عشر مشاهدات (حالات) عن الجمجمة وسبعاً عن الأنف وعشراً عن الفك والأذن والشفتين وستاً عن الزور والرقبة وخمساً عن الترقوة والكتف ومشط الكتف وستاً عن الصدر ومقدمته

(1) Breasted, The Edwin Smith Surgical papyrus, Oxford, 1930.

وواحدة عن العمود الفقرى . ومما يؤسف له جد الأسف أن الورقة قطعت عند هـذا الحد . غير أن النظام العلمى لم ينحصر فى ترتيب أبواب هذه الوثيقة ووصف تشريح الجسم الأنسانى لأن ذلك وحده لانستخلص منه شيئا كثيرا (رغم أننا لم نعثر عليه فى كل ما لدينا من الأوراق الأخرى) بل المهم أننا وجدنا مع كل مشاهدة أو حالة ماياتى : — (١) العنوان العام الذى ينطبق على الحالة وهو : تعليمات لأجل (يتلو ذلك اسم المرض) . — (٢) يأتى بعد ذلك الفحص الطبى و يعبر عنه بالصيغة الآتية : إذا فحصت إنسانا عنده (يتلو ذلك وصف أعراض المرض) (٣) تشخيص المرض و يبتدىء بالكلمات التقليدية الآتية : أما فيما يختص بذلك فإنه مريض يتألم من (اسم المرض) . (٤) رأى الطبيب أو كما تترجم اللفظة المصرية (الحكم) و يعبر عن رأى الطبيب فى الورقة بثلاث حالات فيقول : (١) مرض يمكننى معالجته (رأى حسن) (٢) مرض يمكننى محاربته (رأى فيه شك) (٣) مرض لا أعالجه (رأى يدل على اليأس) (٥) يعرض الطبيب العلاج و بعد ذلك تأتى شروح تفسيرية وعددها سبعون . ولسنا فى حاجة أن نذكر هنا أن الطبيب الذى ألف هذه الورقة كان صافى الذهن منظم الفكر منطقى القول فلم يكتف بجمع تعاويذ سحرية ووصفات طبية متخبطا فى ذلك خبط عشواء كما هو الحال فى الأوراق الطبية الأخرى التى عثر عليها حتى الآن وقصارى القول نجد فى هذه الورقة بحثا علميا رجع فيه المؤلف الى مصادر أصلية كانت لاتزال مجهولة فأبرزها أمامنا بطريقة واضحة لأول مرة فى تاريخ البشر ولا غرابة إذن إذا اعتبرناه الجندى المجهول فى تاريخ الطب فى العالم .

ولا يتسع المجال لنا هنا للتكلم بالتفصيل عن الشروح السبعين التى تتبع الحالات التى ذكرناها إذ هى فى الواقع تعاريف للتعابير والألفاظ التى جاءت فى

المتن وكان الغرض منها غالبا تفسير بعض مسائل فى التشريح لها أهميتها وسنكتفى هنا بذكر مثال واحد على جانب عظيم من الأهمية لأنه يصف وصفا دقيقا القلب والدورة الدموية التى جاء ذكرها فى ورقة « إيبرس » بطريقة مبهمة وهو : « يوجد فى القلب قناة تتصل بكل عضو فى الجسم فإذا وضع الطبيب : أصابعه على مؤخرة الرأس أو على اليد أو على النبض أو على الذراع فانه يحس بالقلب لأن القلب متصل بكل عضو ويتكلم فى كل عضو (1) .

والخلاصة أن محتويات هذه الورقة قد وضعت الطبيب المصرى فى أول صحيفة الأطباء فى العالم من الوجهة العلمية . والظاهر أنه كان يوجد فى مصر فى عهد الدولة القديمة بل وفى كل عصور التاريخ المصرى القديم أطباء يعالجون بالطرق العلمية وبجانبهم طبقة ثانية من الاطباء يعالجون بالسحر والطب معا وسبب ذلك طغيان العقائد الدينية وتدخلها فى الأمور الدنيوية ، هذا الى تمسك المصرى بالمعتقدات القديمة الخرافية التى ورثها عن أجداده منذ عصر ماقبل الأسرات ولاتزال آثارها باقية إلى الآن عند عامة الشعب المصرى إذ نجد أن الجم الغفير لايزال يعتقد فى قوة التعاويذ السحرية مع وجود الأطباء الذين يعالجون بالطرق العلمية بين ظهرانيهم .

(1) Breasted, The Edwin Smith Pap. (The New York-Hist. Soc. Quart Bull.) 1922, Vol VI, p. 4-31.

التحنيط

لقد غالى هردوت كما يقول مسبرو [1] عندما ذكر أن المصرى كان لايفرّق بين الطبيب الكهنوتى وبين الطبيب الذى يعالج بالتعاويذ السحرية وأنه لافرق بين الطبيب العام وبين الجراح المتخصص .

وقد ذكر بعض العلماء أن المصرى لم يكن نابغة فى علم التشريح لأن جراحة الجسم كانت محرمة فى العقائد الدينية ولذلك كان المحنطون يؤلفون طبقة خاصة ليست لها علاقة بالأطباء وكان أفراد هذه الطبقة أقل درجة من الأطباء لأنهم كانوا مختصين بالجثث الآدمية وتحنيطها فحسب غير أن ورقة « إدون سميث » برهنت على أن الجراحة الطبية كانت متقدمة تقدما عظيما منذ الدولة القديمة . وعلى أية حال فإن ذلك لايمنع من أن المحنطين كانوا يؤلفون هيئة خاصة على علم تام بأجزاء الجسم وتركيبه من الوجهة التشريحيـــة كما سنرى فى سياق الكلام عن طرق التحنيط منذ أقدم العصور إلى نهاية عهد البطالسة.

ابتداء التحنيط منذ الاسرة الثانية

إن عملية التحنيط التى اختصت بهـا مصر دون سواها من ممـالك العالم ، لم تحقق بدايتها إلا فى عهـد الأسرتين الرابعة والخامسة رغم أن كويبل [2] عثر فى عهد الأسرة الثانية على عدد من المقابر كانت الأجسام المدفونة فيها مكفنة فى لفائف بعناية ودقة ، وكان كل عضو ملفوف على حدة مما يشعر بنوع من التحنيط الذى عرفناه فيما بعد . ولـكن منذ عهد الأسرة الرابعة عثر على بعض أجسام محنطة تحنيطا تاما فى حفائر الجامعة

(1) Histoire Anc. des peuples de l'Orient, p. 214 (2) Quibell, Excav. at Saqqara, (1912-1914) p.p. 11, 19, 28, 32 pl. XXIX (3).

بمنطقة الاهرام . بعضها من الأسرة المالكة وبعضها من أفراد الشعب . يضاف إلى ذلك أن صندوق الأحشاء الذى عثر عليه للملكة « حتب حرس » والدة « خوفو » لايزال يحتوى على صرة مفروض أنها تضم أحشاء المتوفاة . وهى محفوظة فى النطرون ، مما يدل على أن الجسم كان محنطا ، غير أنه لم يعثر عليه فى القبر (1) . وتوجد مومياء من عهد الأسرة الخامسة فى المتحف الملكى لكلية الجراحة فى لندن (2) ، ومن ذلك العهد أخذ المصريون يحنطون الأجسام حتى أوائل العهد المسيحى .

والرأى الشائع حتى الآن هو أن التحنيط عند قدماء المصريين سر لم يكشف عنه حتى الآن ، وهذا فى الواقع مخالف للحقيقة إذ أن معظم مواد التحنيط وطرقه معلومة لدينا إلا بعض تفاصيل صغيرة ، وعلى العكس فإن طريقة التحنيط معلومة الآن أكثر من العهد الذى كانت تستعمل فيه ، فقد كانت كل هذه العمليات فى تلك الأزمان الغابرة لا تخرج عن دائرة التجارب ، على حين أن كل المبادىء الأساسية معلومة لنا الآن !

وأقدم وصف للتحنيط وصل إلينا من عهد هردوت (3) ومن بعده « ديدور » الذى زار البلاد بعده بنحو أربعة قرون . وقد كتب كل منهما كتاباً عما رأى وسمع ومن ذلك عملية التحنيط .

طرق التحنيط كما ذكرها «هردوت»

فذكر لنا هردوت أن المصريين كانوا يستعملون ثلاث طرق مختلفة للتحنيط . فى الأولى وكانت باهظة الثمن ، كان نخاع المخ يستخرج بعضه بآلة خاصة والباقى بعقاقير لم يذكر لنا اسمها أما محتويات الجوف فكانت

---

(1) Reisner, Bull. Mus. of Fine Arts, Boston, XXVI (1928) No 157 (2) Elliot Smith, Egyptian Mummies, p.p. 74-5.

(3) H. II, 86 - 8.

تستخرج (وربما كان المقصود من ذلك أن يشمل محتويات الصدر ماعدا القلب ، والكليتين) وبعد تنظيف الجوف بنبيذ البلح والتوابل ، كان يملأ بالمر وخيار شنبر وغير ذلك من المواد العطرية ولم (تعرف أسماؤها) ولم يكن الكندر منها وكان الجزء الذى يفتح من الجسم لأجل التحنيط يخاط ثانية . ثم بعد ذلك يعالج كل الجسم بالنطرون ، ثم يغسل ويلف فى لفائف من الكتان كانت تلصق بالصمغ .

أما فى الطريقة الثانية فكان يستعمل زيت خشب الأرز الذى كان يحقن به الجسم ثم يعالج بالنطرون . والطريقة الثالثة وهى أرخصها كانت للفقراء وتتلخص فى تنظيف الأحشاء البشرية ثم بعد ذلك يعالج الجسم بالنطرون .

ما ذكره ديدور عن التحنيط

أما ما كتبه « ديدور » عن التحنيط فإنه يعطينا بعض تفاصيل لم يذكرها لنا « هردوت » . فإنه وإن كان قد ذكر لنا ثلاث درجات للاحتفال المأتمى إلا أنه لم يذكر لنا إلا طريقة واحدة للتحنيط ، وهى إزالة الأحشاء ما عدا القلب والكليتين وذكر لنا أيضاً تنظيف الأحشاء بنبيذ البلح ومعه توابل مختلفة (لم يعين اسماءها) ثم بعد ذلك يدلك الجسم بزيت خشب الأرز ، ثم يمسح بالمر والقرفة ومواد مماثلة وذلك لتعطير الجسم وحفظه . وفى مناسبة أخرى ذكر لنا « ديدور » عند ما كان يصف قار البحر الميت « أنهم كانوا يحملون هذا القار إلى مصر ويبيعونه هناك لتحنيط الموتى ، لأنهم إذا لم يخلطوا هذه المادة بتوابل عطرية أخرى ، فإن الأجسام لايمكن أن تحفظ مدة طويلة دون تعفن » .

ويجب أن نلفت النظر هنا إلى أن وصف كل من « هردوت »

عدم الاعتماد على ما ذكره هردوت وديدور فى جملته

« وديدور » متأخر جداً ، وأن المدة التى تقع بين أول بداية استعمال التحنيط وما كتبه هذان الكاتبان تبلغ نحو ٣٠٠٠ سنة ولابد أنه فى خلال هذه الفترة قد تغيرت طرق التحنيط تغيراً عظيما ولذلك لا يمكننا أن نعد وصفهما دقيقا فى تفاصيله . . . وسنلخص هاتين الطريقتين ونفحص ما فيهما من الأغلاط ونتكلم كذلك عن المواد التى استعملت فى التحنيط حسب ما وصلت اليه البحوث العلمية الأخيرة .

ففى الطريقة الغالية الثمن ، كان المخ ، والمعدة والامعاء تزال ما عدا القلب والكليتين وهذا القول يتفق فى جملته مع النتائج التى وصلنا إليها بعد فحص عدة موميات، إذ نجد أن القلب دائما قد ترك فى مكانه وكذلك الكليتان ، أما الأمعاء والأحشاء فقد أزيلت (1) غير أننا نجد أحيانا بعض عظماء القوم وهم الذين كانت تحنط جثثهم بالطريقة الغالية جدا ، لم تزل أحشاؤهم . مثال ذلك الملكة « عاشيت » زوجة الملك « منوحيب » الثانى أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة وكذلك جثة « مايت » التى يحتمل جدا أن تكون أميرة ، وقد وجد « ونلوك » (2) كلتيهما فى الدير البحرى ، وفحصهما الأستاذ « درى » (3)

أما تنظيف الأمعاء والأحشاء بنبيذ البلح ، والتوابل ، فهى عمليات لم تترك طبعا أى أثر

---

(1) G. Elliot Smith (a) A Contribution to the Study of Mummification in Egypt. in Mem de l'Instit. Egyptien, V fasc. I, 1906. (b) The Royal mummies in Cat. Gen. du Musée du Caire. & W. R. Dawson Making a Mummy in the J. E. A. XIII (1927) p. 40-9. (2) Winlock. Egyptian Exped 1920-1921 Bull. Metrop. Mus. of Art. New-York, 11, p.p. 36-52. (3) Derry, Report upon the Examination of Tut-Ankh Amen's Mummy in the Tomb of Tut-Ankh Amen by Howard Carter II, p. 146.

أما التجاويف التى كانت تتخلف فى الجسم بعد هذه العملية فكانت تملأ بالمر وخيار شنبر ومواد أخرى عطرية ثم بعد ذلك يخاط الجزء الذى فتح لاجراء عملية التحنيط . وقد ذكر لنا « هردوت » بصفة خاصة أن هذه العمليات كانت تحدث قبل معالجة الجسم بالنطرون ، ورغم أن الدكتور بتجرو Pettigrew [1] ، واليوت سميث [2] ، ودوسون يشكون فى ذلك ، فإن ذلك من الجائز إذ ربما كانت توضع هذه المواد العطرية لتحفظ رائحة الجسم جميلة أثناء فتحه وقد لوحظ أن الفتحة التى كانت تعمل فى الجسم للتحنيط لم تخط ، هذا إلى أنه لم يمكن تمييز المر أو الخيار شنبر بالتحقيق فى تجويف المعدة أو الصدر أما أهم المواد التى حشيت بها هذه التجاويف فقد وجدت أنها كتان [3] أو الكتان [4] والراتينج ، والنشارة [5] ، أو نشارة [6] وراتينج ، وتراب ونطرون وحزاز صخرى ، وأحيانا توجد بصلة او أكثر. ثم كان يعالج الجسم بالنطرون وقد ذكر ذلك « هردوت » فقط ، وسنتكلم عنه فيما بعد .

نتائج فحص مواد التحنيط

بعد ذلك كان يغسل الجسم ولم يأت ذكر ذلك إلا فى « هردوت» ولكن هذا أمر طبيعى كان لابد من حصوله . ويظن الكيمائى « لوكاس »[7] أن العطب العظيم الذى يشاهد غالبا فى لفائف المومیات ، القريبة للجسم ، بالنسبة للفائف الخارجية كان سببه نمو الفطريات التى تنشأ من لف الجسم وهو لايزال مبللا ، مما يدل على أنه فى هذه الاحوال قد غسل .

---

(1) History of Egyptian Mummies p. 83-4 (2) Elliot Smith & Dawson op. cit. p.p. 61. (3) Smith & Dawson op. cit. p.p. 82, 83, 85, 103. (4) Smith & Dawson op. cit. p.p. 75, 80, 97, 99, (5) Smith & Dawson op. cit. p.p. 114, 115, 117, 118, (6) Smith & Dawson op. cit p.p. 81 (7) J. E. A. XVIII 1932 p. 139-40.

بعد ذلك كان يدهن الجسم ، بزيت خشب الأرز ، ومسوح أخرى ثمينة ثم يدلك بالمر ، والقرفة وما شابهها من التـوابل ولم يأت ذكر ذلك إلا فى « هردوت » ولـكن نظرا للدور العظيم الذى تلعبه الزيوت والمسوح عند الأحياء ، فان دهان الأموات لم يكن أمرا مستغربا .

وقد ذكر لنا « هردوت » فى الطريقة الثانيـة حقن الجسم بزيت خشب الأرز ، ثم منع الحقنة من التسرب حتى نهاية معالجة الجسم بالنطرون .

وفى الطريقة الثالثـة التى وصفها « هردوت » لم يذكر لنا طبيعة الشربة التى كانت تستعمل لتنظيف الأحشاء ، بل قال إن أى سائل حتى ولو كان ماء فإنه لو حقن به الجسم بكمية كافية لأتى بنتيجة .

والمواد التى كانت تستعمل فى تحنيط الجسم كما ذكرها « هردوت » و « ديدور » و « بلينى » وما وصلت إليـه البحوث الحديثـة هى على وجه التقريب ما يأتى :

شمع النحل ، والقار والخيار شنبر ، وزيت خشب الأرز والقرفة ، والصمغ والحناء ، وحب العرعر ، والنطرون ، والمراهم والبصل ، ونبيـذ البلح ، والراتينج ، (ويشمل ذلك صمغ الراتينج والبلاسم) والملح ، والنشادر ، والتوابل وقطران الخشب ، أو الزفت وسنتكلم عن معظمها .

شمع النحل : كان يستعمل شمع عسل النحل فى التحنيط لتغطية الأذنين والعينين والأنف والفم ولتحنيط الجرح وكذلك كان يستعمل الشمع فى أجزاء أخرى من الجسم فمثلا وجد أنه كانت توضع طبقة منه على فخذى المومياء (1)

(1)Lucas, Preservative Materials used by the Ancient Egyptians in Embalming p. 5

القـار تدل ظواهر الأمور على أن القـار كان يستعمل فى التحنيط والمقصود بالقار (الزفت الطبيعى) الذى كان يستخرج من البحر الميت كما جاء ذكر ذلك على لسان الـكتّاب الأغريق والرومان ، وقد ظل هذا هو الاعتقاد السائد عند الـكتّاب المحدثين الذين كتبوا عن التحنيط ولـكن الـكيمائى « لوكاس » فحص هذا الموضوع ووجد أن الزفت لم يستعمل قط فى تحنيط الأجسام الآدمية عند المصريين قبل عصر البطالمه (1).

والظاهر أن الخطأ فى ذلك نشأ من أن كثيراً من هذه المادة وبخاصة ما وجد منها فى موميـات العصر المتأخر كانت سوداء وتظهر كالقار وكذلك لم تعمل تحاليل منظمة على يد كيمائيين مهرة . وقد قام « لوكاس » وغيره وأثبتوا فعلا أن هذه المادة السوداء ليست قارا .

القرفة وخيار شنبر : والقرفة كما هو معلوم هى لحاء شجر ينبت فى الهند وسيلان والصين والخيار شنبر من نفس فصيلة القرفة وليس بينهما فرق إلا أن الخيارشنبر نوع من التوابل حريف وقابض أكثر من القرفة . هذا إلى أن مذاقه أقل لذة . ولم يكن يستعمل قديمـا من الخيار شنبر والقرفة لحاؤهما بل زهورهما وأعشابهما وخشبهما .

وأقدم إشارة لخيار شمبر فى المتون المصرية هى ورقة هاريس التى يرجع تاريخها إلى الأسرة العشرين أما أقدم إشارة للقرفة فيرجع إلى عهد الأسرتين الثامنة عشرة .

---

(1) Lucas (a) Arch. Survey of Nubia, Report for 1907-1908, II, (1910) p.p. 372-4. (b) Preservative Materials used by the Ancient Egyptians in Embalming 1911. (c) J. E. A. t. I, 1914 p.p. 241, 245. (d) Ancient Materials, 1926 p. 122.

والتاسعة عشرة [1] ولم تذكر لنا المتون المصرية استعمال هذين الصنفين غير أنهما مما لاشك فيه كانا يستعملان لتشهية الطعام ، والتعطير ومن المحتمل أنهما يستعملان بخورا وكما ذكر « هردوت » كانا يستعملان فى التحنيط وقد عثر على بعض موميات يظن أنه وجد فيها بقايا القرفة ولكن ذلك ليس مقطوعا به .[2]

زيت خشب الأرز Cedri, Succus Cedrium : الظاهر أن زيت الأرز الذى ذكره كل من هردوت وديدور لم يكن مستخرجا من خشب الأرز بل من العرعر . ولكن اختلاف كل منهما فى كيفية استعماله (إذ يقول أحدهما أنه كان يحقن به والثانى يقول أنه كان يستعمل للمسوح) ، يدل على أن واحدا منها كان مخطئا أو أنه كانت توجد مادتان مختلفتان تستعملان ولما كان من غير المؤكد كيفية استعمال زيت الأرز فإنه من المستحيل التحقق من طبيعته. وقد استعمل زيت خشب الأرز فى التحنيط حتى القرن الأول الميلادى .[3]

الصمغ : يقول هردوت ان الصمغ كان يستعمل للصق لفائف الكتان التى كانت توضع فيها المومياء وقد قال إن المصريين كانوا يستعملون بدلا منه الغراء . وقد وجد لوكاس الصمغ على موميات يرجع عهدها إلى الأسرة العشرين وكذلك وجد على وجه مومياء « أمنحتب الثالث » قطعة من القماش مشبعة بالصمغ[4] ولما كان شجر السنط ينبت كثيرا فى مصر فى

---

(1) Breasted A. R. IV, 234, 344, 379. op. cit. II, 265, & III. 116.
(2) W. O'sburn, An Account of an Egyptian Mummy presented to the Museum of Leeds Philosophical & Literary Society (1828) p. 6.
(3) B. p. Grenfell & A. S. Hunt, The Amherst Papyrus II, p' 150,
(4) G. Elliot Smith, The Royal Mummies in Cat. Gen, du Musée du Caire, p. 48.

ذلك العهد وهو يعطى مادة الصمغ فمن المحتمل جدا أن كل الصمغ الذى كان يستعمل فى التحنيط كان محليا. وقد ذكر « بلينى » أنه فى أيامه كان أحسن نوع من الصمغ يجلب من مصر.[1]

الحناء : كانت الحناء تستعمل قديمًا كما فى أيامنا هذه ، لتعطير المراهم وللتجميل لخضاب راحة اليد والكفين والشعر. وهو نبات ينبت فى مصر بكثرة وهو يزرع فى الحدائق لرائحته الشديدة ، ولورقه ، وأهم استعمال له أن يتخذ أداة للزينة ، ومادة للصباغة .

وقد وجد أن بعض الموميات كانت فيها أصابع اليدين والرجلين مخضبة بالحناء [2] وقد وصف اليوت سميث شعر مومياء [3] « حتنوى » من الأسرة الثامنة عشرة بأنه خضب بلون لامع مائل للأحمرار ويعتقد أنه صبغ بالحناء .

حب العرعر Juniperus, phœnicea : إن أقدم تاريخ عثر فيه على حب العرعر فى المقابر المصرية يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة [4] وكذلك عثر على هذه الحبوب فى مقبرة « توت عنخ آمون » . وكذلك يوجد فى المتحف المصرى حبوب عرعر من عهد الأسرة العشرين من خبيئة الدير البحرى .

والظاهر أن زيت هذه الحبوب كان يستعمل لمسوح المتوفى .

النطرون : استعمل فى التحنيط منذ الأسرة الرابعة حتى العصر الفارسى وقد كان حانوت المحنط يسمى « مكان التطهير » وكان المتوفى يعالج فيه

(1) Pliny, XIII, 20; XXIV, 67. (2) P. C. Rouyer, Notice sur les embaumements des Anciens Egyptiens, dans Description d'Egypte, Mémoires Antiquités t. I, (1809) p.p. 207-20

(3) G. Elliot Smith op. cit. pl. 9.

(4) E. Schiaparelli, Relazione, Sui Lavori della Missione Archeologica Italiana in Egitto (1903-20) II, p. 165 .

بالنطرون الذى كان يعتبره المصريون مادة مطهرة عظيمة ، وقد دلت الأبحاث على أن الجثة كانت تعالج بالنطرون فى حالتـه الطبيعية لافى محلوله وقد جاء الخطأ الشائع فى أن الجسم كان يغمس فى النطرون من سوء فهم ترجمة ما ذكره هردوت فى هذا الموضوع [1] . على أنه لايزال بعض علماء التشريح يعارضون هذا الرأى [2] .

الدهان : لم يذكر لنا هردوت نوع الدهان الثمين الذى كان يمسح به الجسم بعد التحنيط ، على أنه من جهة أخرى ليس لدينا دلائل من المومياءات تعرفنا تركيب هذه المواد . وقد ذكر فى بعض الاوراق البردية من عصر البطالسة [3] الاحتفالات الدينية التى كانت تقام بعد أن يهيىء المحنطون الجسم ليلف فى الأكفان وفى خلال التكفين . وقد كان يستعمل فى الحالة الأولى نوع من الدهان مؤلف من صمغ الراتينج (الكندر واللبان والمر) وزيوت أخرى مختلفة وشحم ، منها زيت خشب الأرز ، والشحم المغلى وشحم الثور . وفى ورقة أخرى نجد زيت الأرز وزيت الزيتون

وبعد لف الجثة كان يصب عليها سائل أو شبه السائل الراتينجى . ولكن كنهه لم يعرف بالضبط . والظاهر من بعض التحاليل التى عملت أنه يحتوى على قار الأرز المخلوط بالطين وبعض الروائح العطرية .

البصل : وجد البصل فى لفائف أكفان المومياءات منذ الأسرة الثالثة عشرة وكذلك وجد قشر البصل على عين المتوفى . وكان يوضع فى التجويف

---

(1) Lucas, J. E. A. XVIII 1932 p.p. 125-40 (2) Lucas, Ancient Egyp. Materials p. 247 etc.

(3) Mariette, Les papyrus Egyptiens du Musée de Boulaq. & Maspero, Mémoires sur quelques papyrus du Louvre.

الجوف ، وفى التجويف الصدرى وعلى الأذن . وفى عهد الأسرة العشرين والواحدة والعشرين والثانية والعشرين كان البصل يستعمل فى عملية التحنيط (1)

نبيذ البلح : ذكر كل من هردوت و ديدور أن نبيذ البلح كان يستعمل فى تنظيف الجثة ولكن ليس لدينا أى دليل مادى على ذلك إلا ماقاله « دوسون » (2) من احتمال وجود مادة كثولية فى بعض أنسجة الجثث المحنطة وربما كان ذلك معززا لرأى « هردوت » و « ديدور »

الملح : تدل الأبحاث الكيمائية أن الملح لم يستعمل جافا أو محلولا فى تحنيط الأجسام . ويعزى وجود الملح مع بعض الموميات فى العصور الأولى إلى أن النطرون الذى كان يستعمل فى التحنيط يحتوى على كمية عظيمة من الملح (3)

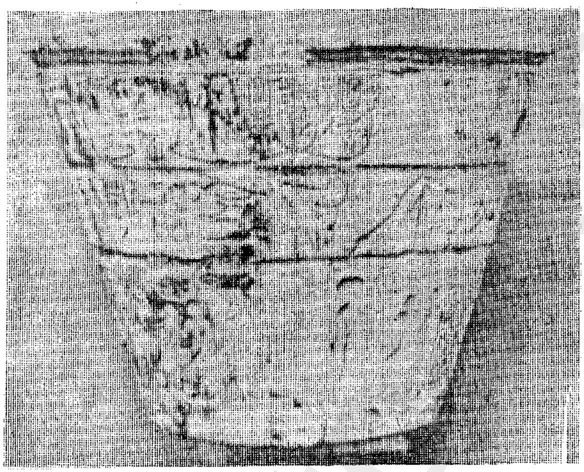
النشارة : ذكر لنا كل من « دوسون » و « اليوت سميث » أن النشارة كانت توجد وحدها أو مع الراتينج فى تجاويف الموميات منذ الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة (4)

---

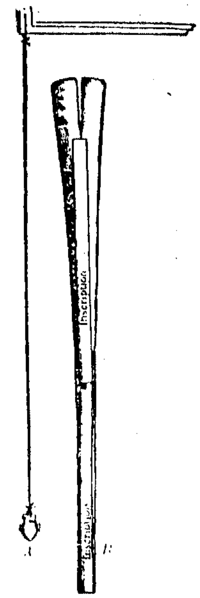
(1) Elliot Smith, Mem. de L'Inst. Egyptien, V, 1906. fasc I, p.p. 28, 31. & Elliot Smith, The Royal Mummies p. 64. (2) Elliot Smith & Warren Dawson, op. cit. p. 125; J. E.A. XIII p. 49.

(3) J. E. A. XVIII p. 127-9.

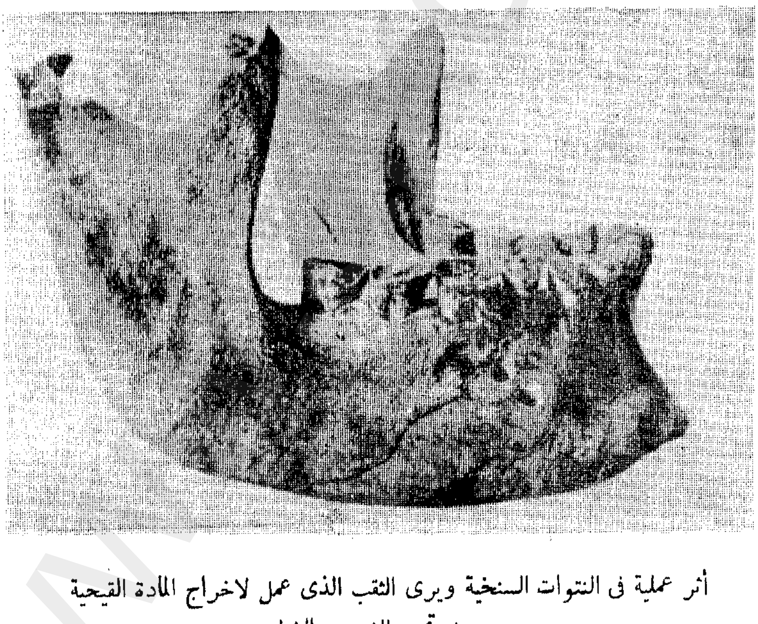
(4) The Tomb of Yuaa and Thuiu in Cat. Gen. du Musée du Caire, p.p. 75-7



ساعة مائية من الحجر مقسمة من الداخل



آلة لمقياس ساعات الليل



أثر عملية فى النتوات السنخية ويرى الثقب الذى عمل لاخراج المادة القيحية
من دمل تحت الضرس الاول

الكتابة

إن الرأى السائد بين علماء اللغات القديمة فى العالم أن المصريين هم أول من اخترع نظاما للكتابة . والمتفق عليه حتى الآن أن الفينيقين قد نقلوا عن المصريين نظام كتابتهم ومن ثم إلى أوربا بعد تحوير وتبديل فى شكل الحروف الأبجدية .

والواقع أن اختراع مصر للكتابة قد وضعها فى مكانة ممتازة عن باقى أمم العالم وجعل الحياة العقلية تنمو وتزدهر فيها فى وقت كانت الأمم الأخرى فى أنحاء العالم قاطبة لا يزال أهلها يعيشون مع الحيوانات المفترسة فى الغابات والأحراج ، ولذلك كان لزاما علينا أن نتكلم بالإجمال هنا عن الكتابة المصرية وكيفية نشوئها لأنها أقدم كتابة معروفة وتدل كل الظواهر على أن نظام الكتابة فى مصر قد بدأ بالصور كما فعل غير المصريين ، وهذه الطريقة فى الواقع غير محكمة وقد استعملت ليتذكر بها الإنسان شيئا ما فى ذهنه ، ويصعب على شخص آخر أن يكشف الفكرة المراد التعبير عنها بالصور .

خذ مثالا خياليا لذلك : إذ اتفق شخصان على أن يورد أحدهما للآخر فى مدة ثلاثة أشهر ثورا وفى مقابل ذلك يعطيه الطرف الآخر خمس جرات من عسل النحل . فيكفى لتفاهم كليهما رسم القمر ليعبر به عن الشهر ، والثور والنحلة والجرة ثم يضاف إلي ذلك ثلاث شرط أفقية لتدل على عدد الأشهر . وإذا وضعت أمام شخص آخر هذه الإشارات فانه لا يمكنه أن يفهم بالتحقيق المراد منها .

وعلى ذلك كان لا بد لهذا التركيب الأولى من أن يرتقى كثيرا . وقد حاول كل قوم على حدتهم بطرقهم الخاصة ذلك حتى وصلوا إلى كل أنواع الكتابات والكلمات والمقاطع .

وكان للمصريين وحدهم الحظ فى أن اتبعوا طريقة مجدية وصلوا بها إلى خير شكل للكتابة : الحروف الأبجدية .

وكانت الطريقة فى أصلها بسيطة سهلة إذ كان الغرض الأول كتابة كلمات كان من الصعب أو من المستحيل رسمها ومن ذلك أتت الفكرة بأن يستبدل بالكلمة الصعبة الكتابة كلمة غيرها يمكن رسمها على أن تماثلها فى النطق . وكان على القارىء أن يفهم من سياق المتن المعنى المقصود حقيقة وبخاصة حينما أصبح الاستعمال شائعا وكان كل فرد قد اعتاد مثلا فى لفظة عصفور الجنة  « ور » أن يفكر فى « ور » بمعنى عظيم ، وإذا ذكرت مثلا كلمة جعل « خبر »  فكر فى « خبر » بمعنى يصير .

ولما كان معنى الكلمة فى اللغة المصرية — كما فى اللغات السامية — يرتبط بحروفها الساكنة وأن حركات إعرابها تبين موقعها من الناحية النحوية ، أصبح يلتفت إلى أن الكلمة التى استعيرت لتحل محل أخرى يلزم أن تحتوى على حروفها الساكنة نفسها فحسب أما حركات الأعراب فلم يلتفت اليها فمثلا كلمة « نخل » فى اللغة العربية كانت ترسم بشكل ثلاث نخلات متجاورة وكلمة « شعر » كانت ترسم بشكل حصلة من الشعر .

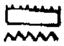
وكثير من العلامات التى كانت تستعمل فى معنى واحد انتقلت الى كلمات كثيرة على مر الأيام حتى أصبح من النادر أن تستعمل هذه الكلمات فى معان خاصة وصارت لاتدل إلا على إشارات ساكنة (أى

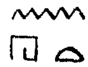
أنها صارت تكون جزءا من كلمات أخرى تشترك معها فى بعض حروفها .) فمثلا عصفور الجنة لم يعد يستعمل كما فى المثال الأول ليدل على « ور » بمعنى عظيم فحسب ، بل ليدل أيضا على الحرفين الساكنين و ، ر إذا دخلا فى تركيب كلمات أخرى مثل حور ، سور ، ورس ، وريت الخ . ومن هنا اكتسبت الكتابة إشارات مركبة من حرفين ساكنين.

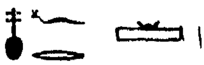
وقد وصل أقوام آخرون الى هذه الخطوة بطريقة قريبة الشبه ، ولكن المصريين تقدموا خطوة ثانية الى الأمام واستعملوا كلمات قصيرة لاتحتوى على أكثر من حرف واحد ساكن لكتابة هذا الساكن فمثلا «ر» بمعنى فم كانت تستعمل لكتابة حرف الراء ، «زت» (افعى) كانت تستعمل لكتابة حرف الزاى (التاء علامة التأنيث) ، « ش » (بحيرة) كانت تستعمل لحرف الشين وهكذا . وكانت نتيجة هذه الخطوة أن تكونت حروف أبجدية من أربعة وعشرين حرفا ساكنا وهى التى انتهت فيما بعد إلى أرض كنعان وصارت الحروف الأبجدية التى أخذت منها الحروف الأبجدية الأوربية.

تأليف الحروف الابجدية

وبهذه الحروف الأبجدية كتبت كلمات قصيرة مفردة مثال ذلك «ر» (إلى) « م » (فى) « إو » (يكون) ، أو نهايات لغوية أصبحت توضح هكذا «خبر ف» بمعنى هو يصير . ولقد سهلت كذلك قراءة الإشارات التى تدل على كلمات فمثلا فى بمعنى الضامة أو بمعنى فأس . من الجائز أن يفكر الإنسان فى كلمات أخرى للوح الضامة أو الفأس غير « من » و « مر » ولكن إذا أضيف الحرف

الأخير لـكل منهما « ن » و « ر »  و  فان القـارىء
يرى فى الحال أن لفظتى « من » و « مر » هما المقصودتان .

وكان كثير من الكلمات يكتب بالحروف الأبجدية فقط مثال ذلك
 « بين » بمعنى (ردىء) و  « نهت » بمعنى
« شجرة جميز » ، على أن نظام الـكتابة بقى خليطا من علامات تدل على
ألفاظ فى معناها الأصلى أو المعنى المنقولة إليها ، ومن علامات أبجدية متصلة بها .

وقد خطت الـكتابة خطوة ثالثة نحو النمو وأدخل عليها عنصر جديد
وهو ما يسمى « بالمخصص » فأضيف إلى الـكلمة الواحـدة إشارة تدل
على المعنى المقصود من الـكلمة . فمثـلا « نهت » أى جميز أضيف إليها
شجرة فأصبحت تـكتب هكذا  . « نفر » أى جميل أضيف
إليهاملف بردى لتدل على الشىء المعنوى فأصبحت هكذا  الخ .

والـكتابة التى تمت بهذه الطريقة كان من الممكن لـكل مصرى أن
يقرأها بسهولة وأن يفهم معناها على وجه التحقيق ، ويدلك على ذلك أن
المصرى لم يبـذل أى مسعى لتغيير هذا النظام وجعله كله حروفا أبجدية .
ولا شك فى أن لهذا النظام نقائصه لأننا نشعر بصعوبة كبـيرة فى فهـم
كتب المصريين ، وسأعود إلى هذه النقطة ثانية .

أنواع الخط المصرى

تعـودنا على عادة الأغريق — أن نسمى الكتابة المصرية
« الإشارات المقـدسة » (هيروغليفى) وأن نسمى نوعا آخر خاصا
« الهيراطيقى » والاسمان مستعملان فى لغتنا وليس هناك استعداد عند أى
شخص لمحوهما وإن كان كل منهما سخيفا بعض السخف وبخاصة الأخير

لأنه ـــ وهو الذى ترجم عنه معظم مافى الكتب - ليس بكتابة خاصة مطلقا ولا يخرج عن كونه « خط رقعة » للكتابة الهيروغليفية والفرق بين الاثنين كالفرق بين حروف المطبعة وخط اليد .

ومما ساعد الأدب المصرى بوجه عام الأدوات التى كان يستعملها الكتّاب فى الكتابة . ولم يكن عملهم كعمل زملائهم البابليين وهو طبع إشاراتهم على ألواح من الطين فهذه طريقة انتجت أشكال الخط المسمارى القبيح الشكل .

والواقع أنهم كانوا يكتبون كما يكتب العالم الحالى الذى أخذ طريقة الكتابة عنهم . فكان عندهم المداد الأسود الثابت اللون ، وكانوا يطحنون المادة التى يأخذون منها المداد على ألواح من الخشب ، وكان عندهم أقلام يتخذونها من القصب ويبرون أطرافها ويدببونها على حسب رغبة الكاتب ؛ وكان عندهم فوق ذلك ورق ناعم جميل منتخب من لباب سيقان البردى (١) ، كل هذه الأدوات كانت وسائط مساعدة على الكتابة مما لم يتهيأ لغيرهم من الأمم الأخرى ويمكن أن يشاهد إلى الآن فى النسخ الخطية الجميلة كيف كان الكاتب يرسم إشاراته ويده ثابتة وقلبه منشرح .

استعمال البردى للكتابة

وكان من السهل أن تعمل ملفات طويلة من ورق البردى بضم الأوراق المنفصلة بعضها إلى بعض وإلصاقها ، وبهذه الطريقة يسهل أن تعمل ملفات بأطوال مختلفة ؛ وهناك ملفات خطية بديعة يبلغ طول الواحد منها عشرين أو أربعين مترا . وكانت الكتابة عادة على وجه واحد من ملف البردى وهو الوجه الذى تكون الألياف فيه أفقية حتى يأخذ القلم

(١) انظر ص ٨٨ و ٨٩ .

سبيله بلا مقاومة . وهذه الطريقة تستلزم الإسراف في الورق على أنه لم يكن في مقدور كل فرد - من هـذه الناحية - أن يستعملها . ولدينا أمثـلة كثـيرة تستدعى النظر للكتابة على وجهى الملفات للاقتصاد . والشخص الذى نحن مدينون له بأمتع مثال لدينا من هذا النوع هو صاحب ورقة « هريس » رقم ٥٠٠ إذ حصل على أوراق مكتوبة من البردى وغسل ماعليها من المداد وكتب على أحد وجهيها ثلاث مجاميع من أغانى الحب وأنشودة الشراب القديمة وجاء بعـده كاتب آخر وكتب على الوجه الثانى من الورقةقصتين . وقد استعمل كاتب ورقتى « لينينجراد » (١) طريقة مختلفة وقد حفظت لنا هاتان الورقتان تعاليم للملك « مرى كا رع » ونبوءة « نفررهو » وكان هذا الـكاتب يشتغل كاتب حسابات فأخذ وثائق من مصلحته والصق بعضها ببعض ونسخ الورقتين الآنف ذكرهما على الوجه الأبيض لتلك الوثائق على أن تكون ملـكا له « ولأخ عزيزموثوق به »

استعمال الخزف للكتابة عليه

أما الفرد الذى لم يكن فى مقدوره الحصول على ورق البردى فكان يجد فى قطع الخزف مايسد حاجته . وهى مادة رخيصة الثمن تحل محل الورق . وقـد يطلق هـذا الاسم على قطع من الأوانى الفخـارية أو مـن الحجر الجيرى الناعم ونشاهد هـذه الآثار الـكتابية ملقاة على الأرض فى أى مكان فى مصر . ولما كانت هذه القطع الخزفية يستعملها تلاميذ المدارس لـكتابة تمارينهم فإن كثيرا من المتون المصرية قد نقل عنها

فهمنا للمتون المصرية

إن الطالب الذى يوازن بين ترجمتين لمتن صعب من المتون المصرية

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٤٢٠ الخ .

إحداهما قديمة العهد والأخرى حديثة ، قد يشك فى أن هاتين الترجمتين المتباينتين هما لقطعة واحدة . والسبب فى ذلك هو نقص نظام الكتابة عند المصريين القدماء فالألفاظ المصرية لم توضع فوقها حركات تبين بالضبط موقعها من الجملة ونتيجة ذلك أنه يمكن نطق الكلمة بأشكال مختلفة تعطيها معانى متباينة : مثال ذلك « سزم » فإنها تحتمل معنى من المعانى الآتية : سماع ، يسمع ، سمع ، سمع ، سامع ، مسموع الخ ، وليس لدينا طريقة لتحقيق المعنى المقصود بالضبط إلا سياق الكلام . على أننا لانجد صعوبة حينما نبحث فى متن بسيط ؛ فإننا نجد من السياق ومن الإستعلامات المعروفة لدينا حق المعرفة ما يعيننا على سهولة البحث . ونجد الأمر على عكس ذلك إذ كان المتن يحتوى على غير المألوف من الجمل والأفكار فهنالك يترك المترجم الأمين هذه الجمل من غير ترجمة غالبا أو يترجمها ويعترف بأن هناك تراجم أخرى لها يمكن اتباعها .

صعوبة فهم المتون المصرية بسبب الحروف الساكنة

ولا يدهش القارىء عند ما يرى أن بعض المتون قد ترك من غير ترجمة فى كثير من الوثائق المصرية .

وهناك عقبات أخرى غير العقبات التى نصادفها بسبب غموض نظام الكتابة تعترضنا وربما أثارت منا ضحكا ، وهى ناشئة عن خفة الكاتب وجهله : على أن كثرة الأغلاط الكتابية فى كل مخطوط كتابى تكاد تكون لسوء الحظ أمراً عاديا . وليست هناك مخطوطات يعد الخطأ الكتابى فيها خطراً كما فى الكتابة الهيروغليفية ، فإنه يكفى للكاتب أن يضيف (خطأ) مخصصا إلى كلمة فيتغير معناها إلى معنى مختلف كل الاختلاف عما يقصده الكاتب ، وقد تؤدى غلطة من هذا النوع

جهل الكاتب

إلى خطأ فى الترجمة ، وتسرب أمثال هـذه الأغلاط أمر سهل الوقوع وذلك لغموض طبيعة الكتابة وهـذا الخطأ فى الترجمة نتيجة طبيعية لهـذا النظام الغامض . على أن المصريين القدماء كانوا أقل احتفالا منا بأمثال هـذه الأغلاط ، فكانوا يصححون هذا الخطأ أثناء القراءة ومن الواجب أن نفرض حصول ذلك منهم ، وإلا فإنه لا يصدق أن فرداً كان ينقل كتاباً لاستعماله الشخصى ثم يغض النظر عما فيه من أخطاء كثيرة .

ولنتكلم الآن عما خلفه لنا تلاميذ المدارس فى عهد الدولة الحديثة ـ وأعنى بذلك أوراق البردى وقطع الخزف التى كانوا يسطرون عليها واجباتهم اليومية التى يأمرهم بها معلموهم . يظهر أن هؤلاء التلاميذ كانوا لا يؤدون واجباتهم دائما عن طيب خاطر لذلك كثرت الأغلاط الشنيعة التى كانوا يرتكبونها فى مثل هـذه المتون . ولم تخل أساس المتون عبارة من بعض الأغلاط ، وعلى ذلك لانشك فى أن جزءاً كبيراً من متن موقعة « قادش » كان مصيره الغموض لولم نستند فى تصحيحه إلى النقوش التى ساعدتنا على إصلاح كثير من أغلاطه وما كانت نسخة « بنتاور » لتغنينا عن ذلك شيئًا .

أغلاط التلاميذ فى نقل المتون

وكان التلميذ عند ما يكلف نقل كتاب يصعب عليه فهمه لما فيه من التعبيرات اللغوية القديمة يغير فيه تغييراً يضيع من المعنى ، وإذا كانت الحال كذلك فإننا نشكر الله إذا استطعنا أن نلمس الصواب فى بعض انحاء الموضوع الذى يتحدث عنه الكتاب ، ومما يؤسف له أن كتاباً قيما كتعاليم « دواوف » قد وقع فريسة فى يد تلاميذ مدارس الأسرة

التاسعة عشرة ، ولا يعزينا عن ذلك أن نرى بعد بضعة قرون تلاميذ مدارس الأسرة الثانية والعشرين قد أساءوا من ناحيتهم — على النحو السابق — نقل كتابات الأدب المصرى الحديث . ونقرر هنا أننا مدينون بالشكر للمدارس المصرية فقد حفظت لنا كثيراً من هذا الأدب من الضياع غير أن الشكر الذى يهديه مترجم أمثال هذه الكتابات المحشوة بالأغلاط لهذه المدارس سيكون دائما ممزوجا بشىء من الفتور .

نظرة اجمالية فى تطور الادب المصرى

لقد بقى التاريخ المصرى والأدب المصرى ، وكل مايتعلق بالحياة المصرية سرا غامضا فى كل العالم حتى بداية القرن التاسع عشر؛ أما ما نقله اليونان عن المصريين مدة اختلاطهم بهم فلم يكن إلا حقائق مشوهة نقلت بالرواية فضلا عن أن ماوصل إلينا لايمثل إلا جزءاً من تاريخ البلاد فى أيام شيخوختها وتدهورها . وقد كان اليونان الذين نقلوا إلينا بعض معتقدات المصريين وعاداتهم الموروثة من أزمان سحيقة ينظرون إليها بعين الاحتقار والرهبة معا لأنها لاتتفق مطلقا مع دنيا حضارتهم . وقد بقى المصريون فى نظر الأوروبيين والمصريين الحاليين كالصينيين الأقدمين . ومن المدهش أنه رغم حركة الكشوف الحديثة التى قامت فى عصرنا فإنهم لايزالون معروفين بأنهم قوم لا ثقافة لهم ولا علوم ولا آداب كباقى أمم العالم حتى أن المصرى الحديث عندما يريد أن يتكلم عن الأدب فى مصر لا يذكر شيئا عن مصر القديمة بل يقصر كلامه

نظرة الاغريق والمصريين المعاصرين إلى الادب المصرى

على الأدب العربى فى مصر . وكأن مصر منذ فجر التاريخ حتى الفتح العربى لم يكن لها شىء قط من التراث الأدبى يمكن أن يفاخر به أبناؤها كما يفاخر الفرنج بأدبهم الخاص فى مختلف العصور ، والواقع أن المصرى لا يلام على جهله بأدب بلاده العتيق وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عاملين هامين : الأول أنه منذ الفتح العربى اختفت لغة البلاد جملة وحلت محلها اللغة العربية وآدابها فأسدل الستار على لغة القوم وأصبحت نسيا منسيا ولم يبق للمصرى مجال فى أن يدرس تاريخها أو أدبها وبخاصة إذا علمنا أن اللغة قد ماتت .

سبب جهل المصرى بالادب المصرى القديم

العامل الثانى أنه لما حلت رموز اللغة القديمة لم يعتن المصريون بدروسها بل تركوا مجال هذا الدرس للأوربيين إلى عهد قريب جدا عندما بدأ نفر من المصريين يتعلمون لغة البلاد القديمة ، ولكن رغم ذلك فإن معظم المثقفين فى مصر أو الذين يدعون أنهم مثقفون ، لايزالون يعتقدون أن مصر القديمة لم يكن فيها حياة أدبية وثقافة خلقية كالتى عند الشعوب المتحضرة .

مكانة المصرى ومقدار ذكائه

على أن المصريين فى عهد تاريخهم الأول كانوا على عكس الفكرة الشائعة عنهم ، إذ كانوا قوما لهم هبات عقلية ، وكانوا متوقدى العزيمة ، أيقاظا على حين كانت أمم أخرى من الأرض لاتزال فى سباتها ؛ ولقد كانت نظرتهم للعالم ملتهبة متوقدة مملوءة بالمغامرة كنظرة الإغريق الذين أتوا بعدهم بآلاف السنين . ويشاهد ذلك جليا فيما وصلوا إليه من الأعمال الفنية الواسعة النطاق ، بل يشاهد بوضوح أكثر فى أعمال التصوير والنحت التى تبرز الحياة عندهم فرحة ناطقة .

إن قوما هذه مواهبهم جديرون بأن يجدوا سرورا فى إعطاء أغانيهم وقصصهم شكلا أغنى وفنا أكثر . وكذلك نمت بينهم من وجوه أخرى حياة عقلية وعالم فكرى يبحث فيما وراء الأشياء الدنيوية ودائرة الدين . ومنذ أن اخترع المصريون نظام الكتابة نمت بينهم من زمن بعيد مجموعة من الكتابات المختلفة الأنواع تعهدوها بالتنمية ، وجعلوا لها صبغة أدبية وإن الكثير منا لم يحفل بها ولم يعتقد يوما بأن للمصريين القدماء أدبا يعتد به .

ولقد حفظ لنا التاريخ شيئا كثيرا من أعمال التصوير عند المصريين حتى استطعنا أن نكوّن عنها فكرة تكاد تكوّن ثابتة لاتقبل التغيير كثيرا ، على حين أن موقفنا بالنسبة للأدب المصرى ـ لسوء الحظ ـ لايزال مختلفا جدا إذ ليس لدينا منه إلا شىء قليل . لأن العثور على مؤلف أدبى يتوقف على مصادفة غير متوقع حدوثها كبقاء ملف من البردى الهش فى جوف الأرض من ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين . ولذلك لم نعثر إلا على قطع منفردة كانت بلاشك فى الأصل أجزاء من مجاميع عظيمة من الكتابات ؛ على أن كل كشف جديد من ذلك النوع يضيف خاصية جديدة إلى الصورة التى صورناها لأنفسنا عن الأدب المصرى وهذه الصورة أصبحت فى الجملة تكاد تكون صحيحة لأنها تشتمل على احتمال له قيمته الفعلية ؛ فإن كل مرحلة تاريخية يظهر لنا فيها الأدب المصرى مطبوعا بطابع خاص يميزه عن غيره ويتفق مع ما نعرفه عنها من الحقائق التاريخية

لم يصلنا من الادب المصرى الا القليل

وبقدر ماتتسع له طاقتنا من استقراء آثار اللغة المصرية القديمة ، نستطيع أن نقول إن هناك دلائل تدل على أن العناية كانت موجهة إلى

تنمية اللغة . فهي غنية بالاستعارات والتشبيهات أى أنها « لغة مثقفة » « لغة إنشاء وتفكير » للشخص الذى يكتب بها . ومن المحتمل أن أحد كتب الأمثال القديمة (١) على الأقل قد أنشىء فى عهد الدولة القديمة فى خلال حكم الأسرة الخامسة (سنة ٢٧٠٠ ق . م تقريبا) وهذا هو العصر المعروف لدينا بعصر المستوى العالى لفن التصوير على الخصوص . ولكن يظهر أن الرقى التام للأدب المصرى القديم لم يبلغ غايته إلا فى العصر المظلم الذى يفصل الدولة القديمة عن الدولة الوسطى (٢) ، وكذلك فى عهد الأسرة الثانية عشرة المشهورة (١٩٩٥ — ١٩٧٠ ق . م) . وكتابات هذا العصر ظلت تقرأ فى المدارس خمسمائة سنة ولم يجرؤ أحد أن يحيد عن لغتها أو أسلوبها فى الكتابة . والخاصية التى يمتاز بها هذا الادب القديم ظاهرة فى الولوع بالتعابير الممتازة ولانستطيع أن نسمى ذلك تصنعا . وحلاوة الالفاظ مع عذوبتها ، كانت تعد صناعة عالية لابد أن يبذل الإنسان جهدا ليصل إليها . ويشاهد كذلك أن هذا كان حقيقة ميل هذا العصر من نقوشه التى طالما كان يقوم بتأليفها جماعة من المتعلمين ، فإنها كانت تكتب بالأسلوب المزخرف .

ازدهار الادب فى عصر الاقطاع

وبعيد عن الصواب أن يقال إن كل مجهودات هذا العصر كانت موجهة إلى تنميق الألفاظ فحسب ؛ فإن كتّاب هذا العصر أقدموا على

(١) انظر الجزء الاول ص ٣٩٩ الخ (٢) ثلاثة من أهم الكتب فى الادب القديم . وهى تعاليم للملك « مرى كارع » وتعاليم دواوف وشكاوى الفلاح . كتبت فى عصر الملوك الذين حكموا مصر الوسطى والدلتا من عاصمتهم هراكليبوليس . ولا نعلم إلا الشىء اليسير عن هؤلاء الملوك وهذا ما يجعلنا نظن أنهم لم يلعبوا دورا هاما فى ترقية الشعب المصرى ولكن من المحتمل أن الادب ازدهر فى بلاطهم وهذا رأى « بلاكمان » أيضا وهو يلفت النظر إلى مستوى الفن العالى فى هذا العصر كما يظهر فى مقابر « مير »

الكتابة فى موضوعات هامة ولم يحجموا عن الخوض حتى فى المسائل العميقة .

ونلاحظ من جهة أخرى أن الديانة تأخذ مكانا ثانويا فى هذه الكتابة ولا يكاد يذكر شىء فى هذه الكتب الأدبية عن كل الآلهة الذين كان المصريون يهتمون بهم كثيراً على حسب الفكرة الشائعة عنهم . ومن المحتمل أن الاعتقاد القديم كان مجرد وراثة عند الفرد المهذب ، فكان لزاما عليه أن يأخذ بناصره ظاهراً ، وكان يرضى نفسه فى عالم فكره بالفكرة غير المحدودة « الله » .

فكرة الوحدانية عند المصرى

وليس قصدنا أن نغض النظر عن الحقيقة الواقعة وهى أن جزءاً عظيما من هذا الأدب القديم قد ضاع ؛ وليس معنى هذا أنه لم يكن للمصريين أدب فقد وجدنا أمثلة كثيرة . وعقيدتنا أن الضائع منها أكثر ، وما وجدناه يرجع الفضل فى عثورنا عليه إلى المصادفة المحضة ، فقد وجدنا بعضه فى قبور التلاميذ مدفونا معهم . على حين أن كتبا من نوع آخر كانت تحفظ مع الأحياء فيدركها العفاء .

ومهما يكن من أمر فإن المدارس لم يقل شأنها فى العصر الثانى للأدب ، وهو عصر الدولة الحديثة الأخير (حوالى ١٣٥٠ ق . م .) .

وقد نما هذا الأدب الحديث مضاداً للأدب القديم فإنه إلى هذا الوقت كانت لغة الآداب القديمة هى لغة الأدب فى كل القرون ، وغاية ما حدث أن اقتربت من لغة المحادثات فى الوثائق الحيوية أو فى القصص الشائع (١) واخيراً أصبح الفرق بين اللغتين عظيما إلى حد أن اللغة

(١) من ذلك قصة الملك خوفو والسحرة . وسيلاحظ القارىء سهولة لغتها حتى فى الترجمة .

القديمة لم يعرفها أحد من عامة الشعب (١) . غير أن هذه القيود قد حلت في عهد الثورة الدينية العظيمة التي حدثت في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة أيام « امنحوتب الرابع » ؛ فقد بدأ القوم يكتبون الشعر بلغة العامة . وقد كتبت بهذه اللغة « انشودة الشمس » الجميلة وهي عبارة عن منشور للإصلاح الديني . وقد اختفى كل جديد أدخل على هذا النظام الذائع بعد انهياره اللهم إلا نظام الكتابة بلغة العامة فإنه كتب له البقاء وذلك — بلا شك — لأن الأحوال التي استمرت إلى هذا الوقت قد أصبح بقاؤها مستحيلا . وفي عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ازدهر أدب قوي مكتوب باللغة الجديدة التي نسميها « المصرية الجديدة » .

ظهور اللغة العامية والكتابة بها

وفي عصر « المصرية الجديدة » كان كذلك للمدارس القدح المعلى ولكن كتاباتها في ذلك العهد اتخذت صيغة أكثر حياة مما كانت لها في العصر القديم . وهذه الحيوية تظهر بوضوح في أدب هذا العصر إذ رأى الناس الدنيا كما هي وشغفوا بها ، وعلى قدر ما وصل إلينا من كتاباتهم يلاحظ أن الأفكار العميقة ليس لها محل في أدبهم ، على أنه من الجائز أن كشفا جديداً قد يصحح حكمنا من هذه الناحية .

ولم يستمر الأدب المصري الجديد طويلا في طريقه باستعمال لغة الشعب كما بدأ حقيقة (كما كنا نظن) إذ سرعان ما أخذ الكتّاب يبحثون وراء تهذيب العبارات ، وهذه كانت علامة ظاهرة في الأدب القديم . وقد أصبحت لغه الفرد المهذب محلاة بألفاظ وجمل منتقاة ، وكان

---

(١) ولولا أن كتابة الكلمات المصرية مهمل فيها كل الحركات الشكلية لظهر أمامنا الفرق عظيما جدا كما يجده القارىء الحديث بين اللغة الايطالية واللاتينية أو اللغة العربية الفصحى واللغة العامية .

تنميق العبارات واستعمال ألفاظ أجنبية

يجد سروراً فى تزيينها بألفاظ أجنبية . وقد بقى هـذا النوع من الأدب يهذب نحو خمسة قرون على ما يظهر ثم أصبحت لغته منعدمة ، وكان على الأولاد فى المدارس أن يتعلموها ؛ وبذلك يظهر أنه قد قضى على الحياة الأدبيــة فى مصر الآيلة إلى السقوط وقد بقى الحال كذلك عـدة قرون إلى أن ظهر أدب جديد يسمى بالديموطيقى .

قد تكلمت فيما سبق عن الكلمات الأجنبية التى كثرت فى كتابات العصر الأخير من الدولة الحديثة ، وكلها تقريباً مستعارة من لغة أهل فلسطين وهى ترينا كما نعلم من مصادر أخرى العلاقات البينة بين مصر وفلسطين ويمكننا حينئذ أن نفرض أن « كنعان » قـد تأثرت بمصر من ناحية الأدب كما تأثرت بها من ناحية النحت . ولا شك فى أنه لو وصل إلينـا شىء من الأدب الفينيقى لرأينـا فيه التأثير المصرى ؛ ولكن نرى فى الأدب العبرانى — وإن كان يقع فى عصر متأخر بكثير عما نحن بصدده الآن — عدة أشياء تذكرنا جليا بنوع من الكتابات المصرية كما فى المزامير ونشيد الإنشاد فى الأدب الحكيم عند العبرانيين . ومن المحتمل أن متشابهات من هذا النوع يمكن اقتفـاء أثرها على الأقل من طريق غير مباشر بإيماثلها فى اللغـة المصرية وإذا كانت الحـال كذلك فليس من البعيد أن نكون قد تأثرنا نحن أنفسنا بالحياة العقلية المصرية .

العلاقة بين الادب المصرى والادب العبرانى

الكتاب المتعلمون

نجد من أقدم العصور فجوة عميقة تفصل المصرى المثقف المتعلم تعلما راقيا عن عامة القوم . وقد وجد ذلك عند ما اخترع المصريون الكتابة لأن الفرد الذى

كان يظهر البراعة فيها كان يحوز قصب السبق على إخوانه مهما كان مركزه فى الظاهر حقيرا فإن الحاكم نفسه لم تكن له أهمية وقتئذ بدون مساعدة كتّابه ، ولذلك كان لكبار الموظفين فى الدولة القديمة سبب قوى فى حبهم لتمثيل أنفسهم فى هيئة الكتّاب ؛ فقد كانت الكتابة هى المهنة التى وصلوا بها إلى مراكزهم وقوتهم . وكانت الطريق مفتوحة إلى كل وظيفة للشخص الذى تعلم الكتابة وعرف كيف يعبر عما فى ضميره بألفاظ مختارة مهذبة .

أهمية الكتابة والكتاب فى المجتمع المصرى

وعلى ذلك فشا بين الكتّاب نوع من الغطرسة والكبرياء والاعتزاز بطائفتهم . ويظهر هذا واضحا جدا فى الأدب القديم الذى كونوه ويجب أن توسم هذه الطائفة بالاحترام لأنها وضعت مثلا أعلى للموظف العظيم . فكان واجب الموظف أن يكون محايدا ، وأن يكون الشخص الذى يحول دون عبث القوى بالضعيف ؛ والحاذق الذى يعرف كيف يجد سبيلا حتى بين أعقد المصاعب ؛ والفرد المتواضع الذى لايقذف بنفسه قط إلى الأمام ؛ ومع ذلك فان آراءه يؤخذ بها فى مجلس الشورى . وكل كتابة أو قول له يجب أن يميز عن العامة . بهذه الروح كان الكتّاب يعملون جيلا بعد جيل كما أنشئوا الشباب من أبناء طائفتهم على هذه المبادىء نفسها . وفى عهد الدولة الحديثة بقى الميل إلى البيروقراطية ومدارسها كما كان من قبل ، وعلى الرغم من كل الخلافات الظاهرة فإن رسائل المعلمين لم تعظ بشيء غير ما وعظت به كتب الحكمة القديمة . وليس هناك فرق إلا أن تعاليمهم كانت مستورة تحت ثوب أكثر حذقا وإن ما تنطوى عليه مراميهم من الكبرياء كان أكثر تجسما فى هذه الكتابات منه فى أى وقت آخر.

المغنون والقصصيون

مما لاجدال فيه أن الكتّاب المتعلمين قد أنشئوا الأدب المصرى ، غير أنه كان فى حيز الوجود قبلهم أفراد يمارسون فنا أقل من فنهم وكان لهذا الفن تأثيره على الأدب .

وكل من له اتصال تام بالمصريين فى عصرنا لايسعه إلا أن يحمل معه ذكرى غناء الفلاحين والبحارة تتجاوب فى الحقول الخضراء وعلى مياه النيل الصفراء اللون . ولسنا نعرف إذا كان هذا الغناء الخاص الذى يخرج من الأنف يرجع إلى الوراثة من الزمن القديم ، ولكن الشعور بلذة الغناء يرجع بلا شك إلى الوراثة . فكل من الفلاح وصاحب المهنة فى مصر القديمة كان يستعين على عمله الشاق بغنائه المتواضع حتى لقد كان الغناء يعد جزءاً من العمل الذى يقوم به العامل ؛ يدلنا على ذلك أن المثّال عند تمثيل ما يريده كان يضيف الأغنية إلى الصورة الممثلة . وسنورد أمثلة من هذه الأغانى فى العصور المختلفة فى المقام المناسب . ومن سوء الحظ أن الأغانى التى كان يغنيها فاتنات القيان فى حضرة سادتهن لم توجد ممثلة معهن ونشاهد فقط أن طائفة من البنات يغنين وفقاً لحركات أخريات يرقصن ؛ ولا يبعد أن تكون تلك الأغانى ساذجة بريئة كالأغانى التى كان يتغنى بها العمال . ونشاهد فى كل العصور مغنين مكفوفى البصر (1) . وليس هناك شك فى أن هؤلاء التعسين كانوا يحترفون الغناء . وكذلك كان هناك نساء اتخذن الغناء حرفة لهن ؛ وفى نهاية الدولة الحديثة — فى قصة — « سياحة ونامون » سنشاهد مغنية مصرية فى سوريا عملت

حب المصرى للغناء والموسيقا

نشر الحضارة المصرية بالمغنين

(1) See, e. g, Blackman, Rock Jombs of Meir, II. pl. 12 f.

على نشر الحضارة المصرية من هذه الناحية.

وإذا كان كل من المغنى والمغنية قد وجد له مكانا فى المناظر التى كانت ترسم على القبور، فإننا نحاول عبثاً أن نجد القصصيين ممثلين. ولا عجب فى ذلك فإن القصصى لايعرض سلعته فى بيت الأمير الشريف، ولا فى حقله بل كان يقص حكاياته على عامة الشعب وعلى قارعة الطريق، وحياة الطرق لم تمثل فى المقابر. ولا شك فى أن القصصى فى الزمان القديم كان يمتع سامعيه كما يمتعهم الشاعر العصرى فى أيامنا هذه.

انتشار القصص فى كل عصور التاريخ المصرى

ولدينا قصص للعامة من كل عصور التاريخ تدل نغمتها ومحتوياتها على أنها من أصل قديم وإذا كان قصص الروائيين الحاليين تدور حول شخصية تاريخية مثل «الظاهر بيبرس» والخليفة «هرون الرشيد»، فان القصص القديمة كذلك لها علاقة بأشخاص لهم شهرتهم فى التاريخ فلدينا قصة من العصر المسيحى فى مصر خاصة «بقمبيز» ولدينا قصة من العصر الأغريقى عن «نقطانب»، وقد حفظ لنا هردوت مما كتبه حكاية ممتعة عن «رمبزنيتس»، وفى الأوراق البردية الديموطيقية نقرأ قصة الملك بيتوبستس وحكاية رئيس الكهنة خاموس وفى نهاية الدولة الحديثة نجد قصة الملك «تحتمس الثالث» وقصة ملك الهكسوس «ابوفيس» ومن أواخر الدولة الوسطى نقرأ قصص الملك «خوفو».

وقد نجد أمثال هذه النغمة الساذجة والتى قد تكون مبتذلة أحيانا ظاهرة فى كثير مما خلفه لنا المصريون فى خرافاتهم الدينية كأسطورة «إزيس»، وخرافة إله الشمس المسن ورسوله الثمل (١)، والآلهة التى

(١) كان كتاب الدولة الحديثة يفصلون الجمل بعضها عن بعض بوساطة نقط حمراء وكانوا يستعملون هذه النقط أيضا فى النصوص النثرية كنقط وقف.

لم يمكنها العودة ثانية إلى مصر. ويخيل إلينا أن هذه القصص كأنما وصلت على يد أفراد عرفوا ميول العامة وأذواقهم . على أنها وإن كانت قد وصلت إلى الدخول فى الدين بهذا الشكل العامى فإن ذلك يمنع من أنها عامية الأصل .

أوزان الشعر

كل ما يكتبه المصرى بلغة عالية يقع فى أسطر قصيرة متقاربة الطول ولو أننا لانعرف شيئا عن نغماتها إلا أننا نرجح كثيرا اعتبار هذه الاسطر أبيات شعرية منسوبة إلى وزن من الأوزان الشعرية . ولاشك فى أن هذا صحيح فى كثير من الأحوال ومحقق فى الحالات التى يكون فيها على الدوام عدد محدود من الأسطر تتوازن معا كما يثبت ذلك المعنى . ويكون عدد الأسطر عادة ثلاثة أو أربعة كما ترى فيما يأتى :

انت تنزل فى سفينة من خشب الصنوبر ،
تتحرك من المقدم الى المؤخر ،
وتصل الى قصرك الجميل هذا ،
الذى بنيته لنفسك ،

فمك مفعم بالنبيذ والجعة ،
والخبز واللحم والفطير ؛
وتذبح الثيران وتفتح أباريق النبيذ ،
والغناء الحسن أمامك .

ورئيس مضمخيك يضمخك بعطر « كمى » ،
وساقيك يحمل تيجان الازهار ،
ورئيس فلاحيك يقدم الدجاج ،
وصيادك يقدم السمك .

وكثير من أمثال هذه الأشعار تمتاز مقطوعاتها بأن كل منها تبتدىء بكلمات مشتركة فى الكل . فمثلا فى « مناظرة بين إنسان سئم الحياة وبين روحه » نجد ثمانية المقطوعات المركبة منها الأغنية الأولى تبتدىء كل مقطوعة منها بما يأتى : « انظر إن اسمى ممقوت » ومقطوعات الأغنية الثانية تبتدىء بما يأتى « لمن أتكلم اليوم ؟ » الخ

وفى أنشودة النصر « لتحتمس الثالث » نجد رابطة المقطوعات بعضها ببعض فى الحقيقة مزدوجة لأن السطر الثالث من كل مقطوعة يبتدىء بألفاظ واحدة أيضا ، فالأسطر الأولى تبتدىء بما يأتى : « إنى قد أتيت حتى أجعلك تطأ . . . . . . » والسطر الثالث يبتدىء بما يأتى : « إنى أريهم جلالتك . . . . . » أما كل من السطر الثانى والرابع فبدايته ليست مقيدة . .

الشعر غير المقفى

غير أن هـذه البدايات المتشابهة توجد كذلك فى متون فقراتها مختلفة الطول ، وعـدد سطورها ليس واحدا . ويمكن أن نعتبر هـذه الفقرات غير المنتظمة مقطوعات ليست مقيدة فى تركيبها . ولابد من أنه كانت هناك مقطوعات كهذه فى الشعر ليست مقيدة فى تركيبها ولا تظهر كأنها شعر لعدم تماثل الكلمات التى تبتدىء بها كل واحدة منها . وظاهر هنا أننا لازلنا نتلمس الحقائق فى ظلام دامس ، ومن المحتمل أننا سنبقى دائما هكذا ، إذ أن السؤال الذى يتوقف عليه كل شىء لايزال غامضا لدينا ولايمكن الجواب عليه أعنى : ماهو الوزن الذى كان يتبعه المصرى فى صناعة الشعر ؟

هـذا السؤال لايمكننا أن نجسر على الجواب عليه بأى فرض كان

وإذا فرضنا كما هو محتمل من الوجهة النحوية – أن كل كلمة في اللغة سواء أكانت اسما أم نعتا أم فعلا الخ – لها حركة خاصة فإنه ينتج من ذلك أن كل بيت من الشعر لابد أن يكون فيه من حركتين إلى أربع حركات ؛ وبذلك تكون أبيات الشعر عندهم حرة فى نغماتها وليست مقيدة بوزن . ومما يؤيد هذا الفرض أن مصريى العصر المسيحى (الأقباط) كانوا ينظمون شعرهم بهذه الطريقة الخالية من القيود الوزنية مثل :

السبب فى عدم امكان معرفة أوزان الشعر المصرى

رجل آخر يذهب الى الخارج
يمكث سنة ثم يعود الى بيته
ولكن « ارشليت » قد ذهب الى المدرسة
وما عدد الايام حتى أرى وجهه .

ولابد أن المقطوعات الشعرية المصرية المركبة من أربعة أسطر كانت تشبه فى نغماتها الرباعيات القبطية . على أن أمثال هذه النغمات الخالية من القيود الوزنية كانت تقرر كذلك فى ظرف آخر . ذلك أنه حينما يكرر بيت من الشعر مثلا فى أول المقطوعة فإنه يمكن وضع جملة أطول بدلا من اسم فردى ، فبدلا من « أوزير يستيقظ بسلام » الذى تبتدىء به المقطوعه الأولى فإنه يمكن أن يتغنى فى الثانية « الباقى أبديا ؛ رب المأكولات الذى يعطى مايقوّم الحياة لمن يحب ، يستيقظ بسلام » ، ولشعرهم ميزته الخاصة ، وهى العادة الغريبة فى بابها التى تعودنا أن نطلق عليها « توازن أجزاء الجملة » فليس بكاف أن يعبر الشاعر عن فكرة مرة واحدة بل يجب أن يعبر عنها مرتين ، وعلى ذلك نجد جملتين قصيرتين ، معناهما متشابه أو واحد : تتبع احداهما الأخرى مثال ذلك : « القاضى يستيقظ » ، « تحوت يجلس » ، أو : « ثم تكلم هؤلاء

تكرار المعنى بألفاظ مختلفة

أصدقاء المسلك » ، « وأجابوا أمـام إلهم » . ففى كل من المثلين يلاحظ أن الجملة الثانية مرادفة لما قبلها ولا فائدة منها . مثال آخر : « وهم الذين يدخلون فى هذا القبر » ، « وهم الذين يشاهدون مافيه » حيث نجد أن التكرار يحدث فكرة جديدة .

والسبب فى التعبير بهذه الطريقة هو الغرام بزخرف القول فإن المتكلم يشعر بأنه يمكنه أن يستعمل جملة ثانية فى معنى ما نطق به أولا ، وعلى ذلك لا يسعه إلا النطق بها فى الحال مرة أخرى فى شكل جديد . وعلى مر الأزمان أصبحت هـذه طريقة مقررة فى الكتابة ، إذ كانت تعـد حلية طبعية للكلام الراقى ، وقد عودنا كتّاب العهد القديم هـذا النوع الغريب من التعبير لأنه كان سائدا عند العبرانيين والبابليين ولذلك لم يدهشنا ذلك كثيرا فى المتون المصرية . وتقدر تماما غرابة هذه الطريقة فى التعبير بمجرد تحويل قطعة من شعر آخر إلى هذا الأسلوب المصرى .

استعمال المترادفات فى لغة الشعر وسببه

وعلى أية حال فإن هذا التوازن أو الترادف فى الجمل لم يوضع قط يوما من الأيام ليكون قالبا ثابتاً للشعر ، ولكنه بقى دائما مجرد حلية لفظية كان من المحقق أن تستعمل بدون أى تحفظ فى الوقت الذى يريد الشاعر فيه أن يعبر عما فى ضميره بلغة عالية .

وقد أدى كذلك الشغف بتنوع الأساليب إلى عادة الإشارة إلى الشخص الممدوح فى الأنشودة بأسماء جديدة وألقاب مختلفة . من ذلك « أنشودة الصباح » المترجمة فيما بعـد ؛ فإن البيت الواحـد منها يتنوع بهذه الطريقة إلى مالا نهاية له . ويظهر هذا مملا وثقيلا على آذاننا ، ولكن ذلك يرجع إلى أننا لم نتذوق بعد أسرار المسميات المختارة ولم نفهمها بعناية

وهذا النوع من الأسلوب خاص كذلك بأناشيد المديح التى يمتاز بها الأدب المصرى وهى تبتدىء باسم الممدوح مسبوقا : بجملة تعجب ، مثال ذلك : « المديح لك ! » أو « التعبد لك ! » . ثم يتبع هذا نعوت محضة ، وأسماء ، وأسماء أفعال ، وجمل موصولة تنعت الفرد الممدوح وتعيد إلى الذاكرة جليل أعماله [١] وتستمر هـذه النعوت تباعا بلا نهاية ومن غير ترتيب ويظهر ذلك جليًا حينما لايعير الشاعر ترتيب هذه النعوت المتتابعة فى ذهنه أية أهمية . ومن ذلك يستخلص أن الشعر المصرى على وجه عام ليس له معنى ومن يقرأ « تحذيرات نبى » [٢] التى يصف فيها بؤس زمانه فإنه يدهش حينما يرى أن هذا الشاعر لم يبذل أى مجهود فى ربط كلامه بعضه ببعض بطريقة منسجمة . فهو شاعر ، قلبه مفعم ببؤس بلاده فينفجر قلبه حينا بهذه الشكوى ، وحينا بتلك . وعلى ذلك يمكن فهـم أناشيده من هذه الناحيـة . ولـكن الإنسان إذا أنعم النظر فى جملة ما رآها شيئًا مخالفا ؛ لذلك فالرجل يتـكلم على البديهة ، وعلى ذلك فـكل كلمة استعملها فى آخر البيت الذى قاله تحدو به إلى فـكرة أخرى جـديدة ليس بينها و بين سابقتها عـلاقة فيعبر عنها فى الحال . وإليـك مثلا : يقـول الشاعر أن كل شىء مفعم بالحياة حتى الأطفال الصغار ، وعنـد ذكر الأطفال يحضر فى ذاكرته أن الأطفال يقتلون ويلقى بهم على تلال الصحراء ، ثم تذكره تلاع الصحراء بالموميات التى تنتزع هناك من القبور ويلقى بها عليها .

ويجب قبـل أن نختم هـذا البحث أن نذكر حليتين أخريين كان

---

(١) نجد مثالا لاناشيد المديح فيما بعد بين الاشعار الدينية فى العصر القديم .

(٢) جزء أول ص ٤٠٠ الخ .

المصريون مولعين بتزيين كلامهم بهما . وليس حتما علينا أن نعدهما خاصيتين مميزتين للشعر المصرى وهما الجناس ، وبداية الكلمات بحروف واحدة .

الجناس فى الشعر المصرى

أما الجناس فكان أسلوبًا محببا لدى المصريين . وقد وجدت طقوس دينية قديمة جداً لتقديم القرابين لوحظ فيها الجناس فى كل اسم من أسماء مواد الطعام واستعمل الجناس كذلك بنظام فى قصيدتين من أدب الدولة الحديثة قد دونتا فيما بعد[1] غير أن هذا الجناس لايمكننا وصفه فى الترجمة .

وفى العصور التى نحن بصددها الآن لا نلاحظ حالات الجناس الحرفى إلا من وقت لآخر . مثال ذلك بيتان من الشعر يشيران إلى « أمنحوتب الثالث » : « حاربت عصاه بلاد النهرين ، وأخضع قوسه السود » .

ولابد أن الأشعار التى تبتدىء كلماتها بحروف متجانسة وجدت فى ذلك الوقت ، وإلا فكيف حصل المصريون فى العصر اليونانى — الذين لم يكونوا مطبوعين على التجديد — على نموذج أشعارهم التى تبتدىء كلماتها بحروف متشابهة وهو النموذج الذى كانوا يميلون إلى استعماله فى نقوش معابدهم ؟ وقد كان رجال الدين فى ذلك العصر يجدون لذة فى ذكر كلمات تبتدىء بحروف متشابهة فى الجملة الواحدة . واستعمال مثل هذه الأساليب يمكن أن يعزى أيضا إلى الدولة الحديثة .

---

(١) أنشودة غرام ، والشعر الخاص بالمركبة الحربية
Erman Literatur Der Ægypter P. 348

مختارات من أدب الدولة القديمة

أمثلة من الشعر

لم تكشف لنا الآثار حتى الآن عن أى نوع من الأغانى والأناشيد والأحاديث المنظمة من عهد الأسرة الأولى، ولكن رغم ذلك يجب أن نسلم بأنها كانت موجودة. والواقع أنه يوجد كثير من التراكيب الشعرية فى لغة العصر التاريخى مما ترجع نغماته إلى العصر السحيق على أنه لم يبق لنا من هذا الشعر القديم إلا النزر اليسير، وهو على قلته لا يكشف لنا عن عذوبة الشعر الفطرية: لأن ما لدينا منه ينحصر فى صيغ وأناشيد دينية ومع ذلك فإن الطالب المصرى الذى يعرف كيف يقرأ ذلك الشعر الدينى يمكنه أن يأخذ فكرة عامة عن حقيقة الشعر الدنيوى المقابل له — فهو شىء مختلف جد الاختلاف عما يصوره لنا أدب مصر فى عصر ازدهاره عند ما كان غنيا بنغماته وقوافيه. ولقد كان التعبير فى هذا الشعر القديم حيا ساذجا، وكانت الأفكار متنقلة غير مستقرة، وكانت الضمائر فى هذه المتون تتغير فجأة من استعمال إلى استعمال وكل هذا يدل على طرافة الشعر وجدته — وإذا تغاضينا عن سذاجة هذه الصيغ القديمة وغرابتها فإننا نستطيع أن نكشف الغطاء من حين لآخر عن روح شعرية فطرية قل أن نجدها فى عصور أخرى أكثر تهذيبا.

منتخبات من متون الاهرام

تكلمت عن متون الأهرام والغرض منها فى الجزء الأول ص ٣٥٧ الخ

وهذه المتون تهتم اهتمامًا خاصًا برغبة المتوفى المعظم (الملك) فى الابتعاد عن تمضية حياة مظلمة فى العالم السفلى ، فإن هذا العالم هو مصير المتوفين العاديين ، أما المتوفى الأعظم فإنه يعيش فى السماء كما تعيش الآلهة وهناك يمكنه أن يسبح مع إله الشمس فى سفينته أو يسكن فى حقول المنعمين أو يمرح فى حقول قربان الطعام أو حقل « يارو » ؛ ومن الممكن أن يصير نفسه إلهًا وقد افتن الشعراء فى تصوير هذا الدور كما شاء لهم خيالهم فلم يكتفوا بتصويره (الملك) فى أروع مظاهر الاستقبال من الآلهة بل رفعوه إلى مرتبة الغزاة الفاتحين لعالم السماء .

وتتصل بهذه الأفكار فكرة أخرى لها علاقة بالإله أوزير الذى يعتبر المثل الأعلى للموتى من بنى الإنسان فقد قتل مرة ثم أعيد إلى الحياة وصار حاكم الأموات وهو بهذه الكيفية يعتبر فى متون الاهرام أنه ساكن فى السماء .

ولغة متون الأهرام عتيقة ولا يزال فهمها محفوفًا بصعوبات عظيمة إذ تشير إلى حوادث وأساطير ليست معلومة لنا وبخاصة الأساطير الدينية .

١ — **سياحة المتوفى الى السماء** : (١) إن الطائر يطير ! إنه يطير بعيداً عنكم أنتم أيها الناس . ولم يعد بعد على الأرض فهو فى السماء .

وأنت يا إله مدينته أن روحه (كا) (٢) بجانبك وهو يندفع إلى السماء مثل الواق (اسم طائر) ويمتطى السماء مثل الصقر ، ويتهادى نحو السماء كجرادة .(٣)

(١) من فصل ٤٦٧ من متون الاهرام (٢) وقد سميتها الروح المادية (٣) هذا التشبيه الساذج قد حفظ فى متون هرمين غير أنه لم يعجب ذوق الناشر المثقف الذى كان يحضر متون هرم « بيبى » فوضع بدلا من الجرادة « حور أختى » آله الشمس وبذلك أفسد المعنى ، غير ان هذا الوضع كان يتفق مع ذوق الملك المتدين أكثر من مقارنته بجرادة

ب ـــ **ومنها** [١] : ما أسعد الذين يشاهدونه متوجا بتــاج « رع » ! ومئزره عليــه كمئزر « حتحور » ، وريشه كريش صقر . وهو يصعد إلى السماء بين إخوانه الآلهة .

جـ ـــ **ومنها** [٢] : إن قلبك معك يا « أوزير » ومعك قــدماك يا « أوزير » ؛ ومعك ذراعاك يا « أوزير » . وإن قلبه معه ، ومعه قدماه ، وذراعاه معه [٣] لقد أقيم له منحدر إلى السماء ليصعد عليه إلى السماء [٤]

إنه يصعد على دخان البخور العظيم .

إنه يطــير كطائر ، ويحط كجعل فى مقعد خال فى سفينة « رع » : قف ، اخرج إنك بدون . . . . . . حتى يجلس فى مكانك [٥]

إنه فى السماء ـ يجدف فى سفينتك يا « رع » . وينزل على الأرض فى سفينتك يا « رع » .

وعند ما تــكون فوق الأفق ، فإنه يكون هناك ، وعصاه فى يده كملاح سفينتك يا « رع » . إنك تصعد إلى السماء بعيداً عن الأرض ، . . . . .

د ـــ **ومنها** [٦] : استيقظ أيها القاضى [٧] ! يا « تحوت » ، انهض ! استيقظوا يانيــام ! تحركوا يامن فى « كنست » ! [٨] أمام الأنيس العظيم

---

(١) فصل ٣٣٥ من متون الاهرام (٢) فصل ٢٦٧ من متون الاهرام

(٣) كما ان جسم « أوزير » لم ينقص منه شيء فكذلك كان حال المتوفى .

(٤) فى عصرنا يعمل سلما من خشب أما فى عصر قدماء المصريين فكانوا يبنون منحدرات من اللبن للصعود عليها وذلك لقلة الخشب فى مصر (٥) أى أنه يسبح كمجدف فى قارب الشمس ، واكراما له يخرج « رع » أحد الآلهة من مكانه ليحل المتوفى محله

(٦) فصل ٢١٠ من متون الاهرام (٧) اسم آله القمر « تحوت » الذى كان يفصل فى الخصومات بين الآلهة (٨) شمالى بلاد النوبة ، غير أنه من المحتمل هنا أنه يقصد بها مكانا فى السماء . والواقع أن المصريين كانوا يعتقدون أن عالم الاخرة كعالم الدنيا فى أسمائه وشكله وصفاته

(طائر مائى) الذى ارتفع من النيل ، ولإله ابن آوى الذى خرج من شجرة الأثل (١) .

إن فمه لطاهر ، وإن تاسوعى الآلهة قد بخراه ، وإن لسانه الذى فى فمه طاهر ، إنه يكره الروث ويعاف البول (٢) وهو يكره ما يكره . وهو يكره هذا ولا يأكل هذا . . . . . .

وأنتما أيها التوءمان اللذان يسبحان فى السماء : « رع » و « تحوت » (٣) خذاه إليكما ليكون معكما : حتى يأكل مما تأكلان ؛ ويشرب مما تشربان وحتى يعيش مما تعيشان وحتى يسكن حيث تسكنان ؛ وحتى يصير قويا بما يجعلكما قويين ؛ وحتى يسبح هناك حيث تسبحان .

إن كوخه قد أقيم فى « حقل يارو » ومرطباته فى حقل « قربان الطعام » . ومأكولاته معكما أيها الإلهان ، وشرابه كشراب « رع » إنه يحيط بالسماء « كرع » ويخترق السماء « كتحوت »

هـ — المتوفى يظفر على السماء (٤) : « إن فى السماء شجارا ، وإنا لنرى شيئا جديدا » هكذا تقول الآلهة الأولى (٥) .

وتاسوع (٦) « حور » يبهر ، وإن أرباب الأشكال لفى ذعر منه .

---

(١) كان المتوفى يظهر فجأة على هيئة عصفور يطير ، وعلى هيئة ابن آوى يتسلل الى الخارج .

(٢) كان المصرى الاولى يمقت كل المقت أن يضطر الى أكل برازه بعد الموت (٣) الشمس والقمر (٤) فصل ٢٥٧ من متون الاهرام (٥) التى تشاهد الشجار (٦) التاسوع (بسجت بالمصرية القديمة) هو اسم لآله الشمس والآلهة الثمانية التى تعد فى الاساطير المتفق عليها أنها أولاده وأحفاده وأولاد احفاده : شو وتفنوت ، جب ونوت ثم الاحوان والاختان أوزير وست وإزيس ونفتيس . وزيادة على ذلك كان هناك تاسوع آخر على رأسه حور فمثلا نرى فيما بعد وفيما سلف أيضا التاسوع المزدوج أى أن التاسوعين قد ذكرا منضمين الى بعض .

وكلا التاسوعين يخدمه ؛ وهو يجلس على عرش رب العالمين والسموات مطويات بيمينه ، وهو يشق معلنها (١) ، ويزف فى طريقه إلى « خبر » ويغيب حيا فى الغرب ، وسكان العالم السفلى (٢) يتبعونه ويشرق مجددا فى الشرق .

وذلك الذى فصل فى الشجار (٣) يأتى إليه مطأطىء الرأس . والآلهة تخافه لأنه أكبر سنا من « الواحد العظيم » إنه صاحب السلطان على مكانه . وهو الذى يقبض على القيادة (٤) . والأبدية تجلب إليه . والحكمة (٥) موضوعة له عند قدميه . صح له عاليا فرحا فانه قد استوى على الأفق

و — المتوفى يلتهم الآلهة : (٦) إن السماء محجبة بالغيوم والنجوم تمطر (؟) والأقواس تتحرك للرمى ، وأوصال آلهة الأرض ترتعد . . . . . . (٧) حينما تشاهد كيف يظهر فى شكل واضح كإله يعيش على آبائه ويأكل أمهاته . إنه رب اا . . . . الذى لاتعرف

---

(١) الذى يتكون منه السماء وما يلى يصف كيف أن المتوفى يقوم بالسياحة اليومية مع الشمس فى مجراها (٢) العالم السفلى أو السماء السفلى . (٣) الآله « تحوت » مستشار إله الشمس (٤) الكلمة المصرية « حو » وهى تمثل مظهر القوة الملكية التى تتجلى فى الكلمات التى تخرج من فم الملك

See A. H. Gardiner, Proceedings of the Society of Biblical Archaeology, XXXVIII. p. 49)

(٥) أى الحكمة التى يحتاج اليها للحكم

(٦) فصل ١٧٣ - ١٧٤ من متون الاهرام . ترجمة :

J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, p. p. 127, 129; R. O. Faulkner, Journ. of Egypt. Archaeology, X. p. p. 97, 103.

(٧) أى أن العالم بأجمعه فى ارتباك بسبب الخوف منه . والاقواس هى جزء من السماء .

أمه اسمه (١) . له الفخار فى السماء ، وله القوة فى الأفق مثل « آتوم » والده الذى ولده ، وقد ولده ولكنه (المتوفى) أقوى منه . أرواحه حوله وصفاته تحت قدميه ؛ وآلهته فوقه وصلاله على حاجبه وحيته (٢) فوق جبهته . . . . . : وقواه تحميه . إنه ثور السماء ، وقلبه ميال إلى النطاح ؟ . وهو الذى يعيش على حياة كل إله ، وهو الذى يأكل أعضاءهم عندما يكونون قد ملئوا بطونهم بالسحر فى جزيرة « نبسيسى » . . . . . (٣)

وهو يظهر كهذا الواحد العظيم رب الخدم الإلهية وهو يجلس وظهره إلى « جب » (٤) . وهو الذى ينفذ الحكم مع من خفى اسمه فى يوم ذبح المسنين (٥) . وهو رب طعام القربان الذى يعقد الحبل (٦) ويهيىء طعامه .

وهو الذى يأكل الناس ، ويعيش على الآلهة ، ويملك الحمالين ، ويرسل الرسل (٧) . وهو الذى يلقف سحرهم ويبتلع سيادتهم . فالكبار منهم غذاؤه فى الصباح ، والمتوسطون حجما وجبته فى المساء ، وصغارهم أكلته فى الليل . والمسنون من رجالهم والمسنات من نسائهم قد حصصوا لبخوره .(٨)والعظماء الذين فى شمالى السماء يوقدون له النار تحت القدور ووقود هذه النار أفخاذ المسنين .(٩)وسكان السماء يخدمونه ، وقدور الطبخ تمسح له بسيقان نسائهم .

---

(١) لانه إله أرفع مرتبة منها (٢) أى الحية التى تسمى الصل وهى شارة الملك التى كان يعتقد فيها أنها تحرق أعداءه . (٣) من المعتقدات المعروفة أن آكلى لحم الانسان كانوا يعتقدون أنهم بأكلهم لحم أعدائهم يكتسبون قوتهم أما جزيرة نبسيس فانها تذكر كثيرا فى الخرافات المصرية (٤) إله الارض (٥) الذين حكمت عليهم المحكمة بالاعدام . (٦) يحتمل أنه الحبل الذى يوقع به فريسته للذبح

(٧) كان له خدمه الذين ذكروا بأسماء غريبة فى القطعة التى تلى هذا فى متون الاهرام .

(٨) اى انهم كانوا يحرقون كبخور . (٩) اى انها كانت تستخدم وقوداً .

وقد أحاط بالسماءين جميعا وقد اخترق شاطئ النهر . وهو « الواحد القوى » صاحب السلطان على الأقوياء . . . . . . وإنه ليأكل من يعترضه نيئا (؟)، ومكانه فوق رأس الأشراف الذين فى الأفق . وهو إله أكبر من أكبرهم سنا . الألوف تخدمه والمئات تضع له القرابين وقد منحه « أريون » (نجم) أب الآلهة عهدا بتعيينه واحدا عظيما قويا [١] وقد توج فى السماء من جديد ، وإنه ليلبس التاج ، كرب الأفق .

وقد كسر عظم الظهر والنخاع الشوكى ، وقد اختطف قلوب الآلهة وقد أكل التاج الأحمر وابتلع التاج الأخضر وهو يعيش على رئات الحكماء ؛ ويرتاح لأن يعيش على القلوب وسحرها ويفرح حين يلتهم الـ . . . . . التى فى التاج الأحمر [٢] . وهو ينمو وسحرها فى بطنه وألقابه لم تغتصب منه . وقد ابتلع عقل كل إله .

مدة حياته الخلود ، وحدوده الأبدية إذا أراد فعل ، وإذا لم يرد لم يفعل ، وهنا تتجلى مكانته ـ وهو الواحد الداخل فى حدود الأفق إلى أبد الآبدين . تأمل فان روحهم فى بطنه وسيادتهم معهم وإن فضلات طعامه تفضل طعام الآلهة وما يحرق له هو عظامهم وأرواحهم معه وظلالهم مع زملائهم ؟ [٣]

المتوفى يأتى رسولا إلى أوزير [٤]

(رجاء موجه الى النوتى (المعداوى) فى السماء لينقل المتوفى حيث يسكن أوزير) .

---

(١) مما يلفت النظر أن البيروقراطية تتدخل حتى فى وسط هذه الوحشية المتناهية فالإله آكل لحم الانسان يحتاج إلى منحه عهدا ليعين فى وظيفة (٢) كان للتيجان قوى خارقة للعادة (٣) المعنى غامض (٤) متون الاهرام فصل ٥١٨

أيها العابر إلى « حقل قربان الطعام » أحضر لى هـذا ! أسرع إنه هو ! . إنه هو تعال ! هو ، ابن سفينة الصباح التى قد ولدته على الأرض ، إن ولادته تامة لاتشوبها شائبة وعلى تمامها حياة الأرضين .

إنه هو بشير العام [١] يا « أوزير » انظر ، إنه يأتى برسالة من أبيك « جب » : محصول العام سعيد ، ما أسعد محصول العام ، محصول العام حسن ، ما أحسن محصول العام ! »

لقد نزل مع التاسوعين إلى « نهر الماء البارد » [٢] وهو المنشىء للتاسرعين ومؤسس « حقل قربان الطعام » [٣] . وقد وجـد الآلهة منتظرين ، ملفوفين فى ملابسهم ، ونعالهم البيضاء فى أقدامهم . وعندئذ ألقوا بنعالهم البيضاء على الارض وخلعوا ملابسهم [٤] . « لم يهدأ لنا قلب حتى أتيت » هكذا قالوا . . . .

مصير أعداء المتوفى

(من فقرة طويلة [٥] ؛ وهى خاصة بأعداء يريدون أن يغتصبوا منه طعامه ونفسه)

إنه أقوى منهم حينما يظهر على شاطىء نهره . وقلوبهم تسقط بين أصابعه [٦] . ويأخذ ممن فى السماء أحشاءهم وممن فى الأرض [٧] دمهم

(١) يظن أنه الشخص الذى يقـدم تقريرا إلى سيده عن نتيجة المحصول كذلك يحضر إلى أوزير رسالة سارة من إله الارض « جب » (٢) اسم النهر السماوى (٣) لا بد أن إلها أنشأ هذا المكان للآلهة والمنعمين وقد شبه به المتوفى (٤) اشارة الفرح أو السرور وفى مصر الحديثة تخلع النسوة النعال فى الارياف علامة على الاحترام عند المرور بشخص عظيم فى قريتهن (٥) فصل ٢٥٤ من متون الاهرام (٦) أى يمزقهم (٧) الطيور والحيوانات المفترسة

الأحمر . الفقر وريشهم ، والماضى مساكنهم ، والنيل المرتفع [١] أبوابهم (ولكنه)فرح القلب ، فرح القلب ، هو ، الواحد الأحد ثور السماء وقد جعل الذين عملوا له هذا يفرون ، وقضى على خلفائهم .

الفرح بالفيضان [٢] : (من فقرة طويلة بعض الطول ومعناها مبهم) ؛ يرتعش من يرون النيل فى فيضان تام . والحقول تضحك وشاطئا النهر يفيضان وقربان الإله ينزل[٣]ووجوه القوم مستبشرة ، وقلوب الآلهة فرحة .

أناشيد الصباح

كان يرحب بالآلهة فى المعابد فى الصباح بأنشودة تشتمل — على الأخص — على النداءات التى كانت تكرر دائماً « استيقظ فى سلام » ويتبع تلك النداءات فى كل مرة اسم مختلف للإله ، وعلى ذلك كان المفروض أن الآلهة كانت تستيقظ كذلك فى السماء بهذه الطريقة نفسها بوساطة آلهة أيضاً . وهذا يساعدنا على فهم كنه هذه الأنشودة وهى الأغنية التى كانت النسوة يوقظن بها الملوك فى الصباح فى أقدم عهود مصر التاريخية .

ويمكن أن يفرض الإنسان أن ألفاظا مثل « أنت ياملك ، أنت ياسيد مصر ، أنت يارب القصر » قد حلت محل الاسماء الإلهية فى النسخة الأصلية للأنشودة ، وكانت تغنيها النساء بهذا الشكل أمام مسكن الإله على وتيرة واحدة وبدون انقطاع ما أسعفتها الذاكرة المغنية بأسماء صالحة

(١) نيل مرتفع يغمرهم بمائه (٢) فصل ٥٨١ من متون الاهرام (٣) حتى الآلهة ستحصل على طعام أكثر .

ا — **إلى إله الشمس** [١] : استيقظ بسلام ، أنت يأيها الواحد المطهر [٢] ، فى سلام ! استيقظ بسلام ، أنت ياحور الشرق ، فى سلام استيقظ بسلام ، أنت يأيها الروح الشرقى ، فى سلام ! استيقظ بسلام ، أنت يا «حور أختى» فى سلام ! أنت تنام فى قارب الغروب ، أنت تستيقظ فى قارب الصباح ، لأنك أنت الذى تشرق على الآلهة ، ولا إله يشرق عليك !

ب — **إلى الصل الملكى** [٣] استيقظى فى سلام ! يأيتها الملكة العظيمة استيقظى فى سلام ؛ إن استيقاظك ممتلىء بالسلام . استيقظى فى سلام ! يأيتها الحية التى على حاجب (الملك الفلانى) ، استيقظى فى سلام ؛ إن استيقاظك ممتلىء بالسلام . استيقظى فى سلام ! يأيتها الحية الصعيدية ، فى سلام ، إن استيقاظك ممتلىء بالسلام . استيقظى فى سلام ! يأيتها الحيـة البحرية ، استيقظى فى سلام ، إن استيقاظك ممتلىء بالسلام . استيقظى فى سلام ! يا « رننوتث » [٤] ، استيقظى فى سلام ؛ إن استيقاظك ممتلىء بالسلام . استيقظى فى سلام ! يا « وزيت » صاحبة ..... الفاخر ، استيقظى فى سلام إن استيقاظك ممتلىء بالسلام . استيقظى فى سلام ! أنت ياصاحبـة الرأس المنتصبة ، وذات الرقبـة العريضة [٥] ، استيقظى فى سلام ، إن استيقاظك مفعم بالسلام . الخ الخ

(١) من متون الاهرام فصل ٥٧٣ (٢) الشمس تغسل نفسها عند خروجها من الظلام . (٣) الحية التى توضع فى تاج الملك وتعد كآلهة
(٤) آلهة الحصاد (٥) هكذا يصور الصل الملكى
Erman, Hymnen an das Diadem p. 34.

تعاليم « فتاح حتب »

تعد تعاليم « فتاح حتب » أقدم مصدر فى أدب العالم صور لنا الخلق المستقيم والواقع أن حكمة « فتاح حتب » التى جاءت عن تجارب تلخص لنا كثيراً من الأدب الخلقى لهذا العصر وكما جاء فى مقدمة هذه التعاليم نجد أن الوزير المسن قد شعر بضعف الشيخوخة وطلب إلى الملك أن يسمح له بتعليم ابنه (ابن الوزير) ليحل محله فى وظيفته . ولما قبل الملك ملتمس وزيره أخذ الأخير يحذر ابنه بألا يسىء استعمال الحكمة التى سيلقنه إياها بل ينتهج سبيل التواضع فقال : « لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك ، ولاتثقن بأنك رجل عالم ، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لايمكن الوصول إليها ، وليس هناك عالم يسيطر على فنه تماما . وإن الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم ، ومع ذلك فإنك تجده مع الإماء اللائى على أحجار الطواحين » .

ثم يأتى بعد ذلك اثنتان وأربعون فقرة فى نصائح مختلفة دون أى مجهود من المؤلف فى ترتيبها أو تنظيمها بل كتب كلا منها عفوا حسبما كان يحضر ذهنه من تجارب الحياة ومسئوليتها . وسنكتفى هنا بذكر أهمها .

معاملة الخطيب : « إذا وجدت خطيبا فى زمانه سليم العقل أمهر منك فأثن له ذراعك وأحن له ظهرك . أما إذا تكلم هجراً فلا تقصرن حينئذ فى مقاومته حتى ينادى به الناس : أنت إنسان جاهل .

ولكن إذا كان مماثلا لك فأظهر بصمتك أنك أحسن منه إذا أخطأ فى الكلام ، وعندئذ سيمدحه السامعون ولكن اسمك سيعتبر حسنا بين العظماء . »

أما إذا كان شخصاً حقيراً ليس ندا لك فلا تغضبن عليه لأنك تعلم أنه تعس . . . . . . احتقره وبذلك يؤنب نفسه . وإنه لقبيح أن يضر الإنسان شخصاً محتقراً .

إنك تفوز بالحياة بمساعدة الحق والصدق : إذا كنت قائداً وتصدر الأوامر للجم الغفير فاسع وراء كل كمال حتى لايكون نقص فى طبيعتك . إن الصدق جميل وقيمته خالدة وإنه لم يتزحزح منذ يوم خالقه [١] والذى يتخطى نواميسه يعاقب . وهو أمام الضال كالطريق المستقيم . إن الخطأ لم يقد مقترفه إلى الشاطئ . حقيقة أن الشر يكسب الثروة ولكن قوة الصدق فى أنه يمكث والرجل المستقيم يقول إنه متاع والدى [٢] .

أدب السلوك فى الضيافة : إذا اتفق أنك كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاماً فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك ، ولا تنظرن إلى ماهو موضوع أمامه بل انظر إلى ماهو موضوع أمامك . ولا تصوبن لحظات كثيرة إليه لأن ذلك مما تشمئز منه النفس إذا أحفظها الإنسان : وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك وتكلم فقط بعد أن يرحب بك واضحك حينما يضحك فإن ذلك يدخل السرور على قلبه وما تفعله يكون مقبولا لأن الإنسان لايعلم مافى القلب [٣]

والرجل العظيم يتوقف عزمه على إرادة نفسه حينما يجلس أمام الطعام والرجل العظيم يعطى لمن يجاوره ولكن نفسه تمد يدها من أجله

---

(١) « رع » الذى جلب الصدق إلى العالم (٢) يعنى أن أحسن شىء ورثنى اياه والدى هو أنه أنشأنى على الصدق (٣) يجب أن تكون متحفظا فى حضرة الرجل العظيم لانك لاتعرف طبائعه.

(البعيد)[1] والخبز يؤكل بأمر الله [2]. . . . . . .

كن أمينا فى تبليغ الرسائل : إذا كنت فرداً ممن يوثق بهم وأرسلك رجل عظيم إلى آخر ، فاعمل بنصح فى الأمر حينما يرسلك . فيجب عليك أن تبلغ الرسالة كما قالها ، ولا تكونن كتوما فيما يمكن أن يقال لك واحذر النسيان . واحرص على الصدق ولا تتخطه حتى لو كنت مخبراً شيئا لا يسر. واحذر أن تقبح الكلام ، فربما يصير العظيم محتقراً عند آخر بوساطة القاء الكلام كالعامة . « وصيرورة العظيم واحدا من العامة أمر تكرهه النفس .»

إذا حرثت وكان هناك نبات فى الحقل ، وأعطاك الله الخير العميم فلا تشبعن فمك بجانب أقاربك . . . . . . (الباقى غير مفهوم)

لا تصغرن من شأن أولئك الذين ارتقوا فى الدنيا : إذا كنت رجلا متواضعاً ، وكنت فى ركاب رجل ذائع الصيت من الذين على وئام مع الإله (الملك) ، فتجاهل ماضى وضاعته ، ولا تحقدن عليه ، بما تعرفه عنه فيما سلف ، واحترمه على حسب مكانته التى أصبح فيها لأن الغنى لا يأتى وحده . . . .

خصص لنفسك وقتا لترويح نفسك : اتبع لبك ما دمت حياً (روحك) ، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك . ولا تنقص من الوقت الذى تتبع فيه قلبك ، لأنه مكروه عند النفس (الكا) إذا انتقص وقتها (و يظهر

---

(١) كان الرجل العظيم يقدم عند الأكل ما لذ وطاب لمن هم بجواره ولكن اذا كانت حالته النفسية حسنة فانه يمد يده للبعيد . (٢) قد يعنى بذلك الروح المادية وقد ورد فى مكان آخر أن الله موجود فى الانسان.

على الأخص أن تحذيراً ذكر ضد ؟) العناية الزائفة بمنزلك .

معاملة ابنك : إذا كنت محترمًا ، وكان لك بيت ، وولد لك ابن رضى الله عنه — فإذا عمل صالحا ، ومال إلى طبعك ، وسمع تعاليمك ، وكانت خططه ذات نتيجة حسنة فى بيتك ، ومعتنيا بمالك كما يجب ،فابحث له عن كل شىء حسن .

فهو ابنك الذى ولدته لك « كاك » (نفسك) ولا تنفرن قلبك منه .

ولكن إذا عمل سوءاً ، وأعرض عن خططك (نصائحك) ولم يعمل حسب تعاليمك ، وصارت خططه لاقيمة لها فى بيتك ، وتحدى كل ما تقوله . . . . عندئذ أقصه لأنه ليس ، ولم يولد لك . . . .

السلوك فى بهو العظماء

إذا وقفت أو قعدت فى البهو ، فانتظر بهدوء حتى يأتى دورك .

واصغ إلى الخادم الذى يعلن ؛ ومن نودى فله مكان متسع (١) . والبهو له نظامه ، وكل ترتيب فيه على حسب خيط القياس . وإن الإله هو الذى يعين المكان الأول — ولا يصل الإنسان إلى شىء بالمرفق .

كن حازما فى حديثك مع الناس .

أعلن عملك بدون خفاء ، وتقدم بأفكارك فى مجلس سيدك . . . . .

ويجب على الإنسان أن يقول بوضوح ما يعرفه وما لايعرفه . (السطر الأخير هكذا) : فهو صامت ويقول : « لقد تكلمت » .

معاملة أصحاب المظالم : إذا كنت ممن يقدم لهم الشكاوى ، فكن

---

(١) أى أن الانسان ليس فى حاجة الى أن يندفع الى الامام بحالة تتنافى مع الذوق

شفيقا حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسيء معاملته إلى أن يغسل بطنه[١] .
وإلى أن يقول ماقد جاء من أجله ، وإن المتظلم يحب كثيراً أن يهز الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهى مما جاء من أجله . . . . وأن مجلسا حسنا يسر القلب .

ولكن من يمثل القسوة نحو المتظلم ، فإن الناس يقولون : « لأى سبب يفعل هو كذلك ؟

التحذير من النساء : إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله سيدا أو أخا أو صاحبا ، فاحذر القرب من النساء ؛ فإن المكان الذى هن فيه ليس بالحسن .

ومن أجل هـذا يذهب ألف إلى الهلاك : فإن الرجال يصيرون مجانين بأعضائهن المبهرجة وبعد ذلك ! تصير مثل « حجر هرست » [٢] شيئا تافها مثل الحلم ، والموت يأتى فى النهاية .

التحذير من الشراهة : إذا أردت أن يكون خلقك محمودا ، وأن تحرر نفسك مما هو قبيح ، فاحذر الشراهة فإنها مرض مملوء بالداء ولا يشفى . والصداقة معها مستحيلة ، فانها تجعل الصديق العذب مراً ، وتقصى ذا الثقة من سيده ، وتجعل كلا من الأب والأم قبيحا وكذلك الأخوال ، وتفصل الزوج من زوجته . وهى حزمة من كل أنواع الشر وحقيبة من كل شيء مرذول . وإن الرجل الذى يتبع طريقة حقة فى

(١) ان المشابهة بين إزالة الهموم التى تثقل القلب وبين غسل البطن قد ورد ذكرها كذلك فى شكاوى الفلاح

(٢) أى أن أعضاءهن المبهرجه تجذبك غير أنها بعد لذة قصيرة الامد تظهر باهتة اللون مثل حجر هرست الذى يعتبر فى غير هذا المكان علامة العذاب .

سلوكه ويسير على الصراط السوى ، يعيش طويلا : ويكسب الغنى بذلك ولكن الشره لاقبر له [١] .

لاتكونن شرها فى القسمة ، ولاتكونن ملحا إلا فى حقك ،ولاتطمعن فى مال أقاربك ، فإن التماس المتواضع يجدى أكثر من القوة . . فإن القليل الذى اختلس منه يولد العداوة (حتى) عندصاحب الطبع اللين

فائدة الزواج : إذا كنت رجلا ذا مكانة ، فأسس لنفسك بيتا ، وأحبب زوجتك فى البيت كما يجب [٢] . وعليك أن تملأ بطنها وتستر ظهرها ؛ والعطور هى دواء أعضائها . واشرح قلبها طالما عاشت فإنها حقل مثمر لربها .

كن كريما مع أصدقائك : أشبع أصدقاءك بما جد لك كإنسان نال الحظوة عند الآله (الملك) ومن الحزم أن تفعل ذلك إذ ليس هناك إنسان يعرف مصيره إذا فكر فى الغد . فاذا أصابت المقربين مصيبة فإن الأصدقاء هم الذين لايفتئون يقولون مرحبا له . . . . فعليك أن تستبق ودهم لوقت السخط الذى يهدد الانسان .

كن حذرا فى الكلام : إذا كنت رجلا ذا مقام سام يجلس فى محفل سيده فوطن عقلك على ماهو حسن. الزم الصمت فان هذا أحسن من أزهار « تفتف » . وتكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل المعضلات وإن الذى يتكلم فى المحفل لفنان (فى الكلام) . والكلام أصعب من أى حرفة أخرى .

---

(١) اى لايجد قبرا يدفن فيه وهذا دليل على الفقر المدقع (٢) وفى رواية أخرى : وخذ لنفسك زوجة تكون سيدة قلبك .

Breasted, Dawn of Conscience, p. 133.

لاتثقن بالحظ : إذا أصبحت عظيما بعد أن كنت صغير القدر ، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجا فى المدينة التى تعرفها (موطنك القديم) ، فلا تنسين كيف كانت حالك فى الزمن الماضى . لاتثقن بثروتك التى أتت إليك منحة من الآله (الملك) فإنك لست بأحسن من غيرك من أقرانك الذين حدث لهم ذلك (الفقر) .

احترام الرؤساء : أحن ظهرك لمن هو أعلى منك (رئيسك فى إدارة الملك) . وبذلك يبقى بيتك بخيره . ويدفع لك مرتبك فى حينه . ومقاومتك من فى يده السلطة قبيح . والإنسان يعيش مادام متساهلا ..

الحزم فى المصاحبة : إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألنه ، ولكن اقترب منه ، وكن معه منفردا ... وامتحن قلبه بالمحادثة فإذا أفشى شيئا قد رآه ، وأتى أمرا يجعلك تخجل له فعندئذ احذر حتى فى أن تجاوبه .... كن صبوح الوجه مادمت حيا .

وسنكتفى بهذا القدر من نصائح « فتاح حتب » .

ولدينا نصائح وتعاليم أخرى يرجع عهد كتابها إلى الدولة القديمة ولكن النسخ التى وصلتنا محرفة كتبت فى عصور متأخرة وأهمها تعاليم « كاجمنى » وتعاليم « دواوف » وسنتكلم عنها فى حينها .

٢ — من الدولة القديمة :

أغانى العمال

أغنية الرعاة : عند ما ينتهى الفيضان يسوق الرعاة أغنامهم فوق التربة اللينة لتحرث الحقل بحوافرها الحادة . وفى أثناء اشتغالهم بذلك كانوا يغنون فى الدولة القديمة :

الراعى فى الماء بين الأسماك . ويتحدث إلى البلطى ويرحب بال . . . . .
سمك . أيها الغرب ! من أين آتى الراعى ؟ راعى الغرب [١] .

أغنية السماكين : أثناء جر الشبكة كانت تغنى هذه الأغنية : إنها تأتى وتحضر لنا صيداً جميلا !

أغنية حاملى المحفة : كان الرجال الذين يحملون سيدهم فى محفته يغنون : خير لنا أن تكونى مملوءة من أن تكونى خالية ! أو . ما أسعد الذين يحملون المحفة ! خير لنا أن تكون مملوءة من أن تكون خالية !

الاغانى فى الولائم

عند ما كان أهل المتوفى يولمون وليمة له فى قبره كانوا يجهزون أكلة ويعتقدون أنه سيكون حاضراً معهم ، وكانت هذه الوليمة لاينقصها شىء مما يحتاج إليه فى مثل هذه المناسبة فكان فيها الخمر والموسيقا والأزهار والعطور .

وقد حفظ لنا لوح قبر من العهد الإقطاعى بداية إحدى هذه الأغانى التى كانت تطرب الضيفان أثناء هذه الولائم . وقد مثل عليه عواد بدين يغنى :

آه يأيها القبر لقد أقمت للأفراح ، لقد أسست لما هو جميل(٢). ولدينا أغنية كاملة تلفت النظر كانت تغنى فى مثل هذه المناسبات . وهى تصف زوال كل الأشياء الدنيوية لتحث السامعين على التمتع بأكثر ما يمكن مدة

---

(١) معنى الغرب هنا غامض

(٢) المعنى : انك لست مكان حزن .

(2) Steindorff, Z. A. S. XXXII. p. 124.

حياتهم . والدولة الحديثة التي قد حفظتها لنا [١] عرفت أنها مأخوذة من بيت الملك « أنتف » [٢] أى من قبره ، وقد كتبت أمام العواد أيضاً . وتوجد صورة كاملة منها بين أغانى الدولة الحديثة .

ما أسعد هذا الأمير الطيب ، والمقدر الجميل قد وقع [٣] تذهب أجسام وتبقى [٤] أخرى منذ عهد الذين كانوا من قبلنا . والآلهة [٥] الذين وجدوا فى الزمن الغابر راقدون فى أهرامهم ، والأشراف قد دفنوا فى أهرامهم كذلك والذين بنوا بيوتا قد أصبحت مساكنهم كأن لم تكن . فماذا جرى لهم ؟

لقد سمعت أحاديث « إمحوتب » و « حاردِدف » [٦] اللذين يتحدث بكلماتهما فى كل مكان — فما هى مساكنهما (الآن) ؟ جدرانها دمرت ومساكنها لاوجود لها كأن لم تكن قط .

ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا كيف حال من قبلنا ويخبرنا عما يحتاجون إليه لتطمئن قلوبنا (؟) قبل أن نذهب نحن كذلك إلى المكان الذى ذهبوا إليه .

كن فرحاً حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوماً ما بموتك ، فمتع نفسك ما دمت حيا ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، ودلك نفسك بالروائح الذكية المقدسة .

---

(1) Preserved in Pap. Harris, No. 500, and partly also on a tombstone of the Eighteenth Dynasty. See W. Max Müller, Die Leibes poesie der alter Ægypter (Leipzig, 1899) p.p. 31 ff.

(٢) لابد أنه أحد إفراد اسرة انتف فى نهايتها

(٣) الموت (٤) على حسب النسخة الحديثة يكون المعنى : تحل محلها .

(٥) الملوك القدماء (٦) من أشهر الحكماء وقد كان أمحوتب يعتبر أنه ابن فتاح أما حرددف فكان يعتبر أنه ابن الملك خوفو .

وزد كثيرا فى المسرات التى تملكها ولا تجعلن قلبك يكتئب . اتبع رغباتك وافعل الخير لنفسك (؟) افعل ما تميل إليه على الأرض ولا تغضبن قلبك حتى يأتى يوم نعيك . ومع ذلك فإن صاحب « القلب الساكن » (١) لايسمع عويلهم وإن الصياح لاينجى إنسانا من العالم السفلى .

وفى أسفل كتب هذا « الحداء »

اقض اليوم فى سعادة ولا تجهدن نفسك ! اصغ ، لايمكن أحدا أن يأخذ متاعه معه . اصغ ، وليس فى قدرة انسان قد ولى أن يعود ثانية .

ازدهار الأدب المصرى فى العهد الاقطاعى

لقد كان لانحلال السلطة الملكية وتأليف مقاطعات صغيرة مستقلة ، فى نهاية الأسرة السادسة أثر عميق فى رجال الفكر الذين رأوا زوال ما كانت عليه البلاد من المجد والسؤدد والاتحاد وانحدارها إلى الانحطاط والفوضى والمشاغبات التى استعرت نارها بين أمراء تلك المقاطعات . وقد قامت فى وسط هذه الفوضى حكومة فى هراكليو بوليس ولكن كما ذكرنا فى الجزء الأول لم نعرف عن حكامها من الوجهة السياسية إلا النزر اليسير ، ولكن رجال الفكر فى هذا العصر قد أسعفونا بوثائق كشفت لنا عن حقيقة حالة البلاد النفسية والمادية والسياسية ولا نكون مبالغين إذا قلنا هنا إن هذا العصر يعد أزهر عصور الأدب فى كل تاريخ البلاد ، لأن كل الوثائق التى وصلتنا تعبر عن شعور نفسانى يصور لنا حالة البلاد فى أيام بؤسها . والواقع

(١) هو أوزير إله الموتى .

أن الإنسان أقدر على التعبير عن شقوته وبؤسه أكثر منه على تصوير فرحه وسروره وأهم هذه الوثائق ما يأتى :

١ ـ تحذيرات نبي : وقد اقتبسنا معظمها فى الجزء الأول عند الكلام على أسباب سقوط الدولة القديمة .

٢ ـ تعاليم الملك خيتى لابنه مرى كارع : وقد اقتبسنا منها بعض مقتطفات عند الكلام على العهد الأهناسى عند ذكر حالة البلاد السياسية (انظر جزء أول ص٤٢٠) وتمتاز هذه الورقة بما جاء فيها من الأفكار الدينية على أن مثل ذلك يكاد يكون معدوما فى كل التعاليم الأخرى. ومن الحكم الرائعة التى جاءت فيها :

قيمة حسن الكلام والحكمة : كن حاذقا فى صناعة الكلام ، لأن قوة الرجل لسانه : والكلام أقوى من أية محاربة . . . والحاذق لايعارضه أحد . والذين يعرفون أنه عاقل لايهاجمونه : ولا يلحقه مكروه أينما كان . ويأتى إليه الصدق بعد أن اختمر تماما (١) ، كما كان يتكلم به الأجداد .

الله وبنو الإنسان : يمر الجيل من الناس ، والله الذى يرعى الخلق قد أخفى نفسه . . . .

احترم الآله فى طريقه (احتفاله) حتى الإله الذى سوى من أحجار

---

(١) المشابهة مأخوذة من صنع الجعة وكانت تعجن الارغفة المصنوعة من الشعير بالماء عجنا خفيفا ثم تخمر ، ومن ثم تصنع الجعة فعملية العجين هذه قد عملت لك لان الصدق الذى فرغ من تشكيله من قبل يقدم اليك فى الكتابات القديمة .

كريمة ، أو من نحاس ، كالماء الذى حل مكان الماء (١) . ولا يوجد نهر يسمح لنفسه أن يبقى مختبئاً ، إذ لابد له من أن يحطم السد الذى قد أخفاه .

والروح يذهب إلى المكان الذى يعرفه ولايضل طريقه بالأمس فاجعل منزلك فى الغرب (الآخرة) جميلا ، ومكانك فى الجبانة فاخرا كالرجل العادل الذى عمل عملا صالحا فذلك هو المكان الذى يرتاح فيه قلبه (٢) .

إن الفرد الذى يحمل فضيلة الحق فى قلبه أحب إلى الله من ثور الظالم (أى الثور الذى يقدم قربانا) اعمل شيئا لله حتى يعمل لك المثل بقربان يوضع على المائدة ونقوش تخلد اسمك : إن الله عليم بمن يعمل له شيئا .

وقد ختم هذا الملك الحكيم كلامه بتأملات تدل على اعتقاده بالوحدانية ووصف خالقه المسيطر على العالم نذكرها فيما يلى : إن الله قد عنى عناية حسنة برعيته فقد خلق السموات والأرض طبق رغبتهم وخفف الظمأ بالماء وخلق لهم الهواء حتى تحيا به أنوفهم وهم صوره التى خرجت من أعضائه وهو يرتفع إلى السماء حسب رغبتهم ، وخلق النبات والماشية والطيور والاسماك غذاء لهم وهو كذلك يعاقب فذبح أعداءه وعاقب أطفاله بسبب ما دبروه حينما عصوا أمره (٣) . ويضع النور حسب رغبتهم كذلك يجعلهم ينامون

---

(١) بما أن الآله يخفى نفسه فلابد من احترام صورته اذ انها بدل كاف عنه (٢) تحتاج الارواح الى قبور حسنة تحوى الطعام وتجد فيها سكنا صالحا حينما تأتى الى الارض لتتمتع بالنور

(٣) ايماء الى اسطورة عصيان بنى الانسان انظر جزء اول ص ٢٤١ .

ويسمع عندما يكون وجعل لهم حكاما من الفرج [1]

٣ ــ شجار بين إنسان قد سئم الحياة وبين روحه : (ورقة محفوظة بمتحف برلين) تعد محتويات هـذه الورقة أقدم وثيقة فى متناولنا عن موضوع روحى فى تاريخ العالم وهى تشبه « كتاب يعقوب » الذى كتب بعدها بنحو ١٥٠٠ سنة . ولانزاع فى أن اختيار المؤلف لهـذا الموضوع كان وفقا لحالة الاضطراب والفقر والعوز التى كانت تسود البلاد فى هذا العهد المظلم .

ومما يؤسف له جد الاسف أن مقدمة هذا الكتاب التى ذكرت فيها أسباب هـذه الثورة الروحية قد فقدت ولكن مما بقى لنا من الوثيقة يمكننا من أن نتلمس تلك الأسباب .

والواقع أن هـذا البائس كان رجلا رقيق الروح ولكنه رغم ذلك قد داهمه الحظ العاثر إذ أصبح مريضا وابتعد عنه أصدقاؤه ، وحتى إخوته الذين كانوا من واجبهم أن يواسوه فى مرضه ، ولم يجد بجانبه خلا وفيا . وفى وسط تلك المصائب سرق جيرانه متاعه وماعمله من صالح بالأمس قد نسى اليوم ، ورغم أنه كان صاحب حكمة فإنه قد أقصى عندما كان يريد أن يترافع عن حقه ، وقد حكم عليه ظلما ، واسمه الذى كان يجب أن يكون موضع الاحترام ، « أصبح نتنا فى أنوف الناس »

وفى هـذا الوقت العصيب عندما كان يسبح فى الظلام واليأس صمم على أن ينتحر ؛ فتراه وهو واقف على حافة القبر ، على حين أن روحه كانت تفر من الظلمة فى فزع وتأبى أن تتبعه ، وبعد ذلك تجد فى الورقة أن

(١) اى جعل لهم ملوكا شرعيين .

هذا التعس يكلم نفسه أى يتحدث إلى روحه كأنه يتحدث إلى شخص آخر .

وقد كان أول سبب فى عدم إطاعة روحه فى اتباعه إلى الآخرة خوفها من ألا تجد طعاما فى القبر بعد الموت ، وقد يظهر ذلك غريبا جدا لأول وهلة من رجل يشك كثيرا فى مثل هذه التحضيرات التى كانت تعمل للمتوفى فى آخرته ، ولعل هذا التعليل حيلة أدبية يريد الكاتب أن يتخلص منها إلى عدم فائدة هذه المعدات الجنازية . والظاهر أن الروح نفسها قد اقترحت عليه الموت حرقا ولكنها فرت بنفسها من هذه النهاية الفظيعة . ولما لم يكن من بين الأحياء لهذا التعس صديق أو قريب يقف بجانبه ، ويقوم بالاحتفالات الجنازية ، أخذ يستحلف روحه أن تقوم له بكل هذا ، ولكن الروح على أية حال أبت الموت فى أى شكل وأخذت تصف فظائع القبر : ثم فتحت روحى فمها وأجابت عما قلته : إذا تذكرت الدفن ، فانه حزن ، وذكراه تثير الدمع . وتفعم القلب حزنا ؛ فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقى به على الجبل (الجبانة) ولن تخرج قط ثانية لترى الشمس . على أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر ، وأقاموا حجر دفن فى الهرم ، وهؤلاء الجيلون الذين شيدوا هذا المبنى الجميل وأصبحوا مثل الآلهة ، ترى موائد قربانهم هناك خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون على الجسر من غير خلف لهم ، فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم وتلفحهم حرارة الشمس كذلك ويلتهمهم سمك شاطىء النهر ويعبث بهم . اصغ إلىّ وإنه لجدير بالناس أن يصغوا . تمتع بيوم السرور وانس الهموم .

وهذا هو جواب الروح عندما تمثل أمامها منظر الموت ولكن البائس قد أكد أن « من كان فى هرمه ومن وقف بجوار سرير موته »، أحد الأحياء ، يكون سعيدا ، وقد سعى أن تقوم روحه بدفنه وبتقديم القرابين ، وتقف عند القبر يوم الدفن ، لتجهز السرير فى الجبانة » ولكن كان مثله مثل ضارب العود فى الأغنية التى ذكرناها فيما سبق ، فقد تذكرت روحه قبور العظماء التى خربت ، وموائد قربانهم التى أصبحت خاوية كموائد العبيد التعسين الذين ماتوا كالذباب فى وسط الأعمال العامة ، على جسور الرى ، وقد أصبحت أجسامهم عرضة للحر اللافح ، والأسماك الملتهمة فى انتظار الدفن . فلم يكن هناك إلا حل واحد لكل ذلك : « أن يعيش الإنسان جاعلا الحزن نسيا منسيا ، وينغمس بكليته فى السرور .

ويلاحظ أنه إلى هذا الحد لم تختلف هذه المناظرة التى تنحصر كل فلسفتها فى أن « يأكل الإنسان ويشرب ويكون مرحا لأنه سيموت غدا » عما جاء فى أغنية الضارب على العود ، ولكن بعد ذلك نشاهد أنها تتمشى نحو نتيجة هامة تمتاز بها عن تلك الأغنية إذ أخذت تبرهن على أن الحياة رغم أنها ليست فرصة للسرور ، والملاذ التى لاحد لها ، فإنها عبء لا يمكن احتماله أكثر من الموت . وقد أوضح هذا فى أربع مقطوعات شعرية خاطب بها هذا التعس روحه . وهذه المقطوعات تؤلف الجزء الثانى من هذه الوثيقة ولحسن الحظ نجد معظمها مفهوما .

<u>المقطوعة الأولى</u> : تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم هذا التعس .

<u>المقطوعة الثانية</u> : نجد فى هذا الشعر أن ذلك الشقى ينتقل من نفسه

ليصف هؤلاء الذين كانوا سبباً فى تعسه ، فينظر إلى مجتمع عصره فلا يجد فيه إلا الغش والخيانة والظلم وعدم الوفاء حتى بين أقاربه .

المقطوعة الثالثة : أنشودة فى مدح الموت . على أننا نجد فيها تأملات فى ميزات الموت كما سنجد بعد ذلك بنحو ١٥٠ سنة فيما ذكره افلاطون عن عن أستاذه سقراط ولكنها أول شكوى لرجل حاق به الظلم.ومن المدهش أنها لاتحتوى على أفكار عن الإله ، بل تنحصر فى خلاصه من آلام الماضى التى لاتحتمل . ولا تنظر قط للمستقبل . هذا من مميزات العصر الذى عاش فيه . ولا نزاع فى أن الصورة التى رسمها هذا الكاتب قد أخذت من الحياة اليومية فى وادى النيل فى تلك الفترة .

المقطوعة الرابعة . يختم هذا البائس كلامه بالالتجاء إلى العدالة فى الآخرة وبذلك قد جعل من الموت مدخلا إلى قاعة المحاكمة ، وكان عليه أن يذهب إليها بأسرع ما يمكن .

الشعر الأول

انظر إن اسمى ممقوت . أكثر من رائحة اللحم النتن . فى أيام الصيف عند ما تكون السماء حارة .

انظر إن اسمى ممقوت . أكثر مما يمقت صيد السمك . فى يوم صيد تكون السماء فيه حارة .

انظر إن اسمى ممقوت . أكثر من رائحة الطيور . وأكثر من تل من الصفصاف ملىء بالأوز .

انظر إن اسمى ممقوت ، أكثر من رائحة السّماك . وأكثر من

شواطىء المستنقعات عند ما يصاد عليها .

انظر ، إن اسمى ممقوت . أكثر من رائحة التماسيح . وأكثر من الجلوس . . . . . . حيث التماسيح .

انظر ، إن اسمى ممقوت . أكثر من زوجة ، عند ما يقال عنها الأكاذيب لزوجها .

انظر ، إن اسمى ممقوت ، أكثر من صبى شديد ، قد قيل عنه إنه . . لمن يكرهه (١)

أنظر ، إن اسمى ممقوت . أكثر من . . . . مدينة . أكثر من ثائر ولىّ الأدبار .

الشعر الثانى

لمن أتكلم اليوم ؟ . الأخوات شر . وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب

لمن أتكلم اليوم ؟ . الناس شرهون . وكل إنسان يغتال متاع جاره .

لمن أتكلم اليوم ؟ . اللطف قد باد ، . والوقاحة صارت فى كل القوم .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فإن من كان ذا وجه باش أصبح خبيثا وأصبح الخير ممقوتا فى كل مكان .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فإن الذى يستفز غضب الرجل الطيب بأعماله الشريرة يسر منه الناس (٢) ويضحكون كلما كانت خطيئته شنيعة .

لمن أتكلم اليوم ؟ . الناس يسرقون وكل إنسان يغتصب متاع جاره .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فقد أصبح الرجل المريض هو الصاحب الذى

---

(١) يقصد بغير شك انه ولد من أم أخرى .

(٢) يسخر الناس من الرجل الطيب عندما يستفزه المسىء .

يوثق به ، أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو (١) .

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لايذكر أحـد الماضى ، ولن يفعل أحـد الخير لمن يسديه إليه .

لمن أتكلم اليوم ؟ الأخوات شر ، والإنسان صار يعامل كعدو رغم صدق ميوله .

لمن أتكلم اليوم ؟ . إذ لانرى الوجوه وأصبح كل نسان يلقى بوجهه فى الأرض إعراضا عن اخوانه (٢)

لمن أتكلم اليوم ؟ والقلوب شرهة . والرجل الذى يعتمد عليه القوم لاقلب له .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فالصديق الذى يعتمد عليه معدوم ، وأصبح يعامل الانسان كأنه فرد مجهول رغم أنه قد جعل نفسه معروفا (3)

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لايوجد أحـد فى سلام ، والذى ذهب معه لاوجود له (؟) .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فإنى مثقل بالشقاء وينقصنى خل وفى .

لمن أتكلم اليوم : . فإن الخطيئة التى تصيب الأرض لاحد لها .

الشعر الثالث

إن الموت أمامى اليوم . كمثل المريض حينما يشفى وكمثل الذى يمشى فى الخارج بعد المرض .

---

(١) قد يعنى : بما ان أقاربه قد هجروه فانه لم يعد له صديق الآن إلا من كان فى حالة سيئة

(٢) اى انه لا يوجد انسان يواجه انسانا آخر وجهاً لوجه .

(3) See Gunn, Rec. de Trav., XXXIX. p. 105.

إن الموت أمامى اليـوم كرائحة بخور المر . وكمثل إنسان يقعد تحت الشراع فى يوم شديد الريح (١) .

إن الموت أمامى اليوم كرائحة زهرة السوسن وكما يقعد الانسان على شاطىء السكر (٢) .

إن الموت أمامى اليوم كطريق معبد . وكما يعود الرجل من الحرب إلى بيته .

إن الموت أمامى اليوم كسماء صافية وكرجل . . . لمن لايعرفه

إن الموت أمامى اليوم كرجل يتوق إلى رؤية بيته بعد أن مضى سنين عدة فى الأسر .

الشعر الرابع

إن الذى هنالك (٣) ، سيقبض على (المذنب) كإله حى . ويوقع عقاب الاجرام على من اقترفه .

إن الذى هنالك ، سيقف فى سفينة الشمس ويجعل أحسن القرابين هناك تقدم للمعابد .

إن الذى هنالك سيكون رجلا عاقلا لم ينبذ (٤) . مصليا « لرع » حينما يتكلم .

هذا ما قالته روحى لى : اترك العويل ظهرياً ياخلى ويا أخى . . . سأسكن هنا إذا كنت ترفض الغرب . ولكن حينما تصل إلى الغرب

---

(١) ربما يقصد انه كمثل إنسان يعفى من التجديف (٢) يقصد الشاعر : وليمة على شاطىء النهر البارد (٣) أى المتوفى (٤) لا شك فى ان الرجل السكاره للحياة يشير هنا الى مصيره .

ويتحد جسمك مع الأرض فإني سأنزل عندئذ بعد أن تستريح . دعنا إذا نسكن معا .

شكاوى الفلاح الفصيح (1)

لدينا أربع نسخ من كتاب أطلق عليه علماء الآثار « شكاوى » الفلاح ويرجع تاريخ كتابتها إلى عهد الدولة الوسطى . وهذا الكتاب مثال للفصاحة ، فتعابيره غاية في الرشاقة والبلاغة ؛ وموضوعه هو أن شخصا فصيحا ألقى تسع خطب في ثوب شكاو من أبدع وأروع ما قيل بسبب حادث ظلم وقع له . ومحور هذه الخطب مدح العدل وذم دناءة الموظفين ، ولكن التعابير التي كانت تتدفق من فم الخطيب جعلتنا نكاد ننسى الغرض الذي قيلت من أجله ولاشك أن هذه الخطب قد تظهر للقارىء الحديث مملة متشابهة ، غير أنها ربما كانت في الحقيقة حسنة الوقع في أذن المصري ، يحس بما فيها من رشاقة وحذق مما يتعسر علينا إدراكه ، وبخاصة إذا عرف أننا لم نفهم هذا الكتاب إلا بشكل ناقص جدا .

وقد وقعت حوادث هذه القصة في عهد الملك « نب كا ورع » أحد ملوك هرا كليوبوليس (أهناس المدينة الحالية) ويحمل لقب « خيتي » وقد حكم البلاد في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد (أنظر جزء أول ٤١٤ الخ) وتتلخص القصة في أن فلاحا من مقاطعة الفيوم من اقليم وادي النطرون كان يسكن ببلدة تسمى حقل النطرون . واتفق أن هذا الفلاح وجد مخازن غلاله تكاد تكون خاوية ، فحمل حميره محصولات قريته واتجه نحو

---

(1) J. E. A., IX p.p. 5 etc.

اهناس طلبا للمبادلة بالغلال . وقد كان عليه أن يمر فى طريقه إلى العاصمة بمنزل « تحوتى نخت » أحد موظفى « رنزى » . الذى كان المدير العظيم لبيت الملك . وقد راقت هذه الحمير فى عين « تحوتى نخت » فدبر حيلة للاستيلاء عليها عنوة هو وأتباعه ، فاتخذ من أ كل أحد الحمير بضع سيقان من القمح سببا لضرب الفلاح ضربا مبرحا واغتصاب حميره وقد مكث بباب « تحوتى نخت » أربعة أيام يرجو فيها إرجاع حميره ولكن بدون جدوى . ولما علم هذا الفلاح بشهرة عدالة « رنزى » المدير العظيم لبيت الملك ، ولّى وجهه شطر المدينة ليشكو إليه ماحاق به ؛ ولحسن حظ الفلاح صادف المدير العظيم لبيت الملك وهو يتأهب لركوب قاربه فأخذ يقص عليه ما أصابه بلغة فصيحة مما استرعى سمعه فأرسل أحد خدمه ليسمع قصة الفلاح . ولما عاد وأخبر «رنزى» بسرقة «تحوتى نخت» للحمير ، عرض المدير العظيم لبيت الملك الموضوع أمام زملائه من الموظفين وقد حذق المؤلف فى جعل جوابهم يتفق مع ما يحدث فى مثل هذه الاحوال ، وهو تحامل الموظف على الفقير فى الدوائر الحكومية مهما كان الحق فى جانبه ، ولذلك نرى أن زملاء المدير الكبير لبيت الملك قد انحازوا إلى جانب « تحوتى نخت » وأجابوا « رنزى » بفتور عظيم بأن المسألة ربما كانت تنحصر فى موضوع فلاح قد دفع ماعليه من الضرائب خطأ لرئيس غير رئيسه ، وأن « تحوتى نخت » قد استولى بحق على ما يستحقه من الضرائب . ثم تساءلوا فى غضب : هل سيعاقب « تحوتى نخت » من أجل قليل من النطرون وقليل من الملح ؟ فليطلب اليه أن يعيدها وهو لايتأخر . » ويلاحظ أنه من خصائص هذه الطبقة أنهم

يتجاهلون الحمير التى هى بيت القصيد والتى يسبب ضياعها موت هـذا الفلاح وأسرته جوعا . وعند ما سمع الفلاح بذلك تقدم إلى « رنزى » وأخذ يقص عليه شكايته بفصاحة ولباقة :

الشكوى الأولى

عندئذ أتى هذا الفلاح ليقدم ظلامته إلى مدير البيت العظيم « رنزى » ابن « مرو » فقال . « يامدير البيت العظيم ، ياسيدى ، ياعظيم العظماء ياحاكما على ما قد فنى ومالم يفن (١) ! و إذا ذهبت إلى بحر العدل (٢) وسحت عليه فى نسيم عليل ، فان الهواء لن يمزق شراعك وقاربك لن يتباطأ ، ولن يحدث لساريتك أى ضرر ، ومرساك لن يـكسر ، ولن يغوص (قاربك) حينما ترسو على الأرض . ولن يحملك التيار بعيدا ، ولن تذوق أضرار النهر ، ولن ترى وجها مرتاعا . والسمك القفاز سيأتى إليك وستصل (يدك) إلى أسمن طائر . إنك أب لليتيم ، وزوج للأرملة ، وأخ المهجورة ، ومئزر لذلك الذى لا أم له (٣) . دعنى أجعل اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل ؛ فتكون حاكما خلوا من الشره وشريفا بعيدا عن الدنايا ومهلـكا للـكذب ومقيما للعدل ، رجلا يلبى نداء المستغيث . إنى أتـكلم ؛ فهل لك أن تسمع . أقم العدل أنت يأيها الممدوح الذى يمدح من الممدوحين . أكشف عنى الضر انظر إلىّ إن حملى ثقيل « اختبرنى ، إنى ضعت »

---

(١) أى حاكما على كل شىء (٢) يقصد بالسطور التالية التمدح بعدل « رنزى »
(٣) أى انك لباس للطفل الفقير الذى ليس له أم تصنع له لباسا .

مقدمه الشكوى الثانية

وقد اتفق أن هـذا الفلاح قد القى هـذه الخطبة فى عهـد الملك « نب كا ورع »

وقد ذهب المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » أمام جلالته وقال : « سيدى لقد عثرت على أحد هؤلاء الفلاحين ، وفى الحق أنه فصيح ، وهو رجل قد سرق متاعه ؛ وانظر إنه قد حضر ليتظلم لى من أجل ذلك .»

عندئذ قال جلالته : « بقدر ماتحب أن ترانى فى صحة دعه يتباطأ هنا دون أن تجيب عن أى شىء قد يقوله . ولأجل أن تجعله يستمر فى الكلام الزم الصمت . ثم مر بأن يؤتى لنا بذلك مكتوبا حتى نسمعه ولكن مد زوجته وأطفاله بالمئونة ؛ ثم انظر لابد أن يأتى أحد الفلاحين إلى مصر وذلك بسبب فقر بيته . وزيادة على ذلك مد هـذا الفلاح نفسه . فلا بد من أن تأمر باعطائه الطعام دون أن يعلم أنك أنت الذى أعطيته إياه » . وعلى ذلك أعطى عشرة أرغفة وإبريقين من الجعة كل يوم . وقد تعود رب البيت العظيم « رنزى » بن « مرو » أن يعطى تلك الأشياء أحد أصدقائه وكان هذا يعطيها إياه (إلى الفلاح) . ثم أن المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » أرسل إلى شيخ بلدة « سخت حموت » ليصنع الطعام لزوج ذلك الفلاح ومقداره ثلاثة مكاييل من القمح كل يوم .

الشكوى الثانية

ثم إن هذا الفلاح قد أتى ليتظلم له مرة ثانية وقال : يأيها المـدير

العظيم للبيت الملكى ، ياسيدى . ياعظيم العظماء ، ياأغنى الأغنياء ، يامن عظماؤه لهم واحد أعظم منهم ، يامن أغنياؤه لهم واحد أغنى منهم . أنت ياسكان السماء ، ومثقال ميزان الأرض ، وياخيط الميزان الذى يحمل الثقل ، يأيها السكان لاتنحرف . ويامثقال الميزان لاتتحول ، وياخيط الميزان لاتتذبذب . إن السيد العظيم يأخذ (فقط) مما ليس له مالك وينهب واحد (فقط) . إن أودك فى بيتك ، قدحا من الجعة وثلاثة رغفان . وما الذى يمكن أن تصرفه لإطعام عملائك ؟ على أن الإنسان سيموت مع خدمه ؛ وهل ستكون رجلا مخلدا ؟

أليس من الخطأ — ميزان يميل وثقل ينحرف ورجل مستقيم يصير معوجا ؟ تأمل إن العدل يفلت من تحتك وذلك لأنه أقصى عن مكانه فالحكام يشاغبون ، وقاعدة الكلام تنحاز إلى جانب ، والقضاة يتخاطفون ما اغتصبه (؟) ، ومعنى ذلك أن محرف الكلام عن دقته يخرجه عن معناه (؟) فمانح النفس يتلاشى على الأرض ؛ وذلك الذى يأخذ راحته يجعل الناس يلهثون ؛ والمحكم متلف (١) ؛ ومبيد الحاجات يأمر بصنعها ، والبلدة فيضان لنفسها والمنصف مشاغب . . . . »

ثم قال المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » ، هل تعتقد فى قلبك أن ممتلكاتك أمر أهم من أن يقصيك خادمى ؟ » (٢)

وقال هذا الفلاح : إن كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحته الشخصية وذلك الذى يجب عليه أن يقدم حسابه تاما يجور على متاع غيره ؛

---

(١) حرفيا مقسم الارث متلف (٢) قاطع « رنزى » الفلاح بسؤال خشن : أيهما أهم لديك المتاع الذى تدعيه أو الضرب بالعصا اذا استمررت فى شكايتك ؟ غير أن الفلاح لم يعره اهتماما .

وذلك الذى يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة . فمن ذا الذى يكبح الباطل ؟ وذلك الذى يجب عليه أن يقضى على الفقر يعمل بالعكس . ويسير الإنسان إلى الأمام فى الطريق المستقيم بوساطة منحنيات . وآخر ينال الشهرة بالأضرار فهل تجد لنفسك هنا أى شىء ؟ (١) « إن إصلاح الخطأ قصير ولكن الضرر طويل (٢) .

والعمل الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس . والواقع أن الحكمة تقول : « عامل الناس بما تحب أن تعامل به » ؛ وذلك كشكر إنسان على مايعمله ؛ وكمنع شىء قبل تشكيله مع أن الأمر قد أعطى للصانع .

يتمنى الشر للأمير : ليت لحظة تخرب ، فتجعل كرمك رأسا على عقب ، وتفتك بطيورك وتودى بدواجنك المائية . فالمبصر قد غشى بصره والمستمع قد صم ، وذلك الذى كان يجب أن يكون مرشدا أصبح مضللا

« تأمل إنك قوى شديد البأس ، وإنك نشيط الساعد وقلبك مفترس . وقد تخطتك الرحمة ؛ ما مقدار حزن الرجل الفقير الذى قضى عليه بجوارك . ومثلك كرسول التمساح بل انك تفوق « ربة الوباء » (٣) فإذا كنت لاتملك شيئا فهى لاتملك شيئا كذلك ؛ وإذا كانت لاتدين بشىء فكذلك أنت لاتدين بشىء ؛ وإذا كنت لاترتكبها فهى لا ترتكبها

---

(١) قد يقصد بها : هل تجد نفسك ينطبق عليها هنا وصف من هذه الاوصاف .

(٢) إن الضرر يستمر مدة طويلة فى حين أن اصلاحه لايحتاج إلا إلى فترة قصيرة، فانصاف . الفلاح يتوقف على إصغاء « رنزى » إلى شكايته مدة قصيرة

(٣) هى الآلهة « سخمت » .

كذلك . وذلك الذى يملك خبزا يجب أن يكون رحيما ، وإن كان المجرم فظا . على أن السرقات أمر طبعى لمن لامتاع له وكذلك خطف المجرمين لأمتعة الغير . حقا إنه عمل مشين إلا أنه لامندوحة عنه . ويجب على الإنسان ألا يصوب اللوم إليه لأنه يبحث لنفسه (١) . على أنك قد غصصت بخبزك وسكرت بجعتك ؛ إنك غنى . إن وجه مدير السكان متجه إلى الأمام (ومع ذلك ؟) فأن القارب يتجه كما يشاء . فالملك فى داخل قصره ، والدفة فى يدك ، ومع ذلك فان المشاغبات منتشرة فى جوارك . إن عمل الشاكى طويل والفصل فيه يسير ببطء ، ويتساءل الناس ما معنى ذلك الرجل الذى هناك (٢) . كن معينا حتى تظهر قيمتك واضحة ، تأمل إن مسكنك قد أصبح موبوءا . اجعل لسانك يتجه إلى الحق ، ولا تضل . وإن لسان الرجل قد يكون سبب تلفه .

« لاتقل الكذب . واحترس من الموظفين . إن قول الكذب نباتهم ، ومن المحتمل أن يكون خفيفا فى قلوبهم . وأنت يا أكثر الناس علما ، هلا تريد أن تعرف شيئا عن أحوالى (؟) وأنت يا من تقضى حوائج الماء تأمل فإنى أملك مجرى ماء من غير سفينة ، وأنت يا مرشد كل غارق إلى البرنج من غرقت سفينته ، نجنى (؟) . . . »

الشكوى الثالثة

ثم حضر هذا الفلاح مرة ثالثة ليشكو فقال : يأيها المدير العظيم للبيت ، ياسيدى . إنك « رع » رب السماء فى صحبة حاشيتك . إن أقوام

---

(١) أن الانسان يعذر المحتاج إذا سرق ولكنه لايعذر رجلا غنيا كالمدير العظيم للبيت .

(٢) حرفيا : يتساءل الناس : من هو ذلك الرجل الذى يتلكأ مع المدير العظيم للبيت الملكى .

بنى الإنسان منك لأنك كالفيضان . وأنت كإله النيل الذى يخلق المراعى الخضراء ويمد الأراضى القاحلة . ضيق الخناق على السرقة ، وارحم الفقير، ولا تكونن كالسيل ضد الشاكى ؛ واحذر من قرب الآخرة . ارغب فى أن تعيش طويلا كما يقول المثل : إن اقامة العدل هو « نفس الأنف » . عاقب من يستحق العقاب وليس هناك شىء يماثل الاستقامة . هل الميزان يتحول؟ وهل يميل لسانه إلى جهة ؟ هل يظهر « تحوت » تساهلا ؟

فإذا كان الأمر كذلك فيمكنك أن ترتكب أضراراً . واجعل نفسك معادلا لهذه الثلاثة ؛ فإذا أظهرت الثلاثة تساهلا فكن متساهلا . ولا تجب على الخير بالشر . ولا تضعن شيئاً مكان آخر (١) . كيف ينموالكلام أكثر من عشب خبيث — أكثر مما يتفق مع من يشمه ! فلا تجيبن عليه وعلى ذلك تروى المتاعب وينمو عليها غطاء وقد كان لديه ثلاث فرص تحمله على أن يعمل (؟) . قد الدفة على حسب الشراع (٢) وصد الفيضان على حسب ما يقتضيه العدل . واحترس من أن تصطدم على الشاطىء مع حبل السكان . وإن أصدق وزن للبلاد هو إقامة العدل . ولا تكذبن وأنت عظيم . ولا تكونن خفيفاً وأنت رزين . ولا تقولن الكذب ؛ فإنك الميزان . ولا تنكمش ، فإنك الاستقامة . انظر إنك على مستوى واحد مع الميزان فإذا انقلب انقلبت أيضاً . لاتحيدن بل أدر السكان واقبض على حبل الدفة . لاتغتصبن بل أعمل ضد المغتصب . وذلك العظيم ليس عظيما ما دام جشعا إن لسانك هو ثقل الميزان ، وقلبك هو ما يوزن به ،وشفتاك

---

(١) ورد ذكر هذه الحكمة فى تعاليم « فتاح حتب » . (٢) هل معنى ذلك : ارشد السفينة كما يتطلب الريح ، أى اعترف بشكايتى والا فانى سأستمر فى الكلام كالفيضان .

هما ذراعاه . فإذا سترت وجهك أمام الشرس فمن ذا الذى يكبح الشر؟

« تأمل إنك غسال يائس ، وشخص جشع لاتلاف صاحبه ، يهجر شريكه من أجل عميله .

« تأمل إنك نوتى تعبر بمن معه الأجر؛ ورجل مستقيم فى معاملته ولكن تلك الاستقامة أصبحت مذبذبة .

« تأمل إنك رئيس مخابز لا يسمح لأحد خلو (مفلس) أن يمر إهمالا (؟) .

« تأمل إنك صقر لعامة القوم يعيش على أحقر الطيور .

« تأمل إنك مورد سروره الذبح ، إذ لايوقع عليه التقطيع .

« تأمل إنك راع لا . . . . . وليس عليك أن تدفع . ولذلك يجب عليك أن تظهر شراهة أقل من تمساح جشع ، والأمان قد انتزع من كل مساكن البلاد قاطبة . أنت يأيها السامع ، انك لاتصغى ولماذا لاتصغى؟ واليوم قد كبحت جماح المتوحشين ، وتقهقر التمساح . وما الفائدة التى تعود عليك ، وقد وجد سر الصدق وسقط ظهر الكذب على الأرض ، ولكن لاتتجهز (١) للغد قبل أن يأتى ، لأن الإنسان لايعلم المتاعب التى ستواجهه » .

وقد قال الفلاح هذا الكلام إلى المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » عند مدخل قاعة المحاكمة ، ثم أمر حاجبين أن يتعهداه بسياط وقد أثخناه ضربا بالسياط فى كل أجزاء جسمه .

عندئذ قال هذا الفلاح : « إن ابن « مرو » لايزال مستمراً فى غيه وإن حواسه قد عميت عما ينظر ، وصمت عما يسمع ، وقد ضل عما ينسب إليه .

---

(١) يظهر أن الفلاح يحذر « رنزى » من الثقة التامة بالمستقبل : فمن يعرف ما تكون نتيجة ظلمه ؟ .

انظر إن مثلك كمثل بلد لاعميد لها[١] ، أو كطائفة لارئيس لها ، أو كسفينة لاربان لها ، أو كعصابة أشقياء لامرشد لها .

انظر إنك حاكم يسرق وعميد قرية يقبل (الرشـوة) ومفتش اقليم كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب لـكنه أصبح نموذجا للمجرم » .

الشكوى الرابعة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو له للمرة الرابعة ووجده خارجا من معبد « ارسافيس »[٢] ، فقال له : « أنت أيها الممدوح ، ليت « ارسافيس » الذى تخرج من معبده يمدحك . لقـد قضى على الخـير وليس له اندماج حقا . وقـد ألقى الـكذب على الأرض . هل أحضر قارب التعـدية إلى البر ؟ بمـاذا إذن يمكن الإنسان أن يعبر ؟ على أن هـذا العمل لابد أن ينفذ كرها (؟) وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة ؟ لا ، ومن ذا الذى يتمنى أن ينام الآن حتى مطلع الفجر ؟ لقـد قضى على السير ليـلا ، والسياحة نهـاراً ، والسماح للإنسان أن يتعهـد قضيته الحقـة . انظر إنه لافائدة لمن يقـول لك : إن الرحمـة قد تخطتك فما أعظـم حزن الرجل الفقير الذى قد خرب بسببك » .

« انظر إنك صياد يشـفى غليـله ، وإنسان منغمس فى إرضاء ملاذه فيصيد جاموس البحر ، ويخترق (نبله) الثور الوحشى ، ويضرب السمك ، ويرمى شباكه للطيور . على أنه لايوجد إنسان متسرع فى كلامه يخلو من العثار[٣] . وليس هناك شخص خفيف القلب يقدر أن يكون حازما فى كبح

(١) العميد هنا هو شيخ البلد (٢) إله منطقة أهناس (انظر جزء أول ص ٢١٦) .
(٣) أى أن تسرع « رنزى » يجعله ظالما .

شهواته . كن صبوراً حتى يمكنك أن تصل إلى العدل . اكبح جماح اختيارك حتى أن الشخص الذى تعود أن يدخل بسكون يمكنه أن يكون سعيداً . على أنه لايوجد إنسان طائش يجيد عملا ، ولا متسرع تطلب مساعدته . اجعل عينيك تتأملان ، وعلم قلبك . ولا تكونن شديدا بمقدار قوتك خوف أن يحيق بك المكروه . . . . الذى يأكل هو الذى يتذوق ، والذى يخاطب يجيب ، والنائم يرى الحلم (١) أما القاضى الذى تجب معاقبته فإنه يكون نموذجا للمجرم . تأمل أيها الأحمق فإنك قد ضربت . تأمل أيها المغفل فإنك سئلت ، وأنت ياناز ح الماء تأمل فإنك قد دفنت . وأنت يا مدير السكان لاتجعل قاربك يرتطم . وأنت يا معطى الحياة لا تود بأحد ؛ ويا مخربا لاتسببن خراب أحد . ويأيها الفتى لاتكونن كحرارة الشمس . ويأيتها الحمى لاتجعلن التمساح يفترس . والآن هل سأقضى طول اليوم فى الشكوى الرابعة ؟ » .

الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال : يأيها المدير العظيم للبيت ياسيدى . . . لا تحرمن رجلا رقيق الحال من أملاكه ، ولا ضعيفا تعرفه ، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النفس له ومن يغتصبها يكتم أنفه (٢) لقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السرقة ولكن تأمل فإن ما تفعله هو أنك تنحاز إلى اللص . والإنسان يضع أمله فيك ولكنك أصبحت معتديا لقد نصبت سدا للفقير لتحفظه من الغرق ولكن تأمل فإنك تياره السريع .

---

(١) ثلاثة أحوال للعلة والمعلول ، فكما أن المعلول يتبع العلة فى هذه الاحوال الثلاثة فكذلك يكون القاضى المتهم نموذجا للمجرم (٢) الانف هى مركز الحياة .

الشكوى الثامنة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو مرة ثامنة فقال : « يأيها المدير العظيم للبيت الملكى ، يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط بسبب الطمع ، والرجل المغتال يعوزه النجاح ولكنه ينجح فى الخيبة . إنك جشع وذلك لا يتفق معك ؛ إنك تسرق وذلك لايليق بك ، أنت يا من يسمح للإنسان بأن تشرف على قضيته الحقة ذلك لأن مايقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملىء ، ولأن مكيال القمح قد طفح ، فاذا هز طفح وضاع على الأرض.

« آه أنت يا من يجب عليه أن يقبض على اللص ويا من يعد الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء ، وهم حمى للمعوز . والحكام قد نصبوا ليقضوا على الكذب . وليس الخوف منك هو الذى يجعلنى أشكو إليك . إنك لا تبصر مافى قلبى . وإنه لإنسان صامت من يجعله يرتد دائما عن توبيخك ، ولا يخاف ممن يطالبه بحقوقه ، وإن أخاه لايؤتى به إليك من قارعة الطريق (١) :

« إنك تملك قطعة أرضك فى الريف . ومكافأتك فى ضياع الملك وخبزك فى المخبز والحكام يعطونك ، ومع ذلك تغتصب ، هل أنت لص ؟ هل يؤتى لك بجنود لتصاحبك عند تقسيم قطع الأرض ؟ (٢)

« أقم العدل لرب العدل ، الذى أصبحت عدالته موجودة (٣) .

---

(١) هنا يفاخر الفلاح بأن مثيله لايوجد فى أى ركن من أركان الطريق (٢) هل تأخذ معك جنودا لتساعدك على السرقة عندما تقسم قطع الارض؟ (٣) ربما يقصد برب العدل آله الشمس « رع » الذى يعيش بالعدل .

أنت يأيها القلم ، وأنت يأيتها البردية ، ويأيتهـا الدواة ، ويا « تحوت » ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحق حقا فهو إذن حق لأن العدل أبدى ، ويذهب مع من يعمله إلى القبر ، وسيدفن وتطويه الأرض أما اسمه فلن يمحى من الأرض بل سيذكر بسبب الحق وهكذا عدل الله فى كلمته ، هل هو ميزان ؟ إنه لايميل ، هل هو لسان الميزان ؟ إنه لايحيد إلى جانب (لايزن غشا) وإذا حضرت أو حضر غيرى فأجبه ولاتجيبن كإنسان يخاطب رجلا صامتا أو كإنسان يهاجم من لايمكنه أن يدافع ، إنك لاتظهر الرحمة ، إنك لا ترق ، إنك لاتغنى (؟) ولا تعطنى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من « فم رع » نفسه ، انطق بالعدل وأقم العدل لأنه عظيم وكبير ويعيش طويلا ، والاعتماد عليه يؤدى إلى العمر الطويل المحـترم ، هل الميزان يحيد ؟ فاذا كان الأمر كذلك فإن ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحمـلان الأشياء (١) ، ولا يجوز بخس فى العدل ، وإن العمل الحقير لايصل إلى المدينة على أن أصغر الأشياء (؟) ستصل إلى الريف » .

ثم يأتى بعد ذلك الشكوى التاسعة وهى لاتخرج عن هذه المعانى .

ونرى من هذه الشكاوى الفصيحة أنها تصف لنا ما آلت اليه البلاد فى تلك الفترة الصعبة من تاريخ البلاد ، كما وصفتها كل الوثائق الأدبية التى وصلت إلينا من هذا العصر .

---

(١) الثقل والاشياء التى توزن .

الجيش والحروب

لقد حبت الطبيعة أرض مصر حدودا طبيعية جعلتها فى الأزمان الغابرة منعزلة عن العالم الذى يحيط بها مما جعل إغارة جيرانها عليها من أشق الأمور وأصعبها، فقد كانت صحراء لوبيا سدا منيعا لكل غارة من جهة الحدود الغربية، على حين أن سواحلها الشمالية لم تعرضها لأى خطر، إذ فى ذلك العهد من تاريخها لم يكن لها أعداء لهم أساطيل تمخر عباب البحر، يخشى من غاراتها؛ أما الأقوام الذين يقطنون وراء حدودها الشرقية والجنوبية فإنهم كانوا أقل منها ثقافة ومدنية، فكان خطرهم على تهديد سلامتها شيئًا لا يحسب له حساب.

حدود مصر الطبيعية حمتها الغارات قديما

من أجل ذلك بقيت بلاد مصر فترة طويلة من الزمن هادئة مطمئنة فى عقر دارها، مما جعل أهلها بطبيعة الحال يشتغلون بالزراعة، وسيظلون كذلك طول حياتهم وأهم عمل لهم فلاحة الارض واستثمارها ـ على أن كل ذلك لايعنى أن المصرى لم يكن بالرجل المحارب عند الحاجة، إذ برهنت الأحوال على أن الجندى المصرى في ساحة الوغى يعد من أحسن جنود العالم وأشجعها وأكثرها صبراً ـ فقد جاء على مصر فترة من الزمن فى تاريخها كانت هى سيدة ممالك العالم المتمدين؛ وذلك بقوة جيوشها وانتصاراتهم العظيمة التى وضعتهم فى قمة أمم الشرق ردحا من الزمن غير قصير.

عصر ما قبل التاريخ

على أن ما ذكرناه لانقصد به أن مصر كانت معفاة من الحروب الداخلية والخارجية منذ ما قبل الأسرات لأن ذلك ينافى طبيعة البشر وسنن

الرق ؛ فقد عثر على بعض ألواح من عصر ما قبل التاريخ يستدل منها على قيام حروب بين المصريين وبدو الصحراء وأهل بلاد النوبة . وكذلك تدل الآثار على قيام حروب مستمرة بين سكان مصر أنفسهم ، وبخاصة بين الوجه القبلي والوجه البحري ، وبقي النزاع قائماً إلى أن وجدت الأرضان في عهد الفرعون مينا على قول معظم المؤرخين .

الحروب الاولى

وما لدينا من الوثائق القليلة يلقي بعض الضوء على اشتباك المصريين مع الأسيويين في حروب ، وكذلك على قيام حرب بين مصر العليا ومصر السفلى ، ولا أدل على ذلك من المناظر التي نشاهدها على لوحة الملك « نعرمر » ، وكذلك على رأس دبوس الملك « عقرب » فعلى هذين الأثرين نجد مناظر تدل على اشتباك المصريين معاً في قتال عنيف. وكذلك اشتراك الأسيويين مع أحد الخصمين لمساعدته . يضاف إلى ذلك أنه عثر على رأس دبوس ممثلة عليه حملة قام بها ملك الكاب « نخن » (الوجه القبلي) ، وتعد من الحملات الهامة جداً ضد بلاد الدلتا ؛ فقد حطمت الكتائب المصرية التي جمعها ملك الوجه البحري لصد هذا الهجوم وكذلك قضت على جيش أنصاره من الأسيويين جيرانه وحلفائه . وقد عثر في « نخن » (هراكنبوليس) (جزء أول ص ٨٥) على نقوش ملونة يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات وهي موجودة الآن في المتحف المصري ؛ يشاهد عليها بعض هؤلاء المحاربين القدماء ، وهم في ساحة الوغى ؛ وتدل كيفية تسليحهم دلالة واضحة على تقدمهم في فنون الحرب مما يشعر بوجود جيش في البلاد .

الحرب بين الوجه القبلي والوجه البحري

إذ نجد أن المحارب كان مسلحا بحربة في نهايتها قطعة من

الظران الحاد المدبب ، أو من العاج . وكان يحمى الجندى منهم زرد ودرع مصنوع من جلد الفهد .

وتدل المعلومات التى لدينا على أن بلاد القطر كانت مقسمة إلى مقاطعات تكاد تكون كل واحدة منها مستقلة ، حتى وحد « مينا » القطرين وبقى هذا النظام شائعا فى عهد الأسرتين الأوليين حتى قضى عليه آخر ملوك الأسرة الثانية تدريجًا ، وكان الفضل فى القضاء على هذا النظام يرجع إلى الفرعون « خع سخموى » ، ومنذ ذلك العهد أصبحت كل المقاطعات المصرية فى يد الملك . ولهذا بدأ يكون للبلاد جيشًا ثابتا منظما منذ أوائل الأسرة الثالثة ، وليس لدينا من الآثار ما يدلنا على وجود جيش موحد لكل البلاد المصرية قبل عهد « زوسر » وذلك لقلة المصادر ، ومما لانزاع فيه أنه كان لملك الدلتا جيش ، وكذلك كان لملك مصر العليا جيش ، ولكن يغلب على الظن أن جنود كل جيش لم يكونوا خاضعين للملك . بل كانوا يجندون من المقاطعات ؛ التى كانت مقسمة اليها البلاد فى هذا العصر وكان يقود جند كل مقاطعة حاكمها لمساعدة مليكه وقت الحرب .

الاسرة الثالثة

«زوسر» يؤسس جيشا لحماية البلاد

ولما تولى « زوسر » حكم البلاد ، ووطد السلطة الإدارية فى يده ، كان لابد له من جيش قائم فى البلاد ليمكنه من القبض على ناصية الحال فى داخل البلاد وخارجها ، وفعلا عثر على نقوش فى عصره تثبت وجود مصلحة خاصة لإدارة شئون الجيش .

وكان أهم ما عنى به هو حماية البلاد من الغارات الأجنبية ، التى كانت تجتاح البلاد من أطرافها ، وبخاصة أهل البدو . ولذلك قسم حدود البلاد

إلى مناطق أطلق عليها اسم (أبواب المملكة) وجعل فى كل منها حامية ، وهذه التسمية تنم عما يقصد بها أى أنها كانت المواطن التى يمكن أن ينفذ منها العدو إلى داخل القطر . وقد نصب على كلّ من هذه المناطق حاكم خاص يلقب (مرشد الأرض) « سشم تا » وقد كان لهؤلاء الحكام ، الكلمة العليا على حكام المقاطعات ؛ وكان فى يدهم إدارة الشرطة كل فى منطقته ؛ ولذلك كانوا مسئولين عن النظام والأمن فى هذه المناطق التى لايمكن البلاد أن تعيش فى أمان إلا فى ظلهما .

ومن أجل ذلك وضعت حاميات ثابتة للمحافظة على الحدودتحت سلطة هؤلاء الحكام (مرشدى الأرض) مباشرة ؛ وقد أقيمت لها المعاقل وكان لكل معقل إدارة عسكريةخاصة ؛ فكان له مخازن غلاله الخاصة التى بها يمكنه أن يقاوم إذا حوصروقد حفظت لنا أسماء بعض هذه المعاقل منذ الأسرة الثانية ، فقد عثر فعلا على خاتم نقش عليه اسم معقل « سحز حتب » وكذلك عثر على لقب لمعقل آخر من الأسرة الثالثة ، نقش على خاتم لكاتب هذا المعقل ويطلق عليه اسم (بطولة الأرضين). (1)

ورغم أن الأبحاث فى الحفائر العلمية ؛ لم تسفر للآن عن وجود مبان تعد قلاعا من هذا العصر السحيق ، إلا أننا من جهة أخرى عثرنا على بعض نماذج تشعر بإقامة معاقل فى هذه الفترة . وذلك أنه يوجد فى متحف برلين قطعة من قطع (لعبة الضامة) عثر عليها فى العرابة المدفونة ويرجع عهدها إلى الأسر الأولى من التاريخ المصرى ؛ ويظن البعض أنها من عهد الأسرة الأولى نفسها . وهذه القطعة على هيئة برج صغير

(1) Weill, II-III Dyn. p. 194.

أى أنه يعلوه طنف عل شكل رواق له شرفات يمكن منها الدفاع عن المكان . وهذه القطعة مصنوعة من العاج ولكن الحصن كان طبعاً فى هذا العصر يصنع من اللبن . ولا غرابة فى وجود نموذج الحصن فى هذه الجهة . إذ تدل شواهد الأحوال على أنه أقيم فى العرابة حصن من أقدم الحصون المصرية وذلك ما كانت تتطلبه طبيعة المكان وحمايته . إذ كان أول ما يهم المصرى فى هذه الأزمان السحيقة أن يحصن بلاده من مباغتة الأعداء له . فكان يقيم الحصون فى الأماكن التى يرى أنها معرضة لخطر الغزو . أو أنه يمكنه أن يصد العدو منها بسهولة . فكان من جهة يقيم الحصون فى المواقع التى يكون فيها النهر ضيقا . فإذا باغته العدو فى النهر أصبح من الصعب عليه أن يخترق هذا المكان الضيق المحصن بسهولة ؛ إذ يكون فى استطاعة المصرى أن يقهره بنباله على كثب منه . ومن جهة أخرى كان ينتخب النقط الضعيفة التى كان يسهل للعدو أن ينفذ منها للبلاد ، وبخاصة عند بداية الوديان التى تشرف على الصحراء مباشرة . والتى يسهل البدو وغيرهم أن ينقضوا منها على البلاد وينهبوا ما شاءوا . فكان يقيم فيها الحصون ويجهزها بكل المعدات ، وهذه الأماكن كانت تسمى أبواب المملكة ؛ والواقع أنه أقيم فى العرابة المدفونة (1) حصن فى أوائل التاريخ المصرى ، وموقعه هو كوم السلطان الحالى لأن المدينة تشغل شريطا ضيقا مستطيلا من الأرض ، منحصرا بين الترعة وأول منحدر لجبال الهضبة اللوبية ؛ وقد أقيم هذا الحصن ليحميها من غارات البدو . وكانت كل هذه الحصون (أبواب المملكة) مقامة على

---

(1) Maspero, Dawn of Civilisation, p. 450.

طراز واحد ، ولا تختلف بعضها عن بعض إلا فى مقدار مساحة كل حصن ، وكثافة جدرانه الخارجية . وكان تخطيط الحصن يشبه سطحا متوازى الأضلاع . وكان سوره الخارجى فى أغلب الأحيان مقسما إلى كتل عمودية من المبانى يمكن تمييزها بسهولة من اختلاف وضع اللبن فيها . ففى قلعة الكاب وغيرها مثلا نجد أن (مداميك) اللبن الساذج محدودبة بعض الشىء فتشبه بذلك قوسا عريضا مقلوبا حافته الخارجية مثبتة بالارض .

وفى أماكن أخرى كان يشاهد تعاقب منظم للعقود فى طول الجدار ولم يعرف السر فى إقامة هذه الجدران بهذا الشكل . وقد ظن البعض أن البناء بهذه الكيفية يكون أكثر مقاومة ، عند حدوث زلزال أرضى وكان هذا الحصن مبنيا على الطريقة التى ذكرناها . ولكن المقابر التى كانت تقام فى هذه البقعة المقدسة ، قد طغت على الحصن الأصلى حتى عهد الأسرة السادسة ؛ ثم أقيمت أخرى مماثلة لها على بعد نحو مائة متر من الجنوب الشرقى منها . وهذا المبنى الجديد يعد من أحسن القلاع الحربية المحفوظة لدينا الآن ويرجع تاريخ إقامتها إلى العهد الأقطاعى أى ما بين الأسرة السادسة والأسرة العاشرة .

والجزء الخارجى من هذا الحصن ليس فيه أبراج أو مبان بارزة من أى نوع كان . وهو على شكل مستطيل ، ضلعاه الطويلان متوازيان ويبلغ طول الواحد منهما نحو ١٤٠ مترا من الشرق إلى الغرب والضلعان القصيران متوازيان كذلك ويبلغ طول الواحد منهما نحو ٨٤ مترا من الشمال إلى الجنوب . ويمتاز الجدار الخارجى بمتانته فهو مبنى بمداميك أفقية مائلة بعض الشىء ، ومزينة بأخاديد عمودية تعكس ضوءا

وظلا يختلفان باختلاف ساعات النهار . وهذه الجدران كان طولها لا يقل عن أربعين قدما تقريبا .

وكان الممشى الذى يحدق بالسور متوجا بمتراس صغير منخفض، له شرفات مستديرة، يصل إليه الإنسان بمراق مثبتة فى الجدران بكل اعتناء .

ويحيط بهذا السور جدار حاجز، له نوافذ ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة أمتار تقريبا وبينه وبين السور نحو أربعة أقدام . والدخول إلى الحصن من بابين ، هذا إلى أبواب سرية وفى نقط مختلفة بين البابين العظيمين . وكانت وقفا على خروج رجال الحامية . وكان الباب الرئيسى تخفيه كتلة عظيمة من المبانى فى النهاية الجنوبية من الواجهة الشرقية . أما المدخل المقابل لذلك فى الجدار الحاجز فكان فتحة ضيقة تغلق بأبواب ضخمة من الخشب . وخلف هذا الباب مكان لحفظ الأسلحة ، فى نهايته فتحة ثانية تماثل الأولى فى ضيقها ، تؤدى إلى ردهة مستطيلة محصورة بين السور الخارجى وبين البرجين البارزين ، وهناك باب آخر يوضع فى أحد أركان الردهة ، وكان ينتخب لهذا الغرض، الركن الذى يكون بعيدا عن الأنظار . ولا شك فى أن مثل هذا الحصن . كان يعد من المناعة بدرجة تكفى لصد أى هجوم لأقوى جيش فى هذا العصر . على أن الطرق التى كان يمكن بها الاستيلاء على أى حصن ثلاثة : الأولى أن يتسلق العدو الجدران . والثانية أن يقوض الحصن . والثالثة أن يقتحم الأبواب . أما تسلق الجدران فكان من الصعوبة بمكان ؛ وذلك لارتفاع الجدران . يضاف إلى ذلك أن طلائع الجيش المهاجم ، كانوا يضطرون إلى الابتعاد عن الحصن بمسافة

بعيدة ؛ لأن جنود الحصن الذين يرابطون فى الأبراج كانوا يفوّقون عليهم سهامهم وغيرها من آلات الحرب ، ولكن إذا أحدث العدو ثلمة فى البرج ، فان الممرات الضيقة التى خارج الأسوار كانت تمكن المحصورين من قهر العدو بالأحجار والمزاريق والحراب ، كلما تقدموا فى هجومهم . ومن جهة أخرى تجعل هدم مبانى الحصن من الأمور المتعذرة . وإذا حدث أن سلم حراس الباب الأول للمهاجمين ، فإن جماعة الأعداء عندئذ يزدحمون فى الردهة كأنهم محصورون فى حفرة ، لأنه من العسير على الفاتحين أن يقتحموا المكان كلهم دفعة واحدة ، ولذلك يكون لزاما عليهم أن يهاجموا الباب الثانى تحت وابل من قذائف رجال الحصن ؛ وإذا ساعدهم الحظ وأفلحوا فى ذلك ، فإنهم يتكبدون خسائر فادحة فى هذا السبيل .

وفى هذا الوقت لم يعرف سكان وادى النيل شيئا عن المنجنيق ، ولم يعثر للآن على أى رسم للمنجنيق الذى يدار باليد فى كل الآثار المصرية . وذلك لأنهم كانوا يقتحمون أى معقل ، بكسر أبوابه بالبلط أو بحرق الأبواب نفسها ؛ وفى الوقت الذى يكون فيه الجنود المكلفون بهدم أسوار الحصن منهمكين فى عملهم ، يبذل الرماة من الجنود جهد طاقتهم فى تصويب سهامهم إلى العدو المتحصن لإخراجه من مخبئه ، وفى ذلك الوقت يعمل الجنود المختبئون خلف أستار متحركة بكل ما فى وسعهم لكسر وقاياتهم ، وهدم شرفاتهم بحراب معدنية الاطراف . وإذا هوجمت حامية من الشجعان المستميتين فلا تتغلب عليهم طريقة من هذه الطرق اللهم إلا إذا حوصروا وضيق عليهم الخناق حتى يموتوا جوعا أو إذا حدثت خيانة تجعلهم يسلّمون.

وكان إعداد الجنود المصريين ناقصا من جهة النظام والانسجام فكان الجنود المسلحون بالمقلاع ، أو بالقوس والنشاب ، أو الحراب ، أو السيوف المصنوعة من الخشب ، أو العصى ، أو الحجارة ، أو البلط المصنوعة من المعدن ، يحاربون جنبا لجنب . أما لباس الرأس فكان قبعة محشوة بالقش ، ويحمى الجسم درع صغيرة للمشاة الخفاف ، وعظيمة العرض لجنود الصف . وتتوقف نتيجة الواقعة على مبارزات فردية بين المتحاربين المسلحين بنوع مشترك من السلاح . والظاهر أن الجنود الذين يحملون الحراب هم الذين كانوا يقومون بالهجوم فى خط واحد مختفين خلف درقة ضخمة ، وكانت جراح الجنود فى العادة خفيفة ، وذلك راجع إلى أن المهارة التى كان يظهرها المحارب فى استعمال درعه قللت من خطر الجروح ولكن هذا لايمنع الحربة من أن تصوب أحيانا إلى صدر المحارب فترديه ، والسيوف أو العصى تهوى على أم رأسه فتهشمها وتلقيه على الأرض لاحراك به . ولهذا السبب لم نجد إلا عددا قليلا من المجروحين فى ساحة الوغى بعد انتهاء المعركة وقد أطلق عليهم المصريون الأسرى المضروبين وهذا يدل على كيفية أسرهم .

وفى عهد الملك ، « سنفرو » تدلنا الآثار على أنه بعد عودته من حملة عظيمة ضد الزنوج أتم نظام حماية بلاده من غارات الأجانب ببناء قلاع فى الوجه القبلى والدلتا وأطلق على كل منها اسم « حصن سنفرو »[1] (حجر بلرم) يضاف أيضًا إلى ذلك أن مصر على ما يظهر كانت تحصن النقط الضعيفة فى حدودها بإقامه أسوار ضخمة عظيمة الامتداد ، من ذلك مايروى

(1) Br. A. R. t. I, p. 146 .

أن الملك « زوسر » أقام سوراً من اسوان إلى الفيلة يبلغ طوله نحو ١٢ كيلو متراً ليضمن سلامة حدوده الجنوبية ويعتقد بعض علماء الآثار أن السور العظيم الذى أقامه « امينمحيت الاول » لسد برزخ السويس فى وجه المغيرين لم يكن إلا تجديدا لسور أقيم فى عهد الدولة القديمة . ويعزز هذه النظرية أن اسم البحيرات المرة كما كتب فى متون الأهرام خصص فى نهايته بسور (هرم بيبى الأول) يضاف إلى ذلك أن الفرعون « سنفرو » قد خلد اسمه ضمن أسماء عدة قلاع فى هذه المنطقة (1)

ومما يدل على حرص فراعنة هذه الأسرة على حفظ النظام فى داخل البلاد والقضاء على الخصومات التى كانت تقوم بين الوجه القبلى والوجه البحرى ، ما أقامه ملوكها من الحصون لكبح جماح أى عصيان أو ثورة داخلية ، ولا أدل على ذلك من القلعة التى بناها « زوسر » وأطلق عليها اسم « بطولة الأرضين » .

ولاجدال فى أن الجيش فى هذا العهد كان فى تكوينه ملكيا . وكانت الفرق « عبر » فى عهد كل الأسر المنفية تتألف من شباب يقودهم رئيس « خرب » وهذا اللقب كان يحمله فى الإدارة المصرية كل من له وظيفة يسيطر بها على عدد من الموظفين.

وكان رئيس فرقة الشباب المجندين يطلق عليه لقب قائد فرقة الجنود . وقد وصلت إلينا هذه المعلومات من نقش على خاتم من الأسرة الثالثة . ومن ألقاب الأمير « رع حتب » (2) الذى كان يسمى قائد الفرقة قبل أن يعين قائدا عاما للجيش .

(1) Baillet, Reg. Pharaonique, p. 241-2. (2) Weill, II-III Dyn, p. 274.

وكان يتألف من مجموع هذه الفرق الجيش العام أو أى جيش آخر . ولا نزاع فى أن تأليف الجيش - كما يظهر - كان حديثا إذ لم يكن جيش إقطاع قديم والدليل على ذلك لقب مدير « إمرا » الذى كان يحمله قائد الجيش وهو لقب فى أصله إدارى ويدل دائما على تدخل السلطة الرئيسية . فمثلا نجد أن حاكم الصحراء « نت نخت » (1) كان يحمل لقب مدير الجيش « إمرا مشع » أى أنه كان القائد الفعلى للجيش ؛ فكان فى عهد الفرعون « زوسر » يقود حملة حربية إلى وادى مغارة . ويظهر أن الجيش كان مؤلفا من عدة فيالق كل منها على رأسه قائد جيش « إمرا مشع » وكل هذه الفيالق كانت تحت إمرة رئيس أعلى يطلق عليه قائد الجيوش الأعلى . وهذه الوظيفة كان يتقلدها رجل من أكبر عظماء الدولة . ففى عهد الأسرة الثالثة كان يحمل هذا اللقب على ما نعلم اثنان أحدهما « رع حتب » أحد أولاد الملك . وكان يلقب بالأمير والكاهن الأكبر لعين شمس والثانى « نيسوزدف » وهو أمير ملكى .

أما الإدارة الحربية (2) فى عهد الأسرة الثالثة فمعلوماتنا عنها ضئيلة رغم أن النقوش تدل على وجودها منذ الأسرة الثانية فمثلا نجد فى نقوش خاتم من عهد الأسرة الثانية ما يشعرنا بوجود مخازن غلال للحصون قبل حصن « سزاحتب » مما يدل على أن الإدارة الحربية التى سنقرأ عنها فى المتون فيما بعد كانت موجودة وقائمة على نظام ثابت .

والواقع أن هذه الإدارة كانت موكلة إلى مصلحة خاصة أطلق عليها

---

(1) Weill, II-III Dyn, p. 129.

(2). Pirenne, Institutions, Vol. I, p. 311. الالقاب الخاصة بالجيش وإدارته والاسطول

اسم (بيت الأسلحة) « برعحا » وهذه المصلحة كما يدل عليها اسمها كانت مهمتها السهر على تسليح الجيش الذى كان مؤسساً على نظام ثابت ، وكانت فضلا عن تموين الجيش تجمع بين دفتيها كل المكاتبات الحربية فمثلا نجد أن مدير هذه المصلحة « نفر»[1] كان فى الوقت نفسه مدير مكاتبات الفرق الحربية . ومن هذه الألقاب يمكننا أن نستخلص أنه كان لكل فرقة كما كان لكل حصن ، موظفون إداريون ، وأن كل هؤلاء كانوا تابعين لإدارة واحدة مقرها (بيت الأسلحة) وسنرى عند الكلام على الجيش فى عهد الأسرة الرابعة ما يثبت هذا الاستنتاج . أما قواعد صنع الأسطول فكانت تحت إدارة شخصية عظيمة جداً بلقب (بانى السفن) « مدب دبت » وكان للأسطول المصرى أهمية عظيمة فى ذلك الوقت ويتألف من سفن مختلفة الأنواع وأعظمها حجما يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً وقد أرسل الفرعون « سنفرو » حملات بحرية إلى لبنان لإحضار خشب الأرز . وكان عدد سفن هذه البعثات يبلغ نحو الأربعين فى البعثة الواحدة (أنظر جزء أول ص ٣٨٤) .

ورغم قلة المصادر التى عثر عليها عن النظام الحربى فى مصر فإن ما لدينا من الأسرة الثالثة كاف لنتحقق به من أن النظام الذى وجدناه فى الأسرة الرابعة كان متبعا فى الأسرة الثالثة ، فكان يشمل (مناطق حدود) يحكم كل منطقة موظف خاص بلقب (مرشد الأرض) . وكانت كل منطقة يحميها حصن وحامية ثابتة ، وجيش ملكى بقيادة قائد أعلى وهذا الجيش مقسم إلى فيالق كل فيلق يقوده قائد جيش « إمرامشع » وهذه الفيالق كانت مقسمة إلى فرق حربية « عبرو » يشرف على كل منها رئيس

(1) Pirenne, Instit. t. I, p. 316.

« خرب » . أما إدارة الجيش العامل المؤلف من شبان الأمة فكان لها ديوان خاص مقسم إلى مصالح أهمها مصلحة مخازن الغلال الحربية ، وإدارة الأسلحة ، وإدارة مصانع بناء سفن الأسطول .

الجيش فى عهد الاسرة الرابعة

تدل الألقاب الحربية التى عثرنا عليها فى عهد الأسرة الرابعة على أن المعلومات التى وصلت إلينا من عهد الأسرة الثالثة صحيحة فى جملتها ففى عهد الأسرة الرابعة كان على رأس الجيش البرى قائد الجيوش « إمرا مشع » وكان فى العادة ابن ملك ، ويجلس بين أعضاء المجلس الأعظم للعشرة ، مثل الأمير « مرإيب » بن الفرعون «خوفو» .

وكذلك « تنتى » فإنه كان يحمل فى وقت واحد لقب قائد الجيش وقائد الأسطول ومن ذلك يمكننا أن نفهم السر فى أنه كان يحمل لقب مدير البعثات الملكية . وكان « متن » أحد عظماء الدولة فى نهاية الأسرة الثالثة يحمل لقب مدير البعثات فى المديريات القريبة من الدلتا فى عهد الفرعون « سنفرو » وقد خولت له هذه الوظيفة أن يعلن أن حكام مقاطعات تلك الأقاليم تحت قدميه . وقد كان « متن » يحمل كذلك لقبا لم نعثر عليه فى المتون المصرية وهو « كبير المدينة فى كل أماكنها » . ولا يبعد أن يكون بصفته قائد الجيش ومدير البعوث الملكية صاحب السيادة على كل الموظفين فى كل المدن التى كان سلطانه ووظائفه تجعله مسيطراً عليها .

أما الأسطول الذى تصلنا معلومات عنه فى عهد الأسرة الثالثة فإنه كان فى عهد الأسرة الرابعة يقوده موظف كبير يحمل لقب حاكم الأسطول « عزمر دبت » أو لقب قائد الجيش أو ضابط عظيم للجيش البرى

ومن ذلك يتضح أن فى هذه الفترة كان جيش البر وأسطول البحر فى قبضة فرد واحد، على حين أن مدير (بيت الاسلحة) كان ينتخب من بين أعاظم علية القوم، يدل على ذلك أن «كا إن نيسوت» بن الفرعون «سنفرو» كان يتقلد هذا المركز. وقد كان لفرق الجيش ولكل وحدات الجنود إدارتها المؤلفة من كتبة، وقد حفظت لنا النقوش اسم أحد هؤلاء المديرين وهو «عاخى» (1) الذى كان يحمل لقب «مدير كتبة الفرق» هذا فضلا عن أنه كان يحمل ألقابا أخرى.

ولا نزاع فى أن اختصاصات موظفى بيت الأسلحة كانت تختلف عن اختصاصات «كتّاب الفرق» وذلك أن بيت الأسلحة كما يظهر من الاسم نفسه كانت مهمته الرئيسية تنحصر فى تجهيز الجيش بعداته الحربية أما كتّاب الفرق فكانوا يؤلفون مصلحة إدارية ويهتمون بالإدارة الحربية فعملون على تجنيد الجنود اللازمة. وسنرى أن التجنيد كان فى الواقع يقوم به فى الأقاليم المختلفة حاكم كل إقليم ومن المحتمل جداً أن «عاخى» الذى كان يحمل لقب «مدير كتّاب الفرق» كان مكلفا بتجنيد العساكر وإدارة شئونهم فى إقليم نفوذه، وذلك لأنه كان حاكم المقاطعة «ساب عزمر».

الجيش فى عهد الاسرة الخامسة

لم يطرأ على تأليف الجيش فى عهد الأسرة الخامسة تغيير يذكر عما كان عليه فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة إذ كان مؤلفا من مجندين كان يطلق على الواحد منهم فى هذا العهد «الشاب الجميل»؛ وتتألف منهم وحدات «عبر» كل منها تحت إمرة ضابط يحمل لقب رئيس الوحدة أو

(1) Junker, Giza, I pp. 132.

الفرقة « خرب عبر » ومن هـذه الفرق مجتمعة كانت تتألف كتائب الجيش « عبر مشع » وعلى رأسها قائد يحمل لقب قائد كتائب الجيش .

وحرس الفرعون فى القصر به فرق مختلفة من المجنـدين بإمرة « قائد فرق المجندين » وكانت تحمل كل واحدة اسمـا خاصا بها مثل « كم مقـدار حب سحورع » [1] و « ما أجمـل سحورع أمـام القصر » ! وذلك مما يظهر اتصال هذه الفرق المباشر بالفرعون نفسه وتدل المعلومات المستقاة من وثائق هذا العصر على أنه كانت توجد فرق أخرى تتألف منها حاميات ثابتة فى داخل البلاد وكانت تحت تصرف السلطة المدنية لضمان حفظ النظام ولتمكين رجال السلطة من الالتجاء إليها لتنفيذ القانون [2] . وكان الجيش يرسل بعوثا إلى البـلاد الأجنبية فى محاجر سيناء وحمامات وكان كذلك يكلف أحيانا بالعمل فى المحاجر داخل البلاد وبخاصة فى محاجر طرة (انظر ص ٢٧٠ جزء أول)

وقد كانت العناية بالمجندين عظيمة جدا لتدريبهم على الأعمال الحربية فـكان الجنود (الشباب الجميل) يتلقون دروسا حربية قد خصصت لها مصلحة قائمة بذاتها كان يشرف على إدارتها العليا القائد الأعظم للجيش ونذكر هنا على سبيل المثال « كا إم ثننت » الذى كان يحمل لقب قائد جيوش البر والبحر و مدير التعليم للجيش .

ولا يتسرب إلى الذهن أن الجيش المصرى كان مؤلفا من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم ، بل كان فى الواقع جيشا

---

(1) Borchardt, Grab des K. Sahure, pp. 71-74 .
(2) Décrets de Teti I. par Moret dans J. As. 1917 pp. 436-441.

حكوميا مؤلفا من وحدات حربية تحت إشراف ضباط فنيين ليس لهم أي عمل مدني . وكان مظهر الجيش في السلاح واللباس واحدا في كل فرقة والبرهان على ذلك نجده في الرسوم التي عثر عليها في معبد الفرعون « سحورع » الجنازى إذ نرى في مناظره (1) الجنود يخطون خطوات حربية ، وكلهم مجهزون بعدة واحدة وقابضون على سلاحهم بنظام واحد . ولا شك في أن التعليم الحربي كان يلعب دورا هاما في هذا النظام .

وكان الجيش في ذلك الوقت مؤلفا من فرق تتألف منها فيالق ، كلها تحت إمرة القيادة العامة ، وكانت كل فيالق الجيش تخضع لقائد الجيوش العام الذي كان على مايظهر هو القائد الأعظم لكل جنود مصر .

وسنرى أن الجيش المصرى منذ عهد الأسرة السادسة كان يشمل غير فيالق المجندين ، عساكر مرتزقة ، وكان يقود الكل قائد الجيوش العام . ومع ذلك فإن الجيش الوطني كان يؤلف وحدة تحت إمرة قائد « إمرا خبر إن نفرو » لقبه مدير رؤساء المجندين . وهو لقب لايمكن أن يطلق إلا على قيادة الجيش النظامي المؤلف من كتائب جنود مصريين .

وكان قواد الجيوش دائما ينتخبون من بين الشخصيات العظيمة جدا وقد لاحظنا ذلك عند الكلام على الجيش في عهد الأسرة الرابعة إذ كانوا ينتخبون من بين أمراء البيت المالك ، وفي عهد الأسرة الخامسة دلتنا الآثار على أنهم كانوا من حملة الألقاب الملكية العظيمة جدا فكانوا هم كلهم يحملون لقب حامل الخاتم الملكي والمقرب من الإله العظيم

---

(1) Borchardt, op. cit. pl. IX.

وكذلك كانوا يتحلون بأعظم الألقاب الفخرية مثل : « الذى فى قلب الملك » (أى صديقه الحميم) .

ويجب هنا أن نشير إلى لقبين يظهر أنهما من الألقاب الحربية وكان يحملهما القائد « سشمو » (1) ولم يعثر على أمثلة لهما فى الدولة القديمة وهما : « إمرا إستى نتر و خرب إستى نتر » . والظاهر أن معناهما . (قائد المعسكرين الحربيين للإله) أى الفرعون ، وهذان المعسكران يحتمل أن يكون المقصود منهما هو مجموع جيش الوجه القبلى والوجه البحرى وذلك لأن قائدهما هو « سشمو » الذى كان يحمل فى الوقت نفسه لقب القائد العام للجيوش وأمير البحر العام لمصر قاطبة .

ومما تجدر ملاحظته هنا أن الفرعون فى هذه الألقاب يسمى الإله ولذلك لايستبعد أن لقب « حامل الخاتم الإلهى (الملكى) الذى شاهدنا كل الضباط العظام كانوا يحملونه ؛ من الألقاب التى لها علاقة بالإدارة الحربية وقد دلت البحوث الجديدة على أنه فعلا لقب حربى .

الاسطول

كان الأسطول الحربى مجهزا ببحارة يطلق عليهم اسم (عبر) ولم يلقبوا باسم « عبر نفرو » كتيبة مجندة . ومن المحتمل أن نستنتج من ذلك أن البحارة ليسوا كجنود الجيش البرى مجندين ، بل إنهم كانوا جنودا محترفين .

وقد كانت كل سفينة « دبت » على ما يظهر تحت إمرة ضابط . أما لقب « الضابط المدير العظيم » فيظهر أنه كان يمنح لضابط عالى الرتبة تحت إمرته كثير من الضباط . وهذا الضابط الكبير لابد أنه كان « رئيس أسطول » .

(1) L. D. II. 97, a, Saqqara.

على أننا نجد كذلك لقب « مدير الأسطول ورئيس الأسطول » وهذه الألقاب كان يحملها ضباط ذوو رتب عالية جداً .

والظاهر أن الأسطول الحربى كان مؤلفا من سفن عظيمة « دبت عات » ولابد أنه كانت منها السفن التى كان يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً وقد جاء ذكرها فى حجر بلرم فى عهد « الملك سنفرو » .

والواقع أن كبار رجال الأسطول الحربى كانوا يحملون لقب « مديرى بحارة السفن العظيمة » . وقد كان الأسطول مقسما إلى طائفتين من السفن ومن أجل ذلك يطلق على الأسطول كله اسم الأسطولين البحريين .

وهذه الألقاب المختلفة التى يحملها ضباط البحرية العظام يظهر أنها كانت تمنح من بين درجاتها رتبة ضابط ممتاز للأسطول ؛ ومن ذلك يتضح أنه كان لكل من الجيش والأسطول قيادته الخاصة ولكن رغم ذلك كانا منذ عهد الأسرة الثالثة تحت إمرة قائد واحد ففى عهد الأسرة الثالثة كان الأمير الملكى « رع حتب » (1) قائد الجيش وأمير الأسطول . وفى عهد الأسرة الرابعة كذلك كان الأمير الملكى « مرإيب » يحمل نفس اللقبين . وفى عصر الأسرة الخامسة قسم كل من الجيش والأسطول إلى فيلقين وذلك طبقا لتقسيم البلاد إلى قسمين الوجه القبلى والوجه البحرى . ومع هذا نجد أن القيادة العليا كانت موحدة . فكان كل من الأمير الملكى « عنخ إسيسى » (2) والأمير « كا إم ثننت » قائدا لجيش البر وأميرا لأسطول البحر ؛ وكذلك نقرأ أن « سشمو » كان القائد الأعلى لجيوش البر والبحر . وقد لوحظ فى القاب

(1) Weill II - III Dyn. p. 274; Miss Murry, Index, p. 411.
(2) Mar. Mast. D. 8 pp. 189-190.

هؤلاء القواد العظام للبحر والبر أنهم كانوا يلقبون كذلك بلقب « مدير كل الأوامر الملكية » . ولابد أن ذلك كان بطبيعة الحال للجيش فحسب . ومن ذلك يتضح أن كلا منهم كان الممثل المباشر للسلطة الفرعونية فى رياسة جيوش مصر .

وتدل النقوش على أن الجيش كان منفصلا تماما عن السلطة المدنية ؛ وقد كان القائد الأعلى إلى الأسرة الخامسة عضوا فى مجلس العشرة العظيم ، مثل « رع حتب » من الأسرة الثالثة « ومرإيب » من الأسرة الرابعة ، ولا نزاع فى أنهما كانا ضمن أعضاء هذا المجلس من الوجهة الحربية فقط إذ لانجد أنهما كانا يقومان بأداء أى عمل إدارى أو قضائى مثل الأعضاء الآخرين لهذا المجلس ؛ والواقع أن وجودهما بين أعضاء مجلس العشرة العظيم كان بمثابة رابطة بين الجيش والإدارة . وفى عهد الأسرة الخامسة فصلت الإدارة المدنية عن الإدارة الحربية فصلا تاما وذلك بعد الإصلاح الذى أدخل وبمقتضاه قسمت الإدارة والجيش إلى قسمين واضحين : لمصر العليا ومصر السفلى . ومن أجل ذلك لم نعد نرى أن قواد الجيش كانوا يجلسون ضمن أعضاء مجلس العشرة العظيم . ولكن فى مقابل ذلك أصبح كل منهم يلقب مثل الوزير « مدير كل أوامر الملك » . وقد ظهروا بذلك معادلين للوزير ، أى أنهم كانوا هم الممثلين للفرعون على رأس الجيش كما كان الوزير الممثل للملك على رأس الحكومة ، هذا إلى أن مدير الإدارة الحربية كان يجلس فى المجلس التشريعى الملكى . فكان « سشمو » مدير بيت الأسلحة والأشغال والمخازن الحربية ؛ يظهر اسمه بين الموظفين الملكيين الذين يحملون لقب « رئيس الأسرار لأوامر الفرعون » . ويلاحظ هنا أنه

لم ينتخب من بين العشرة العظام للجنوب مثل رؤساء الأسرار ، مستشارا سريا لكل أوامر الملك ، بل كانت مهمته قاصرة على أن يستشيره الفرعون فى المسائل الحربية فحسب .

الاداره الحربية

كان جيش مصر الثابت وجماعة ضباطه المحترفين . وقلاعه ، وأسطوله يستلزم قيام إدارة هامة لتصريف الأمور ، وهى بيت الأسلحة الذى عرفناه منذ الأسرة الثالثة وقد كانت إدارته دائما موكلة فى هذا العهد ـ مثل الجيش نفسه ـ إلى أمير ملكى أو لزوج أميرة ملكية فكان بذلك بعيدا كل البعد عن الإدارة المدنية وفى عهد الأسرة الخامسة أصبح بيت الأسلحة مزدوجا مثل الجيش : بيت للوجه القبلى وآخر للوجه البحرى . وقد استمر موظفوه ينتخبون من أعلى طبقات الموظفين وغالبا ما يكونون من قواد الجيش الذين كانوا من أعلى طبقة من أشراف البلاد . ولذلك نرى أن « سشمو » كان فى وقت واحد القائد الأعلى لجيوش البر والبحر ومدير إدارة الحربية مما يدل على أن ديوان إدارة الجيش كانت تحت سلطان القائد العام مباشرة رغم أنها كانت تابعة مثل الإدارة المدنية لسلطة الوزير العليا .

ويشمل بيت الأسلحة عدة مصالح وبخاصة مصلحة الأشغال (أنظر ص ٣٠ الخ) لذلك نجد أن كل قائد أعلى للجيش كان يحمل لقب مدير أشغال الفرعون ، ولا شك فى أن هذه المصلحة هى التى كانت تقوم ببناء المعاقل وصنع سفن الأسطول وكان يدير الأخيرة مهندس السفن . وكان من اختصاص هذه المصلحة كذلك إدارة شون الغلال التى كانت معدة لتموين مصلحة الأعمال الحربية ولتقوم بخزن كل ما يلزم من المؤن فى

القلاع على أن اسم هذه المصلحة « بيت الأسلحة » كما ذكرنا يدل على أنها كانت تجهز الجيش بالسلاح والملابس . ومن أهم أعمال هذه المصلحة ضمان حسن سير مصلحة وكلاء الجيش وهى التى كانت تمد الجيش بالمأكولات والمعدات اللازمة لرجاله . والواقع أن الجيش المصرى لم يقم على السخرة ولا على السلب ، بل كان حتى فى وقت الغزوات يعتمد فى عدته وعتاده وطعامه على الإدارة الحربية . وقد قص علينا « ونى » أثناء الحملات التى كان يقودها فى نهاية الأسرة السادسة أى فى وقت تدهور الدولة المصرية وتمزيق شملها؛ أن تموين الجيش كان على أحسن ما يرام حتى أنه لم يوجد جندى قد أخذ خبزاً أو نعلا ممن كانوا فى طريقه اغتصابا ، ولم يكن من بينهم من أخذ عمداً ملابس من أى بلدة كانت : ولا من اغتصب معزا من أى شخص كان (انظر جزء أول ص ٣٧٨) ومن جهة أخرى نجد أنه فى خلال حملة شبه حربية أرسلت إلى خليج العرب فى عهد الفرعون « إمحوتب » ، أحد ملوك الأسرة السادسة قد وضعت إدارة الجيش تحت تصرف الجنود والعمال نحو ٥٠ ثوراً و٢٠٠ من الماعز لمئونتهم .

وكانت إدارة الجيش هذه قد بلغت من الكمال حداً عظيما من الدقة . يدل على ذلك وثيقة غريبة فى بابها وصلتنا فى هذا الصدد . وهو خطاب كتبه قائد الجنود الذين كانوا فى محاجر طرة بالقرب من منف فقد وصل إلى هذا القائد أمر الوزير بإرسال كتيبة إلى منف لتأخذ أهبتها هناك، ولكن هذه الكتيبة كانت قد مضت ستة أيام فى منف منذ زمن قصير فاحتج القائد على ذلك قائلا أنه كان يجب تموين الجيش مدة إقامته فى العاصمة، بدلا من ضياع يوم كامل إذا أرسل إلى هناك ثانية .وذلك مما يعطل سير

العمل ويؤخره . وقد تدل هذه الوثيقة من جهة أخرى على أن الكتيبة أضاعت ستة أيام لتأخذ مئونتها وعدتها بدون جدوى (؟) ؛ على أن حسن سير العمل فى مصالح الجيش كان مضمونا لوجود كاتب لبيت الأسلحة وللمصالح الإدارية التابعة لوحدات الجيش ؛ وذلك أنه كان لكل جيش موظفوه وهم كتّاب الجيش الملكى وكل فرقة كان لها كتّابها وهم كتّاب الوحدات وكلهم تحت إمرة مدير كتّاب الوحدات الحربية .

وكان الجيش كما نعلم مؤلفا من مجندين غير أننا لا يمكننا أن نعرف كيفية تجنيدهم إلا من متون يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة ، إذ نجد فى المرسوم الثالث من عهد الفرعون « بيبى الثانى » الموجه إلى مدير الجنوب ، ما يشير إلى كيفية ذلك . وفى هذا الوقت أخذت مصر تنقسم إلى مقاطعات مستقلة تقريباً .

ويظهر لنا من نقوش « ونى » عند وصفه كيفية تجمع الجيش الملكى أن حكام المقاطعات والمراكز كانوا يأتون بالعساكر المجندين من الحصون والمدن التى كانوا يحكمونها .

ويمكننا أن نستنتج أنه فى عهد الأسرات السالفة كان حكام المقاطعات مكلفين بفحص المجندين وتسجيل أسمائهم . غير أننا لا يمكننا أن نقرر مع ذلك أنه كان فى قبضة أيديهم قيادة هؤلاء الجنود كما كان الحال فى عهد الأسرة السادسة ، والواقع أننا لم نعد نجد فى ختام الأسرة السادسة لقب القائد العام « إمرا مشعو » ؛ إذ سيستولى على القيادة الحربية فى هذا العهد حكام المقاطعات الذين أصبحوا أمراء إقطاعات ؛ على أن هذه السلطة نفسها لم يقبلها هؤلاء إلا بسبب الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ، بوصفهم حكاما ملكيين ، ومن هذه الامتيازات أن يجندوا الجنود فى

مقاطعتهم بمحض إرادتهم لخدمة مليكهم أو لتنفيذ مآربهم . ويجب أن نستخلص من نظام هذا الجيش الوطنى المؤلف من مجندين ، أن سكان القطر كانوا خاضعين إلى إدارة حربية . ولا يمكننا أن نقطع بأن هذا التجنيد ينطوى تحت لوائه كل السكان أو بعضهم . ولكن من جهة أخرى يمكننا أن نلمس الحقيقة عن نوع الرجال الذين كانوا ينخرطون فى سلك الجندية من اللفظ الذى يعبر به عن الرجل الذى كان ينتخب للجندية ، إذ كان المصرى يعبر عن المجندين بكلمة « نفرو » ومعناها « الشباب الغض أو الجميل » . ومن ذلك نعلم أن الطبقة التى كانت تتميز بهذه الصفة كان رجالها هم الذين يجندون فحسب على أن هذا الاستنتاج لايخرج عن حد النظريات .

جيش الجنود المرتزقة

تدل النقوش التى دونت فى مرسوم دهشور[1] ومراسيم قفط[2] ، ولوحة « ونى » (جزء أول ص ٣٧١ الخ) على أنه كان يوجد فى مصر جيش من الجنود الموالية « نحسى » وكان هذا الجيش يتألف من الزنوج أو بتعبير أدق من النوبيين ومن المحتمل من اللوبيين أيضا ، وكانت الكتائب التى تؤلف من هؤلاء تكوّن جزءاً من الجيش المصرى ؛ إذ أنهم كانوا يظهرون فى ساحة القتال بين الجنود الذين جمعهم « بيبى الأول » ليخضع بهم البدو تحت إمرة « ونى » وكانوا يؤلفون وحدهم جيشا مرتزقا .

وكان الملوك يمنحونهم فى عهد الأسرة السادسة[3] أراضى وينشئون لمصلحتهم ضياعا والتزامات معفاة من الضرائب الملكية . ويظهر أن هؤلاء الجنود المرتزقة

(1) Moret J. As. 1917 p.p. 387 et Suiv. (2) Op. Cit. 1916 p.p. 296-322. (3) Sphinx, XVII p. 118.

كانوا تابعين لنظام جديد وجـد مذكورا فى الألقاب منذ الأسرة الخامسة ، يطلق عليـه « جس بر » (الجيش المنظم) بجوار الجيش الوطنى . ومن المحتمل جـدا أن يكون الفرعون قد نظم هؤلاء الجنود المرتزقين فى العهـد الذى حدث فيه الانقلاب العظيم فى الأسرة المالـكة . وكان يرأس جيش المرتزقة هذا (مدير المرتزقة) « إمرا جس بر » . وهـذا اللقب كان يحمله دائما حاكم المقاطعة ولـكنه كان خاصا بأصحاب الشأن والقوة منهم وبخاصة « إحى » (1) الذى كان يلقب كذلك ، مـدير البعوث أو الحملات الفرعونية فى البلاد قاطبـة وكذلك كان يلقب به « وسر كاف عنخ » (2) حاكم مقاطعات الوجه البحرى و « بحنوكا » (3) و « وتب إم عنخ » (4) و « بيى عنخ » وقد أصبحوا وزراء وعينوا نوابا للملك فى « نخن » (الـكاب) . ومن ذلك يمكننا أن نقرر بأن (قواد الجنود المرتزقة) كانوا من الموظفين الذين فى يدهم سلطة حكام الأقاليم . ومن جهة أخرى كان يشتمل جيش المرتزقة على مصالح مختلفة ، واحـدة منهـا لمقاطعات الشمال تحت سلطان حكامها ؛ فـكان « وسر كاف عنخ » يلقب مـدير مقاطعات الشمال فى مصلحة الجنود المرتزقة المزدوجة ، ومن ذلك يستنتج أنه كانت هناك مصلحة أخرى للجنود المرتزقة لمقاطعات الجنوب وهذه النظرية قد وطدت دعائمها بنظائر لها . وذلك أن مصلحة جيش الجنود المرتزقة أصبحت مزدوجة مثل المصالح الإدارية فى عهد الأسرة الخامسة وأصبح يطلق عليها « جسوى بر » ويمكن حينئذ تفسير هذا اللقب « بالبيت الذى يدير الجيشين من المرتزقة »

---

(1) L. D. II, 88 a. b مسلة صغيرة من الجيزة (2) Br. A. R. t.I, No 276
(3) Mar. Mast. D. 70 p.p. 370 et Suiv. (4) Borchardt. Grab des K. Neuserre p. p. 71-74.

والجيش المرتزقة أمناء أسرار وبخاصة للبلاد الأجنبية : «كبير أمناء السر لباب البلاد الأجنبية فى بيت إدارة جيش الجنود المرتزقة» . وأبواب البلاد الأجنبية هى كما ذكرنا مناطق الحدود التى كانت تقام فيها حصون . ومن جهة أخرى نجد لكل من الأهرام الملكية والجبانات حرسا من الجنود المرتزقة . وقد ظهر فى نقوش « ونى » لقب مدير الجنود المرتزقة أيضا . وقد ذكر لنا « ونى » قائمة بأسماء الشخصيات الهامة الذين جاء كل منهم على رأس جنوده ، مرتبة حسب مكانة كل منهم . وهم كما يأتى :

(١) الأمراء ، حاملو خاتم ملك الشمال . (٢) السمار الوحيدون ، والرؤساء العظام أصحاب الحصون العظيمة . (٣) حكام الحصون . (٤) السمار مديرو القوافل . (٥) رؤساء الكهنة . (٦) قائد الجيوش المرتزقة .

ثم يقول لنا المتن ، إن كلا من هؤلاء كان يقود جنودا من الجنوب ومن الشمال من الحصون ، ومن المدن التى يسيطرون عليها ومن « النحسى » أى الجنود المرتزقة الذين جلبوا من البلاد النائية : (انظر الجزء الأول ص ٣٨٠ الخ)

ومما سبق يتضح أن قواد الجنود المرتزقة كانوا مثل الضباط الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم ، يقودون جنودهم إلى ساحة القتال . على أن قواد الجنود المرتزقة لم يكونوا حكاما لمقاطعات ولا مدن ، ولا ضياع ملكية معفاة من الضرائب مثل رؤساء الكهنة . كما أن حكام الأقاليم والمدن لم يكن تحت إمرتهم جنود من النوبيين فى جيوشهم ، إذ لم نجد حاكم مقاطعة واحدا فى عهد الأسرة الخامسة يحمل لقب رئيس الجنود المرتزقة . ومن ذلك نستخلص أن مصلحة الجنود المرتزقة هى التى تدير شئون هؤلاء الموالين من النوبيين الموزعين فى طول البلاد وعرضها وقد كانوا فى الحقيقة

يؤلفون قوة من رجال الشرطة وحامية ثابتة قد وكل إليها المحافظة على الأمن فى مناطق الحدود والمقاطعات وحراسة الجبانات والأهرام الملكية التى كانت دائما مهددة بناهبى القبور .

وكان الجيش مكلفا بحراسة البعوث التى كانت ترسل إلى مناجم سيناء وحمامات ، وكانت الكتائب البرية والسفن الحربية ترافق البعوث التى يرسلها الفرعون « إسيسى » إلى شبه جزيرة سيناء لإحضار حجر الدهنج . وكان يصحب هذه البعثة ضابط بحرى وثلاثة ضباط جنود برية .

وفى عهد الفرعون « بيبى الأول » قامت حملة إلى سيناء تصحبها كتيبة من الجنود بإمرة قائد جيش ومعه عدد من الضباط البحريين وضباط الجنود البرية وكذلك أرسلت فى عهد نفس الفرعون حملة إلى حمامات غير أنه لم يذكر فى نقوشها قائمة بأسماء ضباط الحملة ، ولكن ذكر عرضاً فيها اسم ضابط سفينة وقد ذكر فى متن يرجع تاريخه إلى أواخر الأسرة السادسة أن أمراء الفنتين قد قاموا بإحدى عشرة بعثة بحرية إلى جبيل (ببلوص) وبلاد « بنت » (أنظر ص ٢٦٥) .

الجيش فى عهد الأسرة السادسة

بقيت القيادة الحربية وراثية فى الجيش المصرى حتى أواخر عهد الفرعون « بيبى الأول » . وقد حاول فراعنة أول الأسرة السادسة أن يستبقوا السلطة المباشرة على الجيش فى أيديهم بجعل القيادة فى أيدى أشخاص من الأسرة المالكة ، يدل على ذلك أن قائدين للجيش فى أوائل الأسرة السادسة كانا من أقرباء الفرعون الحقيقيين .

ولم يطرأ تغيير فى نظام الجيش فى عهد الملك « تيتى » بل بقى تحت

إمرة القائد الاعلى الذى كان ينصّب عادة من أقرباء الفرعون ، وكان تحت أوامره ضباط فرق من المجندين ويهيمن على شئونهم « بيت الأسلحة » الذى كان تحت سلطان الوزير المباشر فى ذلك الوقت .

ويظن أنه قد حدث انقلاب فى عهد « بيبى الأول » فى نظام الجيش بسبب انحلال الدولة وتقسيمها إلى مقاطعات مستقلة تقريباً ، فنرى فى أواخر عهده أن الوظائف الحربية أصبحت نتيجة لهذا الانقلاب وراثية تقريباً ولذلك نجد أن « إبدو » (1) الذى قاد حملة إلى سيناء فى العام التاسع عشر من حكم « بيبى الأول » ، كان يحمل لقب قائد الجيش الذى كان يلقب به والده « مرى رع عنخ » من قبله ومن جهة أخرى نلاحظ أن لقبا جديداً ستكون له أهمية عظيمة فى عهد الفرعون « بيبى الثانى » قد ظهر وهو « مدير القوافل » ، وقد اعتاد علماء اللغة المصرية بترجمته « بمدير التراجمة » . وقد وجد حاملو هذا اللقب بين أسماء رؤساء البعوث التى كانت ترسل إلى محاجر سيناء ووادى مغارة أو إلى بلاد النوبة التى تدفع الجزية للفرعون مثل أقطار « مجا » و « إيام » و « أرثت » : و « واوات » الواقعة فى جنوبى مصر وهذه الأقطار قد أصبحت لها أهمية عظمى للتاج فى العهد الذى كانت فيه سلطة الفرعون تتناقص تدريجًا ويتبعها نضوب موارده المالية وقوته الحربية ، فكانت هذه الأقاليم الجنوبية فى الواقع تدفع له الجزية وتمده كذلك بالجنود المرتزقة الذين كانوا يغذون جيشه .

وقد جاء فى مرسوم دهشور فى عهد « بيبى الأول » أن مدير القوافل كان تحت إمرة رئيس مديرى القوافل . وتدلنا النقوش على أنه كان هناك

(1) Sethe, Urk. II No 11 (New Ed.)

مديرو قوافل من درجات مختلفة فني نقش من حكم « بيبي الأول » عثر عليه فى سيناء نجد مذكورا عليه اسماء جماعة ممن يحملون لقب مديرى قوافل تحت إمرة غيرهم فى نفس الحملة غير أن أهميتهم أخذت تعظم ونفوذهم يزداد بسرعة ؛ وسنرى أن عدداً منهم سيصير قريباً من بين أعظم الموظفين الملكيين ويصبح لهم الحق فى تقلد اللقب الفخرى « السمير الوحيد » وكذلك ظهروا بين الذين يحملون لقب المدير الأعلى لأوقاف القصر »

ومن ذلك نلاحظ أن القيادة العليا كانت فى سبيل التغيير، فنجد أن لقب القائد العام للجيش أخذ يختفى ، وكذلك أصبح تجنيد الجنود بإشراف الفرعون ضرباً من المستحيل ويرجع ذلك إلى قيام الامارات الإقطاعية فأخذ الجيش الذى كان يجنده الفرعون من داخل البلاد يتضاءل تدريجاً حتى اختفى نهائياً ومن ذلك العهد لم يبق فى يد الفرعون إلا جيشه المرتزق الذى كان يقوده مدير القوافل . وقد أصبح قواد هذا الجيش من القوة فى عهد « بيبي الثانى » إلى درجة أنهم صاروا أمراء إقطاعيين فى الفنتين وأصبحوا من أهم حكام الإقطاع فى الجنوب ومن أعظمهم نفوذا .

البعوث الفرعونية

تدل الوثائق والنقوش التى عثر عليها للآن على أن البعوث التى كان يرسلها الملك إلى خارج البلاد أو فى داخلها ، كانت تجهز لأغراض ثلاثة (١) بعوث لأغراض جنازية للفرعون نفسه (٢) بعوث تجارية (٣) حملات حربية .

فالنوع الأول من البعوث كان يرسله الفرعون إلى شبه جزيرة سيناء فى وادى مغارة وكان يصحب كل بعثة حرس عظيم من الجنود ؛ وكذلك كانت ترسل بعثات إلى محاجر حمامات و «حتنوب » والظاهر أن كل رجالها

مدنيون . والنوع الثاني بعوث بحرية إلى شواطئ البحر الأحمر وفلسطين الغرض منها التجارة . أما النوع الثالث فكانت حملات حربية محضة للغزو والفتوح فى بلاد النوبة وغيرها ويستخلص من الوثائق التى لدينا عن هذا العهد أن البعوث التى زارت وادى مغارة إلى عهد الفرعون « بيبى الأول » كان لواؤها معقودا لقائد جيش « إمرا مشع » أو ضابط بحارة الأسطول وتحت إمرة كل منهما عدد من ضباط الجيش : ضباط كتائب ورؤساء تراجمة أى جنود مرتزقة « إمرا عا » وضباط بحريين وقواد سفن .

أما الموظفون المدنيون فكانوا يتألفون من المستخدمين ويعرفون بوظائفهم مثل مدير كذا أو رئيس كذا وكان من بينهم موظف أو أكثر من السلك القضائى مثل « القاضى الكاتب » و « القاضى المدير » وكذلك كان من بينهم عامل من مصلحة الأشغال الملكية مثل كاتب النحاس ، ومدير أشغال الحجر .

وتدل الوثائق التى فى متناولنا منذ عهد الملك « مر نرع » أن العنصر المدنى والعنصر الدينى كان لهما أهمية تتزايد ؛ حتى أن البعوث التى كانت ترسل إلى سيناء كان يدير شئونها أحد عظماء رجال الملك مثل حامل الخاتم الإلهى (الملك) يساعده موظفون مدنيون وبرفقتهم كتيبة من الجنود يشرف عليهم ضباط فرق ، وضباط بحريون ومديرو جنود مرتزقة .

أما البعوث التى كانت ترسل إلى محاجر حمامات فلم يرافقها جنود حربيون إذ كان يقودها إما مدير الأشغال الملكية عامة ، ورئيس مصلحة الأشغال العمومية ، أو شخصية من شخصيات الدرجة الأولى مثل حامل الخاتم الملكى ، وهى وظيفة حربية وقد كان تحت إدارة مدير كل الأعمال الملكية

اثنان من حاملى الخاتم الملكى . والواقع أن حاملى الخاتم هذين كانا هما نفسيهما اللذين كانا فى البعثتين اللتين أرسلتا فى عهد الفرعون « بيبى الأول » يقودهما مدير كل الأشغال الملكية ؛ « إخى » و « إحو »[1] . وقد قامت حملة ثالثة أخرى أقل أهمية برياسة حامل الخاتم الإلهى « إخى » . ويظهر من ذلك أن كان فى خدمة الملك اثنان من حاملى الخاتم الإلهى (الملكى) ؛ أما الموظفون المدنيون الآخرون فكانوا مديرى مبان ورؤساء عمال . وتجب هنا ملاحظة أن البعثة التى كان يقوم بها حامل الخاتم الإلهى (الملكى) كان الغرض منها جلب المواد اللازمة لبناء هرم الفرعون .

وأخيراً كان يصحب البعثة عادة قاض أو موظف قضائى أما البعوث التى كانت توجه إلى محاجر « حتنوب » فى مصر الوسطى فكانت أقل أهمية . وقد كلف برياسة واحدة منها فى أواخر حكم « بيبى الأول » حاكم مقاطعة « ون » (الارنب) وهو « خنم عنخس »[2] وقام بحملة أخرى من هذا النوع فى عهد الملك «مرن رع» ، حاكم الوجه القبلى « ونى » (الجزء الاول ص ٣٧٩)

الجيش والبلاد الأجنبية : لم يكن فى مقدور حكومة كل من الملكين « تيتى » و « بيبى الأول » أن تقف التيار الذى كان يدفع البلاد المصرية نحو الانحلال والانقسام ، و إن كانت قد ضمنت إلى حدما ، ما يظهر هيبتها الحربية واستمرار سيادتها على أقوام بدو الشرق حتى فلسطين ، وكذلك على سكان بلاد النوبة الخاضعين لمصر .

والواقع أنه كان فى قبضة الحكومة فى ذلك العهد جيش حسن الإدارة . فكان « بيت الأسلحة » تحت سلطان الوزير ، أما بناء السفن الحربية فى « عهد «بيبى الأول » ، فكان موكلا إلى حاكم مقاطعة « ون » القوى « تيتى عنخ » .

---

(1) Br. A. R. t. I. p. 298-9 (2) Urk. II, No 14, (New Ed)

وكان للملك جنود تحت إمرة ضباط فنيين يقـومون بالحملات خارج حدود البـلاد . وقد بقى لقب « القائد العام للجيوش » ، يستعمل فى عهـد الأسرتين الرابعة والخامسة ، إلى عهد حكم « بيبى الأول » . إذ أرسلت فى حكمه بعثة إلى محاجر « حتنوب » على رأسها « إبدو » ويحمل لقب ، قائد الجيش ، وأمير الأسـطول ، وهو ابن قائد الجيش « مرى رع عنخ » ومن هـذا نرى أن قائد البعثة كان سلطانه ينتظم جنـود البر والبحر الذين كانوا يرافقونها .

وقد حافظ الجيش على وحدته الحربية حتى عهد « بيبى الثانى » إذ نجد فى نقوش سيناء ما يثبت لنا وجود لقب رئيس المجندين ،ولقب رئيس فرق المجندين . وقد ظلا يستعملان حتى نهاية حكم هذا الملك ، غير أنه رغم ذلك كان تأليف الجيش قد تغير تغيراً عظيما فى عهـد « بيبى الأول » ويمكننا أن نفهم هذا من نقوش « ونى » .

وكان « ونى » هذا يحمل لقب مدير أوقاف القصر أى أنه كان كبير رجال البلاط ، وقد نصّبه « بيبى الأول » على رأس جيشه ليقوم بغزوة ضد البدو .

وقد وصف « ونى » تأليف الفرق بأنها كانت بقيادة (١) الأمراء (٢) وحاملى أختام ملك الوجه البحرى (٣) والسمار الوحيدين ، ورؤساء الحصون العظيمة (٤) والرؤساء حكام الحصون (٥) والسمار مديرى القوافل (٦) ورؤساء الكهنة (٧) مديرى الجنود المرتزقة « إمرا جس بر » .

والمتن يوضح ذلك إذ يقول : « وكان كل واحـد منهم على رأس كتيبة من جنود الجنوب وجنود الشمال ، والحصون والأوقاف (ويقصد بهذا الضياع العظيمة التى كانت معفاة من الضرائب وتابعة للمعبد) ، الذين

يقودونهم ، هذا إلى الجنود الموالين (نحسى) الذين جندوا من هاتيك البلاد النائية (أى بلاد النوبة) . وأول ملاحظة تلفت النظر فى هذا النص هى أن الجيش لم يعد تحت إمرة « قائد جيش عام » بل كان يقوده كبير رجال البلاط « ونى » .

أما الجيش نفسه فيتألف من الجنود الذين أحضرهم رؤساء المقاطعات حسب ترتيبهم فى المكانة وعلو المرتبة .

وكانت المقاطعات محكومة بأمراء أو بحكام حصون ، والفرق بين حكام حصون المقاطعات ، وحكام الحصون الذين كانوا ينصّبون على أجزاء المقاطعات ، هو أن الحكام فى الحالة الأولى يحملون لقب حامل خاتم ملك الوجه البحرى أما فى الثانية فانهم لا يحملون هـذا اللقب . ولذلك نجـد أن « ونى » كان يقصـد بلفظة « إمرا » أى أمراء المقاطعات ؛ وحاملو خاتم ملك الوجه البحرى أى حـكام المقاطعات الذين لم ينالوا بعـد رتبة أمير ، فهم بذلك حـكام حصون وحاملو أختام ملك الوجه البحرى فحسب .

وتدل الوثائق على أن السمار الوحيدين للحصون الكبيرة كانوا حكام مقاطعات الدلتا . أما نواب الحصون فكانوا هم الذين يحكمون مراكز المقاطعات . وعلى ذلك فإن كل حكام المقاطعات ونواب الحصون الذين كانوا تحت سلطانهم ، كانوا يظهرون فى الجيش على رأس الفرق التى جندت من رجال أقاليمهم . وقد كان بجانب الجنود التى جمعت من المقاطعات آخرون جندهم رؤساء الكهنة أى كبار كهنة المعابد . وذلك أن المعابد كان لها ضياع عظيمة قد أعفيت من الضرائب منذ نهاية الأسرة الخامسه وقد

كان من نتائج ذلك أن الإدارة العامة للحكومة وحكام المقاطعات ، لم يكن لهم الحق فى أن يتدخلوا فى شئون هذه الضياع الخاصة . ولذلك كان الكاهن الأعظم يتمتع بالسلطة التى خولتها له الحكومة دون أى تدخل من جانبها ؛ وقد كان الكاهن الاعظم منذ ذلك العهد هو الذى يجند الفرق الحربية من ممتلكاته ويقودها بنفسه للاشتراك مع عامة الجيش .

واخيرا نجد بجانب هذا الجيش المصرى ، أن مديرى البعوث التى كانت توجه إلى بلاد الجنوب ، يحضرون على رأس جنودهم المتحالفة ، المؤلفة من أهالى « إيام » و «إرثت » و « واوات » وكلها أقاليم واسعة فى جنوبى الفنتين ؛ وكذلك كان قواد الجند المرتزقة يظهرون على رأس جنودهم .

وإذا اتخذنا نص « ونى » أساسا لحالة الجيش فى عهد الأسرة السادسة فانا نشاهد أن شكل نظام الجيش قد تغير تغيرا تاما عما كان عليه منذ عهد الأسرة الخامسة ، إذ لم يعد مكونا من وحدات حربية بإمرة ضباط فنيين ليس لهم أى سلطان مدنى . بل أصبح الآن جيشا اقطاعيا محضا . ولذلك لم تعد الوحدة الحربية هى الفرقة « عبر » بل أصبح الجيش مقسما إلى فصائل « تس » مجموعة حسب تعداد الإقليم الذى جندت فيه وعلى رأسها أمير المقاطعة ، ونائب الحصن أو الكاهن الكبير الذى يحكم هذا الإقليم من الوجهة الدينية . أما جيش المرتزقة فقد بقى تحت قيادة رؤساء مختصين وهم قواد الجنود المرتزقة « إمرا جس بر » الذين نعرفهم منذ الأسرة الخامسة وقواد القوافل الذين لم يظهروا إلا فى عهد الأسرة السادسة . على أن الجيش وإن كان قد أخذ صبغة إقطاعية محضة فإنه مع ذلك كان تحت إمرة الملك مباشرة وكان هو الذى يعين رئيسه الذى

كان أعظم أشراف البلاط مكانة . وتدل نقوش « ونى » أن نظام مجلس تموين الحملة كان كما يظهر موكلا إلى « ونى » نفسه إذ نجده يفاخر بأنه لم يقم بوضع خطط الحملة وقيادة الجيش فحسب، بل كان يسهر على حاجته وعلى نظام الجنود حتى لايسرق واحد منهم دقيقا ، أو نعلا من سائح أو يغتصب ملابس من أية بلدة كانت . على أن الحملة التى نظمها « بيبى الأول » وقادها « ونى » ، تشعر بأن الملك كان لايزال فى يده وسائل قوية لأن هذا الجيش قد نقل بحرا من مصر إلى سواحل فلسطين مما يتطلب نفقات وتدابير خاصة .

ولم نجد فى النقوش أى أثر فى عهد « بيبى الثانى » ، لجيش إقطاعى جمعه الفرعون ووضعه تحت إمرة قائد معين من قبله ، بل وجدنا أن رؤساء الحملات الحربية فى عهد هذا الفرعون وهم مديرو القوافل أى رؤساء جماعات من النحسى (النوبيين) ، قد جندوا من بين الأقوام النوبيين الخاضعين لحكم مصر وبخاصة بين أهل « إيام » ويحيط بهم جنود مصريون . وهؤلاء القواد (إمرا عا) معروفون منذ حكم « بيبى الأول » ؛ ولقد ظهر لقب مدير القوافل فى المتون المصرية لأول مرة فى نقوش « ونى » وسيناء التى تروى قصة بعثة أرسلت فى السنة ١٨ من عهد الملك « بيبى الأول » ؛ وقد لاحظنا أن موظفيها كانوا تحت إمرة قائد « إمرا مشع » ؛ ويلوح أنهم كانوا فى المرتبة التى بعد ضابط البحرية للأسطول ، غير أنهم كانوا أعلى مقاما من كل الضباط الآخرين الذين يرافقون الحملة . ونجد فى الجيش الذى وصف لنا « ونى » تأليفه فيما سبق أنهم ذكروا مباشرة بعد الأمراء ونواب المقاطعات وقبل الكهنة العظام ومديرى الجيوش المرتزقة ؛ يضاف إلى ذلك

أنهم كانوا يحملون اللقب الفخرى « السمير » .

وعثر على نقش ساذج الصنع فى « توماس » من أعمال النوبة السفلية الواقعة عند تفرع طريق القوافل الذى يؤدى من جهة الشاطىء الأيسر للنيل إلى الواحات الكبيرة جاء فيه ذكر ثلاثة بعوث إلى بلاد « إرثت » والأقاليم الأخرى الجنوبية وكان يقود كلا منها « مدير قوافل » . وكان كل من المديرين فى البعثتين الأوليين يحمل لقب « الرئيس الأعلى لأملاك أوقاف القصر » وفى الحملة الثالثة كان رئيسها يحمل لقب « مدير أملاك أوقاف القصر » زيادة على لقبه الأصلى ؛ وكان مساعده يحمل لقب « مساعد مدير القوافل » . ومن ذلك يتضح أن أمراء القوافل الذين ذكرت أسماؤهم على نقوش « توماس » كانوا من الشخصيات العظيمة الذين يحملون أعلى درجات الشرف فى البلاط الملكى .

وفى عهد الملك « مرن رع » نجد أن مدير قوافل كان مرءوسا فى حملة أرسلت إلى وادى مغارة . ومن ذلك يتضح أن لقب مدير القوافل يدل على وظيفة ضباط مختلفى الرتب . وقد عرفنا من مرسوم دهشور أنه كان يوجد لقب « مدير أعلى للقوافل » كان يمتد سلطانه على أقطار « مجا » و « إيام » و « إرثت » ، ومن المحتمل جداً أنه كان تحت سلطانه عدد من مديرى القوافل وكذلك عرفنا من منطوق هذا المرسوم أن مدير القوافل كان يقود جنوداً من المرتزقة قد جندوا من بلاد النوبة وعرفوا باسم « نحسى » (ربما كانت كلمة النخاسة مشتقة من هذا الأسم) ؛ وكان الملك يمونهم من ضياعه الخاصة حيث كانوا يقطنون ، وكان لهم الحق فى أن يستولوا على جزء من المحصول .

وكان مديرو القوافل يحملون ألقابا فخرية وألقاب شرف وذلك طبقاً للسلطة التى كانت فى أيديهم . وقد ذكرنا فيما سلف أن بعض مديرى قوافل لايحملون ألقابا فخرية ، ولكن فى نقوش « ونى » نجد أنهم كانوا يحملون لقب « السمير » كما نجد آخرين يحملون لقب الشرف « خنت شى » قضية « سبك حتب » (انظر ص ٥٩) نجد أن هذا الرجل العظيم وابنه « تاو » كان كل منهما يحمل لقب « مدير قوافل » مع لقب قريب الملك ووراثيا فى وقت واحد .

وقد كان مديرو القوافل مكلفين على وجه خاص ، بالقيام ببعوث إلى بلاد النوبة .ومنذ عهدالفرعون « مرن رع » نجد أمراء قوافل قد استوطنوا الفنتين بصفتهم حراس الحدود الجنوبية . ويظهر أن أقدم مدير قوافل فى هذه الجهة هو « إرى » من عهد الملك « مرن رع » ويحمل لقب السمير الوحيد ، ومدير القوافل ، والواقع أنه كان شخصية ممتازة ، عظيم الاحترام لدى الفرعون إذ كان يقوم بوظيفة مرتل فى الصلاة الملكية . ومن ذلك يتضح أنه لم يكن من أشراف الأقاليم بل كان موظفاً ملكيا ، وقد خلفه ابنه « حرخوف » ؛ وكان معاصرا للملكين « مرن رع » ثم « ببى الثانى » . وكان يلقب كذلك مدير القوافل ؛ ولكن نجم سعده قد علا بسرعة إذ قلده الملك أعظم الألقاب التى تدل على حظوته لديه : « المحبوب من سيده » ، « الذى فى قلب سيده » ؛ ثم رقى إلى رتبة أمير ، ونائب الملك فى « نخن » ، هذا إلى أنه كلف بعمل مرتل الفرعون وهى الوظيفة التى كان يشغلها والده .

وقد وكل الفرعون إلى « حرخوف » أمر حماية الحدود الجنوبية فى مصر العليا ولما كان هو حاكم الأقطار التابعة للملك فإنه استوطن فى وسط

جنوده بالقرب من الفنتين حيث وجد قبره (انظر جزء أول ص ٣٨٨ الخ) وأشهر مديرى القوافل بعد « حرخرف » فى الفنتين هو « بيبى نخت » . والظاهر أنه ابن أحد الشخصيات العظيمة من الأجانب « حكا إيب » الذى وصل إلى قمة المجد ويلوح أنه رقى على ما يظهر بعد والده « بن إدب خو » أمير الفنتين .

وقد دفن « حكا إيب » فى اسوان ولكن ملامحه لاتدل على أنه كان مصريا . فقد مثل على جدران مقبرته مجعد الشعر اسمر الجلد وفى منطقته خنجر . وكان بصفته مدير القوافل يقود الجنود المرتزقة من النوبين المسلحين بالقوس والنشاب ويتقدمهم اللاعبون على القيثارة . ولاشك فى أنه كان من نسل أحد المرتزقة النوبيين ، ولايبعد أنه كان رئيس قبيلة دخل فى خدمة الجيش المصرى ثم أظهر براعة ورقى إلى أعلى درجة فى قيادة الجنود المرتزقة حتى حصل فى النهاية من الفرعون على مقاطعة الفنتين ولاية وراثية ؛ وقد بقيت الفنتين منذ ذلك العهد إقطاعية لمدير القوافل حتى أتى « مخو » ثم ابنه « سبنى » وتركا ظهريا لقب رئيس الجنود المرتزقة ، ولم يحافظا إلا على لقب إمارة الفنتين التى وضعتهما فى صف أقوى أمراء الإقطاعات المصرية . وتاريخ رؤساء هؤلاء الجنود له أهمية خاصة ؛ إذ نجد أن قدماهم كانوا رؤساء جنود مرتزقة . ولم يكونوا أمراء مقاطعات بل كانوا موظفين ملكيين . وكانوا يقومون بحملات فى بلاد النوبة فى جهة أقاليم « إيام » و « إرثت » و « مخو » و « تررس » و « سيثو » و « واوات » وكلها فى جنوب الفنتين ، ويعودون بثروة طائلة وقد كانوا يبسطون حمايتهم على رؤساء تلك الأقاليم التى كانت تعد بمثابة مستعمرة مصرية . وكانت

جيوشهم مؤلفة من مجندين من أهالى هــذه الأقاليم وبخاصة من أهالى إقليم « إيام » ومعهم بعض الجنود المصريين . وهذه الحملات الاستعمارية كانت تقوم بغزوات تأديبية ضد السكان والرؤساء العصاة .

وكان لأمراء القوافل أهمية خاصة عند الفرعون . وذلك أنه فى اللحظة التى كانت مصر تتمزق فيهـا إلى ولايات مستقلة ، وكانت السلطة الملكية تنكمش بسرعة ، وكانت فيها موارد التاج تنقص يوما بعد يوم ، كان الملك يحفظ مباشرة تحت حمايته الأقاليم الجنوبية فكان يجبى منها جزية هامة ويجند منهـا جيش الجنود المرتزقة الذى كان يتألف منه فى عهـد « ببى الثانى » آخر نواة للجيش الملكى (على الأقل فى الوجه القبلى) . وتذكر لنا إحــدى النقوش التى على صخور الشلال الأول أن الملك « مرن رع » ذهب بنفســه هناك ليتقبــل خضوع رؤساء « مجـا » و « إرثت » و « واوات » .

ورؤساء المرتزقة كانوا أكبر سند لسلطان الفرعون ، إذ كانوا ينصّبون أمراء نائبين عن الفرعون فى « نخن » ، ثم بعد ذلك لقبوا أنفسهم أمراء ، وبذلك أصبحوا أمراء مقاطعات وأسياداً لمقاطعة الفنتين ، وهى الحصن الجنوبى الذى يحمى مصر ضد غارات الأقوام النوبيين ، ويضمن حماية الطرق التى تؤدى إلى الأقاليم التابعــة لمصر . وتدل النقوش على أن رؤساء الجنود المرتزقة هؤلاء كانوا من أعظم حكام المقاطعات فى الوجه القبلى فى خلال النصف الأول من حكم « ببى الثانى » .

ولانزاع فى أن أمراء مقاطعة الفنتين قد وصلوا الى مرتبتهم هذه عن طريق وظائفهم رؤســاء قوافل « إمرا عا » . ولم تفتأ النقوش التى دونت تاريخ

حياتهم تذكرنا بالحملات التى قاموا بها للملك فى بلاد النوبة وفى جهات بلاد « بنت » ، وكذلك تحدثنا عن شدة البأس والقوة والشجاعة التى بها أخمدوا ثورات أهالى « إيام » و« إرثت » و« واوات » و« مجا » . ولقد كانوا دائماً فى نضال ، وكثيرا ما كانوا يقومون بعصيان وكان « حرخوف » يتدخل فى حروبهم للمحافظة على سلطان الفرعون فكان يساعد فريقا ليقضى على فريق آخر . وقد أخضع « بيبى نخت » عدة رؤساء قبائل وساقهم معه أسرى تحت أقدام الملك فى منف . هذا إلى أن هذه الحملات كانت منبع ثروة عظيمة إذ أحضر حرخوف من حملة ثلاثمائة حمار محملة بالبخور ، والأبنوس والعاج وكل المنتجات الطيبة . . . . كالثيران والحيوانات الصغيرة . وكان كل من «حرخوف» و « بيبى نخت » يفتخر بأنه حمل إلى الملك جزية أقاليم الجنوب ؛ على أن المركز الذى كان يشغله ، أمراء الفنتين عند الحدود الجنوبية لمصر باعتبارهم رؤساء طوائف المرتزقة جعلهم الأسياد الحقيقيين للأقاليم الجنوبية . وكان كل منهما فوق ذلك يلقب « برئيس أسرار كل حدود الجنوب على حين أن « بيبى نخت » و « سبنى » كان كل منهما فضلا عن ذلك يحمل لقب مدير الأقطار الأجنبية .

والحقيقة أن إدارة الجيش الملكى والأقطار الأجنبية الجنوبية أصبحت فى أيدى رؤساء المرتزقة الأقدمين الذين أصبحوا أمراء المقاطعة (الفنتين) وقد بقوا رغم ذلك الحلفاء المخلصين للملك ولكن عند ما تحولت ولايتهم إلى مقاطعة وراثية تقلص سلطان الفرعون عليهم وبذلك انتزعوا من يد التاج البقية الباقية له من السلطان الفعلى ، إذ تلاشى على نفوذ جيش المرتزقة مما قضى على الدخل الذى كان يجبيه الفرعون من ممتلكاته الأجنبية بقوة هذا الجيش .

الجيش فى العهد الاهناسى

كانت حروب مصر فى عهد الدولة القديمة ضد اللوبيين فى الشمال الغربى من حدودها ، والنوبيين فى الجنوب وبدو سيناء فى الشرق ؛ تختلف اختلافا بيّنا عن حروب الشعوب المجاورة لها كأمم غرب آسيا ، إذ كانت الاخيرة تشن الغارات للحصول على القوت أو لاستغلال الأراضى . أما حروب الفراعنة فكانت فى هــذه الفترة ، لصد غارات القبائل المجاورة وتأديبهم ؛ أو للحصول على غنائم . ولاشك فى أن مصر كانت القاهرة المنتصرة فى هذه الحروب ، بسبب تقدمها فى الحضارة ، ومالديها من الأسلحة وحسن نظام فنونها الحربية ؛ التى كانت تفوق بكثير جيرانها الذين كانوا لايزالون على الفطرة فى كل مرافق الحياة . وكان يفوق مصر رغم تنظيم جيوشها وما لديها من عـدد القتال ، شعوب غربى آسيا ، وقد بقيت تمتاز عنها فى هذه الناحية ، حتى بداية عهد الدولة الحديثة كما سنفصله فيما بعد .

فى أواخر عهـد الأسرة السادسة ، انهار آخر سلاح للملك فى صعيد البلاد ، وذلك بانحلال جيشه من المرتزقة ، وتفكك سلطانه بقيام الإمارات المستقلة . والظاهر أن الفرعون كان لايزال محتفظا ببعض السلطان فى بلاد الدلتا . ولكن على وجه عام ساءت الأحوال فى جميع البلاد ، وانتهز الأسيويون هــذه الفرصة ، وعزوا البلاد وخرّبوا الدلتا تخريبا ذريعا ؛ واستوطنوا البلاد كما تدل النقوش على ذلك . وقد سادت الفوضى فى مصر خلال الأسرتين السابعة والثامنة ، حتى أننا لم نقف على حوادث ثابتة فى هذه الفترة يمكن الاعتماد عليها من الوجهة التاريخية ، ولكن سلطان حكام

المقاطعات ، والبلاد العظيمة ؛ كان لايزال قائماً .

وقد أنقذ البلاد أسرة ملوك هرا كنبوليس (إهناس) فى مصر الوسطى فكان أول عمل قاموا به على ما يظهر ، أنهم طردوا الغزاة ، وقاموا بتحصين الحدود المصرية (1) وبخاصة فى الدلتا واتخذوا تدابير فعالة فى الشمال الشرقى ، بتأسيس مدن صغيرة محصنة ؛ تبتدىء من الحدود عند طريق « حور » (بين القنطرة والقلزم) ثم على طول نهر النيل ، حتى منطقة المنيا الحالية فى مصر الوسطى . وقد جاء بعدهم « امينمحيت الأول » الذى فكر فى تقوية هذه المعاقل ، وتدلنا الآثار على أنه بنى حصنا أطلق عليه « جدار الملك » فى وادى طميلات . ولم تكن هذه الحصون قائمة لحماية حدود الدلتا فحسب ، بل كانت فى الوقت ذاته لمراقبة القبائل السامية من الأقوام الرحل الذين كانوا مسالمين ، ولكنهم كانوا يجولون بين السويس ومصر الوسطى . ولا أدل على قيام هذا النظام فى عهد فراعنة الأسرة الثانية عشرة وضرورته لهم من أنهم عهدوا إلى أمراء المقاطعة السادسة عشرة بحراسة الباب الشرقى ولقبوا أمراءه بلقب حاكم الصحراء الشرقية (2) .

وقد دلتنا النقوش على أن اليقظة كانت شديدة ، والحراسة ساهرة فى هذه المعاقل ؛ إذ يقول لنا « سنوهى » عندما فر من معسكر الجيش موليا الأدبار : « ثم أسلمت الطريق إلى قدمى متجها نحو الشمال ووصلت إلى « جدار الأمير » الذى أقيم لصد الأسيوين . وقد خبأت نفسى فى شجيرات خوفا من أن يرانى حارس النهار فوق الجدار ، وعند الغروب مررت ، ولما طلع فجر النهار كنت قد وصلت إلى « بتن » ووقفت عند جزيرة « قمور »

(1) Erman, Literatur, (Sinuhe) p. 42. & 157. (2) A. Z. S, 65, p. 108.

(اسم للبحيرات التى عند برزخ السويس) » .

وكذلك عند عودة « سنوهى » إلى مصر وجد نفس اليقظة إذ قال : « ثم سرت نحو الجنوب ووقفت عند ممرات « حور » (على حدود مصر ، على الفرع البلوزى للنيل ، ومنها كانت الجيوش المصرية تتحرك للغزو) . وأرسل القائد الذى كان مكلفا بالحراسة هناك رسالة إلى مقر الملك تحمل الاخبار، فأرسل جلالته أحد ملاحظى الفلاحين ممن يثق بهم ، ومعه سفن محملة بالهدايا من الفيض الملكى للبدو الذين تبعونى وأرشدونى إلى ممرات « حور » ، وقد ناديت كلا منهم باسمه (لكى يقدمهم إلى الموظفين المصريين) » . ولدينا كذلك لوحة معروفة فى مقابر أمراء بنى حسن تمثل جماعة الساميين الرحل وقد أتوا إلى مصر بهدايا هى التى خولت لهم اجتياز الحدود ، وهذه اللوحة تضع أمامنا صورة واضحة لدقة الحراسة ، وحسن النظام ؛ فنشاهد فيها أن الذى يتقدم الجماعة هو الموظف الذى نراه دائمًا فى كل مناسبة ، وهو كاتب ملفات الفرعون . وهنا يقدم بيانًا عن سبعة وثلاثين أسيويا ، ثم نرى بعد ذلك رئيس الحامية ، وهو الموظف المسئول ويحمل لقب رئيس الصيادين .

ولقد عثر كذلك على لوحة من عصر الدولة الوسطى ، وهى الآن فى متحف برلين ، لموظف آخر يحمل لقب رئيس الصيادين ، وفى الوقت نفسه يلقب بمدير الصحراء الغربية [1] وفى هذه اللوحة وصف مختصر لنشاطه ، ويقظته بوصفه رئيساً للمرور والشرطة فى هذه الجهات فيقول : « لقد وصلت إلى الواحات الغربية ، وفحصت كل أطرافها ، وأحضرت الهاربين

(1) El Bersheh, II, pl. 13. Cairo, 20539. L. 16.

الذين وجدتهم هناك ، ولقد ظل كل جنودى سالمين ، ولم ، تحدث أية خسائر فى الأنفس بينهم » . يضاف إلى ذلك أننا نجد فى وصف البعوث التى كانت ترسل إلى وادى حمامات فى عهد الأسرة الحادية عشرة ؛ أن الصيادين كانوا فى الواقع كطلائع للبعوث . ولا شك فى أنه كانت تحت إمرتهم القبائل التى تسكن الصحراء كالعبابدة والبشارين فى وقتنا الحالى .

ومما يدل على مقدار الهمة والنشاط واليقظة التى بذلها ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ووسائلهم الناجعة فى تحصين مصر ما قاموا به من تحصين حدودهم الجديدة فى الجنوب ، إلى ما بعد الشلال الثانى بإقامة القلاع فى كل بلاد النوبة ، إلى جزر « بجه » و « الفنتين » حتى تمكن مراقبة جميع الوديان والسبل الموصلة إلى وادى النيل . وقد بقى هذا النظام قائما حتى عهد الدوله الحديثة أما داخلية البلاد ، فكان التحصين فيها قد أوقف ؛ منذ القضاء على عهد استقلال المقاطعات فى عهد الأسرة الثانية عشرة . والواقع أن عواصم كل المقاطعات كانت محصنة بقلاع ، وذلك لصد غارات جاراتها إذا اعتدت إحداها عليها . ولقد كان هذا النظام بعينه متبعا فى غربى آسيا حيث كانت كل عواصم المدن الكبيرة محصّنة تحصينًا قويا ، على أنه كان لمقر الملك وللمعابد جدران تحيط بها ، ولكنها كانت تقام لأسباب أخرى اقتصادية وقانونية . إذ كانت تعد فى هذا الوقت معفاة من الضرائب .

الخدمة العسكرية : وقد كانت الخدمة العسكرية كما ذكرنا فى عهد الدولة القديمة ، خدمة إجبارية بطريق التجنيد . فكانت كل مقاطعة بما فيها المعابد وما تملكه يجند منها الجنود ليعملوا فى قطع الأحجار أو للقيام بغزوات فى الجهات التى تظهر فيها أية ثورة أو عصيان ، أو لمحاربة أمراء المقاطعات ،

ولا نعرف القاعدة التى كانت متبعة فى التجنيد فى البلاد ، والظاهر أنها موكولة للأحوال ، وقد عثر على لوحة من عهد الأسرة الثانية عشرة ، تلقى بعض الضوء على مقدار نسبة المجندين فى هذه الفترة ، وإن كان ما جاء فيها لا يعد مقياسا يمكن اتخاذه قاعدة . وهذه اللوحة تخبرنا أن الابن البكر لأحد الملوك كان كاتبا للجنود عند تجنيده بإحدى فرق إقليم طينة ، وأنه كان يأخذ المجندين بنسبة $\frac{١}{١٠٠}$ من الرجال . (1)

وتدل كل الأحوال أن النظام كان سائداً ، فى فصائل الجنود الحربية ؛ منذ عهد الدولة القديمة . هذا إذا اتخذنا ما وجدناه على آثار هذه الفترة مقياسا ؛ إذ عثرنا فى الرسوم التى على جدران الطريق الجنازى لهرم الفرعون « وناس » أن كل فصيلة من الجنود كانت تحت إمرة ضابط معين ؛ فكان من بينهم ضابط الخمسة ، وضابط العشرة ، وقد ظن بعض المؤرخين أن هذا النظام لم يظهر إلا فى عهد الدولة الحديثة ، على أن نماذج الجنود التى عثر عليها فى مقابر جبانة أسيوط ؛ تشعر بأن مثل هذا النظام كان متبعا فى تلك الفترة أيضاً . ولا غرابة فى ذلك فإن الروح الحربية فى هذا العهد الذى بلغ فيه نظام الأقطاع أوجه كانت شديدة نامية ، ويرجع السبب الحقيقى فى ذلك إلى الحروب التى كانت متفشية بين حكام المقاطعات أنفسهم ، أو بينهم وبين الفرعون ، وذلك للاستيلاء على أراض زراعية ، من الأراضى التى يرويها ماء النيل . ولا غرابة إذا كنا فى خلال الاسرتين التاسعة والعاشرة نجد نقوشا هامة فى مقابر أسيوط ، عن أخبار الحروب الطويلة التى نشبت فى هذه المدة ، ولعب فيها أمراء أسيوط دوراً هاما ،

---

(1) Erman & Schäfer. A. Z. S. t. 38 p. 42.

بجانب الفرعون وكذلك نجد رسوما تدلنا على مبلغ تنظيم الجيش ، وفرقه وتسليحه هذا ؛ إلى أننا نجد فى مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة فى بنى حسن والبرشا وغيرهما مناظر تدلنا على اعتناء القوم بتمرين الشباب على الألعاب الرياضية ، وكذلك على مناظر تمثل مواقع حربية ، وحصار الحصون والقلاع وغير ذلك مما يدل عل انتشار الروح الحربية . ولا شك فى أن كل هذا كان موروثا عن الدولة القديمة ، فقد وجدنا مناظر تشبه ذلك في هذا العهد ، وبخاصة التمرين على الألعاب الرياضية (مقبرة « تى ») . وقد جادت الصدف بأن عثر فى عام ١٨٩٥ على بعض نماذج من الجنود مصنوعة من الخشب فى إحدى مقابر علية القوم فى جبانة أسيوط ،

وقد شوهد فيها أن الضباط كانوا مميزين عن الجنود بوضعهم على حوامل كل منفصل عن الآخر [1] .

وهذه المجموعة من النماذج تنقسم إلى قسمين ، فالتى على اليمين تمثل مشاة الصف ، وحاملى الحراب . والتى على اليسار تمثل المشاة الخفاف والرماة . ويلاحظ أن هؤلاء الجنود قد مثلوا سائرين صفا صفا ، كل صف مؤلف من أربعة جنود عرضا وعشرة جنود طولا . ويشاهد أن حاملى الحراب ، برغم أنهم لم يجهزوا بعدة واحدة مشتركة لكل الجنود كان ارتفاع قامة كل جندي منهم فوق المتوسط . أما لونهم الأحمر فينم عن أصلهم المصرى الصميم ويضعون على رءوسهم شعرا مستعاراً قصيراً يقوم مقام القبعة وكان فى الحقيقة يحمى الرأس من ضربات العدو ، كما كانوا يلبسون على أجسامهم

(1) Grebaut, Musée Egypt. I, pl. 33-36, & Klebs, Reliefs, Mr. p. 154.

قميصًا قصيرا من النسيج الأبيض مشدوداً على وسط الجندى بشريط رفيع مكشوف بعض الشىء من الأمام ومسدول على منتصف الجسم حتى منتصف الفخذ فيه كيس مدلى ليستر عضو التناسل .

أما الرماة فكانوا خليطا من المصريين واللوبيين الذين جندوا من بين القوم الذين يعيشون على حافة الصحراء ، وهم فى الغالب أقصر قامة من حاملى الحراب ؛ ويلاحظ أن بعضهم كان غاية فى القصر ، وكان بعضهم يرتدى على رأسه القبعة التى يلبسها حاملوا الحراب ، وبعضهم يلبس شعرا مستعارا مختلفا وبخاصة أصحاب الشعر المجعد الذى مثّل مصفوفا فوق بعضه . أما ملابسهم فكانت لاتتعدى شريطا أبيض من النسيج مثبتا على وسط الجندى بحزام من الجلد يتدلى منه شريط آخر مزين بألوان ، ويستر عضو التناسل . وهؤلاء القوم كان لون بشرتهم يميل إلى السمرة المائلة إلى السواد وهذا يرجع إلى فعل تأثير الشمس .

ويتسلح الجنود المشاة بحربة وخنجر ودرع ؛ ويبلغ طول الحربة قامة الرجل المتوسط الطول اى نحو ٧٠ سنتيمترا ، وتنتهى كل حربة بسلاح مدبب على شكل ورقة الصفصاف ، وكان الجندى يحمل الحربة مرفوعة إلى نصفها وقت المسير ، ويكون جسم الجندى مع ذراعه الذى يقبض على الحربة زاوية قائمة . أما الدرقة فشكلها مستطيل من أسفل ، ومقوس من أعلى ، ومادتها خشب خفيف كسى سطحه الظاهر بجلد ثور حيك بسير من الجلد ، وكانت تلون رقعة الدرقة باللون الابيض ثم تزين برسوم مختلفة ، ولا يوجد للدرقة إلا مقبض واحد من الخشب مثبت فى وسطها الداخلى حتى ثلثى ارتفاعها . وكان الجندى يحملها بذراعه المنعطف نحو الجهة اليسرى

وقت المسير؛ أما فى ساعة الحرب، فكان يستعمل حربته ودرقته كأهالى قبائل إفريقية الذين لايزالون يستعملون نفس هذا السلاح. فكانت الدرقة توضع أمام الجندى كأنها جدار متحرك، وكانت تخفى الجزء الأعلى من فخذيه، والجزء الأسفل من البطن والصدر والكتفين؛ أما الجزء المقوس منها فكان يمكن الجندى من أن يرى منه خصمه، ويتتبع حركاته بكل دقة، مع أنه كان يغطى وجهه فى الوقت نفسه. أما الحربة فكانت ترفع إلى محازاة ارتفاع الرأس، مع انحناء طرفها قليلا نحو الأرض. وكان لايستعملها الجندى كما تستعمل الآن؛ بل كان يجعلها تنزلق بين أصابع يده عند الطعن بهـا لتنطلق كما ينطلق المزراق، ثم لايلبث أن يقبض بيده عليها قبل أن تصل إلى نهاية مقبضها وذلك ليدك الضربة ويجعلها تغوص فى جسم العدو.

أما الرماة فلم يكن لديهم من آلات الحرب إلا القوس وبضعة سهام لاتتجاوز الاربعة. وقد ذكرت لنا قوائم القرابين المأتمية فى الدولة الوسطى أنواعا عدة من الاقواس بأجهزتها؛ وهذه القائمة تحدد لنا بصفة قاطعة معنى العلامة الهيروغليفية التى أراد بعض الأثريين أن يروا فيها المقلاع. والواقع أنها حبل قوس؛ أى كان مصنوعا من خيوط من الجلد المجدول، أو من ليف أو كتان أو قنب، أو الشعر المجدول. أما حزمة السهام التى نجدها فى غير هـذا المكان فموضوعة فى جلد ثعبان أو جلد أو قطعة من النسيج أو الكتان؛ أما الكنانة فيقال إنها لم تستعمل إلا فى عهد الهكسوس، وذلك لأنها من أصل أسيوى، كما يدل على ذلك اسمها. أما السهام فأطرافها مصنوعة من الظران وهى حادة فى الغالب؛ وكذلك كانت تصنع من

النحاس ، وهذا يبرهن على أن النحاس والظران كانا يستعملان معا رغم وفرة الأول ومتانته .

ولانزاع فى أن السبب فى وجود مثل هـذه الجيوش المنظمة فى المقاطعات ؛ هو قيام الاضطرابات التى استمرت عشرات السنين فى داخل البلاد بين الامراء أنفسهم وبينهم وبين الفرعون كما أوضحنا ذلك فى حينه عند الحروب التى كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها فى تلك الفترة ، ولذلك كان يرى كل أمير مقاطعة عظيمة أنه لايمكنه الاحتفاظ بكيانه إلا بتأليف جيش يعتمد عليه من أتباع مخلصين من المصريين وغيرهم من النوبيين واللوبيين ، والساميين الذين كانوا يتخذون هذه المهنة حرفة لهم ، حتى أن أحد حكام المقاطعات ، كان يفخر بأن جنوده على أحسن ما يكون من شدة العنايه بالأهلين ، والأمن فى إقليمه . إذ يقول : « وجاء الليل وكان كل سابل فى أثناء الليل يشكرنى ، لأنه كان آمنا كمن كان فى منزله لأن رهبة جنودى قد حمته . »

على أن هذا الخليط من المجندين لم تجمعهم جامعة الوطنية بل جمعتهم رابطة المنفعة المحضة ، فاذا تراخى أمير المقاطعة فى إطعامهم أو ملاحظتهم عاثوا فى الارض فسادا ، والنصوص القليلة التى ورثناها للآن عن هـذا العصر تمدنا رغم قلتها بمعلومات لا بأس بها عن حالة هذه الجيوش فى هذا الوقت المضطرب ، وترينا أنها كانت أحيانا كابوسا جاثما على الأهلين وذلك إذا ماغفل عن راحتها ولى أمرها .

ومن أجل ذلك نجد أن ابن حاكم مقاطعة هرموبوليس (الاشمونين فى هـذه الفترة) كان يفاخر بأنه حمى الأقليم من ظلم الجنود (محاجر حتنوب).

وقد كان طبيعيا أن تكون هذه الجيوش الإقطاعية سندا للملك الحاكم عند قيام أى حرب ، ولكنها فى الوقت نفسه ، كانت دافعا لحاكم المقاطعة لإعلان العصيان على سيده عندما تسنح له الفرصة اعتمادا على ما لديه من قوة وسلطان .

ولهذا نرى أن بعض الحكماء يحذرون من ذلك فيقولون : « لا يداخلنك [1] الكبر اعتمادا على ما لديك من قوة يمثلها جنودك ، واحذر أن تثور ، فان المرء لا يعلم ماذا يحدث وماذا يفعل الإله (الملك) ليعاقبك » ولكن بجانب هذا نرى أن أحد حكماء هذا العصر ينصح الملك بلجاجة أن يضع نصب عينيه سلامة جيشه والاستعاضة حالا عمن يفقد منهم : « وافق على [1] العلاوات التى تمنح لرجال حرسك حتى يجدوا الكفاية من المأكل وأعطهم الأرض ليستغلوها ، ويجب أن تكون فيها ماشية » . ومن ذلك نفهم أن احتياطى الجيش ، قد نظم على شكل مستعمرات فكان كل جندى يأخذ من سيده مقدارا معينا من الأرض ليعيش هو وأسرته من ريعه ؛ والظاهر أن هذا النظام قد بقى متبعا فى البلاد طول حكم الفراعنة بل والإغريق ؛ ففى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان كل جندى يملك نحو سبعة أفدنة ونصف فدان من الأرض الصالحة ، ويعد أنه يعيش فى رغد من العيش . وتنسب الأساطير إلى « سوزستريس » الخرافى « سنوسرت الثالث » ؛ القانون الذى حدد به هذا المقدار من الأراضى ؛ ولم يكن يفرض على الجنود ضرائب ، وكذلك كانوا معفين من كل سخرة أثناء تأديتهم وظيفتهم فى ساحة القتال ، وفى غير هذا كانوا كباقى أفراد الشعب ، وقد

(1) Pap. Petersburg, 1116A; et ed. Gollenischeff L. 60.

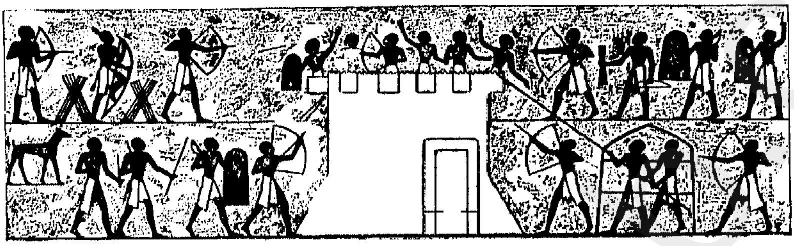
كان الكثير منهم لايملك أية ثروة أخرى . فكانوا بذلك يعيشون عيشة الفلاح المتقلبة فيفلحون الأرض ، ويحصدونها ، و يرعون ماشيتهم مابين كل حرب وأخرى.

أما أصحاب اليسار منهم ، فكانوا يؤجرون نصيبهم من الأطيان بأجر معتدل مما كان يزيد فى دخلهم الذى ورثوه عن آبائهم ؛ وفى ذلك يقول « ديدور الصقلى » « كان الفلاحون يقضون حياتهم فى زراعه الأراضى استأجروها بأجور معتدلة من الملك أو من الكهنة « أو من الجنود المحاربين » ولما كان يخشى نسيان هؤلاء الجنود الشروط التى تملكوا بها هذه الأراضى ، أو أن يعتبروا أنفسهم ملاكا حقيقيين كانت لا تترك نفس قطع الأرض فى أيديهم مدة طويلة إلا ماندر . وقد أكد هردوت أن أنصبتهم كانت تؤخذ منهم كل سنة ، ويعطون غيرها فى مثل مساحتها وإنه لمن الأمور الصعبة جداً أن نعتقد دوام استعمال قانون تغيير الأراضى هذا ، غير أن هذا لم يمنع طبقة الجنود أن يكوّنوا من أنفسهم فئه أرستقراطية فيما بعد . ولم يكن فى مقدور الملوك وأمراء المقاطعات التغاضى عنها ، وكانت تدون أسماؤهم فى سجلات خاصة ، مع بيان ممتلكات كل واحد منهم فى وقته ؛ وكان هناك كاتب حربى خاص بهذا السجل فى كل مقاطعة ملكية أو ولاية إقطاعية وكانت وظيفته توزيع الأراضى ، وتسجيل الامتيازات ، يضاف إلى ذلك أنه كان فى زمن الحرب يقود الجنود الذين كانوا يجندون من الإقليم الخاص بسجله ، وفى هذه الحالة ، كان له مساعد يقوم نائباً عنه فى الحرب إذا قضت الضرورة بذلك .

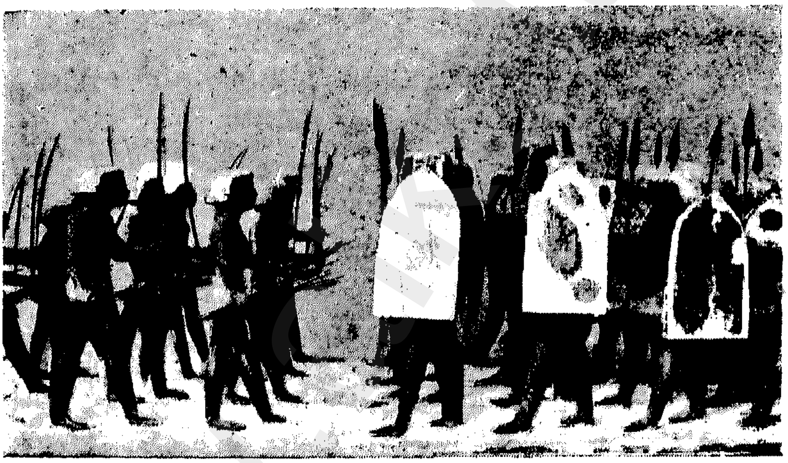
ولم تكن الخدمة العسكرية وراثية ، ومهما ظهرت فوائدها ضئيلة فى نظرنا فإنها كانت فى أعين الفلاحين عظيمة ، فى حين أن معظم الذين

أدوها ، كانوا يخرطون أولادهم فى سلكها . وقد كان يؤخذ المجند وهو صغير السن إلى الثكنات حيث كان يتعلم كيفية الرماية بالقوس والنشاب ، واستعمال بلطة الحرب ، والدبوس ، والحربة والدرقة ، وكذلك كانوا يتمرنون على الألعاب الرياضية التى تجعل الجسم مرنا ، وتدربهم على فنون الحرب والسير العسكرى ، والكر والفر والقفز ، والمصارعة بأيديهم مفتوحة أو بالملاكمة ، وكانوا يعدون أنفسهم للموقعة على شكل رقص حربى منظم أو بالوثب واللف ، والتلويح بالقوس والنشاب فى الفضاء ؛ وعند الفراغ من تعلمهم كانوا يدمجون فى الفرق المحلية ويمنحون امتيازاتهم ؛ وعند ما تكون الحاجة ماسة إلى أحد منهم ، كان يطلب بعضهم أو كلهم للانخراط فى سلك الجيش ، وكانت الأسلحة التى فى بيت السلاح توزع عليهم ، ثم يحملون فى سفن إلى ميدان القتال ، ولم يكن المصرى فى هذه الفترة بطبعة حربياً لأن الحاجة لم تكن ماسة إلى ذلك ، ولأنه كان بطبعه زارعا .

والواقع أن العصر الأهناسى هو أول مظهر من مظاهر النشاط والرجولة الحربية التى أخذت تنمو فى البلاد تدريجاً ، وكان النواة التى نشأ منها جيش مصر من رجال مدربين بالوراثة وهم الذين كان من نسلهم الجنود الذين أسسوا ملك « أمنمحيت » وقاموا بحروب « سنوسرت الثالث » فى بلاد النوبة ، وطردوا الهكسوس من مصر وتوغلوا فى آسيا حتى دجلة والفرات بقيادة « تحتمس الثالث » .



الهجوم على حصن مصرى بجنود مسلحين بأسلحة مختلفة



جنود مسلحون من العهد الاقطاعى (أنظر ص ٤٩٣)

مصادر عن الجيش فى عهد الدولة القديمة والعهد الاقطاعى

لم تصلنا وثائق عن الجيش فى عهد الدولة القديمة حتى الآن وكل ماالدينا ينحصر فى الألقاب والوظائف الخاصة بالأمور الحربية وهذه وفيرة جدا ، وبخاصة فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسه ؛ ومنها أمكننا أن نكوّن هيكلا لنظام الجيش فى هـذا العهد ؛ وقد ساعدنا على ذلك بعض الرسوم التى عثر عليها فى المعابد الجنازية . أما فى العهد الإقطاعى فقد اسعفتنا الرسوم التى عثر عليها فى مقابر أمراء المقاطعات تعززها الكتابات التفسيرية والمواقع البحرية والبرية التى حدثت فى تلك الفترة .

على أنه من جهة أخرى لم تجمع كل المعلومات التى وردت فى المتون المصرية عن الجيش بطريقة منظمة مسلسلة يمكن بها تتبع تدرج الجيش والانظمة الحربية فى هذين العهدين اللهم إلا بعض نتف متفرقة مبعثرة فى كتب التاريخ وغيرها وأهمها ما يأتى :

(1) Kees, Ægypten : p. 227-242.

فحص الأستاذ كيس فى هذا الفصل نظام الجيش المصرى وأسلحته والحصون والقلاع بصفة عامة فى مختلف العصور .

(2) Pirenne, Histoire des Institutions de l'ancienne Egypte. 3 Vol.

أهم ما يلفت النظر فيما كتبه الاستاذ بيرن عن الجيش فى عهد الدولة القديمة أنه جمع كل الألقاب والوظائف ومنها أمكن استخلاص بعض حقائق غاية فى الأهمية عن الجيش ونظمه فى تلك الفترة الغامضة فى تاريخ الحروب المصرية .

(3) Erman- Ranke, Ægypten und Ægyptisches Leben. p.p. 620-657.

كتب الاستاذ إرمن مقالا عن جيش مصر وحروبها فى مختلف عصور تاريخها القديم، غير أنه لم يذكر لنا شيئا كثيرا عن الجيش فى عهد الدولة القديمة إلا أشياء طفيفة جداً .

(4) Maspero, The Dawn of Civilisation, p.p. 305, 306, 307, 452, 450-3.

تكلم الأثرى العظيم مسبرو عن الجيش عامة فى كتابه هذا ونظامه وذكر ما كتبه هردوت وغيره من المؤرخين الأقدمين وعنى بوصف الحصون فى ذلك العهد، والجيوش الإقطاعية ونظامها وعددها وأسلحتها.

(5) Bonnet, Waffen der Volker des Alten Orients, p. 70, 92, 135, 210.

تكلم هذا المؤلف عن الأسلحة التى كانت تستعمل فى الشرق القديم عامة، وكتب عن مصر فى جهات متعددة ووصف الأسلحة التى كانت مستعملة فى مصر فى كل عصورها القديمة.

(6) Wolf, Bewaffung des Altægyptischen Heeres.

يعد هذا الكتاب أحسن ما كتب عن التسليح فى مصر قديما وقد عنى المؤلف برسم كل الآلات الحربية التى استعملها المصرى القديم فى كل عصور تاريخه. وقد ذكر لنا شيئا كثيرا عن الآلات الحربية فى عهد ماقبل التاريخ وعهد الدولة القديمة.

(7) Grebaut, Musée Egyptien, pl. 33-36; & Wreszinski, Atlas, II pl. 15; Klebs, Reliefs MR. p. 154 f.

نجد فى هذه المؤلفات مناظر للجيوش فى العهد الإقطاعى. هذا ونجد كثيرا من المعلومات وبخاصة الألقاب فى المتون التى جمعها الأستاذ زيته عن الجيش فى عهد الدولة القديمة فى كتاب أركندن Urkunden عن الدولة القديمة.

(8) Breasted, A History of Egypt. p.p. 63, 84, 134-35, 153, 167-68.

أشار الأستاذ برستد فى كتابه عن تاريخ مصر إلى الجيش فى عهد الدولة القديمة بدون توسع وكذلك لمّح عن وجود جيش قائم فى عهد الدولة الوسطى).

الأسره فى عهد الدولة القديمة

نظام الفردية فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة

أقدم الوثائق التى تنبىء عن كيفية تأسيس الأسرة المصرية يرجع عهدها إلى عصر متون الأهرام؛ إذ نقرأ فى نقوشها أن الكهنة المصريين القدماء عندما أرادوا أن يمثلوا للشعب تكوين العالم مثلوه فى صورة مما يحدث أمام أعينهم، ويقع تحت حسهم وأضفوا عليها ثوبًا دينيا عليه مسحة من الغموض والرهبة وإن كان فى أصله لايخرج عن دائرة الحس والمحسوس. لذلك يقول علماء اللاهوت فى أصل العالم إنه كان يطفو على سطح المحيط الأزلى (نون) بيضة خرج منها الإله آتوم وهو المسمى فى التوراة والإنجيل والقرآن آدم عليه السلام. ثم تقص علينا الأسطورة أن الإله « آتوم » وفى رواية أخرى الإله « رع » عطس وتفل فنشأ من ذلك ذكر وأنثى وهما الإله « شو » (ولفظه يمثل صوت العطس) إله الفضاء، والآلهة « تفنت » (وتمثل صوت التفلة) وهى إلهة الندى. ثم تناسل هذان الإلهان « جب » إله الأرض « ونوت » إلهة السماء وكانت السماء والأرض رتقا ثم فتقتا. ثم كان منهما نسل فرزقا الإله « أوزير » والإله « ست » ثم الآلهتين « إزيس » و « نفتيس ». ويجد الباحث فى الديانات المختلفة مايشبه ماورد فى هذه الأسطورة. وقد جاء فى أقاصيص المصريين أن العالم كان يحكمه الآلهة قبل أن يحكمه بنو البشر، وينسبون ملوك مصر إلى سلسلة النسب الإلهى الذى ذكرناه آنفا.

أصل العالم فى نظر الكهنة

وتدل متون الأهرام على أن الآلهة كان يرث بعضها بعضا كبنى

نظام الاسرة حسبما جاء فى متون الاهرام

البشر . وثبت ذلك من نصوص الأهرام إذ جاء فيها ما يأتى : — (1) « يا أوزير أنت ابن « جب » الأكبر وبكره ووريثه ثم يقول : « إنه ابنى وعزيزى وأول من ولد لى وهو الذى يجلس على عرش « جب » وهو الذى قد ارتاح إليه « جب » وهو الذى أعطاه ورثه أمام التاسوع الإلهى العظيم » . ومدلول هذا المتن يقرر بصراحة نظاما للأسرة يظهر فيه الابن الأكبر بأنه هو وارث والده بعد وفاته ، وإن كان لايمكن بالضبط أن تقرر فى أى عصر أصبحت متون الأهرام معمولا بها . ومهما يكن من شىء فإن بعضها يرجع إلى عصور سحيقة أعرق فى القدم من عهد بناء الأهرام التى نقشت عليها ، وبعضها حديث كتب فى عهد بناء الأهرام ، من أجل ذلك يتعذر اتخاذ هذه المتون أساساً لمعرفة بداية تكوين الأسرة فى عهد الدولة القديمة . وأقدم وثيقة شرعية وصلت إلينا لها علاقة بحقوق الأسرة هى ترجمة حياة العظيم « متن » (2) الذى عاش فى عهد أواخر الأسرة الثالثة وبداية الرابعة وهو ابن « إنبو إم عنخ » الذى كان موظفا قضائيا ، أما أمه فتسمى « نبسنت » والمطلع على تاريخ حياة هذا الرجل العظيم يجمع معلومات هامة جداً عن توارث العقار فى أسرته . وعلى ما يظهر أنه ورث جزءاً من أملاك والده يشتمل على أرض وفلاحيها وعلى ماشية فيقول : « الموظف القضائى « إنبو إم عنخ » ، قد وهب عقاره ولم يكن من محتوياته حبوب أو أثاث منزل بل كان يشمل ماشية وفلاحين » .

أهمية نصوص «متن» من الوجهة الشرعية

أما أمه « نبسنت » فقد كتبت وصية لأولادها كان نصيب « متن »

(1) Sethe, Pyramiden Texte. 1814. (2) Sethe, Urkunden, I, p. 17 et Suiv.; Moret, R. Tr. XXIX p.p.57, 75; Erman- Ranke, Ægypten, p.p. 99-100.

فيها ١٥٠ أرورا من الأرض . ويعتقد الأستاذ « موريه » أن « متن » قد وهب أولاده مدة حياته ١٢ أرورا من أطيانه . والواقع أننا لانعرف من أولاده بالضبط إلا ولداً واحداً ورد ذكره عرضا ؛ ولا يبعد إذا أن أولاده الآخرين كانوا من الأناث . وهذه المعلومات كافية فى وصف الموقف الشرعى للأسرة فى أواخر الأسرة الثالثة .

فنرى أولا ان أم « متن » قد تصرفت بكامل حريتها فى ملكها ، إما بالوصية أو بالهبة مما يدل على أنها كانت تملك فى يدها سلطة شرعية مطلقة ، فلم تكن تحت سلطان زوجها أو تحت وصاية ابنها أو أى إنسان آخر، وكذلك لم تختلط أملاكها بأملاك زوجها أو أملاك أولادها الذين قسمت أملاكها بينهم . ولم يذكر لنا « متن » زوجته فى نقوش قبره مما يدل على أنها كانت مستقلة عنه شرعا ، ومن المحتمل أنه كان لها مدفن خاص وشعائر خاصة . ويلاحظ هنا أننا لم نر ميزة خاصة للأبن الأكبر أو حق وراثة الأولاد ، ولكن من جهة أخرى لم يذكر لنا « متن » أنه هو الابن الأكبر ولم يذكر لنا إخوته الذكور أو الاناث وذلك طبيعى لأن ثروته لم تختلط بثروتهم . نستنتج من هذا أن الأولاد كانوا يرثون عقار والديهم بالتساوى من غير تفرقة فى أنصبتهم . وهذه النتيجة تظهر لنا شرعية إذا علمنا أن « متن » من جهته قد وهب أولاده أملاكه دون أن يميز بين الذكر والأنثى .

مساواة المرأة للرجل فى عهد الاسرة الثالثة

المساواة فى الورث بين الاولاد

ولدينا وثيقة لأحد العظماء من عهد « خوفو » تثبت حق وراثة الذكور والأناث أملاك والدهم وأعنى بذلك وصية الوزير والأمير « نى كاو رع » ابن « خوفو » ؛ وذلك أنه خلافا لما اوصى به لزوجته قسم عقاره بين أولاده بوصية على وجه التساوى تقريباً . فأعطى كلا من ولديه ثلاث ضياع وأعطى

بنتا وطفلا آخر لم نعرف اسمه ضيعتين (1) لكل منهما ، ومن هذا المتن الأخير يتبين نظام الوراثة بين أفراد الأسرة المالكة ، وقد نظم وفق مبادىء الحقوق العامة ، ولا يبعد أن ذلك التقسيم كان فى وقت عقد الزواج بين الرجل وزوجته ، وأنه قد حددت فيه أملاك كل منهما ، هذا لايمنع الزوج من أن يوصى لزوجته بشيء من ممتلكاته تفوق غالبا نصيب أحد أولاده كما تدل على ذلك الوصايا التى عثرنا عليها من عهد الدولة القديمة . فمثلا الأمير « نى كاورع » السالف الذكر قد أوصى لزوجته بأربع ضياع . وهذا أكبر نصيب أخذه كل واحد من أولاده وهو ثلاث ضياع. وكذلك نشاهد أن « نكعنخ » أحد كبار رجال الدولة فى عهد الملك « وسركاف » من الأسرة الخامسة قد جعل زوجته تشاطره فى جزء هام من دخل (2) إقطاعاته الجنازية . وكذلك أوصى الكاهن « إدو » الذى عاش فى عهد كل من الملك « ببى الأول » و « مرن رع » و « ببى الثانى » لزوجته « دسنك » بضيعة كاملة .

نصيب الزوجة من أملاك بعلها

ولايخفى إذا أن حقوق الأسرة فى عهد الأسرة الثالثة قد ظهرت أمامنا متميزا بعضها عن بعض ، وأن الأسرة نفسها تجلت فى أضيق حدودها ، إذ كانت تتألف من الأب والأم والأطفال فحسب ويعزز هذا الرأى أننا لم نجد فروع نسب فى مصاطب الأسرة الثالثة ؛ إذ اقتصر المتوفى على أن ينقش على جدران قبره تاريخ حياته أو يذكر لنا أسماء والديه وزوجته وأولاده كما نشاهد ذلك فى مقبرتى « رع حتب » و « حسى » ولكن من جهة أخرى يذكر لنا المتوفى ألقابه غالبا كاملة ، ولانزاع فى أن هذه إمارات

الفردية فى الأسرة

---

(1) Br. A. R. t. I, 191-199. (2) Op. Cit. 213-235.

تدل على فكرة الفردية ، إذ أن الرجل كان يظهر نفسه قبل كل شئ بمظهر المستقل المنعزل لاعضوا من أسرة مترابطة العناصر، فلم يفاخر بأجداده بل كان كل فخره ينحصر فى دائرة نفسه ومحيط ذاته . وفوق هذا فإن الأسرة فى هذا التكوين الضيق الأفق لم تكن تؤلف وحدة شرعية بل كانت مؤلفة من شخصيات مميزة مستقلة فالزوج والزوجة على قدم المساواة المطلقة ولكل منهما ملكه الخاص يديره ويتصرف فيه بكل حريته والسلطة الزوجية معدومة ولا رقابة على النساء ، ونشاهد فى قبور الأسرة الثالثة أن النساء لم يدفنّ مع الرجال ، فلم يذكر لنا العظيم « متن » فى نقوشه اسم زوجته التى كانت على ما يظهر مدفونة فى قبر غير قبره ، ولئن دفن الكاهن الاعظم « حسنى » فى عين شمس من عهد الاسرة الثالثة فى مقبرة واحدة مع زوجته « حتحور نفر حتب » فان شعائر كل منهما كانت على حدة ، وهذا يدل على استقلال الشخصية حتى فى الدار الآخرة . على أننا نشاهد أحيانا أن الزوجة كانت ترسم على قبر زوجها فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة بالحجم نفسه الذى كان يرسم به الزوج مما يبرهن على أنها كانت مماثلة له فى الشرف كما كانت مماثلة له فى الحقوق .

المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والشرف

ومن المحتمل جداً أن الزواج كان يعقد فى عهد الدولة القديمة ، وإن لم تصل إلينا أية وثيقة من هذا النوع ، ولكن إذا كانت المرأة تملك عقارا خاصا بها ، فلا بد أن ممتلكاتها كانت تدون فى وقت الزواج ، وعلى أية حال نجد أن الزوجة كانت تفوز بجزء من املاك زوجها ويكون نصيبها فى العادة أكبر من نصيب أحد أولاده أخذاً من الوصايا التى ذكرناها . ومن الحق أن نبين هنا أننا لم نعثر للآن على حظيات لعظماء القوم فى عهد الأسرة

الثالثة ، ولكن يحتمل أن الملك كانت له حظيات وإن كان تعدد الزوجات معدوما بين عظماء القوم وعامة الشعب . ومن الجائز أن المصرى كان يتزوج مرتين كما هو الحال مع « شرى » (1) بن « مرإيب » مدير كهنة الملك « برإيب سن » فى الجبانة الملكية من عهد الأسرة الرابعة وكذلك « دوا كا» كاهن الملك « خفرع » فإنه قد رسم على نقوش مقبرته زوجتين ولكن لم يكن له إلا زوجة شرعية واحدة . والواقع أننا لم نجد فى رسوم القبور مايشعر بأى نوع من الحظيات كما سنرى فى الأسر التى تلت الأسرة الرابعة . أما الولدان الذين يذكرون فى النقوش سواء أكانوا ذكورا أم أناثا فانهم شرعيون وكانوا على قدم المساواة فى الحقوق فيرثون متاع والدهم وأمهم ويتمتعون مدة حياتهم بهبات آبائهم .

انعدام تعدد الزوجات والحظيات بين عامة الشعب

وبديهى بعد هذا البيان أن المرأة كانت مساوية للرجل تماما فى الحقوق كما كانت قادرة مثله على تملك عقار مما يؤكد الاستنتاجات التى استخلصناها من المركز الشرعى للزوجة . ولا يفوتنا بيان أنه لا وجود للسلطة الأبوية على الأولاد البالغين ، إذ كان لهؤلاء أملاك خاصة منفصلة عن أملاك الأب والأم ولذلك كان فى مقدورهم أن يستفيدوا من كل هبة منهما ويمكنهم أن يتعاقدوا معهما ، وهذا مما كان يجعل فى يدهم كفاءة شرعية تامة مستقلة عن والديهم . وحالة الأناث كحالة الذكور فلم يكن تحت رقابة الأب أو أية رقابة أخرى وذلك يثبت عدم وجود سلطة زوجية على المرأة .

عدم وجود السلطة الابوية على الاولاد البالغين

---

(1) Mar. Mast. B. 3, p.p. 93 etc. Saqqara.

حق الوراثة

كان عقار كل من الزوجين منفصلا ، وكذلك كان كل منهما لايرث الآخر إذ أن الوارثين هم الأولاد الشرعيون . فقد وجدنا أن « متن » قد استولى على عقار والده من غير وصية فامتلكه وفق القانون . وإذا كان « متن » قد أعطى أولاده هبة مدة حياته ، فإنه لم يكتب بذلك وصية فتملك عقاره أولاده بمقتضى القانون . على أن « متن » لم يرث عن أبيه فحسب بل كذلك ورث عن أمه ٥٠ أرورا من الأرض . ومن ذلك نرى أن الذكور والأناث كانوا يرثون دون أن تكون هناك أية رابطة أسرية واضحة تجمعهم . ولم يكن لزاما على الأب أو الأم أن يترك لأولاده كل عقاره إذ لم نجد بين ما تركه « إنبوإم عنخ » والد « متن » أى أثاث أو رياش ولاشك فى أنه ترك هذا لزوجته إما بوصية وإما ضمن عقد الزواج .

الاولاد هم الوراث الشرعيون

ونجد فى عقد أوقاف تركه لنا أحد كبار رجال الدولة فى بلاط « خفرع » أنه اشترط حرمان خدام الروح « حموكا » الموكل بهم إدارة الأوقاف حق التصرف فى أنصبتهم فى الوقف لا بالوصية ولا بالهبة ولا بطريقة العوض . بل يجب عليهم أن يتركوها لأولادهم وأحفادهم من بعدهم إلى الأبد . فإذا كان هذا العقد يحتم هذه الشروط على حرية والد الأسرة (مدير الوقف) أى بعدم التصرف فى أملاكه الموقوفة مدة حياته فان فى ذلك مايدل على أنه كان من حقه قانونا أن يتصرف فيها لولا هذه الشروط . ومن ذلك يتضح أنه لم يكن هناك عقار أسرة غير مجزأ أجزاء مستقلة أى أن عقار الأب كعقار الأم كان كل منهما منفصلا عن الثانى وأن وجود ذرية لهما لايفرض أى قيد على حقوق ملكية أحدهما ، وأن حقوق الأولاد

لاتكون شرعية إلا عند وفاة الأبوين وحينئذ تكون القسمة بينهما بالتساوى .

نظام الورث فى عهد الاسرة الثالثة

ومن ثم نوضح نظام الوراثة فى عهد الأسرة الثالثة . فقد كانت تنفذ الوراثة عند الموت الطبيعى . أما ترتيب الورثة فقد نظّمه القانون فالشرعيون منهم لهم الحق المطلق فى عقار المتوفى (1) ولم يرع القانون فى توزيع الإرث أصل العقار أو طبيعته . فلا يصبح ملكا للوارثين إلا مشفوعا بالتزامات واتفاقات وعهود كانت تفرض عليه وبخاصة الأوقاف الجنازية كما يتبين هذا فى وصية « ثنتى » أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم للجنوب ورئيس البعوث (2) . وكان العقار الموروث يسلم لأولاد المتوفى ، ومن تناسل منهم فإذا انعدم هؤلاء آل الإرث إلى إخوتهم وأخواتهم . وكانت أنصبة الأولاد ذكورا وإناثا متساوية اللهم إلا إذا كانت هناك وصية تنص على التفرقة . وكان أولاد المتوفى يحلون محل والدهم فى عقاره ، على أن الورثة لم يكن لهم الحق فى أملاك والدهم إلا بعد وفاته فحسب . أما توزيع الإرث فكان يمكن عمله بوصية من المتوفى وكان من حقه أن يورث أفرادا ليسوا بوارثين له كزوجته ، وكذلك كان يمكنه أن يميز أحد أبنائه عن إخوته كما ذكرنا آنفا . والظاهر أن التصرف الأخير كان لايحرم أى ولد نصيبه الشرعى فى إرث أبيه أو أمه ، فسنرى فى عهد الأسرة السادسة أن « حرخوف » يقول : « إنى لم أفصل بين أخوين بطريقة تجعل الابن يحرم من ميراث والده » . وفى هذا النص

(1) Br. A. R.t. I, 231. (2) Une Nouvelle Dispositive Testamentaire de L'Ancien Emp. A. C. Inscrip. p.p. 538. Paris, 1914

دلالة على أن كل أولاد المتوفى كان لهم الحق فى عقار والدهم [1] . ولا توارث بين الزوج والزوجة إلا بوصية .

الشعائر الدينية وإستمساك الاسرة بعروبتها

إن إقامة الشعائر الدينية ترجع إلى بداية التاريخ المصرى . وتدل الدلائل على أن الأسرة فى الأصل كانت تؤلف وحدة متماسكة متجمعة لإقامة الشعائر الدينية للجد الأكبر البعيد ، ولما اختفى هذا المظهر أصبحت إقامة الشعائر فردية مستقلة فى الأسرة فلم تعد تربط أفرادها بعضهم ببعض إقامة شعائر الجد المشترك القديم ، بل كان لكل مصرى شعائر دينية مستقلة مما يدل على أن نظام الأنساب التناسلية قد زال منذ زمن بعيد جداً . ولا نزاع فى أن التفكك فى روابط ديانة الأسرة وإقامة شعائرها يرجع إلى أزمان سحيقة ويمكن أن نشاهد آثار ذلك فى الأسرة الأولى . فمن ذلك أن ملكات مختلفات من هذه الأسرة قد دفن فى القبر الملكى ، وربما كان ذلك علامة على اشتراك الملكة فى شعائر الملك ، ومن ناحية أخرى نعلم أن إحدى الملكات قد دفنت فى « نوبت » (نقاده و بلاص) وهى بلا شك تعتبر من الأسرة المالكة عابدة الإله « ست » ؛ وهى لم تدفن مع زوجها بل مع أجدادها ، لأن الوحدة الأسرية قد اضمحلت ولم يكن لزاما على المرأة أن تقيم شعائر زوجها ، وذلك لأن سلطة الزوج كانت قد أفل نجمها ، أما شعائر الأسرة العامة فقد بقى منها القليل ، وهذا هو سبب دفن المرأة فى جبانة أجدادها . ومن الطبيعى أن يحدث تفكك الأسرة تطوراً فى الشعائر الدينية ، وذلك بالتوجه شطر الفردية التى وجدناها فى الأسرتين الثالثة والرابعة فنشاهد ان لملكات الأسرة الرابعة قبورا منفصلة عن قبور الملوك ،

وحدة الاسرة فى العهود القديمة والتفافها حول جد مشترك

آثار هذه الوحدة وظهور نظام الفردية فى الاسرة

(1) Br .A. R. t. I, p. 331.

وفى المقبرة الملكية على مقربة من هرم « خوفو » مقابر عدة للملكات ولأبناء الملك و بناته (1) ، وكان لكل من هؤلاء الملكات والأمراء شعائر خاصة تقام منفصلة عن شعائر الملك ، وقد ذكر فى نقوش « متن » ما يدل على وجود أوقاف خصصت لإقامة شعائر الملكة « نى معات حاب »

ظهور الفردية فى الشعائر الدينية

على أن هذا لم يكن قاصراً على الملكات فحسب ، إذ تنبئنا النقوش بأن « حتحور نفر حتب » زوجة « خع باوسكر » وهو أحد رجال الدولة فى عهد الملك « خع با » الذى يقال عنه إنه أحد أخلاف « زوسر » على العرش ، كان لها شعائرها وقرابينها الخاصة ، (2) ومن ذلك يتضح أن الفردية المستقلة قد امتدت حتى وصلت إلى إقامة شعائر الأموات وهذه الشعائر كان يحتفل بإقامتها أولاد المتوفى الذكور والأناث وهذا كان آخر أثر للرابطة الأسرية وإن لم يكن ذا صبغة خاصة ، وسنرى أن المتوفين كانوا يجتهدون فى أيام حياتهم أن يضمنوا استمرار إقامة شعائرهم ، وذلك بإنشاء وقف دائم .

أصل الوقف

على أن الحكومة كانت تأخذ على عاتقها هذا العمل فى بادىء الأمر فكانت تمنح موظفيها مرتبات ضخمة مدة حياتهم ، ومن جهة أخرى تضمن لهم الاحتفال بإقامة شعائرهم ، فتحبس عليهم دخلا جنازيا خاصاً ولا أدل على ذلك من أن « متن » قد خصص لنفسه دخلا جنازيا يشتمل على اثنتى عشرة ضيعة . أعطاها إياه التاج بصفته موظفا ، ولم يمنح هذا الدخل على أنه وقف ، ولكن قد ضمنته الحكومة مباشرة ومن هذا نرى أن الحكومة كانت هى القائمة بتقديم القرابين الضرورية لإقامة شعائر

---

(1) Reisner, Mycerinus, p. 239. (2) Weill, II-III Dyn. p.p. 238 - 244. & Mar. Mast. p.p. 71-79.

موظفيها . ولدينا متون من عهد الأسرة السادسة تبرهن على أنه عند ما كان ينقطع نسل المتوفى تقوم الحكومة نفسها بتأدية شعائره . مثال ذلك أن « كارابيى نفر » حاكم مقاطعة أدفو يعلن : « أنه دفن كل رجل لم يعقب ولدا فى مقاطعته وجهّزه بأكفان من الأوقاف الدائمة [1] » . وكذلك يقول الوزير « رع نفر سشم » : «لقد دفنت من لا ابن له » [2] . وقد كان هناك إدارة خاصة تسمى (بيت الأبدية) « بر زتْ » متصلة بمصلحة القربان ، وكان واجبها القيام بهذه الاعمال الخيرية . وليس لدينا أية وثيقة تشبه هذه من عهد « متن » ؛ ومن المحتمل أن تدخل الحكومة فى موضوع إقامة شعائر الأسرة كان موجوداً فى هذا العصر . حقاً أن « متن » قد ذكر لنا حقوق الالتزامات الجنازية التى كانت له من الأثنتى عشرة ضيعة التى كان يسيطر عليها بحكم وظيفته ، غير أنه لم يبين لنا إن كان لهذه الالتزامات موظف خاص يديرها . كالم يبين لنا الطريقة التى كانت تؤدى بها الشعائر ، ويمكننا أن نستنتج أن هذه الالتزامات كانت تنفذ حسب قواعد موضوعة . وسنجد أن هذه القواعد كانت فى قبضة حاكم المقاطعة وهو الذى أصبح أميراً إقطاعيا .

مصلحة القربان « بر زت »

تطور نظام الأسرة فى عهد الأسرة الخامسة

كان من نتائج أهمية إقامة الشعائر الدينية للملك فى عهد الأسرة الرابعة ، أن تألفت طائفة من الكهنة الملكيين كبيرة العدد قوية السلطان . وكانوا ينتخبون من بين موظفى البلاط وعظماء رجال الدولة والإدارة ، ولذلك كانوا يؤلفون طبقة خاصة فى البلاد يطلق على كل منهم لقب (مقرب)

أصل لقب المقرب

(1) Moret, un Monarque d'Edfu, de la fin de la VI Dy. C. R. Ac. Insc. 1918 p. 105. (2) Capart, Une Rue de Tombeaux à Saqqara, I, p.p. 17-26. Moret, op. cit. p. 105.

ميزات المقرب

« إمخ » وكان الملك يهب كلا منهم ضيعة وامتيازاً فكانوا يتمتعون من دخل كهانتهم الذى كان فى الغالب عظيما كما كانوا يتمتعون بدفن جثثهم فى الجبانة الملكية بصفتهم مقربين ، وكذلك كانوا يشاطرون بعد موتهم (حسب اعتقادهم) الملك فى حياته الأخرى الإلهية ، والواقع أن الملك الإله كان يمنح كهنته المقربين ميزات عدة إذ كان يغدق عليهم دخلا جنازيا ويهبهم لوحات مأتمية ومقابر وضياعا دخلها كاف لإقامة شعائر المتوفى . وهذا العقار صغر مقداره أو كبر فإنه يدخل ضمن أملاك الموهوب له ، وبذلك كان من حقه أن ينقله إلى ورثته ، غير أن الهبات التى كان يعطاها الكاهن بصفته من المقربين كانت مقيدة بشرطين .

أوقاف المقرب وما يشترط فيها

أولهما أن يكون الشخص الذى وهب له هذا العقار حاملا لقب « مقرب » وثانيهما أن تحبس هذه الهبة لإقامة شعائر الموهوب له . وقد كانت هذه الهبات فى أغلب الاحيان تزيد على ما يحتاج إليه المتوفى لإقامة شعائره . أما الزائد على دخلها فيعد ملكا حقيقيا للشخص الذى وهب له العقار . وهذان الشرطان اللذان لابد من توافرهما قد جعلا الورثة من كهنة الملك لأنهم من المقربين . هذا إلى أن هؤلاء (المقربين) أصحاب المنزلة الرفيعة كانوا يتمتعون بتربية أولادهم فى القصر الملكى مع أنجال

أولاد المقربين يربون فى القصر مع أولاد الملك

الملك فكانوا منذ نعومة أظفارهم يتحلون بالشعائر ، ويقلدون الألقاب ويمنحون الوظائف الفخرية التى تجعلهم (مقربين) إلى الملك . فمن ذلك أن الأمير « كارابيبى نفر » الذى كان لايزال طفلا فى عهد بيبى الأول قد تربى فى القصر الملكى مع الأمراء وأولاد حكام المقاطعات ، وكان يحمل لقب السمير الوحيد ، ومدير الضياع الملكية ، وذلك يدل على أنه رغم

حداثة سنه كان فى طليعة « المقربين » . وهكذا أصبح المقربون « إمخو » فى عهد الاسرة الخامسة طبقة وراثية ، ولكن على الرغم من ذلك كان تقليد الملك لايزال ضروريا لحامل هذا اللقب . وكان قانون الوراثة المصرى يقضى بتقسيم ممتلكات الوالدين بين أولادهما . والضياع الجنازية الموهوبة لمن يحمل لقب المقرب خاضعة كذلك لقواعد وراثة الحقوق العامة ، إذ لابد أن تقسم بين أولاد المقرب . ولما كان هذا التقسيم يؤثر على تقديم القربان وإقامة شعائر المتوفى ، وجدنا أن المصرى قد لاحظ هذا منذ بداية الأمر وأوقف الضياع التى وهبها إياه الملك وجعلها غير قابلة للتجزئة كما فعل أحد عظماء عصر الملك « خفرع » السالف الذكر ، وكما فعل العظيم « سنوعنخ » .

وقف المقرب لايتجزأ

وكانت هذه الاوقاف تفصل عن أملاك الواقف ، وتوضع تحت تصرف طائفة من الكهنة بشروط خاصة تضمن بقاء تقديم القرابين على الدوام ، وهذا التعاقد الذى أصبح به الكهنة ملاكا للضياع أو الإقطاعات قد جعل هذه الممتلكات غير قابلة للتجزئة بل موقوفة أبديا . ويتضح مما تقدم أن هذه العقارات قد أصبحت عينا موقوفة عليها التزامات أبدية للمتوفى . أما ورثة صاحب هذه الاوقاف فلم يكن لهم حق فى هذه العقارات الموقوفة ، اللهم إلا المراقبة على الكهنة فى تنفيذ شروط الواقف ، فإذا تراخوا فى تنفيذها عادت الضياع الموقوفة إلى أسرة المتوفى . والواقع أن نظام حبس عقار على إقامة شعائر المتوفى بهذه الكيفية كان يضمن استمرار تقديم القربان وإقامة الشعائر ، ولكنه من جهة أخرى حرّم أسرة المتوفى مورد دخل هام .

وفى أواخر الأسرة الرابعة ظهر نظام جديد فى موضوع الوقف ، وذلك

لأن الأوقاف الجنازية أصبحت توضع فى يد جماعة من أسرة المتوفى .
وهذا النظام قد ضمن للمتوفى إقامة شعائره ، ومن جهة أخرى حفظ للأسرة دخل المتوفى الذى كان يتمتع به غيرهم . وعقد أوقاف « حتى » [1] والد « نكعنخ » من الأسرة الرابعة ويلقب مدير البيت ، قد جاء بهذه الكيفية ، إذ وكل « حتى » إدارة دخله الجنازى إلى رئيس إقامة شعائره ، وهو ابنه الأكبر الذى لم يكن لديه أى لقب يخول له هذا الإرث ، وكذلك نصب أولاده الآخرين كهنة له مشاركين الابن الأكبر فى الملكية وفى دخل العقار الجنازى « الذى كان تحت يد الابن الأكبر » .

انتقال وقف المقرب الى يد أسرته بادارة ابنه الاكبر

غير أنه لم يكن فى مقدور واحد منهم أن يتصرف فى هذا العقار لا بالوصية ولا بالهبة ولا يمكن تجزئته ، غير أنه كان من حق كل أن يترك نصيبه لابنه من بعده ، ولكن تحت سلطة الابن الأكبر للمتوفى ؛ وسلطان الابن الأكبر لم يكن فى هده الفترة حقا شرعيا ولايحل إلا إذا اشترط المتوفى ذلك فى عقد الوقف . ومن ذلك نرى أن « حتى » قد أنشأ شخصية مدنية مميزة كما فعل كل من عظيم بلاط خفرع السالف الذكر و « سنوعنخ » [2] وقد كان « حتى » يمتاز فى وقفه بأن الطائفة المشرفة على هذا الوقف من أولاده ، وعلى رأسهم الابن الأكبر . بخلاف « سنوعنخ » الذى جعل المترفين طائفة من الكهنة الذين لايمتون إلى أسرته بقرابة . وبعمل « حتى » تم تأليف جماعة أسرية لاينفصم عراها يتوارثها جيل عن جيل . وتمتد سلطة الابن الأكبر فيها إلى كل فروع الأسرة الأصلى ، وهذه الجماعة الأسرية كانت قاصرة على ملكية الضياع الجنازية . وقد اشترط « حتى » صراحة أن

(1) Borchardt, Grab des K. Sahure, pp. 89 etc.
(2) Br. A. R. t. I, No. 231.

أن تكون سلطة ابنه الأكبر نافذة على إخوته الذكور والأناث فيما يختص بإدارة الإقطاعات الجنازية ؛ أما فى أملاك الأسرة الأصلية فلم يكن للابن الأكبر عليها أى سلطان . وكانت ضياع الأسرة تتسع وتنمو من الهبات الملكية حتى أصبحت واسعة الأطراف ، فنشاهد فى عهد الأسرة السادسة أن الملك وهب أحد عظماء بلاطه « إبى » ضيعة مساحتها ٢٠٤ أرورا . وهذا يوضح لنا أن العقار الجنازى مضافا إليه العقار الموروث عن الأجداد كان يزداد ازدياداً مطردا . ولما كانت هذه الضياع توضع تحت تصرف جماعة من الأسرة فقد زادت بطبيعة الحال فى ربط أواصر الأسرة ، وأصبح كل فرع منها يؤلف وحدة يمثلها الابن الأكبر . وهذه الفروع التى كانت تؤلف للمحافظة على الضياع العظيمة كانت تجمع فى الوقت نفسه طبقة الاغنياء والعظماء الذين كانوا يزدادون قوة على كرّ الايام وتوالى الأعوام .

سلطة الابن الاكبر كانت تنحصر أولا فى إدارة العقار الموقوف فقط

ويجب أن نذكر هنا أنه فى عهد الأسرة الخامسة كان المقربون للملك يؤلفون طبقة أشراف حقيقية لها امتيازاتها ؛ إذ لم يستولوا من الملك على مدافن وأوقاف جنازية فحسب بل استولوا كذلك على ضياع جنازية مثمرة . وقد كان لقب المقرب يجلب معه دائمًا ضيعة ملكية ، وهذه الأوقاف الأسرية كانت تجرى على وجه خاص فى الأسر الشريفة الغنية ، ومن ذلك نرى أن سلطة الابن الأكبر ستصبح ميزة لأولاد الأشراف .

المقربون كونوا طبقة الاشراف فى البلاد

ولم يكن المقربون يستحوذون على الضياع الملكية فحسب ، بل كان لهم دخل الكهانة أيضا . ولما أصبح أفراد هذه الطائفة فى عهد الأسرة الخامسة من الوارثين ، احتكروا إقامة الشعائر الجنازية للملك وللإلٰهة « حتحور » وللإلٰهة « نيت » وللإلٰه « رع » والإلٰه « فتاح » والإلٰه « مين » فحولوا بذلك

المقربون يحتكرون أوقاف الآلهة أيضا

دخل أوقاف هذه الآلهة إلى عقار أسرى يتصرفون فيه . ونتج عن نظام الأوقاف الحرة والأوقاف الملكية أمران : أولهما ازدياد العقار الموقوف وانتشاره فى طول البلاد وعرضها ثانيهما : تجمع كل الأوقاف فى يد أسر الكهنة فأصبحو من الأشراف وتمتعوا بخيرات الأوقاف كلها . ولما أصبحت التزامات وظيفة الكاهن وما تبعها من الضياع وراثية ، استحال كل ذلك إلى أملاك عقارية للكهنة وأصبح نقلها مقصورا على أحد أولاد الكاهن .

كما كان لكل أولاد المتوفى الحق فى وراثة هذه العقارات ، وهذا بلا شك هو السبب الذى دعا « نكعنخ » أن يضع التزاماته بصفته كاهنا أعظم للإلهة « حتحور » صاحبة قوص فى يد جماعة من أسرته نظمت تحت إدارة ابنه الأكبر ، وبذلك جعل كل أولاده يستفيدون من دخل للكهانة لايقبل التجزئة [1] ووصية « نكعنخ » لها أهمية خاصة فى درس تطور الحقوق فى عهد الأسرة الخامسة ؛ إذ تبرهن على أن الجماعة الأسرية قد نظمت لا لتحافظ على عدم تجزئة عقار خاص بإقامة شعائر الواقف فحسب ، بل لتحفظ لكل أفراد الأسرة دخل وظيفة دينية أصبحت وراثية . وقد كان « نكعنخ » هذا كما سبق ذكره الكاهن الأكبر للإلهة « حتحور » مالكا لضيعتين هامتين الأولى مساحتها ٥٠ أرورا حبست على إقامة شعائره الجنازية ، وقد منحه إياها جده « خنوكا » . أما الضيعة الثانية فكانت خاصة بالتزامات كاهن الإلهة « حتحور » الأكبر وقد منحه إياها الملك ومساحتها كذلك ٥٠ أرورا . ولما أراد أن يحافظ « نكعنخ » على وحدة الضيعة الأولى دون أن يحرم أولاده دخلها أوصى بها جماعة من

أهمية وصية المظيم «نكعنخ» من الوجهة الشرعية

---

(1) Sethe, Urkunden, I, 24.

أسرته . أما الضيعة الثانية فبدلا من أن يضعها تحت تصرف واحد من أولاده جعلها كذلك تحت إشراف جماعة أخرى من أسرته ، وكان ضمن أعضائها زوجته وأولاده ، وقد عين لكل نصيبه من الدخل ، كما حدّد الواجب الذى يقوم به كل فى الاحتفال بإقامة شعائر الإلهة « حتحور » خلال مدة معينة من السنة .

وإذا كان « نكعنخ » قد تمكن من التصرف بوصية فى التزاماته باعتباره كاهنا أعظم للإلهة « حتحور » ، فإن ذلك دليل على أنه كان يعد الضياع التى تصرّف فيها ضمن أملاكه بلا نزاع . وقد كانت جماعة الأسرة التى تتصرّف منذ الآن فى كهنوت الإلهة « حتحور » تتألف من زوجة « نكعنخ » وبعض أولاده وكاهنين أجنبيين عن الأسرة . وكان كل واحد من هؤلاء يخدم فترة معينة خلال مدة محدودة الأمد فى معبد « حتحور » كما جاء فى الوصية بوصفه كاهنا ، وكان يتسلم فى مقابل ذلك جانبا من دخل وظيفة الكهنوت بالنسبة لمدة عمله . وكان الابن الأكبر يتمتع بمكانة ممتازة ، فكان رئيس جماعة الأسرة ووارث والده (فى مكانه ككاهن) ومدير كل دخله . ولانزاع إذن فى أنه هو المدير لجماعة الأسرة . أما ضيعة « خنوكا » الجنازية فكانت تديرها جماعة من الأسرة تتألف من زوجة وبعض أولاد صاحب الوصية . ولكن إذا كان « نكعنخ » قد نصّب على أوقاف جده « خنوكا » جماعة أسرية فإنه لم يدخل فى ذلك إقامة شعائره الخاصة ، بل خصص لأقامتها أوقافا مستقلة ووكل أمرها إلى أربعة من أولاده لم يذكروا فى الوصيتين السابقتين ، ويظهر أنهم من أم ثانية ، أما بقية أملاكه فقد وصى بها ابنه الأكبر « حن حتحور » ومع

أن المتن ممزق عند هذه النقطة ففي مقدورنا أن نفهم منه أن « نكعنخ » قد خص زوجته بمعاش فوق ما تركه لها فى الوصيتين السابقتين . ولكنها بدورها قد أوصت بكل ممتلكاتها لابنها الأكبر « حن حتحور » الذى كان له أن يجمع فى يده عقار والده ووالدته حسب الوصية على ما يظهر . وأسرة « نكعنخ » أسرة عريقة فى الشرف ، ويحمل أعضاؤها منذ عدة أجيال لقب « رخ نيسوت » (المعروف لدى الملك) وكلهم يحملون كذلك لقب « المقرب » . والواقع أن الضياع التى كانت تملكها هذه الأسرة كانت لها أهمية عظمى ، إذ أنها تؤلف ثروة ضخمة ، فمساحتها ١٢٠ أرورا أى نحو ٩٠ فدانا وكانت كافية منذ « خنوكا » لإقامة شعائره الدينية وشعائر والده ، وأمه وكل الأسرة . وهكذا أخذت إقامة شعائر الأسرة الجنازية تنظم شيئا فشيئا حول الضياع الوراثية الموقوفة . ولكنا من جهة أخرى نلاحظ أن « نكعنخ » لم يضم إقامة شعائره إلى بيت جده « خنوكا » ؛ ويتضح لنا كذلك أن إقامة الشعائر بقيت فردية مستقلة وإن كانت فى الواقع ضيعة واحدة قد استخدمت لإقامة شعائر مختلفة . وهذا يدلنا على أن الضيعة كانت فى الأصل مركز إقامة الشعائر ، لأن الذين يتصرفون فى دخلها كانوا يستغلونه لمنفعتهم الشخصية ، ولكن الضيعة أصبحت بالتدريج عقارا للأسرة تحت سيطرة الابن الأكبر ، وتوحدت إقامة شعائر الزوجة التى كان يصرف عليها من ضياع زوجها ، وقد ضمها لنفسه الابن الأكبر .

بقاء إقامة الشعائر فردية رغم الصرف عليها من ضيعة واحدة

وترى فى وصية « نكعنخ » أن الابن الأكبر قد نصب وارثا لكل أملاك والده ووالدته ، وكان بصفته رئيسا لإقامة الشعائر

مكلفاً كذلك بإدارة ضياع الأسرة ، ولـكن أهمية هذه الضياع قد زادت واتسع نفوذ الابن الأكبر حتى شمـل عقـار الأسرة الخاص . على أن الابن الأكبر لم يكن الوارث المطلق لوالديه ولـكن أصبح بحكم العادة يكلف بوصية لإدارة كل عقار الأسرة كما فعـل « نـكعنخ » وبقى مركز الزوجة على حاله لم يحـدث فيه تغيير ، فقد أوصى « نـكعنخ » حسب العادة المتبعة بدخل لزوجته ، ولـكن ابنه الأكبر أصبح وارثه الأوحد ، ولايمـكن أن يسلم هذا الدخل للأرملة إلا ابنها الأكبر ؛ ولما كانت عضواً فى كل من جماعتى الأسرة التى كان يدير شئونها الابن الأكبر كانت هذه الزوجة الأرملة تحت إدارة ابنها الأكبر وتعتبر خاضعة لسلطانه من أجل ذلك . والواقع أن إقامة الشعائر وإن حافظت على صبغتها الفردية فإنها كانت تتمشى مع تطور الأسرة وهـذا طبيعى . وأن الأوقاف الوراثية التى أعادت تماسك الأسرة بجمع شملها حول الهبات قد أحدثت من جهة أخرى بإقامة الشعائر صـلة وثيقة تربط أعضاء الأسرة برباط متين . فإن دخل كل فرد منهـا كان كافيا فى الاغلب لإقامة شعائر الأسرة كلها أو كثير من أفرادها . فقد كانت الزوجة والأولاد الذين كانوا كهنة جنازيين لوالدهم يرون أن إقامة شعائرهم مشتركة مع شعائره وذلك بفضل الجزء الذى يمنحه إياهم من دخله الجنازى ، وهذا مافعله « خنوكا » . والواقع أن مركز هؤلاء بالنسبة لوالد الأسرة فى هذه الحالة كمركز المقرب بالنسبة للملك . فـكما أن (المقرب) كان يحتفل بشعائر الملك ويتسلم جزاء هذا هبة خاصة ، كذلك كانت الزوجة والأطفال كهنة والد الأسرة يحتفلون بإقامة شعائره ويتقاضون جزءاً من إيراد أوقافه . ومنذ

الاولاد والزوجة يصبحون كهنة مقربين لرب الاسرة منـذ أواخر الاسرة الرابعة

ذلك العهد أصبحوا يسمون مقربين له «إمخو» ، ولذلك نجد الزوجة تعترف بأنها « مقربة » لزوجها والابن الأكبر كذلك « مقرب » لوالده . وهذه الألقاب بدأت تظهر فى نهاية الأسرة الرابعة وأقدم مثل عثر عليه حتى الآن هى « حنوكا » (1) التى عثر على مقبرة زوجها «إى» (مدير البيت) فى حفائر الجيزة بمنطقة الأهرام . على أن وظيفة المقربة من زوجها أو المقرب من والده كانت لاتوجد إلا فى الأسر الشريفة التى تمتلك أوقافا محبوسة . وقد انمحى لقب (المقرب) بين أفراد الأسرة فى عهد الأسرة السادسة لأنه فى عهد الأسرة الخامسة لم تكن وحدة الأسرة وحدة قانونية بل كانت تأتى من طريق الوصية للابن الأكبر بالإشراف على أملاك الأسرة .

ومن جهة أخرى لم تكن الزوجة تحت سلطان الزوج ولم تشاطر فى إقامة شعائره شرعا ، ولذلك عند ما كان الزوج يعترف بأنها مقربة له كانت تسارع إلى اعلان ذلك على نقوش قبر زوجها ، لأنها حظيت منه بعطف يماثل ما يحبو به الملك المقربين له . وكانت تنال إزاء ذلك مرتبًا من أوقافه ولدينا وثيقة من أهم الوثائق التى عثر عليها فى عهد الأسرة الخامسة تفسر لنا مركز أفراد الأسرة بالنسبة لأملاك الأب وبالنسبه لارتباطهم كوحدة أسرية . والمتن هو وصية للسمير الوحيد عظيم « نخب » ومدير القصر الملكى « وب إم نفرت » (2) . وقد تزوج من إحدى بنات الملك « نوسررع » وتسمى « مريس عنخ » وابنهما الأكبر « إبى » وقد ترك لنا « وب إم نفرت » وصية فى مقبرة ابنه « إبى » وهى تؤلف جزءاً من مقبرته . فيشاهد على الجدار الغربى لمقصورة « إبى » صورة والده « وب إم نفرت » وأمامه ابنه

(1) Excavations at Giza, I, p. 101. (2) Op. cit. II, pp. 190, fig 219.

يقبض بيـــده على ملف من البردى ويشير الوالد بيـــده إلى نص الوصية المنقوشة على الجدار وهـذه ترجمتها : « سنة ضم الأرضين لحكم الملك فى الشهر الثالث من فصل الشتاء واليوم التاسع والعشرين . السمير الوحيد «وب» يقول : لقد أعطيت ابنى الأكبر المرتل « إبى » أوقاف حجرة الدفن الشمالية وكذلك مقصورة القرابين الشمالية وهما فى بيت الأبدية فى الجبانة ، على أن يدفن هو فيها وتقدم له القرابين على الدوام هناك بصفته مقربا لى ، وليس لأحد الحق فى ادعائها لنفسه أخا كان أو زوجة أو ولدا اللهـم إلا ابنى الأكبر الـكاهن المرتل « إبى » وقد كتب أمام وجه « وب إم نفرت » : « عملت الوصية فى حضرته وهو على قيد الحياة » . وعلى يمين نقش الوصية صورة خمسة عشر رجلا متربعين على الارض مولين وجوههم شطر الوصية وقـد كتب اسم كل منهم وصناعته فى أعلى صورته . وكذلك نقش بخط كبـير فوق الشهود العبارة الآتية : « كتبت فى حضرة شهود كثيرين ودوّنت بيده » . ولا نزاع فى أن هـذه الوصية تعد من أعظم الوثائق التى وصلت إلينا من عهد الأسرة الخامسة بل فى الدولة القديمة كلها من الوجهة القانونية والاجتماعيـة بالنسبة للأسرة . فهى تدلنا على علاقة أفرادها بعضهم ببعض ، إذ نجد أن صاحب الوصية يعين لابنه الأكبر جزءاً من أملاكه الجنازية على أن يكون دخله وقفا على شعائر « إبى » نفسه وأن يكون وحده هو المشرف على هذا الجزء لأنه « مقرب » من والده . وقـد أبعد من الوقف إخوته وزوجته وأولاده الذكور والأناث ؛ ويفهم من ذلك أنه كان لهم الحق فى إرث أملاكه الأخرى لأن تحديد هؤلاء الأشخاص بالذات يشعر بحقهم فى هذا الوقف لولا وجود هذه الوصية . يضاف إلى ذلك أن دفن

وصية «وب إم نفرت» وأهميتها من الوجهة القانونية

الابن الأكبر فى مقبرة خاصة به يوحى بأن نظام استقلال الأسرة كان لايزال قائما وأن الصلة بين الابن الأكبر وبين والده من هذه الناحية كونه « مقربا له » ، ومن المستغرب أن زوجة « وب إم نفرت » لم تدفن معه فى مقبرة واحدة على حين أنها مثّلت معه فى المقبرة بحجم واحد ووجد لها أربعة تماثيل من الحجر الجيرى الأبيض فى سرداب زوجها . ويحتمل أن الملك والدها قد أهداها هذه التماثيل الجميلة فوضعتها فى قبر زوجها كما رسمت معه على جدران مقبرته . ومما يستوقف النظر فى هذه الوصية وجود شهود على صحة العقد ؛ وهذا لم يكن متبعا قط فى نقوش الدولة القديمة على ما نعلم ، فهو دليل واضح على أن الوصية ، كانت لها أهمية بالنسبة إلى « إبى » الابن الأكبر الذى كان يخاف منازعات أفراد أسرته ولذلك قال فى الوصية إنها : « كتبت وهو حى (يمشى) على قدميه » .

الاسرة تكوّن وحدة شرعية باشراف الابن الاكبر فى عهد الاسرة السادسة

أما فى عهد الأسرة السادسة فكانت الأسرة تؤلف وحدة شرعية إذ للابن الأكبر الحق الشرعى فى الإشراف على ثروة الأسرة ، والزوجة خاضعة لسلطان زوجها وتخول لها صفتها الزوجية حق الاشتراك فى إقامة شعائر زوجها مما لم يكن فى مقدورها الحصول عليه فى عهد الأسرة الخامسة إلا بوصية . وحق اشتراكها فى إقامة شعائر زوجها يجعلها زوجته الخاضعة لسلطانه فتصيب جانبا من أملاكه وإن كانت وصية « وب إم نفرت » تشير بأن للمرأة الحق فى ميراث زوجها بعد وفاته فى غير ما أوصى به ؛ ولكن من جهة أخرى نشاهد فى بعض الأحايين أن الزوج كان يمنح زوجته هبة كمؤخر صداق . وحدث مثل ذلك فى عهد الأسرة السادسة فى عهد « بيبى

الثانى » فذكر لنا « المقرب » « إدو » [1] ما يأتى : « إن الضيعة التى أعطيتها زوجتى المحبوبة « دسنك » تعتبر ملكها الخاص وذلك لأنى أحبتها كثيراً » . والواقع أننا نعلم أن الضيعة التى أعطاها « إدو » زوجته هى إقطاعية ملكية وقد أيدت ذلك « دسنك » نفسها بقولها : « إذا اغتصب أحد هذا الصداق المؤجل سأرفع ضده دعوى أمام الإله العظيم أى أمام محكمة المقربين التى يرأسها الفرعون نفسه وهى المحكمة التى يتقاضى فيها الأشراف فى الخصومات التى لها علاقة بعقارهم (انظر صفحة ٦٥) . نخرج من كل ذلك بنتيجة أن الأسرة قد أعيد تنظيمها على قاعدة إشراف الابن الأكبر شرعا على أملاك والده ، وأن الزوج كان يستولى على كل حقوق المرأة ويجعلها خاضعة تمام الخضوع لسلطانه . وحقوق الابن الأكبر لم تكن أمراً ضروريا أو على الإطلاق ، فهو إنما نصّب وصيا لتحصيل مال الوقف ولم يكن فى يده غير إدارة عقار والديه . وقد شاهدنا فى أوقاف الأسرة أن كل فرع منها كان يمثله الابن الأكبر وهذه القاعدة قد جرت كذلك على عقار الأسرة الخاص . وقامت « مس مرى » [2] بفحص انتقال العقار فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة فوصلت إلى النتائج الآتية : أن العقار الموروث يمكن وقفه ويمكن تجزئته فى عهد الأسرة الخامسة ، إذ فى الواقع أن الإرث كان يتغير من جيل إلى جيل فكان يقسم أحيانا وأحيانا يزداد بإضافة ضياع جديدة . هذا إلى أن العقار الموروث قد استمر يقسم بين الوارثين حتى فى فروع الأسرة ، وكذلك كانت المرأة تأخذ حصتها فى ميراث الأسرة ، ويلاحظ أن الضياع الكبيرة

---

(1) Sethe, Urkunden, II, p. 23 (New Ed.)
(2) P. S. B. A. XVII, p.p. 240-245.

كانت تتزايد باستمرار منذ الأسرة الرابعة حتى نهاية الأسرة الخامسة . ولقد كان من جراء تغيير مركز المرأة من الوجهة الشرعية أن حدث تغيير عظيم من الوجهة الخلقية ، وذلك أننا لم نجد قبل الأسرة الخامسة تمثيل حظيات على المصاطب ، ولكن منذ الأسرة الخامسة نجد أن الأشراف كان لهم حظيات وكانوا فخورين بهن ومن هؤلاء العظيم « تى » (1) زوج الاميرة الملكية « نفرحتبس » فكانت له حظيات يرقصن له وقد استعرضهن على جدران قبره وسنعرف فيما بعد أن نساء « الحريم » كن يمثلن كثيرا فى عهد الأسرة السادسة ونجد الرقص الخليع فى مقبرة الوزير « مرا » (2) فى عهد الملك « تيتى » يحيط به شىء من أسرار الحريم ، وكذلك فى مقبرة الكاهن « دوا كا » (٣) حيث نجد امرأة ترقص فى وسط راقصين وراقصات عارية الجسد . ونشاهد كذلك منظراً فى مقبرة « فتاح نفرسشم » (4) مثلت فيه جنازة مارة أمام باب « الحريم » والنساء يولولن و يعولن أثناء مرورها قائلات : « يأيها الأب الوديع ياسيد الجميع » . وفى المتحف البريطانى (5) يوجد رسم من عهد الدولة القديمة تظهر فيه صورة امرأة متمنطقة بحزام لتطمئن سيدها على عفافها . ولا شك فى أنها كانت إحدى حظياته . وقد كان نساء الحريم يمثلن بمفتاح يتبعه ثلاث نسوة فالحظيات كن مخدرات ، كما جاء ذكره فى « تحذيرات نبى » إذ يقول : « إن النساء اللاتى لم يرين النور قط قد ظهرن فى العالم » ؛ ومن ذلك يتضح أن الحظيات لم يظهرن إلا فى الوقت الذى بدأت تكون فيه المرأة تحت سيطرة الرجل ، فلم تعد بعد سيدة البيت الشامخة بأنفها المستقلة بحقوقها :

ظهور الحظيات فى الوقت الذى بدأت تكون المرأة فيه تحت سيطرة الرجل

(1) Montet, Scènes de la vie privée, p. 364. (2) Montet, ibid p. 366. (٣) لم ينشر بعد (4) Capart, Une Rue de Tombeaux, p. 79.
(5) Revillout, Cours de Droit Egyptien I, p. 110.

حقا إنهـا استمرت زوجة تتمتع بسلطان عظيم ، إذ كانت تشـغل وظيفة كاهنة لزوجها أو للإلهة « حتحور » أو الإلهة « نيت » ، غير أنهـا لم تعـد مساوية لزوجها ولو كانت أعرق منه نسبا . وأصبحت المرأة سيدة البيت بحكم القانون لا غير ، وأصبح الرجل يعطف عليها بعد أن سلبها حقوقها ، أكثر من قبل ، فـكان « تى » يلقب زوجته « بالزوجة المشغوف بها زوجها » . أما نساء الحريم فلم يكنّ زوجات شرعيات ، إذ لم نجد فى القبور أسماء حظيات ولا أسماء أولادهن قط . والحقيقة أنهن لم يؤلفن جزءا من الأسرة ، لأن أولادهن لم يكونوا شرعيين ولاينسبون إلا إلى أمهاتهم .

الحظيات لم يؤلفن جزءا من الاسرة

ومن كل ماتقدم يمكن معرفة تـكوين طبقة اشراف لها امتيازات ، فقد استولت على كل الوظائف الدينية والإدارية فى البلاد وجمعت فى قبضتها ثروة مالية تتزايد على التدريج ؛ وكان من نتائجها أن أخـذت تقضى على الاسـتقلال الفردى فى الأسرة رويدا رويدا ، وحل محله توحيد أواصر الأسرة ، بالتفافها حول الهبـات الملـكية التى أصبحت عقاراتهـا موقوفة ، وبقوة الروح فى إقامة الشعائر ، وبالمركز الهام الذى أصبح يشغله الابن الأكبر ، وبانتقاص حقوق الزوجة تدريجا حتى ذهب استقلالها شرعا . كل هذه الاشياء قد تمت بسبب إعادة نظام تأليف الأسرة ، غير أنه يجب أن نلاحظ أن تجمع الأسرة الذى نراه فى الوصايا وفى المؤسسات الجنازية وفى شجرة الأنساب التى تظهر فى القبور ، كان من عمل العادة والعرف والتقاليد لا من عمل القانون .

تطور مركز الأسرة فى عهد الأسرة السادسة

تـكلمنا فيما سبق عن كيفية بداية تطور الأسرة فى عهـد الأسرة

الخامسة وتجمعها تحت سلطان فرد واحد، وقد صار هذا التطور نحو الوحدة الأسرية يزداد على كرّ الأيام حتى وصل إلى قمة الكمال فى عهد الأسرة السادسة . وقد كانت بداية هذه الوحدة ما كسبه الابن الأكبر من حقوق الإشراف على أوقاف والده الجنازية ، وكذلك إدارة عقار والده الخاص بوصية . وعلى ممر الأيام أصبح هذا الإشراف حقا مكتسبا يسرى على كل أملاك الأسرة ومن جهة أخرى نجد تطورا رجعيا فى حقوق الزوجة ؛ فأصبحت مكانتها ثانوية ونقص استقلالها الشرعى تدريجا حتى فقدته نهائيا وأصبحت آخر الأمر تحت سلطة الزوج ، وبعد مماته كانت تصير تحت سلطان الابن الأكبر ، أو تحت إدارة وصى يعينه الزوج قبل مماته بوصية . وقضية « سبك حتب » التى شرحناها فيما سبق لاتدع مجالا للشك فى إمكان تعيين وصى أجنبى (ص ٥٩) إذ منها نعلم أن السلطة الزوجية والسلطة الأبوية قد تطورتا ، فقد صارت أملاك الأسرة واحدة لاتتجزأ سواء أكانت فى يد « سبك حتب » الوصى أم فى يد الابن الأكبر « تاو » . وهذه الوحدة كانت تئول بحكم الشرع إلى الابن الأكبر ولكن كان للوالد الحق فى أن ينصّب وصيا كما يختار هو . ويثبت هذا الرأى نقوش «مرى عا» أمير المقاطعة العاشرة من الوجه القبلى (1) إذ يعلن ابنه «أنه صاحب كل أملاكه ورئيس أولاده » . على أنه من المحقق أن كل ولد كان يحتفظ لنفسه بحقه بعد ممات أخيه الأكبر . ولا شك فى أن الابن الأكبر أو الوصى الذى كان يعينه المتوفى ، لم يكن مالكا حقيقيا لعقار الأب ، بل كان فى الواقع الأمين على أملاك الأسرة من ذكور وإناث ، وهذا يؤكد لنا ماقاله حرخوف فى هذا الصدد (انظر ص ٥١٠)

مركز الابن الأكبر فى عهد الأسرة السادسة

(1) Sethe, Urk. IV, 22 (New Ed.)

أما نوع الأملاك التى كان يدير شئونها الابن الأكبر من عقار الأسرة فيمكن استنتاجها من نقوش « إبي » أمير طينة إذ يقص علينا إنشاء مؤسسة جنازية لإقامة شعائره الخاصة فيقول : « إني أسستها من قرى ضيعتى ومن الهبة الجنازية التى منحنى إياها الملك ، ولا يدخل فى ذلك أملاك والدى » . ومن ذلك نفهم أنه قد أقام مؤسسة من ماله الخاص وترك أملاك والده لأنه لم يكن له الحق فى التصرف فيها إذ كانت ملكا لأفراد الأسرة كلها . وعلى أية حال سنجد مثل هذا القول يتكرر فى نقوش الأسرة السادسة أى أن كل واحد قد أقام شعائره من ماله الخاص ، يضاف إلى ذلك .أنه يمكننا أن نستنتج من قضية « سبك حتب » أن الزوج أصبح له سلطان شرعى على زوجته إذ بمجرد تعيين وصى عليها وعلى أولادها لإدارة أملاكه يفهم منه أنه كان المسيطر على أملاكها مدة حياته ؛ وبذلك تكون قد فقدت استقلالها الشرعى ؛ وكذلك فقدت الرقابة التى كانت لها على أولادها فى حداثة أسنانهم وانتقلت هذه الرقابة إلى الابن الأكبر أو الوصى ويؤيد هذه الاستنتاجات خطاب كتبته أرملة تدعى « نفر سفخى » لزوجها المتوفى . ومن هذا الخطاب نعلم أن « نفر سفخى » كانت لها ابنة أقيم عليها وصى ، وقد رفض الأخير أن يعطى الأرملة مالا لتربية ابنتها مما تستحقه من دخلها . ولذلك كتبت الأرملة لزوجها المتوفى خطابا تضرع إليه أن يتدخل فى أمرها فى عالم الآخرة حتى تنال حقها (1) . ومن هذا الخطاب نعرف أن الأم لم يكن لها حق الوصاية على ابنتها ولم يكن لديها المال لترفع به دعوى ضد هذا الوصى ولذلك لجأت

(1) Gardiner & Sethe, Egyptian Letters to the Dead. London. 1928 p. 115.

إلى الابتهال لزوجها فى عالم الآخرة ليكون لها شفيعا أمام القضاء الآلهى . ولا شك أن التطور التشريعى كان السبب الوحيد فى تماسك أعضاء الأسرة وتكوين وحدة منها ، بل إن عدم استتباب الأمن فى هذا العصر والحاجة لحماية الأرامل واليتامى كان من العوامل التى ساعدت على تقوية أواصر الأسرة وتماسك أفرادها وتضامنهم أمام أى خطر يهددهم . والواقع أن مصر أخذت تتفكك وحدتها فى عهد الأسرة السادسة إذ بدأت إدارة البلاد تنحل وتلاشت سلطة الملك وأخذت العقارات تتجمع بازدياد مطرد فى أيدى طائفة خاصة . فقد جمع الأشراف فى أيديهم الغنى والقوة وأصبح حكام المقاطعات الأقدمون أمراء وارثين كل منهم يفخر فى مقاطعته بأنه لم يعتد على الملاك وأنه حامى الضعفاء فنجد مثلا « كارابيبى نفر » أمير ادفو فى أوائل حكم الأسرة السادسة يفاخر بأنه خلص الفقير من يد من هو أكثر منه ثراء (1) وكذلك يقول « خنوكا » أمير المقاطعة الثانية عشرة من الوجه القبلى : « إنى لم أعتد قط على أملاك أى فرد . . . . . ولم يوجد قط فى المقاطعة رجل يخاف آخر لأنه أغنى منه (2) »

الاسباب التى دعت إلى تماسك الاسرة

والواقع أن مثل هذا الأعلان لا يدل إلا على عدم الاستقرار وبخاصة من جانب الضعفاء كالأرامل والفقراء واليتامى. ولذلك كانت الوصاية على المرأة فى مثل هذه الأحوال المضطربة وسيلة لحمايتها .

نظام الأسرة الشرعى فى أواخر الأسرة السادسة

لقد كان للتطورات التى ذكرناها فيما سلف أثر فى تغيير مركز

---

(1) Moret, Un Monarque d'Edfu au début de la VI Dy. C. R. Ac. Insc. 1918 p. 105. (2) Sethe, Urk. II, No 2 (New Ed.) & Br. A.R. t. I, No 280-8.

الأسرة بالنسبة للمجتمع المصرى ، إذ أصبحت وحدة اجتماعيـة تحت سيطرة الأب ، وكذلك صارت المرأة بعد زواجها تحت السلطة المطلقة لزوجها ، وبعد وفاة الزوج كانت تحت سـلطان الابن الأكبر أو وصى يعينه الزوج . وبذلك لايمكن المرأة المتزوجة أن تقف أمام القضاء فى أى موضوع إلا بإذن من زوجها أو الوصى عليها ، إذا كان الزوج متوفى ، كما أن سلطان الأب على أولاده قد ازداد فهو الذى يتـولى أمور أملاكهـم ويديرها ويتصرف فيها ومن حقه أن يعين عليهم وصياً . أما إذا لم يترك وصية فالابن الأكبر بحكم القانون والعرف هو الوصى الشرعى عليهم وعلى أملاكهم يدير شئونها لهم دون أن يتصرف فيها لحسابه الخاص. وإن مركز الأولاد الآخرين قد تغير من أساسه فقد كانوا فى عهد الأسرة الثالثة متساوين شرعا ولـكن مراكزهم الشرعيـة فى الأسرة السادسة كانت متفاوتة ؛ فإنّ الذكور كانوا متفـوقين على الأناث ؛ إذ كان الذكر يعتبر الأكبر بالنسبة لأخته مهما كانت هى أكبر منه سناً ولذلك لم نجد قط أن البنت قامت بدور الابن الأكبر ؛ هذا فضلا عن أن الأخير كان هو الفرد الوحيد الذى يمثل الأسرة فـكان يعـد رئيس إخوته الذكور والأناث كما أعلن ذلك الأمير « مرى عـا » . على أن حقوق الابن الأكبر كانت لاتزال مقيدة إذ يقضى الواجب عليه أن يسهر على مصالح اخوته حتى يكفل لهم أمرهم وقد كان يفاخر بكونه رب الأسرة ويباهى بالحب الذى تـكنه له أمه واخوته فيقول « كارابيبى نفر » أمير مقاطعـة ادفو : « إنى أنا المحبوب من والده والممدوح من والدته ، والذى يحبه إخوته » (1) على أن السلطة التى كانت فى

ازدياد نفوذ الاب

تفضيل الذكر على الانثى

(1) Moret. C. R. Ac. Insc, 1918 p. 105

يد الابن الأكبر على أمه وإخوته لاتنفصم عن الحقوق الواجبة لهم عليه . وفى ذلك يقول الوزير « نفر سشم رع » : « كنت أرهب والدى وكنت مؤدبا مع والدتى وأطعمت [1] أولادهما » . وكذلك يخبرنا « سنف عنخ » [2] بأنه أقام مقبرة لأخوته فقال : « لقد بنيت هذا القبر لوالدى وإخوتى » . وتدل ظواهر الأحوال على أن الأسرة كانت متجمعة تحت لواء واحد وهو لواء الابن الأكبر الذى كان يعد المحيي لذكرى والده . فقد أعلن « زاو » [3] أمير مقاطعتى طينة و« زوف » متكلما عن والده بأنه هو الابن الأكبر المخلوق من صلبه ؛ وعلى هذا فالرابطة الأسرية لم تكن بين الأحياء فحسب بل كانت تمتد إلى الأجيال التى خلت . ولا غرابة فى ذلك فإن هذا الجيل قد ورث الشرف والامتيازات والثروة العظيمة عن أجداده . وقد ظهرت الأسرة وحدة قائمة بذاتها وأعضاؤها هم الممثلون لهذه الوحدة ، وهذا ما يفسر وجود فروع أنساب مفصلة فى النقوش التى على جدران المقابر منذ الأسرة الخامسة ، وعلى الأخص فى عهد الأسرة السادسة . ويلاحظ أنه فى عهد الأسرة الثالثة كان يكتب على جدران قبر الميت تاريخ حياته فقط ، ولكن فى عهد الأسرة السادسة كان يدون نسبه قبل أن يدون ترجمة نفسه بأن يكتب : « أنه المحيي لذكرى أسرته ونسلها ، والأمين على عقارها والكاهن الذى يقيم شعائرها » .

علاقة الاسرة بالابن الاكبر

ومن الامور التى تسترعى النظر أن أول ظهور سلسلة نسب كانت فى عهد الأسرة الرابعة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تأليف طبقة أشراف جديدة . حقًا إن أعضاء الأسرة المالكة كانوا عند ذكر أنسابهم يفخرون بنسبهم

أول ظهور سلسلة النسب وأسبابها

(1) Sethe, Urk. III, No 36 (2) Sethe, Op. cit. t. III, No 42.
(3) Br. A. R. t. I, No 354.

العظيم . وفى الجملة فإن نسب الأسرة الرابعة المالكة معلوم لدينا ولكن عدا الأسرة الملكية كانت الأنساب قليلة ولا يرجع أقدمها إلى أكثر من عهد الملك « سنفرو » . وتنحصر هذه الأنساب فى بعض الأسر التى تحمل لقب « المعروف لدى الملك » ، ولا يرجع تاريخ أقدمها إلى أكثر من ثلاثة أجيال .

وفى عهد الأسرة الخامسة أصبحت طبقة الأشراف وراثية وأخذت إيرادات الأسرة تتكون ، يضاف إلى ذلك أن الأشراف بدءوا يعرفون أنسابهم التى من أجلها أصبحوا أشرافا وصار لهم سلطان ومال عظيمان .

وقد وجدنا أن بعض الأسر يرجع نسبها إلى أربعة أجيال من أسر الأشراف الذين كان منهم الوزراء أو الذين كانوا يحملون لقب « المعروف لدى الملك » . وفى عهد الأسرة السادسة كان لقب « المقرب » فى الأسرة هو الذى يجمع أعضاءها حول رئيسها الذى كان يمثل فى أكبر فروع الأسرة . ومنذ ذلك العهد لم يذكر فى سلسلة الأنساب الفرع الأصلى فقط بل كذلك الفروع الثانوية .

لقب (المقرب) فى الاسرة السادسة

« الوراثة »

وفى عهد الأسرة السادسة كانت الملكية قد تطورت بدورها تطورا عظيما ، فبعد أن كانت فردية مستقلة أصبحت أسرية . حقا إن الابن الأكبر كان هو الذى يدير شئون أملاك الأسرة غير أنه لم يكن فى مقدوره أن يتصرف فيها لحسابه ، إذ لم يكن فى الواقع إلا أمينا عليها ، وبهذه الكيفية قد وجد تمييز ظاهر بين العقارات لم يكن معروفا فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة . وقد كانت الثروة التى يرثها الابن الأكبر تتألف من أوقاف الأسرة ومن العقار الذى تركه له والده ، غير أنه لم يكن إلا أمينا عليها كما

ذكرنا . وكان له الحق هو واخوته الذكور فى أن يكون لكلّ عقار خاص جديد يؤلف ملكا منفصلا عن أملاك الأسرة يتصرف فيه كما يشاء .

والظاهر أن أملاك الأسرة الخارجة عن الوقف كانت قابلة للتجزئة ونفصل هنا بعض التفصيل نظام التوريث لهذا العقار : ذكرنا أن وراثة إقامة الشعائر كانت تنتقل لابن المتوفى الأكبر ثم لأخيه الذى يليه سنا قبل أن تعود لابنه . والواقع أننا نلحظ أنه قد ذكر على مصاطب عدة عدد من أولاد المتوفى يلقب كل منهم الابن الأكبر ، وأن أولاداً مختلفين يلقب الواحد منهم بالابن الأكبر على نقوش مصطبة الوالد ؛ ولابد أن نستخلص من ذلك أنه عند وفاة الابن الأكبر كان ينتقل الميراث للابن الأكبر الذى بعده وبهذه الكيفية يمكن أن يقوم أولاد كثيرون بدور الابن الأكبر . وعندما يكون الأمر خاصا بإقامة الشعائر ؛ فان الإرث ينقل للابن الأكبر من فرع الأسرة الأكبر . على أنه لو كان هذا النظام يسرى على عقار الأسرة الخاص ، فإن أملاكها كانت تبقى دائما موحدة ولكن البحوث التى قامت بها « مس مرى » حتى نهاية الأسرة الخامسة تدل على أن أملاك الأسرة لم تكن وحدة بل كانت تقسم من جيل إلى جيل بين فروع الأسرة المختلفة عند ما يختفى آخر أخ . والظاهر أن هذا النظام بقى معمولا به حتى الأسرة السادسة . ولكن على الرغم من ذلك نقرر هنا أن عقار الوالد كان يقسم بين الأخوة ، ولم تدخل فيه الأوقاف كما تدل على ذلك العبارات التى جاءت فى نقوش كل من « حرخوف » و « بيبى نخت » وغيرهما (انظر ص ٥١٠) . ومن ظاهر هذه النقوش نرى أن الذكور كانوا يقتسمون أملاك والدهم مع إغفال حقوق البنات .

سبب تعدد (الابن الأكبر) على المقبرة

تقسيم أملاك الاسرة بين فروعها

والظاهر أن الوحدة الأسرية كانت لا توجد إلا فى مدة حياة الاخوة الذكور والأناث ثم تختفى بعدهم ؛ إذ على أثر وفاة آخر ابن كان العقار الذى يشرف عليه يقسم إلى فروع حسب عــدد الأخوة الذكور ومن المحتمل الأناث ايضا (1) اما الأناث فيغلب على الظن أنه كان لهن الحق كالذكور فى أن يكنّ أعضاء فى الوقف مثل الذكور ، وعلى ذلك كنّ يأخذن نصيبا من إيراده . ولا أدل على ذلك من نقوش مصطبة « نكعنخ » التى كان فيها تمثال أقامته ابنة المتوفى لوالدها وهى (المقربة) « إياخ نبت » وابنه المقرب « نى عنخ سسى » . وكذلك نجد ابنة ثانيــة للعظيم « نكعنخ » تسمى « ر ع إنت » كانت ضمن أعضاء جماعتى الأسرة اللتين ألفهما هذا العظيم إحداهما لإقامة شعائر الإلهة « حتحور » والثانية لإقامة شعائر جده « خنوكا » .

البنات كان لهن حق الارث فى العقار الموقوف

أما فيما يختص بإرث البنت فى عقار والدها غير الموقوف ، فمعلوماتنا عنه ضئيلة ولايمكن أن نستنتج منها شيئاً قاطعا غير أنه بعـــد الدرس الدقيق قد وصلنا إلى أن المرأة يمكنها أن ترث إقطاع والدها عند اختفاء نسل الذكور ؛ على أنها فى الواقع كانت لاتدير هذا الإقطاع باسمها بل كان يتولى ذلك زوجها بما له من السلطة عليهـا . وإذا كانت أرملة فإن ابنها الأكبر يدير شئونها على أثر بلوغه السن القانونية إذا كان قاصرا .

البنت ترث الاملاك غير الموقوفة ولـكن يدير شئونها زوجها أو ابنها

وسنكتفى هنا لقلة المصادر بأن نتصور أن ميراث المرأة فى عقاروالدها كان يجرى على حسب القواعد المتبعة فيما يختص بالعقار الموقوف . ويظهر أن المرأة لم تـكن محرومة تمام الحرمان من إرث والدها ، ولم يكن الذكور وحدهم هم الذين كانوا يتمتعون بذلك .

(1) Pirenne, Instit. III, p. 359.

وقد كان العقار مقسما إلى أملاك الأسرة والأملاك الخاصة والأول كان ملك الأسرة الخاص وكان الثانى ملكا خاصا لمن اشتراه ، لا يدخل فى عقار الأسرة . وقد أعلن « إبى » (1) فى صراحة أنه ترك كل الأملاك الموروثة من والده سليمة ، ولكن من جهة أخرى تصرف بكامل حريته فى أملاكه الخاصة وتقدر بنحو ٢٠٣ أرورا منحها إياه الملك ليصبح من أثرياء الناس .

الاملاك الخاصة لا تدخل فى عقار الاسرة

أما البنت فلم يكن هناك من الأسباب ما يدعو لحرمانها عقار والديها على أنه كان هناك عقار منقول غير الأرض عند الأسر الشريفة ، ولكن مما يؤسف له أن معلوماتنا عنه محدودة ، وتنحصر كلها فى الرسوم التى نجدها ممثلة فى المقابر وبخاصة المجوهرات والذهب وقد كان لها شأن عظيم فى حياة البلاد الاقتصادية ، فمن ذلك أننا نشاهد فى الضياع العظيمة الممثلة على قبور العظماء صناعا لطرق الذهب وسبكه ، وهؤلاء فى الواقع لايعملون إلا لأغراض جنازية ، هذا إلى أن الملك كان يوزع على كبار رجاله عطاءهم من الذهب ، وقد بقيت هذه العادة شائعة مدة الأسرة السادسة . فيقول المهندس المعمارى « مرى رع فتاح عنخ » عند انتهائه من أى عمل كلفه إياه الملك « بيبى الثانى » كان يعطيه ذهب الحياة « نبو عنخ » ويقصد من هذا مكافأة من الذهب ولا نزاع فى أن الذهب كان يؤلف جزءاً من عقار الأسرة وهذا هو السبب الذى من أجله نشاهد طائفة طيبة من الحلىّ كالقلائد والأسورة من الذهب مصفوفة كأنما رصت على رف قد رسمت فى كثير من مقابر هذا العصر .

إرث البنت فى العقار المنقول

(1) Deir-el Gebrawi, I. p.p. 8 etc. et Br. A. R. t. I, No 375-9 & Urk. II, n. 82. (New Ed.) 32.

وقد لاحظنا فى المقابر التى كشف عنها حديثاً فى منطقة الجيزة أن كلا من المرأة والرجل كان يزين جثته كالأحياء بحلى من الذهب والمعادن النفيسة والأحجار الكريمة ، ولابد من أن المرأة كانت ترث هذا المتاع من والديها ، ويغلب على الظن أن معظم العقار المنقول كان يئول إلى المرأة إذ دل الكشف على أن الحلى الثمينة من الذهب والأحجار الكريمة كانت توجد عادة مع الإناث أكثر من وجودها مع الرجال (1) . ومما يلفت النظر مانلاحظه فى رسوم القبور من أن كبرى بنات المتوفى كانت لها مكانة خاصة منذ الأسرة الرابعة . فنشاهد أن « مرإيب » ابن الملك خوفو فى مقبرته مع ابنه الأكبر ولكن فى الوقت نفسه وجدناه مرسوما مع ابنته الكبرى وهى قابضة بيدها على عصاه . أما الابن الأكبر فكان فى يده قرطاس من البردى (2) وهذا هو المثل الوحيد الذى شاهدنا فيه البنت تمثل في موقف من مواقف الابن الأكبر ؛ ومن المحتمل إذن أن والدها أراد أن تكون هى وريثة إذا قطع نسل الذكور . على أننا من جهة أخرى نشاهد كثيراً فى نقوش المصاطب البنت ممثلة وهى قابضة على ساق والدتها . وهذا المنظر يرى فى مقابر الأسر الرابعة والخامسة والسادسة (3) .

ولا شك فى أن تمثيل البنت بهذه الكيفية ينبىء عن أنها ستقوم مقام أمها وربما كان فى هذا العصر تشريع للبنت الكبرى يشبه تشريع الابن الأكبر . والمنظر الذى نشاهده ممثلا فى مقبرة « هنقو » حاكم مقاطعة « زوف » يعزز هذا القول ؛ إذ نجد فيه زوجته « خنتت كا » جالسة أمام مائدة قربان

مكانة البنت الكبرى

---

(1) Excav. at Giza, II, p. 139-150. (2) L. D. II. 18-22.
(3) L. D. II. 23-25 Giza, & 27-29, 49. & Davies, Deir-el Gebrawi I, p.p. 8 etc.

وبنتها تقترب منها مقدمة القرابين ، مما يشعر بأن البنت تقوم بدور خاص فى إقامة شعائر والدتها وربما كان أوضح مثال لدينا فى هذا الموضوع ما نشاهده فى مقبرة رئيس كهنة الروح « فيفى » (1) . فنجد ممثلا على الباب الوهمى كلا من « فيفى » وزوجته « حتب حرس » أمام مائدة قربان وقد رسم خلف الأب ابنه الأكبر ورسم خلف الأم بنتها الكبرى وكل منهما يقدم قربانا للأب والأم ، على التوالى ، ومما يلاحظ فى هذا الرسم أن كل زوج قد رسم بحجم واحد فالابن والبنت رسما متساويين والزوج والزوجة رسما بحجم واحد . فإذا كانت البنت تقوم بدور خاص فى إقامة شعائر والدتها فلابد من أنها كانت تستولى على جزء معين من عقار الأسرة الموقوف لإقامة الشعائر الجنازية .

ومهما يكن من شىء فإن نظام الوراثة الفردى الذى لاحظنا وجوده حتى عهد الأسرة الخامسة ، وهو الذى يخول لكل الأولاد فى الأسرة أن يقسموا فيما بينهم أملاك آبائهم ، قد حل محله نظام جديد ينطبق فى معناه على نظام وراثة الملك .

تأثير العقائد الدينية فى تكوين طبقة الاشراف ووحدة

والواقع أن تكوين طبقة من الأشراف ، كان أفراد كل أسرة منها ملتفين حول الأوقاف الجنازية الخاصة بها ، قد جعل وراثة الأملاك الخاصة باقامة الشعائر ضمن أملاك الأسرة تدريجا . وقد طبق هذا النظام على عقار الوالدين الخاص . ويلاحظ هنا أنه كلما امحى نظام الفردية ، وتدهورت السلطة الملكية ، ازداد نفوذ المعتقدات الجنازية ازديادا مطردا . إذ أن أصل نشأة طبقة المقربين يرجع إلى العقائد الدينية ، وهى المنبع الأصلى الذى انبعثت منه فكرة الإقطاع والضياع الجنازية التى كان من جرائها إعادة تجمع أفراد الأسرة بالتفافها حول هذه الضياع الجنازية الموقوفة .

(1) Excav. at Giza, I, p.p. 99.

وأخيرا نجـــد أن قاعدة الوراثة التى كانت متبعة فى انتقال الالتزامات الـكهنوتية قد اوجـدت نظاما قانونيا جديدا للوراثة حل محل نظام الحقوق القديم . ويلاحظ أنه فى الوقت الذى كان ينمحى فيه نظام الفردية وقد كان أصلا للحقوق الشخصية ، ويتلاشى فيه تجمع السلطة الملـكية وهى الأسـاس للحقوق العامة قبل الإصلاح الاستبدادى الذى كان فى عهـد الأسرة الرابعة ، أصبح كذلك يختفى تدريجا ذلك النظام الدنيوى الذى يسير على نهجه كل من الحـكومة والأسرة .

الاولاد غير الشريعيين

لم تذكر لنا نقوش مقابر الدولة القديمة أولادا غير شرعيين ولـكن على الرغم من ذلك ، نظن أن هذا العنصر من الاولاد كان ذائعا ؛ فمنذ الأسرة الخامسة نجد أنه كان يمثل على مقابر بعض العظماء طائفة من النساء لم يذكرن بأسمائهن قط إلا مرة واحـدة فى أواخر الأسرة السادسة ، ومع ذلك كن يعتبرن فى هذه الحالة نساء شرعيات كما سنوضح ذلك فى حينه أما النساء الحظيات فإنهن لسن زوجات ولا يؤلفن جزءا من الأسرة ويجب أن نعتبرهن من طبقة الراقصات والقيان اللاتى يتخذهن أصحاب اليسار خليلات ، ولم نجد لهن أولادا ممثلين على جدران المقابر ؛ مما يدل على أن الاباء كانوا ينـكرونهم ؛ وبالرغم من صمت النقوش عن هذا الموضوع ، فإنه فى الاستطاعة أن نصل إلى مركز الطفل غير الشرعى منذ أواخر الأسرة السادسة . ويرجع الفضل فى ذلك إلى خطاب عثر عليه فى جبانة ، كتب على قطعة من القماش . وقد أرادت كاتبته « إرتى » أن تخاطب حبيبها « س عنخ . إن فتاح » لـكى تشرح له المأسـاة التى حاقت بطفلها المولود سفاحا.

أولاد الحظيات لا يؤلفون جزءا من الاسرة

والواقع أن متن الخطاب مبهم وكل ما يمكن استخلاصه ما يأتى : كانت الخادمة « إرتى » حظية لسيدها « س عنخ إن فتاح » وقد رزقت منه ولداً . وأوصى « س عنخ إن فتاح » وهو على سرير الموت أخاه « بحستى » أن يحافظ على أملاكه حتى يبلغ ابنه سن الرشد ويسلمها إياه. ولكن الأخ نقض عهده مع أخيه وانتهى الأمر بأن قسمت أملاك المتوفى بين ورثته الشرعيين. ولما لم يكن للحظية أية وسيلة لجأت إلى كتابة خطاب لمحبوبها والد ابنها تشكو فيه سوء معاملة أسرته لها ولابنها لعله يساعدها فى الاخرة فيرد حق ابنها إليه. وقد دل فحص هذه الوثيقة على أن الأولاد الذين يولدون عن طريق غير شرعى ليس لهم أى حق فى وراثة أملاك والدهم وأن الاعتراف بابن غير شرعى وجعله وارثاً والده بوصية أو بشرط ، كان على مايظهر أمرا بعيداً . والسبب فى ذلك هو عدم إمكان تجزئة عقار الأسرة فى حالة وجود ورثة شرعيين ، وهذا يدل على أن عمل الوصية كان مقيدا . وقد دلت هذه الوثيقة على أن رابطة الأسرة كانت عظيمة إلى حد أن جعلت الأخوة وأولاد الأخ وارثين عندما تسمح بذلك أحوال الأسرة (1) .

الابن غير الشرعى لا يرث وإن اعترف به والده

إقامة شعائر الأسرة

كان من جراء النظام الجديد الذى ظهرت به الأسرة فى عهد الأسرة السادسة أن حدث تطور فى إقامة الشعائر الجنازية . ففى عهد الأسرة الخامسة كان قوام أداء الشعائر الجنازية الأوقاف التى كان يهبها الملك الأشراف

(1) Gardiner & Sethe, Egyptian Letters to the Dead, London, 1928. dans Chronique d'Egypte, Dec. 1928, p. 117.

فمثلا كان « ثنتى » (1) يتصرت فى أوقاف والدته « بى » الجنازية لإقامة شعائره هو، وقد كان نصيب كليهما مستقلا، ولكن الأوقاف المحبوسة على إقامة شعائرهما معا كانت واحدة فكانا بذلك مرتبطين برابطة لا انفصام لهاولكن من جهة أخرى نشاهدأن زوجة « ثنتى » كان لها شعائرخاصة منفصلة عن زوجها.

وفى بداية الأسرة الخامسة نجد أن « مرسو عنخ » (2) قد أقام بابًا وهميا لوالدته فى قبره، وكذلك نرى أولاده الثلاثة وعلى رأسهم ابنه الأكبر يقدمون له القربان، وتدل النقوش على أن شعائر الزوج والزوجة كانت فى أكثر الأحوال موحدة إذ نشاهد كثيراً تمثيل الزوج والزوجة على جدران المقبرة جالسين أمام مائدة قربان واحدة. وهذا المنظر قد شوهد كثيراً منذ عهد الملك « خفرع » ولكن فى الغالب كانت الزوجة تفصل إقامة شعائرها عن زوجها، فمثلا نجد أن زوجة (المعروف لدى الملك) «أخت حتب»(3) على الرغم من أن لها بابًا وهميا فى مقبرة زوجها قد كان لها قربانها الخاص.

إقامة الشعائر بقيت رغم الدفن فى مقبرة واحدة

والواقع أنه فى هذه الفترة قد أخذت مقابر الأسرات تزداد ازدياداً مستمراً. ولكن يلاحظ أنه كان لكل عضو من أعضاء الأسرة فى القبر باب وهمى ومائدة قربان فى الأغلب الأعم. ونلفت النظر هنا إلى أن دفن أفراد الأسرة فى مقبرة واحدة لم يحدث إلا من جيلين، ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن إقامة الشعائر قد بقيت فردية فى جملتها وإن كنا أحيانا نرى أن أعضاء الأسرة المختلفين يتحدون جميعا فى إقامة شعائرهم وذلك إما بإقامة قبر واحد أو بتجمعهم حول وقف واحد مشترك.

(1) Moret, une Nouvelle disposition testamentaire. Ac. Insc 1914. p.p. 588. etc. (2) Exca. at Giza. Vol. I, p. 104. etc.
(3) Op. cit. p. 73 etc.

وكان لزامًا على الوارث أن يقيم شعائر المتوفى بعد استيلائه على أملاكه ويبنى قبره . على أننا لم نجد حتى الآن أثرا لإقامة شعائر الأسرة بصفتها وحدة تقيم شعائر الجد الأكبر لها . وهذا ينطبق تمامًا على نظام الأسرة فى هذا العهد إذ أنها رغم تملكها عقاراً أسريا لايتجزأ وجمعها برابطة قوية تتمثل فى سلطة الوالد ثم الابن الأكبر من بعده فقد لاحظنا أن الأسرة لاتصطبغ بصبغة رابطة الأجداد بل كانت فى كل جيل تنقسم إلى فروع بقدر ما فيها من الأولاد الذكور وعلى ذلك نجد أن حقوق الأسرة و إقامة الشعائر يسيران حسب تطور واحد .

تفرع الاسرة

ونضيف إلى ذلك أن إقامة شعائر الأسرة قد لعب دوراً عاما فى التقدم الاجتماعى الذى قامت به طبقة الأشراف بما حصلوا عليه من السيادة فى البلاد . وهذه السيادة تشبه تمام الشبه المكانة التى أخذتها إقامة الشعائر الملكية ، وما نتج عنها من تغيير فى الحقوق الأصلية والمجتمع فى مصر منذ الأسرة الرابعة إلى السادسة . وتفسير ذلك كما ذكرنا آنفا أنه قد نشأ فى عهد الأسرة الخامسة مقربون للأسرة ومقربون للأشراف فالمقربون للاسرة هم الذين كانوا يقيمون شعائر المتوفى من أرملته وأولاده وكانوا فى مقابل ذلك يستغلون ضيعته الموقوفة على الشعائر .

أما المقربون للأشراف فكانوا يعملون على الأساس نفسه فمثلا فى الضياع الجنازية الكبيرة مثل ضياع « تى » أو « فتاح حتب » كان كتّاب الحسابات للضياع يشتركون فى إدارة إقامة الشعائر وذلك بتقديم القربان الذى كان الأساس لأداء الشعائر . وكانوا نظير هذا يحملون لقب المقربين لأسيادهم مدة حياتهم ؛ ولا نزاع فى أنهم كانوا يحملون هذا اللقب بعد موتهم لتقام شعائرهم من دخل ضياع سيدهم .

« مقربو » الاشراف

ومن كل ذلك نرى أن تماسك الأسرة والنظام الاجتماعى الذى حدث فى الضياع العظيمة ، كان يدور حول إقامة شعائر المتوفى .

تمثيل الأسرة على جدران المقابر فى عهد الأسرة السادسة

إن النظام الذى ظهر به أفراد الأسرة على جدران المقابر فى عهد الأسرة السادسة يدل على أنه قد حدث فيها تطور يساير مبادىء سلطة الزوج والأب والابن الأكبر من بعده ثم إخوته الذكور بعد وفاته . فنجد أن إقامة شعائر المرأة تشترك مع إقامة شعائر زوجها ، فتكون شطرا آخر منها . او تكون وحدة معها . مثال ذلك أن « سش سشات » كبرى بنات الملك وزوجة « نفر سشم فتاح » كان لها مائدة قربان صغيرة موضوعة تحت مائدة قربان زوجها الكبيرة الحجم ، وقد جلست أمام مائدتها متربعة على الأرض مطوقة بذراعها ساق زوجها كأنها ابنته الأصلية ، وعلى الرغم من أنها البنت البكر للملك فإنا نشاهد أن إقامة شعائرها قد اندمجت فى شعائر زوجها بصفة ثانوية (1) وعلى العكس من ذلك نرى أن ثلاث أميرات لمقاطعة « زوف » كانت كل منهن ممثلة وهى جالسة على مائدة قربان واحدة مع زوجها مرسومة بحجمه (2) والظاهر أن كبرى البنات كانت تقوم بدور فى إقامة شعائر أمها إذ نجد أن كبرى بنات « خنت كا » قد مثلت حاملة القربان لوالدتها التى مثلت جالسة وحدها أمام المائدة . وهذا الدور بذاته قد لعبته كبرى البنات فى عهد الأسرة الخامسة .

كبرى البنات تقدم لوالدتها القربان

على أننا نجد نساء لم يمثلن فى قبور أزواجهن وعلى الأخص فى عهد

---

(1) Capart, Rue de Tombeaux, I, p.p. 63-74.
(2) Davies, Deir-el Gebrawi, II, p. 19 etc.

الفرعون « بيبي الأول » كزوج الوزير « عنخ مـا حور » (1) . وربمـا كان السبب فى ذلك أنها بنت منسوبة إلى الأسرة المالـكة وأن إقامة شعائرها من أجل ذلك تابعة لإقامة شعائر الملك .

وكان رئيس الأسرة فى عهد الأسرة السادسة هو الأب ، وبعد وفاته يحل محله الابن الأكبر وهـذا يفسر لنا السبب فى تمثيل الابن الأكبر على مقربة من أبيه ، بطريقة تميزه بجلاء عن إخوته الذكور وأخواته الإناث ؛ فيشاهد قابضاً على عصا والده (2) أو يتبعه وهو ممسك بيـده ، أو يرسم بجانبه بهيئة تشعر بالاحترام ، وفى الغالب يمثل واقفا بين عصا والده وساقه أو على رأس إخـوته الذكور والإناث فى وضع يظهره كأنه أرفع منهم ومن أمه ذاتها مقاما (3) ويصبح الابن الأكبر على أثر وفاة والده رب الأسرة. وقد ذكرنا أن أم « رع ور » قـد مثلت واقفة أمامه فى هيئة تشعر بالاحترام وهو جالس ، ولاشك فى أن خضوع الأم لسـيادة ابنها الأكبر كانت من أهم التطورات التى تشاهد فى تماسك الأسرة ووحدتها وقد أخذت هذه الظاهرة تتجلى بارزة فى عهد الأسرة السادسة .

مركز الابن الأكبر فى مناظر تمثيل الاسرة يشعر بسيطرته على أمه الارملة

والواقع أنه منذ الأسرة السادسة حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة كانت الأم ترسم غالبا جالسة على الأرض عند قدمى ابنها (4) . وعلى الرغم من أن الأم كانت تحفظ لنفسها كل سـلطان الأم ، فإنها كانت من الوجهة الشرعية خاضعة لسلطان الزوج أو بعبارة أخرى كانت على قدم المساواة مع أولادها اللهم إلا الابن الأكبر الذى كان يمتاز فى الحقوق ، لأنهـا

(1) Capart, Une Rue de Tombeaux I pl. XXXIV (2) Mar. Mast. E. 1-2 p. 376 (3) Davies, Deir-el Gebrawi I, p.p. 8 etc.
(4) Gunn, Cemetery of Teti II, pl. 54.

بعد وفاة زوجها ستكون تحت إشرافه . وأظهر صورة تمثل لنا ذلك هي صورة أسرة أمير مقاطعتي « زوف » و « تاور »[1] ويشاهد فى مقبرة الوزير « مرى »[2] وفى مقبرة « فتاح شبسس » أن الزوجة ممثلة بحجم صغير جدا راكعة عند قدمى زوجها ، رغم أنهما أميرتان من دم ملكى ، ومثلهما غيرهما من نساء عظماء القوم . والقاعدة العامة هى أن الزوجة كانت تمثل صغيرة بالنسبة لزوجها فى كل أوضاعها . ولكن أحيانا نشاهدها ممثلة فى حجم الزوج . وإذا فحصنا الأوضاع التى تكون فيها الزوجة مماثلة للزوج فى حجمه نلاحظ أن ذلك لا يكون إلا فى المناظر الخاصة ، أما فى معظم المواقف الرسمية فإن صورة الزوجة تصغر ، وتتضاءل ، بجانب صورة زوجها . على أننا لم نصادف إلا أمثلة قليلة رسمت فيها بحجم زوجها فى المواقف الرسمية ؛ فزوجة أمير ادفو « كارا بيبى نفر » قد رسمت بجوار زوجها بحجمه تماما وهو ممسك بيده عصا الامارة وفى منظر آخر نجدها مرسومة بحجم صغير واقفة تحت عصاه[3].

الزوجة تمثل بحجم زوجها فى غير المناظر الرسمية

ويظهر أن النساء للآتى كن يرسمن بحجم أزواجهن كن كلهن يحملن لقب « شبست نيسوت » (شريفة ملكية) . ويلاحظ أن النساء اللاتى يحملن هذا اللقب كان لهن الحق فى أن يستولين على إقطاع والدهن وينقلنها إلى خلفهن . وقبل أن نختتم موضوع تمثيل الأسرة فى الأسرة السادسة يجدر بنا أن نلفت النظر إلى أسرة حاكم مقاطعة « وازيت » (العاشرة) التى كان على رأسها « مرى عا » . إذ كانت زوجته « إسى »[4] قد مثلت عدة مرات

(1) Davies, Deir-El Gebrawi, 1, p.p. 8. (2) Mar. Mast. E. 16.
(3) Sethe, Urkunden, IV, 13 (New Ed.)
(4) Davies, Deir el Gebrawi, t. II, pl. III, V, VII, XI, XVIII.

بحجم زوجها وهي واضعة يدها على كتفه أو حول وسطه مستقبلة معه خضوع أفراد الأسرة . ولكن المدهش في هذه الأسرة أنها المثال الفذ المعروف لدينا في الدولة القديمة الذي نرى فيه أن الرجل كان له خمس زوجات شرعيات غير « إسى » ، وكان لكل منهن أولاد من « مرى رع » الأب . ومن ذلك نفهم أن « مرى رع » كان له حريم على غرار حريم الملك ، من زوجات شرعيات ، وليس من بينهن إلا واحدة تحمل لقب الشرف ؛ وقد امتازت بأن مثلت بجانب زوجها ؛ أما البقية من نسائه فكن واقفات يقدمن الخضوع لهما . وقد مثلت هاتيك النسوة بعد أولادهن بحجم بناتهن وأصغر من أولادهن الذكور . ومنذ ذلك العهد نفهم المركز الذي كانت تشغله الزوجة العظيمة بتميزها في الرسم عن بقية نسائه وأولادهن.

تعدد الزوجات

ويتضح مما سبق أن تمثيل أفراد الأسرة في عهد الأسرة السادسة وفي العصور التي قبلها كان يجرى حسب مركز كل منهم في الاسرة فهو يماشي المركز الشرعي الذي كان يستمتع به كلٌّ في محيط الأسرة .

البنوة في عهد الدولة القديمة

بدهيٌّ أنه عندما يدلى أحد كبار العلماء ممن يعتد بقولهم برأى في موضوع ما ، ينفذ رأيه إلى قلوب الناس بقوة ويتهالك تلاميذه على اتباعه والاحتفاظ به وإن كان باطلا لاظل له من الحق ؛ وقد يظل هذا الرأى متناقلا عدة أجيال إلى أن يتصدى له من عنده الشجاعة والجرأة لدحضه وهدمه من أساسه . وليس نقضه بالأمر الهين السهل ، فلا بد من الصبر والأناة والحكمة حتى يصل المحقق إلى إثبات رأيه ، لأن نزع الرأى القديم من الأذهان وإحلال رأى جديد صائب مكانه من أشق الأمور في التنفيذ .

والأمثلة على ذلك فى التاريخ كثيرة . والآن لدينا مسألة من مسائل الاجتماع المصرى القديم من هذا القبيل ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ؛ وربما كان سبب انتشارها والتمسك بها هو غرابتها بالنسبة لمسائل الاجتماع الإنسانية . تلك الفكرة هى سيادة الأمومة على الأبوة فى نسبة الأولاد . إذ اعتقد بعض العلماء العظماء فى الآثار المصرية أن الابن كان ينسب إلى أمه فى معظم الأحوال ويرون فى هذا أثرا من آثار سيادة الأمومة فى مصر ؛ وبذلك يكرر هؤلاء العلماء أن الوراثة عن طريق فرع الأم أقرب من الوراثة عن طريق فرع الأب ، وعلى ذلك يكون أولى الناس بالأشراف على تربية الولد هو خاله لا والده . وهذا الرأى يرتكز فى الواقع على متون قليلة جدا قد التقطت من بين كل نصوص التاريخ المصرى . وقبل أن نفحص عن هذا الموضوع فحصا دقيقا علميا نورد هنا ما قاله المبرزون من علماء الآثار المصرية فى هذا الصدد .

آراء العلماء فى نسبة الاولاد للام

أولا : يقول الاستاذ « إرمن » (1) : « يشاهد فى نقوش مقابر الدولة القديمة غالبا ، بجانب اسم الزوجة ، ذكر اسم أم المتوفاة على حين أن اسم الوالد لا وجود له فى العادة ؛ وفى كثير من الأحيان يذكر نسب المتوفى من جهة والدته لا من جهة أبيه » . ومن المدهش أن المؤلف لم يذكر المصدر الذى استند فيه على هذا الرأى . وسنثبت بالبرهان أن الأمر كان على النقيض فى عهد الدولة القديمة .

ثم يقول : « وفى عهد الدولة الوسطى نجد فى أحوال كثيرة فى الأسر الشريفة أن الابن لا يرث والده ، بل ابن البنت البكر هو الذى

---

(1) Erman. Ægypten p.p. 182-4

تئول إليه الوراثة ، وكذلك فى عهد الأسرة التاسعة عشرة كان والد الأم هو الذى على ما يظهر المشرف الطبيعى على الطفل . وإذا حدث أن الشاب كان له مستقبل باهر ، فإن الذى يستمتع بذلك هو جده من جهة أمه » . وقد أورد المصادر الآتية(1).

ثم يقول : « ومع ذلك نجد الابن الأكبر يرث والده . ونرى فى كل العصور أن الأب يرجو أن يرثه ابنه فى وظائفه ، وكذلك كان الابن يسهر على إقامة شعائر والده ، وكان الملك يرى أنه واجب عليه أن يجعل الابن وارثا لأبيه . وكانت إقامة الشعائر واجبة للأب ولكل الأجداد .

ثانيا : يقول الأستاذ موريه(2) « إن المرأة مع ذلك لم تفقد سلطانها أو امتيازاتها القديمة . فنجد أن الاولاد ينسبون غالبا إلى أمهاتهم أكثر مما ينتسبون لآبائهم وفى بعض الاحوال يكون الخال هو المشرف على أولاد أخته كما هو الشأن فى الجماعات التى تسود فيها الامومة » . وفى صفحة ١١١ من الكتاب نفسه يقول : كل طفل مصرى يعلن أنه ولد من الام كذا ، ويندر من ذكر اسم والده ، والواقع أن نسبة البنوة للام قد بقيت من هذا الماضى المتوغل فى القدم ، حتى بعد أن أصبحت سلطة الاب ووراثته أمرا ثابتا لا مراء فيه (3) » .

ثالثا : يقول الأستاذ « برستد » أن قانون الوراثة المتبع كان للبنت الكبرى ، ولكن يمكن تغيير ذلك بوصية ، وعلى ذلك يعتبر العقار الذى جاء من جهة الأم هو الأقرب وأن الوصي الطبيعى على الولد هو

(1) Pap. Sallier, 2, II, 3. & Pap. Anstasi 3, 6. & L. D. III, 12 d.
(2) Moret. Le Nil p. 318
(3) Br. Histoire d'Egypte trad. Fra. I, p. 86.

جده من جهة أمه لا والده الحقيقى » . وهنا ختم الاستاذ « برستد » كلامه ، غير أنه لم يذكر السند الذى ارتكز عليه فى اثبات قوله هذا . والواقع أنه لا يوجد فى كل ما لدينا من النقوش متن واحد يدل على ان البنت البكر قد ورثت أملاك والدها مفضلة على الابن .

ومن كل ما سبق يتضح أن الوثائق الوحيدة التى ذكرت فى هذا الصدد ترجع إلى عهد الدولة الحديثة ، وهذه بلا شك وثائق متأخرة لا يمكننا أن نتلمس فيها أى أثر لقدم هذه الفكرة . على أن الوثائق التى ذكرها « إرمن » ليس لها مناسبة قوية فى موضوعنا . فأى شيء يمكننا أن نستخلصه من متن ورقة « سلييه » الأدبية التى جاء فيها أن جداً من جهة الأم كان يتمتع بنجاح حفيده فى سلك خدمته الحكومية . أما ورقة « انستاسى » فإن المؤلف يحبذ فيها صناعة الكاتب ويحقر مهنة سائق العربة . وعلماء الآثار يترجمون الفقرة التى يعنيها بما يأتى :

« فكر فى أن تكون كاتبا ، لتقود كل العالم . تأمل إنى إحدثك عن تلك الحرفة التعيسة وأعنى قيادة العربة ، فإنه قد قبل فى المعسكر احتراما لجده من جهة أمه ... أى لأنه كان من أسرة عريقة . فماذا نستنتج من ذلك خاصا بالبنوة من جهة الأم ؟ على أن ترجمة المتن مشكوك فيها إذ نجد أن « مسبرو » يترجمه بما يأتى :

وعند ما التحق بالمدرسة (الحربية) بوساطة جده من جهة أمة ... (1)

أما فى متن دنكميلر جزء ٣ صفحة ١٢ فإنا نجد فيه أن رجلا من عهد الدولة الحديثة يقيم قبراً لجده من جهة أمه . حقا إن هذا المتن هام ، ولكن

(1) Du Genre Epistolaire, p. 42.

ما الذى نستخلصه منه غير ورع حفيد وعطفه على جده من جهة أمه ؟ وكل ما يستنبط من هذا المتن هو أن القرابة من جهة الأم كانت موجودة فى هـذا العصر فحسب . وأول ما يمكن تقريره فى هذا الموضوع أن كل استنتاجات المؤرخين الذين اقتبسنا آراءهم هنا فيما يختص بالدولة القديمة خاطئة . أعنى بذلك قولهم إن المصرى فى هذا العهد كان على وجه عام يعرف والدته أما والده فينكره فى معظم الأحوال . ولكن الواقع يثبت ما ينقض هذا الزعم من أساسه . إذ دلت الإحصاءات التى عملت فى أنساب الأسر الرابعة والخامسة والسادسة أن فى (1) ٩٢ نسباً من غير الأسرة المالكة ، يوجد من بينها ٤٤ نسباً ذكر فيـه الأب والأم على السواء و ٣٧ نسباً فضل فيها نسب الأب على الأم و ١١ ذكر فيها نسب الأم فقط .

وإذا فحصنا عن الانساب التى يرجع عهدها إلى ثلاثة أجيال فى قوائم الأنساب التى نحن بصددها فإنا نجد عشرة منها تساوى فيها النسب للأب والنسب للأم وعلى الأخص أنساب مقاطعة امراء « زوف » ومقاطعة « تاور » و « قوص » فنجد أربعة يذكر فيها الجد من جهة الأب ، والاب ، والام ، والأولاد ، وأربعة لم تذكر إلا النسل من الاب للابن ، ولا يوجد إلا ثلاثة لم يذكر فيها نسب الأب ، واحد منها فى نهاية الأسرة الرابعـة وبداية الأسرة الخامسة ، وهـو نسب « زوز ساويس » نساجة القصر الملكى (2) فقد ذكرت لنـا خلفها : أى أولادها وأحفادها . ونسب آخر فى عهـد الأسرة الخامسة وهو للوزير « بخنوكا » إذ نجد اسم أم الوزير وزوجته

---

(١) جمع هذه الانساب الاستاذ بيرن فى كتابه . (Hist. Des Institutions vol. III, p. 401 - 418.) واستخلص منها هذه الحقائق .

(2) Excav, at Giza, I, p. 104 etc.

وأولاده . وأخيرا فى عهد الأسرة السادسة نرى أن الوزير « مرى » يعرفنا اسم والدته وأولاده . وهذه هى الأنساب التى يمكننا أن نرى فيها عنصراً للأمومة ، ولكن الواقع أنه لا يوجد واحد من بينها يثبت تناسله من جهة الأم ، على أن الخال لم يذكر إلا فى نسب واحد وهو نسب « حتيا » (1) « زوج بيبى عنخ » أمير قوص ولكن « حتيا » ووالديها لم يذكرا إلا فى مقبرة زوجها « بيبى عنخ » الذى ذكر لنا عدداً من إخواته وأقاربه وخلفه وسلفه .

وعلى ذلك نكون فى مأمن من الخطأ إذا عكسنا النتيجة التى وصل إليها علماء الآثار المصرية وقلنا : إنه فى عهد الدولة القديمة كانت تحفظ مكانة عظيمة للأب والأم اللذين كانا فى أغلب الأحيان معروفين . هذا على أن الأب والجد من جهة الأب كانا يذكران غالباً وحدهما ، ولم تذكر الأم وحدها إلا نادراً عند عدم وجود أب ، والجدة من جهة الأب لم تذكر إلا نادراً جداً ، ولكن لم نشاهد قط أن البنوة كانت تنسب لفرع الأم .

وقد ظهر مما سبق أن الابن الأكبر كان رئيس الأسرة بعد وفاة والده ؛ ولكن البنت الكبرى لم يكن لها شأن كبير يذكر ، وكانت الزوجة تحت سلطان ابنها الأكبر بعد وفاة زوجها فى عهد الأسرة السادسة ؛ ولذلك يتبين فى كل المقاطعات أن الوراثة تكون كالبنوة تتبع فرع الأب . والآن نتساءل أين سيادة الأمومة فى البنوة ، ومن أين أمكن علماء الآثار أن يكشفوا أثراً لنسب البنوة للأم ؟ والواقع أن سبب هذا الخطأ الذى وقع فيه علماء الآثار هو الأخذ بالظاهر دون التعمق فى البحث عن الأسباب

(1) The Rock Tombs of Meir, IV, p.p. I, etc. & IV, pl. IV, V, VII, IX.

وبخاصة فى مقاطعة « زوف » إذ نجد أن الأمير « زوف شماى » قد استولى من والدته على المقاطعة المذكورة وكان يحكمها قبله جده من جهة أمه وهو « رع حم إسى » . ولكن فحص هذه الوراثة قد أظهر أنها لا تخرج عن تطبيق دقيق طبيعى لقانون الوراثة فى فرع الأب وذلك أنه فى أوائل الأسرة السادسة وقد ورث « هنوقو خيتيتا » ومن بعده أخوه « رع حم إسى » إمارة هذه المقاطعة ؛ وكان الأخير هو الابن الأكبر لأن ابنه « إسى » كان يلقب « الشريف الملكى » (شبسس نيسوت) ، وهذا اللقب كان لا يحمله إلا ولىّ عهد المقاطعة . والظاهر أن النسل من الذكور قد انقطع ، لأن مقاطعة « زوف » آلت إلى أمير مقاطعة طينة « إبى » زوج «رع حم» بنت «رع حم إسى» . ولا شك فى أن تلقيب « إبى » بأمير مقاطعة « زوف » يرجع سببه إلى أن زوجته قد ورثت هذه المقاطعة . ومما لا شك فيه أن « رع حم » لا يمكنها أن ترث المقاطعة إلا لسبب عدم وجود الوارث الأكبر ، هذا إلى أنها من جهة أخرى كان لزامًا عليها أن تسلمها إلى زوجها « إبى » بصفته مشرفا على أملاكها حسب القانون المصرى ، فأخذ فى يده سلطة الأمير على المقاطعة ، ومن هنا يتضح أن الأميرة « رع حم » قد نقلت مقاطعة زوف إلى أسرة أمراء طينة

وليس هناك من ريب بعد البحوث التى أدلينا بها فى موضوع الأسرة فى أن الوراثة والبنوة وإقامة الشعائر كلها على حد سواء كانت مرتبطة بنسل الأب فى عهد الدولة القديمة .

والمتن الرئيسى الذى اتخذه علماء الآثار اساسًا لنظرية البنوة يرجع تاريخه إلى الأسرة الثامنة عشرة أى لا يمتّ بصلة إلى الدولة القديمة فى شىء . وهذا

المتن هو نقوش «بحرى» [1] وملخصه أن «أحمس» بن أمه «إبانا» ووالده «بابا» وكان « بابا » هـذا ضابطا ، وقدْ أصبح احمس بدوره ضابطا فى سفينة والده ثم درج فى الرقى حتى أصبح أمـير بحر عظيما . وكان من الأبطال الذين حاربوا ضد الهكسوس ، ولم يكن يحمل لقب شرف ، ولـكن الملك أنعم عليه بهبات عقارية عظيمة . وقد رزق ثلاثة أطفال : ولدين وابنة أسمها « قم » ، وقد تزوجت من « اتفرونا » مربى الأمير « وزمر » (ابن تحتمس الأول ؟) فأنجبا ولدا اسمه « بحرى » أصبح فيما بعد ضابطا فى القصر ، ومنح لقب الشرف ، وتقلب فى عدة وظائف سامية . وقـد أظهر فى نقـوش قبره بوضوح نسبه من جهة أمه وزوجته . والسبب فى ذلك ظاهر هو أن « بحري » لم يكن له إلا جدّ واحـد عريق فى النسب وهو « أحمس » والد أمه فانتسب إليه للفخر به لا أقل ولا أكثر ولما كان قد حظى بلقب الشرف فى أيامه الأخيرة فإنه فاخر كذلك بأصل زوجته ذات المجد التليد المؤثّل . ويبدو للفاحص المدقّق أن لا علاقة لهذا بالأمومة أو البنوة من جهة الأم ، فلـكلّ أمر ملابساته وظروفه .

سبب نسب «بحرى» لامـه

---

(1) Griffith, Tomb of Paheri, p.p. 7-9.



« وب إم نفرت » يقدم لابنه « إبى » نص الوصية (انظر ص ٥٢٣)
والشهود الذين حضروا توقيعها

Abréviations

Annales du Service des Antiquités de l'Egypte (Ann. Ser. Ant.) (Ann. S. A.)

Bulletin de l'Institut français d'Archéologie Orientale (Bull. I.F.A.O.) (B. I. F. A. O.)

Journal of Egyptian Archæology (J. E. A.)

Proceedings of the Society of Biblical Archæology (Proc. S. B. A.) (P. S. B. A.) or (Proc. Soc. Bib. arch.)

Recueil des travaux relatifs à la philologie égyptienne et assyrienne... (Rec. Tr.)

Zeitschrift für Ægyptische Sprache und Alterthumskunde. (Z. A. S.) or (A. Z.)

Mémoires de l'Institut Egyptien (Bull. I. Egy.)

Mémoires de la Mission francaise d'archéologie du Caire. (Mém. Miss. du Caire)

Breasted, Ancient records of Egypt. (Br. A. R.) or (A. R.)

Pryr. = Sethe, Pyramiden Texte.

H. = Hérodote.

L. D. = Lepsius Denkmäler

Agr. A. E. Hart. = Hartmann, Agriculture of Ancient Egypt.

Pirenne = Pirenne, Histoire des Institutions de l'Ancienne Egypte.

W. M. = Wilckinson, Manners and customs

Comptes-Rendus de l'Académie des Inscriptions (C R. Ac. Insc.)

فهرس (الجزء الثانى)

الخامسة ـ ٥٨ . الاجراءات القضائية ـ ٦٣ . اجراءات محكمة الستة العليا ، قانون العقوبات ـ ٦٥ . محكمة المقربين ، مقضاة الاشراف .

٦٧ . مصادر فصل نظام الحكم والقضاء :

٦٨ ثروة مصر الطبيعية ومنتجاتها :

٦٨ . الزراعة : الأشجار الكبيرة ـ ٦٩ . السنط ، النخيل ـ ٧٠ . نخيل الدوم ، الجميز ـ ٧١ . البرساء (اللبخ عند العرب) ـ ٧٢ . شجرة النبق ، شجرة الأثل ، شجرة الصفصاف ـ ٧٣ . شجر المخيط ، أشجار التين ، الهجليج أو تمر العرب ـ ٧٤ . الاخشاب الأجنبية ـ ٧٥ . الأبانوس « هبنى » ، البخور والروائح العطرية .

٧٦ . النباتات ذات الالياف : الغاب أو البوص ـ ٧٧ . السعد وحب العزيز ، البردي ، البشنين ، النباتات الطبية .

٧٨ . الحبوب التى كانت تزرع فى مصر : ٨٠ . الخضر ، الفول ـ ٨١ . العدس ، الحمص ، البامیا ، الفاقوس ، البطيخ ، الكراث ـ ٨٢ . الكرفس ، الحس ، البصل ـ ٨٣ . الثوم ، التوابل ، الكزبرة ، الكراويا ، الينسون ، الكمون ، اشجار الفاكهة ـ ٨٥ . الرمان ـ ٨٥ . زراعة نباتات الألياف الكتان ـ ٨٦ . زراعة القطن واستعماله فى مصر ـ ٨٧ . النباتات التى تستعمل فى الصباغة ـ شجرة الزيتون وزيتها ـ ٨٨ . نبات البردى ،

٩٠ . زراعة البساتين : ٩٣ . الآت الفلاحة : ٩٥ . المحراث ، المحشة (المنجل) . ٩٧ . طرق الزراعة : ١٠٠ . صيد الحيوان وتربيته :

١٠٠ . لحوم الصيد : ١٠١ . فصيلة الأيائل ، عشيرة الظباء ، المها ـ

١٠٢ . المؤذر أو الديشون أو المهاة الوضيحى ، التيتل ١٠٣ . غزال آدم ، غزال إزابل « جسا » ، الوعل أو البدن أو تيس الجبل — ١٠٤ . الكبش البرى (مفلون) ، الماعز ، العنز الأهليـة ، الزرافة — ١٠٥ . الثعلب ، الأرنب الجبلى . ١٠٥ . الحيوانات التى تصاد لجلودها أو فرائها : الفهد ١٠٦ . العسبنت أو فرس النهر . الذئب (ونش) ، الفيل ، وحيد القرن أو الحريش . ١٠٧ . الحيوانات التى تصاد دفاعاً عن النفس أو التسلية : الأسد والبؤة ، التمساح — ١٠٨ . الصل أو الثعبان

١٠٨ . كلمة عامة عن المراعى وتربية الحيوان :

١١٠ . الحيوانات التى كانت تنتخب لترويضها وتربيتها : ١١١ . الخنزير ١١٢ ، الضبع ، الدواجن — ١١٣ . الدجاج — ١١٤ . البيض ، النحل وتربيته : ١١٥ . الحيوانات التى كانت تربى لمنتجاتها الصناعية : الغنم — ١١٧ . الحمار — ١١٨ . الثور ، الحصان ، الجمل

١١٩ . الحيوانات التى تربى لمساعدة الإنسان وحمايته : الكلب — ١٢١ . القطة — ١٢٢ . النمس المصرى (أو فأر فرعون) ، القرد

١٢٣ . الرفق بالحيوان والعناية بتربيته : ١٢٤ . الحظائر — ١٢٥ . العناية بأجسام الحيوان — ١٢٧ . أمراض الحيوانات — ١٢٨ . معاملة الحيوان برفق — ١٣٠ . تعداد الحيوان

١٣١ . أسماك النيل والبحيرات : ١٣٢ . (١) لاطس أو القشر ، (٢) البلطى أو المشط ، (٣) البورى ، (٤) القنومة ، ١٣٣ . (٥) القرموط ، — (٦) الشال — (٧) الشلبة — (٨) القفاقة — (٩) البنى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٣	موكل	موكلة
١٠	٦	ألقاب	ألقابا
١٤	١	الرئسية	الرئيسية
٤٧	٨	آخريين	آخرين
٥٧	١	مودع	مودعة
٦٣	٩	وضوع	وضوح
٦٦	الهامش	لقاضى	لقاض
٦٧	٦	أهمـا	أهمها
٧٢و٧٣	٢ و٤	عشر	عشرة
٨١	١	هردوت	يقول هردوت
١٠١	٦	مقبرة مير	مقبرة بمير
١٠٩	٢	ثورا	ثـور
١٢٥	١٦	أوساط	أواسط
١٤٠	١	الفعر	العفر
١٤٠	١٧	أن	أنـه
١٤٧	٨	كلبشا	كلبشة
١٤٨	١٢	تافـا	طيفـة
١٥٢	١١ و١٢	الديوريت	الدولوريت
١٥٣	٧	خطاب له	خطاب منه
١٥٤	٤	وتـكون	تـكون
١٥٩	١٣	أسمرا	أسمر
١٦٣	١٦	براميـا	البرامية
١٦٣	١٧	شايت	شيت

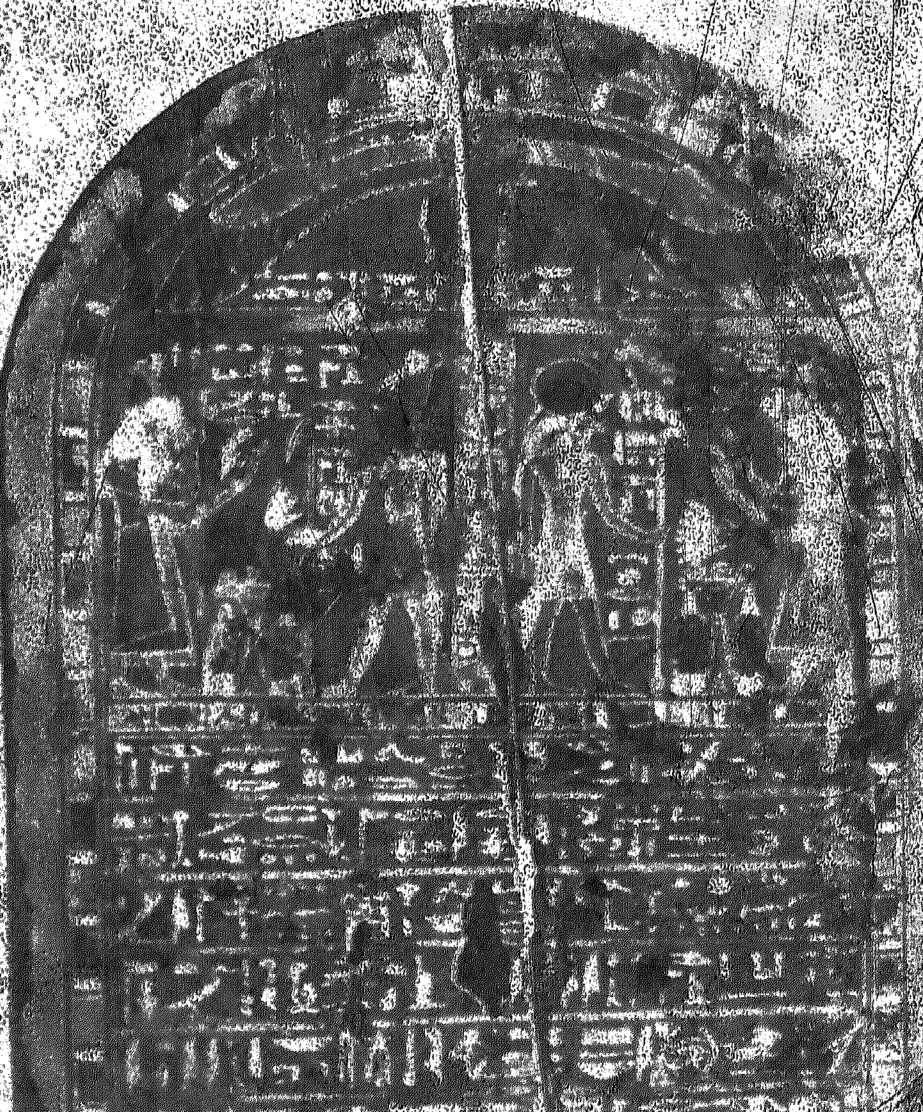
الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٤	١٢	همر	وادى الهمر
١٦٤	١٢	الفطيرة	فطرة
١٦٥	٣	قطع	قطعـا
١٧٤و١٩٧	١١و١٨	أدفينا	دفنـة
١٨٦	١٤	عصرنا على	عصرنا إلا اذا احتوى على
١٩٧و١٩٨ و٢٢١	١٨و١٦ و٦	نقراش	نوكراتيس (كوم جعيف)
٢٠٠	٧	مدينة	مدنية
٢٠٠	١٧	الذهب	الفضة
٢٢٤	١٩	وكان	كان
٢٣١	١	كان يقام	كانت تقام
٢٤١	٩	صندوق صغير	صندوقا صغيرا
٢٥٣	٩	استعملت	استعمل
٢٥٢ و٤٩٥	١٧ و٧	محازاة	محاذاة
٢٥٥	٢	مقطوع	مقطوع به
٢٦٣	١١	ورجال	ورجالا
٢٦٧	١١	العامى	العاصى
٢٨٧	١	كوضع	وضع
٢٨٧	١	أن	كان
٢٨٧	٧	بئر عمودى	بئر عمودية ...
٢٩٢	الهامش	الحجرتان اللتان	الحجرتين اللتين
٢٩٤	٤	فان أصلح	فان ما أصلح
٣٠٤	١٧	لأحد	... .
٣٠٧	٨	نستطيع	نستطع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣١٩	٦	فاحم	فاحما
٣١٩	١١	يكونا	يكون
٣٢٢	٤	أن	.....
٣٢٥	١٨	١٥ سم	٤٠ سم
٣٤٦	٥	سوار	سوارا
٣٥٦	٨	ذراعا	ذراع
٣٦٠	١٤	كان	.....
٣٦٣	١٣	فيمه	فيه
٣٧٨	٧و٩	منها	منهما
٤٠١	٨	أيات	أياتا
٤٠٩	الهامش	سلما	سلم.
٤٣٩	١٣	كانوا	كان
٤٦١	١٩	الذى	الذى لم
٤٧٨	٢	نفسيهما	أنفسهما
٤٨٧	٢٠	على نفوذ	نفوذه على
٤٨٩	٢	هيرا كنبوليس	هركليو بوليس
٤٩٤	١٤	٧٠ سم	١٧٠ سم
٤٩٨	٦	استأجروها	التي استأجروها
٥١٦	١٩	الأصلى	الأصلية
٥٤٧	١٧	فيه على	عليه فى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدر الكتب ١٧٢٢ / ١٩٩٢

ISBN 977-01-2954-2



الغلاف للفنان : محمود الهندي